تارِيخ الدَّوْلةُ العرَبيَّة

مِنْ ظُهُور الإِسلاَم إِلى نِهايَةِ الدّولةِ الأَمَويَّة

ARAB **K**INGDOM AND ITS **F**ALL



يوليوس ڤِلْهَوْزِنْ

Julius **W**ellhausen

الألف كتاب (١٣٦)

تارِيخ الدَّوْلةُ العربيَّة

مِنْ ظُهُور الإِسلاَم إِلى نِهايَةِ الدّولةِ الأَمَويَّة

بإشراف إدارة الثقافة العَامة
بـوزارة التـربيَـة وَالتعـلِيم

الألف كتاب (١٣٦)

تارِيخ الدَّوْلةُ العرَبيَّة

مِنْ ظُهُور الإِسلاَم إِلى نِهايَةِ الدّولةِ الأَمَويَّة

تأليف المستشرق الألماني

يوليوس ڤِلْهَوْزِنْ

نقله عن الألمانية وعلق عليه

دكتور محمَد عبد الهَادي أبو رِيدَه

بجامعة القاهرة والجامعة الليبية

راجع الترجمة

دكتور حسَين مؤنِس

بجامعة القاهرة والمعهد المصري بمدريد

نشرته

لجنة التأليف والترجمة وَالنشر

القاهرة سنة ١٩٦٨

هذه ترجمة كتاب:

Das Arabische Reich und sein Sturz

تأليف

von

Julius Wellhausen

الطبعة الثانية

١٩٦٨

محتويات الكتاب

صفحة

كلمة عن مؤلف الكتاب

يوليوس ڤِلْهَوْزِنْ: عالمٌ ألمانيٌّ مبرِّز في ميدان الدراسات المتعلقة بالكتاب المقدَّس، بقسميه القديم والجديد، وباحثٌ محقق في ميدان التاريخ العربي.

ولد في مدينة هامِلْن، على نهر الڤايزر (وستفاليا) في ١٧ مايو ١٨٤٤، ودرس اللاَّهوت في مدينة جوتينجن، وفي هذه المدينة نفسها، بدأ حياته الأكاديمية في سنة ١٨٧٠، مدرساً في ميدان تاريخ العهد القديم، وفي سنة ١٨٧٢ صار أستاذاً للاَّهوت في جامعة جرايفسڤالد، لكنه استقال من هذه الوظيفة في سنة ١٨٢٢، بعد عشر سنين من البحث والتفكير في العهد القديم، تبين له في أثنائها، أنه لا يستطيع فيما بينه وبين ضميره أن يظل متمسكاً بفكرة أن الكتاب المقدس وحي إلهي. فصار أستاذاً للغات الشرقية في مدينة هالّه، ثم انتقل في سنة ١٨٨٥ إلى جامعة ماربورج، وفي سنة ١٨٩٢ إلى جامعة جوتينجن، وتوفى في ٧ يناير ١٩١٨.

وترجع شهرة ڤِلْهَوْزِنْ إلى دراساته النقدية في ميدان دراسات العهد القديم وتاريخه. وهو قد كان مفكراً متحرراً، يعتد بالعقل ويعنى في دراساته بالنقد. وقد نظر في الكتاب المقدَّس خصوصاً الأسفار الأولى من العهد القديم، متبعاً منهج النقد العلمي، ودَرَسَه كما يدرس النص، فوجد أنه تنقصه الوحدة والانسجام، سواء من حيث الفكرة أو من حيث الأسلوب والعبارة، فلا يمكن أن تكون نسبته إلى من يُنسب إليهم صحيحة، أي أنه ليس وحياً إلهياً أصيلاً، بل كتبه الناس. وبهذا وصل ڤِلْهَوْزِنْ بالنقد إلى نهايته، وفتح الطريق أمام الدراسات النقدية للكتاب المقدس. ورغم أنه قد عاداه وعارضه كثيرٌ من علماء وشرَّاح الكتاب المقدس، فإنه قد تبين ما في رأيه وطريقته من الصواب، وعدل علماء

الكتاب المقدَّس عن التطرف في التمسك بالفكرة القديمة وميَّزوا بين المعنى والفكرة وباعتبارهما الوحي، وبين اللفظ والعبارة باعتبارهما للبشر.

ولما لم يستطع ڤِلْهَوْزِنْ أن يظل أستاذاً للاَّهوت، تحول من الميدان الذي بدأ حياته بالتخصص فيه، إلى ميدان الدراسات العربية، فعنى بدراسة الوثنية العربية في كتاب قيِّم عنوانه: «بقايا الوثنية العربية»[١]، واعتمد فيه خصوصاً على ما كان معروفاً في ذلك الوقت من مقتطفات كتاب الأصنام لابن الكلبي، لكنه رجع أيضاً إلى مراجع كثيرة، مكنته من جمع مادة غزيرة متنوعة في الميدان الذي أراد توضيحه؛ وعنى بدراسة الفترة المدنية من الدعوة الإسلامية، فترجم كتاب المغازى للواقدي بعنوان: «محمد (عليه السلام) في المدينة»[١]، ونشر بعض أشعار الهذليين، وعمل دراسات أخرى كثيرة، واهتم خصوصاً بتاريخ الدولة العربية، فأثمر اجتهادُه الكبير هذا الكتاب العظيم الذي ننشره في مصر بالعربية ليكون في متناول المحصِّلين والباحثين العرب، بعد أن ظل زمانا طويلاً في أصله الألماني وترجمته الإنجليزية، مرجعاً أساسياً في تاريخ صدر الإسلام عند الأوروبيين.

برهن ڤِلْهَوْزِنْ، بهذا الكتاب، على أنه مؤرخ من الطراز الممتاز. وقد أشاد العلماء بموهبته في كتابة التاريخ. والحقُّ أن هذا العالم الألماني الفذ، ظهر في ميدان تاريخ العرب مؤرخاً من نوع نادر وجديد، فلقد كتب كثيرٌ من العلماء الأوروبيين في تاريخ صدر الإسلام, أعنى تاريخ الفترة التي انتهت بسقوط دولة بني أمية، لكن ڤِلْهَوْزِنْ فاقهم جميعاً من وجوه كثيرة.

فهو بدلاً من أن يعتمد على مؤلفات المستشرقين الذين سبقوه، رجع إلى

---

(١) *Reste arabischen Heidentums*

(٢) *Muhammad in Medina*

المصادر العربية الأصلية، فقرأها قراءةً شاملةً، وتمثل مادتها تمثلاً كاملاً، وهذا بالنسبة للمؤرخ، كما لاحظ المستشرق الألماني بِكّر (C.H Becker) هو الطريق الوحيد الصحيح، لا الطريق الوحيد الممكن.

وهو قد استقبل البحث من غير تعصب، وخصوصاً من غير مجموعة الأفكار التي يقبلها بعض الباحثين مقدماً، فتفسد عليهم تصوُّر الوقائع وفهمها، وتقديرها التقدير الصحيح، وإنما كانت طريقته أن يستوحى النصوص، لا أن يحاول بكل الوسائل أن يستغلها في إثبات آراء أو فروض قد بدأ بها من عنده، كما فعل بعض من كتب تاريخ العرب وتاريخ الإسلام من المستشرقين. لكن ليس معنى هذا أن ڤِلْهَوْزِنْ أخذ النصوص على علاتها، بل هو انتفع بها في كثيرٍ من التحليل والنقد، وهو في الكلمة التي مهَّد بها لكتابه، قد وَصَفَ الروايات التاريخية العربية في شخص ممثليها الكبار وأبان عن طريقته، ثم جرى في ثنايا كتابه على منهج النقد للروايات، واختيار ما يطمئن إليه المؤرخ الحريص على الحكم الصحيح.

ومما امتاز به ڤِلْهَوْزِنْ على أسلافه من المؤرخين الأوروبيين وغير الأوروبيين الذين كتبوا عن الدولة العربية، أنه إلى جانب اعتماده على المراجع العربية، رجع إلى مراجع غير عربية معاصرة للحوادث التي تناولها وللأشخاص الذين تعرض لهم، مثل كتاب تيوفانيس المؤرخ البوزنطى، وكتاب الصلة لتاريخ ايزيدور، وبعض ما كتبه المؤرخون السريان.

وهو وإن كان غير مولع بالنقد فإنه قد اضطر على نقد بعض أسلافه من المؤرخين الأوروبيين، أمثال دوزي، وفون كريمر، وا. مولّلر. ولو نظرنا فيما خالفهم فيه، لتبين لنا الفرق واضحاً بين روحه وروحهم، وطريقته وطريقتهم.

كان ڤِلْهَوْزِنْ عالماً يتمسك بروح البحث العلمي ويعتد بالوقائع، وإذا كان بعضُ من شاركه في ميدان البحث قد جرى أحياناً وراء الخيال، أو عمد إلى

التهويل بالألفاظ والأساليب المنمقة، فإنه هو لم يلجأ إلى شيء من هذا الذي قد يحاول به البعض أن يستروا ما في علمهم من فجوات.

لقد أشار العالم الألماني ك.هـ. بكّر ــ في كلامه[1] عن ڤِلْهَوْزِنْ ــ إلى هذا الذي ذكرناه، وزاد على هذا بأن عقد مقارنةً قصيرةً بين ڤِلْهَوْزِنْ في كتابه عن الدولة العربية (الدولة الأموية)، وبين الراهب اليسوعي هـ. لامانس في كتاباته عن العصر الأموي، ولاحظ بحق أن لامانس رغم حذقه قد فشل فيما نجح فيه فلهوزن: فكتابات لامانس أشبه شيء بمجموعات من «الفيشات»، أما كتاب ڤِلْهَوْزِنْ فهو بناء ضخم؛ ولامانس يلوّن شخصياته التي تكلم عنها جزءاً جزءاً، لكنه يقع على اللون غير الصحيح، أما ڤِلْهَوْزِنْ فهو يزهد في جمع القطع الملونة الأخَّاذة، وكأنما ينحت شخصياته من الحجر الأصيل.

والحق أن ڤِلْهَوْزِنْ في كتابه الذي نقدمه اليوم لقراء العربية، قد جمع بين الجد العلمي والعمق والعدالة، إذا قورن بغيره، وهو كما لاحظ بكر، قد جمع بين روح العالم وموضوعيته، وبين روح الفنان وذاتيته. وهو يقرأ المراجع ويستوعبها استيعاباً تاماً، ويدرك جملتها بحدس عجيب، وهو من أبرع من عرفت في الاختصار الذي يلم بجوهر الموضوع، وهو يكتب مستوحياً حدسه الكلي وسط المادة التي جمعها، وهو بارع أيضاً في تصوير الأشخاص تصويراً دقيقاً لا يخلو من طرافة.

كان ڤِلْهَوْزِنْ طويل النفَس في بحثه، يسير بيانُه للحوادث كما يسير النهر الكبير، وأنت تحس تمام الإحساس، وهو يأخذك معه أخذاً قوياً، أنه حين يصل إلى نهاية النقطة التي يعالجها، لا يكون قد بقى شيءٌ تشعر أنه غير موجود، وهذا صحيح، سواء فيما يتعلق بوصف الحوادث أو بتصوير الأشخاص.

المترجم

محمد عبد الهادي أبو ريدة

---

(١) في الجزء الثاني من كتابه *Islamstudien*، ص ٤٧٤ فما بعدها.

كلمة المترجم

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله والصلاة والسلام على رسول الله وعلى آله وصحبه ومن والاه إلى يوم الدين ـــ وبعد:

فهذا كتاب في تاريخ دولة العرب، من لدن ظهور الإسلام إلى سقوط أسرة بنى أمية وقيام أسرة بنى العباس في المشرق، فهو يشمل ما يقرب من قرن ونصف من تاريخ العرب، وهذه هي فترة مجدهم الخالد، وفترة التجربة الكبرى في تاريخهم.

بيّن المؤلف في هذه الفترة كيف قامت دولة العرب العالمية على أساس الدين وقوة الإيمان به، وعلى أساس قوة الجنس العربي وخصائصه وصفاته، وكيف خالف ساسة العرب تلك المبادئ الاجتماعية والتنظيمية التي جاء بها الإسلام، خصوصاً مبدأ المساواة بين المسلمين، وكيف لم يستطيعوا التخلص من سلطان الانقسام القبلي والعصبية والقبلية، فتنازعوا، ثم خرج منهم قوم على دولتهم, واغتنم أعداؤهم الفرصة فضربوا بعضهم ببعض، وأسقطوا تلك الدولة العتيدة التي كان يمتد سلطانها من داخل أرض الصين في المشرق، إلى الجنوب الغربي من فرنسا في المغرب.

على أنه رغم سقوط هذه الدولة لأسباب كثيرة بعضها ما ذكرناه فإن عهدها كان عهد تجربة تاريخية كاملة.

في تلك الفترة ظهر العرب بوصفهم أمة، عماداً لدولة عالمية من الناحية الحربية

والإدارية، واستطاعوا بفضل شجاعتهم النادرة، وبطولتهم الفائقة، وتضحياتهم الهائلة في ميادين القتال المترامية، أن يفتحوا الدنيا وأن يقهروا الأمم واستطاعوا بفضل مواهبهم الممتازة وهدى دينهم القويم، أن يؤسسوا إمبراطورية عالمية تكونت لها شخصيتها المتميزة، ونظامها السياسي والإداري والاقتصادي؛ وتحقق ذلك كله على يد خلفاء سياسيين، وقادة عسكريين، وحكام إداريين جديرين جميعاً بأن يدخلوا في التاريخ العالمي، ويتبوؤا أرفع مكان فيه، وفي هذه الفترة نشر العرب دينهم وأسسوا الحواضر التي صارت حواضر الحياة الفكرية والدينية، دون أن يحاولوا القضاء على دين أو استئصال أمة.

في هذه الفترة نجد التجربة كاملة فيما يتعلق بجميع مظاهر حياة الدولة: كيف تنشأ وتقوى على أساس مبادئ إن خالفتها لم تستطع البقاء، وكيف تضطر اضطراراً إلى الخضوع للمقتضيات التي لا بد من مراعاتها إذا أرادت المحافظة على قوتها، وكيف تقع الفتن والثورات والحروب الداخلية بسبب قوة العناصر وضرورة الصراع بينها، وكيف يكون النجاح والفشل، ويظهر الشر والنقص، وتتجلى الخصال العالية، وتتبين الأبصار السليمة كوامن الأخطار المؤدية إلى الانهيار، فلا يمكن تفاديها، وتنفد القوانين التي تحكم حياة الدول... وهكذا.

لا شك في أن الكفاح من مظاهر الحياة على هذه الأرض بإطلاق معنى الحياة، وهو ظاهرة جوهرية في الحياة البشرية وحياة الإمبراطوريات الكبرى، وهو في الإمبراطورية العربية الأولى، قد كان بين الفكرة العليا وواقع الحياة الناقصة، بين فكرة الدولة الدينية وواقع الدولة الدنيوية، بين النعرات والمشاعر الخاصة وسلطة الدولة، بين المصالح والاعتبارات القبلية أو الفردية ومقتضيات الواجبات العامة والاجتماعية، بين القومية العربية والقوميات غير العربية التي اشتملت عليها الإمبراطورية. فلا غرابة أن يشتمل تاريخ الإمبراطورية العربية

على كثير من ضروب الفتن والمنازعات والثورات، ومن ضروب الصراع الفردي والقبلي والإقليمي وصراع الأجناس والقوميات.

ولكن كان لدولة العرب أعداء حاولوا الكيد لها من أول الأمر، وتلبسوا لذلك بكل صورة، واغتنموا له كل فرصة سانحة. وأشنع ما في الأمر أنهم استغلوا المواقف التي ما كانت تحتاج إلا إلى الإصلاح، فجعلوها سبيلا للثورة وسفك الدماء. واستغلوا الروح القبلية وما يترتب عليها من إحساسات، فجعلوا منها وسيلة لتفريق كلمة العرب وصدع وحدتهم، حتى تعذر عليهم الاتحاد، وأظهروا العطف على من حسبوا أنفسهم مظلومين، فانضووا تحت لوائهم بغية ضرب عناصر الدولة بعضها ببعض. وكانت هذه بالإجمال هي الصورة التي عليها سقطت إمبراطورية العرب الأولى ممثلة في دولة بني أمية في المشرق الإسلامي، وقامت على أنقاض مجدها السياسي والحربي العظيم دولة بني العباس، غير معتدة بالعرب، بل بجند من الأعاجم صاروا مع مرور الأيام عماد الدولة، وأصحاب الأمر فيها وفي الخلفاء أنفسهم.

لا شك أن في دراسة التاريخ وتأمله عظة وعبرة، والعظة من تأمل تاريخ دولة بني أمية يجب أن تكون كاملة وبالغة، لأن التجربة أو المحنة التي مرت بها هذه الدولة كانت كاملة أيضاً.

إن العرب أمة، أراد الله لهم أن يكونوا وسطاً ليكونوا شهداء على الناس، وهم أيضاً أمة، قد وُضعت على كاهلهم رسالة، هي رسالة الإيمان بالله الحق وبكرامة الإنسان الذي كرمه الله، واستخلفه في الأرض ليعمرها بالحق والعدل والخير والرحمة. وهم لكي ينهضوا بهذه الرسالة، لا بد لهم من أن يحافظوا على كيانهم وقوتهم، ولا سبيل إلى ذلك إلا الاعتصام بحبل الاتحاد والتعاون على البر والتقوى، لا على الإثم والعدوان. والسبب في ضرورة هذا الاتحاد أن رسالة العرب لم ترق من أول الأمر ـــ ولا تروق حتى اليوم ـــ لكثيرين من الخلق ممن

يكره العدل والحق، فعادوا العرب من حيث هم أمة، ومن حيث هم دولة، ودأبوا على محاولة كسر شوكتهم بتفريق كلمتهم وإشعال نار الفتنة بينهم. وإذا كان أحد أصحاب النظر الصائب البعيد والإحساس العربي العميق[١]، في أواخر أيام بني أمية، لما تكشف الخطر الداهم من جانب أعداء العرب، وأفلح هؤلاء في صدع بناء الوحدة العربية، قد قال هذه الأبيات:

أبلغ ربيعة في مــروٍ وإخوتهــا	أن يغضبوا قبل ألاّ ينفع الغضبُ
ما بالكم تُلْقِحون الحــربَ بينكمُ	كأن أهل الحجى عن فعلكم غُيُبُ
وتتركون عــدوّاً قــد أظلّــكمُ	ممن تأشّب لا ديــنٌ ولا حســبُ
ليسوا إلى عــرب منا فنعرفهم	ولا صميم الموالى، إنْ همُ نُسِبوا
قومٌ يدينون دينــاً ما سمعتُ به	عن الرسول ولا جاءت به الكتبُ
فمن يكن سائلى عن أصل دينهم	فــإن دينَهــم أن تُقْتَــل العربُ

فإن فكرة هذه الأبيات ستظل ــ ولا بد أن تظل ــ أما عقل العرب وأمام أبصارهم، ما داموا يريدون المحافظة على كيانهم كأمة، وما داموا يحرصون على تحقيق رسالتهم في التاريخ، وسط الصراع بين الأمم ونظم الحياة والمثل العليا الروحية والإنسانية التي يتمسك بها الناس، وما على العرب إلاَّ الأخذ بأسباب الإصلاح الذي يجعلهم منطقيين مع أنفسهم، وعلى وفاق مع أساس شأنهم التاريخي، ومع طبيعتهم وخصالهم وفضائلهم ومثلهم العليا المميزة لهم.

* * *

إن هذا الكتاب، الذي يبين لنا كل ما تقدم، هو من تأليف عالم أوروبي جليل اعتمد كل الاعتماد على المراجع العربية، وهو في بيانه للمسائل قد تابع هذه المراجع متابعة دقيقة، ونقل نصوصاً طويلة أو قصيرة ولخصها، وفي بعض الأحيان

---

(١) هو نصر بن سيار حاكم خراسان من قبل بني أمية.

فهم النصوص فهماً إجمالياً، محيطاً بجوهر الموضوع، ثم عبر بعبارة ألمانية موجزة وبحسب طريقة الألمان في التصور والتعبير. وقد يخيل للقارئ أحياناً أن تفكيره شخصي، لكنه في الحقيقة يتضمن المعنى العربي. ولذلك لم يكن بدٌّ عند الترجمة من الرجوع إلى المصادر العربية في كل شيء، ومن إعادة الكلام إلى وضعه الأصلي المباشر، ومن اختيار العبارة في ضوء النصوص الأصلية. وكل ترجمة لهذا الكتاب لا تتابع النصوص أوْ لا تستنطقها وتستوحيها ــ كما فعل المؤلف نفسه في بيانه للمسائل ــ لا يمكن أن تعبر عن الحقيقة والواقع التعبير الصحيح، بل ربما أدت إلى تحريف أو خطأ أو كانت غير مفهومة أصلاً.

وأيضاً قد عمد المؤلف في بعض المواضع من كلامه إلى الإيجاز الشديد، وأغلب الظن أنه فعل ذلك مراعاة للقارئ غير العربي الذي قد لا يحتاج في بعض الأحيان إلى التفصيل ولا إلى تصور الموقف كله، أو هو قد لا يسهل عليه تصوره، ومن أجل هذا كان لا بد للمترجم في مواضع معينة، ومن مراعاة القارئ العربي بذكر الشيء مفصلا بالقدر الذي لا بد منه، لكي تتكون في ذهنه الصورة الكاملة الواضحة للحوادث والمواقف والأشياء. وهذه الطريقة التي جريت عليها هنا، هي الطريقة التي جريت عليها من قبل، في ترجمة كتاب العلامة الأوروبي آدم متز عن الحضارة الإسلامية في القرن الرابع الهجري، والتي أعتقدُ أنها عادت على القراء والباحثين بعظيم الفائدة. وقد أشرت في العادة إلى التفصيل الذي قمت به، لا من عندي، بل معتمداً على النصوص التي أشار إليها المؤلف وأخذ منه كلامه المجمل الذي قدمه للقارئ غير العربي؛ ومن غير هذا التفصيل قد لا يكون الكلام مفهوماً. وإذا كان هناك من قد يخطر له أن يقابل بين الترجمة والأصل الألماني، فإنه في بعض المواضع سيجد الزيادة من نقطة معينة، وما عليه إلا أن يمضي قليلا ليتصل كلام المؤلف بعد التفصيل.

وأسلوب ڤِلْهَوْزِنْ في لغته الألمانية أسلوب علمي، وإن كان ليس غير رشيق في نظري. وإني لأعترف أنه قد جاء ملائماً لما أحبه من التعبير العلمي الذي لا يصل على كل حال إلى الجفاف. وهو أيضاً أسلوب صعب بعض الشيء بسبب علميته وإحكامه وتركيزه. ولم يكن بدٌّ في بعض الأحيان من ترجمة المعنى ترجمة دقيقة وافية بالغرض، دون تعنت في التمسك بالترجمة اللفظية، وخصوصاً إذا كانت الألفاظ العربية المؤدية للمصطلحات الألمانية، لم تتوطن بعد في أذهان غالبية القراء العرب، لأنها لم تتوطن بعد كمصطلحات في اللغة العربية.

لكنْ هنا شيء أحب أن أنبّه عليه: قد يلاحظ بعض القراء العرب غرابة في بعض الألفاظ أو العبارات أو صيغ التفكير والتعبير، فليعلم القارئ أن بعض ذلك يرجع إلى النصوص العربية، التي كانت أساساً اعتمد عليه كل من المؤلف والمترجم ــ ولم أشأ أن أبعد بالقارئ عن الجو الذي لا بد له عند المزيد من البحث والتحقيق من الرجوع إليه؛ أما بعضه الآخر فهو تجديد في التصوير والتعبير دعت إليه ضرورة الترجمة الدقيقة، وهو ليس عجزاً عن الأخذ بالأسلوب العادي المألوف.

وأيضاً إذا كان القارئ في مواضع قليلة، قد لا يتحرر أمامه وجه الكلام بسهولة، فلذلك مقصود من جانبي، لكي تسمح العبارة العربية بما تسمح به العبارة الألمانية من احتمالات المعنى، لأن المؤلف قد انتقل إلى جوار ربه، وهو وحده القادر على تحديد معنى كلامه التحديد الدقيق، فلم يكن بدٌّ من تفادي تصوير فكرته على وجه قد لا يكون صحيحاً.

ولقد كانت الترجمة تقتضي الاجتهاد في الاطلاع على جميع النصوص التي رجع إليها المؤلف. وقد عزّ على أن يضيع كل هذا الجهد سدى، فذكرت النصوص حيث يحتاج إليها القارئ سنداً لكلام المؤلف، وذكرتها أحياناً مكررة بغية توضيح الفكرة أو تفصيلها أو إصلاحها،

وأشرت إلى مواضع في المراجع لم يذكرها المؤلف، وإن كان قد رجع إليها[١]. وقد أردت بذلك إرضاء حاجة القارئ الباحث، وتوفير كثير من العناء الذي كان لا بد أن يحتمله، إذا أراد البحث عن النصوص، كما أردت أيضاً تشويق القارئ لمواصلة الاستفادة من النصوص في دراسات أخرى. ومما دعاني إلى ذكر النصوص أيضاً رغبتي في تأكيد سلامة الترجمة أمام من قد يعترض عليها.

وفي أثناء هذا كله صححت كثيراً من الأخطاء دون الإشارة إلى ذلك تجنباً للفضول وتطويل الكلام، وقد ذكرت أسماء الأعلام كاملة أو أكمل مما ذكرها المؤلف على كل حال.

* * *

ومؤلف الكتاب مفكر متحرر، لكنه يسرف في تحرره أحياناً، كما يسرف أحياناً أخرى في تطبيق تصوره الشخصي، فلم يكن بدٌّ من التنبيه على ذلكن ومن الرد على بعض كلامه المجانب للحق. فعلقت على ما رأيت أن إحقاق الحق يدعو إلى التعليق عليه، لكن دون أن أسرف أو أبالغ في ذلك، تاركاً للقارئ أيضاً نصيبه من النقد والتعليق.

وكذلك أحسست بعد الاطلاع على النصوص بحاجة ملحة إلى تعليق يشبه التعليق التاريخي، وإن كان إنما يمس بعض الأحكام المتعلقة بالوقائع أو الأشخاص. وكان هذا التعليق في الغالب تحليلاً للموقف أو بياناً لعناصر الحكم الأقرب للصواب؛ وكان بعضه إكمالاً وتفصيلا للموضوع لا بد منه للقارئ

---

(١) على أنه رغم الاجتهاد البالغ في البحث عن النصوص بقيت مواضع قليلة جداً أشار إليها المؤلف فجاءت الإشارة خطأ في أغلب الظن، فلم أهتد إليها.

العربي، أو تصحيحاً لا بد منه طبقاً للنصوص. وإنما أردت بهذا مساعدة القارئ على إدراك الموقف التاريخي أو الاتجاه التاريخي.

* * *

لقد تم طبع هذا الكتاب منذ أكثر من عام، لكن سفري للخارج إلى جانب ضرورة إعادة طبع شطر كبير منه، حال دون ظهوره قبل اليوم.

وهذه الترجمة العربية أصح وأدق وأصدق تعبيراً عن الموضوع من الترجمة الإنجليزية، لأني استطعت مراجعة الأصول العربية، وهو ما لم يكن أمراً سهلاً على صاحبة الترجمة الإنجليزية رغم جهدها المشكور.

وتفترق ترجمتي أيضاً عن ترجمة الزميل الأستاذ الدكتور يوسف العش التي ظهرت في سوريا. ولا شك أن أسلوب كل كاتب أمر شخصي لا معنى للمشاحة فيه، وقد تم طبع ترجمتي قبل ظهور ترجمته، ولكني وجدت عند المقارنة كثيراً من الخلاف الذي ليس لفظياً في الغالب. على أن الزميل الفاضل قد ترجم عن الإنجليزية، وهو وإن كان يراجع النصوص فقد كان أمام عقبة لم تكن أمامي، ولا سبيل إلى معرفة حقيقة كلام المؤلف إلا بالرجوع إلى الأصل الألماني في ضوء النصوص العربية.

* * *

بيَّن المؤلف كيف سقطت دولة العرب الأولى ــ وهي الدولة الأموية في رأيه ــ بسبب الصراع الداخلي والنزاع والقتال بين العرب، وكيف كان أعداؤها ــ وهم الأعاجم ــ قد دأبوا من قبل على تأليب الشعور على بني أمية، بدعوى أنهم حادوا عن مبادئ المساواة التي جاء بها الإسلام بين معتنقيه، ففرقوا بين العرب والأعاجم، وميزوا الأولين على الآخرين، ثم جاءت مطامع العباسيين فاستغلها الأعاجم، وشقوا صفوف العرب بأن اجتذبوا قوماً منهم إلى اعتناق قضية

المظلومين. وسقطت دولة بني أمية التي كانت تعتمد على العرب والعروبة، وقامت دولة بني العباس التي اعتمدت على الأعاجم من الفرس وغيرهم، على أساس مبدأ المساواة الإسلامي. ويرى المؤلف بناء على هذا، أن دولة العرب بإطلاق المعنى قد سقطت وانتهت بانتهاء حكم بني أمية، وهو لذلك عنوان كتابه هكذا: «الإمبراطورية العربية وسقوطها». ومعنى هذا أن دولة بني العباس ليست دولة عربية بل إسلامية فحسب، لكنّ في هذا تساهلاً كبيراً، لأن العباسيين كانوا عربا ولأن الأمويين كانوا مسلمين، هذا إلى أن دولة بني أمية قامت في الأندلس والمغرب من جديد، ولم يزل للعرب منذ ظهور الإسلام دولة موحدة أو دولة متفرقة. ورغم أن القيادة الحكومية، العسكرية والإدارية، في الدولة الإسلامية قد آلت إلى أجناس غير عربية، كالترك على تنوعهم، فإن العرب بوصفهم أمة لم يختفوا، وظهروا كدول بمجرد تصدع الإطار الخارجي الظاهري للأجناس الأخرى. وكانت قوة الدولة ــ أو الدول ــ العربية، على قديم الأيام وحديثها تستند إلى دعامتين أساسيتين: الإسلام كعقيدة ونظام في الحياة، وللعروبة العِرْقيّة الحضارية بالنسبة للعرب الخلص أو العروبة اللغوية والحضارية بالنسبة للأجناس التي استعربت. وقد امتزج العرب بغير العرب على مر الزمان امتزاجاً كبيراً، مما جعل للعَروبة بمعناها التاريخي والحضاري، بل والإنسان والسياسي، معنى خاصاً لا ندخل فيه هنا.

ونظراً لأن تعريب العنوان الذي اختاره المؤلف لكتابه تعريباً حرفياً، يؤدي إلى اللبس ولا يتفق مع الواقع، فلم يكن بد من اختيار ترجمة للعنوان بحسب الموضوع المحدد الذي اختاره المؤلف، وهو: تاريخ الدولة العربية، من ظهور الإسلام إلى سقوط أسرة بني أمية وقيام دولة بني العباس في المشرق الإسلامي، وهذا ما راعيته من حيث المبدأ، في ترجمة عنوان كتاب «الحضارة الإسلامية في القرن الرابع الهجري»، فقد كان عنوانه بحسب الترجمة

الحرفية هو: «نهضة الإسلام» والمقصود هو العصر الذي يقابل من ناحية الحضارة والتنظيم عند المسلمين، عصر نشأة الدولة الأوروبية الحديثة أيام حركة إحياء العلوم والنظم القديمة.

ومن أجل هذا كله وبعد تفكير طويل، اخترت للكتاب عنوان «الدولة العربية، تاريخها من ظهور الإسلام إلى نهاية الدولة الأموية»، وجعلت العنوان الألماني وترجمته الحرفية في ظهر الغلاف.

* * *

قرأتُ هذا الكتاب القيّم في لغته الأصلية، أيام دراستي في جامعة بازل بسويسره واستماعي إلى محاضرات أستاذي المحبوب الدكتور رودولف تشودى عن تاريخ العرب والأمم الإسلامية. وقد أعجبت بالكتاب في تلك الأيام لأنه أكثر من كتاب تاريخ بالمعنى العادي، فهو قد جمع بين روح العلم والفن والفلسفة وبين العناية بحقائق التاريخ ووقائعه عناية موضوعية وتصوير الأشخاص والمواقف والأحداث تصويراً فنياً رائعاً، وبيان القوانين المتنوعة والعوامل التي تحكم ظهور الأحداث وتطورها من وجهة نظر كلية، مع استقصاء العلل والأسباب وبيان النتائج التي تلزم عنها، ومع الاهتمام البالغ بوضع المشكلات وتحديدها، مما هو جدير بأن يجعل كتابه تاريخاً بالمعنى العلمي، دون أن تعوزه صبغة فلسفية من بعض الوجوه، ومع أن اهتمام المؤلف كان متجهاً خصوصاً إلى الناحية السياسية، فإنه لم يهمل الناحية الاقتصادية والإنسانية الاجتماعية.

ولذلك فإنه لما عرضت علي إدارة الثقافة بوزارة التربية والتعليم ترجمة هذا الكتاب، قبلت المهمة على ما فيها من مشقة، وكان مما رغبني في احتمالها، قلة من يجمع بين معرفة اللغة الألمانية، والصبر على متابعة المؤلفين الأوروبيين في انتفاعهم بالمراجع العربية.

وقد راجع الترجمة زميلي الأستاذ الدكتور حسين مؤنس أستاذ التاريخ الإسلامي بجامعة القاهرة، ومع ذلك فإني أعتبر أني المسئول الأول عن الترجمة، وأنا المسئول الوحيد عن التعليقات لأنها من عملي وحدي.

وفيما يتعلق بترجمة ما في الكتاب من نصوص يونانية ولاتينية، استعنت بعالمين مختصين هما: السيد الدكتور هـ. فون دن شتَيْنن، بقسم الدراسات القديمة بكلية الآداب بجامعة القاهرة، والسيد الدكتور أمين سلامة صاحب الخبرة الجيدة باللغتين القديمتين. وقد جمعت بين الاستفادة من خبرة هذين العالمين توخياً لليقين، ومع ذلك فإني إلى جانب الترجمة، قد ذكرت النصوص بلغتها الأصلية، لكي يرى فيها من يعرف اللغات القديمة ما يشاء.

وأيضاً فيما يتعلق بالنقط الملتبسة أو الصعبة من ناحية اللغة، رجعت إلى الأستاذ فون دن شتينن وإلى أستاذنا الفاضل العلامة المتواضع الدكتور روبرت ران، المستشار الثقافي بالسفارة السويسرية بالقاهرة.

فأحب أن أعبر عن شكري العميق لهؤلاء العلماء جميعاً، لصدق معاونتهم، وحسن إرشادهم، وتضحيتهم بوقتهم الثمين.

وقد قرأ الكتاب بعد تمام طبعه زميلي الأستاذ الدكتور شوقي ضيف، فلاحظ ملاحظات قيمة ستكون موضع الاهتمام، فله الشكر الجزيل.

هذا وقد اشترك معي أخي الأستاذ عبد الفتاح أبو ريدة في تصحيح شطر من تجارب الطبع، وفي إعداد مادة الفهارس المتنوعة التي زودت بها الكتاب، فله التقدير والشكر.

وأخيراً أحب أن أشير إلى المؤلف طويل النفس، قسم كتابه إلى أقسام رئيسية لها عناوينها، ثم قسم كل قسم إلى أجزاء أعطاها أرقاماً، وتكاد تكون

الجمل الأولى من كل جزء مشتملة على عنوانه وموضوعه. ولما كان الكتاب مرجعاً للبحث، لا كتاباً دراسياً بالمعنى الخاص، فقد تركت تقسيم المؤلف كما هو، ولم أتدخل بينه وبين الباحث والقارئ بإضافة عناوين تفصيلية، وإن كان ذلك قد خطر لي. وإنما أردت أن أترك الباحث والقارئ يسير كلاهما مع المؤلف ويأخذ من كلامه ما يشاء في الموضوع التفصيلي الذي يعنيه، وهذا ما جريت عليه أيضاً في كتب ترجمتها من قبل. والمهم أن الكتاب في ترجمته العربية مزود بفهارس مفضلة كافية.

أما المراجع العربية التي رجع إليها المؤلف واعتمدت عليها فهي بحسب الطبعات الأوروبية.

لقد بذلت جهدي في ترجمة الكتاب والتعليق عليه والإشراف على طبعه. ولكن نظراً لكثرة أسماء الأشخاص والأشياء وتشابهها، ولضرورة الاستعانة بالإملاء في «تبييض» هذا الكتاب الطويل، فقد وقعت أخطاء قليلة استدركتها في آخر الكتاب[1]. وإني أبعد ما أكون عن أن ادعى لنفسي كمالا أو عصمة من الزلل، فكل جهد إنساني دون الكمال، والأعمال بالنيات ولكل امرئ ما نوى. والله أسأل أن يحقق بعملي النفع، ويحسن به العظة، ويجعله خالصاً لوجهه، وهو ولي التوفيق.

بنغازي في ١٤ ربيع الثاني سنة ١٣٧٧هـ
٦ نوفمبر سنة ١٩٥٧ م

المترجم
محمد عبد الهادي أبو ريدة

---

(١) صححت الأخطاء في الطبعة الثانية هذه.

كلمة تمهيدية

إن الروايات القديمة المتعلقة بعصر بني أمية توجد حتى اليوم على أوثق ما تكون عليه عند الطبري، لأنها لم تختلط ولم تتناولها يد التوفيق والتنسيق، وهي في القسم المجيد من كتابه، أعنى الجزء الذي ظهر منذ ما يقرب من عشرين عاماً في السلسلة الثانية من طبعة ليدن. والطبري قد حفظ لنا خصوصاً قطعاً كبيرة جداً من روايات أبي مخْنَف، الراوية المحقق، فحفظ لنا بذلك أقدم وأحسن ما كتبه ثائر عربي نعرفه. وكان أبو مخنف لوط بن يحيى بن سعيد بن مخنف من أزد الكوفة، ويدل نسبه الطويل على أنه كان، من حيث نسب أبيه، من أصل نابه. والأغلب أن مخنفَ بن سُلَيم، رئيس الأزد في موقعة صفين، كان جَدَّه، وأن محمداً وعبد الرحمن ابني مخنف كانا أخوين لجدِّه. ونحن لا نعلم متى ولد أبو مخنف، ولكنه لما قامت ثورة ابن الأشعث في سنة ٨٢هـ كان في سنّ الرجال، وكان صديقاً لمحمد ابن السايب الكلبي (الطبري ج ٢ ص ١٠٧٥ و١٠٩٦). ويرجع لابن الكلبي المشهور، وهو ابن محمد بن السايب، الفضل الأكبر في حفظ كتب أبي مخنف وروايتها وتوريثها للأجيال. والطبري في العادة يذكر روايات أبي مخنف بحسب رواية ابن الكلبي لها. وقد عاش أبو مخنف حتى شهد سقوط خلافة بني أمية في دمشق، وآخر الروايات المأثورة عنه تتعلق بحوادث سنة ١٣٢هـ.

على أن أبا مخنف يذكر في بعض الأحيان رواة آخرين أقدم منه أو معاصرين له ويعتمد على رواياتهم؛ مثل عامر الشعبي وأبي المخارق الراسبي ومجالد بن سعيد ومحمد بن السايب الكلبي؛ أما في الأغلب فإنه لم يأخذ ما رواه عن أقرانه من الرواة المتقدمين، بل هو جمع رواياته من سماعه لها بنفسه ومن

السؤال عنها في مختلف مظانّها وعند كل من استقاها من مصادرها أو حضرها بنفسه من الناس. وعلى هذا فإن الإسناد الذي تقوم عليه رواياته كان لا يزال عنده شيئاً حقيقياً، ولم يكن مجرد صيغة أدبية؛ وسلسلة الرواة الذين يذكرهم هي دائماً قصيرة جداً، وهي أخيراً تتكمش انكماشاً تاماً، نظراً إلى أن المسافة التي تفصل بينه وبين الأحداث التاريخية التي روى أخبارها كانت لا تزال تقصر شيئاً فشيئاً، هذا إلى أن سلسلة الرواة تتنوع بحسب اختلاف الأحداث وتنوع الروايات الخاصة بها، بحيث نجد أمامنا طائفة كبيرة جداً من أسماء رواة نجهلهم جهلاً تاماً. وهؤلاء الرواة الذين شهدوا الحوادث لا يدركون ما يروونه إدراكاً كلياً شاملاً، بل هم يذكرون أقل الحوادث شأناً ولا يغفلون عند وصف الحادثة ذكر الأسماء المتصلة بها، وهم يجعلون الأشخاص في أفعالهم وأقوالهم في المحل الأول، كما أنهم لا يزالون في مختلف الروايات يذكرون الشيء نفسه من غير اختلاف إلا في أشياء قليلة الشأن. ومن أجل ذلك صار التقدم في الرواية بطيئاً جداً، ولكن وفرة التفاصيل من شأنها أن تعوض هذا العيب الذي في الرواية. وإلى جانب ذلك حُفظ لنا الأثرُ المباشر التي أوجدته الحوادث في النفوس وكذلك أول ما قيل عنها. ثم تجئ الصيغة الشعبية للرواية فتزيد في حيويتها. وكل الروايات تذكر في صورة حديث بين الأشخاص الذين كانت تدور حولهم الحوادث، وكل الروايات وصفٌ لمسرح هذه الحوادث. وقد ذكرتُ أمثلة تبين ذلك في بحث لي عن الخوارج والشيعة (بمدينة Göttingen سنة ١٩٠١) خصوصاً ص ١٩ و٦١ فما بعدها[١].

وقد قال مومسين (Mommsen) مرة إنه لا حاجة حتى بالنسبة لغير العلماء

---

(١) [يشير المؤلف إلى بحث يجد القارئ عنوانه الكامل بعد قليل فيما يلي. والمواضع التي يحيل القارئ إليها في أثناء كلامه عن الخوارج والشيعة هي في البحث نفسه ــ المترجم].

إلى إثبات أن روايات الأحداث إذا أخذها الراوية عن الأشخاص الذين اشتركوا فيها، هي في العادة روايات غير صحيحة، ولكن ينبغي للإنسان أن يتمنى ألاّ يسرف غير العلماء في استعمال العقل السليم. ولو أن أبا مخنف لم يكتب لخسر التاريخ خسارة كبيرة، وكيف كان يمكنه أن يسلك فيما كتب طريقاً غير الذي سلكه؟ فلم تقدم له المصادر المكتوبة مادة كبيرة يستطيع أن يعتمد عليها، وهو قد انتفع بها ما كانت في متناول يده، ولكن من غير أن يجتهد في البحث عنها وفي جعلها أساساً على نحو منظم، وأكثر ما يرويه في معرض ذكر الشواهد التي تؤيد رواياته قصائدُ وأبياتٌ من شعر الشعراء، وأهم ما صنع من حيث تقدير قيمة الروايات هو أنه جمع طائفة كبيرة من روايات متنوعة ومن أخبار عن الشيء الواحد مختلفة في مصادرها، بحيث يستطيع الإنسان أن يوازن بينها ويعرف الصحيح المؤكد منها من غيره. وأبو مخنف قد توصل بذلك إلى أن صارت الأشياء الثانوية تتوارى، لأنها لا تظهر إلا مرة واحدة، كما صارت الأشياء الأساسية لا تزال تزداد بروزاً، لأنها تتكرر في جميع الروايات. وهو يرتب الروايات المختلفة التي تتناول الشيء الواحد ترتيباً ملائماً بحيث لا يزال ما بينها من ارتباط يزداد وضوحاً. على أنه في مثل هذا الجمع للروايات لا يمكن تفادى شيء من التخير لها والتوفيق بينها، ولا يظهر هناك تناقض في النقط الجوهرية، والروايات تتضافر حتى يخرج منها إجماعٌ على ما فيها. والصورة الإجمالية التي تتكون عند الإنسان ثابتة متسقة، وليس هذا فيما يتعلق بالوقائع فحسب بل فيما يتعلق بالأشخاص أيضاً. ورغم ما في مادة الروايات المختلفة من غموض واضطراب باديَيْن فإنه ترفرف فوقها خطة المؤلف والفكرة الإجمالية التي كوّنها لنفسه. ومع ذلك فإن أبا مخنف لا يتناول برواياته فترة كبيرة من الزمان وهو لا يربط بين أجزائها ربطاً يراعى الوقائع كما هي ويراعى ترتيبها التاريخي،

ويعوزه ترتيب الحوادث ترتيباً تاريخياً مُطَّرِداً، فهو لا يذكر إلا تواريخ متفرقة، وفي كثير من الأحيان لا يذكر إلا اليوم الذي وقعت فيهِ الحوادث بين أيام الأسبوع من غير ذكر الشهر والسنة؛ فهو لا ينظم الحوادث في خيط يصل بينها، بل يصف كل حادث على حدته عما عداه، ويسهب في ذلك أكبر الإسهاب من غير أن يهتم بالاقتصار على ما هو جوهري، ويذكر ابن النديم صاحب كتاب الفهرست لأبي مخنف اثنين وعشرين كتاباً بعناوينها.

ومما يتميز به أبو مخنف أن رواياته لا تبتدئ بصدر الإسلام، بل هي لا تبدأ إلا بعصر الفتوحات، وأنه يخبرنا في الأغلب عن فترة كان هو نفسه يعيش فيها، وهي تبدأ بموقعة صفين. ويرجع إلى ذلك أن اهتمامه اقتصر على المكان الذي كان يعيش هو فيه، أعنى على العراق وعاصمته الكوفة. أما فيما عدا هذه الفترة المحددة وهذا المكان المحدد فليس عنده علم صحيح اختص به. ونظراً إلى أن الكوفة والعراق كانت مقر الحزب المعارض لحكومة الدولة فإن أبا مخنف يتكلم خصوصاً عن ذلك، والموضوعات التي يتناولها بتفصيل وشغف خاص هي ثورات الخوارج والشيعة، التي كان على رأسها المستورد بن عُلّفة التيمي وشبيب بن يزيد وحجر بن عدي والحسين بن علي وسليمان بن صرد والمختار الثقفي، وثورة أهل العراق بقيادة عبد الرحمن بن الأشعث. فأبو مخنف يمثل الروايات العراقية، وهواه في جانب أهل العراق على أهل الشام وفي جانب عليّ على بني أمية، ومع ذلك فإن الإنسان لا يلاحظ عند أبي مخنف شيئاً من الإغراض يستحق الذكر أو هو على الأقل لا يلاحظ إغراضاً من شأنه تزييف الوقائع تزييفاً إيجابياً. وكل ما يمكن أن يقال هو أن أبا مخنف، فيما يظهر، قد أغفل في بعض الأحيان شيئاً مما لا يعجبه كإغفاله مثلا أن عقيل بن أبي طالب كان في موقعة صفين يحارب في صفوف أعداء أخيه علي بن أبي طالب.

وقد اعتمدتُ على أبي مخنف خاصة في بحثي الذي كتبته عن أحزاب المعارضة الدينية ــ السياسية في صدر الإسلام[1]. أما في تاريخ الدولة العربية الذي هو موضوع هذا الكتاب فإن أبا مخنف لا يقدم المادة الغزيرة التي يستطيع المؤرخ أن يستفيد منها، وليست الروايات الكوفية هنا هي أحسن مرجع، بل أصدق مرجع هو للروايات المدنية، فهي أهم الروايات القديمة، وهي من حيث أصولها أقدم من الروايات الكوفية، غير أن أصحابها الذين وصلت إلينا عنهم روايات كافية أحدث عهداً من أبي محنف، وهم لم ينبغوا إلا في العصر الذي بدأت فيه حركة التأليف تنتقل من المدينة إلى بغداد. وأهم حملة هذه الروايات المدنية هم خصوصاً ابن إسحاق، وهو مولى، وأبو معشر، وهو مولى أيضاً، والواقدي؛ وهم لم يكونوا يجمعون ماد الروايات من مصادرها الأصلية، كما فعل الرواة قبلهم، بل إنما وصلت إليهم الروايات من حفظ رواية العلماء لها، وهؤلاء نظروا فيها ونخلوها وكتبوها من جديد ومزجوا بينها؛ ولكنهم؛ خصوصاً، ربطوا بينها ربطاً أوسع وأدق مما كان قبلهم، وهم في الوقت نفسه رتبوها ترتيباً زمنياً مطَّرِداً، بحيث خرج على أيديهم من الروايات المفككة لأخبار الأحداث الكبرى المتفرقة تاريخٌ متصل. ويمكن أن يُعْتَبر ابن إسحاق مؤسس هذا التاريخ، وهو يتميز، هو ومن جاء بعده، بكتابة التاريخ في صورة ذكر الأحداث التي وقعت في كل عام، وهي الصورة التي أصبحت متبعة. أما ترتيبهم للحوادث بحسب تاريخ وقوعها فهو يقوم على بحث علمي وعلى موازنة. ولم يقصر علماء المدينة في ذلك، بل وصلوا إلى نتائج ثبتت أمام التمحيص إلى درجة تسترعي النظر، ويجوز أنهم قد استطاعوا

---

(١) [يشير المؤلف إلى بحثه بعنوان *Die Religiös-politischen Oppositionsparteien im alten Islam* ، وهو ضمن رسائل الجمعية الملكية للعلوم في مدينة جوتينجن، القسم الفيلولوجي التاريخي، السلسلة الجديدة، مجلد ٥ عدد ٢، عام ١٩٠١ ــ المترجم].

في بعض الأحيان، أن يعتمدوا على ما كتبه رهبان النصارى وخصوصاً السريان، وذلك، على سبيل المثال، فيما يتعلق بذكر تاريخ الزلازل وغيرها من الأحداث الطبيعية. ويلاحظ الإنسان كيف ازداد شأن الاهتمام بوضع الحوادث موضعها في الترتيب الزمني. ثم جاء خلفاء ابن إسحاق فزادوا عليه في كمال الترتيب التاريخي (Vaqidi p. 15s.)[٢]. أما أبو معشر فيظهر أنه لم يكن له اهتمام ولا مقدرة إلا في معرفة التواريخ، وهذا الاهتمام هو الغالب أيضاً على الواقدي. وليراجع القارئ فيما يتعلق بالصلة بين هذين المؤرخين الطبري (جـ ٢ ص ١١٧٢ س ١٠ وص ١١٧٣ س ٦).

وكانت المدينة نواة الجماعة الإسلامية وقلب الدولة العربية، وقد كان ما للمدينة من أهمية كبرى نظراً لما كان يتولد فيها من عوامل التطور في التاريخ العالمي هو الذي جعل للروايات التي نمت فيها طابعها الخاص. وكان أول ما اهتمت به الروايات المدنية بطبيعة الحال هو ذكرى أوائل ذلك العهد المجيد المقدس، أيام كان الإسلام لا يزال وحدة غير منفصمة العرى من الناحية الدينية والسياسية، وكان يطمح لأن يُوَحِّد العالم كله تحت رايته، وكانت الموضوعات الكبرى التي يظهر أن ابن إسحاق قد اقتصر عليها من تلك الروايات هي السيَر والمغازي ــ أعنى سيرة النبي [عليه السلام] وتأسيسه للأمة الإسلامية وتأسيسه هو وخلفاؤه من بعده للدولة الإسلامية في فترة الفتوحات. ولكن الروايات المدنية لم تُغْفِل ما يتعلق بقلب الدولة وبسائر أنحائها، حتى بعد أن انتقل مركز الثقل في الدولة من المدينة إلى دمشق، فلم تنتقل الروايات نفسها إلى دمشق، بل بقيت المدينة، وظلت المدينة، حتى في أيام بنى أمية، مقر الطبقة الأرستقراطية من العرب، وليس هذا فحسب، بل ظلت أيضاً المركز الروحي للثقافة الإسلامية إلى أن حلت بغداد من

---

(٢) يقصد المؤلف كتابه بعنوان *Muhammad in Medina*، وهو ترجمة مختصرة لكتاب المغازى للواقدي، وقد ظهر في برلين ١٨٨٢ م.

هذا الوجه محلها. وقد استرعى اهتمام علماء المدينة تاريخ الدولة العربية، حتى فيما يتعلق بتطوره السياسي الدنيوي الخالص، وإن كان علماء المدينة لم يكونوا راضين عن الحكومة. ولقد كان اهتمامهم بالشام أكثر بكثير من اهتمامهم بالعراق أو حتى بخراسان، ونجد أنه عند أبي معشر والواقدي لا تزال تتكرر بانتظام الأخبار الرسمية ــ إذا صح التعبير ــ كالمعلومات المتعلقة بتواريخ ولاية الخلفاء وتواريخ وفاتهم، ومتى كان يُعين أهم الولاة ومتى كانوا يُعزلون، ومن الذي كان يحج بالناس في كل عام، ومن الذي كان يقود الحملات الحربية التي كان يوجهها الخلفاء لمحاربة الروم. وهذه المعلومات تكوّن سدى كتب التواريخ المدنية التي تذكر حوادث السنين، وإنما يزيد ما ينسج حولها من مادة الروايات إذا كانت هذه تتعلق ببعض الأزمات والأعمال الكبرى، أما في العادة فهذه المادة ليست غزيرة، واهتمام العلماء متجه إلى الوقائع الجافة، بحيث لا يجد الإنسان كثير شيء من الولوع بالتفاصيل ومن التحمس للحوادث ومن العطف على الأشخاص الذين تدور حولهم الروايات. ولم يكن في المدينة ميل لبني أمية ولا لأهل الشام، فلا يستطيع الإنسان أن ينتظر منهم أكثر من الحكاية الموضوعية.

ولا شك أنه قد كان هناك عند أهل الشام أيضاً، أعنى عند عرب الشام، مأثور من الروايات، ولكن هذا المأثور ضاع ولم يصل إلينا. ويجد الإنسان آثاراً له عند البلاذرى، وربما وجدها أيضاً عند عوانة الكلبى، الذي كان يقطن الكوفة، ولكن كانت له من طريق قبيلته صلات بالشام، ويذكره الطبري في كثير من الأحيان عند روايته لأخبار الشام، وذلك بحسب رواية ابن الكلبى عادة. أما روح هذا المأثور الشامى فيستطيع الإنسان أن يعرفه أحسن معرفة إذا رجع إلى كتب التاريخ النصرانية خصوصاً إلى كتاب الصلة لتاريخ إيزيدور (Continuatio des Isidor von Hispalis). فالأمويون في هذه الكتب

النصرانية يظهرون في ضوء آخر مغاير كل المغايرة لما في الكتب الأخرى، وهو يظهرهم على صورة أحسن بكثير من الصورة التي اعتدنا أن نراهم عليها. أما في كتب التاريخ العربي فقد كانت الكلمة الأخيرة لأعدائهم، وقد ألحق ذلك بتاريخهم ضرراً كبيراً.

والمدائني يتبوأ ما يشبه أن يكون مكاناً وسطاً بين أبي مخنف وبين مؤرخي المدينة؛ فهو مؤرخ عالم، لكنه يُسهب في الرواية، وله اهتمام إقليمي ظاهر فيما يتعلق بالبصرة وخراسان، وتكاد كل الروايات المتعلقة بهما تكون مأخوذة عنه، هذا إلى أنه يمثل وجهة النظر العباسية تماماً، وهو يروي سقوط بني أمية وقيام الأسرة المباركة رواية تتمشى مع ذلك.

وإني أكتفي بهذا القدر من الكلام في بيان ما يختص به هؤلاء الرواة الكبار عند الطبري؛ وهو في بعض أجزاء كتابه يروى عن كثيرين من الرواة الآخرين الذين ضاعت كتبهم ولم تصل إلينا، ولكني لا أريد في هذا المقام أن ألمّ إلماماً وافياً بأقدم تدوين كان للتاريخ العربي، غير أنه قد بدا لي أنه لا بد من إرشاد القارئ إلى أصول هذا التاريخ، وفي هذا يكفى ما قدمته، ويستطيع القارئ إذا أراد الاستكمال، أن يرجع إلى فهرس ڤوستنفلد في المجلدين الثامن والعشرين والتاسع والعشرين من رسائل جمعية جوتينجن (Abhandlungen der Göttinger Societät).

وقد كان مقصودي في أول الأمر أن أتناول عصر بني أمية على نحو ما تناولت عصر الفتوحات الكبرى في القسم السادس من كتابي (Skizzen und Vorarbeiten) وأن عنوانه بنفس العنوان (وهو Prolegomena zur ältesten Geschichte des Islams = مقدمة لدراسة تاريخ فجر الإسلام). ولكني هناك استطعت أن أكتفي بأن أضع ما ذكره سيف بن عمر إزاء سائر

الروايات الأخرى المذكورة عند الطبري، وأن أبين أنه تحوير مُغرِض لهذه الروايات. ولكن ما يذكره سيف ينتهي عند موقعة الجمل، ومنذ تلك الموقعة لا يمكن القيام بالنقد التاريخي طبقاً لوجهة نظر تظل ثابتة هي هي، ولا يستطيع الإنسان منذ تلك المعركة أن يسير مهتدياً بما دُوِّن من روايات، بل يجب عليه أن يحكم على الحوادث حكماً يستند إلى أسس من الواقع، مهتدياً من واقعة إلى واقعة غيرها، كما يجب عليه أن يتعمق في بحث قيمة ومبررات كل قضية وأن يسير على طريق فيه كثير من النقد والتخير بين الروايات وفيه أيضاً كثير من محاولة التوفيق بينها. على أن الرواة يتفاوتون دائماً في مقدار استحقاقهم للثقة، ولكنهم لا يختلفون في رواياتهم إلا بين آونة وأخرى ولا يختلفون دائماً في الاتجاه الواحد. وإذا أمكن التمحيص ولم يكن منه بد فإنه يصبح أشد صرامة وأقل سماحة، ولكنه ليس دائماً ممكناً، لأن المادة التي تحت يد الباحث لا تكفي لذلك، وهو أيضاً ليس دائماً ضرورياً، لأن الرواة متفقون أو هم تكمل رواية بعضهم رواية البعض الآخر. وفي كثير من الأحيان يمكن، ويجب، أن يستعاض بذكر الروايات كما هي عن التمحيص لها. وإذا أردنا أن نقارن بين ما كتبناه أولاً وبين ما نكتبه الآن فإننا نقول إن ذكر الروايات كما هي هو الغالب في هذا الكتاب، أما إذا عيب علينا المزج بين طريقي الرواية والتمحيص فإننا نقبل ذلك على أنفسنا، فقد كانت ضرورة مراعاة ما في الروايات من تنوع الخصائص هي السبب في تنوع طريقتنا في بيان الموضوع. على أنه فيما يتعلق بمعالجة كثير من المسائل لم تَدْعُني إلى ذلك مادة البحث بقدر ما حفزني إليه سلفي من الكتّاب، ولم يكن لي بد من أن أجيب في بعض المشكلات إجابة تختلف عن إجابتهم.

جوتينجن في يوليه ١٩٠٢ **ڤِلْهَوْزِنْ**

الفصْل الأوَّل

مقدمة

١ ــ نشأت الجماعة السياسية في الإسلام من الجماعة الدينية، ويكاد أن يكون اعتداء محمد [عليه السلام] إلى طريق الحق[١] قد حدث مع نهوضه لتبليغ الرسالة. نعم، هو قد بدأ بنفسه، وكان أول ما استولى على قلبه اليقين بالله القادر على كل شيء واليقين بيوم الحساب. ولكن ذلك اليقين الذي ملأ نفسه كان من القوة بحيث فاض عنها، فلم يجد بداً من أن يرشد إخوانه إلى نور الهدى وإلى الصراط المستقيم، ليخرجهم من ظلمات الحيرة وينقذهم من متاهات الضلال، ولم يلبث حتى أنشأ في مكة جماعة دينية صغيرة[٢].

وكان الذي يؤلف بين قلوب هذه الجماعة هو الإيمان بإله واحد، لا تدركه الأبصار، خالق هذا العالم، ومحاسب كل نفس بما كسبت، كما كان يجمع بينها مبدأ خلقي يلزم عن ذلك، وعماده أن يعبد الإنسانُ الله، لا يشرك به شيئاً، وأن

---

(١) [يستعمل المؤلف كلمة Bekehrung، ومعناها الانتقال من عقيدة إلى عقيدة، ويجوز أن يقصد شيئاً من قبيل ما جاء في القرآن من قول الله للنبي عليه السلام «ووجدك ضالاً فهدى» أو من قبيل ما يؤثر من النبي متعلقاً بكيفية بدء الوحي، على أني لا أعرف من مصنفات المؤلف الأخرى سوى اعتباره النبي عليه السلام أحد الحنفية الذين أعرضوا عن الشرك الجاهلي. أما الحق فهو أن محمداً صلى الله عليه وسلم رسول كالرسل قبله. ولا يوجد دليل على رسالة الرسل إلا وهو موجود على رسالته، والقرآن هو الدليل على رسالته، وهو مهما اشترك مع التوراة والإنجيل في بعض المادة فهو يختلف عنهما ــ المترجم].

(٢) [وفي رأي المؤلف في كتابه عن الوثنية الجاهلية أن تأسيس جماعة دينية هو الفارق بين النبي عليه السلام وبين الحنفية. والحق بحسب الشواهد التاريخية، هم بقايا دين إبراهيم عليه السلام، وهو الدين الذي كان لا يزال حتى عهد النبي موجوداً في مكة. والفرق كبير بين الحنفية وبين النبي، كما أنه كبير بين اليهودية والنصرانية من جهة وبين الإسلام من جهة أخرى ــ المترجم].

يسعى إلى نجاة روحه من شرور الدنيا، زاهداً في حطامها، وأن ينشد الحق والعدل والخير والرحمة, ولا ينشد متاع الدنيا. وللتوحيد، كما يتجلى في أقدم سور القرآن، صبغة خلقية كاملة، وهي لا تقل في قوتها عما نجده عند عاموس النبي أو في خطبة الجبل[١]. والإيمان بالخالق لا يكاد يدخل القلب حتى يبعث فيه، كما هو الحال في الإنجيل[٢]، فكرة أن كل إنسان، بعد مفارقته هذه الحياة، مسئولٌ عما كسبت يداه. وهذا الإيمان من شأنه أن يستولى على الروح استيلاء تاماً؛ وهو لا يكتفي بأن يبعث في نفس الإنسان الرضا بإرادة الله، بل هو يدفعه أيضاً إلى العمل بما يريده الله. والإسلام الأول ليس استسلاماً (Fatalismus)، بالمعنى السائر لهذه الكلمة، وليس إلههُ عبارةً عما يسمى «المطلق» (Das Absolute)، أعنى أن الإسلام ليس إيماناً بشيء غير مفهوم، هو إلى السلب منه إلى الإيجاب أقرب، بل إله الإسلام هو الذات التي لها القدرة على كل شيء، والخير والعدل في حقها ملازمان للقدرة، لا ينفكان عنها. ويبرز في القرآن شأن القدرة الإلهية تارة وشأن العدل الإلهي تارة أخرى، وذلك بحسب ما كان يحس به النبي [عليه السلام]، دون مراعاة للتوازن بين الطرفين، ولا يشعر محمد [عليه السلام] بما في ذلك من تناقض، لأنه لم يكن فيلسوفاً ولا واضعاً لمذهب نظري في العقائد (Dogmatiker)[٣].

---

(١) [كلام عاموس النبي موجود في التوراة، وخطبة الجبل هي من كلام السيد المسيح عليه السلام، وهي في الأناجيل ــ المترجم].

(٢) [ويقصد المؤلف أن هذا في الإسلام، لأن الكلام هنا عن الإسلام أولا وقبل كل شيء ــ المترجم].

(٣) [يقصد المؤلف أن الذات الإلهية في الإسلام ذات حقيقية لها صفات الخلق والتدبير والعناية، وذلك في مقابل إله الفلاسفة الذي هو أشبه بمعنى مجرد ــ أما ما يقول عن رجحان الكلام عن القدرة في القرآن تارة ورجحان الكلام عن العدل تارة أخرى بحسب أحوال النبي النفسية فهذه نظرية بعض المستشرقين في الآيات المتشابهة في القرآن سواء آيات الصفات الإلهية أو الآيات المتعلقة بالمشيئة الإنسانية وعلاقتها بالمشيئة الإلهية (مسألة الجبر والاختيار). والحق أن القرآن منه ما هو محكم ومنه ما هو متشابه، وهذا المتشابه هو تفصيل المحكم، ولو تأمل الإنسان القرآن تأملا عقلياً فلسفياً لوجد أنه فيما يتعلق بذات الله يتكلم عنها في ذاتها أحياناً، =

وكان يربط بين الجماعة الإسلامية من الخارج القيام بعبادات واحدة؛ وإذا كانت أقدم تسمية أطلقها على المسلمين من لم يدخل في زمرتهم هي تسميتهم بالصابئين، فلا يمكن أن يكون لها سبب غير ذلك[١]. وتدل أقدم سور القرآن على وجود صلوات وركوع وسجود وتهجّد في الليل، غير أنها لم تكن قد حُدِّدت ونظمت على النحو الدقيق الذي نجده فيما بعد.

وكان أول من اتبع محمداً [عليه السلام] أفراد، من أصدقائه وأقربائه ومن الموالى والرقيق، غير أنه كان يعتبرهم طلائع لأتباعه، لأن طموحه كان منذ البداية متجهاً إلى ضم أهل مكة جميعاً إلى دعوته: عشيرته من بني هاشم وعبد المطلب، وقومه قريش. ولقد كان محمد [عليه السلام] عربياً، فكانت له، بحكم ذلك، إحساسات بالعشيرة والقبيلة (أعني ما يقابل الأمة) على النحو الذي نحس به نحن بما يربطنا بالأسرة في نطاقها الضيق. [أما الدولة] من حيث هي نظام منفصل عن الجماعة ومستقل عنها في وظيفته، ومن حيث أن لهذا النظام سلطاناً يخضع له الناس؛ فلم يكن بعد قُد وجد بين العرب؛ بل كانت الدولة عندهم هي الجماعة في جملتها (Collectivum)، ولم تكن هيئة لها نظامها الخاص (Institut) ولا كانت لها أرض مُحدَّدة. فلم يكن هناك في الحقيقة دولة (Staat) وإنما كانت هناك

= هو أحياناً أخرى يتكلم عنها مجازاً للدلالة على صفاتها، وهذا هو معنى الآيات التي فيها ذكر اليد والعين بالنسبة لله، ولوجد أيضاً أن القرآن فيما يختص بأفعال الإنسان ومشيئته يتكلم عن دخول ذلك في دائرة المشيئة والقدرة الإلهية ــ وهذا صحيح وهو الحق في أمر الخالق والمخلوق وليس في القرآن مطلقاً ما ينفي مشيئة الإنسان وفعله ومسئوليته، بل فيه ما يؤكد ذلك، ولكن بحيث لا يشعر المخلوق أنه مستقل عن خالقه في الفعل والمشيئة، لأنه إذن لا يكون مخلوقاً؛ فلا تناقض في القرآن بل فيه بيان للعلاقة بين المخلوق والخالق ــ راجع ما قلناه في هذا في تعليقنا على فكرة شبيهة بما يقوله المؤلف هنا ــ وذلك في كتاب «تاريخ الفلسفة في الإسلام» لدى بور ص ٤٦ ــ ٦٦ من الطبعة الثانية ــ القاهرة ١٩٤٨ ــ المترجم].

[ربما يكون قصد المؤلف ما لوحظ من شبه بين بعض عبادات الصابئة وبعض العبادات الإسلامية وما قيل من أن الصابئة هم الحنفية أتباع دين إبراهيم عليه السلام ــ راجع تاريخ الفلسفة في الإسلام لدى بور ص ١٩ (هامش) ــ المترجم]

أمة (Volk)؛ فلم يكن هناك نظام [سياسي] من صنع الإنسان، بل كان هناك كيان اجتماعي طبيعي بالغ درجة النماء؛ لم يكن هناك موظفون يدبرون شئون الجماعة بالمعنى الذي نعرفه في الدولة؛ وإنما كان هناك رؤساء العشائر والبطون والقبائل[١]؛ ولم تكن الأمة تتميز عن الأسرة إلا بأنها أكبر من الأسرة. أما اللحمة التي كانت تؤلف بين أفرادها فهي نفس اللحمة التي تربط بين أفراد الأسرة، أعنى لحمة الدم، فكانت وحدة الجماعة تقوم على لحمة الدم وعلى تقديس هذه اللحمة، دون حاجة إلى قوة من خارج تقهر الجماعة على التماسك. وكان للاشتراك في النسب أو للاعتقاد بهذا الاشتراك ــ وهما من حيث النتائج العملية شيء واحد ــ ما للدين من تأثير، وكان هذا الدين بمثابة الروح التي تجعل القبيلة كالجسد الحي الواحد. وإلى جانب روابط الدم والنسب كانت هناك روابط الاشتراك في شعائر دينية ظاهرية، ولكن لم يكن هناك دين له من قوة الإلزام وتوثيق أواصر الوحدة بين الناس شيء يغاير ما لتأثير رابطة الدم والنسب. ولقد كان في وسع محمد (عليه السلام)، من طريق عقيدة تتجاوز دائرة معتنقيها الدائرة التي ترسمها رابطة الدم، أن يحطم رابطة الدم هذه لأنها لم تكن بريئة من العصبية وضيقها، ولا كانت ذات صبغة خارجية عارضة، هذا هو الذي جعلها لا تتسع لقبول عنصر غريب عنها. ولكن محمداً [عليه السلام] لم يرد ذلك، ومن الجائز أيضاً أنه لم يكن يستطيع أن يتصور إمكان رابطة دينية في حدود غير حدود رابطة الدم[٢]، ولذلك فإنه لم يرَ أن رسالته هي أن

---

(١) ولا يزال أهل البادية حتى اليوم ميالين إلى أن يتصوروا الدولة، أعني الدولة التركية، على أنها قبيلة وإلى أن يقيسوا قوتها بحسب ما تملكه من الإبل (Doughty 1, 230). وكذلك الحال بالنسبة للمدن، فلم تكن المدينة (Polis) هي الوحدة السياسية بل كانت القبيلة هي هذه الوحدة، مثل قريش في مكة وثقيف في الطائف. وكان كل من القرشيين والثقفيين يشعرون بأنهم مرتبطون من الناحية السياسية، حتى عندما كانوا يقطنون خارج مكة أو الطائف.

(٢) [هذا يخالف الواقع، لأن الدعوة الإسلامية جاءت للناس كافة ولأن القرآن والحديث قد أعلنا أن الناس جميعاً على اختلاف ألسنتهم وألوانهم كلهم أمة واحدة ومنشؤهم من أصل =

يضم إلى دعوته أتباعاً متفرقين هنا وهناك. نعم، كان لا بد له أن يبدأ بضم أفراد، لكنه كان يرمي على ضم الجماعة كلها فكان يطمح إلى أن يجعل أمته العربية كلها جماعة دينية له، أما إنشاء جماعة دينية صغيرة مضطهدة (ecclesiola pressa) في مكة فهذا ما لم يكن ليُرضى طموحَه.

فلما لم يوفق إلى هداية قومه قريش في مكة إلى الإسلام، حاول أن يتصل بقبائل ومدن أخرى. وقد أتاحت له الأسواق والأعياد التي كانت تعقد حول مكة سبيلا إلى ذلك، فعرض على شيوخ ثقيف في الطائف أن يدخلوا في الإسلام هم وقومهم جملة. وأخيراً وضع قدمه في يثرب، أعني المدينة، وكانت هجرته إليها حادثاً جليلاً، بدأ به عهد جديد، على أن هذا العهد الجديد لم يكن معناه التنصل من الماضي تنصلا مقصوداً، لأن محمداً [عليه السلام] لما صار رئيساً سياسياً، بعد أن كان مباشراً ونذيراً لم يتنكر لنفسه، وذلك أنه منذ البداية لم يكن يرمى إلى اجتذاب أفراد، بل إلى ضم القبائل بجملتها، وكان من أول الأمر أيضاً يرى أن النبي هو الرسول الذي يرسله الله ليكون على رأس قومه، ولم يكن يفصل بين الجماعة السياسية والجماعة الدينية. وهو إذا كان قد أراد أن يظل في المدينة على ما كان عليه في مكة من قبل، وهو أن يكون نبيَّ الله ورسولَه، فلم يكن ذلك منه لعباً ولا نفاقاً، لكنه في مكة لم يوفق. أما في المدينة فقد نجح وشق الطريق. هو كان في مكة ثائراً على قومه مخالفاً لما هم عليه، أما في المدينة فقد بلغ ما كان يرمى إليه: وقد أحدث هذا تغيراً كبيراً لا مجرد فرق ظاهري، وذلك أن

= واحد وإن أكرمهم عند الله أتقاهم؛ وكان غرض الدعوة الخروج بالناس من ضيق العصبية القبلية والجنسية إلى أفق الإنسانية الموحَّدة. وهذا ما صرح به في القرآن والسنة. أما الاعتماد على مؤمنين يحملون الدعوة وينشرونها ويمنعونها من أعدائها بفضل ما يكون بينهم من التحام بالنسب وبفضل ما ينشأ عن ذلك من قوة فهو لا يتعارض مع الغاية الكبرى التي تحققت فعلا. ومعنى المواطن في الدولة الإسلامية هو المؤمن بالله والمتبع لوحي أنزله الله سواء كان مسلماً أو يهودياً أو نصرانياً، غير أنه في الدولة الإسلامية تكون مهمة حكم الدولة والدفاع عنها للمسلمين وحدهم، ولهذا فرضت الجزية على أهل الكتاب لأنهم معفون من الواجبات الحربية ــ المترجم].

المعارضة دائماً تتغير عندما تصل إلى الرياسة[1] وأن السياسة عند تطبيقها تبعد كثيراً عن الفكرة التي عليها، لأن تقديرها للأشياء يكون في أول الأمر بحسب الإمكان لا بحسب الواقع. ولا تستطيع جماعة لها تاريخها أن تتنكر للأسس الموجودة التي تقوم عليها تنكراً تاماً، والقوة ــ إذ أرادت أن تحافظ على كيانها وأن تزداد ــ لا بد لها من أن تجري على سنتها الخاصة بها؛ وهذا هو الذي يفسر لنا أن النبي صار رئيساً سياسياً تغير عما كان عليه لما كان لا يزال طامحاً في الرياسة، وأن الحكومة التيوقراطية (Theokratie)، من حيث السياسة الفعلية، تغيرت عنها لما كانت فكرة. وعلى هذا صار الطابع السياسي يزداد بروزاً والطابع الديني يزداد تراجعاً، ولكن على الإنسان مع هذا ألا ينسى أبداً أن الدين والسياسة امتزجا وسار يداً بيد، وإن كان قد جُعِل تمييزٌ بين السياسة الدينية والسياسية الدنيوية، وبقى للتقوى إلى جانب ذلك مكانُها في القلوب.

٢ ــ وكانت اليهودية والنصرانية قد مَهدتا الأرض في المدينة لمحمد [عليه السلام]، فكان هناك كثير من اليهود، وكانت المدينة تقع على حدود ذلك الجزء من جزيرة العرب المتعرض للتأثير اليوناني ــ الروماني والنصراني ــ الآرامي. أما الأحوال السياسية فكانت مواتية له أكثر من ذلك، ففي مكة كان يسود الهدوء والنظام، وكانت العوامل التي تربط بين الجماعة تؤدي وظيفتها على نحو مُرْضٍ، ولذلك أحسّ المكيفون بأن الشيء الجديد الذي أراد النبي أن يدخله في مكة نظامٌ يهدد حياتهم ويكدر صفوها، فعملوا على القضاء عليه. ولكن

---

(١) [إن المؤلف هنا وفيما يلي يسرف في القياس السياسي. ولقد كانت رسالة النبي عليه السلام أن يؤسس ديناً ويكون أمة وينشئ دولة، وقد تم له ذلك كله. وقد كان لهذا بطبيعة الحال مقتضيات فرضتها طبيعة الأشياء وطبيعة التطور في الدين وتكوين الأمة وإنشاء الدولة، وكل ذلك بإرشاد إلهي هو الذي نجده من أول الأمر إلى آخره مسجلا في القرآن. ولا يصح أن يسرف المؤرخ في اعتبار التطور تغيراً وتحولا ولا وضع النظام السياسي طغياناً على الصيغة الدينية ــ المترجم].

رباط الدم والنسب لم يكن له في جميع أجزاء جزيرة العرب من القوة ما كان له في مكة، وهو لم يكن في جميع مراتب التلاحم في النسب بقوة واحدة، بل كان في الدوائر الصغرى للنسب أقوى منه في الدوائر الكبرى، فكان في الأولى طبيعياً وفي الثانية التزاميا، ولذلك كان ما من شأنه أن يجمع الشمل يصبح سبباً من أسباب الانحلال، إذا تعارضت مصلحة الأسرة مع مصلحة العشيرة أو مصلحة القبيلة، وخصوصاً لم تكن الأسرة تستطيع أن تتخلى عما يوجبه عليها الأخذ بالثأر حتى من الأسر التي يجعلها النسب وإياها قبيلة واحدة، وعند ذلك تتوارث القبائل إِحَنَ الترات وحروبها، لأنه لم تكن هناك قوة فوق قوة المتخاصمين تستطيع أن تفرض السلم على الناس وتعاقب من يخلّ به منهم. وهذه الأحوال كانت قد طرأت في المدينة، فانقسمت الجماعة فيها إلى معسكرين متعاديَيْن، هما الأوس والخزرج، فكان القتل والسفك شيئاً مألوفاً، ولم يكن أحد يجرؤ على الخروج من حَيِّه دون أن يعرّض نفسه للخطر، وسادت المدينة حالٌ من قلة الأمن جعلت الحياة فيها غير ممكنة، فكانت الحاجة ماسّة إلى رجل يدخل في الفرجة المفتوحة بين الفريقين ويقضي على الفوضى لكن كان لا بد أن يكون رجلاً محايداً، لا تشوبه شائبة التورط في المنافسات الداخلية بين القبيلتين، ولذلك جاء النبي من مكة في الوقت المناسب، وكأنما نودى لذلك، ولما كانت لحمة الدم قد فشلت في أن تكون رباطاً يؤلف بين الناس، فقد أحلّ النبي محلها رابطة العقيدة، وهو قد جاء ومعه قبيل من المؤمنين، هم الذين هاجروا معه من مكة، وقد كوَّن في المدينة على أساس الدين جماعة موحَّدة، من حيث أنها «أمّة الله»؛ ولكن ذلك لم يكن دفعة واحدة، ولا كان بدون مراحل متعددة، بل هو تحقق بخطى مستمرة ثابتة. ولم يكن محمد [عليه السلام] يستطيع أن يؤسس جماعة لها رياسة دينية[١]،

---

(١) [يقصد المؤلف إنشاء رئاسة دينية يتحدد موقفها إزاء الرياسة السياسية التي تكون عند ذلك قائمة، كما تحددت الرياسات الدينية الناشئة في داخل الدولة أيام انتشار النصرانية ــ المترجم].

حتى لو أنه كان يريد ذلك، لأنه لم تكن هناك دولة بعد [ولا رياسة على الإطلاق] وكان الأمر اللازم إذ ذاك هو الواجب الأولى الذي ينحصر في إقامة النظام والسلام والقانون. ولما لم تكن هناك سلطة أخرى غير سلطته، فقد أخذت السلطة الدينية مكان الصدارة وصارت لها القوة وتوطدت أركانها بفضل أنه حققت ما كان يُرْجى منها. وقد أبدى محمد [عليه السلام] مواهب شخصية، وذلك بأن أثبت في تدبيره للأمور جدارةً كاملة. وكان إذا ارتاب في أمر، يسأل أهل ذلك الأمر، وكان من حسن حظه أنه وجد بين المهاجرين معه في مكة، وكانوا هم أقرب دائرة تحيط به، رجالاً يعتمد عليهم ويستطيع أن يثق بهم.

وفي هذه الأحوال تجلت قوة الدين، ولها طابع سياسي غالب، فأنشأ جماعة وأوجد فوقها سلطة مُطاعة. وكان الله هو رمز رئاسة الدولة، والشيء الذي يحدث عندنا اليوم باسم الملك كان يحدث هناك باسم الله. وكان الجيش يسمى «جيش الله». وكانت النظم تسمى بأن تُنْسَب إلى الله. وهكذا ظهرت بين العرب من طريق الإيمان بالله فكرةُ الرياسة بعد أن كانت حتى ذلك الحين بعيدة عن أذهانهم، وقد ظهرت بظهور ذلك فكرةٌ أخرى، حتى أن الحق في السيادة لا ينبغي أن يكون لقوة إنسانية تفرض نفسها على الناس من خارج، بل هو إنما يكون لسلطة فوق الإنسان، يعترف بها الإنسان في قرارة نفسه. والحكومة التيوقراطية معناها إنكار الملك [الدنيوى] الذي يوضع في يد الإنسان، وليست السلطة المحولة للحاكم قُنْيةً خاصةً يتصرف فيها صاحبها على النحو الذي يعود عليه بالنفع، بل الملك لله، ولكن وكيله الذي يعرف ما يريده والذي ينفّذه هو النبي، فليس النبي مجرد مُبَلِّغ للحق، بل هو أيضاً الرئيس السياسي الشرعي الوحيد على الأرض، ولا يوجد إلى جانبه مكان لملك، بل ولا لنبي آخر؛ ولا يوجد في كل زمان سوى نبي واحد. وفكرة النبي ــ الملك هذه ترجع إلى اليهود في عصرهم الأخير، وهي تتجلى على نحو مميّز في الفرق بين صموئيل وشاول، كما نجد ذلك في الكتاب

المقدس: صموئيل الأول، إصحاح ٨ و١١. فالنبي هو ممثل السيادة الإلهية في الأرض، والله ورسوله يُذكران معاً دائماً، وهما يدخلان معاً في العقيدة. ويستطيع الإنسان أن يُعَرِّف الحكومة التيوقراطية بأنها الجماعة التي لا يكون على رأسها مَلكٌ أو سلطة مغتصبة أو موروثة؛ بل يكون على رأسها نبي الله وشَرْعُ الله.

والذي كان راجحاً في فكرة الألوهية هو العدل لا القداسة[١]، وكان معنى السيادة الإلهية هو سيادة الحق والعدل، فكانت الحكومة التيوقراطية من هذا الوجه هي حكومة العدل، ولكن لا يصح أن يخطر ببال إنسان هنا [أن معنى سيادة الله هو] سيادة قانون نظري مجرد لا علاقة له بإرادة ذات حقيقة تريده، ذلك أنه لم يكن هناك قانونٌ بعد، وكان «الإسلام» موجوداً قبل نزول القرآن[٢]. وأيضاً لم تكن الحكومة التيوقراطية تشبه نظام الحكومة الجمهورية بأي وجه، رغم القول بأن جميع رعايا الله يقفون أمامه سواسية، وذلك أن المميز الأكبر لنظام الجمهورية، وهو الانتخاب والاقتراع من جانب الشعب، لم يكن موجوداً بالكلية، ولم تكن قوة السيادة للشعب، وإنما كانت للنبي، فكان له وَحدَه وظيفةٌ ثابتة بل مقدسة، وعن السلطة المخولة له كانت تتفرع أنواع السلطان التي دون سلطانه. ولكنه لم يكن يعين موظفين بالمعنى الحقيقي، وإنما كان يكلّف من يشاء بمهام معينة يؤدونها، وهم بعد أدائها يعودون إلى ما ما كانوا عليه من تلقاء أنفسهم، وكان مستشاروه أيضاً رجالاً ليسوا بموظفين، بل أصدقاء اصطفاهم وجعلهم من خاصته.

---

(١) [لا يمكن أن يقصد المؤلف أن الله ليس مقدساً. بل المقصود هو أن تصور الناس له يغلب عليه الشعور بعدالة الله. ولكن لا يمكن أن يجد المؤلف من النصوص الإسلامية سنداً لما يقول ــ المترجم].

(٢) [يقصد المؤلف غالباً ما جاء في القرآن من أن الإسلام لله دين الأنبياء جميعاً هم ومن اتبعهم وأنه دين الكائنات كلها ــ المترجم].

وأبعد ما يمكن أن يُقال في وصف الحكومة الإسلامية الأولى أنها كانت حكومة قديسين (Hierokratie)، فهي لم تأخذ طابع منظمة ذات قداسة خاصة ومن هذا الوجه لم تكن شبيهةً بالحكومة الدينية اليهودية بعد نفي اليهود(١). ولم تكن بين المسلمين طبقة من الرهبان، ولا كان هناك تمايز بين الرهبان وبين غيرهم ولا بين الأمور الدينية والدنيوية. فكانت الكلمة لله في كل وظائف الجماعة ومنظماتها على حد سواء، وكان للقضاء والحرب من القداسة ما للصلاة، وكان المسجد يقوم مقام مكان الاجتماعات العامة ومقام ميدان التدريب العسكري، وكانت الجماعة هي الجيش أيضاً، وكان الإمام في الصلاة هو القائد.

ولم تتمخض فكرة السيادة الإلهية عن أية صورة خاصة من صور الدستور(٢)، ولكن عنصر النظام الذي أدخله محمد [عليه السلام] وسط تلك الفوضى كان على كل حال سبباً في توحيد للقوى والعناصر، لم يكن معروفاً حتى ذلك الحين، وقد بدا كأنما قد ابتلعت الجماعة القائمة على أساس الدين تلك الجماعات القديمة المقدسة القائمة على رابطة الدم، ولكن تلك الجماعات بقيت في الحقيقة كما هي، وإن كان الشأن الأول قد انتقل منها إلى الجماعة الكبرى، فدخلت الطوائف التي كانت موجودة حتى ذلك الحين، أعنى القبائل والبطون والعشائر، في الجماعة الكبرى الجديدة، ولم ينشأ عن الإيمان بالله وسيلة من شأنها أن تُحِلَّ محلّها شيئاً

---

(١) إن حكومة القديسين عند اليهود بعد نفيهم كانت نتيجة للسيادة الأجنبية عليهم، ولم يكن لها استقلال سياسي، فكانت لذلك تختلف عن الدولة وإن لم يكن ذلك بدرجة اختلاف الكنيسة المسيحية في مرحلة البداية، وذلك لأنها، على الأقل، كانت شاملة للأمة. ولا يمكن بأي حال من الأحوال أن يكون هناك وجه للمقارنة بالدولة ــ الكنيسة، لأن الكنيسة لم تكن دولة بل كانت لها دولة (W. Sickel). والحكومة الدينية الإسرائيلية القديمة هي وحدها التي تشبه الحكومة الدينية العربية شبهاً كبيراً، رغم أن فكرة أن الرئيس الحقيقيّ في الحكومة الدينية هو النبي لا الملك كانت بعيدة عن الحكومة الدينية الإسرائيلية في مبدأ الأمر.

(٢) [إن الله بحسب القرآن هو الشارع والهادي للإنسان ولكنه يقول في حق المؤمنين (وأمرهم شورى بينهم) ويقول النبي: (وشاورهم في الأمر) ــ المترجم].

آخر. ومبدأ المساواة السياسية بين المسلمين، وهو المبدأ الذي يلزم عن فكرة الحكومة التيوقراطية، لم يُطَبَّق على النحو الذي من شأنه أن يمحو الفوارق التي كانت موجودة بالفعل، فبقى المكيون الذين جاءوا مع النبي [عليه السلام]، وهم المسمَّوْن المهَاجِرَة، على حدتهم، وبقيت إلى جانبهم قبائل العرب التي كانت تسكن المدينة، وهم المسمون الأنصار، على حدتها، وكذلك بقيت قبائل اليهود في المدينة على حدتها، وبقى التابع تابعاً والمولى مولى والنزيل نزيلاً، وإن كانوا قد اعتنقوا الإسلام.

وقد حفظت لنا الأيام من العصر الأول بعد الهجرة، قبل موقعة بدر، كتاباً[١] لمحمد [عليه السلام] يبين بعض النقط الكبرى في القانون الذي ينظم الحياة العامة والسياسة وكان معمولا به في المدينة أول الأمر. ويتجلى من هذا الكتاب إلى أي حد قد تغيرت الأحوال القديمة، وإلى أي حد لم تتغير، وذلك إذا عرفنا أن المدينة قد أصبحت منذ ذلك الحين أمة واحدة. وكلمة «الأمَّة» هنا ليست اسماً للجماعة العربية القديمة التي تربطها رابطة النسب، بل هي تدل على الجماعة بالمعنى المطلق. وهي تدل في العادة على جماعة تقوم على الدين، ولم يكن ذلك منذ ظهور الإسلام فحسب، بل كان قبل ذلك أيضاً، (ديوان النابغة، قصيدة ١٧، بيت ٢١)[٢]. وللأمة في هذا الكتاب صبغة دينية أيضاً[٣]، فهي

---

(١) [ويسمى أيضاً الصحيفة، والكتاب موجود بنصه في سيرة ابن هشام بحسب رواية ابن إسحاق ــ المترجم].

(٢) [إن البيت الذي يشير إليه المؤلف في قصيدة النابغة هو هذا:

حلفت فلم أترك لنفسك ريبة — وهل يأثمن ذو أمة، وهو طائع!

ولكن كلمة: أمة، هنا ــ وهي تضبط على أكثر من وجه ــ لا تدل على الأمة بالمعنى الذي نحن بصدده، بل على الاستقامة والدين ــ المترجم].

(٣) رأس الأمة هو الإمام، ولكن كلمة الأمة وكلمة الإمام لا ترتبطان ارتباطاً مباشراً، وربما لا يكون بينهما ارتباط على الإطلاق، فالأمة مشتقة من الأم؛ أما الإمام فمن فعل أمَّ بمعنى تقدم.

جماعة الله التي ترعى مبادئ السلام ومبادئ حماية الجار [ونصر المظلوم] والله هو الشهيد الذي يشرف عليها، ومحمد [عليه السلام] يشرف عليها باسمه، ولكنه مع ذلك لا يوصف قط بأنه نبي(١). فالإيمان هو رابط الاتحاد، والمؤمنون هم ممثلو معناه، وهم أول من يجب عليهم الوفاء للاتحاد، وهم في الوقت نفسه أول من يتمتعون بالحقوق التي يخولها لهم. وأيضاً فالأمة لا تشتمل على المؤمنين وحدهم، بل هي تتألف أيضاً من كل من يتبعهم ويحارب معهم، أي من كل أهل المدينة. والأمة لها منطقة من الأرض إجمالية، فكل جوف المدينة ينبغي أن يكون حرماً وأرض سلام، لا يعتدى فيها أحدٌ على أحد. وكان بين الأنصار قومٌ مشركون، لكنهم يُستَبْعدون من الأمة، بل أدْمِجُوا فيها بنص صريح، وكذلك اليهود شملتهم الأمة، وإن كانوا لا ينتمون إليها انتماء وثيقاً كالمهاجرة والأنصار، وإن كان اليهود أيضاً لا تقع عليهم نفس الواجبات وليس لهم نفس الحقوق. وعلى هذا فليست درجة الانتماء للأمة واحدة، بحيث بقى ما يشبه التمايز العربي القديم بين أصحاب الحق الكامل وبين غيرهم من تابع ونزيل. ومما له نفس الأهميّة أن الأمة رغم أنها كانت تشمل المشركين واليهود، فإنها لم تكن تتكون من أفراد، وإنما كانت تتكون من جماعات، فالفرد لا ينتمي إلى الأمة إلا من طريق العشيرة والقبيلة. فقد جاء في الكتاب الذي نحن بصدده أن تبقى القبائل كما هي وأن تدخل في الأمة كما هي، ولم يخطر على الأذهان قط إمكان تقسيم للجماعة بحسب مبدأ جديد مغاير لما هو معروف، وكذلك تُرك رؤساء القبائل كما هم، ولم يحل محلهم موظفون دينيون.

أما فيما يتصل بالعلاقة بين الأمة والقبائل وبتحديد سلطة كل منهما وواجباتها فقد بقيت على القبائل النفقات التي ليست ذات صبغة خاصة محضة وخصوصاً دفع

---

(١) [ولكن يوجد في أول الكتاب: «بسم الله الرحمن الرحيم: هذا كتاب من محمد النبي بين المؤمنين والمسلمين من قريش ويثرب ومن تبعهم فلحق بهم»... المترجم].

الدية وفداء الأسرى، ذلك أنه لم تكن قد وجدت بعد خزانة للأمة. وكذلك بقيت للعشيرة والقبيلة مسألة الولاء، فلا يسوغ لأحد أن يدعو مولى إلى مخالفة مولاه. بل إن حق الإجارة لم يُقيَّد، فلكل فرد الحق أن يجير شخصاً غريباً، وهو بذلك يُلزم الجماعة كلها، وإنما حرمت [على أهل هذا الكتاب] إجارة قريش الذين كانوا الأعداء الألداء لمحمد [عليه السلام].

وبمقتضى ذلك أصبح واجباً على القبائل أن تتنازل عن حق الأخذ بالثأر فيما بينها، أعنى من قبائل المدينة، لأن أول غاية للأمة هي منع الحرب في الداخل فإذا قام نزاع وجب أن يعرض على القضاء. وجاء في هذا الكتاب: «وأنكم مهما اختلفتم في شيء فإن مردّه إلى الله وإلى محمد عليه السلام، وأنه ما كان بين أهل هذه الصحيفة من حدث أو اشتجار يُخاف فسادُه فإن مرده إلى الله وإلى محمد رسول الله صلعم». فإذا تعكر السلام في الداخل بسبب القتل أو الفساد وجب لا على المجني عليه أو على قبيلته وعلى الجماعة كلها فحسب، بل على أقرباء الجاني نفسه، أن يهبّوا متكاتفين عليه وأن يسلموه إلى صاحب الثأر لكي يقتاد منه بالعدل. وعلى هذا أصبح لا يمكن أن يتحول الأخذ بالثأر إلى ثأر يجر ثأراً؛ بل انكسرت شوكته الخطرة التي كانت تهدد السلام، وهذب فصار عقاباً بالمثل؛ وكان هذا العقاب بالمثل موجوداً قبل الإسلام، ولكن الأخذ به كان نادراً، وذلك أن جملة القبيلة كانت معادلة لأجزائها وملتبسة بهذه الأجزاء بحيث لم يكن لها قوة القهر. أما في المدينة فقد نُفّذ مبدأ العقاب بالمثل تنفيذاً صارماً، لأن الله في المدينة فوق في رابطة الدم، وكان معترفاً له بسيادة حقيقية من حيث الفكرة على الأقل، ولم يكن العقاب بالمثل قد صار عقاباً بالمعنى الحقيقي، لأن تنفيذه كان متروكاً للمجنى عليه، وكان له أن يثأر لنفسه أو أن يتنازل عن الثأر ويأخذ الدية. ولكن العقاب بالمثل مع هذا صار نقطة الانتقال من الأخذ بالثأر إلى الأخذ بمبدأ العقاب؛ وذلك أنه بانتقال حق التأديب من الفرد إلى الجماعة حدثت خطوة هامة في سبيل الأخذ بالثأر شأناً

من شئون الدولة وجعله عقاباً من هذا الطريق. وكانت خطوة كافية لتفادي الترات الداخلية؛ ولذلك لكي يسود السلام في داخل منطقة المدينة ويكون شاملاً لا استثناء فيه. وعلى هذا لم تكن هناك جماعات تراعى السلام وحماية الجار، متعددة بتعدد القبائل، مما جعل حمايتها غير كافية أو على الأقل غير فعالة على الوجه المرضى خارج حدود القبيلة؛ بل أصبح هناك سلام واحد شامل، هو سلام الأمة.

أما الغرض الثاني للأمة فقد كان اتحاد القبائل لردّ العدوان من الخارج، وعلى المؤمنين أن ينصر بعضهم بعضاً دون «الناس»، وهم يتعاقلون بينهم، وهم أمة من دون للناس، يدهم على من سواهم، وهم على من بغى منهم. وليس واجب الأخذ بالثأر من الأعداء واقعاً على كاهل الأخ ليثأر لأخيه بل على كاهل المؤمن ليثأر للمؤمن. والحقيقة أنه بذلك خرجت الحرب عن أن تكون داخلة ضمن الثأر للدم، بعد أن كانت من قبل هي والثأر للدم شيئاً واحداً، بل أصبحت الحرب حرباً فحسب. وكذلك صار السلام مع قوم أجانب، شأنه شأن الحرب، أمراً يعمّ بحيث لا يستطيع أحد منهم أن يعقد سلاماً لنفسه لا يكون سلاماً للجميع.

ورغم هذا فإنه لم يُقْض على حق العشيرة والقبيلة بالأخذ بالثأر ممن سواها قضاء تاماً، وأمر هذه المفارقة هو أمر مفارقة أخرى مقابلة لها، وهي أن حق الإجارة أيضاً، وهي التي تضمن للغريب حق التوطن في المدينة لم يكن قد نُزِعَ بعد من الفرد، وإن كان يُلزم الجماعة كلها ويجب لذلك بطبيعة الحال أن يكون من حقوق سيادة الأمة ورئيسها، أعنى الإمام[١]. وليس كل شيء واضحاً تماماً في هذه العلاقة بين الجماعة وأجزائها، فلم تكن الأمة قد تكونت بعد تكويناً

---

(١) ومثل هذه المفارقات كان موجوداً عندنا إلى عهد قريب، فقد منح الدكتور Schnelle بحكم ما كان له من حق أيام الاتحاد الألماني لهوفمان فون فلوزليبن (Hoffmann von Fallersleben) الذي طرد من كل مكان حق التوطن في ضيعته بوخهولتر التي كانت له باعتباره فارساً في مقاطعة ميكلينبورج. ويلاحظ الإنسان أن شيئاً كهذا له مزاياه.

تاماً، ولكن كان المؤمنون وعلى رأسهم النبي هم روحها، فكانوا الخميرة والعنصر الروحي الأقوى الناهض ومنه كانت تصدر الحركة والدعوة؛ وكلما كان الدين ينتشر كانت أركان الأمة تتوطد أيضاً.

٣ ـ أما أعداء الأمة البارزون في هذا النظام الذي تكلمنا عنه لجماعة المدينة فهم قريش الذين فرّ منهم النبي [عليه السلام] وأتباعه من مكة. وقد نشأت من غارات صغيرة حربٌ لم تلن قناتُها. وهذه الحرب ساعدت أكبر مساعدة على توطيد أركان الأمة في الداخل، وانتهى أول اشتباك كبير عند بدر في السنة الثانية من الهجرة بانتصار محمد [عليه السلام] انتصاراً لم يكن في الحسبان، وأحسّ الناس أن هذا النصر المبين برهانٌ إلهي على صحة الدين، فأحدث أثراً لا يُمحى، وكان له أكبر تأثير معنوي، فساعد مساعدة غير مألوفة في زيادة نفوذ محمد [عليه السلام] وفي كسر شوكة خصومه وفي تثبيت قدم الإسلام في الأمة تثبيتاً تاماً وفي إدماج العناصر الأجنبية التي سُمح لها حتى ذلك الحين بالدخول في الأمة الإسلامية أو في إخراجها منها. ولم يبق الإسلام على تسامحه، بل شره في الأخذ بسياسة الإرهاب في داخل المدينة، وكانت إثارة مشكلة المنافقين علامة على ذلك التحول؛ فلم يسمح للمشركين بأن يبقوا داخل الأمة على شركهم كما كان الحال حتى ذلك الحين، وكان لا بد لهم تحت ضغط الظروف من أن يعتنقوا الإسلام، ولكنهم اعتنقوه بقلوب تتنازعها مختلف الإحساسات، وكانوا لا يخفون شماتتهم إذا بدا أن الحظ لم يستمر مواتياً للنبي. ولكن موقف اليهود كان أسوأ من موقف المنافقين، فيقول الواقدي إنه تحول بعد وقعة بدر إلى غير مصلحتهم تحولا كبيراً؛ وحاول محمد [عليه السلام] أن يظهرهم بمظهر المعتدين الناكثين للعهد[1]،

---

(١) يؤخذ من كتاب المغازى للواقدى (ص ١٦٧ و١٨١ من طبعة كلكته) أن النبي عليه السلام لما قدم المدينة وادعته اليهود، فكتب بينه وبينهم كتاباً ألحق فيه كل قوم بحلفائهم، وجعل بينه وبينهم أماناً وشرط عليهم، وكان مما شرطه ألا يُظاهروا عليه عدواً =

وفي غضون سنوات قليلة أخرج كل الجماعات اليهودية أو قضى عليها في الواحات المحيطة بالمدينة حيث كانوا يكونون جماعات متماسكة كالقبائل العربية. وقد التمس لذلك أسباباً واهية، وأعطى ما كان لهم من مزارع النخيل الخصبة إلى المهاجرة الذين لم تكن لهم حتى ذلك الحين أرض ولا ممتلكات، بل كانوا يعتمدون على كرم الضيافة من جانب الأنصار باعتبارهم نزلاء عندهم أو كانوا يعيشون من التجارة أو الغزو، وبذلك أغناهم عن الأنصار وجعلهم مستقرين وأصحاب أرض في المدينة، وبهذه الطريقة أيضاً زاد في قوته هو، لأن المهاجرة كانوا أشبه بحرسه الخاص؛ هذا إلى أن التوتر الذي لم تكن كل آثاره قد زالت بين قبائل الأنصار، وهم الأوس والخزرج، جعل للمهاجرة شأناً راجحاً.

وبعد أن هُزمت قريش عند بـدر جمعت قوتها وتوجهت، تحت قيـادة أبي سفيان بن حرب بن أمية، في حملة للانتقام من محمد [عليه السلام]. وقد انتصرت عليه بالفعل عند جبل أحد قرب المدينة, ولكن قريشاً لم تستفد من هذا النصر، بل اكتفت برد شرفها وقفلت راجعة، ولذلك فإن هذه الهزيمة لم تضر النبيَّ كثيراً، فاستطاع أن يحتملها وأن يعيد إرهاف سلاحه؛ ثم إن قريشاً فشلت في هجوم ثان قامت به على المدينة وحالفت فيه المشركين واليهود. ثم أخذت قبائل صغيرة مجاورة للمدينة تنضم إلى الجماعة الناشئة فيها انضماماً سياسياً خالصاً في أول الأمر، ثم انضماماً دينياً بعد ذلك، وشق الإسلام طريقه، وأخذ يخرج شيئاً فشيئاً من طور الدفاع إلى طور الهجوم، وكانت الجزيرة العربية تتطلع

= فلما انتصر عليه السلام في موقعة بدر حسده اليهود وأظهروا الغش ولاح منهم ما زلزل ثقة النبي في وفائهم له، فدعاهم إلى الإسلام، فأبوا، واستمروا على إظهار العداء ونبذ العهد. وحدث أن عبث يهودي بإمرة من الأنصار كانت جالسة عند صائغ، فنقض درعها إلى ظهرها، وهي جالسة لا تشعر بذلك، فلما قامت بدت عورتها، فضحك منها الناس. فقام رجل من المسلمين فقتل اليهودي، فتجايش اليهود وقتلوا الرجل، فحاصرهم النبي وأجلاهم وأخذ أموالهم ــ هذا ما وجدته عند الواقدي في هذا الصدد ــ المترجم].

باهتمام شديد إلى ما سيتجلى عنه الصراع الكبير بين المشركين وبين المؤمنين بالله، وهو الصراع الذي كان قائماً بين مكة والمدينة.

وفي أثناء الصراع الذي كان دائراً في الظاهر بين الإسلام وبين الوثنية العربية تم على نحو يستلفت النظر تعريب داخلي للإسلام نفسه. وقد كانت نقطة البداية في دعوة محمد [عليه السلام] اقتناعه، في أول الأمر، بأن ما جاء به من دين يتفق مع اليهودية والنصرانية؛ فكان ينتظر طبقاً لهذا الاقتناع، أن يهود المدينة سيستقبلونه مرحبين. ولكنهم لم يعترفوا له بأنه نبي، ولم يعترفوا بأن الوحي الذي أنزل إليه هو الوحي الذي عندهم, وإن كان اليهود دخلوا في أول الأمر، من الوجهة السياسية، في الأمة التي أسسها محمد [عليه السلام]؛ وعلى هذا خاب أمله في اليهود خيبة مريرة. ولما كانوا لم يعتبروا اليهودية مثل الإسلام، بل جعلوا منها خصما له، فإنه من جانبه جعل الإسلام خصما لليهودية، ثم خصما للنصرانية أيضاً. فجعل لدينه علامة تبدو لنا غير ذات معنى وإن كانت في الحقيقة عظيمة الأهمية؛ وهي لا تعبر عن الاتفاق بين الإسلام وبين الشريعتين المؤاخيتين له، بل تعبر عن تمايزه عنهما. فجعل يوم الجمعة(١)، بدلا من يوم السبت أو الأحد، يوم الصلاة الجامعة، وجعل نداء المؤذن بدلا من الأبواق والأجراس، وألغى صيام يوم عاشوراء الذي هو يوم صوم الغفران عند اليهود، وأحل صيام شهر رمضان محل صيام الأربعين (Quarantana) عند النصارى. وهو إذ جعل الإسلام يقوم على أسسه الخاصة مُتَعمِّداً نبذ المظاهر اليهودية والنصرانية، قد أخذ يقترب بالإسلام في نفس الوقت من دين إبراهيم اقتراباً إيجابياً(٢)، وكان لا يزال من

---

(١) [جاء في الحديث الشريف ما يدل على فضل يوم الجمعة وأنه اليوم المقدس الأصلي، راجع مثلاً فتح الباري جـ ٢ ــ كتاب الجمعة ــ المترجم].

(٢) [كان دين إبراهيم معروفاً في مكة حتى عهد النبي، وتدل النصوص الكثيرة على ذلك، كما يدل المأثور العربي الذي لا شك على أن إبراهيم هو الذي أسس البيت الحرام ليكون بيتاً يعبد فيه الله، ولا شك أن التوراة لم تتضمن كل تاريخ إبراهيم، فليس فيها شيء يذكر عن إسماعيل. ومن غير المعقول على كل حال أن يظل دين إبراهيم مقصوراً على الطرف الشمال من جزيرة العرب ــ المترجم].

قبل يعتبر نفسه النبي المرسل إلى الغرب خاصة الذي يتلقى الوحي الموجود في التوراة والإنجيل ويبلغه بلسان عربي[١]. ويظهر أيضاً أنه لم ينكر أبداً ميله الطبيعي للكعبة في مكة ولرب الكعبة، أما الآن فإنه بحكم تأثير الظروف قد خطا خطوة حاسمة في هذا الاتجاه، فغيّر القبلة وأمر الناس بأن يولوا وجوههم في صلاتهم، لا إلى بيت المقدس، كما كان يفعل، بل إلى مكة[٢]. وصارت مكة بدلا من بيت المقدس تعتبر البيت المقدس حقيقة وبيت الله الحقيقي على الأرض، وأصبح الحج إلى الكعبة، بل تقبيل الحجر المقدس، من الشعائر الدينية المفروضة. وبذلك دخل في الإسلام مركزٌ للشعائر وعيد وثني شعبي، وكان لا بد في تبرير هذا الصنيع من الاستشهاد بالتاريخ، كما هي العادة، فقيل إن البيت الحرام في مكة والشعائر الدينية المكية كانت في أول الأمر للتوحيد، وإن إبراهيم هو الذي

---

(١) [إن الدعوة الإسلامية موجهة إلى الناس كافة، وهذا ثابت بنص القرآن في سورة مكية ــ سورة ٣٤ (سبأ) آية ٢٨. ومنذ أول الأمر يصرح القرآن بأنه جاء مصدقاً لما بين يديه من التوراة والإنجيل، ولكنه يكمل الوحي السابق ويهيمن عليه ــ المترجم].

(٢) [كان النبي عليه السلام وهو في مكة يصلي متجهاً إلى بيت المقدس، وفي رواية ابن عباس أنه كان يجعل الكعبة بينه وبين بيت المقدس. فلما هاجر عليه السلام إلى المدينة أمره الله أن يصلي متجهاً إلى بيت المقدس تألفاً لليهود، كما يقول المفسرون، ولبث على ذلك ستة عشر شهراً. وقيل موقعة بدر بشهرين أمره الله بالاتجاه في صلاته إلى البيت الحرام. وفي أثناء الفترة التي كان فيها وهو بالمدينة يصلي متجهاً إلى بيت المقدس لم يقبل اليهود الدعوة الإسلامية، فكان في ذلك شيء من الحرج، وخصوصاً أن اليهود كانوا يتمنون أن يظل النبي متجهاً إلى قبلتهم، وكان النبي يقلب وجهه في السماء منتظراً الأمر الإلهي بتحويل القبلة إلى الكعبة لأنها قبلة إبراهيم عليه السلام، ولأن البيت الحرام أول بيت وضع للناس، فنزل القرآن بتحويل القبلة إلى البيت الحرام. ورغم ما في هذا كله من سياسة إلهية حكمية في التألف وفي الامتحان فإن البعض منذ عهد النبي عليه السلام تساءل، في شيء من الاستنكار، عن سبب تغيير القبلة، فوصفهم الله بأنهم «سفهاء» ونبههم إلى الحكمة في ذلك. والإسلام قد أراد جمع كلمة أهل الديانات المنزلة كلهم فلم يستجيبوا له، فأراد تجاوز الخلاف بينهم بالتمسك بدين إبراهيم والاتجاه إلى البيت الذي رفع قواعده إبراهيم، لأن أهل الديانات الثلاث ينتسبون إليه ــ راجع تفسير سورة البقرة آية ١٤٠ فما بعدها ــ المترجم].

أسسها، ولكنها بعد ذلك فسدت وصارت وثنية[١]. وبذلك انتزع إبراهيم، أو التوحيد من اليهود وجعل مؤسساً لإسلام عربي قبل الإسلام؛ واعتُبرت مكة هي مركز هذا الإسلام. ومن هذا الطريق فُصل الإسلام عن اليهودية فصلا نهائياً وجُعِل ديناً عربياً قومياً.

وهكذا أدمجت مكة في الإسلام من الناحية الروحية قبل أن تُفْتَح. أما فتحها فقد جاء بعد ذلك، في العام الثامن من الهجرة، وقد تم فتحها صلحاً؛ بأمان أُعطى سراً لأبي سفيان. أما ما كان هناك من خوف من أن تفقد مكة، بسبب الإسلام، جاذبيتها الدينية عند العرب، وهي الجاذبية التي كانت مصدر حياتها الاقتصادية، فقد زالت أسبابه مُقَدَّماً. والحق أن مكة قد استفادت أكثر مما كانت تستفيد من قبل، وذلك لأنها وحدها هي التي بقى لها بيتها المقدس عند العرب ولأنها احتفظت بالعيد الذي يقام قريباً منها، على حين أنه قد قضى على جميع الأماكن الأخرى التي كانت للشعائر الوثنية القديمة. وقد ألحقت الحرب بين قريش وبين محمد [عليه السلام] أضراراً كبيرة بقريش، فلما انتصر حرص على أن يثبت لهم كم من الخير لهم أن يكونوا له أصدقاء، فوهب لكبارهم عطايا كبيرة،

---

(١) هذا رأي المؤلف، وليس عليه برهان أصلا. ومن أين عرف أن إبراهيم لم يؤسس البيت الحرام، إذا كان العرب يعرفون ذلك قبل الإسلام. ولو فرض أن النبي عليه السلام هو الذي أخبر بذلك، فلماذا لم يعارضه العرب على شدة حرصهم على معارضة الحق! إن العرب هم وحدهم الذين يعرفون من الذي بني البيت الحرام بمكة، والمعروف أن المؤلف في كتاب آخر له يعلل ظهور الإسلام تعليلا طبيعياً ويجعل التوحيد العربي ثمرة للعبقرية العربية ولتأثير يهودي نصراني، وأين هذا كله بالنسبة للدين الجديد المبين في القرآن. إن الإسلام الذي جاء به محمد عليه السلام شيء آخر غير ما في اليهودية والنصرانية، وإن كانت هناك وجوه شبه عامة وظاهرية بين الإسلام من جهة والديانتين السابقتين عليه من جهة أخرى. والتوحيد السامي لا يمكن أن يكون قد ظل مقتصراً على شمال جزيرة العرب، فلا بد، بحكم جميع ظروف الجوار والاتصال من أن يتسرب التوحيد السامي من الشمال إلى الجنوب، كما تسربت اليهودية والنصرانية بعد ذلك، أما يسمى الوثنية العربية في مكة فهو التوحيد القديم شابته شوائب وثنية، ويعرف مؤرخو العرب ــ وهذا ما يدل عليه القرآن أيضاً ــ أن العرب كانوا موحدين، ولكنهم كانوا يتقربون إلى الله بأصنام أو آلهة اتخذوها وسيلة لذلك ــ المترجم].

وغمرهم بآيات كرمه، وسمّى هذه الطريقة لإقناعهم بالإسلام «تألُّفَ القلوب». وكان حبه الفطرى لوطنه الذي ولد فيه يلعب دوراً في ذلك، وقد ذهب في سعيه إلى تألف القرشيين بإظهار رضاه عنهم بكل الوسائل إلى حد أن الأنصار خافوا من أن يجعل مكة مقر الرياسة ويترك يثرب. ولكن هذا الإشفاق لم يكن له ما يبرره، فبقيت يثرب عاصمة الحكومة، ولم يتنقل محمد إلى مكة، بل هاجر القرشيون الطامحون الذين أرادوا التقرب منه ومن الحكومة، إلى المدينة، وكان أبو سفيان وبنو أمية من أول من هاجر إليها. ولكن هذا لم يكن في مصلحة الأنصار، لأن المهاجرة[١] صاروا يزدادون باستمرار في مدينتهم، آتين لا من مكة فحسب، بل من جميع أنحاء جزيرة العرب، وصارت للمدينة جاذبية كبيرة أثرت في ذوى الطبائع المتوثبة الذين أرادوا تجربة حظهم، وقد رحب بهم النبي كما يرحب بقبول ما تزداد به قوته، دون مبالاة بما كانوا عليه، ولو كان وراء أحدهم ماضٍ غير نقي تماماً.

وقد انتظرت القبائل العربية حتى ذلك الوقت. وبعد فتح مكة وما أعقبه بسرعة من إخضاع هوازن أذعنوا للمنتصر قبيلةً بعد الأخرى واعتنقوا الإسلام. ولم يكن الأفراد هم الذين فعلوا ذلك، بل فعله أمراء العرب بالنيابة عن قبائلهم، وصالح رؤساء العرب وشيوخهم محمداً [عليه السلام]، وحاولوا ما استطاعوا أن يصلوا إلى شروط ملائمة لأقوامهم ولأنفسهم أيضاً. فإذا كانت إحدى القبائل مثلا قد انقسمت بسبب النزاع حول الإمارة فإن أحد الفريقين المتخاصمين كان يحاول من طريق الدخول في الإسلام، أن يتقوى على الفريق الآخر، وكثيراً ما عرضت هذه الفرصة الملائمة لمحمد [عليه السلام]. وعلى هذا كان الدخول في الإسلام عملا سياسياً وانضماماً إلى الأمة في المدينة، وكان الأمر مقصوراً على قبول

---

(١) [يستعمل المؤلف نفسه هذه الكلمة وهي موجودة في كتب التاريخ، لكن الأشهر هي كلمة المهاجرين، وقد استعملها القرآن ــ على أننا لم نغير ما اختاره المؤلف ــ المترجم].

مظاهر الإســـلام وعلامات سيادته، خصوصاً الصلاة والآذان ودفع الزكاة، حتى إذا تمّ الاتفاق على دخول الإســـلام بعث النبي إلى بلاد القبائل من يقيم الصلاة بينهم ويعلمهم أصول الدين وأحكام الشريعة، فكان الاعتراف باللسان كافياً، وكان الإيمـــان، في أقوى درجاته، إيماناً ضمنياً (fides implicita).

وكانت خاتمة إدماج جزيرة العرب كلها في الإسلام تلك البراءة التي كانت في السنة التاسعة من الهجرة وأيضاً حجة الوداع في السنة العاشرة، فأُعْلِن أن الحج إلى مكة وأن العيد الذي يقام إلى جوارها أشياء إسلامية خالصة، فلا يصح للمشركين أن يحجوا إلى مكة، وبذلك أبعدوا عن ميراثهم الخاص، وهو الميراث الوثني الخالص[١]. ولم يكف هذا، بل اعتُبِرت جزيرة العرب كلّها أرضاً للإسلام وحده، فأما جميع العرب الذين كانوا لا يزالون على الشرك فقد أنذروا بذلك وبأنهم لا عهد لهم ولا ذمة بعد أجل حُدِّد لذلك[٢]، وأما الذين دخلوا في الإسلام وحكومته التيوقراطية فلهم السلام من الله، ولا يجوز أن تكون بينهم حروب. وكان الإسلام قد جرّ القلم على الماضي وعلى أسباب الحرب من قبل، أما الآن فهو أعلن أن كل مطالبة بدم سابق أو بدية سابقة يجب أن تكون تحت الأقدام[٣].

---

(١) [لا يزال المؤلف يتكلم على أساس نظريته، وهي أن التوحيد العربي تطور عن الوثنية، وهذا عكس الواقع في مكة، فالتوحيد هو الأصل والوثنية طارئة، وكما قلنا من قبل لا يعقل أن يبقى دين إبراهيم أو التوحيد السامي دون أن يتسرب إلى داخل جزيرة العرب في العصور القديمة، كما أن اليهودية، والمسيحية بعدها، تسربت في عصور تالية، هذا إلى أن في مأثور العرب أنفسهم ما يدل على أن الوثنية التي كانت في مكة جاءت قبل الإسلام بقرون قليلة، بل إن اسم من جلب هذه الأصنام معروف. والمؤلف نفسه يعرف ذلك كما يدل عليه ما يذكره عن كتاب الأصنام لابن الكلبي، وهو قد ذكر ذلك في كتابه: بقايا الوثنية العربية، والعرب هم الحجة في معرفة تاريخهم، وكل الفروض والاستنتاجات مهما كان فيها من الحذق لا تقوم حجة على العرب ــ المترجم].

(٢) [هذا ما تدل عليه الآيات الأولى من سورة براءة، فليرجع إليها القارئ وإلى تفسيرها والروايات المذكورة في ذلك ــ المترجم].

(٣) [يشير المؤلف إلى ما جاء في خطبة حجة الوداع من وضع أي إلغاء دماء الجاهلية وما كان فيها من ربى، ومن تقرير بدء حياة جديدة ليس فيها ثأر ولا عصبية، وهذه الخطبة =

وكان ذلك ضرباً من إسقاط الديون (Seisachtie) مغايراً كل المغايرة لما فعله سولون وأبعد منه أثراً وأوسع نطاقاً. ومن المدينة انتشر سلطان الدولة التيوقراطية على كل جزيرة العرب، وبقيت القبائل على حالها، وبقى أشرافها على ما هم عليه، ولكن كان لأصحاب النبي الذين أرسلهم فيهم ضربٌ من الإشراف عليهم في كثير من الأحيان، ودخلوا جميعاً في بناء دولة واحدة، مقر حكومتها في المدينة. وكان تأسيس هذه الدولة التي قضت على الفوضى وأزالت الفرقة التي شملت جزيرة العرب، إن كانت دولة مفككة، هي الحجر الأخير في البناء الذي شاده محمد [عليه السلام]. فهو لم يَمُتْ كما يموت شهيد مضطهد، بل هو مات وهو في أوج النجاح، وليس ثم ما يدعو الإنسان لأن يعيب عليه أنه حقق إنشاء مملكة الله [في الأرض] على الأساس الطبيعي الذي وجده أمامه فهو وإن كانت الضرورات العملية، في كثير من الأحيان، قد اضطرته أو هي انحرفت به إلى استعمال وسائل غير مقدسة(١)، من غير أن يسند ذلك لا إلى الله، فلا يسوغ للمؤرخ من أجل ذلك أن يعتبره منافقاً.

٤ ــ وقد حسبت قبائل العرب أنها إنما بايعت للنبي فحسب، وساد بين العرب الرأيُ القائل بأن هذه البيعة لا تربط صاحبها إلا بشخص من أعطيت له، فبعد أن توفي النبي ارتدوا عن الإسلام، ولكن ارتدادهم لم يكن عن الإيمان بالله، بل هم أرادوا التنصل من حكومة المدينة. وكان الموقف في داخل المدينة نفسها موقفاً حرجاً، ولكن الحكومة التيوقراطية تغلبت على الموقف الحرج

= بما تضمنته من إعلان الحقوق وبيان الواجبات المتنوعة وثيقة من أهم الوثائق في تاريخ الإسلام، فليراجع القارئ هذه الخطبة في كتب التاريخ والحديث والأدب ــ المترجم].

(١) [كالحرب أو إخراج اليهود الذين خانوا في مكة في رأي المؤلف، كأنما يعتبر ذلك وسائل غير مقدسة وغير صحيحة، والحق أنها هي الوسائل التي لا بد منها في الدفاع عن الحق ودرء خطر الباطل عليه. ولا يوجد دين حق إلا وقد اضطر أن يدافع عن نفسه بالجهاد والاستشهاد. وينبغي ألا يفكر الإنسان في ذلك بقدر ما يفكر في عناد أهل الباطل، وأنه لا يمكن درء شرهم إلا بالدفاع عن النفس بالقوة ــ المترجم].

الذي نشأ على أثر تغير الحاكم، وأرغمت جزيرة العرب على الطاعة مرة أخرى(١). وبدأ أن خير وسيلة لرأب الصدع هي التوسع نحو الخارج، هذا التوسع الذي أعقب إخضاع التمرد الداخلي على الفور. وكان الجهاد، وهو الحرب في سبيل الله، وسيلة إلى جعل القبائل المتمردة تحرص على مصلحة الإسلام وجعلها ترضى به. ولم يكن الجهاد لنشر الدين أكثر من ذريعة وتعلة للحرب(٢)، كما لم تكن دعوة أعداء الله إلى الدخول في الإسلام قبل محاربتهم إلا مسألة شكلية(٣)، لأنه لم يكن ينتظر منهم أن يلبوا هذه الدعوة حقيقة، أما فيما يتعلق بما عدا جزيرة العرب فقد كانت هناك قاعدة غير القاعدة التي اتُّبِعت بالنسبة للعرب، ذلك أنه لم يترك للعرب مجال للاختيار، بل كان لا بد لهم أن يدخلوا في الإسلام. وكان المقصود من هذه السياسة هو أن لا يكون في جزيرة العرب كلها دينٌ إلى جانب الإسلام(٤). وقد ذهب اعتبار الإسلام والعروبة شيئاً واحداً إلى حد أنه لم يكن من الممكن أن يدخل أحد في الإسلام دون أن يلحق بقبيلة عربية أو يندمج فيها. أما غير العرب فإنهم لم يُكرَهوا على الدخول في الإسلام، بل كان أول ما يُظَن هو في الواقع أن يبقوا على دينهم السابق. وهم، من حيث أنهم ليسوا عرباً، لم يكن ينطبق عليهم معنى العضو المواطن الأصيل في الدولة التيوقراطية، ولا

---

(١) [يقصد المؤلف انتفاض العرب بعد وفاة النبي عليه السلام وعصيانهم مما أدى إلى حروب الردة ــ المترجم].

(٢) [ولكن الاتجاه نحو الخارج كان مواصلة لسياسة النبي نفسه عليه السلام، فهو قد ذهب إلى شمال جزيرة العرب درءاً لغزو محتمل أو لمعرفة أحوال الحدود. ولو لم يغز العرب من حولهم لغزاهم من حولهم ــ المترجم].

(٣) [هذا لا يصدق على الفتوحات الأولى، وقد حدث فيما بعد أن بعض القواد كان يؤثر الفتح عنوة على الصلح لما يجره الأول من غنيمة ويوطده من سلطان ــ المترجم].

(٤) أما تغلب التي سمح لها أن تبقى نصرانية، فقد كانت تقطن أرض الجزيرة. [وفي حديث عن النبي عليه السلام أنه قال: لا يبقى دينان في جزيرة العرب. ولا شك أن هذا كان لأجل حماية الإسلام في موطنه الأول. ولذلك أجلى عمر بن الخطاب نصارى نجران لما خالفوا شروط الصلح التي كانت بينهم وبين النبي وصاروا خطراً يتسرب منه الفساد إلى المسلمين ــ المترجم].

كان يجوز لهم أن يدخلوا أعضاء مواطنين فيها، وإنما كان يجب أن يذعنوا لسيادتهم فحسب: وكان هذا هو الغرض من محاربتهم[١].

وهكذا نشأت من الدول العربية التي كان قد أسسها محمد [عليه السلام] إمبراطورية بعد موته، أعنى دولة تيوقراطية سادت العالم. وكانت هذه الدولة تشتمل على طبقتين من المواطنين، متمايزتين من الناحية السياسية ومن الناحية الدينية. وكان سادة هذه الدولة هم العرب من حيث هم مسلمون، وفي الوقت نفسه من حيث هم محاربون وفاتحون؛ وتحولت الجماعة المحمدية إلى جيش تحولا تاماً, وصارت الصلاة والصيام وبقية الشعائر الدينية في المرتبة الثانية بعد الجهاد، وأشرق الإسلام في نفوس أهل البادية على هذه الصورة، فكان بمثابة الراية التي تقودهم إلى النصر والغنيمة، وعلى أسوأ الاحتمالات إلى الجنة. وفي الظروف والأحوال التي جاءت بعد ذلك بدأ تنظيم الدولة التيوقراطية في البلاد المفتوحة، كما ينظم الجيش تماماً، فكان سجل المواطنين المشتمل على أسمائهم هو سجل ديوان الجيش، وكانت القبائل والعشائر هي التي تؤلف فصائل الجيش وكتائبه، ولم يكن جميع

---

(١) [هذا غير صحيح، بل الصحيح الذي وقع وسيقوله المؤلف في أكثر من موضع في كتابه هو أن من أسلم صار عضواً في الدولة الإسلامية له ما للمسلمين وعليه ما عليهم. ومن لم يسلم من أهل الكتاب فعليه الجزية في مقابل تمتعه بحريته في دينه وماله وإعفائه من الواجبات الحربية. أما غير هؤلاء فلا بد أن يدخل في الإسلام أو دين منزل آخر. والمؤلف يصور الإسلام على أنه دين العرب وحدهم، مع أن القرآن والحديث صريحان في أن النبي عليه السلام أرسل إلى الناس كافة وأن الآدميين من أب واحد وأم واحدة وهم سواء، وأن القرآن دعا كل الناس من أهل الكتاب ومن غيرهم إلى الدخول في الإسلام، وأن النبي عليه السلام جعل مولاه، ولم يكن عربياً، قائداً على كبار العرب... الخ، وإنما انزلقت قدم المؤلف بسبب أنه نظر في مسألة فرض الإسلام على العرب فظن أن الإسلام = العروبة، وأن الإسلام = دولة العرب على من عداهم، والحق أن إلزام العرب الدخول في الإسلام كان لحماية الإسلام في داخل وطنه، وأن الإسلام يعطى صاحبه الحق في أن يكون مواطناً في الدولة الإسلامية. أما إذا كان العرب لم يرضوا أن تكون الخلافة في غير للعرب واقتتلوا عليها فهذا شيء طبيعي، وكيف يكون الأمر طبيعياً لو أن العرب حملوا الإسلام ودافعوا عنه وأسسوا دولته عشرات السنين ثم تولى أمرهم غير عربي لم يعرف الإسلام بعد، مع أن الدولة دينية ــ المترجم].

العرب يقيدون في ذلك الديوان بل المقاتلة منهم فحسب، وكان المقاتلة يسمون، تمييزاً لهم عمن يبقون في ديارهم «بالمهاجرة» أي الذين ينتقلون إلى المعسكرات الكبرى التي منها كانت تُنَظَّم الحربُ وتوجَّه، وذلك أن الهجرة لم يكن لها معنى الهرب بل الهجرة (بالأهل والولد) إلى المراكز السياسية الحربية لأداء أعمال[١]، ولم يكن يستطيع الإنسان في الإسلام أن يتمتع بما للمواطن من حقوق كاملة إلا في الجيش وفي المدن ومعسكرات الجيش الكبرى. أما الأعراب الذين بقوا لا يعملون شيئاً، في ديارهم ومع قطعانهم، فلم يكونوا يعتبرون مواطنين بالمعنى الكامل، وكادوا ألا يعتبروا مواطنين على الإطلاق[٢]. وكانت دار الهجرة الأولى أو دار الإسلام هي المدينة، وإليها كان يسير فيض أهل التوثب والطموح، ثم أضافت إليها عواصم الأقاليم (مصور، جميع مصر) فكانت الهجرة إليها، من حيث المعنى، ممكنة. وكانت توجد في الشام من قديم مدن اختيرت لذلك. أما في غير الشام، فقد بنيت مدن حربية، كالفسطاط في مصر، والقيروان في إفريقية الرومانية، وخصوصاً البصرة والكوفة في أرض العراق.

ومن هذه المدن التي كان العرب قد تجمعوا فيها فرض العرب طاعتهم على البلاد التي فتحوها، وكان الأمر أمر سيادة حربية صرفة، وكان الأمراء الذين

---

(١) نجد هذا المعنى للهجرة في كتاب الحماسة مثلاً، ص ٧٩٢ بيت ٣:

فما جنة الفردوس هاجرت تبتغي   ولكن دعاك الخبز، أحسب، والتمر

قارن أيضاً ديوان القطامى. ق ٤، بيت رقم ٢٥:

فليس مـن الأحيـاء إلا مسـود   ربيعـة، أعـرابية ومهـاجره

(٢) كتاب الخراج ليحيى بن آدم ص ٥ س ١٨، ص ٥٩ س ١٥ ــ ٢٠، قارن مقالى عن الخوارج (في Göttinger Ges, der Wiss. 1901, p. 9.) [في المواضع التي يشير إليها المؤلف من كتاب الخراج حديث عن النبي صلى الله عيه وسلم في أمر أعراب المسلمين أنه ليس لهم في الفيء والغنيمة شيء إلا أن يجاهدوا مع المسلمين، فمن لم يجاهد ولم يك فقيراً أو شغل بتجارة أو عمل غير ذلك فلا شيء له في الغنيمة والفيء، إلا أن تصيّبه حاجة فيدخل مع أهل الحاجة ــ المترجم].

تُفتح بلاد تحت قيادتهم هم أول الولاة الذين يعينون عليها. وكذلك كان من جاء بعدهم قواداً حربيين قبل كل شيء، ولكن كما أن الجيش كان في نفس الوقت هو الأمة ذاتها، فكذلك كان الأمير هو الإمام، إمام الصلاة في المسجد، خصوصاً يوم الجمعة، وفيه كان يخطب خطبة الجمعة؛ فكان يُعَيَّن على الحرب والصلاة، وكانت الحرب والصلاة معاً من اختصاصه؛ وإلى جانب ذلك كانت له بطبيعة الحال السلطة التنفيذية، ولحق بها الفصلُ الأعلى في أمور القضاء، لأن من مقتضياته القوة القادرة على فرض السلام. وكان الأمير يباشر القضاء بنفسه في أول الأمر، ثم صار يعين قاضياً في العاصمة(١).

وكان الأمير يترك الإدارة الداخلية، والقضاء إلى حد ما؛ لمن يليه في حكومة ولايته. وكذلك احتفظ العرب في الأقاليم التي فتحوها بنظامهم القبَلي السابق، غير أن فرقاً ظهر بالنسبة لما كان الحال قبل. ففي الوطن العربي الأول لم يكن يتألّف اتحادٌ حقيقي إلا من جماعة صغيرة نسبياً، وهي الجماعة التي كانت تحل للرعى معاً وترتحل معاً، وكانت تعدّ نفسها مع غيرها من القبائل تابعة لجماعات أكبر فأكبر؛ ولكن هذه الجماعات لم يكن لها من هذه الناحية العملية كبير شأن. أما بعد أن اجتاز العرب حدود صحرائهم على نطاق واسع فقد تغير هذا الوضع، ولم تكن القبيلة كلها تهاجر إلى الخارج وتقيم مجتمعة في مكان واحد بعينه، وإنما كانت أجزاء من القبيلة تخرج إلى هنا وإلى هناك ولا تستطيع أن تعيش وحدها فكانت لذلك تنضم إلى أجزاء أخرى من قبائل قد هاجرت أيضاً وتشترك معها في نسب أعلى، وذلك لكي يتسنّى الوصول إلى الانسجام الذي لا بد منه في الجماعة، وكان هذا أسهل ما دام لم يكن للقبائل ما كان لها من قبل من مكان

---

(١) لم يكن يوجد في عهد عمر الأول [عمر بن الخطاب] مثل هذا القاضي، ويروى أنه في ذلك الوقت لم تحدث منازعات على الإطلاق، وأول ما نسمعه عن وجود قاض في الكوفة في عهد معاوية أو ابنه يزيد. وفي طبقات ابن سعد ج ٦ ص ٩١ أن شريحاً كان قاضياً عينه عمر بن الخطاب على الكوفة.

رحب تنتشر عليه وما داموا يعيشون معاً مجتمعين في معسكرات ومتصلين فيما بينهم اتصالا وثيقاً؛ ففي الكوفة مثلا، كان هناك ما يشبه خريطة حقيقية تبين توزيع القبائل التي هاجرت من البادية، على تفرعها الكبير، وهذا يفسر كيف أنه من طريق نوع من أنواع الاندماج صار لبعض الجماعات القَبَلية الكبيرة شأن جديد لم يكن لها من قبل ولم يكن لها من بعد في جزيرة العرب نفسها. ولم يزل هذا الاتجاه إلى تكون جماعات من القبائل يزداد نطاقاً بتأثير طروء أحوال أخرى، حتى أصبح عاملاً خطيراً في التاريخ الداخلي للدولة العربية.

وكان موقف غير العرب بالنسبة للأرستقراطية الحربية العربية هو موقف الرعايا[(١)] الخاضعين، وكانوا هم الدعامة المالية للدولة، فكان لا بد لهم أن يُهَيِّئُوا الحياة لسادتهم من طريق الخراج المفروض عليهم والضرائب التي يدفعونها كرعايا والتي كانت تُشْعِرُ بالغضاضة وكانت وطْأتُها عليهم أشد من وطْأة الزكاة التي كان يدفعها المسلمون. وكان تدخُّل الدولة العربية في شئونهم الداخلية ــ إذا لم تدع إلى ذلك حاجة ــ أقل من تدخلها في شئون القبائل. أما في الجهات التي كانت من قبل تابعة للدولة الرومانية فكثيراً ما بقى الأساقفة رؤساء مَدنيِّين لطوائفهم الدينية، كما كانوا من قبل. وفي فارس ظل الدَّهاقِنة رؤساء، وكان هؤلاء الرؤساء من أهل البلاد، أينما وجدوا، هم المسئولين عن الضرائب. ولم تكن الحكومة يهمها سوى حمل الخراج إلى بيت المال على المقدار المفروض له، وكان على الوالي أن يفرض الطاعة على الرعايا، حتى يُؤتوا الخراج، ثم صار يضم إليه في بعض الأحيان عامل على الخراج مستقلٌّ بذاته، ولم يكن ذلك مما يُسَرُّ له الوالي، لأن عمله عند ذلك كان يصبح مقصوراً على أن يمسك البقرة من قرونها حتى تسكن، على حين يحلبها شخصٌ آخر.

---

(١) إني أستعمل كلمة: رعايا (Unierianen) بهذا المعنى الضيق في مقابل العرب، أصحاب السلطان الحقيقيين في الدولة.

وكان الأساس لفرض الضرائب على الرعايا ولتنظيم مركزهم القانوني بوجه عام هو قانون الغنائم العربي القديم، في الصورة المعدّلة بعض الشيء والتي أقرّها محمد [عليه السلام] بحسب القرآن. فكان إذا خَضَعَتْ مدينةٌ أو أرضٌ للمسلمين صُلْحاً بغير قتال أصبح أهلها آمنين على حياتهم وحريتهم وما يملكون، لكن كان يجب عليهم في مقابل هذا الأمان وفي مقابل الحماية من جانب الدولة أن يدفعوا إتاوة بمقدار معلوم بحسب قاعدة يُنَصُّ عليها في كتاب الصلح[١]. أما إذا سلّموا عنوةً فإنهم يقعون تحت طائلة قانون الحرب، أعنى أنه يسقط كل حق لهم، فكانوا يعتبرون هم وكل ما يملكون غنيمة للمنتصر، وكان الخُمْس يؤخذ لله، أي للدولة، وكذلك كانت صوافى الملوك والضياع والقرى التي يتركها أهلها ويهربون عنها تصبح للدولة[٢]. أما ما عدا ذلك، لا الممتلكات المنقولة فحسب، بل الأرض والناس أيضاً، فكان ينبغي، طبقاً للقانون، أن يُقَسَّم، لكن لا على جميع المسلمين، بل على مقاتلة الجيش الذي قام بالفتح. ولكن هذا القانون لم يمكن تنفيذه، لأن مثل هذا التغيير الهائل في الممتلكات كان مستحيلاً، حتى لو لم يصب أهلَ الطبقات الدنيا إصابة كبيرة، لأنهم لم يكونوا يملكون الأرض، وإنما كانوا يزرعونها. ولم يكن العرب يستطيعون أن يقتسموا فيما بينهم نصف العالم، إلا إذا كان يُرادُ لَهُ أن يتحول إلى أرض خربةً، ولا كانوا أيضاً يستطيعون أن ينتشروا في تلك الأرض الواسعة لكي يزرعوها، بل كان لا بد لهم أن يتجمعوا في معسكرات إن أرادوا المحافظة على سلطانهم. ويروى أن النبي [عليه السلام] قال[٣]: «جُعِل رزقُ أمتي في سنابك خيلها وأزجَّة رماحها،

---

(١) وفي بعض الأحيان كانوا يقومون بخدمة عسكرية على حدود الدولة، وعند ذلك كانوا يعفون من دفع الإتاوة لأن الإتاوة كانت تعتبر مقابلاً للإعفاء من الخدمة العسكرية وقيام العرب بها.

(٢) يحيى بن آدم ص ٤٥.

(٣) يحيى بن آدم ٥٩.

ما لم يزرعوا؛ فإن زرعوا كانوا من الناس». وفوق هذا كان لا بد للعرب أن يُفكّروا في المستقبل، فلو أن كل شيء قُسِّم على الفور بين الفاتحين الحقيقيين، لتبددت الغنيمةُ التي حصلوا عليها بالسرعة التي غنموها بها[١]. ولذلك اعتُبرت الأرض بمثابة رأس مال ثابت وأعيرت لملاكها الأصليين على أن يزرعوها ويؤتوا غلتها[٢]. وهذه الغلة وحدها هي التي كانت نصيب العرب المحاربين ومن يرثهم من ذراريهم، فهم لم يكن لهم رأس المال، بل ما يخرج منه. وعلى هذا النحو لم تكن المدن والقرى التي فُتحت عنوة بأسوأ حالا، في الحقيقة، من المدن التي سلّمت صلحاً، وكذلك كان اسم الإتاوة في الحالين واحدا[٣]، غير أن الإتاوة في الحال الثانية كانت تحدد في شروط الصلح وكان لا يجوز تغييرها على الهوى[٤].

وهكذا نشأ التمايز بين الغنيمة والفَيْء العصر الذي جاء بعد محمد [عليه

---

(١) [جاء في كتاب الخراج ليحيى بن آدم ص ١٣ س ١٢ ــ ١٧، أن عمر بن الخطاب كتب إلى سعد حين افتتح العراق: «أما بعد فقد بلغني كتابك تذكر أن الناس سألوك أن تقسم بينهم مغانمهم وما أفاء الله عليهم؛ فإذا أتاك كتابي هذا فانظر ما أجلب الناس به إلى العسكر من كراع أو مال فاقسمه بين من حضر من المسلمين، واترك الأرضين والأنهار لعمالها، ليكون ذلك في أعطيات المسلمين، فإنك إن قسمتها بين من حضر لم يكن لمن بقى بعدهم شيء» ــ المترجم].

(٢) وكذلك نجد في سفر التكوين، ٤٧، أن الضريبة التي كان على الزراع المصريين أن يدفعوها لفرعون علامة على أن أرضهم ملك لفرعون وأنهم عبيد الله.

(٣) يقول يحيى بن آدم (ص ١١) إن كل أرض سقتها الأنهار أو سيق إليها الماء منها فهي أرض خراج، راجع أيضاً: ص ١٣، ٣٣، ٣٥ فما بعدها.

(٤) لكن الآخرين أيضاً افتعلوا لأنفسهم، فيما بعد، وثائق تسليم، ولم يكن هذا عسيراً نظراً لقلة المعرفة بالدبلوماسية وللغموض التاريخي الذي سرعان ما أحاط بعصر الفتوحات المضطرب [وفيما يتعلق بعدم جواز التغيير فيما صولح عليه أهل الصلح الذين خلى بينهم وبين أرضهم، راجع كتاب الخراج ص ٦ و٩: على أهل الصلح أن يؤدوا ما صولحوا عليه ولا يوضع عليهم شيء، ما أدوا عليهم؛ فإن عجزوا عنه خفف عنهم، وإن احتملوا أكثر مما يؤدون فلا يزاد عليهم شيء، ولا يطرح عنهم شيء لموت من مات أو إسلام من أسلم منهم، ويؤخذ بجملة ما عليهم من بقى منهم، ما كانوا يطبقونه ويحتملونه. فالقاعدة هي أنه لا يزاد عن أهل الصلح شيء، ولا يخفف عنهم شيء من خراج أو جزية إلا إذا عجزوا عنه. أما القاعدة العليا فهي ألا يكلفوا فوق طاقتهم ــ المترجم].

السلام] فكانت الغنيمة هي الممتلكات المنقولة التي تُحمل إلى العسكر، وكذلك الأسرى الذين كانوا يقسمون بين المحاربين كما كانت الحال من قبل. أما الفَيْء فكان هو ما يُغنَم من أرض ثابتة هي ومن عليها من السكان، وهي لم تُقْسَم بل تُركت لمالكيها القدماء في مقابل إتاوة، بحيث كان لا ينال مالكوها الحقيقيون بحسب قانون الحرب إلا غلّتها[1]. ولكن الدولة كانت

---

(١) كلمة الفيْء مأخوذة من القرآن (سورة ٥٩ (الحشر) آية ٦ و٧). لكن لم يكن يفرق فيه بين الغنيمة والفيء، بل هذه التفرقة غير جائزة، ومعنى الكلمة هو في الحقيقة معنى الكلمة اللاتينية: reditus أي: العائد المردود كربح... (يحيى ص ٣٣ ـ وابن هشام ص ٨٩٠ س ٧). ولكن لا تستعمل في الدلالة على ما يرتفع من الغلة فحسب، بل أيضاً على رأس المال الذي يأتي منه الفيء، والفقهاء المسلمون يعتبرون، بطبيعة الحال، أن الفرق بين الغنيمة والفيء فرق قديم، ولا يسلمون بأنه لم ينشأ إلا فيما بعد، عند التطبيق العملي، خلافاً لما يؤخذ من القرآن. [وأهم الآيات التي ورد فيها ذكر الفيء والغنيمة هي: «ما أفاء الله على رسوله من أهل القرى فلله وللرسول ولذى القربى واليتامى والمساكين وابن السبيل، **كي لا يكون دولة بين الأغنياء منكم**، وما آتاكم الرسول فخذوه، وما نهاكم عنه فانتهوا، واتقوا الله إن الله شديد العقاب» (سورة الحشر (٥٩) آية ٧)؛ «واعلموا أنما غنمتم من شيء فإن لله خمسه وللرسول ولذى القربى واليتامى والمساكين وابن السبيل، إن كنتم آمنتم بالله وما أنزلنا على عبدنا يوم الفرقان، يوم التقى الجمعان، والله على كل شيء قدير» (سورة الأنفال (٨)، آية ٤١). فالآية الأولى تفصل بيان أصحاب الحق في الفيء، والثانية تبين نصيب أصحاب الحق في الغنيمة على الإطلاق، وهم أصحاب الحق في الفيء تماماً. ومن الواضح أنه بحسب هاتين الآيتين لا فرق بين الغنيمة والفيء، من حيث دلالة اللفظ. ويؤخذ مما جاء في كتاب الخراج ليحيى بن آدم (ص ٣ ـ ٥) أن الغنيمة ما غلب عليه المسلمون بالقتال حتى يأخذوه عنوة، وهي جميع ما أصابوا من شيء، قل أو أكثر، حتى الإبرة. أما الفيء فهو ما صولح عليه المسلمون بغير قتال، من جزية أو خراج، وهو كله لمن سمى الله من المستحقين له؛ والغنيمة فيها الخمس لله، وهو مردود من الله على من ذكره من المستحقين له الذين هم أصحاب الفيء أيضاً، ولا يصح أن يوضع في غيرهم، والإمام يعطيه لمن حضره منهم بعد اجتهاد الرأي وتحرى العدل، أما ما بقى بعد الخمس فهو، من حيث المبدأ، للذين غلبوا عليه من المسلمين وأوجفوا عليه، راجلين أو بخيل وركاب.

أما الأرض التي تؤخذ عنوة، فللإمام إما أن يأخذ الخمس منها ليكون فيئاً ويقسم الأربعة الأخماس الباقية على من ظهر على أرض العنوة من جيش المسلمين، وإما أن يقفها كلها على جميع المسلمين. ويروى أن النبي [عليه السلام] وقف بعض ما ظهر عليه من الأرضين فلم يقسمها وأنه قسم بعض ما ظهر عليه، فللإمام بحسب ما يرى من المصلحة أن يقف أرض العنوة كلها فيجعلها فيئاً، كما صنع عمر بن الخطاب بأرض السواد في العراق، وإما أن يقسمها، بعد أن يأخذ =

تجبى هذه الغلة بواسطة موظفيها، ولم تكن بعد ذلك تعطى الغلة الكاملة في كل عام للمقاتلة أو لوارثيهم، بل كانت تدفع لهم أعطيات وأرزاق ثابتة، على حين يبقى ما يفضل عن ذلك في بيت مال الدولة.

وعلى هذا ظل التنظيم الإداري في البلاد المغلوبة جزءاً من نظام الاحتلال العسكري إلى حد كبير، مما يؤدي إلى استغلال الرعايا. على أن ذلك لم يغيّر من الوضع الذي كانت عليه الأشياء حتى ذلك الحين إلا قليلا. فتغيرت السيادة ولكن موقف سواد الشعب البائس الذي يحتمل عبء دفع المال (misera contribuens plebs) بقي كما كان تقريباً واقتصرت الإدارة العربية على الناحية المالية، وكان ديوانُ إدارة الدولة ديوانَ حساب، وقد احتفظ العرب بالكتّاب اليونان والفرس. وكان هؤلاء الكتاب هم الموظفين الفنين الوحيدين الذين عندهم، وهم أيضاً قد احتفظوا في الجملة بأسماء الضرائب القديمة وأنواعها، ولم يغيروا كثيراً في وضعها وجبايتها. ويروى ما كان من أمر الرجلين اللذين كانا قد قدما من المدينة لمسح أرض العراق وفرض خراجها أنهما كانا من الحكمة بحيث فعلا أقل ما يمكن واقتصدا في استعمال مواهبهما كل الاقتصاد[١]. وفي كثير من الأحيان

= خمسها. ومن الواضح أن لكل من الاحتمالين سنداً في القرآن: فآية سورة الحشر تجعل الفيء في مستحقين بعينهم ضماناً لتوزيع الثروة توزيعاً عادلاً، وآية سورة الأنفال تجعل خمس الغنيمة ــ ويظهر أن المعنى هو المعنى المطلق ــ لأصحاب الفيء أيضاً. أما بقية الغنيمة فهي للمسلمين الذين حصلوا عليها، ويدخل في ذلك ــ إذا أريد الاستنباط الدقيق ــ كل غنيمة من أرض أو غيرها. ولكن عمر جعل أرض السواد فيئاً، وقسم ما ليس أرضاً، أعنى الغنيمة بمعناها الضيق ــ وثم أشياء من أرض أو غيرها، هرب أهلها وتركوها من غير قتال، فهذه للإمام يضعها حيث يرى، كما فعل النبي من قبل، فيستطيع الإمام، إن شاء، أن يقيم فيها من يعمرها ويؤدي عنها شيئاً إلى بيت مال المسلمين، ويستطيع، إن شاء أيضاً، أن يستأجر من يقوم فيها ويكون فضلها للمسلمين، ويستطيع، إن شاء أخيراً، أن يقطعها رجلاً ــ المترجم].

(١) [هذه ترجمة حرفية بقدر الإمكان لكلام المؤلف، وهو لم يشر إلى أي مرجع يمكن الرجوع إليه لفهم ما يريد ــ المترجم].

كان الخليفة بقر الإجراءات المؤقتة التي يتخذها قواده، وكان هؤلاء يضطرون إلى الأخذ بالأوضاع المحلية.

وقد تمت معظم الفتوحات في عهد عمر، وهو يعتبر المنظِّم لها. على أنه يتضح مما تقدم أنه لم يكن مُبْدِعاً لنظام جديد، لكن يرجع له الفضل في أنه نحّى قانون الغنائم العربي جانباً، وأنه أدخل الدولةَ بين الجيش وبين الأمم المغلوبة، فحمى الرعية بعض الحماية، واستند إلى تقوية الدولة على الجيش معتمداً على الخراج الذي كانت تدفعه هذه الرعية.

٥ ــ ولم يستطع القانون السياسي أن يلاحق في نموه خطى القوة السياسية المتزايدة، ولم يكن في التراث العربي القديم ما يمكن أن يؤخذ منه قانون عملي لتنظيم الحياة العامة للدولة، ولا كان يمكن أن يؤخذ هذا القانون من مجرد فكرة الحكومة التيوقراطية، ولم يلبث أن أحسّ المسلمون بهذا النقص عندما نشأت المشكلة الخطيرة، مشكلة من الذي له الحق في الرئاسة العليا في الدولة الدينية.

ولم تظهر هذه المشكلة في حياة النبي [عليه السلام]، فكان هو خليفة الله والرئيس الديني الحقيقي، وكانت الحكومة التيوقراطية مرتبطة بشخصه ارتباطاً وثيقاً، ولم يحدث ما كان يظن من أن ساعة القيامة ستجيء مع موته، فلم تنته الدنيا، وتوفى هو دون أن يكون قد تلافى ترك رعيته من غير راعٍ. نعم، لقد ترك القرآن والسنّة، ولكن لم يرد في القرآن والسنة من الذي يُعَيَّنُ خليفة بعده. على أن ذلك لم يكن معناه إمكان الاستغناء عن خليفة بالكلية، بل كان لا بد من إمام بعينه يؤم الناس في الصلاة ويرأس الحكومة، ولم تكن توجد طريقة للانتخاب المنظم ولا كان هناك حق وراثة النبوة[١].

---

(١) [يعد أن قرر القرآن مبدأ المساواة بين المسلمين، وقرر أن «أمرهم شورى بينهم» وأوصى النبي عليه السلام بأن يشاور أصحابه، لم يكن هناك ما يدعو إلى النص على خليفة للنبي =

وقد بدا أن موت النبي [عليه السلام] معناه القضاء على الحكومة التيوقراطية، وكان بين المؤمنين من لم يرد أن يصدق إمكان موت النبي[(١)]، وارتدت قبائل العرب عن الإسلام، وكان الانقسام يهدد المدينة نفسها. ولما لم يكن أمر الخلافة بعد النبي قد اتُّخِذت له الأهبةُ من قبل فلم يبق في الإمكان إلا التصرف الحازم. وكان أقرب الناس إلى الحكومة في عهد النبي [عليه السلام] هم أتباعه وأصدقاؤه القدماء من أهل مكة، وكانوا رجالا قلائل، وكانوا بحكم سابقتهم في الإيمان هم أشراف الحكومة التيوقراطية، وكانوا أشرافاً من أصل إسلامي حقيقي، وذوى روح إسلامي حقيقية. وهم وإن لم تكن لهم مناصب رسمية، فإنه قد كان منهم في الحقيقة «مجلس» الرسول، وكان لهم مكان كبير عنده. فلما زالت عنهم حمايةُ النبي لم يدعوا أمر الحكومة يفلت من أيديهم، بل قبضوا على أزمتها بقوة عندما وقعت من يديه. وكان رئيسهم وعقلهم المفكر هو عمر بن الخطاب، وهو الرجل الذي يمكن أن يعتبر مؤسس الحكومة التيوقراطية الثانية، الحكومة التيوقراطية من غير نبي. وكان عمر آدَمَ مشرفاً

= عليه السلام، وما ذلك إلا لأن الإسلام يريد نظاماً ديمقراطياً ويريد أن يجعل اختيار الإمام من حق الأمة، ولذلك لم ينص النبي عليه السلام نصاً صريحاً على من يخلفه، ولكنه عليه السلام كأنما أراد أن يعرب عن رأيه هو في ذلك حينما عهد إلى أبي بكر بالصلاة بالناس، وهي الوظيفة الدينية الكبرى، وكان من الطبيعي أن يخلفه أبو بكر بحكم سابقته في الإسلام وطول صحبته له. ولقد كان من الحكمة السياسية البعيدة التي يغفل عنها كثير من النقاد أن النبي لم يعين له خليفة تاركاً الأمر للمسلمين، لأن الناس لا يخضعون لرئيس معين خضوعهم لرئيس يختارونه، وهذا هو الذي يدعو إلى الاستقرار. هذا ولم يكن النظام الديمقراطي بمعناه المعروف في العصر الحديث شائعاً في ذلك الزمان، بل كان اختيار الرئيس باتفاق كلمة كبار الرجال، وهم المسمون «أهل الحل والعقد»، وهذا ما قد حدث عند مبايعة أبي بكر رضى الله عنه، فهو وعمر لم يكونا مغتصبين للخلافة، بل حريصين على ما هما أهل له، وقد رضى الناس بهما، طوعاً من جانب من عرف قدرهما وكرها من جانب الحاسدين الطامعين فيما ليسوا أهلا له. ـــ المترجم].

(١) [يشير المؤلف إلى ما يحكى من أمر عمر بن الخطاب وذهوله واضطرابه لما قيل له أن النبي عليه السلام قد مات. ـــ المترجم].

على الناس من طوله، كأنه راكب. وكان إذا تكلم أسمع وإذا مشى أسرع وإذا ضرب أوجع، والروايات تصوره دائماً والدرة في يده، ولم يكن ليناً، ولا كان يتكلم رويداً ولا يقصد في مشيه كما يصنع النساك المتكلفون، ولكنه كان مع ذلك يخاف الله حقيقة، ولم يكن غافلا قط[١]؛ ولكنه قدم أبا بكر، أخص أصحاب النبي. ولما توفى أبو بكر، بعد فترة قليلة[٢]، تولى الخلافةَ عمر، فصارت له الرياسة من حيث الاسم أيضاً[٣]، وقد عهد إليه أبو بكر بالخلافة في وصية له قبل موته[٤]. ولكن هذه الوصية لم تكن من جانب أبي بكر أكثر من إقرار لشيء طبيعي. وكان أبو بكر وعمر يعلمان أنهما لم يتوليا الخلافة بفضل حق شرعي، بل من طريق الاغتصاب، وهما لم يستطيعا أن يسبغا على رياستهما، التي كانت غير شرعية في أول الأمر، ثوباً شرعياً إلا فيما بعد، وذلك بأن سارا في الحكم على المبادئ التي تقضى بها الحكومة التيوقراطية. ولما كانت حكومة النبي عليه السلام، وهو الوكيل الحي لله والحاكم باسمه، قد انتهت فإن أبا بكر وعمر جعلا الحكم لله بأن جعلا مرجعَهما في الحكم على الأشياء الأخذَ بما في القرآن، وهو كلام الله، واتباعَ سنة النبي عليه السلام. فهما لم يريدا سوى أن يكونا خليفتين لرئيس الحكومة التيوقراطية الشرعي الحقيقي الوحيد، وهو النبي، وقد عبَّرا عن ذلك باللقب الذي اختاراه لأنفسهما، وهو لقب الخليفة. وقد سمى أبو بكر نفسَه خليفة رسول الله، وسمى عمرٌ نفسَه خليفةَ خليفةِ رسول الله، حتى بدا في ذلك

---

(١) [راجع صفات عمر وسيرته عند الطبري مثلا ج ٢ ص ٢٧٢٨ فما بعدها ـ المترجم].

(٢) [كانت مدة خلافة أبي بكر سنتين وثلاثة أشهر وعشرة أيام ـ المترجم].

(٣) [يشير المؤلف إلى ما كان لعمر من نفوذ كبير في أيام أبي بكر ـ المترجم].

(٤) وصية الميت عند العرب قديمة، وكان يجوز للأمير في الحرب، بل كان يجب عليه، أن يعين خليفة له ليتولى الأمر بعد موته، بل كان أحياناً يعين خليفة لخليفته وهكذا، وكان المسلمون يشعرون دائماً أنهم أشبه بجيش. قارن كتاب Contin. Isidori Hispana ط Mommsen فصل ٩٨.

شيء من التكليف والتطويل في لتسمية فصار لقب الخليفة، مع إسقاط المضاف إليه، لقباً قائماً بذاته، وإلى جانب ذلك كانا يلقبان بلقب: أمير المؤمنين(١).

وقد خرج الخلفاء الأولون من صفوف قدماء الصحابة وكبارهم، فكان أهلُ عشيرتهم وهم قريش، يشاركونهم فيما لهم من نفوذ؛ ولم يكن ذلك مقصوراً على القرشيين الذين هاجروا إلى المدينة عام الهجرة، أو على الأقل قبل فتح مكة، بل كان يتمتع به القرشيون الذين لم يدخلوا في الإسلام إلا مكرهين، بعد أن كان قد تمَّ له النصر. وعلى هذا احتفظ النسب والدم بقوتهما إلى جانب الدين.

والقرشيون، وإن كانوا قد عارضوا الإسلام ما استطاعوا، فقد كانوا يشعرون بأنهم بجملتهم أصحاب الحق في رياسة الدولة التيوقراطية، لأن محمداً [عليه السلام] منهم، وقد شدّ أزرهم فيما طمحوا إليه النبيُّ نفسه بالفعل وأصحابُه من بعده. ومن جهة أخرى كان العرب في الجملة لا يرون بأساً في أن تبقى الرياسة في العشيرة أو القبيلة، وإن لم تَبْقَ في أسرة بعينها، معتبرين أن السيادة مِلْكٌ لهم جميعاً، وإن كان لا يتولاها إلا شخصٌ واحد. ولم يعارض في تقدم قريش إلى المرتبة الأولى معارضةً جدية إلا الأنصار. فهم قد استقبلوا القرشيين في أول الأمر، عندما هاجروا إليهم، استقبالاً كريماً. وقد هيّئوا لهم المقامَ والمعاش والحماية، ولم يعارض الأنصار أيضاً في أول الأمر في أن يختصّ النبي أتباعَه المكّيّين من وجوه شتى، ولا في أن يقع على كاهلهم هم العبء الأكبر في القتال ولا في أن يكون لأولئك نصيب الأسد من الغنيمة، كما حدث مثلاً عند تقسيم أرض الجماعات اليهودية التي أجْلِيَت عنها. ولكن بمرور الأيام أخذ يزداد بينهم الشعورُ بأن هؤلاءِ القوم الذين اجتلبوهم أصبحوا أقوى منهم، فقاموا بمحاولات لكي يظهروا

---

(١) [جاء في الطبري جـ ١ ص ٢٧٤٨: لما ولى عمر قيل له:

يا خليفة خليفة رسول الله، فقال عمر، هذا أمر يطول، كلما جاء خليفة قالوا: يا خليفة خليفة رسول الله؛ بل أنتم المؤمنون وأنا أميركم، فسمى: أمير المؤمنين ــ المترجم].

أنهم سادة في ديارهم، وأنهم لا يحبون أن يرضوا بكل ما يفعله ضيوفهم، وانفجر تذمرهم في مناسبات كثيرة، وقد أذكاه بنوع خاص سيدٌ من قبيلة الخزرج كان له نفوذ كبير من قبل ورأى أنه بعد مجيء النبي عليه السلام، قد نُحِّيَ جانباً. ولكن غيرة القبيلة الأخرى، قبيلة الأوس، لم تلبث أن تحركت ضدَّه، وذلك لأن الانقسام الخطير القديم بين القبيلتين لم يكن قد زال، وكان مفيداً للطرف الثالث الذي كان فوق النزاع. وكان من السهل على النبي في هذه الظروف أن يهدئ الأنصار دائماً، وقد كانوا في الحقيقة أيضاً مدينين له بالشكر، لأنه أنقذهم من إفناء بعضهم بعضاً بما كان بينهم من تسافك، فكانوا إذا عادوا إلى صوابهم يقرّون بأنهم ليس لهم عن النبي غنىً[1]. وقد أقلقهم كل الإقلاق ما كان يُظن من أن النبي بعد أن تمّ له فتح مكة سيترك مدينتهم ويعود إلى مكة. وهكذا سارت الأمور إلى أبعد مما ابتدأت به، ولم تزل أقدام القرشيين تزداد في المدينة رسوخاً، وازدادت قوتهم بفضل مهاجرين كثيرين جاءوا إلى المدينة من قبائل أخرى، وكانوا يسمون أيضاً: مهاجرة. وأشرف الأنصار على فقدان الكثرة العددية في المدينة وصاروا باستمرار ينزلون إلى المرتبة الثانية. وكانوا عند وفاة النبي [عليه السلام] قد تحركوا حركة قوية لكي يحصلوا على حقهم في السيادة في مدينتهم أو ليحافظوا على الأقل على استقلالهم فيها، ولكنهم نسوا أن المدينة، منذ زمان، لم تَعُدْ مدينتَهم، بل صارت مدينة الرسول التي جعل منها الرسول شيئاً آخر غير ما كانت عليه من قبل، فجعلها عاصمة جزيرة العرب وعاصمة الإسلام. وقد فوجئوا بحزم عمر وغيره من الصحابة، ولم يلبثوا أن انقسموا بسبب ما كان بينهم من عداء قديم، وفقدوا الغالبية العددية، بعد تدفق

---

(١) [راجع مثلا سيرة ابن هشام، ط. جوتنجن ص ٨٥٨ لترى كيف تدخل النبي عليه السلام فأنقذهم من التقاتل ــ المترجم].

المهاجرين من أعراب المناطق المجاورة إلى المدينة، وقد أخذ هؤلاء الأعراب جانب المهاجرين.

وكان من حسن الحظ أن بدأ في ذلك الوقت التمرد الكبير على سلطان المدينة من جانب قبائل العرب، فاختفى الانقسام الداخلي بين أهل المدينة أمام الخطر الخارجي الذي كان يهددهم جميعاً. وكان الأنصار أوفياء لتقاليدهم، فأخذوا مرة أخرى مكانتهم في الطليعة في محاربة العدو، وكان لهم أيضاً الفضل الأكبر في الفتوحات، خصوصاً في فتوح الشام. ومنهم كانت تتألف نواة الجيش الإسلامي، وإن لم يكونوا هم القواد. ولقد بقوا معارضين بعض الشيء للحكام، ولكن معارضتهم اندمجت في التيار العام المعارض للحكومة القائمة بالحكم، وهو التيار الذي كان يتزعمه أهل التقى من المتمسكين بسلامة نظام الحكومة التيوقراطية. وصارت المدينة مقر التراث الإسلامي وملاذ الطبقة الأرستقراطية الإسلامية التي أزيلت عن مكانها. وكانت معارضة المدينة للحكومة تظهر فيما بعد ذلك معارضةً إجماعية دائماً. ومن أكبر الخطأ أن يخطر الأنصارُ وحدهم على بال الإنسان في هذا المقام، فإنهم في أثناء التمرد الكبير الذي انتهى بموقعة الحرة[١] كانوا يقاتلون إلى جانب المهاجرين لهزيمة بني أمية، فهم قد اتبعوا أصحاب الحق من قريش ولم يظهروا حزباً خاصاً[٢]. على أن سيادة قريش نالت اعتراف جميع العرب عدا الخوارج، وإن كان اعترافاً غير بريء من التذمر. وقد وقفت قريش

---

(١) [يقصد المؤلف ارتداد بعض العرب عن الإسلام وامتناع بعضهم عن أداء الزكاة مما أدى إلى حروب الردة التي انتهت بموقعة الحرة ــ المترجم].

(٢) يقال إن الأنصار كانوا مصدر حزب المعارضة الذي كونه اليمنيون فيما بعد. ولا أعرف سند هذا القول. وقد كان يمن الشام هم قبيلة كلب. أما في الكوفة فكانوا همدان ومذحج وكندة، وفي البصرة وخراسان كانوا أزد عمان. وكان هؤلاء أشدهم تذمراً، ولم يكن للأنصار علاقة بهم جميعاً، وكذلك لم تكن لهم مشاركة كبيرة في تكوين حزب الشيعة، وإن كانوا قد تعلقوا بعلى في حياته، أما أن العلويين كانوا يعتبرون المدينة وطناً لهم وكانوا فيها موضع الإجلال، فهذا شيء آخر.

من التنافس بين القبائل موقفاً محايداً، ومهما كان سخط القبائل العربية على سادة قريش العريقين في الرياسة والمحتكرين لها، فإن حظ القبائل المتتالية في الحصول على حق الرياسة كان أقل من حظ قريش.

ولم تكن قريش في الحقيقة تؤلف وحدة متماسكة، فلم يكونوا في أول أمرهم [في المدينة] سوى أصحاب النبي [عليه السلام] والرجال الذين يلونه في الأمر ويعتدّ بهم. ولم تبلغ قريش شأنها في الإسلام إلا بفضل هؤلاء الصحابة، لأن قريشاً قبيلتهم وقرابتهم في النسب. ولكن نشأ بينهم، بين أفراد هذه الأرستقراطية الإسلامية الحقيقية التي تتألف من الصحابة، أخطرُ تنافس.

وحدث ذلك بعد موت عمر، فقامت عند ذلك الوقت مشكلة الخلافة من جديد. ولم يكن عمر قد أوصى لعلي. وكان لعلي، بحكم أنه ابن عم النبي وزوج ابنته، مطامع في الخلافة، بل هو كان يشعر من قبل أنه قد تُخُطِّي. أما الذي فعله عمر فهو أنه أوصى بأن يكون تعيين الخليفة الذي يخلفه من طريق الاختيار، ولكن أصحاب الشورى [الذين كان عليهم أن يختاروا الخليفة] لم يكونوا جماعة المسلمين، ولم تدخل الأمصار في ذلك، فكانت المدينة وحدها هي المدينة الرئيسية التي تتقرر فيها أمورُ الدولة، بل في المدينة نفسها أُغفل شأنُ الأنصار إغفالاً تاماً. ومن جهة أخرى لم تدخل قريش بجملتها في الأمـر، وكان أصحاب الشورى هم أقـدم ستة كانوا لا يزالون أحياءً من أصحاب النبي: وكان عليهم أن يتفقوا على واحد من بينهم، كأنهم مجلس من الكرادلة (Cardinalscollegium) أما بقية أهل المدينة فلم يكن لهم إلا الحق في المبايعة لمن يُنْتَخَب، أو هم بالأحرى كان يجب عليهم ذلك. فكان لا بد من أن تجيء البيعة بعد الانتخاب، وكان لا بد أن تتم البيعة في المدينة.

وتخطّى أصحاب الشورى الستة، هم أيضاً، علياً، لأنهم لم يشاءوا أن يعترفوا له

بأنه صاحب الحق الأول، فانتخبوا الصحابي المسنّ عثمان بن عفان، من بيت أمية، وكان أقل الستة تميزاً وشأناً، وهو كأنما كان قد رشح نفسه لديهم عندما قال لهم: لأن تعينوا حَجَراً خيرٌ من أن تعينوا مرة أخرى رجلاً مثل عمر. ولكن النتيجة جاءت مُخَيّبَةً لظنّهم، لأن ما كان عليه عثمان من ضعف لم يجيء مفيداً لهم، بل مفيداً لبيته، لأنه خضع راضياً أو مجبوراً لتأثير بيته. وكان الأمويون، شأنهم شأن أسرة النبي عليه السلام، من بيت لعبد مناف، لكنهم كانوا أشد قوة وأكثر مالاً وأعظم نباهة من بني هاشم وبني عبد المطلب، وكانوا منذ موقعة بدر قد احتلوا مكان قبيلة مخزوم، بعد أن انكسرت قوتها في معركة بدر[١]، وكانوا أيضاً قد توصلوا إلى السيادة في مكة بفضل زعيمهم الماهر أبي سفيان، وهم الذين ظلوا يتزعمون الحرب التي استمرت سنوات بين قريش من جهة والمدينة ومحمد [عليه السلام] من جهة أخرى، وهم وإن كانوا قد هزموا في هذه الحرب، فإنهم لم يفقدوا مكانتهم وما كان لهم من نفوذ، بل هم أنقذوها ودخلوا بها في الجماعة الجديدة التي اضطروا أن ينضموا إليها، وقد يسّر محمد [عليه السلام] لهم هذا الانتقال، وحرص على أن يبيّن لهم أنهم لن يخسروا بذلك. ولما كانت مكة قد فقدت قيمتها السياسية، فإنهم هاجروا إلى المدينة، ولم يلبثوا فيها أن صاروا قريبين من دقة تدبير الدولة. ونظراً لأنهم جروا مع ريح العصر وقبلوا الدين بحسب ما كانت تقتضيه الظروف، فإنهم ارتفعوا عالياً بفضل قوة الموجة التي كانت توشك أن تبتلعهم. ومنذ عهد أبي بكر وعمر نجد يزيد بن أبي سفيان، ونجد بعد موته أخاه معاوية أشخاصاً لهم شأنهم الكبير، وإذا كان بروزهم لم يكن في المدينة فقد كان من الأمصار. فلما تولى عثمان وصل الأمويون إلى الخلافة بالفعل، لأن رياسة عثمان كانت رياسة بيته، فاتخذ ابن عمه مروان بن الحكم

---

(١) راجع فيما يتعلق بالمنافسة بين مخزوم وعبد مناف، سيرة ابن هشام ص ٢٠٣ فما بعدها وص ٤٢٩

كاتباً له في المدينة، وترك له الأمر، فملأ مروان كل مناصب الولاية بأهل قرابته، وبهذا أثار عثمان على نفسه زملاءه، بقية أعضاء مجلس الشورى، وكانوا خمسة: علي بن أبي طالب وعبد الرحمن بن عوف وطلحة بن الزبير والزبير بن العوام وسعد بن أبي وقاص. أما سعد فلم يكن له طموح سياسي[١]، وأما ابن عوف فقد مات قبل عثمان، ولكن حلت محلهما السيدة عائشة أرملة النبي الشابة التي كانت تعتبر نفسها من أكبر أهل الرأي في الإسلام، وكانت تتمتع باحترام عظيم. وأحسّ كبار الصحابة أن ارتفاع شأن أسرة حاكمة [أعني بيت بني أمية]، يهدد مكانتهم التي كانت لهم حتى ذلك الحين، وكان هذا هو سبب عداوتهم للأمويين[٢]، فهل يرضون لأنفسهم، وهم خلاصة المؤمنين في الدولة التيوقراطية وأصحاب القدم الراسخة في الإسلام، بأن تزيلهم عن مكانتهم أسرةٌ من الأشراف الوثنيين القدماء بعد أن كانت هي التي تزعمت قريشاً في حربها للإسلام؟[٣] فحاول كبار الصحابة، في بادئ الأمر، أن يبعدوا بين الخليفة وبين بطانته، كما قالوا،

---

(١) [قارن الطبري مثلا جـ ١ ص ٣٣٥٥ ــ المترجم].

(٢) كأن المؤلف لا يعترض أن هناك إسلاماً في قلوب الصحابة ولا حرصاً على العمل بأحكامه من إقامة العدل والتمسك بالخير والحق، فهم في الحقيقة لم يعادوا أحداً إلا حرصاً على الدين وعلى الحكم العادل، وإلا فكيف يفسر المؤلف الفكرة التي قام عليها كتابه وهي أن الثورات التي قامت على الأمويين وانتهت بإسقاطهم كانت تستند إلى الدين. إن المؤلف مؤرخ لكنه أحياناً ينظر للتاريخ نظرة سياسية أكثر مما ينبغي ــ المترجم].

(٣) [يحكى الطبري مثلا (جـ ١ ص ٢٩١٩) أن أحد ثوار العراق الذين ذهبوا إلى معاوية بالشام قال له في أثناء المناقشة: إنا نأمرك أن تعتزل عملك، فإن في المسلمين من هو أحق منك! قال: فمن؟ قال: من كان أبوه أحسن قدما من أبيك، وهو بنفسه أحسن قدما منك، في الإسلام.

قارن أيضاً رأي علي بن أبي طالب في معاوية وأبيه أبي سفيان عند الطبري جـ ١ ص ٣٢٧٨ ــ ٣٢٧٩. وهذا يدل على الأساس الذي عليه كان الصحابة يعارضون بني أمية، ولم يكن الطموح السياسي وحده هو السبب في المعارضة، كما يؤخذ من كلام المؤلف فيما سبق ــ المترجم].

فلما لم يصلوا من هذا الطريق إلى غرضهم انقلبوا عليه هو، فتعمدوا تقويض هيبته في المدينة، وغذوا سخط الساخطين عليه من العرب في الأمصار.

٦ ـ ومهما يكن من شيء فقد بدأ التحفز للثورة في الأمصار[١]، أعني في المدن التي كان يسكنها العرب. وكان الظروف، بعد أن توقفت حروب الفتوحات الكبرى، قد تغيرت، وجاء الهدوء بعد الهياج، والتفكير المتزن بعد الاضطراب، وتنفس المحاربون العرب بعد أن كانت الحروب المتواصلة لا تترك لهم إلى الراحة سبيلاً، فوجدوا فراغاً للتفكير. وطالما كانت الغنيمة، وكانت في الحقيقة نهباً مستمراً، تتدفق من غير انقطاع إلى أيدي الجند من طريق الحملات الحربية المتواصلة، فإنهم كانوا لا يبالون ولا يهتمون أن تضع الحكومة يدها على الفيء وعلى الناس وعلى الممتلكات الثابتة في البلاد المغلوبة، لأن الجند ما كانوا ليعرفوا ما يضعون بذلك. أما الآن فقد أدركوا أنهم، من غير أن يشعروا، قد تركوا غيرهم وسط الهياج والاندفاع في ذلك العصر، يستحوذ على خير ما في الغنيمة. فلو أنهم أُعطى لهم، على الأقل، كلُّ مال الفَيْء، أعنى جملة مال الخراج الذي يدفعه المغلوبون كل عام، لرضوا بذلك. ولكن حتى هذا لم يحدث، كما رأينا، فكان الخراج الذي يدفعه المغلوبون يجرى كله، مع بقية أنواع دخل الدولة، إلى بيت المال العام، ولم تكن الحكومة تعطى للمحاربين العرب من ذلك سوى أعطيات فرضتها لهم، فاستولت الحكومة على الأموال التي كانت في الحقيقة من نصيب الجيش. واستطاعت الحكومة بفضل الحكومات التي تمت على يد الجيش، والتي هي، بحكم القانون، غنيمةٌ له، أن تستقل عن الجيش وتتخلص من سلطانه، وذلك لأنها لم تقسم الأرض والناس على المحاربين، بل استولت

(١) [يستطيع القارئ أن يتتبع تاريخ الثورة على عثمان عند الطبرى مثلا جـ ١ ص ٢٩٠٧ فما بعدها إلى شطر كبير من الكتاب ـ المترجم].

على الخراج الذي يرتفع من الأرض والناس، فنزل الجيش إلى مرتبة الافتقار للحكومة والاعتماد عليها عن طريق أعطيات كانت الدولة تستطيع أن تمنحها بالمقدار، وإلى المدى، الذي تشاؤه، وكانت تستطيع أن تمنعها أيضاً فبعد أن كانت الحكومة تعيش من يد الجيش، أصبح الجيش يعيش من يد الحكومة، فلا عجب أن يعتقد المقاتلة أن الدولة قد غلبتهم على حقوقهم وعرّتهم من أموالهم وأخذتها لنفسها وأنها تستند إلى الخزانة، فتتعالى بذلك عليهم وتأخذ بزمامهم. فزعموا أن المال الذي يجتمع من الخراج، إنما هو لهم وليس للدولة، وقالوا إنه مال المسلمين وليس مال الله (الطبرى جـ ١ ص ٢٨٥٨ وما بعدها)[١]، وتمسكوا بدعوى أن أموال الفَيْء يجب أن تقسم، وفي بعض الأحيان نهبوا بيوت المال في الأمصار. وهم على أي حال لم يرضوا بأن يُحمل ما يفضل عنها إلى بيت المال الكبير للدولة، وكانت غيرتهم من الدولة سبباً في إثارتهم بطبيعة الحال على عمالها الذين كانوا يتصرفون في سلطان الدولة ومالها، ورأوا أن العمال يبعدونهم عن الحيوان، فسخطوا ذلك[٢].

---

(١) [هذه قصة أبي ذر الغفاري مع معاوية في الشام وقصته في المدينة أيضاً، من دعوة الناس إلى الزهد ومن نهيه عن اقتناء الأموال، وحضه الأغنياء على الخروج عن أموالهم إلى الفقراء. والذي يؤخذ مما حكاه الطبرى أن ابن السوداء وهو عبد الله بن سبأ اليهودي الذي أظهر الإسلام وأحدث الفتن بين المسلمين هو الذي أوحى إلى أبي ذر بما فعل فقال له يوماً: يا أبا ذر، ألا تعجب لمعاوية! يقول: المال مال الله، ألا إن كل شيء لله، كأنه يريد أن يحتجنه دون المسلمين ويمحو اسم المسلمين. وكان هذا بحسب رواية الطبري، نقطة البداية فيما فعله أبو ذر في الشام وفي كلام معاوية هناك وفي ولوع الناس بكلام أبي ذر حتى لحق الأغنياء من الفقراء شيء من العنت. ويجد القارئ قصة ذهاب أبي ذر إلى المدينة، إلى عثمان، بعد أن شكا إليه معاوية أمره، وأمر عثمان بتوجيه أبي ذر إليه في المدينة, وكذلك ما كان من تطور حياة أبي ذر، كل ذلك عند الطبري جـ ١ ص ٢٨٥٨ ــ ٢٨٦٢ ــ المترجم].

(٢) إن الاسم الدنيوي للحكومة أو للرياسة أو للدولة هو كلمة سلطان، أما في نظر الدين فالسلطان والملك لله. وكلمة «سلطان» ذات أصل آرامي، ومعناها في الحقيقة هو: ἐζουοία, κυριότης لا κύριος في اليونانية.

وكان هذا في الواقع اعتراضاً موجهاً إلى النظام الذي وضعه عمر بن الخطاب، لأن عمر هو الذي كان قد انتزع الفيء من يد الجيش من حيث لا يشعر الجيش، وجعله للدولة، مخالفاً للقرآن في ذلك. وإن كان متفقاً مع اتجاه في النظام المالي اتبعه النبي [عليه السلام] إلى حد كبير[١]. أما إن المعارضة لذلك لم تظهر في عهد عمر نفسه، ولم تشتد ويعلو صوتها إلا في عهد عثمان، فلا يمكن تفسيره بمجرد تغير ظروف العصر، بل بتغير شخصية الحاكم أيضاً. ولقد قال عثمان بحق إن الشيء الذي ما كان أحد يجرؤ على أن يعيبه على عمر أصبح يعيبه عليه[٢].

ولقد كان يعوز عثمان ما كان لعمر من هيبة السلطان، ولذلك تجلى السلطان الأمراء والعمال في عهده وتجلى جَرْيُهم وراء مصلحتهم الخاصة على نحو أكثر سفوراً مما كان في عهد عمر، لأنهم كانوا يخشون بأس عمر[٣]. وقد كان أثر

---

(١) وكان النبي من قبل قد جعل لبيت المال ما يقع في يد المسلمين من غير حرب، وهو قد سبق عمر أيضاً في مصادرة الأحماء (جمع حمى) القديمة وفي المنع من جعل أحماء جديدة تكون مراعى لإبل الصدقة وخيلها، وبذلك أعطى النبي مثالا لمصادرة الأراضي، راجع كتابنا *Reste arabischen Heidentums* (١٨٩٧) ص ١٠٧ فما بعدها.

(٢) [راجع ما قاله عثمان لعمرو بن العاص بعد أن بدأ في هذا التشنيع على عثمان ــ الطبري ج ١ ص ٢٩٦٦ وقارن ص ٢٩٣٩ ــ ٢٩٤٠. قال عثمان لعمرو مثلاً: والله لو أخذتك بما أخذك به عمر لاستقمت، ولكني لنتُ لك فاجترأت عليَّ ــ المترجم].

(٣) [لما كلم علي بن أبي طالب عثمان في استعماله أقاربه، احتج عثمان بأنه إنما وصل رحماً وسدّ خلة وآوى ضائعاً وولى شبيهاً بمن كان يوليهم عمر، فقال له علي: إن عمر بن الخطاب كان كل من ولى فإنما يطأ على صماخه إن بلغه عند حرف جلبة... وأنت لا تفعل، ورفقت على أقربائك. فلما قال عثمان إن عمر عين معاوية قال له علي: أنشدك الله! هل تعلم أن معاوية كان أخوف من عمر من يرفأ، غلام عمر، منه؟ قال عثمان: نعم! فقال علي: فإن معاوية يقطع الأمور دونك وأنت تعلمها، فيقول للناس: «هذا أمر عثمان»، فيبلغك ذلك ولا تغير على معاوية ــ راجع الطبري ج ١ ص ٢٨٣٨ ــ ٢٨٣٩. أما فيما يتعلق بخشية الناس بأس عمر فهي تتجلى من كلام لعثمان قاله لعلي بعد أن دخل عليه ونبهه إلى بعض ما يؤخذ عليه: «فقد والله عبتم علي بما أقررتم لابن الخطاب بمثله، ولكنه وطئكم برجله وضربكم بيده وقمعكم بلسانه، فدنتم له على ما أحببتم وكرهتم، ولنت لكم وأوطأت لكم كنفي وكففت يدي ولساني عنكم فاجترأتم عليّ ــ الطبري ج ١ ص ٢٩٣٩ ــ المترجم].

ذلك في النفوس شديداً، وخصوصاً أن عثمان جرى على اختيار الأمراء والعمال من آل بيته، وبدا كأنما قد تحولت الدولة، من كل الوجوه، مأكلةً لطائفة ممتازة لها أن تجنى خيرات الأمصار.

وقد التقى على البغض لبطانة عثمان أهل الأمصار وكبار أصحاب النبي في المدينة، وكانت الغالبية الكبرى في العاصمة، خصوصاً الأنصار، وراءهم. وكان على رأس الصحابة عليّ وطلحة والزبير. على أن غضب الصحابة على بطانة عثمان كان له أسباب أخرى، وقد كان من السهل عليهم أن يجعلوا لمنافستهم تلك البطانةَ الصبغةَ الدينية اللازمة، وأن يظهروا مدافعين عن الكتاب والسنة، وأن يستغلوا السخط السائد لمصلحتهم. ولكن بالرغم من جُرْأتهم على عثمان وعدم احترامهم له، فإنهم لم يشاءوا أن يستعينوا بأهل المدينة ويحاربوه هم أنفسهم حرباً سافرة تحت سمعه وبصره، بل هم آثروا أن يقذفوا النار في الأمصار، وفي الأمصار كانت تتركز، على كل حال، القوةُ الحربية والمالية للدولة. فأما المدينة فلم يكن متركزاً فيها سوى السلطة الأدبية للإسلام. ففي عام ٤٤هـ (٦٥٤ ــ ٦٥٥ م) كتب الصحابة إلى أهل الأمصار إن أهل الأمصار: إن كنتم تريدون الجهاد فمكانه الآن في المدينة[1]. وكان كلامهم مُلْهِباً للكوفة قبل غيرها، وكانت الكوفة أكبر مركز لمعارضة

---

(١) [هذا ما يقوله المؤلف، نقلاً عن الطبري في الغالب، وهو كلام عام، وغير كافٍ في وصف الموقف، أما الطبري فهو يقول، نقلاً عن الواقدي: «لما كانت سنة ٣٤هـ كتب أصحاب رسول الله صلعم بعضهم إلى بعض أن أقدموا، فإن كنتم تريدون الجهاد فعندنا الجهاد. وكثر الناس على عثمان ونالوا منه أقبح ما نيل من أحد، وأصحاب رسول الله صلعم يرون ويسمعون، ليس فيهم أحد ينهى ولا يذب إلا نفر منهم زيد بن ثابت...»، ويقول الطبري في موضع آخر: «لما رأى الناس ما صنع عثمان، كتب من بالمدينة من أصحاب النبي صلعم إلى من بالآفاق منهم، وكانوا قد تفرقوا في الثغور: إنكم إنما خرجتم أن تجاهدوا، في سبيل الله عز وجل، تطلبون دين محمد صلعم، فإن دين محمد أُفسد من خلفكم وتُرك، فهلموا فأقيموا دين محمد صلعم. فأقبلوا من كل أفق حتى قتلوه» ــ. المترجم نقلاً عن الطبري جـ ١ ص ٢٩٣٥ ــ ٢٩٨٣].

المقاتلة للحكومة. وبينا كان الولاة في آخر عام ٣٤هـ (يونيه ٦٥٥) عند الخليفة في مكة، قامت الثورة في الكوفة يقودها مالك الأشتر، وهو من كبار اليمانيين الموالين لعليّ بن أبي طالب. ولما عاد إلى الكوفة سعيد بن العاص أميرها من مكة وقف ألفٌ من أهل الكوفة أمام مدينتهم ومنعوه من الدخول فيها. فعزل عثمان سعيداً دون تردد، وعين على الكوفة عاملا يرضاه الثوار، وبذلك هدّأهم مؤقتاً[(١)].

ولكن ثوار أهل مصر جاءوا إلى المدينة بدلا من الكوفيين. وكان عثمان قد عين ابن عمه عبد الله بن سعد بن أبي سرح، رغم أن النبي [عليه السلام] كان قد طرده وأباح دمه، مكان فاتح مصر عمرو بن العاص، ولذلك احتقد عليه عمرو، وهو الرجل الداهية الخطر، وكان يحرض عليه في المدينة، ولعله أيضاً لم يخل من التحريض عليه في مصر[(٢)]. وفوق هذا ثار في مصر محمد بن أبي حذيفة،

---

(١) [حكى الطبري في حوادث سنة ٣٣هـ (جـ ١ ص ٢٩١٥ ـ ٢٩١٦) أن سعيد بن العاص والي الكوفة من قبل عثمان، قال وهو في مجلس من وجوه أهلها، فيهم مالك الأشتر: إنما هذا السواد بستان قريش، فقال مالك الأشتر، وكان حاضراً: أتزعم أن السواد الذي أفاءه الله علينا بأسيافنا بستان لك ولقومك، والله ما يزيد أوفاكم نصيباً إلا أن يكون كأحدنا! ثم قامت مناقشة بينهم وبين الوالي، فتدخل صاحب الشرطة، فوثبوا عليه ووطئوه وطئاً شديداً حتى غشى عليه، فأخرجهم سعيد من جماعة سماره، فصاروا يجلسون في مجالسهم وبيوتهم ويشتمون عثمان وسعيداً ويؤلبون عليهما، واجتمع الناس إليهم. ثم تطورت الثورة واتهم مالك الأشتر سعيداً إلى جانب زعمه أن السواد بستان قريش بأنه يريد إنقاص الأعطيات المفروضة للرجال والنساء فلما عاد سعيد من مكة خرج أهل الكوفة بسيوفهم لرده، فرجع إلى عثمان فعزله وولى أبا موسى الأشعري استصلاحاً لأهل الكوفة وإسقاطا لحجتهم. وكتب إليهم كتاباً بذلك. ولم يرض أبو موسى أن يصلى بهم إلا بعد أن اعترفوا بالسمع والطاعة لعثمان ـ المترجم. نقلا عن الطبرى جـ ١ ص ٢٩٣٠ ـ ٢٩٣١، ٢٩٣٤، ٢٩٣٦].

(٢) [يحكى الطبرى (جـ ١ ص ٢٩٦٦ فما بعدها): أن عثمان عزل عمرو بن العاص عن الخراج واستعمله على الصلاة واستعمل عبد الله بن سعد على الخراج، ثم جمعها له، فلما قدم عمرو إلى المدينة جعل يطعن على عثمان ويؤلب عليه الصحابة والحجاج ويحرض عليه جميع الناس حتى الراعي في غنمه في رأس الجبل، كما يقول عمرو نفسه. وبعد أن حوصر عثمان خرج عمرو من المدينة وظل يترقب أخبار الفتنة، فلما بلغه مقتل عثمان قال: أنا أبو عبد الله، إذا حككتُ قرحة نكأتها ـ المترجم نقلا عن الطبري جـ ١ ص ٣٢٥٢].

وكان من قبل يتيماً في حجر عثمان[١]، كما ثار محمد بن أبي بكر، أحد أولياء عليّ المتحمسين، وكانا في المعركة البحرية الكبيرة[٢] التي كانت بين المسلمين والهرقل (اسمه Contsans) قرب شواطئ لوقية، فانفصلا بمركبهما عن الأسطول العربي قائلين: أما والله لقد تركنا خلفنا الجهاد حقاً، وقد عابا على عثمان ما عابه غيرهما في العادة، خصوصاً أنه ملأ جميع المناصب التي تدر الخيرات بأبناء عمومته، وبذلك بذروا بذوراً خطيرة للفتنة، وكان ذلك عام ٣٤هـ. وفي العام التالي لبى خمسمائة عربي من مصر، الدعوة إلى الجهاد في سبيل الله لقتال العدو الداخلي، فظهروا أمام المدينة في حوالي الشهر العاشر من عام ٣٥هـ (يونيه ٦٥٦ م) وطالبوا الخليفة بأمور وهددوا باستعمال القوة إن هو لم يستجب إليها. وقد وقف أهل المدينة، إلا القليل، إلى جانبهم وأيدوهم. لكن لما لم يكن تحت تصرف عثمان، وهو رئيس أقوى دولة على الأرض في ذلك الحين، حرسٌ في مقر دولته يحمونه بالقوة، فإنه رضخ لمفاوضة الثوار، وأفلح في إقناع أهل مصر بالانصراف، بأن وعدهم بإزالة أسباب شكواهم، لكنهم ما كادوا يبتعدون حتى جاء مروانُ بن

---

(١) [كان محمد بن أبي حذيفة من أقارب عثمان وكان يتولى أيتام أهل بيته ويحتمل كَلَّهم. أما سبب ثورته على عثمان فهي ترجع، بحسب حكاية الطبري، إلى أن محمداً بعد أن تولى عثمان الخلافة طلب من عثمان أن يوليه عملا، فلم يجده أهلا لذلك، فطلب الخروج طلبا للرزق، فأذن له عثمان وجهزه من عنده وحمله وأعطاه. فلما وقع محمد بن أبي حذيفة إلى مصر كان ممن تغير على عثمان، لأنه منعه الولاية ــ المترجم نقلاً عن الطبري ج ١ ص ٣٠٢٩، قارن أيضاً ص ٣٢٣٥].

(٢) [يشير المؤلف إلى الغزوة المشهورة بغزوة الصوارى التي كانت عام ٣١هـ (الواقدي) أو عام ٣٤هـ (أبو معشر)، وكان فيها عبد الله بن سعد بن أبي سرح هو القائد البحري ومعاوية بن أبي سفيان القائد البري. ولما التقى الأسطولان أمن الجيشان بعضهم بعضا حتى قرنوا بين صوارى السفن. وقد انشق محمد بن أبي حذيفة انشقاقا روحيا سياسيا أكثر منه حربياً، وأخذ يعيب على عثمان بعض ما صنع، خصوصاً استعمال عبد الله بن سعد، فنبذه عبد الله، فقاتل وحده ــ راجع الطبري ج ١ ص ٢٨٦٧ فما بعدها ــ المترجم].

الحكم ونفرٌ من بني أمية فجعلوه يرجع عما كان منه. وفي يوم الجمعة التالي خطب في المسجد قائلاً: «إن هؤلاء القوم من أهل مصر كان قد بلغهم عن إمامهم أمرٌ، فلما تيقّنُوا أنه باطلٌ ما بلغهم رجعوا إلى بلادهم»، وعند ذلك قامت عاصفة من الغضب عليه من جانب أهل المدينة، وكانوا يؤلّفون جمهور المصلّين، فلم يكتفوا بأن رفعوا أصواتهم معترضين على ما قاله، بل هم حصبوه حتى صُرِع عن المنبر مغشياً عليه. واحتُمل إلى داره، وكان هذا آخر ظهور لعثمان في الناس في مسجد المدينة.

ثم أخذ أهل المدينة(١) يتجمعون بكثرة أمام دار عثمان(٢)، وكانت إلى جانب المسجد، ولم يستجيبوا لدعوة من دعاهم إلى التفرق والانصراف. وبعد أيام قلائل وصل المصريون فجأة، وأحضروا خطاباً من الخليفة إلى عامله بمصر يأمره بقتلهم وصلبهم أو جلدهم وحبسهم، وأطلعوه عليه فأقسم بالله أنه ما كتبه ولا أملاه ولا أشار به ولا علم به. فقالوا إنهم وجدوه مع غلامه وعلى جمله وهو بخط كاتبه وعليه خاتمه، فأجاب أن كل ذلك بغير علمه وأمره وأن الخطَّ قد يشبه الخط وأن الخاتم يجوز أن ينتقش مثله، فقالوا: أيُجْتَرَأ عليك، فيبعث غلامُك على جملك ويُنْقَش على خاتمك ويُكتب إلى عاملك بهذه الأمور العظام! فإما أن تكون ضعيفاً مغلوباً أو غافلاً لا يصح أن يلي أمور المسلمين! ثم طلبوا منه أن يعتزل ويخلع نفسه. ولكنه رفض ذلك رفضاً حاسماً، وقال: «لست خالعاً قميصاً

---

(١) [هذا ما يقوله المؤلف، والغالب أن الذين تجمعوا هم والثوار من أهل الأمصار ــ المترجم].

(٢) الدار جملة بيوت أو حجرات متصلة ذات باب واحد، ولا يفرق العرب بين مجموعة البيوت أو مجموعة الحجرات.

كسانيه اللهُ عزّ وجلّ»[١] ومنذ ذلك الحين أصبح عثمان مُحاصَراً بالمعنى الحقيقي وكان يحميه في داره غلمانه وحَشَمُه وبعض أقاربه. وخلى أهل المدينة بين المصريين وبين ما أرادوا أن يفعلوا، ولم يتدخلوا لمنعهم، ولو أنهم أرادوا ذلك لما شق عليهم أن يقضوا على مئات قليلة من الثوار. فأهل المدينة بدأوا بإثارة العاصفة على الخليفة، «وإنما تركوا إتمام الثورة إلى ثوار من غير أهل المدينة، بل هم، خصوصاً بعض الأنصار، ساعدوا الثوار بالفعل. أما كبار الصحابة الذين كانوا يحملون أكبر الوزر في اندلاع نار الثورة، وهم علي وطلحة والزبير، فإنهم لم يبذلوا أي جهد لإخمادها، وربما كان موقفهم من الخليفة هو أنهم أظهروا أسفهم أنهم لا يستطيعون مساعدته لأن أيديهم مقيدة، ولكنهم إنما كانوا يظهرون غير

---

(١) [راجع تفاصيل الفتنة ومقتل عثمان عند الطبري ج ١ خصوصاً ص ٢٩٦٥ وصفحات كثيرة تالية.

والمؤلف قد اقتضب هنا اقتضاباً كبيراً وأغفل ذكر الدور الذي كان لعبد الله بن سبأ (ابن السوداء) في إثارة الفتنة أولاً وتنظيم الاتصال بين الثوار في مختلف مدن الأمصار. ومهما قيل في دور ابن سبأ فهو مذكور في كتب التاريخ ولا يصح إغفاله. وتجد أخبار الفتنة كلها عند الطبري مثلا ج ١ ص ٢٩٠٧ ــ ٣٠٥٠. ولا بد للباحث هنا من نقد الروايات وترتيبها وإبراز مختلف العوامل من دينية واقتصادية، وعوامل الدس والإفساد من جانب العرب وغير العرب، وإبراز الدور الذي كان لأهل المدينة ومساعي كبار الصحابة لتهدئة الفتنة وإفساد مروان بن الحكم وقومه خطط الصحابة. وعلى كل حال فالذي يؤخذ من الروايات في جملتها أن حاشية عثمان من بني أمية استغلت نفوذها باسمه وأنه لم يكن عند عثمان حرس يحميه، فعرض عليه معاوية أن يذهب معه إلى الشام، فأبى إيثاراً منه للبقاء في المدينة إلى جوار رسول الله صلعم. وأيضاً أبى عثمان أن يتنازل عن الخلافة مخافة النزاع عليها في أثناء فتنة، مما قد يؤدي إلى حرب أهلية، وخصوصاً أن هوى كل مصر من الأمصار كان مع أحد الصحابة الكبار. وقد حاول الصحابة أن يتدخلوا فنصحوا لعثمان وكان ينتصح، ولكن حاشيته من بني أمية كانت تؤثر عليه حتى مل الصحابة ذلك وقرروا ألا يعودوا إلى الكلام معه. وتدل القرائن على أن الخطابات التي استند إليها الثوار كانت مزورة على عثمان. وأخيراً لما تفاقم الأمر وأوشك القتال أن ينشب أمر عثمان من في داره ألا يدافعوا عنه مخافة ازدياد الفتنة، فاستسلم لأمر الله وقتل. وكأنما كان أمر الفتنة قد تفاقم وأصبح إيقافها مستحيلا وأصبح التدخل لإيقافها بالقوة أعظم منها شراً، فلم يتدخل الصحابة وتركوا الحوادث تسير سيرها إلى النهاية المحتومة، وكل شيء بقدر ــ المترجم].

ما يُبطنون؛ أما الحقيقة فهي أنهم لم يعملوا أبداً على إيقاف سير الحوادث آملين أن تنتهي بالفائدة لهم(١).

وجاء التحولُ الحاسم نحو الشر، أعني أول إراقة للدماء، من قِبَل المدافعين عن الدار، وذلك أن واحداً منهم رمى حجراً فأصاب رأس أحد الصحابة، وكان شيخاً كبيراً واقفاً خارج الدار، بين الجمع المحتشد، فقتله، ثم امتنع عثمان من تسليم القاتل، فشعر محاصروه عند ذلك أن لهم الحق، بل عليهم الواجب، ألاّ يبالوا بكل الاعتبارات، وشرعوا يقتحمون الدار. وكان يقودهم عبد الرحمن بن عديس البلوى من أهل مصر، ملتجئاً بظهره إلى المسجد، وقد قاتل خلصاء عثمان دون باب الدار، بل هم حاولوا، عندما أشعل الثوار النار في أبواب الدار أن يصدُّروا المهاجمين، ولكن جماعة من هؤلاء اقتحموا الدار آتين من الدور التي

---

(١) [لا شك أن في هذا مبالغة كبيرة، فالثابت من الروايات أنهم لعبوا دوراً جدياً في إزالة الفتنة، ولكن خططهم لم تنجح. ولو أنهم تدخلوا بالقوة، مع علمنا بوجود أسباب حقيقية للشكوى استند إليها الثوار ومع علمنا بأن الثوار من قبائل شتى، لكان معنى ذلك أنهم يؤيدون الفساد الذي صنعته حاشية عثمان من جهة وكان معناه الحرب بين العرب على نطاق واسع يشمل الأمصار من جهة أخرى. وقد اندهش بعض الصحابة من قتل عثمان ـــ وهذا ثابت في الروايات ـــ لأنهم لم يكونوا يتوقعون أن يجترئ الثوار على قتله. ويظهر أن القتل كان تطوراً أخيراً أفلت زمامه حتى من يد القاتلين أنفسهم.

وإذا كان للإنسان أن يعجب فله أن يعجب من تأخر معاوية عن نصرة عثمان، مع أنه رأى أوائل الفتنة ومع وجود جند الشام تحت يده وطوع أمره ومع أنه توقع اشتداد الفتنة حتى لقد أوصى الصحابة بعثمان، ولكن كان معنى هذا وقوع الحرب في المدينة، في عاصمة دولة لا تزال حديثة العهد.

الواقع أن مقتل عثمان يرجع إلى الدرجة التي بلغها نمو الدولة نفسها؛ فلم يكن هناك جيش في المدينة، ولا كان هناك حرس خاص يحمى الخلافة، ولا كان هناك مجلس يراقب أعمال حاشية الخليفة. ولا يصح أن ينسى المؤرخ أننا في عاصمة دولة دينية تقوم على فكرة أكثر مما تقوم على جيش، ودستورها فكرة أيضاً. وكانت الفتنة، إلى حد كبير، قائمة على فكرة القضاء على فساد حاشية الخليفة، تمشياً مع فكرة العدل ومع ضرورة القضاء على المحسوبية. ولا تستطيع قوة أن تقف في وجه فكرة أكثر من وقوفها أمام سيل جارف. ولم يكن الصحابة يريدون قتل عثمان جرياً وراء فائدة لهم، بل هم لم يكونوا يتوقعون القتل ولم يريدوا إذكاء الفتنة ـــ المترجم].

حولها، واندفعوا إلى غرفة الخليفة نفسه، وكان يصلى، واضعاً القرآن أمامه، غير مُبَالٍ بما كان يجري خارج الدار. وكان محمد بن أبي بكر، ابن صديقه وسلفه، أول من امتدت يده إليه، ثم اتبعه كنانة بن بشر التجيبى بالضربة القاتلة، وطعن آخرون الجثة إطفاء لما في نفوسهم. بعد هذا لم يصبح لمقاومة المدافعين معنى، واستطاع من بقى منهم أن ينجوا بأنفسهم من غير مشقة. وكان ذلك يوم الجمعة لثمان عشرة ليلة خلت من ذى الحجة سنة ٣٥هـ (١٧ يونيه سنة ٦٥٦ م) وتأخر دفن الخليفة المقتول أياماً، إلى أن تجاسر على دفنه، بعد رجاء شديد من جانب أرملته نائلة الكلبية، جماعةٌ من الخلصاء، ودُفنت الجثة بسرعة بين المغرب والعتمة من غير أن تُغسل، وحملت على باب، كانت رأسُ الجثة تقرعه، ورجمها البعض بالحجارة وتكلموا بكلمات السوء. ودعا الحال إلى دفنها في موضع كان اليهود يدفنون فيه موتاهم، بل لم يسمح الأنصارُ بدفنها في مقابر المسلمين وهكذا دفن الخليفة كما يدفن عير في مزبلة[١].

٧ ــ كان مقتل عثمان حادثاً حاسماً لا يكاد يدانيه في خطره حادثٌ آخر في التاريخ الإسلامي. فمنذ ذلك الحين صار للسيف القول الفصل في أمر رئاسة الحكومة التيوقراطية. وفُتح بابُ الفتنة ولم ينسدّ بعد ذلك أبداً انسداداً تاماً[٢]، ولم يمكن منذ ذلك الحين المحافظةُ على وحدة ممثلة في شخص إمام على رأس الجماعة إلا في الظاهر على الأكثر، وبالقوة والقهر. فالحقيقة أن الجماعة قد انشقت

---

(١) [الواقع أن الطريقة التي تم عليها دفن عثمان لا تليق به. وقد دفن في مكان يسمى حشّ كوكب، وحمل على عجل مخافة اعتراض السفهاء للنعش، وكان ذلك في الليل على ضوء السرج، ودفن في مكان شبه مجهول مخافة أن ينبش قبره. ولما جاء معاوية أزال الحائط الذي كان حول القبر وأمر الناس، خصوصاً بني أمية، بدفن موتاهم حول قبره حتى اتصل بالبقيع بمقابر المسلمين ــ المترجم].

(٢) ولذلك يسمى الخليفة المقتول بالباب المفتوح [ليراجع القارئ كلمات عثمان التي وجهها لمحاصريه ينذرهم بالفتنة المتصلة والفرقة، وهي موجودة عند الطبري في المواضع الذي أشرنا إليه من قبل ــ المترجم].

وتفرقت شيعاً وأحزاباً، كل منها يحاول أن يفرض سلطانه السياسي وأن يلجأ للسيف تأييداً لإمامه على الإمام الحاكم بالفعل، وكانت المشكلة مؤلمة لأهل الديانة والورع[١]، فكانوا بين أن يتراجعوا فيُخِلُّوا بما أوجبه الإسلام وشدّد فيه من إعلان الرأي والدفاع عن الحق بالقول والفعل، وبين أن ينضموا إلى فريق فيخالفوا أصلاً أساسياً من أصول الحكومة التيوقراطية، وهو ألاّ يحارب المؤمنون إلاَّ الكافرين، وألاّ يحاربَ بعضهم بعضاً ويريق بعضُهم دماء بعض. وكانت الإجابة عن سؤال: ما قولكم في مقتل عثمان؟ هي التي تكشف عن اختلاف الناس في آرائهم.

أما ثمرة تلك الفَعْلة المُحَمّلة بالبلاء فقد وقعت في حجر عليّ. وذلك أن علياً، ختن النبي، كان بعد موت أبي بكر وعمر وعبد الرحمن بن عوف أكبر الصحابة غيرَ مدافَع، وكانت له مكانة أكبر مما كان لطلحة والزبير، وكان في أثناء حصار الدار هو الذي يصلي بالناس كما أنه هو الذي حج بهم، وكان في نظر كافة أهل المدينة، خصوصاً الأنصار، هو الخليفة الطبيعي لعثمان، وكان هوى المصريين معه أيضاً، ومن أجله كانوا يعملون لا من أجل غيره، وكانت كلمتهم، في تلك الساعة المضطربة، هي الكلمة الفاصلة. وقد تلقى البيعة العامّة في المسجد، في نفس اليوم الذي قتل فيه عثمان، ولكن كان من الطبيعي أن تعقب الهياجَ والاضطراب حركةُ نكوص. فلحق النفوسَ شيءٌ من الانقباض، ولم يهلّل أهلُ المدينة للخليفة الجديد الذي تلقى البيعة وسلطان الخلافة من أيدٍ غير بريئة من الإثم[٢]. وهم لم يؤيدوه تأييداً قوياً، وكأنما كان من حسن حظه أن طلحة

---

(١) ومن أجل ذلك تسمى الحرب الأهلية بالفتنة.

(٢) [جاءت في الطبري (جـ ١ ص ٣٠٦٦ فما بعدها) أخبار مبايعة الناس لعلي وما روى من امتناعه ثم قبوله وما قيل في بيعة طلحة والزبير طوعاً أو على كره منهما. ويظهر أن علياً قد اضطر إلى قبول الخلافة، بعد أن كان يرى أن تترك للشورى، بسبب الموقف، وهو أنه لو رجعت الوفود إلى الأمصار بعد الحج من غير أن يكون هناك خليفة لوقع انقسام كبير. ويجد القارئ =

والزبير، وهما اثنان من الثلاثة الكبار بين الصحابة، انقلبا عليه انقلاباً مخزياً، لأنه بتلقّيه البيعة نال دونهما نجاحاً قانونياً. وهما في حياة عثمان لم يألوا جهداً في الكيد لعثمان. وكان يبدو أن ذلك لأجل علي، فقد قدّماه على أنفسهما، لكنهما الآن خرجا عليه خروج المنافسين، واتهماه بأنه هو الذي دبّر مقتل عثمان وأنه هو الذي استفاد منه. فتركا المدينة وانتقلا إلى مكة. وكانت هناك عائشة أم المؤمنين، وقد انسحبت من الثورة على عثمان، بعد أن اشتركت فيها بالفعل اشتراكاً قوياً[١]، والتجأت إلى مكة قبل أن يبلغ الأمر غايته، وذلك لتعلن براءتها من دم عثمان وتستطيع أن تكيّف موقفها بحسب ما يؤول إليه أمرُ الفتنة. على أنها كانت تبغض علياً[٢]، فلما سمعت أنه تلقى البيعة لم تتردد في تقديس عثمان، ونادت إلى الأخذ بالثأر له من الخليفة الجديد[٣]، وقد التف حولها عددٌ من الهُرّاب الذين تساقطوا إلى مكة، اختلف الحكمُ في أمرهم اختلافاً كبيراً. وانضم إليها طلحة والزبير واستترا وراءها، وكانوا ثلاثتهم رؤساء وقواد الثورة على عليّ في جزيرة العرب. ولكنهم لم يستطيعوا أن يبدأوا محاربته من مكة، لأنه كان في المدينة، وكانت المدينة أكثر عدداً من مكة بكثير، فقرروا أن

= كل ما يتعلق بأحداث خلافة علي عند الطبري ج ١ ص ٣٠٦٦ ــ ٣٤٧٤. ونظراً لأن كثيراً من هذه الأحداث معروف مشهور فقد أضربنا عن ذكر بعض النصوص مكتفين بالإشارة الإجمالية إليها. والمؤلف اقتضب في عرضه للحوادث اقتضاباً كبيراً، ونظر إلى المسألة بمنظار سياسي خالص وأغفل روايات أصحاب الحديث، ومنها ما جاء عند الطبري ج ١ ص ٣١٦٩ فما بعدها والروايات التي تدل على رغبة كبار الصحابة وعائشة في الصلح وعلى إفساد قتلة عثمان خططهم (الطبري ج ١ ص ٣١٨١ ــ ٣١٨٦) وعلى الدور الذي قام به السبئية وعلى عامل الإحراج في الحرب ــ المترجم].

(١) [راجع مثل الطبري ج ١ ص ٣٠٩٨ س ٧ ــ ٩ وص ٣١١٢ ــ المترجم].

(٢) [راجع، خلافاً لهذا، الطبري ج ١ ص ٣١٧٠ ــ المترجم].

(٣) [راجع الطبري مثلا ج ١ ص ٣٠٩٦ فما بعدها: قالت عائشة في خطبة لها بمكة إن الذين قتلوا عثمان هم غوغاء أهل الأمصار وأهل المياه وعبيد أهل المدينة وإن «أصبع عثمان خير من طباق الأرض أمثالهم»، ثم دعت إلى الاجتماع على قتال القتلة «حتى ينكل بهم غيرهم ويشرد من بعدهم» ودافعت عن عثمان ودعت إلى الأخذ بثأره ــ المترجم].

(٤) [الطبري مثلا ج ١ ص ٣١٠٢، ٣١٠٤ ــ المترجم].

يخرجوا من جزيرة العرب وأن يقصدوا البصرة، وكان لهم بها صنائع ولأهلها هوى في طلحة، فاستطاعوا أن يستولوا على البصرة وأن يستقروا فيها. وإزاء ذلك رأى عليٌّ أيضاً أنه لا يستطيع البقاء في المدينة، فأتْبَعَهم إلى العراق، وقصد الكوفة أولاً، وكان مالك الأشتر، ذلك اليماني صاحب الكلمة النافذة، قد مهد الأرض هناك. وخرج عليّ في أهل الكوفة، وهاجم أهلَ البصرة، فانتصر عليهم على مقربة من مدينتهم، في موقعة الجمل[1] (٩ ديسمبر سنة ٦٥٦)، وهي تسمى بهذا الاسم لأنها كانت تدور رحالها حول الجمل الذي كانت عليه عائشة. فأما طلحة والزبير فقد وقعا قتيلين، وأما عائشة فإنها بعد هذا الإخفاق انسحبت من على المسرح. ثم صالح أهلُ البصرة علياً، وبايع له أهلُ العراق جميعاً. فأقام هناك وجعل الكوفة مقراً له.

وقد كانت النتيجة الأولى لمقتل عثمان هي أن الخلافة القديمة قد انتهت في مدينة الرسول، وأن الخلافة الجديدة جعلت مقرها بعيداً عن المدينة. وقُضِي على قداسة الخلافة، وصار الحكم في النزاع عليها إلى السيف. ولكن قوة الدولة كانت في الأمصار، وكانت غالبية القبائل قد هاجرت إلى مدن المعسكرات، وانتقل مركز الثقل في جزيرة العرب من وسطها إلى أطرافها. وكان أهل المدينة أنفسهم قد خطوا الخطوة الحاسمة في ذلك، لأنهم دعوا أهل الأمصار إلى مدينتهم وخَلّوا بينهم وبينها، يفعلون فيها ما يشاؤون. وبذلك تنازل أهل المدينة عن سيادتهم التي كانت شاملة. ويمكن القول إن كبار الصحابة، بنوع خاص، قد ارتكبوا انتحاراً سياسياً، لأنهم هدموا السيادة الأدبية التي كانوا يستندون إليها، وذلك لأنه إذا كان الأمر أمر القوة المادية، فإن غيرهم كان أقوى منهم. ومنذ ذلك الحين نزلت جزيرة العرب عن مستواها الذي كان لها قبل الإسلام نزولاً

---

(١) [الطبري ج ١ ص ٣٢١٨: كانت وقعة الجمل في جمادى الآخرة سنة ٣٦هـ ـ المترجم].

كبيراً، وذلك بسبب هجرة العرب منها على نطاق واسع، وبسبب ما لحقها من خراب على أثر الهجرة. ونجد صدىً للبكاء الأليم على ذلك في القصائد القديمة[١]. فلم تعد المدينة عاصمة الدولة، وكل الجهود التي بُذِلت لاسترداد مجدها المفقود ذهبت سدىً، ولم يبق لها من الشأن سوى أنها أصبحت داراً للتراث الإسلامي الذي صار موضوعاً لمصنفات العلماء، كما أنها غدت ركناً تنزوى إليه الطبقة الساخطة التي تندحر جانباً والتي كان الفضل في تكوينها للنبي؛ فكانت من معزلها هناك تحاول من حين إلى حين أن تصل إلى تحقيق مطامحها: على أن المدينة قد احتفظت بجاذبيتها من حيث أنها وطن لقوم يحبون أن يقيموا أينما شاءوا، أو لقوم أخفقوا في دورهم السياسي، أو لقوم انسحبوا لأسباب أخرى. وهكذا صارت مدينة أهل الصلاح والديانة مدينة الطبقة الغنية من أشراف العرب الذين أرادوا اللهو، ومدينة التسلية والموسيقى والغناء واللهو والمجون.

واستطاع عليّ، من مقر خلافته في الكوفة، أن ينشر سيادتَه على جزيرة العرب كلها، عدا الشام وحدها: وقد كان لهذه الولاية مركز انفردت به، لأن معظم العرب الذين كانوا يقطنونها لم يذهبوا إليها مهاجرين كغيرهم. وكان لهم، إلى جانب ذلك، تقاليد غير التي كانت لأهل الكوفة والبصرة، وكانوا منذ زمان طويل واقعين تحت التأثير اليوناني الروماني؛ وكانوا قبل الإسلام تابعين للدولة هي دولة الغسانيين، ولذلك كانوا متعودين على النظام والطاعة بعض التعود،

---

(١) فيشكو البُريق بن عياض شاعر الهذليين من أنه بقى وحده شيخاً هرماً ومعه قليل من النساء والأطفال في بلاد كان يعمرها ناس كثيرون، ويردد ذلك أبو خراش وغيره. ويروى أن فتى جاء إلى عمر يطلب اللحاق بالجيش، فقال له عمر إن بقاءه براً بوالديه خير من الهجرة. وهذا هو ما يتضمنه إنجيل مرقص (الإصحاح السابع، الفقرة ٧ فما بعدها) [ويجد القارئ شعر البريق هذا فيما نشره المؤلف من شعر الهذليين، ضمن الجزء الأول من كتابه *Skizzen und Vorarbeiten*، برلين ١٨٨٤، ص ٢١ ـ ٢٣ من القسم العربي ـ المترجم].

فلم يثوروا على أميرهم مع أنه كان أموياً، وهو معاوية بن أبي سفيان. وكان معاوية قد لبث على ولاية الشام عشرين عاماً، ورضي عنه الناس جميعاً، فلم يَبْدُ له عند ذلك أن يخلى المجال ويبايع لعليّ، وكان موقفه إزاء علي يختلف عن موقف طلحة والزبير، وكان أكثر مواتاة له من موقفهما. وهو لم يكن من المستحقين للخلافة، ولا هو طالبَ بها، بل اختط لنفسه في تلك الولاية التي كان يدبر شئونها سياسة خاصة، فهو لم يعتبر أن ولايته قد انتهت بمقتل عثمان، وحافظ على منصبه إزاء الثورة. وقد استطاع أن يسجل على رايته الولاء والطاعة للحكومة الشرعية؛ وذلك خلافاً لأصحاب الفتنة التي لم تزل لها صفة الفتنة، وإن كان الذين قد أثاروها هم أهل الدين والصلاح باسم الإسلام. وقد كان مما أفاده أنه كان، بحكم أنه ابن عم الخليفة المقتول، صاحبَ الحق في التأثر لمقتله، وأن واجب الثأر يقع على عاتقه. وإنما كان على معاوية هذا الواجب دون غيره من أقارب عثمان، لأنه كانت لديه دونهم جميعاً الوسائلُ الكفيلة بالوصول إلى ذلك؛ فقد كانت له الإمرة في الشام على جيش وطني بالمعنى الحقيقي.

وبعد موقعة الجمل أسرع عليٌّ في أهل العراق قاصداً أهل الشام، فالتقى بجيشهم على حدود الفرات. وهناك عند صِفِّين، وقعت معركةٌ حامية الوطيس، ومال النصر فيها أخيراً إلى جانب عليّ. حتى إذا رأى أهلُ الشام أنهم على وشك الهزيمة، رفعوا المصاحف على أسنَّة رماحهم. وفهم أهلُ العراق المقصود من ذلك: إنكم تريقون دمَ قوم مسلمين، هم مثلكم ينضوون تحت راية كلام الله. ولقد كان لهذا أثره في أهل العراق، وذلك أن القيام لأجل الحق في الحكومة التيوقراطية ساقهم إلى قتال عثمان، ثم محاربة عائشة وأهل البصرة، وهو الآن يسوقهم إلى محاربة معاوية وأهل الشام؛ وإذن فالجماعة الإسلامية قد انشقت على نفسها، فمن الذي منهم على الحق؟ ولما كان هذا الموقف الملتبس قد تبيّن لهم،

في ساعة مضطربة، على صورته الواضحة، فإنهم اضطربوا وتحيروا؛ فكان أهل الدين الموجودون في المقدمة والذين يضربون المثل لغيرهم، هم أول من خفض السلاحَ أمام القرآن، فحذا الآخرون حذوهم، وأجبروا عليه أيضاً على الكف عن القتال وعلى ألا يجعل تقرير أمر الخلافة للسيف بل للقرآن، أي على يد محكّمين يصدرون في حكمهم عن القرآن؛ فلما مانع في ذلك هدَّدوه بأن يكون مصيره مصيرَ عثمان. ولكنهم لما خرجوا من صفين، وكانوا في طريقهم إلى الكوفة أدرك جند عليّ كلهم أنهم قد خُدعوا عن النصر خدعةً تعسة، وكان أشده ندماً أولئك الذين كانوا أول من وقع في شَرَك الخديعة فأضلّوا غيرهم، واعتبروا أنه قد كان من أكبر الإثم أنهم سمحوا للاضطراب أن يتطرق إلى إيمانهم وأنهم تحيّروا حيناً في اعتقادهم بمشروعية الثورة على عثمان. ولكنهم، من جهة أخرى، لاموا علياً أيضاً، لأنه قبل التحكيم، ولأنه بقبوله إياه قد جعل القضية العادلة التي كانوا يحاربون من أجلها موضعَ شك بالفعل. فطلبوا منه أن يبادر بالرجوع عن الخطوة التي كانوا هم أنفسهم أجبروه على أن يخطوها، وأن ينقض المعاهدة التي عقدها مع أهل الشام. فلما لم يكن في استطاعته أن يتبعهم ولا أن يتأرجح طبقاً للنغمة التي يضربونها، عند ذلك خرجوا عليه ونزلوا معسكراً خاصاً بهم في حروراء، فسُمُّوا لذلك بالحرورية. أما الاسم الشامل الذي يطلق عليهم فهو اسم الخوارج.

ولكنهم في هذه المرة لم يأخذوا سواد الناس معهم، وذلك أن أهل العراق ــ ويجب أن يكون المفهوم عند إطلاق هذه التسمية هو أهل الكوفة دائماً وقبل كل شيء ــ ظلوا في الجملة موالين لعليّ، ولكن موقفه بينهم كان مغايراً لموقف معاوية بين أهل الشام، ولم يكن مواتياً له مواتاة مكانة معاوية عند أهل الشام. وذلك أن معاوية لم يصل إلى منصبه مرفوعاً من أسفل، بل هو عين من فوق، من قبل الخليفة؛ فلم يكن في منصبه مديناً لمن دونه من الرعية، وكان موقفه منهم

موقف المستغنى غير المحتاج. وكان أهل الشام يطيعونه إذا أمر، وكانوا أيضاً، بطبيعة الحال، مقتنعين بأنه على الحق في محاربته قَتَلة عثمان، على أنه مهما كانت الظروف فإنهم كانوا، بلا شك، جاعلين قضيتَه قضيتَهم. وكانوا يعرفونه ويُجِلونه منذ سنين طويلة، وكانوا، إلى جانب هذا، قد اعتادوا من قبل شيئاً من النظام الحربي. أما عليّ فقد كان لاصقاً به أن مصدرَ خلافته يرجع إلى الثورة، ولم يكن لديه لا الزمن الكافي ولا المقدرة على التغلّب على هذا النقص بصفات شخصية ممتازة. ولم ينس له أهل العراق أنهم هم الذين رفعوه إلى منصبه، وكانوا أبعد عن روح النظام، أو هم كانوا أكثر تديناً وورعاً من أن يطيعوا خليفتهم حيثما يوجههم. ولقد ندموا بعد صفين أشد الندم، لأنهم أفسدوا عليه سياسته، ولكنهم لم يريدوا أن يصلحوا ما ارتكبوا من خطل، فيؤيدوه إذا استؤنف القتال مع أهل الشام تأييداً قوياً، بعد أن تبيّن أن التحكيم انتهى بمهزلة. فلم يستطع عليٌّ أن يستنهضهم إلى حرب جديدة، ولم يطيعوه طاعة الجند، رغم شدة إلحاحه عليهم في ذلك، وتركوا معاوية بفتح مصر ويقلق العراق بفِرَقٍ من جيشه تغير مسرعة حتى تقترب من الكوفة. حتى إذا جمع أهل العراق همتهم أخيراً وكانوا على أهبة المسير، قُتل عليّ. وأحسّ ابنُه وخليفته الحسن أنه أضعف مما يقتضيه منه الموقف، فباع حقه في الخلافة لمعاوية، وتمكن معاوية من دخول الكوفة واضطر أهل العراق إلى أن يبايعوه، وانتهت بذلك الحربُ الأهلية.

٨ ـــ وهكذا توصل الأمويون إلى الخلافة، ولكن أقدامهم لم تكن راسخة إلا في الشام (ومعها الجزيرة ومصر). أما فيما عدا ذلك فكانوا يصطدمون بمعارضة خفيّة وسافرة، فلم يستطيعوا أن يحافظوا على سيادتهم إلا بالقوة، وكان عليهم دائماً أن يعملوا على تفادي الثورة عليهم أو على إخمادها. وكان موطن الثورة عليهم في العراق، خصوصاً في مدينة الكوفة، كما كان الحال من قبل.

ولقد هُزم أهلُ العراق في الحرب مع أهل الشام، أو هم، على الأقل، فقدوا الجولة. وكان من أثر ذلك أن انتقلت الخلافة، وانتقل معها في الوقت نفسه بيتُ مال الدولة، من الكوفة إلى دمشق. وكان لهذا وقعٌ أليم في نفوس أهل العراق، بعد أن كان قد سبق السيفُ العذل. فقد كانت لهم الدولة، أما الآن فقد نزل شأنُ بلادهم، فصارت مصراً من الأمصار، وخرج من أيديهم ما كانت تدرّه البلاد التي فتحوها من خيرات، وأصبح لا بد لهم أن يقنعوا بفُتَات الأعطيات التي تتساقط من مائدة سادتهم. وقد اضطروا إلى الإذعان بسبب حاجتهم إلى الدراهم، وكانت هذه تنقص بحسب إرادة مانحها، أو كانت تُقْطع أيضاً. فلا عجب أنهم كانوا يروْن في سيادة الشام عليهم نيراً قاسياً، وأنهم كانوا مستعدين أن يطرحوه إذا بدا لهم أن الفرصة مواتيةٌ لذلك. وكانت أعنف الثورات على الأمويين تأتي من جانب أهل العراق، لا من فريق معين، بل من جانب جميع العرب المقيمين هناك، لأنهم كانوا مجتمعين لمن غصبهم إياها. فكان لا بد للدولة دائماً من عمال ذوى حُنْكة ممتازة لإلزام تلك الولاية الجامحة حدودَ الهدوء والطاعة. على أنه بمضى الزمن أصبح ذلك غر مُسْتَطاع إلا نتيجة الجند المحليين وباجتلاب جنود احتلال من أهل الشام وبإقامة سيادة حربية بالمعنى الحقيقي، لم يكن مَقَرُّها في العاصمة القديمة للبلاد، بل في مدينة حصينة جديدة أنشئت لفرض السيادة عليها(١).

ثم بدأ أهل العراق يجعلون قضيتَهم قضيةَ الإسلام نفسه، وجَنّدوا الدين ومبدأ الحق والعدل في محاربتهم للقوة الغاشمة، وهكذا حالفت المعارضةُ الدينَ على الدولة الأموية. ومن الواجب على المسلم أن يأمر بالمعروف، وأن ينهى عن المنكر بلسانه ويده، ولا يسوغ له أن يكتفى هو نفسه بالامتثال لإرادة الله، بل

---

(١) [يقصد المؤلف إنشاء مدينة واسط على يد الحجاج ــ المترجم].

يجب عليه أن يعمل على أن تكون إرادة الله هي العليا في المجتمع، فلا محل للسكوت على الأوضاع الفاسدة، لأن الدين يُلزم الفردَ بالتدخل في الحياة العامة, وذلك أن الدين يعتبر الفرد مسئولا عن نصيبه فيما يجب عليه للجماعة، وميدان النشاط الديني هو السياسة، وهذا هو معنى الحكومة التيوقراطية[١]، ومن جهة أخرى كان في الإمكان أيضاً استخدام الدين من حيث أصوله في تأييد النظام الذي كان قائماً، وفي تنبيه الناس إلى ما يجب عليهم من طاعة أولى الأمر ومن المحافظة على وحدة كلمة الجماعة. ولكن معظم قوة الدين كانت في الواقع، في جانب المعارضة، وكانت مبادئ الحكومة التيوقراطية لا تقر صور الحكم التي كانت عليها الجماعة الإسلامية إذ ذاك، فكانت تلك المبادئ حائلا دون ضرورة التسليم بأن التاريخ له من القوة ما يجعل بعض الأوضاع مشروعة، وبأن للدولة أن تصغى إلى «عقلها» الخاص، وأن تتوخى من الأغراض ما يحفظ من كيانها ويزيد من قوتها، وأن الدولة التي كانت قائمة ما كانت لتستطيع أن تتفادى ذلك بسهولة. ولكن أحداً، من جهة أخرى، لم يَنْسَ أبداً للأمويين أنهم كانوا من أول أمرهم أخطر أعداء النبي [عليه السلام]، وأنهم لم يعتنقوا الإسلام إلا في الساعة الأخيرة مكرهين، وأنهم عرفوا بعد ذلك كيف يجنون لأنفسهم ثمرة انتصاره وسيادته، وذلك من طريق استغلال ضعف عثمان أولا، ومن طريق المهارة في استغلال مقتله بعد ذلك. وقد كان أصل الأمويين لا يجعلهم أهلا لقيادة الأمة المحمدية، وكان من السخرية بفكرة الحكومة التيوقراطية أن يظهر الأمويون مُمَثِّلِيها الأعْلَيْن؛ فهم كانوا مغتصبين، وظلوا كذلك، ولم يكونوا

---

(١) كانت العبرة التي أخذت من مفاسد السياسة سبباً في أن ظهر في الإسلام أيضاً اتجاهٌ شبيه بالاتجاه الإنجيلي، وهو يريد أن يبتعد عن السياسة باعتبار أنها فتنة، ولا يثق بمزاعمها الدينية. وكان لهذا الاتجاه ممثلون بلغوا غاية النبل، منهم سعيد بن المسيب في المدينة، والحسن البصري في البصرة.

يستندون إلا إلى قوتهم الخاصة، إلى قوّة أهل الشام. ولكن قوّتهم لم تستطع قط أن تصير حقاً شرعياً. ولقد زاد في البغض للأمويين قِدَمُ الشكوى من «السلطان» وأفعاله، وظلت هذه الشكوى موجهة إليهم خاصة، باعتبار أنهم أصحاب السلطان في ذلك الزمان، وكانت موضوعات الشكوى هي هي: أن العمال يسيئون استعمال سلطتهم ويظلمون الناس، وأن أموال الدولة تجرى إلى جيوب أفراد قلائل يستأثرون بها، على حين أن معظم جيوب غيرهم تبقى خالية، وأن الزنا والعهر والشراب والميسر أصبحت لذّاتٍ للسادة لا يُعَاقبون عليها، لأن الحدود معطَّلة[1].

وكان لسانُ حزب أهل الدين والورع الساخطين على الحكومة هم الفقهاء والقراء، أعنى علماء الشريعة وعلماء القرآن. وكان موقفهم من الأمويين شبيهاً تمام الشبه بموقف علماء الكتاب والفاروسيين من اليهود إزاء بيت الحشمونيين. وكان الحق الذي يعارضون به القوة الحاكمة أيضاً حقاً إيجابياً ثابتاً تماماً ومكتوباً ومأثوراً، وكان موجوداً في القرآن والسنة. وكانوا يستنبطونه بالتأويل من الكتاب؛ وكانوا يضعونه في الأحاديث النبوية، لأنهم لم تكن في ذلك الوقت في صورتها الأخيرة الثابتة، وذلك بأن كانوا يدّعون أن الفصل في المسائل السياسية التي لم تكن قد ظهرت إلا فيما بعد قد ورد على لسان النبي [عليه السلام]، ولم يكن ذلك يخلو بطبيعة الحال من تناقض.

وكان أشد ممثلى المعارضة الدينية تطرفاً وأتقى الأتقياء، هم الخوارج. فقد أخذ الحق الديني عندهم صورة مبدأ ثوري بالمعنى الكامل، وكانوا يفخرون بأنهم

---

(١) الظلم والاستئثار (بالفيء) وتعطيل الحدود. وكذلك طولب بأن يُسأل العمال عن أعمالهم، وأن يعطوا القود من أنفسهم في الظلم الذي يرتكبونه هم في مناصبهم. ولم يستجب الخلفاء إلى هذه الشكاوى، لأن محاسبتهم لمن كانوا يبعثون بهم من العمال كانت مقصورة على محاسبتهم على أن يحملوا إلى الخلفاء من الأموال أكثر ما يستطيعون.

هم أصحاب الفَعْلَة الثورية الكبرى، وهي مقتل عثمان. فبينما كان هناك قوم يخجلون من هذه الكائنة بعد أن وقعت، جعل الخوارج الاعترافَ الصريح بها شعاراً لهم وقد اشتركوا مع بقية أهل العراق وفي الثورة على معاوية أولاً، لأنه لم يسلِّم بآرائهم. ولكنهم كانوا قد عارضوا علياً أيضاً عندما ساوم وفاوض في حق الله، وانشقوا عليه لذلك. وهم وإن كانوا قد عملوا على تأييده، فإنهم لم يريدوا أن يكونوا حزبه بالمعنى الذي كان به أهل الشام حزباً لمعاوية، لأنهم قالوا إن الدين ليس لمعاوية ولا لعليّ، بل هو الله وحده، ومن ضحى في أمر من الأمور بعقيدته الدينية السياسية من أجل صاحب الأمر، أو جعل طاعته مقدَّمة على طاعة الله، فقد اتخذه صنما له، وعُبّاد الأصنام عباد أصنام وليسوا بمسلمين. فكان الخوارج يرون أنهم وَحْدَهم هم المسلمون، ورأوا أن اسم المسلمين لهم وحدهم. ولذلك أراقوا دماء غيرهم من المسلمين دون تحرج، ولم يجاهدوا إلا المسلمين، وإلا المسلمين وحدهم: أما تهمة تمزيق الجماعة على هذا النحو فلم يروا أنها تصدق في حقهم، وكانوا ثائرين على مذهب «الجماعة» الفاسد الذي لا يفرق بين الحق والباطل ولا يميز الغث من السمين، وكانوا يرون أنهم وحدهم، وهم الخارجون على الدين، هم «الجماعة» بالمعنى الحق، وأن الإسلام لا يتجاوز حدود معسكرهم. وقد هاجروا من ديار «الجماعة» المزيَّفة، متأسّين بهجرة النبي [عليه السلام]. وهم وإن لم يكن من مبادئهم التمسك بأسرة حاكمة، فإنهم هم أيضاً، من حيث أنهم ممثلو الجماعة الموحَّدة للمؤمنين، كان لهم خليفتهم أو إمامهم الذي يصلى بهم ويقودهم في الحرب لكنهم كانوا يراقبون حركاته وسكناته، ويعترضون عليه إذا أخطأ، في نظرهم، ويخرجون عليه ويعتبرونه كافراً، إن لم يرجع عما فعل. ولذلك افترقوا، فيما يتعلق بمسألة معرفة الإمام الحق، لا عن سائر المسلمين فحسب، بل هم سرعان ما انقسموا فيما بينهم أيضاً، وكان انقسامهم من أجل خلافات في الرأي ليس لها كبير شأن. وقد تطرفوا في الأخذ بمبدأ الحكومة التيوقراطية وجعلوه

مسألة اعتقادية وموضوعاً للنيَّة الممحَّصة، حتى ذهبوا به إلى المحال، وحتى صارت فكرتهم عن الدول، إن لم تأخذ صورة ملطّفة معقولة؛ غير صالحة لتكوين جماعة وغير مؤدية إلا إلى الفساد والهدم. وقد وضعوا كلَّ قوتهم في محاولة تحقيق غاية لا يمكن تحقيقها، فسار بهم تديُّنُهم إلى سياسة نشيطة كل النشاط، ولكنها سياسة يائسة مخالفة تماماً لكل سياسة. وهم لم يجعلوا النجاح غرضاً لهم، وإنما كانوا يريدون نجاة أرواحهم من شرور الدنيا. وقد قنعوا بطلب الشهادة في ميدان الجهاد، فباعوا أرواحهم لله في سبيل الجنة. ورغم هذا، وربما من أجل هذا نفسه، كانوا يغلبون جيوشاً كبيرة. وقد أرعبوا العالم الإسلامي في بعض الأحيان. ورغم أنهم كانوا دائماً يؤلِّفون جماعة صغيرة، فإنه لم يمكن القضاء عليهم، كأنما كانوا كلما قضى عليهم ينبتون من الأرض نباتاً. وكانت لآرائهم جاذبية متجددة دائما. أما مقاومة غيرهم للحكومة القائمة فإنها، مهما لبست ثوب التدين والورع، كانت دائماً مدخولة بأغراض دنيوية، وكانت لذلك تتلون بألوان شتى. وكثيراً ما كان يستغلُّها رجالٌ من أهل الطموح والتغلُّب، لا يقصدون سوى الوصول إلى السلطان: وفي وسط اضطراب الحركات والأغراض تمسك الخوارج بالمبادئ الأساسية التي رسمها الإسلام، ولم يحيدوا عنها. وكانوا في جهادهم في سبيل «دولة الله» أشد ما يكون المجاهدون إخلاصاً وأقواهم عزماً. ولكنهم كانوا في حربهم، بطبيعة الحال، أشد ما يكون المحاربون قسوة، وذلك من أجل وضع خيالي لا يتيسر لبني الإنسان.

وكان الشيعة يختلفون عن الخوارج اختلافاً تاماً، وإن كان منشؤهم هم أيضاً يرجع إلى الثورة على عثمان. وكان الشيعة أشد من الخوارج بغضاً لبني أمية، لكن بغضهم هذا لبني أمية لم يكن يرجع إلى أنهم كانوا ينكرون أن تكون الحكومة التيوقراطية في أسرة ما، بل لأنهم أرادوا أن يُزيلوا الأسرة الزائفة ويحلّوا محلَّها الأسرةَ الصحيحة صاحبة الحق الشرعي، أعني بيت النبي [عليه السلام]

الذي يرأسه بعد وفاته ابنُ عمه وختنُه علي بن أبي طالب. واسم الشيعة اختصار لعبارة: شيعة علي. وكان شيعة علي، في أول الأمر، هم أهل العراق في الجملة، وذلك في مقابل أهل الشام، شيعة معاوية. وقد ظل عليّ عند أهل العراق، حتى بعد وفاته، رمز سيادتهم المفقودة، ولم يكن تشيُّعهم يَعْدُو أن يكون تعبيراً عن شعور العداء لبني أمية من جانب ولاية العراق المغلوبة، خصوصاً الكوفة، وهي العاصمة التي نزلت مكانتها. وكان رؤساء القبائل والعشائر في الكوفة يشاركون غيرهم هذا الشعور في بادئ الأمر، ولكن مركزهم كمسئولين اضطرهم إلى الحيطة، فلم يشاركوا غيرهم في ثورات لا ينتظر لها النجاح. وكانوا يمسكون زمام سواد الناس إذا أرادوا الاستجابة لمن يريد أن يستخفّهم معه، ووضعوا نفوذهم باسم الهدوء والنظام في خدمة الحكومة، لكيلا يعرِّضوا مركزهم للمتاعب، وبذلك نفّروا من كان من الشيعة أكثر صراحة وأميل إلى العمل الإيجابي وأثاروا عداوتهم، هؤلاء الشيعة الذين لم يقَلِّلْ فشلُهم في مظاهرات عاطفية خيالية قاموا بها من تعلُّقِهم بآل بيت النبي، بل زادهم تعلقاً بهم. على أن معارضة الشيعة لسيادة الطبقة الأرستقراطية من زعماء القبائل قد زادت من تقاربهم وتشددهم، فسلكوا طريقاً غير طريق سائر العرب، وبذلك ارتفع في الكوفة شأنٌ لحزب كان، حتى ذلك الحين، متوارياً في الظلام، واتخذ اسم السبئية. وقد غيّر هؤلاء السبئيةُ الإسلامَ من أساسه، وذلك بأن جعلوا من شخص النبي شيئاً إلى جانب القانون المستقل عن الأشخاص (كما هو في القرآن والسنة) وفوق هذا القانون الذي رضى به الناس بعد وفاة النبي، وكان خصوصاً عند الخوارج هو الحجة التي لا يكون إلى جانبها أيّ تقديس أو تأليه لأحد من الناس؛ فذهب السبئية إلى أن الشخص النبي لم يمت بموت محمد [عليه السلام]، بل هو باق في سلالته واحداً بعد واحد، وبنوا مذهبهم على القول بتناسخ الأرواح، ووجهوه توجيهاً خاصاً، فقالوا إن روح الله الذي يسرى في الأنبياء ينتقل بعد موت كل نبي إلى النبي

الذي بعده، وإن روح محمد [عليه السلام] خاصةً انتقل إلى عليّ، وإنه باقٍ في سلالته. وعلى هذا فإن علياً لم يكن في نظرهم هو الخليفة الشرعي لمن قبله وحسب، بل كان في مرتبة أعلى من مرتبة أبي بكر وعمر اللذيْن يزعم الشيعة أنهما دخلا بينه وبين محمد [عليه السلام] واغتصبا حقه، بل ذهب السبئية إلى أن علياً هو الروح الإلهي المتجسّد وأنه وارث النبوة. ولذلك فلا يمكن في زعمهم أن يكون بعد وفاة النبي خليفة غيره في الدولة التيوقراطية، لأن هذه لا يمكن أن تخلو من ممثل حيٍّ لله يكون على رأسها[1]. ويقال إن السبئية سموا بذلك من اسم يهودي يمني وهو عبد الله بن سبأ، وكانت لهم أوكار في بعض قبائل العرب في الكوفة، لكنهم بعد ذلك درجوا منها وانتشروا في الكوفة نفسها، خصوصاً بين موالي الفرس الكثيرين الذين كانوا قد اعتنقوا الإِسلام. وإذن فإن انتشارهم إنما كان بين قوم من غير العرب، وقد صار لهم شأن سياسي على يد المختار، أحد أشراف ثقيف، وهو الذي اتخذهم جيشاً له، ثم استمال قدماء الشيعة أيضاً وعمل حيناً من الدهر على اغتنام ما تجدد من فوضى وانقسام، فأراد أن يسقط الأرستقراطية العربية في الكوفة من على عرشها ويقيم هناك تحت رئاسته حكومة يُقْضَى فيها بفضل التشيُّع على التمايز بين العرب والفرس وبين السادة والرعية. ولكن نجاحه كان قصير الأمد، فتم القضاء على شيعته، ولكنها توصلت إلى النصر فيما بعد على الطريق الذي شقَّه لها.

٩ ــ ولكن المعارضة الدينية، أو المعارضة التي لبست ثوب الدين، ما كانت لتكون لها تلك الخطورة على حكومة الأمويين لولا ما انضاف إليها من تنافس بين القبائل العربية، وهو تنافس لم يكن له بالحكومة التيوقراطية شأن، بل عروقه ضاربةٌ في الروح العربية نفسها. وقد زاد هذا التنافس بعد ذلك الملكُ

---

(١) وهم وإن كانوا قد جعلوا اسم النبي لمحمد وحده، فإنهم في الواقع جعلوا ورثته مساوين له في المرتبة، واعتبروا أن لهم سلطة إلهية، وقالوا بأنهم معصومون.

العريض الذي وصل إليه العرب بسبب الفتوحات زيادة تجاوزت كلَّ ما كان معروفاً أيام الجاهلية. وقد زاد عمال الدولة خاصة من حدة هذا التنافس، لأنه لم يكن تحت تصرفهم مباشرة سوى عدد قليل من الشرطة، وكان جندهم، فيما عدا ذلك، يتكونون من المقاتلة في الولاية، أي من مقاتلة القبيلة، وكان العمال يستطيعون، بالسياسة الماهرة، أن يضربوا القبائل بعضها ببعض ويجعلوا أنفسهم فوقها. ولكن لم يفلح في هذه السياسة إلا القليلون من الولاة، وفي أول العصر الأموي خاصة. أما الذي كان يحدث في الغالب فهو أن يستظهر الوالي بقبيلة واحدة على غيرها، وكان يستظهر خصوصاً بقبيلته هو، وكان هو الذي يأتي بها معه أحياناً. وعند ذلك كانت قبيلته التي يتخذها عُدَّةً له في ولايته تشاركه في الحكم وفي المزايا التي كان يَكْفُلُها التصرفُ في المناصب والأموال. ولكن كانت تتولى دفَّةَ الأمور مع كل عامل جديد قبيلةٌ جديدة، فكان الأمر ينتهي بأن تقع القبيلة المخلوعة في العداء المرير للقبيلة الحاكمة. وهكذا سرى السمُّ إلى الفوارق والخلافات القبلية من جراء السياسة والنزاع على المغانم السياسية. وأسوأ ما تجلّى ذلك في ولاية خراسان التي كانت مُلْحَقَةً بالبصرة. فهناك ارتفع شأنُ قيس على يد عبد الله بن حازم. كما ارتفع شأن أزْد عمان على يد المهلّب، وحلّ محلّ التنازع القديم بين بكر وتميم التنازعُ بين قيس وتميم أولا، ثم بين الأزد وقيس، وأخيراً بين ربيعة وقيس ــ تميم، أما في الشام والجزيرة فقد تنوّع موقف قيس وكلب من النزاع حول الخلافة، فأخذوا جانب ابن الزبير حيناً وجانب الأمويين حيناً آخر. وقد اتخذ نزاعهم صورة دامية، وبقيت العداوة بينهم إلى بعد زوال سببها السياسي الأصلي بزمن طويل. ومما زاد في خطورة النزاع على كل حال ميلٌ كان موجوداً عند القبائل إلى تكوين مجموعات كبرى[1].

---

(١) قارن ما تقدم ص ٢٤ والصفحات التالية.

وقد لعبت قيس في الشام وفي خراسان دوراً سياسياً كبيراً، وكانوا منتشرين في كل مكان، وكانوا بفضل ما ينتمي إليهم من ثقيف يشتغلون كثيراً من المناصب العليا، وكانوا أشد ما تكون القبيلة اتحاداً، وكانوا أول من كوّن عصبة بالمعنى الحقيقي في جميع أنحاء الدولة. وقد شقوا طريقهم على الحكم بأشد الوسائل خزياً. وكانت تميم تنتمي أيضاً إلى الجماعة الكبيرة التي كانت تنتمي إليها قيس، وكانت تميم أكثر ما كانوا عدداً في البصرة وخراسان، وكانوا يتميزون بشعور قبَلي زَهْوٌ جاء مواتياً لهم، فلم يكن طموحهم كبيراً إلى تولى المناصب، وكانوا قلّ ما يتدخلون في السياسة العليا، ولم يكونوا على وئام مع قيس في مبدأ الأمر، لكنهم اتحدوا معهم أخيراً وانضموا إلى حزب مُضَر الكبير. ومن جهة أخرى كان أزد عمان، في البصرة وخراسان، ألدّ أعداء قيس وتميم، فانضموا إلى بقية اليمنيين الذين كانوا، في خراسان، يشتملون فيما يشتملون، على قبائل ربيعة (بكر). وفي آخر الأمر دخلت في هذه المجموعة قبائل قضاعة (كلب) الشاميين، وقد اعتُبروا يمنيين، أما إنهم كانوا كذلك فهو موضع شك: وإنما الذي ألقاهم بين أذرع حزب اليمنيين فهو في الحقيقة عداوتهم لقيس[١]. وهكذا كان نطاق الانشقاق والخلاف الخطر لا يزال يتسع[٢]. ولم يستطع القرشيون والأمويون أن يرتفعوا بأنفسهم عن هذا الانقسام الذي شقّ العالمَ العربيّ إلى معسكرين.

ودخل الأعاجم في الفرجة التي انفتحت بين المعسكرين، فدخلوا في الإسلام زرافات، وخصوصاً تلك الطوائف الكبيرة من أسرى الفرس في

---

(١) قارن القطامى (ط. بارت) ص ٢٩، ٥٦، ٩٣، فما بعدها.

(٢) ولكن التحزب لم يكن ثابتاً تماماً، بل كان يختلف بحسب البواعث العارضة في بعض الأحيان، فكانت القبيلة تؤكد هذا الوجه أو ذلك من نسبها لكي تثبت ارتباطها بحاكم قوى يهمها أن تنال عطفه، أما الشعراء خاصة فإنما كانوا يتزلفون إلى أكبر رأس.

الكوفة والبصرة. ولقد توصلوا بذلك إلى الحرية في أشخاصهم[١]، لكنهم لم يصلوا إلى التمتع بالحقوق المدنية للمواطنين ولا بالحقوق الحربية ومزاياها المادية، فاعتُبروا موالى للقبائل العربية، ولم تتسع لهم الدولة التيوقراطية إلا على هذه الصورة، أعنى على صورة التبعية للقبائل العربية. ولم يكن الإسلام وحده كافياً في ضمان المساواة لهم، ذلك لأن الدولة التيوقراطية الإسلامية كانت في الواقع دولة عربية خالصة، دولة العرب التي جعلتهم فوق الأمم المغلوبة، وكان هذا في ذاته مناقضاً لفكرة الحكومة التيوقراطية، فهي لا ينبغي أن تكون مُلكاً ولا يجوز أن يكون لها مظاهر المُلْك. وأشد ما تكون المناقضة إذا ظلّت حقوق السادة من العرب قائمة بالنسبة للمسلمين من غير العرب: ذلك أن الإيمان بالله والاعتراف له وحده بالمُلك كان من شأنه أن يدعو إلى نَبْذِ كل تمايز بين الأمم من أساسه، وكان من السهل استخدام مبادئ الإسلام وسيلة لإعطاء الموالي نصيبهم في الدولة التيوقراطية وفي انتزاع حقوقهم من يد العرب، وكان أهل الديانة والورع من العرب أنفسهم يقفون إلى جانب الموالى في مطالبتهم بحقوقهم، وحاولت أحزاب المعارضة، بنوع خاص، أن تجد لها فيهم حلفاء على بني أمية، وكان بنو أمية في الواقع يمثلون سيادة الأمة العربية لا سيادة الإسلام[٢]. وقد سبق

---

(١) على أن إطلاق الأسرى أحراراً إذا اعتنقوا الإسلام لم يكن واجباً بل عادة حسنة، ولم يطبق المبدأ القائل بأن المسلم، بحكم إيمانه بالله وبحكم شريعة الله، لا يمكن أن يكون عبداً لمسلم. ولكنه كان البديهي أن يتبع العبد دين سيده خصوصاً إذا ولد في بيته.

(٢) [لا شك أن حكومة بني أمية كانت حكومة عربية إلى أكبر حد، وما كان غير ذلك ممكنا ولا طبيعيا، لأن العرب هم الذين أقاموا دولتهم ووسعوا رقعتها وأخذوا المكان الطبيعي لهم في رياسة الدولة وفي إدارتها وفي قيادة جيشها. وكان لا يمكن إعطاء مناصب الرياسة والإدارة للموالى، على حداثة عهدهم بالإسلام ومعارضتهم لسيادة العرب، إلا إذا أريد للدول الانهيار المبكر. وكان في العرب أنفة واستعلاء لهما أصلهما ومبررهما. فاستبداد العرب في أيام الدولة الأموية كان ضرورة طبيعية وسياسية، أما القول بأن سيادتهم لم تكن سيادة الإسلام فهو قول مبالغ فيه ولا يصح أن يقال إلا من جهة أنهم لم يسووا بين الموالى وبين أنفسهم. ولكن هل كان «عقل الدولة» يسمح بذلك؟ لم يكن يسمح، ولا يصح من أجل هذا أن يقال إن دولة بني أمية لم تكن إلا دولة العروبة، فقد كانت دولة الإسلام التي يمثلها العرب ــ المترجم].

الخوارجُ إلى ذلك، فقبلوا الموالى في جماعتهم وفي جيشهم، وجعلوهم على قدم المساواة مع العرب. وقد ترسّم الشيعةُ خطى الخوارج في ذلك ونجحوا أكثر منهم بكثير. وقد رأينا كيف أن حزباً شيعياً[١] اتخذ في الكوفة مع من فيها من الموالى، فاستطاع بذلك أن يرتفع وأن يرفع الأعاجم معه في نفس الوقت. ولكن لم يلبث أن مضى العربُ على هذا الحزب في الكوفة نفسها، فاختفى في الظلام، ولكنه انتقل فيما بعد من الكوفة إلى أرض الأعاجم الحقيقية، إلى خراسان، وانتشر هناك بين من دخل في الإسلام من سكان تلك البلاد، وتحت راية الإسلام، أعنى تحت راية التشيُّع، استطاع الخراسانيون أن يطردوا العرب من أرضهم أولاً، وأن يقضوا بعد ذلك على السيادة العربية جملة، وأن يُحِلوا العباسيين محلَّ الأمويين.

١٠ ــ إن الآراء المألوفة عن الشرق والروح الشرقية تحتاج في الجملة إلى تصحيح كبير. ويجب، مهما كان الأمر، ألاّ يكون لها اعتبارٌ فيما يتعلق بتاريخ الإسلام طول الفترة التي كان العرب فيها هم الأمة الحاكمة. وإن السياسة، لا أي شيء آخر، كالحضارة مثلاً، هي الموضوع الذي يحتل هنا المكان الأول ويستأثر بالاهتمام. ولم تكن سياسة العرب عبارة عن فكرة الشرقيين عن القدر المحتوم (Fatum) باديةً في ثوب الحكم الاستبدادي المطلق، بل هي كانت شأناً مقدساً عند جميع المسلمين، اشتركوا فيه بأرواحهم وجوارحهم، وإن كانوا لم يفهموا طبيعة الجماعة الإنسانية وحدودها[٢].

وقد تحكمت في هذه السياسة نزعاتٌ عامة، دينية وقومية واجتماعية. ونظراً

---

(١) [يقصد المؤلف المختار الثقفي وأتباعه ــ المترجم].

(٢) [يظهر أن المؤلف يقصد أن العرب لم يفهموا أن أعضاء الجماعة التي تكون الدولة يجب أن يكونوا سواسية بحيث لا تكون هناك طبقات متمايزة، وأن من طبيعة الجماعة السياسية أنها لا تقبل الفوارق والتمايز السياسي ــ المترجم].

لتشابك هذه النزعات، ونظراً لصراعها مع نظام الحكم الذي كان قائماً، والذي كان يندر أن تُمَثِّله حكوماتٌ طويلة الأجل أو أشخاص أطول عمراً[١]، فقد حدث اضطرابٌ كبير، وكان الاتساع الهائل لمسرح تلك السياسة، واشتمال ذلك المسرح على أمم وبلاد من المحيط الهندي إلى المحيط الأطلسي لا يجعل الإلمام بها والإشراف عليها جميعاً أمراً سهلاً.

وقد بدا لنا أن هذا الفصل التمهيدي ضروري لإعداد ذهن القارئ وتوجيهه، حتى يفهم ما يلي ولا يفقد الخيط الذي يهديه، لكن مقصده أيضاً هو أن ينبّه من قد يخطئ فيعتبر أن الفصول التالية تستوعب تاريخ صدر الإسلام، وذلك أن هذه الفصول تدور في جوهرها حول دولة الأمويين، وحول الصراع الذي قام بين هذه الدولة التي تمثل السيادة العربية وبين القوى التي كانت تعارضها، وحولَ سقوط هذه الدولة أمام الثورة التي لم تزل قائمة منذ انتهاء الخلافة في المدينة. فأمَّا تناول الأحزاب والأقاليم بالبحث تناولاً مفصَّلاً، كلٌّ منها على حدته ومن زاويته الخاصة، فهذا ما لم يمكن أن يتَّسع له المقامُ هنا، وإن كان تناول الأحزاب والأقاليم بالبحث ليس قليل الشأن في فهم أحوال الدولة الإسلامية. وقد جَمَعْتُ رواياتٍ عن ولاية خراسان، التي لها أهمية خاصة، وجعلتها داخلة في أحد فصول الكتاب. أما فيما يتعلق بالخوارج وبالشيعة وكذلك بالحروب مع الروم في ذلك العصر، فإنى أُنَبِّهُ القارئ إلى مقالاتي التي نشرتها ضمن رسائل وأخبار جمعية العلوم في جوتنجن، في القسم الفلسفي التاريخي عام ١٩٠١.

---

(١) كان معظم الخلفاء وأمراء الأمصار صغاراً، ولم يمتد بهم الأجل إلى الكبر. أما معاوية ونصر بن سيار فكانا أشبه بالشيء الشاذ. وكان حكم الخلفاء والأمراء قصيراً أيضاً في العادة، وإن كان تغير الأمراء قد كان أكثر من تغير الخلفاء.

الفصل الثاني

عليّ والحرب الأهلية الأولى

١ ــ حكى المدائنى عن أبي مخنف (الأغاني ج ١٥ ص ٧١) أن نائلة زوجة الخليفة المقتول عثمان كتبت إلى معاوية وقصت عليه خير مقتل عثمان وبعثت بقميصه الملطَّخ بالدم، وذكرت لمعاوية الآية التاسعة من السورة التاسعة والأربعين [الحجرات][١]. أما سيف فهو في روايته التي حفظها لنا الطبري (جـ ١ ص ٣٢٥٥) يحكى أن النعمان بن بشير قدم إلى دمشق بقميص عثمان الذي قتل فيه، مخضباً بدمه وبأصابع نائلة زوجته مقطوعة بالبراجم وشيء من الكف. وإذن فأمر الأصابع شيءٌ جديد، ولذلك فليست نائلة، بحسب هذه الحكاية، هي التي بعثت بالقميص. ويمضي سيف في روايته فيقول: إن معاوية وضع القميص على المنبر وكتب بالخبر إلى الأجناد، وثاب إليه الناس، وظلَّ القميص يوضع كل يوم على المنبر والأصابع معلقة في أردانه سنة كاملة؛ ذلك أنه كان بين مقتل عثمان وبين معركة صفين عامٌ كامل. وكان قصد معاوية أن يُثير أهل الشام[٢]. أما المدائني،

---

(١) [هذه هي الآية: «وإن طائفتان من المؤمنين اقتتلوا، فأصلحوا بينهما، فإن بغت إحداهما على الأخرى فقاتلوا التي تبغى، حتى تفيء إلى أمر الله؛ فإن فاءت فأصلحوا بينهما بالعدل وأقسطوا إن الله يحب المقسطين» ــ المترجم].

(٢) [وقد بلغ معاوية غايته، وذلك أن رجال أهل الشام بكوا عثمان وآلوا ألا يقربوا النساء حتى يقتلوا قتلة عثمان ومن عرض دونهم بشيء، واتهموا علياً بأنه قتل عثمان وآوى قتلته، وصمموا على ألا ينتهوا عنه، حتى يقتلهم أو يقتلوه ــ المترجم، نقلا عن الطبري جـ ١ ص ٣٢٥٥].

نقلاً عن عوانة (الطبري ج ١ ص ٣٢٥٤ وما بعدها؛ قارن الكامل ص ١٨٣ فما بعدها؛ والدينورى ص ١٦٦ فما بعدها) فهو يقتصر على حكاية أن عليّاً وجَّه جرير بن عبد الله البَجَلى إلى معاوية، يدعوه إلى بيعته، وأن معاوية أظهر إجماعَ أهل الشام على الأخذ بثأر عثمان[١]، وأنه بذلك أحدث في نفس الرسول الأثر الذي أراده. وعلى هذا فقد صارت المسألة، في الحقيقة، مجرد مناورة تقلق علياً وتضايق نفسه، فلا يهجم على معاوية. أما الذي يؤخذ من رواية الواقدي (الطبري ج ١ ص ٣٢٥٢ فما بعدها) فهو أن قوما حرضوا معاوية على عليّ أكثر مما حرض معاويةُ نفسُه الناسَ على عليّ، فنجد في أبيات حفظها لنا الطبري (ج ١ ص ٣٢٥٨) أن الوليد بن عقبة، ابن عم معاوية، يلوم معاوية على إضاعته الوقت في مكاتبة عليّ، وعلى قعوده في دمشق وتَوَانيه عن القيام بما يقضى به واجب القرابة من الثأر لمقتل عثمان. لكن معاوية كان سياسياً بطبعه، ولم يكن متعجلاً ولا متلهفاً على محاربة أهل العراق، لأنه كان في ذلك الوقت مُهَدَّداً من قبل الروم، وخصوصاً من قبل أهل مصر الذين كانوا في جانب عليّ. ولم يكن يطمح إلى الخلافة، وإنما كان غرضه الأول هو، على الأقل، أن يحافظ على ولاية الشام، وأن يستولى على مصر، التي كان لا يصح أن يتركها لخصومه، إن أراد أن يحمى ظهره[٢]. وقد دفعه إلى ذلك عمرو بن العاص خاصةً، وكان عمرو

---

(١) [لا نجد هنا إثارة معاوية لمشكلة مقتل عثمان، بل نحن نجدها في مناسبة أخرى ــ راجع الطبري ج ١ ص ٣٢٧١ وص ٣٢٧٥ ــ ٣٢٧٦ ــ المترجم].

(٢) [وأيضاً لعظم خراج مصر وقيمته في تقوية شأن من يظهر عليها ــ راجع الطبري ج ١ ص ٣٣٩٦، ٣٤٠٩. وكان قيس بن سعد بن عبادة والياً لعلي على مصر وكان أميراً حازماً ناجحاً، فكان أثقل خلق الله على معاوية. وكان معاوية يخشى أن يقبل عليه علي في أهل الكوفة وأن يقبل قيس في أهل مصر فيقع بينهما معاوية، الطبري ج ١ ص ٣٢٣٨ ــ المترجم].

قد اشترك في الثورة على عثمان[١]، وأراد أن يتخذ من ذلك وسيلة إلى استعادة ولايته القديمة مصر. وبعد مقتل الخليفة المُسِنّ حالف عمروٌ معاوية على قتال علي حلفاً أشبه ما يكون بالتحالف بين الصبية الأشقياء[٢]، وذلك لكي يبلغ غرضه (الطبري ج ١ ص ٣٢٥٣ فما بعدها، قارن الدينورى ص ١٦٧ وما بعدها). فتوجَّه معاوية وعمرو قاصديْن مصر أولا، ونجحا في استدراج محمد بن أبي حذيفة والي مصر من قِبَل عليّ، حتى أخذاه أسيراً (الطبري ج ١ ص ٣٢٥٢ فما بعدها وص ٣٤٠٧ فما بعدها)، ولكنهما اضطرا إلى الرجوع لكي يتوجَّها إلى قتال عليّ نفسهِ. وكان عليٌّ هو المهاجم، وكان يعتبر نفسه صاحب الحق في الخلافة[٣] وفي رياسة جميع المسلمين، فبعد أن استوثق من العراق واستكمل عدته خرج آخر عام ٣٦هـ. (أوائل صيف ٦٥٧ م.) من معسكره في النُّخَيْلة[٤]، قرب الكوفة، حيث كان يوجد عدد من أهل البصرة أيضاً، وسار متجهاً إلى الغرب. وكان معاوية وعمرو ينتظرانه على حدود الشام في سهل صفين على الفرات، غير بعيد من الرقّة[٥].

---

(١) راجع إلى جانب ما تقدم ذكره من تحريض عمرو بن العاص على عثمان، الطبري ج ١ ص ٣٤٠١ — المترجم].

(٢) [حالفه على أن تكون لعمرو ولاية مصر طعمة ما بقى — الطبري ج ١ ص ٣٣٩٧ — المترجم].

(٣) [راجع كلامه عند الطبري ج ١ ص ٣١١٠، ٣٢٧٨ — ٣٢٧٩ — المترجم].

(٤) إلى الغرب أو إلى الشمال من الكوفة على الطريق إلى الشام (الطبري ج ١ ص ٣٣٤٥). وكانت تقع هناك أيضاً بويب، وتسمى موقعة بويب أيضاً موقعة للنخيلة.

(٥) بين Barbalissus و Caesarium (تيوفانيس في أخبار حوادث سنة ٦١٤٨ من تاريخ الخليقة) وBarbalissus هي Sa Balis (= بالس البلاذري ص ١٥٠ فما بعدها، (Assem. Balis O. 2. 332)). واسم Sapphin مذكور عند تيوفانيس (في أخبار سنة ٦١٥١، وفي النقوش الشامية في حنش (Juorn As. 1900 II. 385ss) في عهد السلوقيين (Sel. 968) يسمى Sapphe أو Sepphe في stat. emph.، وكذلك عند العالم الكوسموجرافي الرافني، حيث نجد أن Sephe وBarbalission يذكران معاً.

ولا نكاد نجد من أخبار موقعة صفين عند الطبري إلا ما يذكره أبو مخنف: سلك عليّ مع حملة جيشه الطريقَ الحربي العادي مع نهر الدجلة، ثم اخترق أرض الجزيرة، وعند قرقيسيا لحقت به مقدمة جيشه التي كان عليها أن تسير مع الشاطئ الأيمن للفرات، وبعد أن عبر عليّ الفرات عند الرقة التقت مقدمة جيشه بطلائع جيش الشام عند سور الروم. وانصرفت طلائع جيش الشام قبل التقاء السيوف. فلما طلب عليّ موضعاً لعسكره تبيَّنَ أن أهل الشام أخذوا عليهم الطريق إلى الماء، أيْ الفرات. ولما لم يستجب أهل الشام إلى أن يُخَلُّوا بين جيش علي وبين الماء بالحسنى، قاتلهم جيش عليّ حتى غلبهم على الماء وأراد منعهم منه، لولا تدخلُ عليّ ومَنْعُه من ذلك بعد أن انتصر جيشُه (الطبري ج ١ ص ٣٢٥٩ ــ ٣٢٧١). وعسكر الجيشان أحدهما أمام الآخر شهريْن كامليْن، ذا الحجة سنة ٣٦هـ والمحرم سنة ٣٧هـ [لم يكن بينهما من قتال إلا مناوشات كثيرة في ذي الحجة، أما المحرم فتوادع فيه الجيشان طمعاً في الصلح]. وأخيراً بدأ القتال على أوسع نطاق يوم الأربعاء ٨ صفر سنة ٣٧هـ[١]، واستمر صباح الخميس كأشد ما يكون القتال، وكان أهل الشام أحسن عدة، وكان مظهرهم أكثر تضامناً من أهل العراق (الطبري ج ١ ص ٣٣٢٢)، وانكشفَ يَمَن الكوفة أمام أهل الشام، وكانوا على ميمنة علي، وذلك رغم استماتة قرّائهم، ولكن لما اقترب المساء أوقفهم مالك الأشتر، ثم أخذ يردّهم خطوةً خطوةً على أعقابهم، وظلّ يكشفهم، حتى ألحقهم بالصفوف المحيطة بمعاوية[٢]، وانتهى بهم إلى عسكرهم؛ ودام القتال طوالَ الليل حتى ارتفع الضحى، وكانت هذه هي ليلة الهرير الحقيقية، لا ليلة

---

(١) الأربعاء ٢٦ يوليه سنة ٦٥٧ م. = ٦١٤٨ من تاريخ الخليقة = ٦٦٨ من حكم السلوقيين؛ قارن الهامش المتقدم.

(٢) [كان من أهل الشام قوم بايعوا معاوية على الموت فعقلوا أنفسهم بالعمائم وألفوا صفوفاً كثيرة أحاطت بمعاوية ــ الطبري ج ١ ص ٣٢٨٣، ٣٣٠٠ ــ المترجم].

تهاوند[١] وفكر معاوية في الفرار منهزماً، ولاح النصر للأشتر، وعند ذلك اضطر أن يترك النصر يضيع من يده وأن يغمد السيف، بعد أمر متكرر من عليّ. وذلك أن أهل الشام رفعوا المصاحف على أسنّة رماحهم، لكي يخرجوا من الاحتكام إلى السيف الذي أوشك أن ينتهي إلى غير مصلحتهم ويلجأوا إلى حكم كلام الله، وقَبِل أهل العراق أن يُخدعوا، وأكرهوا علياً على الكفّ عن القتال وعلى أن يفاوض معاوية، وهدّدوه بالقتل إن لم يقبل ذلك. واختير، بناء على اقتراح معاوية، حَكَمان ليحكما بحسب القرآن في مسألة من له الخلافة. واختير عمرو بن العاص نائباً عن أهل الشام، وأبو موسى الأشعري نائباً عن أهل العراق. وتقرر أن يصدر الحكم في رمضان التالي، في مكان واقع بين الشام والعراق.

وحكاية أبي مخنف لموقعة صفين طويلة جداً في الحقيقة، وهي من طراز أخبار مواقع القادسية ونهاوند. ويحتلُّ الكلام عن مقدمات المعركة، قبل بدء الالتحام الحقيقي، فراغاً كبيراً. على أن المحرم، على كل حال، يبقى خالياً من القتال، ولا يذكر قتال إلا في الشهر الذي قبله والشهر الذي بعده، وذلك على نحو واحد: فيحكى أولاً أنه بدأت مفاوضات للصلح، وأنه بدأت بعد ذلك، عند فشل المفاوضات، مبارزاتٌ فردية، كان فيها مناسبة لإظهار الأنصار البارزين لكل من معاوية وعليّ. أما أن أسماء الأشخاص الذين قاموا بذلك تختلف في هذه الرواية، فإن ذلك لا يغير من مادة الحكاية. ويميل الإنسان إلى الاعتقاد بأن ما جرى أولاً في شهر ذي الحجة هو في الحقيقة ما جرى في شهر صفر، وهو غير

---

(١) الطبري ج ١ ص ٣٣٢٧، الكامل ص ٧٥٣، ويجب أن يكون ذلك ليلة الجمعة؛ ولكن الطبري يذكر أن ليلة موقعة صفين كانت ليلة الخميس، وكذلك في رواية لأبي مخنف. قارن كتاب أنساب الأشراف ص ٣٤٩ س ٣.

منفصل عن المعركة الحقيقية طُولَ شهر المحرم[١] وعلى هذا تكون فترة الانتظار قبل الموقعة أقصر كثيراً مما يُروى. ولا يصح، بطبيعة الحال، أن يكون هناك شك في أن كلاً من الفريقين كان مشفقاً من حسم النزاع بحد السيف (الدينورى ص ١٩ س ٥، ١٩٥ س ٩، ٢٠١ س ١٥) ولم يكن أحد يتعجّل البدء في الحرب، وربما كان للتخوف الموروث قديماً من إراقة الدم في شهر المحرم شيءٌ من التأثير في عدم الإسراع إلى القتال، وإلى ذلك يشير بيت مذكور عند الدينورى ص ١٨٢ والمسعودى جـ ٤ ص ٣٥٠، وهو:

فما دون المـــنايا غير سَبْعٍ   بقيـــن من المُحَـــرَّم أو ثمانِ

ونحن لا نظفر، فيما يتعلق يسير المعركة الحقيقية، بصورة واضحة، ففي وصفها من الاضطراب الكبير مثل ما كان في مجراها. نعم، نحن نجد في كثير من الأحيان معلومات دقيقة عن تقسيم الجند وترتيبهم وقيادتهم، ولكن هذه المعلومات غير متفقة فيما بينها، ولا تكاد تكون لها، من أجل ذلك، أية قيمة عملية فيما يتعلق بمجرى القتال الحقيقي. ويتكون وصف هذا القتال من مجرد روايات متفرقة لحوادث عرضية، وهي روايات لا تبين إلا ناحية واحدة، ولا ينجح الكاتب في محاولته أن يجعل منها وحدة منسجمة الأجزاء، فوصف المعركة يعوزه ارتباط بين الأجزاء، كأنما يتبين الإنسان أشجاراً متفرقة من بعيد ولا يتبين أنها في الحقيقة غابة. وكل من شهد المعركة يميل إلى أن يعتبر أن المكان الذي كانت فيه قبيلته هو النقطة المركزية، وإلى أن يجعل الفضل كله

---

(١) لا يذكر الدينورى أمر المبارزات الفردية إلا مرة واحدة، وهو يجعلها في المحل الثاني، بحيث تصبح مقدمة للاشتباك. وهو بالإجمال يذكر كل شيء، خصوصاً التفاصيل الصغيرة، أدق مما نجده عند أبي مخنف، فيقول إن أول مصحف رفعه أهل الشام كان مصحف دمشق الأعظم، فرُبط على خمسة أرماح يحملها خمسة رجال. فروايته شبيهة برواية سيف، وهو يتفق معه في الرواية. والأبيات التي يذكرها الدينورى قيمة جداً على كل حال.

لأبطال قبيلته؛ ونهاية المعركة هي وحدها، التي تبيّن بوضوح أن مالكاً الأشتر كان البطل الحقيقي في ذلك اليوم. لكن لا يصفه بأنه كان كذلك وصفاً واضحاً إلا النجاشي الشاعر في أبيات له (الدينورى ١٩٨)، وقد اشترك النجاشي بنفسه في المعركة، فهو يقول:

رأيتُ اللـــواءَ كظـــل العقـــاب يقحّمـــه الشـــاميُّ الأخـــزرُ
دعونا له الكبشَ، كبشَ العراق، وقد خالط العسكرَ العســـكرُ
فـــــردّ اللـــواءَ عـــلى عَقْبِـــه وفـــاز بحُظْوَتِهـــا الأشـــترُ

أما فيما عدا ذلك فهو لا يزيد على كثيرين غيره ممن ذكرت أعمالُهم المجيدة بتفصيل لا يقل عن تفصيل أعماله[1]. وإذا صرفنا النظر عن قواد المعركة وجدنا من الأبطال الذين برزوا في القتال عليَّ بن أبي طالب نفسه وابنَ عمه عبد الله بن عباس. ويوصف قتالُ القُرّاء وثَبَاتُهم، عند فرار غيرهم أمام جند الشام، كما يُذكر أنهم اقتحموا الموت من أجل عليّ، فهم بدمائهم شهودٌ له، وهم أقوى دليل على أنه على حق؛ ويذكر من قادتهم عبد الله بن بديل بن ورقاء وهاشم بن عتبة وخصوصاً عمار بن ياسر الصحابي المسنّ الذي يروى أن النبي [عليه السلام] قال فيه إنه ستَقتلُه الفئة الباغية (ابن هشام ص ٣٣٧). وبذلك يصبح الأشتر في مكان أقل بروزاً؛ والمتأخرون لا يميلون إليه، وربما كان ذلك لأنهم، مثل سيف، كانوا يعتبرونه ثائراً. ولا يريد المسعودي واليعقوبي أن يذكرا من أمره شيئاً، وهما يجعلان كل الفضل لكفاءة عليّ في القيادة. والطبري أيضاً يفعل

(١) ومنهم أيضاً من يظهر أنهم لم يكونوا قط حاضرين مثل قيس بن سعد بن عبادة، قارن ما يلي قسم ٣. أما ما ينسب إلى أبي الدرداء الصحابي الورع فقد اخترعه الدينوري (ص ١٨١) [يحكى الدينورى أنّ أبا الدرداء حضر صفين وتدخل في سبيل الوصول إلى حل للنزاع بين علي ومعاوية، فلم يوفق، فانسحب ولحق هو وأبو أمامة ببعض السواحل ــ المترجم].

ذلك (جـ ١ ص ٣٣٢١ فما بعدها). أما أبو مخنف فهو لا يذهب إلى هذا الحد، بل هو يصف بإعجاب كبير، ذلك المظهر الحربي الرائع للبطل اليمني (الطبري جـ ١ ص ٣٢٩٧)، ووصفه يُشْعِر بأن البطل قد أقام الدليل على ما كان لشخصه من شأن. فكان لا يقف حيث يضعه عليّ، بل على رأس قبيلته، نخع، وقد جعله إقدامُه واستباقهُ العدوَّ على نحو مفاجئ قائداً لهمدان ومذحج معاً، واستطاع بهم أن ينتزع النصر من يد أهل الشام. وكان هو وحده أيضاً الرجل الحكيم، عندما قبل الآخرون أن يُخْدَعوا وأن يؤخَذَ منهم النصر، فكان عربياً نبيلاً بإزاء أهل الورع القصيري النظر، وبإزاء أهل التراخي أو المكر من الساسة.

ولم تصل إلينا حكايةٌ للمعركة من الجانب الشامي، فلعلها كانت تختلف عن حكاية أبي مخنف، وإن كان يبعد أن تكون أجدر بالثقة من رواية أبي مخنف، كما يؤخذ من حكاية تيوفانيس، فهو يقول (في أخبار سنة ٦١٤٨): «إن من كان مع معاوية تغلّبوا، واستولوا على الماء، ومن كان مع عليّ تركوا القتال وفرّوا بسبب العطش. على أن معاوية، لم يكن يريد أن يقاتل، لكنه أحرز النصر بدون مشقة» ومن البين بنفسه أن أبا مخنف يتحيز إلى أهل العراق وحزب عليّ على أهل الشام ومعاوية، فعليّ في نظره هو صاحب الحق وأنصاره هم أهل الديانة؛ أما حكاية أن أخاه عَقيل بن أبي طالب كان يحارب في صفوف العدو[١] فلا يذكرها أبو مخنف، على حين يذكر أنه كان في أهل الشام أبناء أبي بكر وعمر، إلى جانب أربعة آلاف من القرَّاء، ومعنى هذا أن القراء لم يكونوا في جانب عليّ وحده، كما يذكر أن أهل الشام كانت ضمائرهم مطمئنة كأهل العراق، فلم يكن هؤلاء جميعاً مقتنعين بحق عليّ اقتناعاً راسخاً، وكانوا يطلبون الأدلة، وكانوا يتجادلون فيما بينهم ويجادلون خصومهم مجادلات استمرت

---

(١) البخاري طبعة بولاق ١٢٨٩ جـ ٢ ص ٦٧ فما بعدها وص ١٣٩ و١٤٥ وجـ ٣ ص ١١، راجع أيضاً مجلة: *Deutsche Morgenl. Zeitschr.* (DMZ) 1884 83.

إلى ما بعد صفين بزمان طويل، بل هي وصلت إلى الدار الآخرة[١]. ولم يكونوا متحمسين للقتال مع إخوانهم في الدين وفي النسب، وقد سرَّهم وقف القتال. فكانت الخصومة بين الحزبين لينةً في أول الأمر، وإنما اشتدت مع تطور الحوادث[٢].

٢ ــ وفيما يتعلق بمجرى الحوادث بعد ذلك يحكى لنا أبو مخنف: رجع أهل العراق إلى أنفسهم، وهم في طريق العودة من أقرب طريق على الشاطئ الأيمن من الفرات، ولام بعضهم بعضاً ولاموا علياً أيضاً، وإن كان لم يوقف المعركة إلا مضطراً. ولما دخل الكوفة خرج عليه اثنا عشر ألف رجل، وعسكروا في حروراء، فسموا الخوارج أو الحرورية[٣]، وكان شعارهم عبارة احتجاج عن التحكيم، وقالوا: لا حكم إلا لله. وكان رؤساؤهم شبث بن ربعي الرياحي وعبد الله بن الكواء اليشكري ويزيد بن قيس الأرحبي، وهم أكبر رجال قبائل تميم وبكر وهمدان الكبيرة في الكوفة. وقد نجح عليّ في أن يعيد هؤلاء الرؤساء إلى جانبه، وقد وعد أحدهم بولاية أصفهان والرى وأعطاه إياها. ثم عاد

---

(١) تراءى لعلقمة النخعى أخوه الذي قتل في صفين في المنام وقال له: إن قتلى أهل العراق وأهل الشام تنازعوا بعد قتلهم أيهم كان على الحق وأن الله أحق أهل العراق. وتحَيَّر رجلان في المشكلة، فأحالهما حذيفة المدائني إلى ما يحكى عن النبي من أن عمار بن ياسر تقتله الفئة الباغية. أما فيما يتعلق باطمئنان ضمائر أهل الشام فنجد شاهداً من أشعار كعب بن جعيل وغيره من الشعراء عند الدينورى ص ١٩١ فما بعدها وص ٢٠٦ [لا يشير المؤلف إلى المراجع التي اعتمد عليها في كلامه في أول هذا الهامش ــ المترجم].

(٢) [راجع موقف أهل العراق من علي وخروجهم عليه وما كان من مناقشات بينه وبين الخوارج وقلة رغبة أتباعه في الحرب معه وعدم استجابتهم له وتدخلهم في سرية المكاتبات في أيام التحكيم ونحو ذلك في مواضع كثيرة عند الطبري في حوادث سنى خلافة علي؛ خصوصاً ج ١ ص ٣٣٣٣، ٣٣٥٠ ــ ٣٣٥٤، ٣٣٧٨ ــ ٣٣٨٨، ٣٤٠٩، ٣٤١١ ــ ٣٤١٢، ٣٤١٩ وغير ذلك من المواضع ــ المترجم].

(٣) قارن فيما يتعلق بأحزاب المعارضة السياسية ــ الدينية في صدر الإسلام: Abh. der Göttinger, Band 5, No. 2 (1901).

الحرورية إلى الكوفة وانضموا إليه، لكنهم انتظروا، وزعموا أنه وعدهم أن يقودهم، دون إبطاء، إلى محاربة أهل الشام، فلما لم يفعل ذلك بل بعث أبا موسى لإنفاذ الحكومة في دومة الجندل في رمضان عام ٣٧هـ، اعتبروا ذلك خلفاً منه للوعد، فخرجوا عليه من جديد وعينوا منهم خليفة عليهم استقلوا به عن عليّ، هو عبد الله بن وهب الراسبى الأزدى، وبايعوه في اليوم العاشر من شوال عام ٣٧هـ (٢١ مارس سنة ٦٥٨ م). ثم خرجوا من الكوفة وحداناً مُسْتَخْفِين واجتمعوا في النهروان على الجانب الآخر من دجلة[1]، وهناك أيضاً عرضوا على خوارج في البصرة ــ وكانوا خمسمائة رجل ــ أن ينضموا إليهم تحت قيادة مسعر بن فدكى التميمي.

وبعد أن انتهى التحكيم كما تنتهي المهزلة، شعر عليّ أن له الحق في أن يستأنف القتال مع أهل الشام، فجمع جيشه في معسكر النخيلة، ودعا الخوارج أيضاً للانضمام إليه، لكنهم لم يستجيبوا لدعوته، وطالبوه بأن يشهد على نفسه بالكفر لقبوله التحكيم ويستقبل التوبة ــ وهذا هو تصورهم لاستجابته مرغماً لقبول التحكيم في صفين ــ فأراد عليّ عند ذلك أن يدعهم ويمضى إلى قتال أهل الشام، ولكن جيشه ألحّ عليه في أن يقاتل الخوارج، لأن خوارج البصرة، وهم في طريقهم إلى النهروان، قتلوا عبد الله بن خباب بن الأرت، ابن أحد السابقين الأولين من الصحابة (ابن هشام ص ٢٣٤)، بقروا بطن أم ولده عما في بطنها، وقتلوا آخرين واعترضوا الناس. فاضطر عليّ أن يستجيب لإلحاحهم، وحاول، عبثاً، أن يقنع الخوارج بأن يدفعوا إليه القتلة، كما حاول هو [ورجاله] عبثاً أن يبيّن لهم أنه وإياهم في الحقيقة غير مختلفين، وأنه إنما يريد أن يجعل السيف

---

(١) النهروان (Ναρβας) اسم النهر المعروف في بلاد جوخى من أعمال المدائن (الطبري جـ ٢ ص ٩٠٠)، وهو أيضاً اسم لمكان يسمى باسم أدق هو: جسر النهروان (الدينورى ٢١٧. وفيما يتعلق بأرض جوخى انظر الطبري جـ ٣ ص ٢٧٥ و٣٨٥ و٤٠٦.

حكماً بينه وبين أهل الشام أعدائه وأعدائهم، فأجابوهم: لو بايعناكم اليوم حكَّمْتُم غداً، يقصدون أن علياً وشيعته سيفعلون ما فعلوه في صفين من قبول التحكيم؛ ولم يقبلوا أي شيء، وتهيّئوا للقتال، فتنادوا: الرواح الرواح إلى الجنة!

ويقول أبو مخنف إن موقعة النهروان كانت عام ٣٧هـ، قرب آخر هذا العام، لأن الخوارج لم يخرجوا من الكوفة إلا في شوّال، أي في الشهر العاشر. وقد تركهم قوادهم الذين كانوا في حروراء، واشترك شبث في محاربتهم حرباً شديدة، وكذلك فعل الأشعث الذي كان أول الأمر على مذهبهم. وهم أيضاً لم يكونوا بالكثرة التي كانوا عليها في حروراء، فلم يزد عددهم على أربعة آلاف، ومن هؤلاء رجعت طائفةٌ متفرقين، فنزلت الكوفة، وانتقل منهم نحو من مائة رجل إلى جانب عليّ علانيةً، وانحاز خمسمائة فارس على رأسهم فروةُ بن نوفل إلى الدسكرة، وقُتِل الباقون حتى لم يبق منهم إلا ثمانية أشخاص.

على أنه بعد القضاء على الخوارج اعتقد أهلُ الكوفة أنهم قد فعلوا ما فيه الكفاية، ولم يبق لهم أي ميل إلى محاربة أهل الشام. واضطر عليّ إلى الإذعان للواقع. ولكنه لم يلبث أن اضطر إلى النهوض لإخضاع ثوار آخرين تعللوا أيضاً بمسألة التحكيم، لكن على نحو مغاير تماماً لما عند الخوارج. وكان الخِرِّيت بن راشد، من قبيلة ناجية، قد تبع علياً إلى الكوفة بعد موقعة الجمل ومعه ثلاثمائة رجل، وحارب مع عليّ في صفين والنهروان أيضاً. فلما لم يعترف عليّ بحكم المحكَّمين جاهره الخِرِّيت بالخروج والعداء، واتجه ومعه أصحابه إلى الأهواز من طريق المذار، وتلاحق بهم قوم من أصحابهم، كانوا معهم في الكوفة، وانضم إليهم طائفة من العرب يرون رأيهم، واجتمع إليهم علوجٌ وأكرادٌ من أهل الأهواز، لم يريدوا أن يدفعوا الخراج. وبعد أن هزمهم جيش كوفي تحت قيادة

معقل بن قيس التميمي عند رامهرمز، رجع الخرّيت إلى بلاده في البحرين، وأخذ يؤلّب قومه من بني ناجية، وكانوا قد امتنعوا منذ عام ٣٧هـ من دفع الصدقة (الزكاة)، بل هو أخذ أيضاً يفسد قبائل عبد القيس [ومن والاهم من سائر العرب] ويؤلبهم على عليّ. وكان يقول لكل صنف من الناس ما يرضيهم ويُسِرُّ إليهم أنه على رأيهم؛ فكان إذا تكلم مع الخوارج أظهر أنه على رأيهم وأنحى على عليّ لأنه حكّم الرجال في أمر الله؛ وإذا تكلم مع الآخرين أظهر لهم رأيه الذي كان رآه حين خرج من الكوفة، وهو أن علياً ما كان ينبغي له أن يرفض حكم المحكَّمين بعد أن رضى بالتحكيم واختار نائباً عنه؛ وإذا تكلم مع من امتنع من دفع الصدقة قال لهم: شُدّوا أيديَكم على صدقاتكم، وزاد على ذلك بأن أوصاهم أن يصلوا بها أرحامهم وأن يعودوا بها على فقرائهم ولا يعطوها إلى بيت المال. وكذلك استطاع أن يضم إليه نصارى كانوا قد أسلموا ثم ارتدوا إلى النصرانية لما رأوا الخلاف بين أفراد الأمة المحمدية وسفكهم الدماء، وذلك بأن نبههم إلى أنهم ليس لهم أن ينتظروا من عليّ عقاباً على ارتدادهم عن الإسلام إلا أن يضرب أعناقهم. ولكن معقل بن قيس، بعد أن طرده من الأهواز، لم يَدَعْه يثبت سلطانه في البحرين، فلحقه وقاتله؛ وصمدت قبائلُ بني ناجية، فصدّت ثلاث مرات هجومَ جيشٍ يزيد عليها في العدد، حتى إذا قتل الخرّيت ومعه مائة وسبعون رجلاً، تفرق الباقون وانتهت المعركة[١].

هذا ما يحكيه أبو مخنف كما يذكر الطبري (جـ ١ ص ٣٣٤٥ ــ ٣٣٨٦، ٣٤١٨ ــ ٣٤٤٣)[٢]. ولا سبيل إلى تصحيح روايته بالرجوع إلى اليعقوبي

---

(١) [تجد ما كان من الخريت وكيف انتهى أمره عند الطبري جـ ١ ص ٣٤١٨ ــ ٣٤٤٣ وقد راعينا الأصل العربي بقدر الإمكان ــ المترجم].

(٢) في مخطوط الطبري فجوة، وقد ملئت في طبعة ليدن (ص ٣٣٦٤ ــ ٣٣٦٨) بالاستعانة بابن الأثير.

أو الكامل أو الدينورى؛ ولكنها ليست، بأي حال، بريئة من المطاعن، خصوصاً فيما يتعلق بترتيب التواريخ. فهو بعد أن يقول إن الخوارج لم ينتخبوا لهم خليفة ولم يخرجوا إلى النهروان إلا بعد شهر من التحكيم، يؤخذ من كلامه، بعد ذلك، أنهم كانوا هناك عندما علم عليّ بحكم المحكَّمين وبدأ يجمع جيشه في النخيلة لمحاربة أهل الشام: ومعنى هذا أنهم لا بد أن يكونوا قد خرجوا من الكوفة قبل التحكيم. وإذا كان الخرّيت قد حارب مع عليّ في النهروان ثم انشقّ عليه بسبب رفضه الإذعان لحكم المحكَّمين، فلا بد أن تكون موقعة النهروان نفسها قد وقعت قبل التحكيم[1]. على أنه نظراً لهذا الخلاف في ترتيب الحوادث تتزعزع كلُّ شهادة أبي مخنف ودقتُه في وصف الواقع كما كان، وذلك أن علياً ما كان ليستطيع التفكير في محاربة أهل الشام إلا بعد صدور حكم المحكَّمين. فإذا كانت موقعة النهروان قد وقعت قبل ذلك، فلا يمكن أن يكون تجمُّع الجند في النخيلة مقصوداً به أهل الشام، بل مقصوداً به الخوارج. وإذن فلا صحة للقول بأن الكوفيين أرغموا علياً على حرب الخوارج بدلاً من حرب أهل الشام.

ولا يقتصر خطأ أبي مخنف على تحديد تاريخ وقعة النهروان بالنسبة لغيرها، بل هو يشمل التحديد المطلق لهذا التاريخ، فهو يجعلها في الشهرين الأخيرين من سنة ٣٧هـ. وقد اعترض الطبري على ذلك لأسباب وجيهة (الطبري جـ ١ ص ٣٣٨٧ ــ ٣٣٨٩). ونحن نعرف الآن التاريخ الدقيق من كتاب الأنساب للبلاذرى (راجع DMZ, 1884, 393) وهو أن المعركة كانت يوم ٩ صفر سنة ٣٨ ــ الموافق ١٧ يوليه سنة ٦٥٨ م.

---

(١) وبوجه أدق، قبل وصول العلم بحكم المحكمين إلى الكوفة؛ أما الحكم نفسه فيمكن أن يكون قد صدر في نفس الوقت الذي كانت فيه موقعة النهروان، بل ربما كان قبل ذلك، والأمر هنا هو دائماً أمر علم عليّ بحكم المحكمين.

وعلى هذا فلم تُعقَد محكمة المحكَمين في رمضان سنة ٣٧هـ، بل هي لم تعقد إلا في سنة ٣٨هـ. ويقول الواقدي، كما في الطبري (جـ ١ ص ٣٤٠٧)، إنها عقدت في شعبان سنة ٣٨هـ ــ بعد شطر كبير من السنة، إذا كان معاوية قد عاد في صفر سنة ٣٨هـ (بعد صدور حكم المحكمين من غير شك ــ قارن الطبري جـ ١ ص ٣٤٥٠ س ١٦) إلى القتال مع أهل مصر، كما يقول الواقدي أيضاً (الطبري جـ ١ ص ٣٤٠٦ فما بعدها). على أنه إذا كانت محكمة المحكَّمين لم تعقد إلا في أول سنة ٣٨هـ فمن العجيب أن يمضي عام كامل بين الاتفاق على التحكيم في صفين وبين انتهائه. ويقول الزهري وهو من أقدم الرواة المدنيين، إن الأجل الذي حُدِّد، في أول الأمر، لإصدار الحكم قد أخِّر. وقد كان الاتفاق أن يلتقي الحكمان في دومة الجندل، أو، إذا حال دون ذلك حائل، في أذرح، في العام التالي (الطبري جـ ١ ص ٣٣٤١). والواقع أنهم التقوا في أذرح[1] (الطبري جـ ٢ ص ٨)، وأيضاً في العام التالي لموقعة صفين، أعني عام ٣٨هـ. وكل من الواقدي (الطبري جـ ١ ص ٣٣٥٣ فما بعدها وص ٣٤٠٧) وأبي معشر (الطبري جـ ٢ ص ١٩٨) يذكر أذرح كما يذكرها الزهري. وأبو مخنف لا يعيّن في وثيقة الاتفاق مكان اجتماع المحكمين، فيقول: وإن مكان قضيتهما الذي يقضيان فيه مكانٌ عَدْل بين أهل الكوفة وأهل الشام (الطبري جـ ١ ص ٣٣٣٧)، وبعد ذلك يذكر دومة الجندل عادة، ولكنه يذكر دومة الجندل وأذرح معاً كأنهما شيء واحد، [إذا كان نص الطبري (جـ ١ ص ٣٣٥٤ س ١١) صحيحاً].

وهكذا نلاحظ قلة الدقة في الرواية المتعلقة بزمان ومكان حادث من أكبر

---

(١) وهذا المكان الواقع في بلاد إدوم القديمة، ربما كان اختياره مراعاة لأهل المدينة الذين كان لهم الحق في أن يقولوا شيئاً.

حوادث تاريخ صدر الإسلام. أما فيما يتعلق بما تضمنه هذا الحادث وبسير القضية وما انتهى إليه الحكم فيها، فإن الروايات أقل من أن تفي بالحاجة. ويذكر أبو مخنف روايتين في ذلك (الطبري ج ١ ص ٣٣٥٤ والصفحات التالية)، إحداهما ترجع إلى الشعبي. فإلى جانب أبي موسى بعث عليّ إلى مكان عقد المحكمة أربعمائة رجل، عليهم شُريح بن هانئ الحارثي، بعث معهم عبد الله بن عباس يصلى بهم، وبعث معاوية عمرو بن العاص في أربعمائة رجل. وكان هناك أيضاً من مستحقي الخلافة بعد الخصمين، ورَثَةُ الأرستقراطية الإسلامية التي كانت تحيط بالنبي [عليه السلام] وكان مستشاروه في شئون الحكم، مثل عبد الله بن عمر وعبد الله بن الزبير وغيرهما؛ ولكن لم يحضر الصحابي المسن سعد بن أبي وقّاص[1]. فأما عمرو فإنه أراد أن يثبت حق معاوية في الخلافة مستنداً إلى أن معاوية وآل معاوية هم أولياء عثمان، وقد قُتِل عثمان مظلوماً، وذكر عمرو قولَ الله عزّ وجلّ: «ومن قُتِل مَظْلُوماً فَقَدْ جَعَلْنَا لِوَلِيِّهِ سُلْطاناً، فَلاَ يُسْرِفْ في القَتْل إنَّهُ كان منصوراً» (الإسراء آية ٣٣). ثم أكمل عمرو دليله بذكر شرف معاوية ومكانه من صحبة النبي ومصاهرته له وحسن سياسته وتدبيره، ثم عرّض لأبي موسى بالسلطان وبأن معاوية إنْ تَولّى الخلافة فهو مكرمٌ إيّاه كَرامةً لم يكرمها خليفةٌ. وكان أبو موسى في نفسه يرشّح عبدَ الله بن عمر، فلم يغتر بكلام عمرو» وقال له: ليس أمر الخلافة أمر استحقاق بالشرف، وإلا كانت الخلافة لغير معاوية، بل الخلافة لأهل الدين والفضل؛ وإذا كان الأمر أمر شرف فعليٌّ بن أبي طالب أفضل قريش شرفاً. ثم قال إن المهاجرين الأولين أحق بأن يكونوا أولياء لدم عثمان من معاوية، ثم ختم كلامه رداً على عمرو في تعريضه له بالسلطان الكرامة من معاوية فقال: والله لو خرج لي من سلطانه كله وما ولَّيْتُه، وما كنتُ

---

(١) [كان سعد قد آثر الابتعاد عن الفتنة خصوصاً بعد مقتل عثمان وقيام النزاع بين علي ومعاوية (راجع الطبري مثلا ج ١ ص ٣٣٥٣ ــ ٣٣٥٥) ــ المترجم].

لأرتشى في حكم الله عزّ جل؛ ولكنك إن شئتَ أحيينا اسم عمر بن الخطاب[١]. وهنا تنقطع رواية الشعبي، ولا نجد فيما عــدا ذلك من روايات سوى اعتراض عمرو بن العاص على ترشيح عبد الله بن عمر. أما أبو مخنف فهو يأتي برواية أخرى عن ابن جنّاب الكلبي، وهي الرواية الوحيدة التي تصف نهاية مفاوضات التحكيم: التقى عمرو وأبو موسى في دومة الجندل، وكان عمرو قد عوّد أبا موسى بأن يقدِّمه في كل شيء، وإنما قصد بذلك تقديمه في الكلام عند إصدار الحكم الذي انتهيا إليه، وهو خلع عليّ ومعاوية معاً. وقد أراد عمرو أبا موسى على معاوية فأبى، وأراده على ابنه فأبى. وأراد أبو موسى عَمراً على عبد الله بن عمر فأبى عليه، فقال له عمرو: خبرني فما رأيك؟ قال: أرى أن نخلع هذين الرجلين، ونجعل الأمر شورى بين المسلمين، فيختار المسلمون لأنفسهم من أحبّوا، فقال له عمرو: فإن الرأي ما رأيتَ. وليس المقصود من هذه الشورى أن يُتْرَك الأمر لانتخاب الشعب، بل لجماعة مختارة من الأرستقراطية الإسلامية، على مثال الجماعة التي ألفها عمر، واتفقت على انتخاب عثمان. وأقبل الحكمان إلى الناس، وهم مجتمعون. وبعد أن طلب عمرو من أبي موسى أن يُعْلِمَ الناسَ باتفاق الرأي بينهما، وتكلم أبو موسى فقال: إن رأيي ورأي عمرو قد اتفق على أمر نرجو أن يُصلح اللهُ به أمر هذه الأمة، عند ذلك قال عمرو: صدَقْتَ وبرٌّ يا أبا موسى، تقدم فتكلم! وتقدّم أبو موسى، فأراد عبد الله بن عباس أن يمنعه من الكلام قبل عمرو خشيةَ الغدر من جانب عمرو. ولكن أبا موسى كان مُغَفَّلا، فقال: إنا قد اتفقنا، وأخذ يتكلم، فحمد الله وأثنى عليه، ثم قال: إنا قد نظرنا في أمر هذه الأمة، فلم نر أصلح لأمرها ولا ألمّ لشعثها من أمر قد أجمع رأيي ورأي عمرو عليه، وهو أن نخلع علياً ومعاوية، وتستقبل هذه الأمّةُ هذا الأمرَ، فيُوَلّوا منهم من

---

(١) [يقصد ترشيح عبد الله بن عمر للخلافة ــ المترجم].

أحبوا عليهم؛ وإني قد خلعتُ علياً ومعاوية، فاستقبلوا أمرَكُمْ وولّوا عليكم من رأيتموه لهذا الأمر أهلا. ثم تنحى أبو موسى وقام مقامَه عمرو، فحمد الله وأثنى عليه ثم قال: إن هذا قد قال ما سمعتُمْ، وخلع صاحبه، وأنا أخلع صاحبَه كما خلعه، وأُثْبِتُ صاحبي معاوية، فإنه وليُّ عثمان بن عَفّان والطالبُ بدمه وأحقّ الناس بمقامه. وعند ذلك تشاتم الحكمان، وقام أحدُ أنصار عليّ على عمرؤ فضربه بالسوط. وقام الناس، وركب أبو موسى ولحق بمكة هارباً من أهل الشام، وانصرف عمرو وأهل الشام إلى معاوية وسلّموا عليه بالخلافة. ورجع قوم عليّ إلى عليّ، فكان عليٌّ إذا صلّى الغداةَ يَقْنُتُ ويلعن معاوية وعَمْراً وغيرهما من أنصار معاوية، وبلغ ذلك معاوية، فكان إذا قنت لعن علياً وابن عباس وغيرهما من آل عليّ.

ولا بد من التنبيه على ما يشعر به الإنسان من أن أبا موسى قد وقع على هذا النحو في شرك الخديعة؛ أما عمرو فقد غدر غدراً شائناً. ولا شك أن أكثر الناس حنكة ربما وقع في مثل الشرك الذي وقع فيه أبو موسى. وإذا كان هناك خداع فهو من جانب عمرو؛ ولم يكن عمرو في الحقيقة بالرجل الذي يُخْدَع. وهذه الحكاية في أمر نهاية محكمة التحكيم غير جديرة بالتصديق، وإن كان الواقدي يُعَوِّل عليها فيما يظهر (الطبري جـ ٢ ص ٨٤)[(١)]. والغالب أن حكاية الشعبي تختلف عن ذلك، ولكن نهايتها مفقودة للأسف، ولدى المؤرخ وسيلةٌ لتصحيح الخطأ بالرجوع إلى ما حكاه أبو مخنف من أمر الخرّيت بن راشد. وذلك أن الخرّيت أخذ على عليٍّ أنه لم يقبل حكمَ أبي موسى الذي يقضي بترك اختيار

---

(١) ويحكى أبو عبيدة فيما يتعلق بحوادث في البصرة شيئاً شبيهاً بهذا وقع فيما بعد (راجع الطبري جـ ٢ ص ٤٤٦ فما بعدها وقارن ص ٤٤٤) [في هذين الموضعين من كتاب الطبري تحكيم أهل البصرة رجلين ليختاروا لهم والياً بعد موت يزيد بن معاوية وغدر أحد الحكمين بالآخر ــ المترجم].

الخليفة إلى الشورى بين المسلمين[1]، وما يأخذه الخرّيت على عليّ لا بد أن يكون مَرْجِعُه إلى قبول أهل الشام أن يكون أمر الخلافة للشورى، وإلا لما كان هناك محلٌّ للوم الخِرّيت علياً. أما معاوية فإنه لم يفقد بذلك شيئاً لأنه لم يكن خليفةً بعد، ولم يُنَصَّبْ خليفةً في الحقيقة إلا عام ٤٠هـ، في بيت المقدس. ولكن علياً لم يكن يستطيع أن يتنازل عن الموقف الذي اتخذه، ولا أن يجعل حقه متوقفاً على الشورى. وكان من السهل توقع الرفض منه. وقد تصرف عمرو بدهاء عندما وافق أبا موسى على خلع الرجلين، وهو قد غرّر بأبي موسى على كل حال، لأن معاوية لم يكن خلفية، فيُخْلَع بالمعنى الذي يُخْلَع به عليّ. وكان الخلع وإنكار الحق في الخلافة لا يصيب إلا علياً. وبعد أن أخطأ عليٌّ في الخطوة الأولى أصبح مضطراً في إصلاح الخطأ إلى النكث ورفض حكم الحكمين. وروايات أهل العراق تميل كل الميل إلى إخفاء هذا النكث الذي يُعْذَر صاحبهُ على كل حال، وهي تجعل كلَّ الوزر على عمرو وأبي موسى، الحكميْن اللذيْن لم يُوَفَّقا إلى خير (الطبري جـ ٢ ص ٧١٠ س ٩ ــ ١٠ وص ٩٢٩ س ١).

٣ ــ وقد فتح عمرو بن العاص مصر سنة ٣٨هـ، ويظهر أن فتحها وقع بعد انتهاء التحكيم على الفور؛ وقد حاول معاوية فتح مصر من قبل في سنة ٣٦هـ. وقد أشرت إلى ذلك فيما تقدم، ولكني أعود إليه هنا في سياقه، لكي يزول كل غموض.

يقول أبو مخنف (الطبري جـ ١ ص ٣٢٣٤ فما بعدها و٣٢٤٣ و٣٣٩٢ والصفحات التالية) إن محمد بن أبي حذيفة، بعد أن سرَّب المصرين إلى عثمان بن عفان حتى حاصروه، وثب هو بمصر على عبد الله بن سعد بن أبي سرح،

---

(١) هكذا عند الطبري جـ ١ ص ٣٤٣٤ س ١ وص ٣٤٢٧ س ٢. وخلافاً لهذا يبدو الخريت خارجيا محضاً (الطبري جـ ١ ص ٣٤١٩ س ١)؛ وهذا خطأ إذا نَظرنا إلى جملة الحوادث، ولكن من السهل أن ندركه، إذا نظرنا إلى تصور أبي مخنف لمجرى قضية التحكيم.

عامل مصر حينئذ من قبل عثمان، فطرده منها، وصلّى بالناس. فخرج ابن أبي سرح ونزل على تخوم فلسطين، وانتظر ما يكون من أمر عثمان في المدينة وما تنتهي إليه الفتنة. وتلقى محمد بن أبي حذيفة مع خبر مقتل عثمان كتابَ علي بن أبي طالب بتعيين قيس بن سعد بن عبادة، أَنْبه رجال الأنصار، والياً على مصر. وجاء قيس ومعه الكتاب، ويرجع تاريخه إلى صفر سنة ٣٦هـ. وقد جاء قيس من غير جيش، ولم يكن معه إلا سبعة نفر من أصحابه، وكان لأتباع عليّ اليد العليا في مصر، ولكن كان فيها بطبيعة الحال قومٌ مائلون إلى عثمان أيضاً[١]. وكان قد تجمعوا في قرية يقال لها خَرْبتا، في الدلتا، وعليهم يزيد بن الحارث الكناني. ولكن قيساً هادن يزيد، كما هادن مسلمة بن مخلّد الأنصاري، وكان من رهط قيس بن سعد نفسه؛ وكان مسلمة قد وثب يدعو إلى المطالبة بدم عثمان، ولذلك لم يستطع معاوية أن ينال أنصاراً في مصر على شدة اهتمامه بذلك، فحاول عند ذلك أن يضم قيساً إلى جانبه، فوعده بجبال الذهب إن هو انضم إليه[٢]. ورغم أن معاوية لم يصب نجاحاً في ذلك فإنه تعمد أن يذيع أن قيساً من شيعته وأنه لا يؤذى قوم معاوية بمصر. بل استغلَّ معاوية كتاباً جاءه من قيس رداً على كتاب منه إليه لان فيه قيسٌ لمعاوية، واختلق كتاباً آخر من قيس يعلن فيه انضمامه إليه[٣]. وقصد معاوية بذلك أن يثير الريبة من قيس في نفس عليّ؛ وقد أفلح معاويةُ في الوصول إلى غرضه. وأراد عليٌّ أن يمتحن ولاء قيس له،

---

(١) ولكنهم لم يكونوا بأي وجه في جانب معاوية في أول الأمر، وليس معنى ميلهم لعثمان أنهم كانوا يميلون إلى بني أمية. وكان في الكوفة أيضاً قوم يميلون إلى عثمان ولا يتبعون حزب أهل الشام من أجل ذلك، بل هم اتخذوا موقفاً محايداً على نحو ما، كما فعل أبو موسى ــ قارن الطبري جـ ٢ ص ٦٥٩ والمقدسي ص ٢٩٣ س ١٢.

(٢) [وعد معاوية قيسا بسلطان العراقين ووعده لمن أحب من أهل بيته بسلطان الحجاز ــ المترجم].

(٣) [يجد القارئ المكاتبات بين معاوية وقيس عند الطبري جـ ١ ص ٣٢٣٨ ــ ٣٢٤٦. وكتاب قيس الأول لمعاوية غير صريح، فتصور معاوية أن قيساً مقارب مباعد، ولم يأمن أن =

فكتب إليه بأمره بقتال أهل خربتا؛ فلما امتنع قيس وبيّن لعليّ وجهة نظره في سياسته ومداراته لقوم أشداء، أبى عليّ إلاَّ قِتالَهم، وأخيراً كتب قيس إلى عليّ: إن كنتَ تتهمني فاعزلني عن عملك وابعث إليه غيري؛ فعزله عليّ وعين مكانه محمد بن أبي بكر[(١)]. وكان في ذلك دخل للدسائس من جانب بطانة عليّ ضد قيس بن سعد بن عبادة، الذي كان أبوه سعد بن عبادة قد نازع أبا بكر في الخلافة من قبل. وقد فوجئ قيس بوصول خَلَفِه، ولكن ولاءه لعليّ لم يتزعزع. وبعد فترة قليلة قضاها في المدينة خرج حتى قدم على عليّ في الكوفة، وحارب إلى جانبه في موقعة صفين (عام ٣٧هـ). أما محمد بن أبي بكر الذي كان كتاب تعيينه مؤرخاً غرة رمضان عام ٣٦هـ، فإنه لم يلبث في ولايته شهراً كاملاً حتى بعث إلى القوم المعتزلين الذين كان قيس بن سعد قد وادعهم، فخيّرهم بين أن يدخلوا في طاعته وبين أن يرحلوا عن البلاد. فاستمهلوه حتى ينظروا ما تصير إليه أمورهم، فلما أبى عليهم امتنعوا منه وأخذوا حذرهم، حتى كانت وقعة صفين وهم له هائبون. فلما أتاهم صبرُ معاوية وأهل الشام لعليّ وأن علياً وأهل العراق رجعوا عن معاوية وأهل الشام وصار أمرهم إلى التحكيم، اجترؤا على محمد بن أبي بكر وأظهروا له المبارزة. فوجّه إليهم بعثاً فقتلوا قائده، ثم بعثاً آخر فقتلوا قائده، ثم وثبوا بقيادة معاوية بن حُدَيج السكوني يدعون إلى المطالبة بدم عثمان. وفسدت مصرُ على محمد بن أبي بكر، ولم يستطع أن يكبح جماح الثوار، فاضطر عليٌّ إلى أن يقرر إرسال مالك الأشتر، صاحب النصر يوم صفين، إلى

= يكون في الحقيقة مكايداً؛ ثم جاء خطاب قيس الثاني صريحا في تأييد علي والطعن على معاوية وأصحابه. ويظهر أن قيسا لما رأى قوة العثمانيين وبين عرب مصر آثر السياسة والموادعة، وإلا فإن تاريخه يدل على استقامة الكلمة وعلى الصراحة وعدم المساومة، لا في شرفه ولا في موقفه السياسي ــ المترجم].

(١) [وفي رواية أخرى أن عليا عين مالكا الأشتر مكان قيس بن سعد وأن مالكاً مات مسموماً من يد أنصار معاوية بمصر (الطبري ج ١ ص ٣٢٤٢، ٣٣٩٣، ٣٣٣٤) المترجم].

مصر؛ وكان مالك يومئذ في نصيبين على حدود أرض الجزيرة التي كانت تابعة للشام. وجاء مالك أيضاً من غير جيش، وشق على معاوية تعيينُ مالك على مصر، فبعث إلى الجايستار، رجل من أهل الخراج، وطلب منه أن يحتال لمالك ويكفيه إياه، ووعده ألاّ يأخذ منه خراجاً طول مدة حكمه، إن فعل. فخرج الجايستار إلى القلزم واستقبل مالكاً، واحتال حتى استطاع إضافته، ثم دسّ له السمَّ في شربة عسل، فمات. وكان معاوية قد طلب من أهل الشام أن يدعوا الله أن يكفيهم مالكاً الأشتر، فكانوا كل يوم يدعون الله عليه، حتى إذا بلغ معاوية موتُه قام في الناس خطيباً في دمشق وأعلن موت الأشتر إعلان المنتصر، وعند ذلك كتب عليّ إلى محمد بن أبي بكر، فأزال ما كان في نفسه من موجدة بسبب تعيين الأشتر على مصر، فرضيت نفسهُ، وبقى في منصبه المثقل بالمتاعب.

ولكن رواية أبي مخنف هذه، وهي السائدة في الكتب الحديثة للتاريخ الإسلامي، يمكن تصحيحها بمعلومات أكثر دقـــة. لم يكن قيس بن سعد أولَ والٍ لعليّ في مصر، بل جاء خلفاً لمحمد بن أبي حذيفة[1]. وكان محمد قد بقى في مصر عندما خرج الثوار على عثمان من هنالك قاصدين المدينة، وذلك بعد أن كان قد طرد عبد الله بن سعد بن أبي سرح واستولى على مصر لعليّ (الطبري جـ ١ ص ٢٩٦٨). ولكن معاوية وعَمْراً نجحا عام ٣٦هـ في استدراج محمد بن أبي حذيفة، الثائر الشاب، إلى العريش عند حدود مصر، ولم يتوغلا في مصر أكثر من ذلك (رغم ما جاء في الطبري جـ ١ ص ٣٤٠٧ س ١٧)، لأن العثمانيين بمصر لم ينضموا إليهما؛ وفي العريش أحاطا بابن أبي حذيفة وأخذاه أسيراً، ثم

---

(١) الواقدي، عند الطبري جـ ١ ص ٣٢٥٢ والصفحات التالية، والبلاذري ص ٢٢٧ فما بعدها، ويوافق ذلك ما جاء في الطبري جـ ١ ص ٣٢٣٣، وهي رواية لا إسناد لها.

قُتِل بعد ذلك. ولكن الروايات لا تتفق تماماً فيما يتعلق بزمان القتل وكيفية، فيقول المؤرخ السرياني الذي نشر نولدكه كتابه (DMZ, 1895, 89) إنه في سنة ٩٦٩ من حكم السلوقيين (= ٣٨ ــ ٣٩هـ) قُتل حذيفة بن أخت معاوية بأمر معاوية[1]. ويؤيد هذا التاريخ ابنُ الكلبي، كما يذكر الطبري (جـ ١ ص ٣٤٠٨). على أنه يروى أنه لما فر ابن أبي حذيفة من سجنه كان معاوية يحب له أن ينجو (قارن الطبري جـ ٢ ص ٢١٠ والدينورى ص ١٦٧ س ١٥). وقد قتله رجل من خثعم؛ على كره من معاوية. وقد كان ابن أبي حذيفة قد اختبأ في غارٍ، فلجأت إليه حُمُرٌ وحشيةٌ أصابها المطر، فلما رأته فزعت ونفرت. ورأى ذلك حصّادون، فتنبهوا إليه، ودلّوا الرجل الخثعمي على مكانه، فقتله. أما الواقدي (الطبري جـ ١ ص ٣٢٣٣ س ٧ وص ٣٤٠٧ س ١٥) فهو يجعل قتل ابن أبي حذيفة في نفس السنة التي أسر فيها، أعني عام ٣٦هـ. والأرجح أن هذا خطأ.

وبعد أسر ابن أبي حذيفة جاء قيس بن سعد خلفاً له. فمن العسير أن يكون قد ترك ولايته في رمضان سنة ٣٦هـ، وأن يكون قد اشترك في موقعة صفّين، كما يقول أبو مخنف. أما الزهري (الطبري جـ ١ ص ٣٢٤١ فما بعدها وص ٣٢٤٦ وص ٣٣٩١ فما بعدها) فيقول إنه عُزل بعد تلك الموقعة، وإنه لم يبادر الذهـــاب إلى عليّ بالكوفة راضى النفس، بل هو لحق بالمدينة. ولكن مروان بن الحكم وغيره من الأمويين أخافوه أن يُؤخذ أو يقتل، فخرج قيس حتى قدم على عليّ. وتغيّظ معاوية أشد الغيظ على من أخرج قيساً حتى لحق بعليّ، لما كان لقيس في نظر معاوية من الرأي والمكانة، حتى كان ذلك أشد عليه من

---

(١) هو يسميه حذيفة، وإن كان أبوه لم يكن يسمى أبا حذيفة تبعاً لاسمه، ويعتبره ابن أخت معاوية، وإن لم يكن في الحقيقة ابن أخته بل ابن خالته (ابن هشام ص ١٦٥ و٢٠٨) [في الطبري جـ ١ ص ٣٤٠٨ أنه كان ابن خال معاوية ــ المترجم].

إمداد عليّ بمائة ألف مقاتل. وجاء الأشتر إلى مصر بعد قيس مباشرة، ولم يأت محمد بن أبي بكر إلى مصر إلا بعد أن دُسَّ السمُّ للأشتر بعد أن كان قد دخل أرض مصر. على أن ابن الكلبي (الطبري جـ ١ ص ٣٢٤٢) يذكر خلافاً لذلك أن الأشتر إنا أُرسل إلى مصر بعد سقوط محمد بن أبي بكر؛ وهذا خطأ تام على كل حال.

على أن معاوية وعَمراً استأنفاً ما كانا قد رجعا عنه من الهجوم على مصر سنة ٣٦هـ؛ فعادا إلى ذلك في عام ٣٨هـ، بنجاح أكبر، وحاربا محمد بن أبي بكر. والروايات في ذلك أيضاً متضاربة عند الطبري؛ فيقول أبو مخنف (الطبري جـ ١ ص ٣٣٩٦ والصفحات التالية) إن معاوية، بعد انتهاء التحكيم، ولم يكن له هم سوى مصر، وكان لأهلها هائباً خائفاً، لقربهم منه وشدّتهم على من كان على رأي عثمان. وكان معاوية يرجو أن يظهر على مصر، فيظهر على حرب عليٍّ، لعظم خراجها[1]. فكان يعلم أن به قوماً قد ساءهم قتلُ عثمان، وخالفوا علياً، منهم مسلمة بن مخلّد الأنصاري ومعاوية بن حُدَيْج الكندي. وكان محمد بن أبي بكر قد ناصبهما الحرب. وشجّع معاوية هذين الثائرين في كتاب منه إليهما، ووعدهما المواساة في الدنيا والسلطان، فكتبا له بأمَّرِهما وأنهما بذلا أنفسهما لأمر الله، لا يرجون إلا ثوابه، وطلبا أن يعجِّل بإرسال المدد، بعد أن كانا من قبل لا يقبلان منه شيئاً. فخرج عمرو في ستة آلاف رجل قاصداً مصر، حتى إذا نزل له في نفس الوقت بكتاب تهديد ووعيد من معاوية. فطوى ابن أبي بكر الكتابيْن وبعث بهما إلى عليّ، وأبلغه نزولَ عمرو أرضَ مصر في جيش لجب واجتماعَ أنصار معاوية إليه، ووصف له ما بدا على الناس من الفشل، وطَلَب المددَ

---

(١) [قارن ما تقدم ص ٧١ ـــ المترجم].

من عليّ. فكتب له علي أن يصبر ويتحصّن حتى يأتيه المدد، وأن يردّ على ما وصله من كتب التهديد. ولكن مدد عليٍّ لم يأتِ، واضطر محمد بن أبي بكر إلى أن يعتمد على موارده الخاصة(١). فدعا الناس إلى القتال، فنهض معه نحو من ألفي رجل، وكان أشدهم نجدة وبأساً كنانة بشر التجيبي قاتل عثمان(٢)، وهو الذي أوصى عليٌّ محمدَ بن أبي بكر بانتدابه. وبدأت المعركة، وقاتل كنانةُ قتالاً شديداً، حتى قُتِل أمام قوة كبيرة من جند الشام أحاطت به من كل جانب. وعند ذلك تفرّق الباقون عن محمد بن أبي بكر، حتى بقى وما معه أحد، فخرج يمشي في الطريق حتى انتهى إلى خربة، فأوى إليها. وخرج معاوية بن حُدَيْج في طلبه حتى اهتدى إليه واستخرجه من الخربة، ثم قتله، وهو مجرد من السلاح، ثم وضعه في جوف حمار وأحرقه بالنار. فلما بلغ ذلك عائشة جزعت عليه جزعاً شديداً وقنتت عليه في دبر كل صلاة، تدعو على معاوية وعمرو، وقبضَتْ عيالَه إليها، وصارت لا تستطيع أن تأكل لحم الشواء (قارن الطبري جـ ٣ ص ٣٦٨).

أما الواقدي فيحكى غير ذلك، فهو يقول (الطبري جـ ١ ص ٣٤٠٦ فما بعدها) إن عَمْراً خرج إلى مصر في أربعة آلاف رجل فيهم معاوية بن حُديج وأبو الأعور السلمي؛ ومعنى هذا أن معاوية بن حُديج لم يكن في مصر من قبل ويذكر الواقدي أن المعركة كانت عند المُسَنّاة(٣). وبعد قتال شديد قُتِل كناية، ولم يجد محمد بن أبي بكر من يقاتل معه، فانهزم واختبأ عند جبلة بن مسروق، حتى دُلَّ عليه معاويةُ بن حُديج، فأحاط به، فخرج محمد وقاتل حتى قتل، وكان ذلك في صفر سنة ٣٨هـ.

---

(١) قارن بهذا ما يقوله سيف في حكمه على هذا الرجل.

(٢) [نجد في الطبري جـ ١ ص ٣٤٠٣، ٣٤٠٥، ٣٤٠٦ أن محمد بن أبي بكر يعترف بقتله عثمان وأنه قُتل بعثمان ــ المترجم].

(٣) المسناة، ويسمى المسعودي هذا المكان كوم شريك، وهذا خلط ــ قارن ياقوت جـ ٤ ص ٣٣٠.

ونهايةُ محمد بن أبي بكر كما يحكيها أبو مخنف، أكثر دخولاً في باب الروايات القصصية مما هي عند الواقدي، وهي تشبه ما يُروى من نهاية محمد (بن أبي حذيفة) الذي قُتل، كما يقول المقريزي[١]، كما يقتل الحمار، والذي يذكر ابن الكلبي أيضاً أن قتله كان بسبب حُمُرٍ نفرت من الغار الذي كان مختبئاً فيه، فدلّت بذلك عليه. ولا حاجة للمؤرخ أن يحكم في الأمر حكماً قاطعاً، وهو يرى مقدار اضطراب الروايات المتعلقة بذلك العصر.

٤ ــ ساء موقف عليّ بعد صِفِّين سوءاً شديداً، فكان الخوارج في العراق يحاربونه حرباً شديدة، وكان أهل البصرة متراخين متثاقلين عن نصرته، إذا استثنيا أشخاصاً قلائل مثل أبي الأسود الدؤلى. وكان أهل الكوفة معه بأهوائهم، لم يكونوا معه بكل قواهم، وكان بينهم بعض المحايدين وبعض المائلين إلى عثمان، ولحق بعضهم بمعاوية. وقد كان لضعف مركز عليّ في قلب الدولة أثرُه على مكانته وهيبته في الأطراف؛ ففي سنة ٣٧هـ، قبل ثورة الخريت، امتنع عرب البحرين عن دفع الخراج وصدقة المال، وارتد بعضهم إلى النصرانية، وتمردت الولايات الفارسية وتراخت عقدةُ طاعتها للحكومة المركزية. وطمع أهل فارس وكرمان في كسر الخوارج، وغلب أهل كل ناحية على ما يليهم وأخرجوا العمال[٢]. ولا بد أن يعجب الإنسان من ولايات فارس لم تستطع في ذلك الوقت أن تطرح عن عاتقها النير الأجنبي جملة، وأن تطرد جنود الاحتلال العرب طرداً تاماً. وكان أكبر رجليْن من رجال عليّ، بعد موت مالك الأشتر،

---

(١) انظر Vloten, *Recherches*, p. 58 (وذلك في Verhandi, der Amsterdam Akademie، ١٨٩٤ ــ Letterkunde 1, 3).

(٢) وخصوصاً خراسان، كما يقول البلاذري ص ٤٠٨ فما بعدها، والطبري ج ١ ص ٣٢٤٩ وما يليها وص ٣٣٨٩ وما يليها. وكذلك أذربيجان والرى وفارس والأهواز (الطبري ج ١ ص ٣٢٥٤ و٣٢٤٥ و٣٣٩٣ و٣٤٢٩ و٣٤٣٠ و٣٤٤٩.

هما قيس بن سعد بن عبادة وزياد بن أبيه. أما عبد الله بن عباس، الذي ولاه عليّ على البصرة، فقد أثبت أنه والٍ غير أهل للولاية وأنه لا يعوّل عليه.

وكانت أقوى ضربة حقيقية أحسَّ بها عليٌّ هي فتح مصر على يد عمرو، لأن معاوية أصبح على أثر ذلك مطلق اليديْن، وكان عندئذ قد أمّن نفسه من اعتداء الروم بأن عقد هدنة مع الهرقل كونستانس (Constane) في مقابل إتاوة سنوية. والروايات العربية لا تذكر ذلك إلا ذكراً عابراً[١]. ولكنا نعرف مما كتبه تيوفانيس أن ذلك كان عام ٦١٥٠ من تاريخ الخليقة = ٣٨ ــ ٣٩هـ)[٢]. ولم يجترئ معاوية على أن يهجم على عليّ هجوماً حقيقياً، واكتفى بأن فرق جيوشه على الأطراف التي في طاعة علي هنا وهناك. ففي سنة ٣٨هـ وجّه معاوية إلى البصرة عبد الله بن عمرو بن الحضرمي لكي يحرض قبائل تميم على الثورة ضد علي، وكان عبد الله بن عباس قد خرج من البصرة إلى علي بالكوفة واستخلف زياد بن أبيه؛ فاحتمى زياد بقبائل الأزد، فأخمد هؤلاء نار الثورة، وقتلوا ابن الحضرمي بعد أن تصدع عنه كثير ممن كان معه. وهذا ما يحكيه المدائنى ونجده عند الطبري (جـ ١ ص ٣٤١٤) والصفحات التالية). ويروي المدائني عن عوانة (الطبري جـ ١ ص ٣٤٤٤ فما بعدها) أخبار الجيوش التي وجّهها معاوية إلى العراق. فهو قد وجَّه النعمان بن بشير إلى عين التمر، وسفيان بن عوف إلى هيت والانبار، وعبد الله بن مسعدة الفزارى إلى تيماء، والضحاك بن قيس إلى القُطْقُطانة[٣].

---

(١) البلاذري ص ١٥٩ س ١ وص ١٦٠ س ٨ وانظر DMZ، ١٨٧٥ ص ٩٦، قارن ما يحكيه الطبري (جـ ٢ ص ٢١١ والدينورى ص ١٦٨)، ويحكي المسعودي (جـ ٥ ص ٢٢٤) ذلك عن عبد الملك بن مروان.

(٢) تكلمت عن العلاقة بين سنى العالم عند تيوفانيس وبين التاريخ السلوقي في مجلة Göttinger Nachrichten، عام ١٩٠١ ص ٤١٤ والصفحات التالية.

(٣) قارن اليعقوبي جـ ٢ ص ٢٢٨ س ٦ و٢٢٩ س ٣ وص ٢٣٠ س ٩، والأغاني جـ ١٥ ص ٤٥ فما بعدها. ويقول أبو معشر والواقدي (الطبري جـ ١ ص ٣٤٤٧) إن معاوية سار بنفسه سنة ٣٩هـ إلى دجلة حتى شارفها، ثم نكص راجعاً.

وتبدو هذه الحملات مجرد غارات، فكان يعود أهل الشام بالغنائم، وكان أهل الكوفة يطاردونهم ويدركونهم ويقتلونهم.

ويربط البعض بين غارات النهب هذه وبين الحملة المشهورة التي قام بها بُسْر بن أرطأة في الحجاز واليمن (الأغاني ج ١٥ ص ٤٥ وما بعدها، واليعقوبي ج ٢ ص ٢٣١). ويذكر البكّائي عن عوانة (الطبري ج ١ ص ٣٤٥٠ فما بعدها) أن ذلك كان في أواخر أيام علي: فيروى أن جارية بن قُدامة علم بمقتل عليّ، وهو في طريقه لمحاربة بسر. أما عند الواقدي (الطبري ج ٢ ص ٢٢) فإن هذه لحملة لم تقع إلا عام ٤٢هـ، بعد وفاة عليّ.

ويذكر البكّائي (الطبري ج ١ ص ٣٤٥٢ و٣٤٥٣) نقلاً عن ابن اسحاق[١] أن مهادنة جرت في سنة ٤٠هـ بين علي وبين معاوية، بعد مكاتبات طويلة، وأنهما تراضيا على وضع الحرب بينهما، وتكون لعليّ العراق ولمعاوية الشام، فلا يدخل أحدهما على صاحبه في عمله بجيش ولا غارة ولا غزو، وذلك بعد أن رفض كل فريق أن يعطي صاحبَه الطاعةَ، وبعد أن كتب معاوية إلى علي يقترح عليه كفّ السيف عن الأمة والإمساك عن إراقة دماء المسلمين. ويروى أنهما اتفقا. فأقام معاوية في الشام بجنوده، يجبيها وما حولها، وعلي بالعراق يجبيها ويقسمها بين جنوده. ولا يمكن أن تكون هذه المهادنة إلا قصيرة الأمد، لأن معاوية اتخذ لنفسه في أول سنة ٤٠هـ لقب الخلافة في بيت المقدس، وأخذ البيعة من أهل الشام على ذلك، وقد كان هذا تحدياً جديداً لعلي، فأجاب عليٌّ بأن أعد حملة كبيرة لمحاربة أهل الشام، ولكن اغتياله حال دون تنفيذها.

ويقدم المؤرخ السرياني الذي نشر تاريخه نولدكه شاهداً على تنصيب

---

(١) هكذا بدلا من قول الطبري: أبي إسحاق، ذلك أن البكائي في كتاب السيرة هو الراوية المتوسط بين ابن هشام وبين ابن اسحاق.

معاوية نفسه خليفة في بيت المقدس عام ٤٠هـ. وهو يذكر في هذا الحادث روايتين مستقلتين، إحداهما بعد الأخرى، فيقول: «في عام ٩٧١ من حكم السلوقيين اجتمع كثير من العرب في بيت المقدس ونصّبوا معاوية ملكاً، فصعد معاوية إلى جبل الجلجلة (Golgata)، وصلى هناك، ثم صعد إلى جيتسماني، ثم هبط إلى قبر السيدة مريم وصلّى... وفي شهر يوليه سنة ٩٧١ اجتمع الأمراء وكثير من العرب وبايعوا معاوية، وصدر الأمر بأن يُنادى به ملكاً في جميع أنحاء بلاده[١]، ولكنه لم يحمل تاجاً، كما يحمله ملوك العالم؛ على أنه أقام عرشه في دمشق، ولم يرد أن يذهب إلى مقر النبي (المدينة)». ويبتدئ شهر يوليه من عام ٩٧١ من حكم السلوقيين (٦٦٠ م) في ١٦ صفر سنة ٤٠هـ. ويقول المسروقي أيضاً، كما يحكى الطبري (جـ ٢ ص ٤ فما بعدها ــ قارن أيضاً جـ ١ ص ٣٤٥٦) أن أهل الشام بايعوا معاوية بالخلافة في إيلياء سنة ٤٠هـ. ولكن من الخطأ القول بأن ذلك لم يحدث إلا بعد وفاة علي. ومما يستلفت النظر أن معاوية أخّر أخذ البيعة لنفسه على ذلك الوقت. وفي كتاب Continuatio Isidori Byz. Arab. § 25 (ط. Mommsen) أن معاوية ظل خمس سنين مواطناً عادياً، أي من ٣٦ إلى ٤٠هـ. وظل بعد ذلك خليفة عشرين عاماً.

ويقول المؤرخ السرياني أيضاً إن علياً كان يريد قبل وفاته بقليل أن يعاود الخروج لقتال معاوية. غير أن هذه الرواية تُذكر في سنة غير صحيحة (٩٦٩ بدلاً من ٩٧١ أو ٩٧٢ السلوقية)، ولكنها صحيحة في ذاتها. واليعقوبي (جـ ٢ ص ٢٣٥ س ١٥ وص ٢٣٨ س ٢٠) يحكى نفس الشيء. والروايات متفقة على أنه كان تحت قيادة عليّ عند وفاته جيشٌ من أربعين ألف رجل، يطالبون بالخروج

---

(١) إن الكلمة التي لم يستطع نولدكه أن يقرأها إلى جانب كلمة φωνὰς هي: κλήσεις التي منها في غالب الظن كلمة: qualles السريانية (= ينادى).

لقتال أهل الشام. فَمَنْ غير عليّ أعدّ هذا الجيش للحرب ولأي غرض أُعِدّ، إن لم يكن ذلك لقتال أهل الشام؟

وقد حدث الاعتداء الذي مات بسببه عليّ في يوم الجمعة[١] ١٥ رمضان سنة ٤٠هـ، في مسجد الكوفة (الكامل ص ٥٥٣ س ٩)، وتوفى عليّ يوم الأحد التالي لذلك، ٢٤ يناير سنة ٦٦١ م. وما يذكره الواقدي (الطبري جـ ١ ص ٤٤٦٩، وجـ ٢ ص ١٨) يؤيد صحة هذه التواريخ، كما يدحض ما يخالفها. أما القاتل، وهو عبد الرحمن بن مُلجَم المرادى النجوبى بوجه أدق (الكامل ص ٥٥٣ س ١٧) فقد كان خارجياً. والخوارج يذكرونه فخورين ويقولون إنه أخوهم، أخو مراد (الطبري جـ ٢ ص ١٨)، وتشهد أبيات ابن أبي ميّاس المرادى (الطبري جـ ١ ص ٣٤٦٦) أن الذي حرضه على قتل عليّ امرأة يقال لها قطام، كانت فائقة الجمال، ورآها ابن ملجم، فالتبست بعقله فخطبها. وكان أبوها وأخوهـا قد قُتلا يوم النهروان، فجعلت فيما جعلت من مهرها قتلَ عليّ بن أبي طالب ثأراً لقتلاها. وبهذا تسقط الرواية[٢] التي وُصلت بذلك وصلاً مصطنعاً والتي تقول إن ابن ملجم كان أحد ثلاثة من الخوارج تآمروا في مكة على أن يريحوا الأمة الإسلامية في يوم واحد من أئمة الضلالة الثلاثة — في رأيهم — وهم عليّ بن أبي طالب ومعاوية بن أبي سفيان وعمرو بن العاص. ومن جهة أخرى فإن مثل هذا التآمر السرّيّ بين الثلاثة المتآمرين لا يتفق مع عادات الخوارج القدماء، كما لاحظ ذلك ابن الأثير[٣]. أما القول بأن معاوية هو الذي استأجر ابن ملجم لقتل عليّ، كما أومأ إلى اتهامه بذلك أبو الأسود الدؤلى في

---

(١) يؤخذ من الطبري جـ ١ ص ٣٤٥٧، ٣٤٦٨ — ٣٤٦٩ أن اغتيال علي كان ليلة الجمعة ١٧ رمضان. أما وفاته فكانت بعد ذلك بيومين — المترجم].

(٢) [تجدها عند الطبري مثلا في جـ ١ ص ٣٤٥٦، وفي الكامل للمبرد ص ٥٤٩ — المترجم].

(٣) ولا يجوز إنكار أن اعتداءات وقعت على معاوية وعمرو، أما التعسف فهو الربط بين الاعتداءات والقول بأنها كانت بناء على اتفاق مدبّر.

أبيات له[١]، فإنه لم يجد أبداً من يصدق به أقل تصديق حتى من أعداء معاوية. فأما القول باغتيال عليّ أفاد معاوية فلا شك في ذلك على كل حال، لأنه يصل إلى الخلافة إلا بذلك. والحسن بن علي (الطبري جـ ٢ ص ٣) يذكر أن مما جعله يسخو بنفسه عن أهل العراق أنهم قتلوا أباه. ويقول الخليفة المنصور مثل ذلك (الطبري جـ ٣ ص ٤٣١). ويظهر أن منشأ هذا هو أن ابن ملجم وقطام كانا من أهل الكوفة (قارن الطبري جـ ٣ ص ٣٤٥٦) فما بعدها، وص ٣٤٦٥ فما بعدها، واليعقوبي جـ ٢ ص ٥٢١، والكامل ص ٥٤٦ فما بعدها وص ٥٨٣).

٥ ـ ثم صار معاوية هو المهاجم (اليعقوبي جـ ٢ ص ٤٥٥)، فأخذ الطريق الحربي المعتاد. وعبر أرض الجزيرة إلى العراق، ونزل بعسكره في مسكن، على حدود الدجلة من الموصل إلى جهة السواد، ولكنه انتظر هناك حيناً بعد وفاة عليّ. وفي أثناء ذلك قامت ثورة على الحسن، بعد أن كان قد بويع على الخلافة بعد أبيه. ولكن الحسن كان زاهداً في الحرب، لا يرى القتال، رغم أنه كان وراءه أربعون ألف رجل، كانوا قد بايعوا علياً على الموت. والتمس الحسن سبيلاً إلى مصالحة معاوية، وتنازل عن الخلافة بعد نصف عام. وهذا هو المعروف بالإجمال معرفة واضحة، ولكن الروايات في تفصيل ما جرى بعد مقتل عليّ مضطربة، وفيها فجوات.

فيحكى عن الزهري ما يلي: كان عليٌّ قد أسند إلى قيس بن سعد قيادة الجيش، ووعده بولاية أذربيجان مكافأة له[٢]، وعزل الأشعث ـ المقصود به هو الأشعث بن قيس عن هذه الولاية. وكان قيس يريد الحرب،

---

(١) [الطبري جـ ١ ص ٣٤٦٧ ـ المترجم].

(٢) [نجد عند الطبري ـ والمؤلف يتابعه غالباً ـ هذا: «جعل علي عم قيس بن سعد على مقدمته من أهل العراق إلى قبل (التي قبله) أذربيجان وعلى أرضها (أصبهان) وشرط الخميس (الجيش) التي ابتدعها العرب، وكانوا أربعين ألفاً بايعوا علياً على الموت». الطبري جـ ٢ ص ١. وقد نقلنا النص كما هو وأضفنا القراءات بين قوسين. والمعروف عن سعد أنه كان لا يسأل أجراً ولا مكافأة عما يفعل ـ المترجم].

ولكن الحسن كان لا يرى القتال، وكان يريد أن يأخذ لنفسه ما استطاع من معاوية. وقد عرف أن قيساً لا يوافقه على رأيه، فنزعه وأمَّر عبد الله بن عباس (الطبري ج ٢ ص ١ ــ ٢، قارن ج ١ ص ٣٣٩٢). وكان الحسَنُ لما بايعه أهلُ العراق على الخلافة طفق يشترط عليهم: إنكم سامعون مطيعون، تسالمون من سالمتُ، وتحاروبن من حاربت؛ فارتاب أهلُ العراق في أمرهم، حين اشترط عليهم هذا الشرط: وقالوا: ما هذا لكم بصاحب، وما يريد القتال. فلم يلبث الحسن بعدما بايعوه إلا قليلاً حتى طُعن طعنةً أشوته، فازداد لهم بغضاً وازداد منهم ذعراً. ولا يذكر الزهرى تفاصيل المناسبة التي أدت إلى هذه الطعنة. على أنه لما قام للحسن الدليلُ على موقف أهل العراق منه، كاتب معاويةَ وأرسل إليه بشروط ووعده، وإن وفى له بها، أن يسمع له ويطيع. وأعطاه معاوية ما شرط، فتنازل الحسن عن الخلافة لقاء مال كثير. وكان معاوية، قبل أن يقع في يده كتابُ الحسن، قد أرسل إلى الحسن بصحيفة بيضاء، وقد ختم عليها في أسفلها بختمه، وكتب إليه أن يشترط فيها ما شاء، فهو له. فأراد الحسن أن يأخذ أضعاف ما كان قد شرط أولاً، فلم يُعْطِه معاوية ذلك (الطبري ج ٢ ص ٥ فما بعدها). أما عبد الله بن عباس فإنه لما علم بما أراد الحسن أن يأخذه لنفسه من معاوية، لم يُبالِ بأنه كان قائد الجيش، وكتب إلى معاوية يسأله الأمان ويشترط لنفسه على الأموال التي كان قد أخذها. فشرط ذلك له معاوية؛ فترك جنده بغير قائد، والحق بمعاوية.

ولما صالح الحسنُ معاويةَ كتب الحسنُ إلى قيس بن سعد يدعوه إلى الدخول في طاعة معاوية، فقام قيس خطيباً فيمن كان معه من الجيش، وخيّرهم بين أن يدخلوا في طاعة إمام ضلالة، أو أن يقاتلوا مع غير إمام. فاختاروا الأولى وبايعوا لمعاوية، وانصرف عنهم قيس. وفي رواية أخرى للزهرى أنه بعد أن صالح الحسنُ وعبدُ الله بن عباس معاويةَ، وترك عبدُ الله جيشَه بلا أمير، اجتمعت الشرطةُ

وأمَّرتْ قيس بن سعد على أنفسهم، وتعاهدوا هو وهم على قتال معاوية حتى يشترط لشيعة عليّ ولمن كان اتبعه الأمانَ على أموالهم ودمائهم وما أصابوا في الفتنة. ولما انتهى معاوية من مصالحة الحسن وابن عباس خلص لمكايدة قيس، فأرسل إليه يقول في كلام له: على طاعة من تقاتل، وقد بايعني الذي أعطيته طاعتك!؟ فأبى قيس أن يلين، حتى أرسل إليه معاوية بسجلّ قد ختم عليه في أسفله، وقال له أن يكتب في السجل ما شاء فهو له، وأراد عمرو بن العاص أن يغرى معاوية بأن يحارب قيساً، ولكن معاوية ضنّ بدماء أهل الشام وقال إنه لن يقاتل قيساً حتى لا يجد من قتاله بُداً. أما قيس فلم يشترط في السجل المختوم بختم معاوية إلا الأمان لشيعته على ما أصابوا من الدماء والأموال، ولم يسأل معاوية في السجل مالا. فأعطاه معاوية ما سأل. ولم يرض قيس أن يجعل شخصه محلَّ مساومة[١].

أما البكّائى فهو ينقل عن عوانة[٢] غير ذلك (الطبري ج ٢ ص ٢ ــ ٤)، فيقول: لم يكن قيس قائداً للجيش كله، بل لاثني عشر ألف رجل في المقدمة (وهم الشرطة)، وبقيت له الإمرة عليهم إلى ما بعد مقتل عليّ أيضاً. وخرج الحسن بنفسه في الجيش كله حتى نزل المدائن، وبعث قيساً أمامه على مقدمته لكي يلاقي معاوية (في مسكن). وبينا الحسن في المعسكر بالمدائن إذ نادى منادٍ في المعسكر: ألا إن قيس بن سعد قد قُتِلَ، فانفروا! فنفر الناس ونهبوا سرادق الحسن، وخرج الحسن ناجياً بنفسه حتى نزل المقصورة البيضاء بالمدائن. ومن هنالك بعث إلى معاوية يطلب الصلح، رغم معارضة أخيه الحسين، وحصل من معاوية على ما أراد: أن يأخذ ما في بيت مال الكوفة، وكان خمسة آلاف ألف

---

(١) [جئنا هنا بالكلام طبقاً للأصل العربي الذي اعتمد عليه المؤلف، لأن المؤلف قد اقتضب اقتضاباً مخلا ببيان المقصود على النحو الذي لا بد منه للقارئ العربي ــ المترجم نقلا عن الطبري ج ٢ ص ١ ــ ٨]

(٢) إن أول حكاية عوانة ساقط، وتكملها رواية أخرى، لكن يقال عنها إنها تتفق مع حكاية عوانة.

درهم، والخراج الجاري من دار بجرد، والوعدَ من معاوية بألا يُشْتَم عليٌّ، ومعاوية يسمع ذلك[١].

أما عند اليعقوبي (جـ ٢ ص ٢٥٤ فما بعدها) فنجد الحكاية على نحو آخر: وجه الحسنُ عبيدَ الله بن عباس في اثني عشر ألف رجل لقتال معاوية، وجعل قيساً مُشيراً له ليعمل بأمره ورأيه. فحاول معاوية أن يُفْسد قيساً، فلم يفلح، ولكنه استطاع أن يضم إليه عبيد الله بأن أعطاه ألف ألف درهم، فصار إليه في ثمانية آلاف رجل. وكان الحسن مع حملة الجيش في المدائن، فأرسل معاوية إليه المغيرة بن شعبة ومفاوضين آخرين، فلما خرج هؤلاء من عند الحسن أذاعوا في المعسكر أنه قد أجاب إلى الصلح. فعند ذلك وثب الجند بالحسن وانتهبوا مضاربه وما فيها، فركب الحسن فرساً ومضى إلى قلعة ساباط، ولكن الجرّاح بن سنان (وفي رواية: ابن قبيصة) كان قد كمن له، فجرحه بمعول في فخذه ولوى لحيته، فحُمِل إلى المدائن وقد نزف نزفاً شديداً واشتدت به العلة؛ وفي أثناء ذلك تفرّق عنه أصحابه، واستولى معاوية على العراق، فلم يبق أمام الحسن أخيراً إلا أن يتنازل عن الخلافة. والدينورى (ص ٢٣٠ فما بعدها) يحكى مثل ذلك، وإن كانت روايته تختلف عن رواية اليعقوبي بعض الاختلاف، فهو يقول إن اليمن وربيعة الكوفة خلّصوا الحسن في ساباط من أيدي مضر الكوفة.

على أن عوانة واليعقوبي متفقان في الرواية بالإجمال، وهما يخالفان الزهري. وحكاية الزهري للحوادث ليست واضحة تماماً، وهي تختلف عن رواية غيره اختلافات لا يسهل تفسيرها؛ فهو أحياناً يفصل بين طعن الحسن، من حيث زمانه ومكانه، وبين نهب سرادقه، وهو أحياناً أخرى يربط بين الحادثين.

---

(١) عند الطبري في بعض المواضع شوائب لهاتين الحكايتين، ففي جـ ١ ص ٨ وما بعدها وجـ ٧ ص ١٥، نجد أن الأربعين ألف رجل ليست هي الشرطة، بل الجيش كله، وبحسب رواية للزهرى كان لقيس ولابن عباس إمرة الجيش كله.

أما بعض الاختلافات الأخرى فيمكن تفسيرها بأنها مغرضة. فنحن نجد أن اليعقوبي والدينورى أيضاً حريصان على تبرئة الحسن وإلقاء التبعة على أهل الكوفة (الدينورى ص ٢٤٢ س ١٤). أما عند الزهرى فيظهر الحسن في ضوء غير جميل. فأما الخلاف الأكبر الذي يتجلّى فيه الغرض فهو المتعلق بمسلك عبد الله بن عباس جد الأسرة العباسية. ولا غرو أنه في عهد الخلافة العباسية كان من يقول الحق عن هذا القدّيس يعرض نفسه للأذى، وعلى الأقل كان لا بد إما إظهار الدور الذي لعبه في صورة أحسن مما كان، أو السكوت عن هذا الدور جملة[١].

ويؤخذ من رواية الزهرى، وهو راوية من أقدم الرواة، توفى قبل العصر

---

(١) يحكى سيف (*Skizzen*, 6, 144) أن عبد الله بن عباس منذ كان في المدينة، كان موضع ثقة علي وكان دائماً يمحصه النصح، ولكن علياً لم يكن دائماً يستمع لنصيحته؛ ثم عين والياً على البصرة. وفي أيام ولايته استنفر الناس وبعث منهم جيشاً لمعونة عليّ (الطبري ج ١ ص ٣٢٥٦ و٣٣٧٠). ويحكى أبو مخنف أن ابن عباس قاتل قتالاً شديداً يوم صفين، وكان على ميمنة جيش العراق (الطبري ج ١ ص ٣٢٨٥ ــ ٣٢٨٦، ٣٢٨٩). وكان علي يريد أن ينتدبه حكماً في دومة الجندل (الطبري ج ١ ص ٣٣٣٣)، ولكن علياً، رغم أنه لم يستطع ذلك، بعثه إلى الدومة؛ وكان يكاتبه (الطبري ج ١ ص ٣٣٥٤) هو، متجاهلاً أبا موسى. ولكن أبا معشر (الطبري ج ٢ ص ٣٢٧٣ س ١٦) واليعقوبي (ج ١ ص ٢٥٤ س ٣) يقولان إنه في سنة ٣٦هـ (وأيضاً في سنة ٣٥هـ) كان أميراً على الحج؛ وعلى هذا فلا يمكن أن يكون قد اشترك في موقعة صفين على الإطلاق. وذلك لا تعجب المدائنى هذه الرواية، فيقول (الطبري ج ١ س ٣٤٤٨)، متابعة لأبي معشر، إن عبد الله بن عباس لم يشهد الموسم في عمل حتى قتل علي. وفي سنة ٣٨هـ خرج عبد الله من البصرة إلى علي بالكوفة، لكي يعزى بنفسه صديقه الحبيب في خسارته بفقد مصر، ولم يرجع إلى البصرة إلا عندما انتقض الأمر في الولايات الفارسية، ووجه عبد الله زياد بن أبيه إلى فارس، وهذا ما يقوله المدائني (الطبري ج ١ ص ٣٤١٤، ٣٤٣٠، ٣٤٤٣، ٣٤٤٩). ويحكى أبو مخنف غير ذلك (الطبري ج ١ ص ٣٤١٣، ٣٤٤٧)، فيقول إن عبد الله بن عباس عزى علياً بكتاب بعث به إليه من البصرة، وإن الذي وجه زياداً إلى فارس هو على نفسه، لا ابن عباس. ثم ظهر ابن عباس مرة أخرى، لما أراد معاوية إكراه كبار الأشراف في المدينة على مبايعة ابنه يزيد، فيحكى المدائني (الطبري ج ٢ ص ١٧٥، ١٧٦) أن خمسة نفر امتنعوا من البيعة، ويذكر منهم عبد الله بن عباس، ولكن معارضة ابن عباس هذه للطغيان، على ما فيها من بطولة، لم تأت له بأية نتيجة، ولا بد أنه قد أوجعه كثيراً أن معاوية ويزيد تجاهلاه تماماً، وكذلك يتجاهله أيضاً في هذه المسألة معظم الرواة.

العباسي، أن عبد الله بن عباس ما أراده الحسن من مصالحة معاوية، فسبقه وأخذ الأمن من معاوية واشترط لنفسه على ما أصاب من أموال. ثم بعث إليه معاوية خيلاً عظيمة، فخرج إليهم ليلاً حتى لحق بهم ونزل معسكر أهل الشام، وترك الجيش الذي كان عليه بلا أمير. وعوانة يسكت في هذه النقطة. أما اليعقوبي فهو يذكر بدلاً من عبد الله المشهور أخاه الأصغر عبيد الله بن عباس.

وقد عرف المدائني اختلاف الرواة حول ما إذا كان عبد الله أو عبيد الله هو الذي انتقل إلى جانب معاوية أيام الحسن (الطبري جـ ١ ص ٣٤٥٦، وقارن ص ٣٤٥٣[١])؛ فليس الأمر إذن مجرد خلافات في الاسم بين المخطوطات، مرجعها إلى الناسخ[٢]. والمدائني يقرر أن الذي انتقل هو عبيد الله، ويتابعه في ذلك عمر بن شبّة (الطبري جـ ١ ص ٣٤٥٣ والصفحات التالية) والبلاذري (DMZ, 1884, 392s.). ولكن عبيد الله كان والياً على اليمن من قبل عليّ، لما قاد بسُر بن أبي أرطأة جيش معاوية إلى هناك، ووقع ولدان صغيران له في يد بُسْر، فذبحهما، وأصيبت أمهما بالجنون لذلك. ويقول الواقدي إن هذه الحملة وقعت عام ٤٢هـ، ومعنى هذا أن عبيد الله كان ما يزال في اليمن في ذلك الحين معادياً لمعاوية، فلا يمكن أن يكون قد انتقل إلى جانبه قبل ذلك بعام أو عامين. ومهما يكن من شيء فإنه لا يمكن أن يكون الواقدي قد عرف شيئاً على الإطلاق عن هذا الانتقال. أما عوانة فيقول إن هذه الحملة وقعت في النصف الثاني من عام ٤٠هـ. فلا يمكن أن يصدق أحدٌ أن عبيد الله يتعجل إلى هذا الحد في مصالحة قاتلي ولديه. على أن من الممكن معرفة الباعث الذي من أجله وُضع

---

(١) هذا ما يراه دى غوى ـ راجع: DMZ, 1884, 393، وهو على هذا الفرض يريد أن يقرأ عبيد الله بدلاً من عبد الله في كتاب الطبري جـ ٢ ص ٢ س ٧ و١٢، قارن van Vloten, *Opkomst der Abbasiden*، ص ١٢ هامش رقم ١.

(٢) [المؤلف هنا في هذه النصوص حول من شهد الصلح بين الحسن ومعاوية ـ المترجم].

اسم عبيد الله بدلاً من اسم عبد الله معرفةً أسهل بكثير من العكس؛ فلم يكن يصح أن يظلّ لاحقاً يجد العباسيين الذين عاش المدائني في أيامهم، وكان موالياً لهم، ذلك العارُ، وهو أن يكون أول من يصالح الأمويين الفجرة. أما أخوه عبيد الله فلم يكن هناك بأسٌ من التخلي عن الدفاع عنه.

على أن ذكر عبيد الله محل أخيه عبد الله لا يمكن أن يلقى عن عبد الله الوزر إلقاءاً تاماً؛ فالأموال التي يقول الزهري إنه أصابها وإن معاوية أعطاها له كانت أموالاً من بيت مال البصرة، وكذلك الخمسة آلاف ألف التي أعْطِيت للحسن كانت هي ما في بيت مال الكوفة. ويؤيد هذا ما يقول أبو عبيدة (الطبري ج ١ ص ٣٤٥٣ ـ ٣٤٥٦)، وهو يتفق مع الزهري على أن عبد الله بعد مقتل عليّ خرج من البصرة وشخص إلى الحسن، وأنه عند ذلك حمل معه مالاً، وهو يُسَهّل الأمر على كل حال بأن يقول: إنها كانت أرزاقاً قد اجتمعت له وأنه حمل معه مقدار ما اجتمع له. ومعنى هذا أنه لم يأخذ أكثر مما قد استحقه رزقاً[1]؛ ولكن مما يستلفت النظر أن المدائني وعمر بن شَبَّة والبلاذري أيضاً لا ينكرون أن عبد الله خرج ببيت مال البصرة، غير أنهم يزعمون أنه فعل ذلك في عهد عليّ، بعد موقعة النهروان بقليل (DMZ, 1884, 392) وأن ذلك لا علاقة له بانتقاله إلى جانب معاوية[2]؛ وعلى هذا تكون هناك خيانةٌ مزدوجة. فابنا العباس المتشابهان كثيراً في الاسم قد تركا منصبهما، أحدُهما بعد الآخر مباشرة على نحوٍ مُخْزٍ، وأثريا في هذه المناسبة بأخذ مبالغة كبيرة من المال. ولكن

---

(١) [في رواية لابن شبة (الطبري ج ١ ص ٣٤٥٣ ـ ٣٤٥٤) أن أبا الأسود الدؤلى شكا لعليّ أكل عبد الله بن عباس ما تحت يده من أموال بغير علم علي، فكتب علي لابن عباس في الأمر، وانتهت المكاتبة بأن كتب ابن عباس لعلي أن يبعث من يحب والياً بدلا منه وأنه ظاعن عن منصبه ـ المترجم].

(٢) لم يكونوا يعتبرون «إنقاذ» بيت المال شراً كبيراً، لأن العادة جرت بذلك (الطبري ج ٢ ص ٧٥٢ و٨٧٢). أما مصالحة معاوية فشيء لا يغتفر.

الأرجح أن ذلك لم يحدث إلا مرة واحدة. وإذن فالزهري على حق في أن المقصود هو عبد الله، الذي كان موضع ثقة الحسن وثقة عليّ من قبل، لا عبيد الله، وأن عبد الله قد باع نفسه لمعاوية قبل أن فعل الحسن. بل نحن نجد في رواية المدائني أن عبد الله كان مع علي في سنة ٣٩هـ. ولكن لا نلبث أن نجده، بعد الصلح، في مجلس معاوية (الطبري جـ ٢ ص ١١).

ودانت الجماعة الإسلامية كلها لمعاوية في النصف الأول من سنة ٤١هـ، في صيف ٦٦١ م[١]. ولكن الروايات مضطربة في تحديد تاريخ ذلك. فأما إلياس النصيبي (Elias Nisibenus) فيقول إن الحسن تنازل عن الخلافة لمعاوية يوم الاثنين ٢١ ربيع الأول سنة ٤١هـ، أي الاثنين ٢٦ يوليه سنة ٦٦١ م. أما الواقدي فيقول (الطبري جـ ٢ ص ٩) إن معاوية دخل الكوفة في غرة ربيع الآخر سنة ٤١هـ (أغسطس سنة ٦٦١ م). وفي رواية لا يُذْكَر صاحبُها (الطبري جـ ٢ ص ٨) أن الصلح بين الحسن ومعاوية تمّ في شهر ربيع الآخر، وأن معاوية دخل الكوفة في غرة جمادى الأولى. أما المدائني فيقول إن معاوية دخل الكوفة لخمس بقين من ربيع الأول أو لخمس يقين من جمادى الأولى سنة ٤١هـ (الطبري جـ ٢ ص ٧). لكنه على كل حال كان في الكوفة في شهر رجب، لأنه مِنْ هناك كان بُسْر بن أبي أرطأة في البصرة، وذهب بُسْر إلى البصرة في رجب وبقى بها ستة أشهر (الطبري جـ ٢ ص ١٢). على أن معاوية ولَّى المغيرة بن شعبة على الكوفة في جمادى الأولى سنة ٤١هـ (الطبري جـ ٢ ص ١١١ و ١١٤).

---

(١) ولا يخالف ذلك إلا اليعقوبي، جـ ٢ ص ٢٥٦.

الفصل الثالِث

السفيانيون والحرب الأهلية الثانية

قام معاوية بن أبي سفيان طول مدة حكمه بمحاربة الروم في البر والبحر في همة ومن غير انقطاع؛ مما لا نجده عند من جاء بعده؛ وقد طرق أبواب عاصمة أعدائه ذاتها مرتين[1]. أما مهمة توطيد سلطانه في العراق بعد إخضاعها فقد تركها لولاته في الكوفة والبصرة. والروايات التي وصلت إلينا توجه اهتمامها إلى هؤلاء الولاة دون غيرهم، وهي تقص علينا من أخبار المغيرة بن شعبة وزياد بن أبيه أكثر مما تقص من أخبار معاوية نفسه، كما أنها أيضاً تجعل عبد الملك، وهو من هذا الوجه شبيه بمعاوية، متوارياً وراء الحجاج. وكان هؤلاء الولاة الثلاثة المشهورون ثقفيين كلهم؛ فكانوا من الطائف، تلك المدينة المرتفعة الجميلة الموقع، على مقربة من مكة. وقد ارتفع شأن الطائف، كما ارتفع شأن مكة والمدينة، بفضل الإسلام، واتخذت الطائف، من حيث هي مدينة، موقفاً ممتازاً فوق عصبيات القبائل، كما تجلى ذلك أيام الردة في سنة ١١هـ، وقد انضم الثقفيون من أول الأمر، خلافاً للأنصار، انضماماً نهائياً إلى قريش صاحبة السيادة، وخصوصاً إلى الأمويين، وكان لهؤلاء صلات وثيقة بالطائف، وكانوا فيها أصحاب ثراء. وكان الثقفيون مشهورين بالدهاء والفطنة[1]، وقد أقاموا الدليل على أنهم

---

(١) قارن في ذلك مجلة Göttinger Nachrichten ١٩٠١ ص ٤١٤ وما يليها، حيث جمعت أخبار حملات الأمويين ضد الروم.

(٢) لما حاصر النبي [عليه السلام] مدينة الطائف سنة ٨هـ انضم إلى جيشه عيينة الفزاري لا لكي يقاتل ثقيفاً، ولكنه كان يأمل أن يتم للنبي [عليه السلام] فتح الطائف، فيصيب هو جارية يتبطنها، لعلها أن تلد له رجلاً، لأن ثقيفاً كما يقول «قوم مناكير»، يعني أنهم دهاة فطنون؛ أما عيينة نفسه فلم يرث دهاء ولا يستطيع أن يورثه [لم يذكر المؤلف المصدر الذي =

كذلك؛ وقد ظهر منهم في عصر الأمويين عدد كبير من ذوي المواهب، فكان منهم المختار الثقفي ومحمد بن القاسم، في كثيرين غيرهم من الرجال المبرزين.

وكان وراء المغيرة بن شعبة لما ولاه معاوية الكوفة عام ٤١هـ (الطبري جـ ٢ ص ١١ وما يليها وص ١١١ و١١٤) حياةٌ مملوءةٌ بالأحداث، والروايات تعطينا صورة حية لهذا الرجل المُفَتَّن القليل المبالاة بالمبادئ. كان المغيرة طويل القامة جسيماً، وكان قد فقد في الحرب إحدى عينيه وإحدى ذراعيه، وكان ضخم الهامة؛ أقلص الشفتين، أصهب الشعر ــ وكان في أواخر أيامه يصبغ شعره بالسواد ــ وكان شعره أربع ضفائر مُدَلاّة[1]. وقد فر المغيرة إلى المدينة قبل سنة ٨هـ، وهو ما يزال فتى، وكان ذلك على أثر غدر دنيء برفقاء له، قتلهم وهم نيام. وكان الإسلام يقبل من مثل هذا المجرم أن يبدأ حياة جديدة، وكان يغفر له ماضيه، ولكن المغيرة، وإن كان قد صار بحكم الظروف إنساناً جديداً، فإنه بقى على ما كان له من الصفات القديمة النافعة. وقد تقرب إلى النبي عليه السلام، وكان النبي يمكن أن ينتفع به، فكلفه في سنة ٩هـ بهدم صنم اللات في مدينة الطائف، فلما قام بذلك احتاز مال اللات وحليَّها من الذهب والجزع، وكان جيد المعرفة بالمكان لأنه كان من الأسرة التي كانت لها سدانة ذلك الصنم. ولما دُفِن النبي [عليه السلام] طرح المغيرة خاتمه في القبر قبل أن يهال فيه التراب؛ فكان بعد ذلك يزعم، على الأقل، أنه كان آخر من لمس الدفين الطاهر [عليه السلام]، لكي يبني على ذلك ما سيزعمه من حقوق. وقد أثبت «وصوليَّتَه» وطموحه الجريء فيما بعد أيضاً، فحاول أن يوهم الناس أنه من سادة الأرستقراطية الإسلامية،

= اعتمد عليه في هذه الحكاية، وقد وجدناه في سيرة ابن هشام س ٨٧٤ من الطبعة الأوربية ــ المترجم].

(١) إن أول الحكاية عنه في كتاب الأغاني غير موجودة في طبعة بولاق، لكنها موجودة في مخطوط بمدينة ميونيخ، وقد نشرته عن هذا المخطوط في مجلة DMZ، عام ١٨٩٦ م.

فكان يحضر الأمور الكبيرة وأمور الدولة مثل جماعة الشورى التي عيَّنها عمر، ومثل محكمة المحكَّمين في دومة الجندل، من غير أن يُدعى لذلك؛ فإذا مُنِع من حضور الأمر مرة جاء دون حرج في المرة التالية. وكان، بمقدار ما كان عليه من جراءة وورع، يدعى أنه يستطيع أن يتكلم عن الإسلام مع الفرس المسلمين أحسن من غيره، وكان يختار لكي يُبعث رسولاً ومفاوِضاً، وكانت معرفته بلسان الفرس تهيِّئُه لذلك (الطبري جـ ١ ص ٢٥٦٠). أما المنصب الذي كان يطمح إليه فقد وصل إليه في البصرة أولاً، وذلك أنه ذهب مع عُتْبَة بن غزوان، أول والٍ عليها ــ وكانت امرأة عُتْبَة من الطائف. فلما مات عتبة خلفه المغيرةُ على البصرة، ويقال إنه نظم الديوان في البصرة، فكان بذلك أسبق من غيره. ويحكى أنه هزم فيلكان إسكوباد[١]، وأنه فتح ميسان، بل الأهواز أيضاً. ولكن أسقطه حبُّه الشديد للنساء، فعُزِل سنة ١٧هـ، بسبب جريمة زنا مخزية، وإن كان التحقيق في إثبات الجريمة عليه، رغم أن ذلك كان تحت إشراف عمر بما هو معروف عنه من شدة، قد انتهى كما تنتهي المهزلة[٢]. لكن الدور الذي قد قُدِّر للمغيرة أن يلعبه لم ينته بسبب ذلك، فشهد موقعة نهاوند وبرّز في القتال فيها. وبعدها بقليل، في سنة ٢١هـ، جاء إلى الكوفة خلفاً لعمَّار بن ياسر. وفي أيام ولايته تمّت الفتوحات في بلاد ميديا (الجبل) وأذربيجان على يد أهل الكوفة. وكان أبو لؤلؤة غلاماً للمغيرة، بعث به إلى المدينة، فأذن له أن يعمل صانعاً هناك ليؤدي للمغيرة ما عليه من خراج. وأبو لؤلؤة هذا هو الذي قتل عمر بن

---

(١) يرى ماركڤارت أن هذا هو النطق الصحيح لكلمة ايركوباذ أو ابزكوباذ، انظر: Marquart, Eranschahr، ص ٤١ [في الطبري جـ ١ ص ٢٣٨٦ ابرقياد، ابزقباذ ــ المترجم].

(٢) الحقيقة أنه لم تتوفر الشهادة الشرعية التي بدونها لا تمكن إقامة الحد. ويجد القارئ ذلك عند صاحب الأغاني، جـ ١٤ ص ١٤٥ ــ ١٤٧، والطبري جـ ١ ص ٢٥٢٩ ــ ٢٥٣٣ ــ المترجم].

الخطاب. أما في عهد عثمان فقد اندحر المغيرة إلى المحل الثاني، وهو لم يكن من الأمويين الذين كانت تسْنَد إليهم جمع المناصب، ولا من خاصة الرسول الذين كانوا يعارضون الأمويين. ولم يشترك المغيرة في الثورة على عثمان، لكن شأنه ارتفع من جديد بسبب تلك الثورة. ويروى أنه أشار على عليّ بأن يولى معاوية على الشام ويأمره بأن يأخذ البيعة له، فلما لم يستمع عليّ لمشورته انصرف عنه وتوجّه إلى معاوية. وقد افتعل كتاباً على لسان معاوية لكي يقيم الحج للناس في سنة ٤٠هـ. وعرف معاوية كيف يقدر مثل هذا الشريك، فلم يلبث، بعد فتح العراق، أن أعاد إليه منصبه القديم في ولاية الكوفة.

وصل المغيرة، وهو كبير السن، وبعد ماضٍ فيه بعض التقلبات، إلى المستقر الذي أراد أن يبقى فيه. وفي أيام ولايته حرص على ألا يصطدم بمن فوقه ولا بمن تحته، فكان موقفه إزاء معاوية وإزاء صراع الأحــزاب في الكوفة موقفاً خالياً من الحماسة على حد سواء، بل هو لم يكن يخفى ذلك (الطبري جـ ٢ ص ٣٨)؛ وهكذا يصفه أبو مخنف على الأقل في حكاياته عن المستورد بن علّفة التيمي الخارجي وحجر بن عدى، ولا شك أن أبا مخنف مُحِقٌّ[١]. وكان كلُّ همّ المغيرة في سياسته أن يحافظ على منصبه، وقد أفلح في ذلك أيضاً. فاستطاع أن يتفادى ما همّ به معاوية أحياناً من عزله (الطبري جـ ٢ ص ٧١ فما بعدها وص ١٧٣ فما بعدها وص ٢٠٨ فما بعدها[٢]). وقد قضى بسهولة على الخوارج الذين ثاروا تحت

---

(١) انظر ما ذكرته عن الخوارج في Abhandl. der Göttinger Societät 1901, V, 8 ص ١٩ والصفحات التالية، وعن الشيعة ص ٥٦ فما بعدها من نفس المصدر.

(٢) [خشى المغيرة مرة أن يعزله معاوية، فذهب إلى معاوية يسأله أن يعزله ويقطع له منازل في قرقيسيا بين ظهراني قيس. فارتاب معاوية بالمغيرة وخاف بائقة منه وقال له: لترجعن إلى عملك. فألح المغيرة، فازداد معاوية اتهاماً له ورده إلى عمله. ويحكى أنه لما خاف العزل دخل على يزيد وعرّض له بالخلافة، فأدى ذلك يزيد إلى أبيه؛ وعند ذلك ردَّ معاوية المغيرة إلى الكوفة وأمره أن يعمل في البيعة ليزيد ــ المترجم].

رئاسة المستورد[١]، لأن أهل الكوفة أنفسهم بادروا إلى أن كَفَوْه إياهم. ولكن الخوارج كان لهم شأن أكبر من ذلك، وكانت الغالبية الكبرى من أهل الكوفة تميل إلى عليّ، لأنه المحارب الأول لاستقلال العراق السياسي. وكان أهل الكوفة، من هذا الوجه شيعيي النزعة؛ وهم أيضاً لم يخفوا ذلك، وتجرأ البعض منهم على إظهار الكلام في فضل عليّ علانية في المسجد، مما لا يحتمله معاوية. ولكن المغيرة لم يشتدّ في منعهم من ذلك. وهو بدلا من أن ينهض للقضاء على بدايات الفتنة كان يرى ظهور نتائجها السيئة بشيء من الرضا، لأنه كان على يقين أنه لن يشهدها حياً. وقد أراد العافية لنفسه، وآثر أن يلقى العبء الكريه، الذي كان منصبه يوجب عليه أن يحمله، على كاهل من يخلفه[٢]. وكان أهل الكوفة راضين عن ذلك كل الرضا بطبيعة الحال، وقالوا فيما بعد، إنه ما وليهم والٍ بعده مثله (الطبري جـ ٢ ص ١١٢). وكان دائم الكذب، وظل متمتعاً بما ينهب حتى نهاية أمره. أما عن تاريخ وفاته فالروايات مضطربة بين سنة ٤٩ إلى سنة ٥١هـ (قارن الطبري جـ ٢ ص ٧٦ ــ ٨٧ و١١٤، والأغاني جـ ١٤ ص ١٤٨).

على أنه بعد أن كانت العراق قد خضعت لمعاوية ثار في البصرة حُمران بن أَبان، فغلب عليها. فوجّه معاوية إلى هناك قائدَه بُسْرَ بن أبي أرطأة، فبعد أن أعاد الهدوء إلى نصابه قفل بجيشه راجعاً[٣]. ويقول الواقدي (الطبري جـ ٢

---

(١) [لم يذكر المؤلف مرجعاً هنا، والأغلب أنه يقصد ما جاء في الطبري جـ ٢ ص ٢٨ فما بعدها وص ٤٠ فما بعدها المترجم].

(٢) وهو يشترك في هذه الروح مع ولاة آخرين في ذلك العصر: ابن عامر (الطبري جـ ٢ ص ٦٧) والوليد بن عتبة (جـ ٢ ص ٢١٩) والنعمان بن بشير (جـ ٢ ص ٢٣٩) وببَّه (جـ ٢ ص ٤٥١ و٤٦٥ فما بعدها).

(٣) [راجع الطبري جـ ٢ ص ١١ فما بعدها ــ المترجم].

ص ٢٢) إنه عند ذلك قام بحملته في الحجاز واليمن. وكان أول وال حقيقي عيّنه معاوية على البصرة (آخر سنة ٤١هـ) هو عبد الله بن عامر الأموي، الذي كان قد تولى البصرة من قبل في عهد عثمان سنين كثيرة. وكان السلطان في البصرة في يد القبائل، لا في يد الحكومة. ولما كانوا دائماً منقسمين ولا يخطر ببالهم أن يغفر بعضهم لبعض شيئاً، فإن الإنسان يستطيع أن يتصور ما يكون لذلك من نتائج. وكان ما أصاب الأمن العام في الكوفة، في ظل الصراع السياسي ــ الديني بين الأحزاب، قليلا. أما البصرة فقد غلب عليها سفهاؤها حتى أكلوها، وضعف سلطان الدولة فيها، فكان السلب والقتل في الشوارع والأسواق فاشيين في النهار المبصر. وكان هذا هو الميراث الذي خلّفه عبد الله بن عباس. ولكن ابن عامر كان رجلا ليناً كريماً لا يأخذ على أيدي السفهاء، وقد رأى كما رأى المغيرة في كبره من قبل؛ ألا يضحى بما كان يؤثره لنفسه من العاقبة في سبيل تأييد سلطان الدولة. وكان لا يقطع يد لص، فلما قيل له في ذلك قال: «أنا أتألّف الناس، فكيف أنظر إلى رجلٍ قطعتُ أباه أو أخاه؟». وقد ضجر معاوية من ذلك آخر الأمر، فكتب إليه يستزيره في سنة ٤٤هـ، فقدم على معاوية. فلما انتهت الزيارة، سأله معاوية أشياء، وسأل هو معاوية أشياء، فكان مما سأله إياه أن يعتزل منصبه، وكان مما سأل هو معاوية ألاّ يحاسبه على ما أصاب من أموال، وأن يُزَوِّجَه ابنته هنداً، فزوَّجه معاوية إياها. وهكذا صار ابن عامر ختناً وصهراً لمعاوية[1]. وكان الذي خلف ابنَ عامر الحارث بن عبد الله الأزدى، لكنه لم يكن يُقْصَد منه سوى أن يكون كالفرس المحلّل، لأن معاوية كان يريد أن يُعَيِّن زياداً. فلم يبق الحارثُ في الولاية إلا أربعة أشهر، وهذا هو ما يرويه المدائني (الطبري جـ ٢ ص ١١ فما بعدها و١٥ و٦٧ و٦٩ فما بعدها).

---

(١) كان ابن عامر والد زوجة يزيد بن معاوية.

ومعظم الروايات المتعلقة بزياد، عند الطبري، ترجع إلى المدائني أيضاً، وكان زياد، شأنه شأن المغيرة بن شعبة، الذي كان يظلله بحمايته، من أهل ثقيف الذين لم يلبثوا أن انتقلوا إلى البصرة، لما أسست. وكان زياد على التدقيق من أسرة أبي بكرة التي كانت في البصرة ذات نباهة وكانت تملك أرضاً كثيرة (الطبري جـ ٢ ص ١٢)(١). ولم يكن زياد من أصل كريم، وكان يسمى باسم أمِّه سُمَيَّة، لأن أباه كان مجهولا. لكن الإسلام فتح له أيضاً طريق الحياة، فكان، وهو ابن أربع عشرة سنة، يتولى الكتابة عند قبض الفيء وقسمته، أو يتولى قسمته في جيش البصرة، لأن كان يقرأ ويكتب، ولا بد للحساب من معرفة القراءة. ويُروى أن الخليفة عمر فطن منذ ذلك الحين إلى ما كان لزياد من مواهب فائقة. وفي أيام علي كان زياد شخصية بارزة في البصرة، وقد استخلفه عبد الله بن عباس عليها، لما خرج إلى علي بالكوفة، فأخمد زياد الثورة التي قامت بها تميم بإيعاز من معاوية. وقد ساعد الأزدُ زياداً في ذلك، وظل هو ذاكراً لهم يدهم عنده وإجارتهم له (الطبري جـ ٢ ص ٨٠). وبعد ذلك بعثه عليٌّ إلى فارس لكي يُلزم هذه الولاية، بعد أن تمردت عليه، حدودَ الطاعة والنظام، فقام بما كُلِّف به، متبعاً سياسة المداراة واللين حيناً والدهاء وضرب أعدائه بعضهم ببعض حيناً آخر، حتى صفت له فارس من غير حرب. وكان ذلك موضع إعجاب، حتى قال أهل فارس، ما رأينا سيرة أشبه بسيرة كسرى أنوشروان من سيرة هذا العربي في اللين والمداراة والعلم بما يأتي(٢). وبعد موت عليّ تحصن زياد في قلعة قريبة من مدينة اصطخر، وحضّ كلَّ رجاله على أن يثبتوا أطول ما يمكن في المقاومة

---

(١) قارن فيما يتعلق بصفات هذه الأسرة العبارة الشائنة التي يذكر الطبري (جـ ٢ ص ٨٠١) أنها قيلت لعبيد الله بن أبي بكرة وهي: «إنما أنت ابن كلبة تعاورها الكلاب، فجاءت بأحمر وأسود وأصفر، من كل كلب بما يشبهه» ـ قارن أيضاً ابن هشام ص ٨٧٤ س ١٧.

(٢) [الطبري جـ ١ ص ٣٤١٤ ـ ٣٤١٨ و٨٤٤٩ ـ ٣٤٤٥٠ ـ المترجم].

لمعاوية. وأراد بُسْرُ بن أبي أرطأة، وكان معاوية قد وجهه إلى البصرة بعد مصالحة الحسن، أن يُكْرِه زياداً على الشخوص لمعاوية، فحبس أولاده الثلاثة ــ وكان زياد قد خلفهم في البصرة ــ وهدَّدَه بقتلهم، فلم يستجب إليه. فجاء أبو بكرة إلى بُسر، وكان بسر قد أخذ أبناءه أيضاً، فاعترض على هذا الظلم للأبرياء وعلى مخالفة الأمان الذي أعطاه معاوية في صلحه مع الحسن لشيعة علي، وسأل بُسْراً أن يُؤْجِّله سبعة أيام، حتى يذهب إلى معاوية. فركب أبو بكرة إلى معاوية، وكان بالكوفة، فذهب وعاد في سبعة أيام، وقتل تحته دابتين وفي اليوم السابع أخرج بُسر بني زياد ليقتلهم عند غروب الشمس، واجتمع الناس لذلك، وأعينُهم طامحة، ينتظرون أبا بكرة، إذ بدا أبو بكرة على راحلته المكدودة، وهو يُليح بثوبه. وكبَّر، وكبَّر الناسُ، وأقبل يسعى على رجليه حتى أدرك بُسْراً قبل أن يقتل الأولاد الأبرياء، ودفع إليه كتاب معاوية الذي يأمره فيه بالكفّ عنهم وتخلية سبيلهم. وهكذا نجا أبناء زياد في آخر لحظة بفضل أبي بكرة[1]. وكلَّف معاويةُ المغيرةَ بالبحث عن أموال لزياد كانت مُودَعَةً عند رجل من البصرة وأمره بتعذيبه، فعذبه تعذيباً صورياً حتى يبلغ معاويةَ خبرُ التعذيب، ثم كتب إلى معاوية أنه لم يُصِبْ عند الرجل شيئاً يحلُّ له أن يأخذه ــ وذلك أن الثقفي لا يرزأ ثقفياً مثله. على أن المغيرة تلطَّف لزياد حتى أقنعه بأن يشخص إلى معاوية ويصل حبله بحبله ويصالحه، ووقع ذلك سنة ٤٢هـ. وقد أغضى معاوية عما لجأ إليه زياد من حيلة لاحتجاز ما كان قد صالح معاوية على حمله إليه مما كان في بيت مال فارس، وإن كان معاوية قد استشفَّ الحيلة. وكان الأمر

---

(١) هذه القصة أسطورة بلا شك. ولكن لا يصح البحث عن وجه صحيح لها على النحو الذي يذهب إليه ا. موللّر A. Müller (*Islam* 1. 397) من أن أبناء زياد كانوا في البصرة قد أحدثوا ثورة وأسروا فيها؛ ذلك لأنهم كانوا أصغر سناً من أن يقوموا بذلك. [ويجد القارئ موقف زياد إزاء التهديد وما قاله عن معاوية وما قاله لبسر، وما كان بينه وبين معاوية حتى تم بينهما الصلح؛ عند الطبري جـ ٢ ص ١١ ــ ١٥، ٢٢ ــ ٢٧... المترجم].

في الواقع أمر صفقة بين أخويْن عرف كل منهما لصاحبه قَدْرَهُ فيما بعد، ولم تكن الفائدة التي عادت على كل منهما من ذلك بالفائدة القليلة.

وكانت آخر خطوة خطاها معاوية هي أن ألحق زيادَ بن سُمَيّة بأبيه أبي سفيان، وذلك ليربطه بنفسه وبأسرته ربطاً تاماً، وكان ذلك فضيحة كبرى لا يذكرها الطبري ولا يؤرخها، بل يتكلم عنها كشيء وقع فحسب (الطبري جـ ٢ ص ٦٩ فما بعدها، قارن أيضاً جـ ٣ ص ٤٧٧ فما بعدها). أما بقية الأمويين ويزيد بن معاوية نفسه فلم يرضوا عن ذلك وظلوا فترة طويلة متباعدين عن هذا الابن غير الشرعي لأبي سفيان الذي يجوز أنه لم يكن له ابناً، لا شرعياً ولا غير شرعي، على الإطلاق. والأبيات المشهورة التي كثيراً ما تُذكر استهزاءاً ببنوّته ليست لابن مُفَرِّغ المغنى المتجول الذي قد قال هو أيضاً مثل هذه الأبيات، بل هي لعبد الرحمن بن الحكم، أخي مروان بن الحكم الذي صار خليفة فيما بعد (الطبري جـ ٢، ص ١٩٤). وكان لما صالح زيادٌ معاوية سأل معاوية أن يأذن له في نزول الكوفة، فأذن له، فشخص زياد إلى الكوفة، وكان عليها المغيرة بن شعبة، فكان لزياد كالأب الكريم، وكان يكرم زياداً ويعظمه، وكان زياد يتردد على المغيرة في بيته ويتودد إلى زوجته الشابّة[1]. ثم دعى معاويةُ زياداً إلى الشام، وألحقه بأبيه أبي سفيان، فلما رجع زياد إلى الكوفة، داخل المغيرة الخوفُ من أنه بعد أن ربّى زياداً سيحلُّ هذا محله في الولاية. ولكن سرعان ما ورد من دمشق كتابٌ بولاية زياد على البصرة وعلى الولايات التابعة لها في المشرق: وهي خراسان وسجستان والهند والبحرين وعمان. وقدم زياد البصرة في آخر ربيع الثاني أو أوّل جمادى الأول من سنة ٤٥هـ، والفسق في البصرة ظاهرٌ فاشٍ، فأعلن عن سياسته في خطبة مشهورة ألقاها من على المنبر، ولم

(١) [لا يؤخذ هذا مما يقوله الطبري جـ ٢ ص ٢٧. راجع ما يلي ص ١٢١ حيث جئنا بكلام الطبري في هذه المناسبة نفسها ــ المترجم].

يبدأها بالحمد والتسليم؛ بل تكلم فيما أراد أن يتكلم فيه مباشرة، ولذلك سُمِّيت خطبته «البتراء»، وقد قال فيها(١): «أما بعد فإن الجهالةَ الجهلاء والضلالةَ العمياء والغَيَّ المُوفَى بأهله على النار ما فيه سفهاؤكم، ويشتمل عليه حلماؤكم، من الأمور العظام، يَنْبُتُ فيها الصغير، ولا يتحاشى عنها الكبير، كأن لم تسمعوا بآي الله... ولا تذكرون أنكم أحدثتم في الإسلام الحدَث الذي لم تُسْبَقوا إليه، من ترككم هذه المواخير المنصوبة، والضعيفة المسلوبة في النهار المبصر... قرّبتم القرابةَ وباعدتم الدينَ، تعتذرون بغير العذر، وتُغْضُون على المختلس، كل امرئ منكم يذبّ عن سَفِيهِهِ، صنيعَ من لا يخاف عاقبةً ولا يرجو معاداً. ما أنتم بالحلماء، ولقد اتّبَعْتُم السفهاء، فلم يزل ما ترون، من قيامكم دونهم، حتى انتهكوا حُرَم الإسلام، ثم أطرقوا وراءَكم كنوساً في مكانس الرِّيَب. حرامٌ عليَّ الطعامُ والشرابُ حتى أُسَوِّيَها بالأرض هدماً وإحراقاً. إني رأيت آخر هذا الأمر لا يصلح إلا بما صلح به أوله: لينٌ في غير ضعف، وشدةٌ في غير عنف. وإني أقسم بالله لآخذن الوليَّ، والمقيمَ بالظاعن، والمُقْبِلَ بالمدبر، والمطيعَ بالعاصي، والصحيحَ منكم في نفسه بالسقيم، حتى يلقى الرجلُ منكم أخاه فيقول: «أُنْجُ سعد، فقد هلك سعيد!»، أو تستقيمَ قَنَاتُكُم. إن كذبةَ المنبر بلقاءٌ مشهورة، فإذا تعلقتم عليّ بكذبة فقد حلّت لكم معصيتي. فإياي ودلَجَ الليل، فإني لا أُوتي بمُدْلجٍ إلا سفكتُ دمه... وإياي ودعوى

(١) [ذكر المؤلف بعض الخطبة دون ذكر المرجع، وقد تابعناه في اقتباسه بقدر الإمكان ويجد القارئ الخطبة كاملة في الجزء الأول من كتاب البيان والتبيين للجاحظ. وتدل هذه الخطبة على عقلية سياسية وعلى روح خاصة، ولم يقبل زياد بعد أن ألقاها مدح متملق، بل قبل ملاحظة المتئدين، وأجاب على من اعترض على ما في كلامه من تعسف ومن مخالفته لنص القرآن الذي جاء فيه: «ولا تزر وازرة وزر أخرى»، بأن قال له: «إنا لا نبلغ ما نريد فيك وفي أصحابك، حتى نخوض إليكم الباطل خوضاً»؛ فليست العقوبة في نظر زياد للإصلاح أو القصاص فحسب، بل هي للردع، وليس الوصول إلى الغاية الشريفة مقصوراً على استعمال الوسائل اللينة ــ المترجم].

الجاهلية، لا أجد أحداً دعا بها إلا قطعتُ لسانه. وقد أحدثتم أحداثاً لم تكن، وقد أحدثنا لكل ذنب عقوبة، فمن غرَّق قوماً غرّقناه، ومن أحرق قوماً أحْرَقْناه, ومن نقب بيتاً نقبنا قلبه، ومن نبش قبراً دفنّاه فيه حياً، فكُفُّوا عنّي أيديَكم وألسنتكم أكْفُف عنكم يدي ولساني. ولا تظهر من أحد منكم ريبةٌ بخلاف ما عليه عامَّتُكم إلا ضربت عنقه. وقد كان بيني وبين قوم إحَنٌ، فجعلتُ ذلك دَبْرَ أذُني وتَحْتَ قدمي. فمن كان منكم مُحْسناً فليردد إحساناً، ومن كان منكم مسيئاً فلينزع من إساءته. إني لو عملتُ أن أحدكم قتله السلُّ من بغضي لم أكشِفْ له قِنَاعاً ولم أهتك له ستراً، حتى يُبديّ له صفْحَتَه؛ فإذا فعل ذلك لم أناظِرْهُ فاستَأنفُوا أمورَكم، وأعينوا على أنفسكم، فرب مُبْتَئِسٍ بقدومنا سَيُسَرّ، ومسرورٍ بقدومنا سَيَبْتَئِس. أيها الناس! إنا قد أصبحنا لكم ساسةً وعنكم ذادةً، نسوسكم بسلطان الله الذي أعطانا، ونذود عنكم بفيء الله الذي حوّلنا، فلنا عليكم السمعُ والطاعةُ فيما أحببنا، ولكم علينا العدلُ فيما ولينا؛ فاستوجبوا عدلَنا وفيأنا بمُنَاصحتكم لنا واعلموا أنِّي مهما قصرتُ فلن أقصر عن ثلاث: لست محتجباً عن طالب حاجة منكم، ولو أتاني طارقاً بليل؛ ولا حابساً عطاء ولا رزقاً عن إبّانه؛ ولا مُجَمِّراً لكم بعثاً. فادعوا الله بالصلاح لأئمتكم! فإنهم ساسَتُكم المؤدّبون لكم، وكَهْفُكم الذي إليه تأوون، ومتى يَصلُحوا، ولا تُشْرِبوا قلوبكم بُغضَهم، فيشتدّ لذلك غيظُكم، ويطول له حزنكم، ولا تدركوا له حاجَتكم؛ مع أن لو استُجيب لكم فيهم لكان شراً لكم... وأيْمُ الله إن لي فيكم لصرعى كثيرة، فليحذرْ كلُّ امرئ منكم أن يكون من صرعاي».

وقد مكّن هيبتَه في النفوس بأن ضرب أمثلة من الشدة التي لا تعرف الهوادة،

وجرى على ذلك من أول الأمر(١). فأفلح أن يُقِرّ الأمنَ في نصابه، لا في البصرة وحدها، بل في الولايات الفارسية أيضاً، وحتى في الصحراء العربية على نحو لم يعهده الناس من قبل. وتحكى عنه عجائب حقيقية. وقد خَضَع له خوارج البصرة أيضاً وكانوا لا يختلفون إلا من حيث الاسم عن اللصوص الأدنياء، وكانوا يستحقون أن يعامَلوا كما يعامَل اللصوص(٢).

ولما مات المغيرة في ٥٠ أو ٥١هـ، خلفه زيادٌ على ولاية الكوفة، فصارت له الكوفة والبصرة معاً، وهو أول من جُمِعَتا له وكان يقيم في كل منهما ستة أشهر. وإن كان مقره الحقيقي البصرة وكان عليه أن يُصلح أمور الميراث السيء الذي خلّفه له المغيرة في الكوفة، وذلك أن الشيعة هناك ــ وكان على رأسهم حجر بن عدي الكندي ــ حصبوا خليفتَه عمرو بن الحريث بينما كان يخطب في المسجد، فأسرع زياد من البصرة لكي يؤدبهم وكان من حسن الحظ لزياد أن أنصار حجر منعوه من الاستجابة إلى دعوة زياد، لما أرسل في طلبه،

(١) [راجع مثلاً الطبري جـ ٢ ص ٧٧، تجد أن زياداً، بعد خطبته البتراء قتل أعرابياً أخذه صاحب الشرطة ليلا، بعد الوقت المحدد للتجول، هذا مع أن الأعرابي لم يكن يعلم بما اتخذه زياد من إجراءات، وص ٨٨، تجد أن زياداً قطع أيدي قوم حصبوه، وهو يخطب في الكوفة. وراجع أيضاً الكامل للمبرد ص ٥٨٢ من الطبعة الأوربية تجد أنه قتل امرأة وعرّاها لأنها خرجت مع قوم من الخوارج، فلم يجرؤ النساء بعد هذا على الثورة مع الخوارج. وتجلى حزم زياد كما تجلت قسوته أيضاً في قضائه على حجر بن عدي وأصحابه ــ الطبري جـ ٢ ص ١١١ ــ ١٥٥ ــ المترجم].

(٢) *Chavarig*. P. 24s.

[فيما يتعلق بشدة زياد وحزمه ونجاحه في سياسته يقول الطبري: وكان زياد أول من شد أمر السلطان وأكد الملك لمعاوية وألزم الناس الطاعة وتقدم في العقوبة وجرَّد السيف وأخذه بالظنة وعاقب على الشبهة، وخافه الناس في سلطانه خوفاً شديداً، حتى أمن الناس بعضهم بعضاً، حتى كان الشيء يسقط من الرجل أو المرأة، فلا يعرض له أحد حتى يأتيه صاحبه فيأخذه وتبيت المرأة فلا تغلق عليها بابها. وساس الناس سياسة لم ير مثلها، وهابه الناس هيبة لم يهابوها أحداً قبله... وكان زياد يقول: لو ضاع حبل بيني وبين خراسان علمت من أخذه ــ المترجم نقلاً عن الطبري جـ ٢ ص ٧٧ ــ ٧٨].

واتبع معهم طريق العصيان والمقاومة، وبذلك جلب الأذى لنفسه وجنى عليها. وقد تمكن زياد من التغلب على المتمردين دون كبير مشقة. وذلك أنه لما بدت بوادر الشر طلب زياد من أشراف الكوفة أن يبعدوا قومهم وأقرباءهم عن حجر بن عدي، ففعلوا، وهكذا أعان أهل الكوفة أنفسَهم ممثلَ الدولة، رغم قلة حبّهم له، على إخوانهم في المذهب. وقد وقّعوا على شهادة باتهام حجر بن عدي وأصحابه بأنهم خلعوا طاعة الخليفة ودعوا إلى الحرب والفتنة. فأُرسل حُجْرٌ وأصحابهُ إلى الخليفة في دمشق، فقتل منهم ستة بسبب خَلْعِهم الطاعة ودعوتهم إلى الفتنة، ولأنهم لما سُئلوا عن رأيهم في عثمان وعليّ عابوا عثمان وأبَوْا أن يتَبرّأوا من عليّ. ولكن الأمر لم ينته بذلك، لأن قتل مثل هؤلاء الرجال الكبار أهاج النفوس إهاجة عميقة، وأنِفَتْ بعضُ القبائل أن تتخلَّى عن إنقاذ رجالها من يد الدولة، واعتبر الشيعةُ حُجرا وأصحابه في المحنة شهداء[١].

وتذكر الرواياتُ بعضَ الإصلاحات والإجراءات الإدارية التي قام بها زياد فقد قام بإصلاح كبير في مسجد الكوفة (الطبري ج ١ ص ٢٤٩٢) وأمر بإلقاء الحصى فيه ويقول البلاذري (ص ٢٧٧) إن زياداً فعل ذلك لأن الناس كانوا يصلُّون فإذا رفعوا أيديَهم، وقد تَرِبَتْ، نفضوها؛ فخشى زياد أن يظن الناسُ على مرور الأيام أن نفضَ الأيدي سنةٌ في الصلاة، فأمر بالحصى فجُمع وألقى في صحن المسجد[٢]. وأهم من ذلك إجراءٌ آخر اتخذه زياد، وهو تقسيمه جندَ الشرطة

---

(١) *Schia*. p. 56ss.

[راجع أيضاً فيما يتعلق بقصة حجر بن عدي وقتله هو وأصحابه الطبري ج ٢ ص ١١١ ــ ١٥٥، لتجد التفصيل الوافي لما أوجزه المؤلف ــ المترجم].

(٢) [لا نجد عند الطبري والبلاذري في الموضعين اللذين أشار إليهما المؤلف ما يقوله من أن زياداً رفع الحصى من الأرض وأحل محله بلاطاً ثابتاً، وذلك لكي لا يحصب المصلون الخطيب إذا أرادوا معارضته. ولما كان البلاذري يقول إن الحصى ألقى في المسجد فوق التراب، فإن زياداً لم يرفع الحصى، وبهذا لا يكون ثمة أساس لكلام المؤلف، ولذلك عدلنا عنه ــ المترجم].

في الكوفة أربعة أقسام، في كل قسم منها تتمثل القبائل المختلفة، من غير أن يكون على رأسهم رئيس القبيلة، بل رئيس تُعَيِّنُه الحكومة[١]. أما في تقسيم جند البصرة تقسيما مماثلاً إلى خمسة أقسام، فقد كانت القبيلة أكثر ظهوراً[٢]. ويستطيع الإنسان أن يلاحظ أن زياداً أراد أن يخفف من حدة التوتر السياسي في العراق، وذلك لأنه حول خمسين ألفاً من أهل الكوفة والبصرة بعيالاتهم إلى خراسان وأسكنهم فيما دون النهر (الطبري جـ ٢ ص ٨١، ١٥٦، والبلاذري ص ٤١٠).

وتُوُفِّيَ زياد يوم الثلاثاء لأربع خلون من رمضان سنة ٥٣هـ (الثلاثاء ٢٣ أغسطس سنة ٦٧٣ م) وهو يبلغ حوالي ثلاثة وخمسين عاماً. وتُذْكَر حكايتان لا تخلوان من دلالة على روحه. فمثلا في سنة ٣٨ أو ٣٩هـ خرج ابن عباس من البصرة قاصداً عليّاً بالكوفة، واستخلف على البصرة زيادَ بن أبيه. وبعث معاوية بابن الحضرمي إلى البصرة، فنزل في تميم بقصد إثارتهم على سلطان عليّ. فعند ذلك لجأ زياد إلى صَبِرة بن شَيْمان، أحد رجال الأزد لكي يجيره هو وبيت المال. ثم أراد زياد أن يختبر الأزد، فقال لجابر بن وهب الراسبي: لا أرى ابن الحضرمي يكفّ، ولا أراه إلا سيقاتلكم، ولا أدري ما عند أصحابك، فآمِرْهُمْ، وانظر ما عندهم! فبعد أن صلى زياد جلس في المسجد واجتمع الناس إليه، فقال جابر: يا معشر الأزد! تميم تزعم أنهم هم الناس وأنهم أصْبَرُ منكم عند البأس، وقد بلغني أنهم يريدون أن يسيروا إليكم حتى يأخذوا جارَكم ويخرجوه من المِصْر قَسراً، فكيف أنتم إذا فعلوا ذلك، وقد أجرتموه وبيتَ مال المسلمين؟ فقال صبرة بن شيمان، وكان مُفخّما: «إن جاء الأحنف جئتُ، وإن جاء الحتات بن يزيد

---

(١) *Schia*. p. 58. n. 1.

(٢) [وجاء في الطبري جـ ٢ ص ٧٩: وقيل إن زياداً أول من سِيرَ بين يديه بالحراب ومشى بين يديه بالعمُد واتخذ الحرس رابطة خمسمائة... فكانوا لا يبرحون المسجد. قارن ص ٧٧ ــ المترجم].

جئتُ، وإن جاء شبان ففينا شبان». وقد كانت هذه الكلمات، بما فيها من سذاجة، سبباً في إثارة الضحك في نفس زياد، وكان يقول بعد ذلك؛ «إنني استضحكتُ، ونهضتُ، وما كدت مكيدةً قط كنتُ إلى الفضيحة بها أقرب مني للفضيحة يومئذ، لما غلبني من الضحك»(١). ويحكى أيضاً أن زياداً كان يقول لزوجة المغيرة بن شعبة ــ وكانت شابة جميلة ــ وقد تزوجها زياد فيما بعد، ألا تستتر منه لأنه من أهل قرابتها ولا خطر منه، لأنه «أبو المغيرة». والواقع أن أحد أبناء زياد كان يسمى المغيرة، على اسم المغيرة بن شعبة وإلى الكوفة(٢). فيبدو من هذا أن زياداً لم يكن وجلا مُتَزَمِّتاً في جده. أما في أمور منصبه فلم يكن يسمح لأحد أن يمزح معه، وهو لم يكن والياً غشوماً مستبداً إلا بالمعنى الذي يفهمه العرب، والعرب يرون أن كل حكم قوي يجب أن يكون استبداداً، خصوصاً إذا احتاج إلى السيف في قمع الرعايا الثائرين. أما ما فعله زياد مع الشيعة في الكوفة فقد رواه لنا أبو مخنف ــ وكان شيعي النزعة ــ أوفى رواية وأدَقها.

---

(١) الطبري ج ١ ص ٣٤١٤ ــ ٣٤١٥، ولا يستطيع الإنسان من نص طبعة ليدن أن يدرك ما هو الشيء المضحك في كلام صبرة بن شيمان. وأسماء الأعلام معروفة هناك، ويمكن إصلاحها بالرجوع إلى الطبري ج ١ ص ٣٤١٨ س ١ وابن دريد ص ١٥٠ و١٥٤. وأسماء الأعلام أسماء لقوم من تميم، ولكن لها، إلى جانب ذلك، دلالة على أشياء أخرى. ويؤخذ من كلام صبرة أن الأزد ينتظرون ما تفعله تميم وهم مستعدون لأن يقابلوا رجال تميم برجال أكفاء لهم. وقد تكلم صبرة في جد وزهو وافتخار، وكان ذلك، بما فيه من سذاجة، هو الشيء المضحك الذي ضبط زياد نفسه لكي لا ينفجر ضاحكاً لما سمعه. [ترجمنا كلام المؤلف في الصلب متمشين مع الأصل العربي ومفصلين بعض التفصيل، وإلا لما فهم المقصود فهماً تاماً، كما أننا جئنا بكلام صبرة في الصلب أيضاً، لا في الهامش، كما فعل المؤلف ــ المترجم].

(٢) [هذا ما يقوله المؤلف. ولم أجد ما يدل على كل ما يقوله. ونجد عند الطبري ج ٢ ص ٣٧ ما يأتي: «ودخل عليه (أي المغيرة بن شعبة)، وعند المغيرة أم أيوب بنت عمارة بن عقبة بن أبي معيط، فأجلسها بين يديه وقال: لا تستتري من أبي المغيرة! فلما مات المغيرة تزوجها زياد، وهي حدثة». ومن الواضح في النص أن الذي قال: لا تستتري، هو المغيرة بن شعبة، فهو يقول لزوجته، مداعباً زياداً: لا تستتري من أبي المغيرة. لأن أحد أبناء زياد كان يسمى المغيرة. وليس في الكلام ما يدل على جمال الزوجة ولا على أن زياداً هو الذي كلمها. ويظهر أن المؤلف أخطأ في فهم ما تعود عليه الضمائر ــ المترجم].

ولا يزيد كلام أبي مخنف عن أن زياداً أوقر بعضَ الثوار الحديدَ، ممن حمل السلاح خارجاً على أمره واكتفى بذلك. وهذا ما يبرر الشك في الروايات الغامضة التي تذكر أحياناً عن قسوته في تعقب الشيعة بوجه عام (الطبري جـ ٢ ص ٢٦٦، ٦٢٤). وفي البصرة لم يكن للشيعة في الجملة كبير شأن، وهم لم يخلقوا المتاعب، وكان لرئيسهم شُريك بن الأعور الحارثي مكانٌ كريم عند زياد وعند أبنائه من بعده. ولكن شُريكاً لم يكن برّاً بثقتهم فيه، فقد أراد أن يستغلها ليغدر بعبيد الله بن زياد الذي تولى العراق بعد أبيه. وذلك أن شريكاً مرض، فذهب إليه عبيد الله عائداً له في داره، فأراد شريك أن يقتله، وحرّض على ذلك رجالا كانوا في داره، لكنهم استقبحوا هذا الغدر الشائن وكرهوه. ومات شريك بعد أيام، ولم يتم له ما أراد (الطبري جـ ٢ ص ٢١٨). أما الخوارج فكانوا في البصرة أخطر من ذلك، وكانوا مختلفين، فكان منهم أهل ورعٍ وديانة، وكان منهم متطرِّفون قليلو المبالاة بالمبادئ؛ في غريزتهم ميلٌ إلى سفك الدماء. ولم يتعرض زياد إلى أهل الورع منهم، بل هو ضرب على أيدي المجرمين، ولم يقتل إلا بعض الثوار والمجرمين الذين جيء بهم إليه وقام الدليل على إجرامهم. وهو لم يلجأ إلى المذابح الرادعة. وقد أبان أبو بلال، وهو أكبر رجل بين خوارج البصرة، عن رضاه عن صنيع زياد، وذلك بأن دعا على قومه الذين ألحقوا العار باسم الخوارج بسفكهم الدماء من غير تمييز[١]، أما ما يروى من أفعال زياد خلافاً لذلك فيجب أن يعتبر تشنيعاً مغرضاً.

فأما الأداة الطيعة في أعمال القسوة المزعومة التي تنسب لزياد في البصرة فهو سُمرة بن جُندب، كما يقول المدائني وتلميذه عمر بن شبة. وكان سمرة على الشرطة،

---

(١) [لم يذكر المؤلف المرجع الذي اعتمد عليه، وقد وجدتُ في كتاب الكامل للمبرد ص ٥٨١ ـ ٥٨٢ من الطبعة الأوربية أن أبا بلال دعا على رجلين من الخوارج سفكا دماء بغير حق. ولا يخرج ما في الطبري (جـ ٢ ص ٩٠ ـ ٩١) عن ذلك ـ المترجم].

ويقال إن زياداً أكثر من عدد الشرطة ليتخذها أداة لطغيانه. ولكن المعروف أنه لم يخمد ثورة الشيعة في الكوفة بواسطة الشرطة، بل بدعوة أهل البصرة أن يَكْفُوه أولئك الشيعة[١]. وقد استطاع زياد في العراق، كما استطاع في فارس، أن يصل إلى غرضه دون الالتجاء إلى وسائل غير عادية. وكان بحسب العادة القديمة، يجمع حوله في سَمَرِه جماعةً من الأشراف فرض لهم عطاءً شرفياً. وكان يتحدث معهم في الشؤون العامة حديثاً حراً[٢]. وهو أيضاً قد جعل رؤساء القبائل مسئولين عما يحدث من قبائلهم. وقد مكّنه ما كان بين القبائل من تنافس من أن يضرب بعضها ببعض. وأهم ما كان تحت يده أموالُ الدولة، وكان هو المسيطر على بيت المال الذي تجرى منه الأرزاق والأعطيات، فكان عند الضرورة يهدد بمنعها[٣]. وكان تحت تصرفه شرطة، لكنها لم تكن أكثر عدداً منها في عهد سلفه. فلم يكن تحت يده من الوسائل إلا ما كان تحت يد غيره من عمال الدولة، غير أنه عرف كيف يستعملها خيراً مما استعملوها. وتدل كل الدلائل على أنه كان حاكماً «منصوراً مُعاناً بأمر الله»، وهو لم يفشل في شيء. وكان المسجد، وهو المكان الذي تجتمع فيه عامة المسلمين، هو مكان عمله ومكان نجاحه. وكأنه كان يعرف ما تجنُّه ضمائر الناس، وكانوا يحسّون بأنه يصيب منهم ما يخفون. وكان يعلن للناس ما يريد أن يتخذه من إجراءات، ولم يكونوا يشكّون أنه سيكون عند قوله. وقد استطاع أن يحكم الناس بالكلام لا بالسيف، وكان خبيراً بقومه العرب. وكان العرب، من قديم، ذوى فراسة دقيقة وذوى إعجاب فطري بالتفوق العقلي، إذا تجلى في البصيرة النافذة إلى القلوب وإلى حقيقة

(١) [راجع فيما يتعلق بالبصرة الطبري جـ ٢ ص ٩١، وبالكوفة ص ١١٧ ــ المترجم].

(٢) [لا يذكر المؤلف مرجعاً هنا، وفي الطبري (جـ ٢ ص ٧٨) أنه «كتب خمسمائة من مشيخة أهل البصرة في صحابته، فرزقهم ما بين الثلاثمائة إلى الخمسمائة» ــ المترجم].

(٣) [راجع مثلا الطبري جـ ٢ ص ٩١ ــ المترجم].

الأشياء، وإذا تجلى في التصرف الحازم الحاسم[١]. وقد مدحه الحارث بن بدر الغُدانى أحد أشراف تميم، وكان شخصية قوية مستقلة، بقصيدة تشهد بما كان له من صفات كريمة؛ ووصفه فيها بأنه وزير نعم الوزير[٢] لأخيه الخليفة معاوية وإذا كان الفرزدق الشاعر[٣]، لما طلبه زياد، قد خاف زياداً كما يخاف الصبي الأحمق حقيقة، ففرّ منه، حتى ضاقت عليه الأرض بما رحبت، فإن هذا لا ينال من قدر زياد ومن صفاته.

وكان الواجب الأول الذي لا بد من القيام به، في البصرة والكوفة، هو تثبيت سلطان الدولة. فكان لا بد في البصرة من كسر شوكة القبائل والعشائر التي كان المبدأ الأعلى عندها هو الوقوفُ إلى جانب أفرادها، بل إلى جانب مجرميها، مهما كان جرمُهم، وحمايتُهم من القبائل الأخرى، بل من سلطان الدولة. فقد طغت روح العصبية القبلية في البصرة أكثر من طغيانها في غيرها، وكان لذلك في مدينة كالبصرة مزدحمة بالسكان من النتائج ما لا يمكن احتماله، وكان أفظع مما عُرِفَ في حياة البادية. فتعرض النظام والسلام إلى الخطر، بعد أن كان محمد [عليه السلام]، بفضل إقامة السلام والنظام، قد خلص العرب من الفوضى. أما في الكوفة فقد كانت المعارضة للحكومة مصطبغة بصبغة دينية أكثر مما كانت لها هذه الصبغة في المدن الأخرى. ولم تكن هذه المعارضة موجَّهة لسلطان الدولة في ذاته، بل موجهة إلى حق الحكومة التي كانت قائمة، أعني حكومة الأمويين، في الحكم. ولم يكن بين الناحيتين فرقٌ في نظر زياد، فهو بعد أن

---

(١) [يظهر أن المؤلف قد أخذ بعض ما يذكره من صفات زياد من قصيدة قالها الحارث بن بدر الغداني في مدحه له (الطبري ج ٢ ص ٧٨) وأنه قد تصرف فيما أخذ ــ المترجم].

(٢) الطبري ج ٢ ص ٧٨ س ١٠ وص ١٤٦ س ١٦. وهذه أول مرة تظهر فيها هذه التسمية، فيما أعلم.

(٣) [تجد حكاية الفرزدق وفراره لما طلبه زياد عند الطبري ج ٢ ص ٩٤ ــ ١٠٨ ــ المترجم].

صالح الأسرة الحاكمة لم يعرف الخضوعَ لسيادة غير السيادة القائمة بالفعل. وعلى هذا الأساس نهض لإقامة النظام في الجماعة وإيجاد الرخاء في الحياة العامة وإلزام الناس القيام بواجب الطاعة المفروض عليهم كمواطنين. وهو إن كان، تمشياً مع العادة السائدة، لم يَنْسَ نفسه، بل جمع أموالا كثيرة، فإنه لم يجعل هَمَّه استعمالَ سلطانه وسيلة في استغلال الولايات التي عُهِدَت إليه إدارتُها استغلالا يحقق له أغراضه الخاصة. وكان يَتَّخذ موقفاً فوق الأحزاب وفوق القبائل، وكان يشعر تمام الشعور بأنه عامل من عمال الدولة، وكان جادّاً كل الجد في القيام بالواجبات التي يقتضيها منصبه والشعور به، غَيْرَ مُبَالٍ بالعافية لنفسه، وغير مُبَالٍ بما جاء في القرآن[١] الذي استطاع كل حاكم أن يستنبط منه السياسة التي تناسبه. وقد عُرِف له إخلاصُه، وعاد ذلك على أبنائه من بعده، وكان ابنه عبيد الله أكبر شأناً.

ومن ولاة العراق أيام معاوية، إلى جانب من تقدم ذكرهم، بحسب رواية أبي معشر والواقدي: تولى الكوفة عبدُ الله بن خالد بن أسيد سنة ٥٣هـ، والضحاك بن قيس الفهرى سنة ٥٥هـ، وعبد الرحمن بن أم الحكم الثقفي سنة ٥٨هـ، والنعمان بن بشير الأنصاري سنة ٥٩هـ. وتولى البصرة سمرةُ بن جندب الفزارى سنة ٥٣، وعبد الله بن عمرو بن عيلان سنة ٥٤، وعبيد الله بن زياد سنة ٥٥. وقد كان عبيد الله أشد من أبيه على خوارج البصرة، حتى اضطغن عليه المعتدلون منهم. وما يُرْوَى من حكايات شهداء الخوارج يرجع إلى عهده[٢].

أما أهل الشام الذين كان يحكمهم معاوية نفسه فلا نسمع عنهم إلا قليلا، إذا

---

(١) [يقصد المؤلف بطبيعة الحال مجاوزة زياد لبعض حدود الشرع عندما كان يريد القضاء على الفساد. راجع ص ١١٦ ــ ١١٧ مما تقدم ــ المترجم].

(٢) *Chavarig* p. 25ss. [راجع أيضاً الطبري جـ ٢ ص ١٨٥ ــ ١٨٨ ــ المترجم].

قيس بما نسمعه عن غيرهم، وذلك أن اتفاق مصلحتهم ومصلحته في السيادة جعلتهم متحدين معه، لأن السيادة كانت للشام. وهذا يتجلى في امتلاكها لبيت المال، وفي ارتفاع الأعطيات فيها[١]. وكانت الشام أيضاً تختلف عن العراق اختلافاً داخلياً، وذلك أنه لم يكن للكوفة والبصرة تراثٌ غير تراث حياة البادية وغير تراث الإسلام، وكانت حروب الفتح قد قذفت إليهما بجيوش عربية تتألف من مختلف القبائل. فأقامت هناك أشبه شيء بالمستعمرات العسكرية. ووجدت هذه القبائل نفسها قد انتقلت دفعة واحدة من ظروف حياة البادية إلى ظروف الحضارة وصارت في النقطة الوسطى لإمبراطورية كبرى، فلا عجب ألاّ يتحول العربُ دفعة واحدة من حياة البداوة إلى حياة المواطنين المهذَّبين. على أنه قد هاجر إلى الشام أيضاً على أثر الفتح الإسلامي كثيرٌ من العرب، خصوصاً من قيس الذين انتقلوا إلى شمال الشام، ولكن الغالبية في الوسط كانت لكلب ولقبائل قضاعة، إلى جانب قبائل أخرى من أزد الصراة. وكانت هذه القبائل قد توطنت هناك منذ قرون، ولم تكن قد جاءت مع مجيء الإسلام[٢]. وكانوا معرضين لتأثير الحضارة اليونانية ــ الرومانية والكنيسية المسيحية والدولة الرومانية، فلم تَخْلُ هذه العوامل كلها من أن تترك أثرَها فيهم. ولم تكن مظاهرُ الدولة المنظمة ولا روح الطاعة الحربية والسياسية معاني جديدة عليهم. وكانت لهم أسرة قديمة من الأمراء دانوا لها بالطاعة دهراً طويلاً، ثم آل ما تعوّدوه من الطاعة إلى معاوية باعتباره الوارث الشرعي لأسرتهم السابقة، فلم يكونوا بحاجة إلى أن يُلَقَّنُوا حقوق الدولة عليهم، وكانوا يعترفون بشرعية الرياسة الإنسانية

---

(١) «نقل معاوية بيت مال الدولة (من الكوفة) إلى دمشق وزاد في عطاء أهل الشام وأنقص عطاء أهل العراق» هذا ما يقوله تيوفانيس (في أخبار حوادث سنة ٦١٦١، ٦١٥٢).

(٢) وكانوا يفتخرون بأنهم لم يهاجروا إلى الشام حديثاً كالأمويين (الحماسة ص ٦٥٩ ــ بيت رقم ٥).

القائمة، ولم يمتحنوها بالرجوع إلى مقاييس القرآن وإلى المبادئ التي يجب أن تقوم عليها الحكومة التيوقراطية. وكانوا يطيعون أميرهم أينما وجههم، لأنهم لم يكونوا في داخل أنفسهم يبالون بالإسلام أكثر مما يبالي هو نفسه. وقد أثبتوا أنهم كانوا من الناحية الحربية يفوقون العرب جميعاً، ولا سيما أنهم لم يضعف تعوُّدهم للحرب، بل كانوا بسبب الحروب الدائمة مع الروم يتدربون تدرباً منظَّماً. وقد كان معاوية من الحكمة بحيث حافظ على حماستهم وحميتهم؛ وإن كان هو من حيث النسب، وقد كان أقرب لقيس منه لغيرها. ولم يكن الخلاف بين القبائل قد اتخذ في ذلك العصر صورة التنازع الخبيث بين الأحزاب السياسية. وكان معاوية يقيم في دمشق، في المنطقة التي كانت تسكنها كلب، غير بعيد من مقر ملوكهم السابقين. وتزوج امرأة من أشراف كلب، وجعل ابنها يزيد وارثاً لعرش الدولة. وكان التصاهر، بحسب تفكير العرب، بمثابة التحالف السياسي. وقد تبين أيضاً أنه كذلك، فكانت كلب كلها تشعر أنها أصهار للخليفة وأحوال لولي عهده[١]. ولم يكن من الممكن أن يصبح عرب الشام الذين أدمجوا في الدولة العربية بعد الفتح في المرتبة الثانية بعد العرب الذين دخلوها فاتحين، ذلك أن دخول عرب الشام في الإسلام جاء مبكراً، وكان لهم فيه نصيب من الاختيار، وإن كان إسلامهم قد كان مجرد انضمام لراية العروبة المنتصرة. ويستطيع الإنسان أن يفترض أن الصلة التي نشأت بين معاوية وبينهم أيام كان والياً كان لها أثر في علاقته بأهل الشام من غير العرب الذين ظلوا على النصرانية. ولا يبدو أن التعارض بين السادة والرعية في الشام على الحدة التي كان عليها في العراق في أول الأمر. ولم يكن المسلمون في الشام يعيشون بمعزل وفي مستعمرات مخصصة لهم. بل كانوا يعيشون بين أبناء البلاد في المدن القديمة مثل دمشق وحمص

---

(١) وكانت نائلة زوجة عثمان بن عفان من كلب أيضاً. ومن الجائز أن يكون الثأر لمقتل عثمان لقى قبولا بين كلب نفسها لهذا السبب، وأنه رماهم بين أحضان معاوية.

وقنْسرين وغيرها، بل كانوا أحياناً يقاسمونهم بيتاً لله، نصفه مسجدٌ ونصفه كنيسة. وكان التراث المسيحي في فلسطين والشام موضع تقدير كبير من جانب المسلمين (ديوان النابغة، قصيدة رقم ١ بيت رقم ٢٤[١]). وكانت للشام في نظر المسلمين أيضاً أرضاً مقدسة. وفي بيت المقدس نصب معاوية نفسه خليفة، وصلى بعد ذلك على جبل الجلجلة، ثم صلى عند قبر السيدة مريم. ولا يصح بطبيعة الحال أن يغالى الإنسان في تقدير ما لذلك من دلالة. وقد أظهر معاوية مقدار تهكمه واستهزائه إزاء العقيدة المسيحية في أنه لما جاء إليه اليعاقبة والمارونية ليفصل، بينهم في نزاعهم في العقيدة، غرّم اليعقوبيين، بعد أن غُلبوا أمام خصومهم، عشرين ألف دينار، أخذها منهم وأرسلهم. على أن معاوية لم يكن في قلبه تعلق عميق بالإسلام، وكان، من حيث هو سياسي، متسامحاً مع رعاياه المسيحيين. وقد نال محبتهم وعرفانهم لفضله، وكانوا يشعرون أنهم تحت حكمه في عافية لا تقل عما كانوا عليه تحت حكم الرومان، وهذا ما يتبينه الإنسان عن روح الروايات التي ترجع إليهم.

ويتكلم تيوفانيس (في أخبار سنة ٦١٧٠ لتاريخ الخليقة) عن رعاية معاوية للنصارى (σπουδὴ τῶν χριστιανῶν) ! وقد برهن عليها معاوية بأن بنى لأهل الرها كنيستهم التي هدّمها الزلزال. وكان سرجون بن منصور من أكبر مستشاريه نفوذاً، وقد أورثه ابنه يزيد، وكان سرجون نصرانياً[٢]. أما ما يروى من أن

---

(١) [بيت النابغة هو:

محلتهم ذات الإلـــه ودينهم   قويم لما يرجون غير العواقب

وهذا البيت قاله النابغة في مدح الحارث الأصغر الغساني معتذراً له عما وُشى به إليه من أمر المجرّدة. ودلالة البيت على ما يقوله المؤلف غير دقيقة وغير كبيرة ــ المترجم].

(٢) الطبري ج ٢ ص ٢٠٥ و٢٢٨ و٢٣٩. انظر أيضاً التنبيه ص ٣٠٢ و٣٠٧ و٣١٢. أما عند تيوفانيس في أخبار سنة ٦١٦٣ فنجد أن Σέργιος ό τοῦ Μανσουρ, ἀυὴρ χριστιανικώτατος (سرجيوس بن منصور، الرجل النصراني) لا يذكر إلا في أيام عبد الملك =

معاوية استعمل والياً نصرانياً على خراج حمص فهو خبرٌ موضوعٌ من غير شك[١]. ويستطيع الإنسان أن يأسف من أن معاوية، بدلاً من أنه صار خليفة، لم يقتصر على الشام فيؤسس هناك دولة وطنية، ربما كانت تكون أثبت دعائم من تلك الدولة العالمية التي لا تنتمي إلى أمة معينة والتي انهار فيها سلطان العرب في المشرق. ويجوز أنه قد خطرت له هذه الفكرة، لكنه أحسّ أن تنفيذها مستحيل، لأنه كان لا بدّ له في ذلك من أن يتنصل من الإسلام وينضم إلى الكنيسة المسيحية، وذلك أن الإسلام في ذلك الحين لم يكن يسمح بوجود دول خاصة.

وكان الثأر لمقتل عثمان هو الأساس الذي بنى عليه معاويةُ حقَّه في وراثة الخلافة[٢]. أما بأي معنى قام بالثأر لعثمان فهو يتجلى في أنه من أجل ذلك اتحد مع عمرو بن العاص الذي ألّب على عثمان أخبث تأليب. ولم تكن التقوى ولا البر بعثمان باعثاً لمعاوية؛ وهو أيضاً لم يتبع سنّة سلفه المقتول. ولقد قبل النتيجة الإجمالية لحكم عثمان، وهي سيادة بني أمية، ولكنه لم يعط للأمويين جميع المناصب التي تدرّ المنافع. ولقد عمل محاولات باستعمالهم[٣]، لكنه كان في العادة

= قارن أيضاً الطبري جـ ٢ ص ٨٣٧ [إن سرجون بن منصور الرومي كان كاتب معاوية وصاحب أمره، وكان يستشيره. ويذكر الطبري أن يزيد بن معاوية كان يستشيره أيضاً. وكتاب «التنبيه» الذي يذكره المؤلف هو كتاب التنبيه والإشراف للمسعودي طبعة ليدن سنة ١٨٩٣ م. وهو الجزء الثامن من المكتبة الجغرافية ــ المترجم].

(١) اليعقوبي جـ ٢ ص ٢٦٥ [قارن الطبري جـ ٢ ص ٨٢ ــ المترجم].

(٢) [ليراجع القارئ إلى جانب ما هو معروف في كتب التاريخ كتاباً كتبه معاوية إلى عليّ (الكامل للمبرد ص ١٨٤)، وهو يبين موقف معاوية وموقف أهل الشام، وفيه يطالب معاوية: ١ ــ بضرورة معاقبة قتلة عثمان. ٢ ــ بأن يكون أمر اختيار الخليفة بعد ذلك شورى بين المسلمين. ويقول معاوية. ١ ــ إنه هو نفسه لم يبايع علياً، ومن هذا الوجه لا يعتبر خارجاً عليه، مثل طلحة والزبير، ٢ ــ «إن أهل الشام لم يبايعوه، فلا تلزمهم طاعته كما تلزم أهل البصرة. هذا ولا يدفع معاويةُ مكانة عليَّ في الإسلام ــ المترجم].

(٣) [جاء في الطبري (جـ ٢ ص ١٦٧) أن معاوية كان إذا أراد أن يولى رجلا من بني حرب ولاه الطائف، فإذا رأى منه خيراً وما يعجبه ولاه مكة معها، فإن أحسن الولاية جمع له معهما المدينة. فهل المقصود من عبارة المؤلف مثل هذا أيضاً؟ والمعروف أن معاوية ولى بعض الأمويين أمصاراً أخرى ــ المترجم].

لا يلبث أن يعزلهم. ولم تصبح دمشق مقرهم الرئيسي، بل بقيت المدينة مقراً لهم. وبعد أن كانت المدينة حتى أيام معاوية عاصمة للدولة وجدت نفسها وقد رجعت إلى مركزها القديم، شأنها في ذلك شأن الطبقة الأرستقراطية التي كانت لا تزال تقيم فيها. وقد جعل معاوية ولاية المدينة من نصيب الأمويين عـادةً، ولكن أين مروان بن الحكم، وهـو في عهده أمير على المدينة، من مروان بن الحكم الذي كان في عهد عثمان كاتب الدولة، الذي لا يخرج عن أمره شيء! فلا عجب أن ينظر مروان بن الحكم إلى ابن عمه المقيم بدمشق والذي يظلله بحمايته بعين غير عين الرضا، وأن أقرباء معاوية في المدينة كانوا بالإجمال يطعنون عليه. وقد تجلت روحهم خصوصاً في غيرتهم من زياد، لأنهم كانوا يخشون أن تتجه إرادة معاوية إلى تقوية بيته على الأسرة كلها من طريق زياد وأن يجعل لزياد الخلافة من بعده. أما معاوية فقد حاول من جانبه أن يثير الشحناء بين فروع أسرة بني أمية في المدينة لكي يضعف بذلك من قوّتهم (الطبري ج ٢ ص ١٦٤ ــ ١٦٥)[(١)]. وأيضاً لم يصل الوئام بين معاوية وبين قريش بوجه عام إلى ما كان ينبغي أن يكون عليه. وقد اشتكى هو من ذلك، وقال إنه لم يؤخّرهم إلا لأنهم انصرفوا عنه. وكانت العلاقات متوترة بينه وبين قبائل مخزوم خاصة، وكان هؤلاء منذ زمان طويل يحقدون على بني أمية، لأن بني أمية هم الذين زحزحوهم عن المحل الأول الذي لم يزل لهم في مكة حتى وقعة بدر. وقد فعل معاوية إلى جانب ذلك ما يجعل لبغضهم له سبباً خاصاً، وذلك أن عبد الرحمن بن خالد بن الوليد المخزومي، صاحب المكانة الكبيرة، كان عظيمَ الشأن في الشام، وقد مال إليه

---

(١) [كان معاوية يُغرى بين سعيد بن العاص ومروان بن الحكم. فكتب للأول، وهو وال على المدينة، يأمره بمصادرة أموال الثاني، فلم يفعل، فعزله. ثم ولى الثاني، وأمره أن يصادر أموال الأول، فلم يفعل، وكتب لمعاوية يعبر عن تعجبه من أنه يُضْغنُ بعض الأمويين على بعض، ويدخل بينهم القطيعة والشحناء ــ ويرد عليه معاوية متنصلا من ذلك ــ المترجم].

أهلُها، «لِمَا كان عندهم من آثار أبيه خالد بن الوليد، ولغَنَائه عن المسلمين في أرض الروم» وكان عاملا على حمص، في وسط الشام، وكان له نفوذ كبير مستقل بذاته. فخافه معاوية وخشى على نفسه منه، فأمر معاوية الطبيبَ النصراني ابن أثال أن يحتال في قتله؛ وضمن له، إن هو فعل ذلك، أن يضع عنه خراجه ما عاش، وأن يوليه جباية خراج حمص. فدس ابن أثال لعبد الرحمن شربةً مسمومة، فشربها فمات(١). ويستطيع الإنسان أن يتصور مبلغ تأثير ذلك في نفوس بني مخزوم. أما علاقة معاوية بأشراف المسلمين وببيت الرسول، وبآل الصحابة الأولين وبالأنصار أيضاً، فكانت، بطبيعة الحال، علاقة ريبة وعداوة.

أما كبار العمال الذين ولّاهم معاوية أهم الولايات فلم يكونوا أمويين، بل هم لم يكونوا من قريش، إذا استثنينا واحداً منهم. وكان معاوية ثاقب النظرة في معرفة من يصلح لخدمته، فكان يختاره لها، وكان يعرف كيف يضم إلى جانبه من يعنيه أن يضمه وأن يرتبطه معه، بل كان يعرف كيف يستخدم في أغراضه من يرتاب هو به، كما فعل بعمرو بن العاص الذي كان وهو والٍ على مصر لا يشعر أنه عامل من قِبَل معاوية بقدر ما كان يشعر أنه حليفٌ له (الدينورى ص ٢٣٦(٢)). وتجد أحياناً كثيرة إحصاء خدمه وأصحاب

---

(١) [يذكر المؤلف دس السم لعبد الرحمن بن خالد بيد الطبيب النصراني دون أن يصرح بأن ذلك كان بإيعاز من معاوية، ثم يقول: وظُن أن ذلك كان بإيعاز من معاوية. ولكن كيف يمكن تعليل حرص الطبيب على قتل عبد الرحمن بن خالد، وقتل خالد ابنه للطبيب نفسه بعد ذلك. مهما يكن من شيء فالحكاية موجودة عند الطبري (جـ ٢ ص ٨٢ ــ ٨٣)، وهي كما ذكرناه، ويمكن للمؤرخ أن ينقدها. على أنه جاء في كتاب الأغاني (جـ ١٥ ص ١٣) حكاية دس ابن أثال السم لعبد الرحمن وحكاية أن معاوية كان قد سأل أهل الشام فيمن يستخلفه عليهم، فقالوا: عبد الرحمن بن خالد، فسكت معاوية وأضمرها في نفسه. وقد حرص معاوية على قتل مالك الأشتر، فقتله عامل خراج نصراني في مصر بدس السم له أيضاً ــ المترجم].

(٢) [كتب معاوية إلى عمرو يطلب ــ نظراً لكثرة النفقات التي لا بد له منها ــ أن يعينه بخراج مصر، فأجابه عمرو في أبيات شعرية: أنه لم يأخذ مصر لا ميراثاً ولا ولاية، بل بشرط، يقصد بطبيعة الحال اتفاقه مع معاوية على أن تكون له مصر طعمة، نظير مساعدته لمعاوية على عليّ بن أبي طالب ــ المترجم].

ثقته[١]، ومعظمهم يبدون رجالاً جُدُداً (homines novi)، وكان معاوية يشاورهم، معتبراً إياهم مستشاريه (σύμβουλοι) ومعتبراً نفسه المستشار الأول (πρωτοσύμβουλος)[٢] وعند الطبري (ج ٢ ص ١٤٦ فما بعدها) مثالٌ على ذلك. وقد كانوا يستطيعون أن يعارضوه، وهم فعلوا ذلك أيضاً (الطبري ج ٢ ص ١٤٤ و١٨٥) ولكن معاوية كان لا يدع الزمام يخرج من يده، وكان يعرف كيف يهذِّب من يمنحهم شيئاً من الحرية: وكانت لا تغضبه خشونةُ الناس ولا ظهورهم بالانفعال المُسْرِف. وكانت شيمته هي شيمة السيد العربي، من الطراز القديم. ولم يهبه الله الشجاعة العسكرية، وإن كان لم يزل يوجِّه أهل الشام لقتال الروم قتالا لم ينقطع. وبمقدار حرمانه من الشجاعة العسكرية توفّرت له صفات أخرى من صفات السيد في أعلى صورها: اللين الحكيم الذي كان يستطيع به أن يُجَرِّد الخصم من سلاحه وأن يُخْزِيَه، والحلم الكامل، وضبط النفس في أكمل صورة. وتروى حكايات لا تحصى في تصوير معاوية، هو والأحنف بن قيس التميمي، مثلا أعلى لهذه الصفات. وكان الأحنف معاصراً لمعاوية، وكان معاوية يقدره تقديراً عظيما. فقد كان معاوية في جوهر أمر رجلا دبلوماسياً وسياسياً، وكان يترك الأمور حتى تنضج، ولم يكن يتعجلها إلا في بعض الأحيان، وربما استعمل دس السم في الوصول إلى ما يريد. ولم يكن ينكر أن أصله من طبقة التجار،

---

(١) الطبري ج ١ ص ٣٢٧٢ و٣٣٦٠ وج ٢ ص ١٣٩ و١٩٧ و٢٠٥ وكتاب الأغاني ج ١ ص ١٢.

(٢) نجد عند تيوفانيس (في أخبار سنة ٦١٦٩) هذه العبارات Μαυίας καὶ οἱ συμβουλοι αὐτοῦ (معاوية ومستشاروه) (وفي أخبار سنة ٦١٧١) Μαυίας ό τῶν Σαρακηνῶν πρωτοσύ μβουλος (معاوية المستشار الأول للعرب). وقد انتقلت هذه التسمية إلى ما بعد أن فقدت مبررها بزمن طويل، حتى وصلت إلى الخلفاء العباسيين. ونجد عند تيوفانيس (في أخبار سنة ٦١٦٥) لقباً خاصاً ό δεύτερος ἀδελφός (الأخ الثاني). وكان حاجب (Majordomus) ملك النبط يسمى أخاه. وكان بعض كبار موظفي السلوقيين يسمون أبناءهم، فإذا كان هناك أكثر من أخ كان هناك ترتيب في الدرجة.

وكان لا يلجأ إلى القوة إلا كارهاً. وقد استولى على العراق، وهو لم يصل إلى ذلك من طريق فتحها بأكثر مما وصل إليه من طريق شرائها. وكان إذا استطاع أن يصل إلى غرضه بالمال لم يبخل به ولكنه كان لا يعطى شيئاً بدون غرض، وربما كان يجد شيئاً من المتعة في أن يخيب أمل من يطمع منه في كرم لا يعرف التمييز أو من يظن أنه يستطيع أن يخدعه. وفي رواية عن الشعبي، وهو من أقدم الرواة، عن قبيصة بن جابر الأسدي أنه قال: صحبت معاوية، فما رأيت رجلاً أحب رفيقاً ولا أشبه سريرة بعلانية منه، وكان إذا استمع اتكأ ووضع إحدى رجليه على الأخرى وكسر عينه. ورغم أنه كان طويلاً مُسْمِناً، فإنه كان يبدو في عين العرب جميلاً مهيباً إذا لبس عمامته السوداء واكتحل[١]. ويقول الواقدي إنه توفي يوم الخميس للنصف من رجب سنة ٦٠هـ وهو يوافق ١٨ يوليه سنة ٦٨٠ م ويقول إلياس النصيبي (Elias Nisibenus) إن يزيد ابنه تولى الخلافة يوم الجمعة منتصف رجب. أما أبو مخنف (الطبري جـ ٧ ص ٢١٦) فيقول إن ذلك كان في هلال رجب. ويذكر أبو معشر أن مدة حكمه تسعة عشر عاماً وثلاثة أشهر؛ ويزيد الواقدي على ذلك سبعة وعشرين يوماً. ودُفِن عند الباب الصغير في دمشق، وكان على قبره بيت مبنيّ. وظل يزار قروناً، وكان قبره يفتح للزيارة كل يوم اثنين وخميس[٢].

٢ ــ ولما مات معاوية كانت مسألة من يخلفه مُنْذِرةً بالمتاعب، كما هو

---

(١) [يجد القارئ الكثير مما يرجع إليه كلام المؤلف هنا عن معاوية والكثير من أخبار في كتب التاريخ، خصوصاً عند الطبري جـ ٢ ص ٢٠٥ ــ ٢١٦ والمسعودي في المروج جـ ٢ ص ٥٤ فما بعدها من طبعة القاهرة ١٣٤٦هـ، وفي التنبيه ص ٣٠٢ من الطبعة الأوربية، وابن الأثير جـ ٤ ص ٢ فما بعدها من الطبعة الأوروبية. وراجع فهرس الأغاني والكامل للمبرد ــ المترجم].

(٢) المسعودي جـ ٥ ص ١٤. وقد لجأ الكميت الشاعر من غضب الخليفة هشام إلى قبر ابنه معاوية [أي معاوية بن هشام لا معاوية بن أبي سفيان كما يظن المؤلف ــ المترجم] (الأغاني جـ ١٥ ص ١١٥ و١١٧ و١٢١).

الحال دائماً. وقد عمل معاوية، خلافاً لمن تقدمه، على أن يذلِّل المصاعب قبل ظهورها، وكما أنه هو لم يربط أشراف العرب بنفسه إلا من طريق البيعة التي أخذها لنفسه منهم أنفسهم، فإنه أراد أن يضعها، وهو ما يزال حياً، في أعناقهم لولده يزيد ليكون خليفة من بعده؛ ولكنهم، فيما عدا أهل الشام بطبيعة الحال، كانوا يأملون أن يُلْقُوا بعد موته النيرَ من على أعناقهم. وزعموا أنه بإرادته جعل الحكم وراثياً من الأب لولده، على ما هو معروف عند الساسانيين والروم[١]، إنما يرتكب بدعة منكرة. على أنه وإن كانت الرياسة عند العرب تورث في داخل نطاق القبيلة أو العشيرة، فإنها ليست وراثية في أفراد البيت الواحد من الأب إلى الولد. أما بحسب الإسلام، فليست الرياسة لبني الإنسان على الإطلاق، بحيث يدّعون الحق في وراثتها. ورغم هذا، فإن الضوضاء التي قامت حول ذلك لم تكن في حقيقة الحال مطابقة لسببها المزعوم، وذلك أن حق الأمير في أن يعين من يخلفه بعد وفاته كان مقرراً، وحتى إذا كان الابن ليس هو صاحب الحق في ذلك فإنه لم يكن بحال من الأحوال محروماً منه فأما الذي يظهر أنه لم يكن موجوداً فهو البيعة مقدماً قبل وفاة الخليفة. ولكن المسلمين كانوا إذ ذاك في أوائل تاريخهم ولم يكن ثَمَّ سنّةٌ مقررةٌ في هذا الباب على الإطلاق، ولم يكن هناك أن نظام مقرّر لوراثة الخلافة.

أما روايةُ ما فعله معاوية، وهو ما نجده عند ج. ڤايل (G.Weil) وا. موللّر (A. Müller)، فهو موجود عند ابن الأثير (ج ٣ ص ٤١٧ فما بعدها) على هذا النحو: كان ابتداءُ أخذ البيعة ليزيد قد جاء من قِبَل المغيرة بن شعبة، وكان قَصْدُ المغيرة في الحقيقة سيئاً. فقد أبلغه ابن معاوية يريد عزله عن الكوفة، فرأى أن يشخص إلى معاوية ويستعفيه، لتظهر لمعاوية كراهتُه للولاية ولكي يستريب

---

(١) إن الأبيات المذكورة عند المسعودي (ج ٥ ص ٧١) تذكر بالأبيات التي قالها الحطيئة ضد أبي بكر.

معاوية من خروجه منها، فيبقيه في منصبه. ثم دخل المغيرة على يزيد ففاتحه في وجوب عقد البيعة له، وحدّث يزيد أباه بذلك، فأحضر المغيرةَ وسأله، فعرض الفكرةَ، وراقت الفكرةُ معاوية، فأمره معاوية أن يرجع إلى عمله ويتحدث مع من يثق إليه في ذلك. فلما عاد المغيرة إلى الكوفة قال لمن كان ينتظر نتيجة سعيه للبقاء في الولاية: «لقد وضعتُ رجل معاوية في غَرْزٍ بعيد الغيّ على أمة محمد، وفتقت عليهم فتْقاً لا يُرْتَق أبداً». ولكن لم يلبث أن جاء إلى دمشق وفدٌ من رجال الكوفة: كان المغيرة قد أعطاهم شيئاً من المال، يطالبون بعقد البيعة ليزيد[١]. ولكن معاوية آثر الأناة وكتب إلى زياد يستشيره، فاستشار زيادُ عُبَيْدَ بن كعب النميري، وقال له: إن أمير المؤمنين كتب إلى أنه قد عزم على بيعة يزيد، وهو يتخوّف نَفْرة الناس. ويزيدُ صاحبُ رسلةٍ وتهاوُن مع ما قد أُولع به الصيد. ثم طلب زيادُ من عبيد بن كعب أن يَلْقَى معاوية ويخبره عنه بأحوال يزيد ويوصيه بالأناة في الأمر، فإن ذلك أجدر أن يحقّق لمعاوية ما يريد. فقال له عبيد: لا تُفْسِدْ على معاوية رأيَه ولا تُمْقِتْ إليه ابنَه! واقترح عبيد أن يلقى يزيد سرّاً وينصح له بترك ما ينقم عليه الناس من أجله، حتى تستحكم الحجة لمعاوية عليهم. وأراد عُبَيْدٌ بذلك أن يرضى معاويةَ وأن ينصح ليزيد. وقد قبل زياد هذه المشورة وعمل بها، فبعث عبيدَ بن كعب إلى دمشق، وكتب هو إلى معاوية يقترح عليه التُّؤَدة. على أن معاوية لم يكشف عن نيته إلا بعد موت زياد، وبدأ باستطلاع الجوّ في المدينة، وعلى عاصمة الإسلام الأولى التي كانت لا تزال تعتبر المكان الحقيقي للبيعة، وخصوصاً أن كبار المسلمين

---

(١) [جاء على رأس الوفد موسى بن المغيرة أو أخوه عروة. فقاموا خطباء وتكلموا معربين عن حرصهم على وحدة أمة محمد وعما يجب على معاوية، وقد كبر، من تعيين خلف له، لكي لا ينتثر عقد الأمة، ثم أشاروا بيزيد. وسأل معاوية موسى أو عروة، بعد أن تكلموا: بكم اشترى أبوك من هؤلاء دينهم؟ قال: بكذا، قال معاوية: لقد وجد دينهم عندهم رخيصاً ــ المترجم].

الذين كان لا بد أن تُؤخذ منهم البيعة قبل غيرهم كانوا يسكنون فيها. فكتب معاوية إلى مروان بن الحكم، عامله على المدينة: إني قد كَبِرتُ سنّي ودقّ عظمي وخشيت الاختلافَ على الأمة بَعْدي؛ وقد رأيتُ أن أتَخَيَّر لهم من يقوم بعدي وكرهتُ أن أقطع دون مشورة مَن عِنْدَك، فاعرضْ ذلك عليهم واعلمني بالذي يردّون عليك. فلما عرض مروانُ عليهم الأمر قالوا: أصاب وَوُفِّق، وقد أجَبْنا أن يتَخَيّر لنا، فلا يألو. وكتب مروان إلى معاوية بما قالوه، فردّ معاوية عليه، وذَكَرَ عَزْمَه على اختيار يزيد خليفة بعده. فلما أبلغ مروانُ كبارَ أهل المدينة بدأت مظاهر الاعتراض والنقد من جانبهم، وكان الاعتراض آتيــاً من قِبَلِ أبناء كبار الصحابة خاصةً، كالحسين بن علي وعبد الله بن عمر وعبد الرحمن بن أبي بكر[١] وعبد الله بن الزبير. ولكن معاوية لم يتراجع عما أراد، فكتب إلى عماله أن يوفدوا الوفودَ من ذوى النباهة من جميع الأمصار إلى دمشق، وخطب فيهم مُعَظِّماً أمرَ الإسلام ومتكلماً بوجه عام في حُرْمَةِ الخلافة وحقِّها وفيما يجب على الرعية من طاعة أولى الأمر، ثم ذكر فضل يزيد وصفاتهِ وعلمَه بالسياسة وعرّض بيعته. وكان معاوية قد أوعز من قبل إلى رَجُل منهم لكي يتكلم بعده ويدعوه إلى بيعة يزيد ويحثُّه عليها. فقام الضحاك بن قيس الفهري وغيره، فتكلموا وخلصوا إلى الغاية التي عرّضَ بها معاوية دون أن يصرّح بها، وطالبوا بأخذ البيعة ليزيد. ولم يتّئد منهم إلا الأحنف بن قيس، فتكلم مُعَبّراً عن ارتيابه[٢]. ولكن الذهب محى ما كان لكلامه

---

(١) [لما أبلغ مروان بن الحكم كبار أهل المدينة عن معاوية أنه اختار فلم يأل وأنه عزم على استخلاف يزيد بعده، قال عبد الرحمن بن أبي بكر: كذبتَ والله يا مروان، وكذب معاوية! ما الخيار أردتما لأمة محمد، ولكنكم تريدون أن تجعلوها هرقلية، كلما مات هرقل قام هرقل ــ المترجم].

(٢) [تكلم من تكلم منهم في وجوب صَوْن وحدة الأمة من الفُرقة وسفك الدماء وفي صفات يزيد، غير الأحنف بن قيس فإنه لما سأله معاوية: ما تقول؟ أجاب: نخافكم إن =

من أثر. وتلقى يزيد بيعة الوفود، ولم تبق إلا بيعة أهل الحجاز. فركب معاوية بنفسه إلى هناك في ألف فارس، فلما وصل إلى المدينة خرج النَّفرُ الممتنعون الذين كان يَهُمُّه أن يأخذ البيعة منهم خاصةً، فيمن خرج للقائه؛ فاستقبلهم بكلام شديد جارح، فخرجوا إلى مكة. فسار وراءهم، فلما خرجوا للقائه بمكة كلمهم كلاماً ليناً رقيقاً وأكرمَهم ووصل كلاًّ منهم بصلات. ولكنه لم يستطع أن يبلغ ما أراد إلا آخر الأمر عندما قُرب مسيرُه إلى الشام. وقد حاول أن يبين لهم أنه لا يضيرهم كثيراً أن يكون يزيد خليفةَ من حيث الاسم، وأن يكونوا هم الذين يتمتعون بالحكم من حيث الحقيقة والواقع. فسكتوا طويلاً، وتكلم ابن الزبير آخر الأمر ورفض باسمهم جميعاً ما يريده معاوية منهم[1]. عند ذلك قال معاوية: «إني قد أحببتُ أن أتقدم إليكم، إنه قد أعذر من أنذر، إني كنت أخطبَ منكم؛ فيقومُ إليّ القائم منكم، فيكذّبني على رؤوس الناس، فأحملُ ذلك وأصفح، وإني قائم بمقاله، فأقسم بالله لئن ردّ عليّ أحدٌ كلمةً في مقامي هذا، لا ترجع إليه كلمةٌ غيْرُها حتى يسبقَها السيفُ إلى رأسهِ فلا يبقينَّ رجلٌ إلا على نفسه»، ثم دعا صاحبَ حرسه بحضرتهم، فقال: «أقمْ على رأس كل رجل من هؤلاء رجُلين، ومع كل واحد سيفٌ، فإن ذهب رجلٌ منهم يردُّ عليّ كلمةً بتصديق أو تكذيب فليَضرْباه بسيفهما!». ثم خرج؛ وخرجوا معه حتى رقى المنبر، فحمد الله وأثنى عليه ثم قال: «إن هؤلاء الرهط، سادة المسلمين وخيارهم ولا يُبْتزّ أمرٌ دونهم ولا يُقضَى إلا عن مشورتهم، وإنهم قد رضوا وبايعوا ليزيد، فبايعوا على اسم الله، فبايع الناس عند ذلك، وكانوا يتربصون بيعة أولئك النفر». وسكت الأربعة الكبار خوفاً على أنفسهم

= صدقنا ونخاف الله إن كذبنا! وأنت يا أمير المؤمنين أعلم بيزيد في ليله ونهاره وسره وعلانيته ومدخله ومخرجه، فإن كنت تعلمه لله تعالى وللأمة رضىً، فلا تشاور فيه؛ وإن كنت تعلم فيه غير ذلك فلا تزوّده الدنيا وأنت صائر إلى الآخرة، وإنما علينا أن نقول: سمعنا وأطعمنا ــ المترجم].

(١) انظر ما يلي ص ١٤٠ ــ ١٤١ هامش.

من القتل، وأقروا معاوية على كذبه؛ فخرج معاوية إلى المدينة وأخذ فيها أيضاً البيعة ليزيد.

هذه روايةٌ مصنوعة صُنعاً ماهراً. أما ما يروى من أن المغيرة كان أول من بعث فكرةَ مبايعةِ يزيد، وأن عبيد بن كعب النميري أشار على زياد بأن لا يعارض معاوية، فإن المدائني يحكيه لنا أيضاً، وحكايته موجودة عند الطبري (جـ ٢ ص ١٧٣ فما بعدها) في حوادث السنة التي يذكرها ابن الأثير. أما فيما يتعلق باجتماع وفود الأمصار عند معاوية لمبايعة يزيد فلا نجد عند الطبري من ذلك شيئاً، وهو لا يذكر (جـ ٢ ص ١٩٦) إلا مجيء وفد من البصرة على رأسه عبيد الله بن زياد، وأن معاوية أخذ من الوفد البيعة لابنه يزيد، ولكن الطبري يذكر ذلك في حوادث سنة ٦٠هـ، وهي السنة التي مات فيها معاوية. ويظهر أن حكاية مجيء هذا الوفد البصري صارت فيما بعد حكاية أعمّ، فأصبحت تذكر بالنسبة لوفود أخرى، وقدِّم تاريخُها.. ونجد ما يدل على مرحلة الانتقال إلى هذا التعميم عند المسعودي[1]. أما الحادث الجوهري الطريف الذي تصل فيه رواية ابن الأثير إلى ذروتها، أعني ظهور معاوية بنفسه بهذا المنظر العنيف في الحجاز، فهو مجهول تماماً في الروايات القديمة[2] (ولا يعرفه المسعودي أيضاً). ولا نجد عند الطبري (جـ ٢ ص ١٧٥ نقلا عن المدائني) أكثر من أن معاوية بعد وفاة زياد دعا بكتاب فقرأه على الناس باستخلاف يزيد، إنْ حدث به حَدَثُ الموت، فيزيد ولي العهد؛ فاستوثق له الناس على البيعة ليزيد غير خمسة نفر[3]؛

---

(١) جزء ٥ ص ٦٩، ويذكر أن ذلك كان في سنة ٥٩هـ. ويجب تصحيح كلمة: الأنصار، في كلام المسعودي، بجعلها: الأمصار.

(٢) [على أنه عند الطبري (جـ ٢ ص ١٧٥ ــ ١٧٧) رواية موجزة تدل بلا شك على أن معاوية قدم الحجاز وتكلم مع النفر الممتنعين عن بيعة يزيد، مع كل منهم على حدة، في البيعة ليزيد. وهذه الرواية تصور دهاء معاوية، لأنه أفهم كلا منهم أنه معارض وأنه يتزعم الآخرين وحصل منه على الوعد بالبيعة إن هم بايعوا ــ المترجم].

(٣) الخامس ابن عباس؛ وكان لا بد من أخذ البيعة منه. والمدائني من الموالين المخلصين لبني هاشم.

ولا يُذْكَر مكان قراءة هذا الكتاب، ولا يذكر زمانه، لأن عبارة: بعد وفاة زياد، لا تدل إلا على مجيء حادث بعد حادث، والغالب أن ذلك حدث في دمشق. وعند الطبري (ج ٢ ص ١٩٦)، إلى جانب ما تقدم، أن معاوية في سنة ٦٠هـ أخذ بيعة وفد البصرة ليزيد[1]، وعهد إليه بما يجب عليه أن يصنع بالنفر القرشيين الأربعة الذين امتنعوا عن البيعة[2]. ويحكى عوانة أن معاوية أوصى بما عهد به، وكان يزيد غائباً، إلى الضحاك بن قيس الفهرى ومسلم بن عقبة المرّى. فنستطيع على هذا أن نفترض أن معاوية حفظ خطّتَه زماناً طويلاً في نفسه، وحاول في أواخر حياته تنفيذها: ولكن ذلك لم يُجْدِ نَفْعاً عند الأشخاص الذين كان الحصول على موافقتهم وبيعتهم أهم ما في الأمر، ذلك لأنهم، بحسب

(١) [قدم هذا الوفد مع عبيد الله بن زياد كما تقدم ــ المترجم].

(٢) [قال معاوية في وصيته لابنه: «يا بني إني قد كفيتك الرحلة والترحال ووطأت لك الأشياء، وذللت لك الأعداء، وأخضعت لك أعناق العرب، وجمعت لك ما لم يجمعه أحد. وإني لا أتخوف أن ينازعك هذا الأمر الذي استتب لك إلا أربعة نفر من قريش: الحسين بن علي وعبد الله بن عمر وعبد الله بن الزبير وعبد الرحمن بن أبي بكر. فأما عبد الله بن عمر فرجل قد وقذته العبادة، وإذا لم يبق أحد غيره بايعك. وأما الحسين بن علي فإن أهل العراق لن يدعوه حتى يخرجوه، فإن خرج عليك فظفرت به فاصفح عنه فإن له رحماً ماسة وحقاً عظيماً. وأما ابن أبي بكر فرجل إن رأى أصحابه صنعوا شيئاً صنع مثلهم، ليس له همة إلا في النساء واللهو. وأما الذي يجثم لك جثوم الأسد ويراوغك مراوغة الثعلب فإذا أمكنته فرصة وثب، فذاك ابن الزبير؛ فإن هو فعلها بك فقدرت عليه فقطِّعْه إرباً إرباً» (الطبري ج ٢ ص ١٩٦ ــ ١٩٧). ونجد عند الطبري وصية معاوية لابنه في صورة أخرى نقلا عن عوانة (ج ٢ ص ١٩٧ ــ ١٩٨). وفيها يوصيه بإكرام أهل الحجاز وبالاستجابة لأهل العراق كلما طلبوا عزل وال، ولو طلبوا ذلك كل يوم، تفاديا للثورة من جانبهم، وبأن يتخذ أهل الشام بطانة وعدة لنفسه، لينتصر بهم، وبأن يرجعهم إلى الشام إذا انتصر على عدوه لكيلا يأخذوا بغير أخلاقهم. ثم يعرب معاوية عن خوفه من قرشيين ثلاثة: الحسين بن علي وهو رجل خفيف يرجو معاوية أن يكفيه الله يزيد بمن قتل أباه وخذل أخاه، يعني أهل العراق، ويوصى معاوية ولده بمراعاة حقه ورحمه الصفح عنه؛ وعبد الله بن عمر، وهو رجل قد وقذه الدين، فليس ملتمساً شيئاً؛ وعبد الله بن الزبير، وهو خب ضب، لا بد من الترصد له، إلا أن يلتمس صلحاً. ويوصى معاوية ولده أن يقبل منه الصلح، وأن يحقن دماء أهل الشام ما استطاع ــ المترجم].

الإسلام، كانوا أحق بالخلافة من يزيد. أما ما عدا ذلك فليس بمقبول قط[١]، ولا يبدو أنه مما يتفق مع شيمة معاوية، وهو السيد الحليم ذو السنّ، أن يذهبَ إلى الحجاز في فترة يسود فيها السلام، على رأس ألف فارس لكي يعامل القرشيين الأربعة تلك المعاملة الفظّة، ثم يدلّلهم ويتودد إليهم، ثم يأخذهم بالعنف آخر الأمر[٢]، ولا يصل بعد ذلك كله إلى شيء في الحقيقة: لأنهم هم أنفسهم ــ وكانوا أهم من كل من عداهم ــ رفضوا بيعة يزيد رفضاً باتاً. أما القولُ بأنه دخل مكة على رأس قوة مسلّحة، وفي مكة لا في المدينة أخذ البيعة، فهو قول أبعد ما يكون عن الإمكان. والكلمات والمناظر المسرحية التي قد زُيّنت بها القصة لا تجعلها أقرب إلى التصديق. ويبدو أن كل الرواية التي تقدم ذكرها لا تعدو أن تكون ظلاً قد أُرسل مقدماً للحوادث التي وقعت في أول خلافة يزيد، وسننتقل إلى الكلام عنها.

---

(١) [راجع ما تقدم ذكره من أن الطبري يحكى ما يدل على ذهاب معاوية إلى الحجاز وكلامه مع النفر الممتنعين. والشك جائز في مظهر العنف الذي يحكى ابن الأثير أنه ظهر به معاوية في الحجاز. والذي يتحصل مما عند الطبري وما عند ابن الأثير: هو أن معاوية قدم إلى الحجاز، وأنه تكلم مع النفر الممتنعين، لكن ابن الأثير ينفرد بحكاية التدخل العنيف ــ المترجم].

(٢) [يذكر ابن الأثير أن معاوية لما دنا من المدينة لقيه الحسين بن علي أول الناس، فلما نظر إليه قال: لا مرحباً ولا أهلاً، بدنة يترقرق دمها، والله مهريقه، فقال الحسين: مهلا، فإني والله لست بأهل لهذه المقالة، فقال معاوية: بلى ولشر منها. ولقيه ابن الزبير. فقال: لا مرحباً ولا أهلاً، خب ضب، يدخل رأسه ويضرب بذنبه، ويوشك والله أن يؤخذ بذنبه... ثم لقيه عبد الرحمن بن أبي بكر، فقال له معاوية: لا أهلا ولا مرحباً، شيخ قد خرف وذهب عقله. ثم فعل بابن عمر مثل ذلك. فأقبلوا معه، لا يلتفت إليهم، حتى دخل المدينة، فحضروا بابه، فلم يؤذن لهم، على منازلهم، ولم يروا منه ما يحبون، فخرجوا إلى مكة وأقاموا بها... ثم خرج معاوية إلى مكة، فلقيه الناس، فقال أولئك: نتلقاه، فلعله قد ندم على ما كان منه... فكان أول من لقيه الحسين، فقال له معاوية: مرحباً وأهلا يا ابن رسول الله وسيد شباب المسلمين، وأمر له بدابة فركب وسايره، وفعل معاوية مثل ذلك بالباقين، وأقبل يسايرهم، لا يسير معه غيرهم، حتى دخل مكة، فكانوا أول داخل وآخر خارج، ولا يمضي يوم إلا ولهم صلة... حتى قضى معاوية نسكه وحمل أثقاله، وقرب مسيره، فقال بعض أولئك النفر لبعض: لا تخدعوا، فما صنع بكم هذا لحبكم. وما صنعه إلا لما يريد، فأعِدّوا له =

يحكى أبو مخنف (الطبري ج ٢ ص ٢١٦ فما بعدها) أن يزيد بعد أن تولّى الخلافة هلالَ رجب سنة ٦٠هـ كتب إلى الوليد بن عتبة بن أبي سفيان أمير المدينة، يخبره بموت أبيه، وأمره في هذا الكتاب[١]، الذي كان صغيراً حتى كأنه أُذُن فأرةٍ، بأن يأخذ الحسين بن علي، وعبد الله بن عمر، وعبد الله بن الزبير ــ ولا يذكر في خطاب يزيد إلا هؤلاء الثلاثة ــ بالبيعة أخذاً شديداً ليست فيه رخصةٌ، حتى يبايعوا. فاستشار الوليدُ مروانَ بن الحكم، رغم أن ما بينهما كان متباعداً، فأشار مروان بالمبادرة إلى دعوة النفر الممتنعين، خصوصاً الحسين وابن الزبير، إلى البيعة والدخول في الطاعة؛ فإن فعلوا قُبل ذلك منهم، وإن أبَوْا قُدِّموا فضُرِبتْ أعناقُهم قبل أن يعلموا بموت معاوية؛ فإنهم إن علموا به من غير مبايعة وثب كل مرئ منهم في جانب وأظهر الخلاف والمنابذة ودعا إلى نفسه. أما عبد الله بن عمر فلم يعتبره مروان مصدرَ خطر، ورأى أنه يظن أنه لا يميل إلى القتال، وهو لا يحب أن يُولّى على الناس إلا أن

= جواباً، واتفقوا على أن يكون المخاطب له ابن الزبير، فأحضرهم معاوية وقال: «قد علمتم سيرتي فيكم، وصلتى لأرحامكم، وحمل ما كان منكم. ويزيد أخوكم وابن عمكم، وأردت أن تقدموه باسم الخلافة، وتكونوا أنتم تعزلون وتؤمِّرون وتجبون المال وتقسمونه، لا يعارضكم في شيء من ذلك» فسكتوا، فقال «ألا تجيبون؟» مرتين، ثم أقبل على ابن الزبير فقال له: هات! لعمري إنك خطيبهم، فقال ابن الزبير: «نخيّرك بين ثلاث خصال... تصنع كما صنع رسول الله صلعم، أو كما صنع أبو بكر، أو كما صنع عمر»، قال معاوية: ما صنعوا؟ قال: قبض رسول الله صلعم ولم يستخلف أحداً، فارتضى الناس أبا بكر. قال معاوية: «ليس فيكم مثل أبي بكر، وأخاف الاختلاف»، قالوا: «صدقت، فاصنع كما صنع أبو بكر، فإنه عهد إلى رجل من قاصية قريش، ليس من بني أبيه، فاستخلفه، وإن شئت فاصنع كما صنع عمر، جعل الأمر شورى في ستة نفر، ليس منهم أحد من ولده ولا من بني أبيه»، قال معاوية: هل عندك غير هذا؟ قال: لا، ثم قال، فأنتم؟ قالوا: قولنا قوله، قال: فإني قد أحببتُ... الخ كما في ص ١٣٧ مما تقدم ــ المترجم].

(١) [يؤخذ من الطبري: ج ٢ ص ٢١٦، أن يزيد كتب عدا الكتاب الذي فيه نعى أبيه للوليد، صحيفة أخرى خاصة بأخذ البيعة من الثلاثة القرشيين ــ المترجم].

يُدْفَعَ إليه هذا الأمر عفواً[١]. ولكن الوليد كان رجلاً يحبّ العافية، فأرسل الوليد يدعو الحسين وابن الزبير في ساعة لم يجلس فيها للناس، فصرفا رسوله، وتكلما فاستنتجا أن معاوية قد مات، وأن الوليد يدعوهما للبيعة قبل أن يفشو في الناس خبرُ موت الطاغية. ثم ذهب الحسين إلى الوليد فأقرأه الوليد كتاب يزيد ودعاه إلى البيعة، فقال الحسين: إن مثله لا يعطى بيعته سراً، بل على رؤوس الناس علانيةً، واقترح على الوليد أن يخرج ويدعو الناس إلى البيعة ويدعوه إليها معهم، فرضى الوليد بذلك. وأراد مروان أن يقنع الوليد بحبس الحسين حتى يبايعَ أو يضربَ عنقه، فأبى الوليد ذلك واستقبحه. أما ابن الزبير فإنه لما بعث إليه الوليد جعل يتلكأ، حتى خرج من المدينة ليلاً. فبعث الوليد إلى الحسين، فاستمهل الرسل حتى الصباح، ثم خرج من المدينة في الليل، بعد ابن الزبير بليلة، وذهبا إلى مكة في آخر رجب سنة ٦٠هـ (أول مايو سنة ٦٨٠ م). على أن الواقدي (الطبري جـ ٢ ص ٢٢٢ فما بعدها) يحكى أن ابن عمر لم يكن في المدينة لما ورد نعى معاوية، وأنه لما عاد إليها انتظر حتى جاءت البيعة من البلدان، فقدم إلى الوليد وبايعه، وكذلك فعل ابن عباس، وكان الرأي هو أن تجتمع كلمة الأمة اجتماعاً حقيقياً.

وطبيعي أنه لم يلبث أن عُزل الوليد بن عتبة عن المدينة، فحل محله أمويٌّ آخر، هو عمرو بن سعيد بن العاص، وكان حتى ذلك الحين لا يزال بمكة. ويحكى

---

(١) [كان معاوية صادق النظر في ابن عمر عندما قال إنه رجل قد وقذته العبادة، فليس ملتمساً شيئاً. وفي الطبري (جـ ٢ ص ٢٢٣) أنه لقى الحسين وابن الزبير، وهما في طريقهما إلى مكة، فسألهما: ما وراءكما؟ فقالا: موت معاوية والبيعة ليزيد، فقال لهما: اتقيا الله ولا تفرقا كلمة المسلمين. وجاء في كتاب الأغاني (جـ ١ ص ١٢) أن ابن الزبير وسّط صفية زوجة ابن عمر لدى زوجها لكي يبايع ابن الزبير فقال ابن عمر لزوجته لما أكثرت الكلام في ابن الزبير وأنه إنما انشق على بني أمية غضبا لله ورسوله والمهاجرين: أما رأيتِ بغلات معاوية الشهب التي كان يحج عليهن فإن ابن الزبير ما يريد غيرهن. وكان ابن عمر حريصا على جمع كلمة الأمة ومستعداً لمبايعة يزيد إذا بايعه الناس ــ الطبري جـ ٢ ص ٢٢٢ ــ المترجم].

الواقدي أن ذلك وقع في رمضان سنة ٦٠هـ، ويروى آخرون غير الواقدي أنه وقع في ذى القعدة (الطبري جـ ٢ ص ٢٢٦).

ورضى الحسين أن يستخرجه أهل الكوفة من مأمنه في مكة[١]، وذلك أنهم أَلَحّوا عليه بالكتب والرسل في أن يقدم إليهم ويتقبل بيعتهم، ووصل إليه أول رسلهم بكتاب منهم في العاشر من رمضان سنة ٦٠هـ. فأرسل ابنَ عمه مسلم بن عقيل قبل أن يذهب هو، وذلك لكي يرى صدق ما كتبوا به له ولكي يمهد له الأمر. ولم يلبث حين وصل أن دبّ إليه أهل الكوفة وبايعه منهم عدد كبير (اثنا عشر ألفاً)، ولكنه لما وجد نفسه، قبل أن يستحكم له الأمر، مضطراً إلى قتال عبيد الله بن زياد — وكان يزيد قد عينه والياً جديداً على الكوفة مكان النعمان بن بشير الذي عزل، لأنه كان حليماً ناسكاً يحب العافية ويكره العنف — نادى بشعاره، فاجتمع له من أهل الكوفة أربعة آلاف، وقصد القصر الذي فيه عبيد الله بن زياد، وكان عبيد الله قد جمع وجوه أهل الكوفة عنده، فلما وصل مسلم إلى القصر، ومعه أنصاره من أهل الكوفة، أشرف وجوه أهل الكوفة على عشائرهم وجعلوا يُكَلِّمونهم ويصرفونهم عن مسلم. فأخذ أصحابه يَتَسَلَّلُون من حوله، حتى أمسى ومعه خمسمائة، فلما اختلط الظلام ذهبوا أيضاً، وبقى وحده يَتَردَّد في الطرق. ثم آوته امرأةٌ كان ابنها مولى لمحمد بن الأشعث، فعرف أمرَه، وانطلق إلى ابن الأشعث، فأخبره بأمر مسلم. وبعث عبيد الله صاحب شرطته ومعه رجاله، فأحاطوا بالدار، فخرج إليهم مسلم وقاتلهم قتال الأبطال وردَّهم مرتيْن، وهو يقول:

---

(١) [راجع فيما يتعلق بهذا وبما يلي من مقتل الحسين الطبري، (جـ ٢ ص ٢٢٧ فما بعدها إلى ص ٣٩٠)، ومروج الذهب للمسعودي (جـ ٢ ص ٨٦ فما بعدها من طبعة القاهرة ١٣٤٦هـ) — المترجم].

أُقســم لا أُقتــل إلا حُــرّا! وإن رأيتُ المــوت شــيئاً مُرّا
كلُّ امرئ يوماً ملاقٍ شــرّا أخــاف أنْ أُكْــذَبَ أو أُغَــرّا

وبارزه من المحيطين بالدار بكير بن حمران، فجرح كل منهما صاحبه. ثم أُعطِيَ له الأمانُ، وأُخِذَ إلى عبيد الله مُجَرّداً من سلاحه، فأسلمه لبكير بن حمران، فذبحه فوق القصر ورمى رأسه إلى الأرض وألحقها بجثّته. وفعل عبيد الله مثل ذلك بعروة بن هانئ المرادى الذي كان أراد نُصْرَةَ مسلم. وأرسل عبيد الله بن زياد رأس مسلم إلى دمشق، وصُلِبَتْ جثتهُ في الكوفة، فكان أول رأسٍ أُرْسِل إلى الشام وأوّل جثة صلبت من بني هاشم. وهكذا انتهى أمره نهاية محزنة في ٨ أو ٩ من ذى الحجة، وفي نفس الوقت، في الثامن من ذى الحجة، خرج الحسين بن علي من مكة مع أهله وولده، رغم نصيحة أخيه وأهل له ألاّ يُغَرِّر بنفسه ثقةً بأهل الكوفة الذين خانوا أباه وأخاه من قبل. وكان قد شجّعه ما كتب به إليه مسلم في الشطر الأول من مهمته، يخبره ببيعة اثنى عشر ألفاً، ويطلب إليه القدوم إلى الكوفة. ولقد علم الحسين، وهو في طريقه، بالنهاية التعسة التي انتهى إليها مسلم، ولكنه رغم ذلك لم يستطع، أو هو لم يرد أن يرجع، [فقُتل وهو يُقَاتل جنود الكوفة في كربلاء على نهر الفرات في اليوم العاشر من المحرم سنة ٦١هـ (١٠ اكتوبر سنة ٦٨٠ م). وهكذا انتهت خطةُ الثورة انتهاءً مؤلماً. ولكن استشهاد الحسين كان له شأن معنوي كبير، وكان له تأثير عظيم عند الشيعة[١].

أما ابن الزبير فقد أثبت أنه أخطر من الحسين بكثير. وقد قرت عينه بخروج الحسين من مكة، لأنه تخلص بذلك من منافس أعظم منه في أعين الناس[٢].

---

(١) راجع ما كتبنا عن الشيعة Schia § 2 p. 66-71.

(٢) [راجع مثلا الطبري جـ ٢ ص ٢٧٤ ـ ٢٧٥ ـ المترجم].

وقد أشفق يزيد من أن يَجِدّ في قتال ابن الزبير، لأنه كان عائذاً بمكة، وهي المدينة الحرام التي لا يصح فيها القتالُ وسفك الدم. على أن الروايات، فيما يتعلق بمسلك يزيد إزاء ابن الزبير، ناقصة مضطربة.

ويحكى أبو مخنف (الطبري ج ٢ ص ٣٩٥ فما بعدها) في أخبار سنة ٦١هـ (وهي تبدأ في أول أكتوبر سنة ٦٨٠ م)، وهي السنة التي كان فيها عمرو بن سعيد والياً على المدينة[1]، ما يأتي:

استغلّ ابن الزبير مقتلَ الحسين للتشنيع على أهل الكوفة وعلى حكومة بني أمية وللتعريض بيزيد. وكان يبايع الناس سراً، فطالبه أصحابه أن يُظْهِرَ البيعة، خصوصاً بعد مقتل الحسين وعدم وجود منازع، فلم يرض بذلك إلا سراً؛ أما علانية فكان يظهر أنه عائذٌ بالبيت. ولما سمع يزيد بما يصنعه ابن الزبير في مكة أعطى الله عهداً ليوثقنّه في جامعة (سلسلة)، ولكنه فكر كيف يبرّ بقسمه، فأرسل إلى ابن الزبير سلسلة من فضة يضعها حول عنقه. فلما مر بها البريد على مروان بن الحكم في المدينة تمثل مروان ببيت من الشعر لكي يصوِّر قبول السلسلة دليلا على الضعف. وعلم ابن الزبير بذلك، فرد البريد ورفض السلسلة. وعلا أمره في مكة، وكاتبه أهلُ المدينة، وقال الناس إنه بعد مقتل الحسين ليس لأحد أن ينازع ابنَ الزبير، فهو الأحقُّ بالخلافة.

وفي رواية ترجع إلى الزهري (الطبري ج ٢ ص ٣٩٧ فما بعدها) أن أربعة

---

(١) لا يمكن أن تنهض رواية أبي مخنف (الطبري ج ٢ ص ٢٨٠ س ٨ وص ٣٩٧ س ٢)، وهو بالجملة وفيما يتعلق بتحديد التواريخ ليس بالقويّ، مُخالفة للتواريخ المحددة التي يذكرها الواقدي (الطبري ج ٢ ص ٢٢٣ فما بعدها وص ٣٩٩). وأبو معشر (الطبري ج ٢ ص ٣٩٥) وكاترمير (Quatremère) على صواب، خلافاً لما يقوله ڤايل (Weil 1, 325) على أنه من الجائز أن يكون عمرو بن سعيد لم يأت بعد الوليد بن عتبة مباشرة (الدينورى ص ٢٤٣ س ٢ و٣).

رُسُل، منهم عبد الله بن عضاة الأشعري وعبد الله بن مسعدة، حملوا تلك «الجامعة» المكونة من قطع من الورق (العملة الفضية). فأرسل مروانُ بن الحكم ولديه عبد الملك وعبد العزيز مع الرسل من مكة إلى المدينة، وأمرهما، إذا وصلت إلى ابن الزبير رُسُل يزيد، أن يتعرضا لابن الزبير ويتمثل أحدُهما أمامه بأبيات من الشعر تدل على أن قبوله للسلسلة علامة على الذُّل، وهي:

فَخُذْهـا، فليسـت للعـزيز بخطّةٍ   وفيهـا مقـال لامـرئ متذلـلِ
أعـامرَ إن القـوم سـاموك خطةً   ومالك في الجيران عَـذْل مُعـذِّل
أراك إذا مـا كنت للقـوم ناصحاً   يُقـالُ له بالدلـو: أدبـرْ وأقبـلِ

ففعلا؛ وفهم ابن الزبير مغزى الأبيات، فقال للغلامين؛ أخبرا أباكما:

إنى لمن نَبْعـة صُـمٍّ مكاسِـرُها   إذا تنـاوحـت القصبـاءُ والعشـرُ
فلا أليـن لغيـر الحـق أسـألُه   حتى يلينَ لضِرْسِ الماضغ الحجَرُ[١]

ويذكر وهب بن جرير أيضاً في رواية له في كتاب الأغاني (جـ ١ ص ١٢) هذين الرسولين اللذين تقدم ذكرهما. ويستطيع الإنسان أن يخلص من هذه الرواية إلى أن الكلام فيها عن الحادث نفسه، وإن كان يُحكى على نحو آخر مختلف كل الاختلاف، وإن كانت السلسلة الفضية خاصةً لا يرد لها ذِكرٌ قط. فيقول ابن جرير إن يزيد أرسل النعمان بن بشير الأنصاري في عشرة نفر ـ وهو يذكر أسماءهم[٢] ـ إلى ابن الزبير. فأخذ النعمان يُكْثِر من الخلوة بابن الزبير والحديث معه، فاغتاظ عبد الله بن عضاة من هذه الخلوة بين الأنصاري والمهاجر[٣]،

---

(١) [اضطررنا أن نوسع الترجمة هنا وأن نذكر الأبيات تحقيقاً لفائدة القارئ العربي ـ راجع الطبري جـ ٢ ص ٢٢٦، ٣٩٨ ـ المترجم]

(٢) اقرأ في الأغاني (ص ١٢ س ٥): الجذامى بدلا من: الحزامى، والسكونى بدلاً من: السلولى.

(٣) كان ابن عضاة والرسل الآخرون عرباً عاديين من قبائل البدو، أما الأنصار والمهاجرة، وهم أهل المدينة ومن هاجر من مكة إليها، فكانوا هم طبقتا الأشراف بين المسلمين.

وقال لابن الزبير يوماً إن هذا الأنصاري ما أُمِر بشيء إلا وقد أمرنا بمثله. إلا أنه قد أمِّرَ علينا، وإني والله ما أدرى ما بين المهاجرين والأنصار! فأجاب ابن الزبير: «يا ابن عضاة! ما لي ولك! إنما أنا بمنزلةِ حمامةٍ من حمام مكة، أفكنت قائلا حمامةً من حمام مكة؟» قال: «نعم! وما حرمةُ حمام مكة! يا غلام! إيتني بقوسي وأسْهُمي!..»، فأخذ سهماً، فوضعه في كبد القوس، ثم سَدَّده نحو حمامةٍ من حمام المسجد، وقال: «يا حمامة! أيشرَبُ يزيد بن معاوية الخمرَ؟ قولي: نعم! فوالله إن قلْتِ لأرْمينَّكِ يا حمامة! أتَخْلَعين يزيدَ بن معاوية وتفارقين أمةَ محمد صلى الله عليه وسلم وتقيمين في الحرم حتى يُسْتَحَلَّ بك! والله لئن فعلتِ لأرْمينَّكِ!» فقال ابن الزبير: «ويحك! أيتكلم الطائرُ؟» قال: «لا! ولكنك يا ابن الزبير تتكلم! أقسم بالله لتبايعَنَّ طائعاً أو مكرَهاً أو لتعرفَنَّ راية الأشعريين في هذه البطحاء، ثم لا أعظِّمُ من حقِّها ما تعَظِّم!»، فقال ابن الزبير: «أوَيُستَحلُّ الحَرَم؟» قال: «إنما يُحِلُّه من ألحدَ فيه!». ولم تخل قصة الحمامة من تأثير على المؤرخين المحدثين، ولكنها مجرد قصة مُزَخرفة، والفكرة التي فيها تتردد في صورة أخرى عند الطبري (جـ ٢ ص ٤٣٠)[1]. هذا إلى أن الأسماء الكثيرة التي تُذكَرُ فيها ولا تقدم أي ضمان. واسم رئيس الوفد، بوجه خاص، يبدو أنه خطأ. ومن العسير أن يكون النعمان بن بشير قد أرْسِل من قِبَل الخليفة إلى مكة قبل ذلك بعام في نفس المهمة التي كان عليه أن يؤديها في المدينة

---

(١) بينما كان الحصين بن نمير، في جند الشام، يحاصر ابن الزبير وأصحابه بمكة، مات يزيد. وعلم ابن الزبير بموته قبل أن يعلم الحصين؛ فصاح ابن الزبير بجند الشام: إن طاغيتكم قد قتل، فمن شاء منكم أن يدخل فيما دخل فيه الناس فليفعل، ومن كره فليلحق بشأمه! فغدوا عليه يقاتلونه، فقال ابن الزبير للحصين: أدن مني أحدثك! فدنا منه، فحدثه، فجعل فرس أحدهما يجفل، والجفل الروث، فجاء حمام الحرم يلتقط من الجفل، فكف الحصين فرسه عنهن، فقال له ابن الزبير: ما لك؟ قال: أخاف أن يقتل فرسى حمام الحرم، فقال له ابن الزبير: أتتحرج من هذا، وتريد أن تقتل المسلمين!؟ فقال له الحصين: لا أقاتلك، فأذن لنا نطف بالبيت، وننصرف عنك؛ ففعل، وانصرفوا.

بعد ذلك بعام. وإذا كان للمؤرخ أن يختار فإن ما يرويه أبو مخنف (الطبري ج ٢ ص ٤٠٤) أجدر بالقبول، وهو أن يزيد أرسل النعمان بن بشير إلى الناس وإلى قومه في المدينة لكي يَفثأهم عن النهوض إلى الفتنة ويدعوهم إلى المحافظة على وحدة الجماعة.

ولنكمل سلسلة الروايات بما رواه الواقدي، وهو موجود عند الطبري (ج ٢ ص ٢٢٣ فما بعدها) في أخبار حوادث سنة ٦٠هـ، وإن كان ابن الزبير لم يظهر إلا بعد وفاة الحسين في أوائل سنة ٦١هـ: كانت الرسل تجرى بين يزيد وابن الزبير في أمر البيعة، حتى إذا فرغ صبرُ يزيد حلف ألا يقبل البيعة من ابن الزبير، حتى يؤْتى به في جامعة (سلسلة) في عنقه، فمنع ابنُ الزبير أمير مكة من قبل يزيد أين يَؤُم الناس، فأمر يزيد عمْرَو بن سعيد أميرَ المدينة، أن يوجه إلى ابن الزبير جيشاً، فسأل عمرُو بنُ سعيد عمرَو بن الزبير، وكان صاحب الشرطة في المدينة: مَنْ رجلٌ نوجِّهُه إلى أخيك؟ فطلب أن يكون هو ذلك الرجل، لما كان بينه وبين أخيه من بغضاء. فبعد أن سار عمروٌ بجيش مختلط بعض الاختلاط ــ خرج فيه عرَبٌ وموالٍ لأهل المدينة ــ عسكر أمامَ مكة، وأرسل إلى أخيه عبد الله بن الزبير أن يَبرَّ يمين الخليفة، وأن يجعل في عنقه جامعةً من فضةٍ أو ذهبٍ يلبس عليها بُرْنُساً حتى لا تُرى، وأن يَشْخَص أمام الخليفة، ليؤديَ له البيعة. فلم يستجب عبد الله بن الزبير إلى ذلك، بل أمر بمهاجمة مقدمة جيش عمرو مهاجمةً مفاجِئَةً، ثم قبض على أخيه عمرو، وحبسه في سجن عارم وضربه ليقتص منه لكل من كان قد ضربهم من أهل المدينة، وهو على شرطتها، وجعل نهايته نهاية محزنة، حتى مات تحت السياط. ويؤيد صاحب الأغاني (ج ١٣ ص ٣٩ فما بعدها) والأبياتُ التي يذكرها، حكايةَ الحملة التعسة التي قادها عمرو بن الزبير؛ فهي واقعة تاريخية من غير شك. فأما إرسال السلسلة الفضية فإنه لا يبدو عنصراً منسجماً مع ما في الرواية، وحكاية إرسالها موضوعة في جملة القصة وضعاً لا يعدو أن يكون مصطنعاً؛ وهي ترجع بالأحرى

إلى محاولات المفاوضة السلمية التي وقعت قبل اللجوء إلى الوسائل العنيفة. وفي هذا الباب لا يكون الحق في جانب الواقدي، بل في جانب الرواة الآخرين.

وعُزل عمرو بن سعيد عن ولاية المدينة في أواخر سنة ٦١هـ، على أثر دسيسة من الأمويين أنفسهم[١]، لأنهم كتبوا إلى يزيد يتهمونه بالتراخي مع ابن الزبير، وأنه لو شاء لأخذه وبعث به إليه في دمشق. فسار عمرو إلى دمشق ودافع عن نفسه أمام الخليفة، وشرح له الظروف التي دعته إلى مداراة ابن الزبير، ثم حلَّ مَحَلَّه الوليدُ بن عتبة الذي كان والياً على المدينة قبله؛ والروايات متفقة على أنه حج بالناس سنة ٦١هـ، وظل والياً في أثناء سنة ٦٢هـ، في أثناء الشطر الأكبر من هذه السنة على الأقل ويحكى أبو مخنف (الطبري ج ٢ ص ٤٠٢) أن ابن الزبير عمل بالمكر في أمر الوليد بن عتبة، وذلك بأن كتب إلى يزيد بن معاوية «إنك بَعَثْتَ رجلاً أخرق، لا يتَّجِهُ لأمر رشيد، ولا يرعوى لعظة حكيم، ولو بَعَثْتَ إلينا رجلا سهل الخلق ليّن الكَنفِ رَجَوْتُ أن يَسْهُلَ من الأمور ما استَوْعر ويَجْتمِع ما تفرق، فانظر في ذلك فإن فيه صلاح خواصّنا وعوامّنا إن شاء الله! والسلام» فعزل يزيدُ الوليدَ بن عتبة، وبعثَ مكانه عثمان بن محمد بن أبي سفيان، وكان فتى غِرًّا حَدَثاً غَمْراً، لم يجرب الأمور، ولم يُحَنّكْه السنُّ ولم تُضَرِّسْه التجارب، وكان لا يكاد ينظر في شيء من سلطانه ولا عمله ويُؤخَذ من الطبري (ج ٢ ص ٤٠٥)، نقلا عن أبي مخنف أيضاً فيما يظهر (الطبري ج ٢ ص ٤٠١ فما بعدها)، أنه لم يتولَّ إلا بعد حجّ سنة ٦٢هـ. ولكن يظهر (الطبري ج ٢ ص ٣٩٩ س ١٨) أن هذا موضع شك. ومهما يكن من شيء، فإن هذا التغيير في ولاية المدينة وقع في آخر سنة ٦٢ أو في أول سنة ٦٣هـ.

وسنة ٦٣هـ (وهي تبدأ في ١٠ سبتمبر سنة ٦٨٢ م) مملوءة بأجل الأحداث،

---

(١) [راجع الطبري ج ٢ ص ٣٩٩، ٤٠٠ ـ ٤٠١ ـ المترجم].

خلافاً للسنتيْن السابقتيْن لها. فيحكى أبو مخنف[١] أن الوالي الجديد أرسل من المدينة إلى يزيد وفداً من أهل المدينة، من أشراف الأنصار والمهاجرة على سواء، وكانوا من ذوى الكلمة المسموعة عند الناس، ولم تكن أهواء أهل المدينة مع ابن الزبير بصفة حاسمة، ولكنها لم تكن مع بني أمية على كل حال. وكان والي المدينة يأمل أن يستطيع يزيد ضمَّهم إلى جانبه بفضل ما للمال من قوة الإقناع. ولقد أكرمهم يزيد وأحْسَن جوائزهم[٢]، ولكنهم، بعد أن انصرفوا من عنده وقدموا المدينة، لم يستطيعوا أن يتمالكوا أنفسهم من حكاية أفظع الأمور عنه. فقالوا إنه قدموا من عند رجل «ليس له دين، يشرب الخمر ويعزف بالطنابير، وتضرب عنده القيان، ويلعب بالكلاب[٣]، ويسامر الخُرَّاب والفتيان». على أنه من الخطأ في الفهم القول بأن الوفد كان يتألف من الأنصار ومن أصحاب النبي [عليه السلام] وحدهم. ويتكلم مولّلر (A. Müller, 1, 367) عن الوفد، متصوراً إياه مجموعةً عجيبة من شيوخ طيبين سُذَّج، ولذلك ذُعروا من يزيد. ويكوّن موللر أفكاره الخاصة عنهم وعن الخليفة، مع أن الخليفة كان يعلم بطبيعة الحال أحوال المدينة، وهي أجلّ مدينة في الإسلام، علماً كافياً، وكانت له، شأن جميع العرب، معرفة كافية بالناس. ويذكر أبو مخنف محاولة أخيرة قام بها يزيد لكي يهدئ النفوس في المدينة. فهو لم يُرد أخذها بالعنف، لأنه كان فيها من عشيرته من كان لا يحبُّ له أن ينهض في الفتنة فيهلك؛ فأرسل النعمان بن بشير، خير رسول للسلام، إلى هناك، فكلم أهل المدينة من قومه ومن غيرهم، ودعاهم إلى الطاعة ولزوم

---

(١) [يجد القارئ قصة إرسال الوفد إلى يزيد عند الطبري (جـ ٢ ص ٤٠٢ ــ ٤٠٣ ــ المترجم]. وتوجد إلى جانب ذلك رواية وهب بن جرير (الطبري جـ ٢ ص ٤٢٢ فما بعدها)، ولكن ذكر التاريخ غير دقيق على الإطلاق، فهو يقول: بعد وفاة معاوية.

(٢) وعند الطبري (جـ ٢ ص ٤١٩ فما بعدها) ما يدل على خلاف ذلك. قال بعضهم، وهو راجع من عند يزيد: سرنا شهراً ورجعنا من عند يزيد صفراً.

(٣) الأغاني جـ ٢٠ ص ١٠٦: بالقرود.

الجماعة، وخَوَّفَهم من قوة أهل الشام ومن الفتنة، ولكنه كان كأنما يخاطب آذاناً صماء[١].

وكان ابتداء ثورة أهل المدينة، بحسب رواية الأغاني (جـ ١ ص ١٣ نقلاً عن المدائني) منظراً مسرحياً في المسجد: كان ابن الزبير قد نادى بخلع يزيد، ومالأه أكثرُ الناس على ذلك، فدخل رجال المدينة في المسجد، وقد ثارت نفوسهم فجأة. فقام عبد الله بن حنظلة وقال: خلعتُ يزيد، كما خلعت عمامتي، ونزعها عن رأسه، وقال: إني لأقول هذا، وقد وصلني وأحسنَ جائزتي، ولكنه عدوٌّ الله سكّير. وتبعه الناس يخلع كل منهم عمامته أو نعله أو خفّه أو ثوبه، علامةً على التبرؤ والخلع كما هي العادة، حتى حصل من ذلك كومٌ كبير. أما عند الطبري فلا نجد شيئاً من هذا. ويذكر أبو مخنف (الطبري جـ ٢ ص ٤٠٥ فما بعدها) من علامة ابتداء الثورة أنه بعد أن عاد الوفد الذي كان قد ذهب إلى يزيد وقالوا فيه ما قالوا، أعلنوا: إنا نُشْهِدُكم أنا قد خلعناه؛ فتابعهم الناس، وأتوا عبد الله بن حنظلة فبايعوه وولّوه عليهم ليحارب يزيد ويحارب حكومة بني أمية. وكان ابن حنظلة عضواً في الوفد الذي توجه إلى دمشق، وكان من الأنصار، وكان مشهوراً، منذ ولادته، بأنه ابن الشهيد الذي يُحكى أن الملائكة غسلته يوم أُحد، وقد ولد حنظلة بعد استشهاد أبيه. وكانت أول خطوات الثوار أنهم وثبوا على من في المدينة من الأمويين ومواليهم ومن رأى رأيهم من قريش. وكان بنو أميّة نحواً من ألف رجل، فخرجوا بجماعتهم ونزلوا دار مروان بن الحكم، أقدم رؤساء الأمويين وأكبرهم وأشهرهم وأسنّهم، فحاصرهم الثوّار. فكتب مروان إلى الخليفة يخبره بما هم فيه من ضيق ويقول: «إننا قد حُصِرنا ومُنِعنا العذبَ ورُمينا بالحبوب (الحجارة)، فيا غَوْثاه يا غَوْثاة!». وبالرغم من أن يزيد قد سخر من

(١) [راجع الطبري جـ ٢ ص ٤٠٤ ــ ٤٥٠ ــ المترجم].

بنى أمية ومواليهم الذين لم يستطيعوا أن يقاتلوا ساعة من نهار، مع أنهم أكثر من ألف رجل، فإنه قرر أن يوجِّه جيشاً على الفور، يقوده عمرو بن سعيد. ولكن عمرو بن سعيد قال للخليفة: «قد كنتُ ضبطتُ لك البلاد، وأحكمتُ لك الأمورَ، فأمّا الآن، إذْ صارت إنما هي دماء قريش تُهْرَاق بالصعيد، فلا أحب أن أكون أن أتولّى ذلك، يتولاها منهم من هو أبعد عنهم مني». عند ذلك اتّجه يزيد إلى خادم قديم من خدام أبيه، ثبتت كفايته وثبت إخلاصُه وصدقُ نصيحته، هو مسلم بن عقبة المُرِّى. وقد رأى مسلم، لما طلب إليه يزيد الخروج في الجيش، أن ألف رجل لا يستطيعون أن يقاتلوا ساعة من نهار، ولا يجاهدون عدوَّهم ويدافعون عن عز سلطانهم، قومٌ أذلاّء ليسوا أهلاً لأن يُنْصَروا إلاّ بعد أن يجهدوا أنفسهم في قتال عدوهم دفاعاً عن سلطانهم، حتى يستبين الصابرون الذين يقاتلون على طاعة الخليفة من الضعفاء المستسلمين، ولكنه خرج بعد أن قال له يزيد: ويحك! إنه لا خير في العيش بعدهم إن هلكوا. وبدأ إعداد الجيش، ولم يلبث أن وقف اثنا عشر ألف رجل من أهل الشام على قدم الحرب، بعد أن أخذوا عطاءهم كاملا، وأخذ كل جندي مائة دينار، وُضِعَتْ في يده من ساعته[1]. ولما بلغ أهلَ المدينة إقبالُ جيش مسلم، وثبوا على الأمويين وحصروهم ولم يكفّوا عنهم إلا بعد أن أعطوا عهد الله وميثاقه على ألاّ يبغوا غائلةً ولا يَدُلّوا على عورة؛ ثم أخرجوهم من المدينة، فتوجّهوا إلى الشام. أما عائشة بنت عثمان بن عفان، وكانت زوجة مروان بن الحكم، فقد توجهت إلى الطائف في حماية علي بن الحسين، وهو الوحيد الذي قد نجا من أبناء الحسين يوم كربلاء والذي كان من القرشيين القلائل الذين اعتزلوا الفتنة. ولقى مسلمُ بن عقبة وهو في طريقه إلى المدينة أولئك الأمويين الهاربين عند وادي

---

(١) وكان معظم الجيش، كما هي العادة، من كلب. أما رئيس قيس، وهو زفر بن الحارث، فقد كان يحارب في صفوف ابن الزبير ــ قارن *Chavarig* P. 54.

القرى. وقد كان أول الأمر ساخطاً عليهم، فدعا بعمرو بن عثمان بن عفان أولَ الناس، وقال له: «أخبرني خبرَ ما وراءك، وأشِرْ عليَّ!»، قال: «لا أستطيع أن أخبرك، أخِذَ علينا العهود ألاَّ تدلَّ على عورة، ولا نظاهر عدوّاً». فانتهزه مسلم، ولم يمنعه من ضرب عنقه إلا أنه ابن عثمان ابن عفان. فبعث مروان بن الحكم ابنه عبد الملك قبْلَه، لعل مسلماً يجترئ به عنه؛ فدخل عبد الملك واستطاع، لحسن الحظ، أن يردّ غضب مسلم، ووصف له خطة العمل، وأشار عليه بما رأى. فأُعجب مسلم بنصائح عبد الملك الدالة على العلم والخبرة، واتبعها تماماً. وفي ذي الحجة سنة ٦٣هـ كان مسلم بجيشه أمام المدينة معسكراً في الحرّة إلى شمال شرقي المدينة، وأعطى الثوار مهلة ثلاثة أيام، وقال لهم: إن أمير المؤمنين يزيد بن معاوية يزعم أنكم الأصل، واني أكره هراقةَ دمائكم، وإني أوجلكم ثلاثاً، فمن ارعوى وراجع الحق قبلنا منه وانصرفتُ عنكم وسرتُ إلى هذا الملحد الذي بمكة، وإن أبيتم كنَّا قد أعْذَرْنا إليكم. ولما مضت الأيام الثلاثة كلمهم مسلم مرة أخرى، وطلب منهم الدخول في الطاعة، حتى يجعل حدّ الجيش وشوكتَه على الملحد الذي قد جمع إليه المرَّاق والفُسَّاق من كل أوْب[1]، فأجابوا بالإصرار على المقاومة دفاعاً عن المدينة، بل على قتال جيش مسلم، إن هو قصد مكة وأراد القتال فيها واستحلال حرمتها وإخافةَ أهلها، وخاطبوا مسلماً وجيشه قائلين: «يا أعداء الله». وكان أهل المدينة قد حصَّنوا ركنها الشمالي المكشوف بأسوار وخنادق، وكان جيشهم مؤلفاً من أربعة أقسام، على رأسها رجلان من قريش، ورجل من أشجع، وابن حنظلة الأنصاري. وكان ابن حنظلة في الوقت نفسه القائد الأعلى وأمير الجماعة كلها[2].

---

(١) [المقصود هو ابن الزبير ـ المترجم].

(٢) [راجع الطبري جـ ٢ ص ٤١٠ ـ ٤١٣ ـ المترجم].

وإلى هنا تنقطع حكاية أبي مخنف عند الطبري، وتُكملها حكاية عوانة[١] وغيره، وهي لا تتفق تماماً مع حكاية أبي مخنف: خرج أهل المدينة لمقابلة أهل الشام في الحرّة، وحملت خيلُ أهل المدينة، بقيادة عبد الله بن حنظلة مرة والفضل بن عباس بن ربيعة بن الحارث بن عبد المطلب مرة أخرى، على أهل الشام، فانكشفوا وتقدَّم فرسانُ أهل المدينة، حتى بلغوا المكان الذي كان فيه مسلم بن عقبة نفسه. وتقول إحدى الروايات إنه كان يوم القتال مريضاً يُحْمَلُ على سرير، وتقول أخرى إنه ركب فرساً له وأخذ يسير في أهل الشام ويُحَرّضهم على الثبات والقتال. ولكن أهل المدينة هُزموا آخر الأمر، وقُتِل كثيرٌ من أشراف الأنصار ومن قريش، منهم ابن حنظلة نفسه ومعه ثمانية من أبنائه ويقول وهب بن جرير (الطبري جـ ٢ ص ٤٢٣) والسمهودى *Skizzen*, 4, 26) إن السبب في الهزيمة هو خيانةُ بنى حارثة، لأنهم أدخلوا في المدينة من ناحيتهم قسما من جيش الشام، ضرب المدافعين من ظهورهم. أما تاريخ الموقعة فهو عند الواقدي (الطبري جـ ٢ ص ٤٢٢) الأربعاء لليلتين أو ثلاث ليال بقين من ذى الحجة سنة ٦٣هـ، الموافق ٢٦ أغسطس سنة ٦٨٣م. وأباح مسلم بن عقبة مدينةَ الرسول والخلفاء ثلاثةَ أيام للجند، ينهبون ما فيها من مال أو سلاح, ويقتلون الناس. وهذا ما يقوله أبو مخنف (الطبري جـ ٢ ص ٤١٨) والسمهودى. أما عوانة فهو يحكى غير ذلك، فيقول إن مُسلماً بعد الوقْعَة بيوم دعا الناس إلى البيعة وأرغم كبار أهل المدينة على البيعة في قُبا، كما يقول إنه في هذه المناسبة قتل بعض الثوار، وكان منهم عدد من القرشيين ومعقل بن سنان الأشجعي[٢]، وذلك رغم

---

(١) [نفس المصدر جـ ٢ ص ٤١٣ فما بعدها ــ المترجم].

(٢) كان معقل، مثل مسلم نفسه، من غطفان، وكان صديقاً قديماً له، لكنه كان حنقاً عليه، وقال له مسلم: «أنت الذي لقيتني بطبرية ليلة خرجتَ من عند يزيد، فقلت لي: سرنا شهراً ورجعنا من عند يزيد صفراً، نرجع إلى المدينة، فنخلع هذا الفاسق، ونبايع لرجل من أبناء =

معارضة مروان بن الحكم في هذا القتل. وهذا الذي فعله مسلم في اليوم التالي للمعركة لا يتفق مع القول بإباحته المدينة ثلاثة أيام للجند، ينهبون فيها ويقتلون. ومن العسير جداً أن يجد القول بإسلام المدينة للنهب ما يؤيده فيما يحكيه السمهودي من أنه نشأ عن ذلك ألف مولود غير شرعي، ولا يعرف وهب بن جرير شيئاً عن إسلام المدينة للنهب (الطبري جـ ٢ ص ٤٢٣ س ١٥ فما بعده).

وبعد أن فرغ مسلم من قتال أهل المدينة سار إلى مكة، ولكنه لم يصل إلا إلى المشلّل. وهناك نزل به الموت وضميرهُ مستريح، مقتنعاً أنه فعل ما يرضى الله، ولم يوص بماله لأبنائه، بل إلى قبيلته وإلى أم ولد كانت عنده، وترك القيادة، على غير ما كان يحب، إلى الحصين بن نمير السكوني، لأن الخليفة كان هو الذي أمر بذلك، وأوصاه فيما أوصاه ألا يُمكِّن من أذنه قُرَشياً. وفي هذا تتفق رواية عوانة (الطبري جـ ٢ ص ٤٢٤ فما بعدها) مع رواية أبي مخنف إلى الحد الذي وصلت إليه رواية أبي مخنف. ويقول أبو مخنف إن وفاة مسلم كانت في آخر المحرم سنة ٦٤هـ. أما عوانة والواقدي فيقولان إن الحصين كان في شهر المحرم معسكراً أمام مكة.

على أن ما يقوله المؤرخون المحدثون يختلف اختلافاً عجيباً عن الصورة التي تجدها مرسومة هنا لمسلم بن عقبة، فيقول دوزى مثلا[(١)]: «ربما لا يكون هناك أحد يمثّل العصر القديم والروح الوثنية كما يمثلها مسلم بن عقبة، فلم يكن فيه أقل ظل للعقيدة الإسلامية، ولا كان يقدّس شيئاً مما يقدسه المسلمون، ولذلك كان أشد إيماناً بالخرافات الوثنية، وكان يؤمن بالأحلام التنبُّئيّة وبالكلمات الخفية التي

= المهاجرين! فيم غطفان وأشجع من الخلع والخلافة! إني آليت بيمين لا ألقاك في حرب أقدر فيه على ضرب عنقك إلا فعلت». وقوله: فيم... من (الطبري جـ ٢ ص ٤٢٠ س ٣) لا يحتاج إلى علامة استفهام.

(١) [ينقل المؤلف ما ينقله عن ذروى وملّلر في شيء من الاختصار والتصرف ـــ المترجم].

كانت تأتي من شجر الغرقد. وقد أبان عن هذا لما تقدم ليزيد، فقال له إنه لا أحد يستطيع أن يقهر المدينة غيره، لأنه، فيما قال، رأى في المنام أنه سمع صوتاً آتياً من شجرة الغرقد يقول: «على يدي مسلم». هذا ما يقوله دوزى (Dozy: *Histoire des Musulmans d'Espagne* 1, 97s.) ويضرب ا. موللر على نفس النغمة، فيقول: «كان في نفس مسلم بن عقبة على الإسلام، خصوصاً على المسلمين الأولين، من الحقد ما كان في نفس شَمِر بن ذى الجوشن قاتل الحسين؛ وبالرغم من أنه كان شيخاً كبيراً ومريضاً، فإن أمله الذي كان ينتظره طويلاً ويرحّب به لتأديب أولئك الذين كانوا أعداءً لكل ما هو وثنيّ، ردّ إليه قوته حيناً، وقد خرج في الجيش ومعه الحصين بن نمير ليكون خلفا له، إن حدث به حدث الموت، وكان الحصين، قبل ذلك بقليل، الذرع الأيمن لعبيد الله بن زياد في الكوفة[١]، وكان لا يحس من الاحترام لمسجد الرسول وللكعبة أكثر مما يحسه أمام جوزتيْن صمَّاويْن».

فلأجل شجرة الغرقد التي في رواية الأغاني (جـ ١ ص ١٤) والتي لم يَسْتَشِرْها مسلم بن عقبة حقيقةً، وإنما رآها في المنام[٢]، يكون مسلم وثنياً لحماً ودماً، وهو لما في قلبه من بغض أهل المدينة ينتظر الفرصة متلهفاً، وينتهزها لذبحهم، مع أنه كان شيخاً ضعيفاً. إن الروايات القديمة لا تعرف شيئاً من هذا كله، أما عند الطبري (جـ ٢ ص ٤٢٥) فنجد أنه، وهو على فراش الموت، يشهد بأن أهم شيء عنده هو الإيمان بالله ورسوله[٣]. وهو لم يتقدم للمهمة التي كلّفه بها يزيد، بل هو لم يتقبّلْها إلا كارهاً. ولم يكن يريد أن يبرد نار غضبه بمحاربة مدينة الرسول،

---

(١) هذا خلط بين الحصين بن نمير السكوني من أهل الشام وبين الحصين بن تميم التميمي من أهل الكوفة، وهذا يجعل وزر أولهما أثقل، راجع فيما يتعلق بشمر *Schia*, p. 70.

(٢) مثل الذي يحكى عن الحجاج ـ الطبري جـ ٢ ص ٨٢٩ س ١٥. [من أنه رأى في منامه أنه أخذ ابن الزبير فسلخه، وأنه لذلك طلب من عبد الملك أن يبعثه إلى ابن الزبير ـ المترجم].

(٣) [قال وهو يموت: «اللهم إني لم أعمل عملا قط، بعد شهادة أن لا إله إلا الله =

وإنما حاول، حتى آخر لحظة، أن يحافظ عليها، بل إن من المشكوك فيه أن يكون بعد انتصاره قد أنهب المدينةَ للجند ثلاثة أيام. ولقد أرغم أهل المدينة على البيعة ليزيد، لكن ذلك لم يكن على صورة كريهة غير مألوفة[١]. كان مسلم خادماً مخلصاً لسيده، وأخضع له الثوّار، وكان يقول: فيم غطفان من الخلع والخلاقة! وكان مسروراً أن المشكلة بالنسبة له، كواحد من غطفان، لم تكن موجودة. أما المطامح السياسية فقد تركها لأهل الفتنة والطامعين الذين كانوا عائذين بالمدينتيْن المقدستيْن، وكان يرى أنهم انتهكوا حرمة الحرم وجعلوه بصنيعهم مُباحاً. وعلى هذا عمل ما عمل في عزم المقتنع، ومع مرور الزمن اعتُبر هذا منه إثماً منكراً، وأصبح رمز الوثنية كما يبدو عند دوزى وموِلّلر[٢].

= وأن محمداً عبده ورسوله، أحب إليّ من قتلى أهل المدينة، ولا أرجى عندي في الآخرة» ــ المترجم نقلا عن الطبري ج ٢ ص ٤٢٥].

(١) كما يفترض دوزى ج ١ ص ١٠٧ ــ قارن الطبري ج ٢ ص ٤١٨ س ١٨.

(٢) [الحق أن مسلم بن عقبة كان قائداً حربياً فيه غلظة وجفاء، وكان، كما يصفه المؤلف، خادماً من خدام الدولة يفكر بعقلها ولا يعرف غير ذلك. وهو من هذا الوجه شبيهة بالحجاج وزياد بن أبيه، ولا شك في صحة ما يقوله المؤلف من أنه كان حريصاً على عدم العنف، لكنه بعد أن انتصر كان عنيفاً غليظاً جافياً، فمن ذلك ما يحكيه الطبري (ج ٢ ص ٤١٨ ــ ٤٢١) من أنه أمن رجلين من قريش، فأتى بهما، فقال لهما: بايعوا! فقالا: نبايع على كتاب الله وسنة نبيه، فقال: لا والله! لا أقيلكم هذا أبداً. ثم قدمهما فضرب أعناقهما، فلما اعترض مروان بن الحكم على قتل رجلين من قريش على هذه الصورة نخسه مسلم بقضيب في خاصرته، ثم قال: وأنت والله لو قلت بمقالتهما ما رأيت السماء إلا برقة. ومن المناظر المؤلمة التي تتجلى فيها فظاظته، أنه لما شخص عنده معقل بن سنان دعا بشراب. فقال له مسلم: أي الشراب أحب إليك؟ قال: العسل، قال: اسقوه، فشرب معقل حتى ارتوى، ثم قال له: أفضيت ريك من شرابك؟ قال: نعم، قال: لا والله لا تشرب بعد شراباً أبداً إلا الحميم في نار جهنم، أتذكر مقالتك لأمير المؤمنين: «سرت شهراً ورجعت شهراً وأصبحت صفراً، اللهم غير!»، تعني يزيد. ثم قدمه فضرب عنقه، هذا مع أن معقل بن سنان كان صديقاً لمسلم قبل ذلك. ولما جاءه يزيد بن زمعة، قال له مسلم، بايع، قال: أبايعك على سنة عمر، قال عقبة: أقتلوه، قال: أنا أبايع، قال: لا والله لا أقيلك عثرتك. فلما كلمه مروان أمر به فوجئت عنقه. وهكذا نجد مسلم بن عقبة يدافع عن الدولة وينتقم من الساخطين على يزيد. وكان يريد من الناس أن يبايعوا، على أنهم خول ليزيد، يحكم في دمائهم وأموالهم =

ويواصل دوزى (جـ ١ ص ١٠٨) غَزْل الخيط الذي ناطه إلى شجرة الغرقد فيقول: «كان عرب الشام قد سوّوا حسابَهم مع أبناء المنشقين المتعصبين الذي غمروا جزيرة العرب بدماء آبائهم، وكان الأشراف القدماء قد قضوا على الأشراف المحدثين. وكان يزيد، بوصف أنه ممثل الأرستقراطية القديمة في مكة، قد ثأر لمقتل عثمان وللهزيمة التي ألحقها بجده أبي سفيان أهلُ المدينة تحت راية محمد [عليه السلام]. وكان ردُّ الفعل من جانب الوثنيين ضد الفكرة الإسلامية قاسياً لا هوادة فيه، ولم يُشْفَ الأنصار قط من هذه الضربة، وانكسرت قوتهم إلى الأبد. وظلت مدينتهم، بعد أن كادت تخرب، مأوى للكلاب حيناً من الدهر، كما ظلت أرضها مأوى للوحوش. وذلك أن معظم أهلها أخذوا يبحثون لأنفسهم عن وطن جديد في بلاد قاصية، فانضموا إلى جيش أفريقية، وظل الآخرون في حال يُرْثى لها. وكان الأمويون ينتهزون كلَّ فرصة لكي يُشْعِروهم ببغضهم واحتقارهم لهم، لكي يضايقوهم ويجعلوا حياتهم مريرة». ويأخذ ا. مولّر بهذه التصورات، وهي تصورات ضالة تماماً، ومعظمها خطأ تام.

أما الضربة الحقيقية فقد أصابت المدينة لما انتهت الخلافة الشرعية بمقتل عثمان وانتقل الخلافة الجديدة إلى الأمصار. فأما الضربة الحالية فلم تأت بتغيرات

= وأهليهم ما شاء. وثم منظر آخر أهان فيه مسلمٌ عمرَو بن عفان، وعابه هو وأمه ونتف لحيته. وأسخف من ذلك ما فعله مسلم بعلي بن الحسين، مع أنه ابتعد عن الفتنة وكاتب يزيد وأوصى يزيدُ به، فقد أخافه من غير أدنى مبرر، حتى إنه ناوله مروان بن الحكم شراباً، فقال له مسلم في جفاء: لا تشرب من شرابنا! فأرعدت كف علي بن الحسين وأمسك القدح بكفه، لا يشربه ولا يضعه، ثم قال لعلي: إنه لولا ما أوصاه به يزيد لقتله. راجع أيضاً طريقته في مخاطبة خليفته في قيادة الجيش، عند الطبري جـ ٢ ص ٤٢٤ ــ ٤٢٥. فلا يخرج مسلم عن أن يكون رجلا جافياً قاسياً وجلفاً غليظ القلب، ولم يجعله مخلصاً للدولة وللخليفة إلا أنه كان ينتمي إلى قبيلة ضعيفة ليس لها شأن؛ وهو من هذا الوجه يشبه كثيرين من عمال بني أمية. ولولا أن المسألة مسألة حرب وسياسة يسودهما العنف عند العرب لحق للمؤرخ أن يقول أن الإسلام لم يهذب شيئاً من طبع هذا الغطفاني الذي لم يكن على أي حال من أنبه العرب ولا أشرفهم، وإنما كان قائداً في خدمة الدولة، ويجب عليه أن يحافظ على سيادتها ــ المترجم].

جوهرية؛ فلم تخرب المدينة، ولم يلبث أن رجع إليها أهلها الأمويون الذين كانوا قد أخرجوا منها، وإن كانوا قد أخرجوا منها مرة أخرى بعد ذلك. وظلت المدينة، كما كانت من قبل، مدينةً مَرِحةً ومقراً لا للتراث الديني وحده، بل لأرقّ طوائف المجتمع العربي وأرقاها. ولذلك كان يفضّل الإقامةَ بها من يعتزلون الأعمال ويحبون أن يحيوا حياة اللهو، كما صارت المدينة ملتقى المغنين والموسيقيين والطفيليين. وكل فصول كتاب الأغانى المتعلقة بهم تقدم لنا الشواهد على ذلك. ولنذكر منها، بنوع خاص، ما يقال عن أبي قطيفة وعن الأشعب وخصوصاً عن سكينة حفيدة الرسول الذكية المتحررة. وفوق ما تقدم، فإن من الخطأ أن نتصور أن الأنصار كانوا وحدهم هم الذين أصابتهم عواقبُ وقعة الحرّة، لأنه لا يصرح أن نفهم من ذكر اسم الأنصار أنهم وحدهم هم أهل المدينة، وذلك لأن المدينة كانت منذ زمان طويل لم تصبح مدينتهم، وكانوا يقيمون فيها مع المهاجرة الذين كانوا يكافئون الأنصار في العدد ويزيدون عليهم في القوة. وكانت قريش بين هؤلاء المهاجرة تحمل المكان الأول، لأن القرشيين كانوا قد هاجروا منذ سنة ٨هـ إلى المدينة زرافات كثيرة، وصارت عاصمة الدولة هي وطنهم الحقيقي؛ وقد اشتركوا في الثورة على يزيد كما اشترك الأنصار. وكان التمايز بين أشراف الإسلام وأشراف الجاهلية، وقد كان على كل حال تمايزاً موجوداً بينهم، قليل الشأن. ولم يكن ليزيد حزبٌ بين المدينة ولم يكن هو الممثل للأرستقراطية القديمة، وإن كان ينتمي إليها، وقد ألّفت الأرستقراطيةُ في الحجاز كله جبهة كاملة معارضة له، كما ألّفت من قبل جبهةً معارضة لأبيه معاوية. فكانت قبائل مخزوم مثلاً، وهي قبائل نابهة، زبيرية الهوى تماماً بل لم يكن الأمويون في المدينة على علاقة طيبة مع يزيد، ولم يريدوا أن يفسدوا علاقتهم بالثوار، فمالوا إلى ابن الزبير، وكان مسلم بن عقبة مُحِقاً في غضبه عليهم. فلم يكن في جانب يزيد إلا أهل الشام، وقد ألّف منهم جيشاً من آلاف كثيرة، ولكنهم كانوا يتقاضون

أعطيات كبيرة إلى درجة غير عادية. ولما كان هو نفسه غير ممتلئ النفس بالرغبة في معاقبة الثوار، بل كان يحاول أن يكتسبهم بالحسنى، فقد أظهر حلماً كبيراً إزاءهم[١]. وكذلك لم يكن جنوده من أهل الشام متحرقين للقتال، ولا شك أنهم كانوا يندهشون لو أنهم عرفوا ما ينسبه إليه دوزى من أن حنقهم على «المنشقين المتعصبين الذين غمروا جزيرة العرب بدماء آبائهم» هو الذي استفزّهم للقتال. ولهذا فربما كان أهل العراق، وهم ينتمون إلى أهل الردة، أولى بكثير من أهل الشام بالحنق على أهل المدينة. أم هل كان أهل الشام، مثل قبائل كلب، هم الذين كانوا أكثر من استُنزفت دماؤهم؟ إن دوزى يرسل لخياله وبلاغته العنان، وهو بهذا قد أفسد تفكير من اتّبعه. أما الحقيقة البسيطة الثابتة فهي أن عربَ الشام، شأنهم شأن غيرهم، كان عليهم أن يستجيبوا لما يأمرهم به الإسلام؛ على أن الأمر لم يكن أمر تغير ديني بقدر ما كان أمر تغير سياسي، ولعل الانتقال كان في أول الأمر غير محبوب لديهم، ولكن لم يلبثوا أن تغلّبوا على ذلك لأنه كان لهم في هذا التغير أكبر الفوائد، لأن الإسلام جعل لهم نصيباً في دولته وسيادته، وهو قد وضع الدنيا تحت أقدامهم، ولولا الإسلام ما كانوا ليصلوا إلى المكانة التي وصلوا إليها والتي احتلوها بعد ذلك. وعلى هذا فلا يمكن أن يكونوا لا يزالون حنقين على أولئك الذين ساعدوهم على بلوغ الغصن الأخضر الذي كانوا يجلسون عليه. وأبعد ما يكون من الصواب أن يُقال إن أهل الشام كانوا حنقين على المؤمنين القدماء — وهذه هي التسمية التي يطلقها ا. مولّر على أهل المدينة — ذلك أن أهل الشام كانوا يتفقون مع أهل المدينة في العقيدة والشريعة وفي العادات العامة والخاصة اتفاقاً تاماً، وكان أهل

---

(١) [لما وصل إلى يزيد كتاب مرون بن الحكم يستغيث مما فعله أهل المدينة ببني أمية الذين كانوا بها، قال متمثلا:

لقد بدلوا الحلم الذي من سجيتي فبدّلت قــومي غلظة بليـــان

وأمر بإعداد الحملة على المدينة — المترجم نقلاً عن الطبري جـ ٢ ص ٤٠٦ — ٤٠٧].

المدينة، بطبيعة الحال، أكثر حماسة لأداء الواجبات الدينية، وكانوا خصوصاً أكثر كلاماً عنها. ولكنهم لم يكونوا بوجه عام أولئك الشيوخ السذّج المنشقّين المتعصّبين، الذين يصفهم دوزى؛ وإن تسميتهم «المؤمنين القدماء»، وهو اصطلاح حديث، لا يمكن أن تؤدي إلا إلى تصور معكوس للعلاقة بين تلك الأحزاب المتخاصمة. ذلك أن الخصومة، بحسب أفكارنا التي ليست لها صبغة تيوقراطية، كانت خصومة سياسية فحسب. فالمشكلة كانت مشكلة: مَن صاحبُ الحق في الخلافة؟ وقد زعم أعضاء طبقة الأشراف الإسلامية، وهم أبناءٌ لكبار الصحابة الستة القدماء، مثل الحسين وابن الزبير، أنهم أصحاب هذا الحق. وكان الرأي العام، كما كانت غالبية قريش، إلى جانبهم. ولا بدّ أن الأنصار كانوا يؤيدونهم، كما أيدوهم في الثورة على عثمان، وذلك مِن جِهَةٍ أن المسألة كانت مسألة أن تَسْتَعيدَ العاصمةُ القديمة للدولة ما كان لها من سيادة. وتُوجَد بعض الدلائل على أن ابن الزبير هو الذي أرّث نار الثورة في المدينة. وقد كان مسلم بن عقبة يعتبر المسألة كذلك. وكان السفيانيون في دمشق يُعْتَبرون غاصبين، ولم يؤيد الحكومة التي كان بيدها السلطان إلا أهلُ الشام، وذلك دفاعاً عن مكان الصدارة الذي كان لولايتهم، وهم لم يكونوا يأبهون لمسألة الحق الشرعي. غير أن مسألة الحق الشرعي هذه، وهي في نظرنا مسألة سياسية محضة، كانت في نظر الإسلام، من حيث هو دولةٌ تيوقراطيةٌ، جزءاً من الدين. وكان الذين يدعون الحق في الخلافة يؤيّدون مطالبهم بمؤيِّدات دينية. وكان يزيد يُعْتَبَر غير أهل للخلافة لأسباب دينية أيضاً. ولكن هذه المبررات الدينية لم تكن، على ألسنة زعماء الحركة، سوى ستار لما وراءها. أما الباعث الحقيقي لهم على الثورة فكان هو شهوة المجد والسيادة. وهم لم يكونوا يريدون خلع يزيد، لأنه كان يشرب الخمر ويلهو، بل لأنهم كانوا يأملون أن يتواصلوا إلى المنصب الذي كان

يحتلّه، ولذلك كان عند أهل الشام من الأسباب ما يبرر لهم أن يروا في مسألة الحق الشرعي التي يثيرها خصومهم تمويهاً ونفاقاً يستر وراءه مسألة التطلّع إلى السلطان[١]. وإلى هذا وحده يرجع ما اتهموا به خصومهم من النفاق، وقد قابل خصومهم ذلك بأن اتهموهم بالانسلاخ من الدين.

وعوانة هو عند الطبري (جـ ٢ ص ٤٢٤ فما بعدها) أكبر الرواة لحصار مكة سنة ٦٤هـ. فهو يقول إنه بعد موقعة الحرَّة ذهب «كلُّ أهل المدينة» إلى ابن الزبير في مكة؛ وهو لا يذكر إلا أفراداً من القرشيين بأسمائهم (ص ٤٠٤ س ٢٠ وص ٤٢٦ س ٨ ــ ١٠ وص ٥٢٨ س ١٢). وكان خوارج اليمامة قد بادروا قبل ذلك، تحت إمرة نجدة بن عامر، للدفاع عن البيت الحرام أمام هجوم أهل الشام[٢]. وكان الحصين بن نمير قبل نهاية المحرم سنة ٦٥هـ قد وصل إلى مكة في جند الشام. ولم يوفَّق المدافعون في أول اشتباك وقع بينهم وبين أهل الشام. وفي مساء السبت لثلاثة أيام مضت من ربيع الأول سنة ٦٤هـ، الموافق السبت ٣١ اكتوبر سنة ٦٨٣ م، قذف أهلُ الشام البيتَ بالمجانيق وحرقوه بالنار، كما يقول عوانة.

ورواية عوانة هذه غير صحيحة. ولقد اشتعلت النار في الكعبة حقيقة، فاحترقت وانصدع الركن واسودّ؛ ولكن أهل الشام لم يكونوا هم الذين أحرقوها وأما أبو مخنف (الطبري جـ ٢ ص ٥٢٨ س ١٧ ــ قارن ص ٥٢٩ س ٤)، فهو يقول: «أُحْرِق البيت» على البناء للمجهول: ولا يذكر الفاعل. ويقول الواقدي (ص ٤٢٧) إن الكعبة احترقت بسبب رجل من أصحاب ابن الزبير،

---

(١) [يبالغ المؤلف في نظرته للحوادث نظرة سياسية، كأن الدولة ليست دولة دينية يرأسها الأكمل الأتقى ــ المترجم].

(٢) إن التاريخ الذي يذكره أبو مخنف (الطبري جـ ٢ ص ٤٠١ فما بعدها أسبق من الحقيقة. قارن *Chavarig* 29, *Schia* 75 وديوان الحماسة (ص ٣١٩ س ٢٢).

أخذ قبساً في رأس رمحه، فطيّرت الريحُ به، فضرب أستارَ الكعبة. ويقول المدائني (الأغاني جـ ٣ ص ٨٤) إن ابن الزبير نفسه كان هو ذلك الشخص التعس الذي وقع منه ذلك. فيُحكى أنه لما حاصره أهل الشام سمع أصواتاً بالليل فوق الجبل، فخاف أن يكون أهل الشام قد وصلوا إليه، وكانت ليلةً ذات ريح شديدة صعبة، وبرق ورعد. فرفع ناراً على رأس رمح لينظر إلى الناس، فأطارتها الريح، فوقعت على أستار الكعبة فأحرقتها واستطالت فيها. وجهد الناسُ في إطفائها فلم يقدروا، وأصبحت الكعبة تتهافت، أما البيت الذي يستند إليه عوانة (ص ٤٢٦ س ١٥) فليس فيه ذكر النار، بل هو، بحسب ديوان الحماسة (ص ٣١٩) متعلق بمسألة أخرى، هي حصار مكة في عهد الحجاج (الطبري جـ ٢ ص ٨٤٤ فما بعدها وص ١٥٤٢ س ٣). وفي أثناء هذا الحصار الثاني ضرب أهلُ الشام الكعبةَ، لكنهم لم يضربوها إلا بالحجارة. وعلى هذا فالظاهر أن الأمر قد اختلط على عوانة، وربما لا يكون هذا الاختلاط بريئاً من الغرض.

ودام حصار مكة إلى أن بلغها نعيُ يزيد، وقد كانت وفاته في ١٤ ربيع الأول سنة ٦٤هـ. ويقول الواقدي إن النعى وصل إلى مكة في يوم الثلاثاء هلال ربيع الآخر سنة ٦٤هـ، أي بعد حرق الكعبة بسبعة وعشرين يوماً[١]. أما أبو مخنف (الطبري جـ ٢ ص ٥٢٩ س ٧) فهو يقول إن نعيَ يزيد وصل لخمس عشرة ليلة مضت من ربيع الآخر. وأما عوانة (الطبري جـ ٢ ص ٤٢٩ س ١٨) فيقول إن النعي لم يصل إلى مكة إلا بعد وفاة يزيد بأربعين يوماً. والرواية التي بحسبها يكون الخبر قد وصل في أقصر مدة هي الأولى بالقبول. ويقول عوانة

---

(١) الطبري (جـ ٢ ص ٤٢٧ س ٨). ولا يتفق يوم الأسبوع مع يوم الشهر، ويجب قراءة ٢٧ يوماً بدلا من ٢٩ عند الطبري، لأن حرق الكعبة، بحسب اتفاق جميع الرواة، وقع في الثالث من ربيع الأول.

إن خبر موت يزيد بلغ ابن الزبير قبل أن يبلغ أهل الشام. ولم يُرِدْ هؤلاء أن يصدّقوا أول الأمر، حتى تأيَّد لهم الخبر من جهة أخرى، وعند ذلك شرع الحصين بن نمير يفاوض ابنَ الزبير. وكان الحصين يريد، وهو لم يجد أمامه خيراً من ذلك، أن يبايع ابنَ الزبير على الخلافة، إذا قَبِل ابنُ الزبير إهدارَ الدماء التي أُريقت في المدينة ومكة وخرج معه إلى الشام لكي تبقى الشام مقرّ الخلافة. وقد قبل ابن الزبير الشرط الأول أخيراً، أما الشرط الثاني فلم يقبلْه(١). وهو لم يكن أيضاً يستطيع قبوله إلا إذا قضى على نفسه بالانتحار السياسي، ولذلك تحطمت المفاوضات ورحل الحصين، وقد بدا اليأس على جنوده، لأنهم لم يكن لهم إمام بعد موت يزيد، ولم يكونوا يعلمون من أجل من يقاتلون ــ وإلى هذا الحد كان اتخاذ الموقف السياسي مرتباً بالبيعة لشخص الإمام. ويروى أن بني أمية الذين كانوا في المدينة طلبوا من جند الشام أن يحملوهم معهم، وذلك لأنهم لم يكونوا في الحجاز يشعرون بأنهم آمنون على أنفسهم. ولكن رواية عوانة تنافى ذلك (الطبري جـ ٢ ص ٤٦٩ س ٣)، كما تنافيه أيضاً رواية أبي مخنف (الطبري جـ ٢ ص ٤٨١ س ١٠) والواقدي (ص ٤٦٧ س ١٠)، فلم يخرج الأمويون باختيارهم، وإنما أخرجهم من المدينة ابن الزبير، وهذا ما يقوله أيضاً صاحب كتاب Continuatio Byz. Ar. § 29 فهو يقول:

Marvan insidiose al ipso Abdella ab Almedinae finibus cum omnibus liberis vel (= et) suis propinquis pellitur

أي: أُخرج مروان من أرض المدينة غدراً مع أولاده أو (= و) أقربائه، على يد عبد الله نفسه].

---

(١) [لا شك أن ابن الزبير قد رفض الخروج إلى الشام، وفي رواية أنه رفض إهدار دماء أهل المدينة ومكة. ويظهر أنه قبل الإهدار آخر الأمر، ورواية الطبري غير صريحة تماماً ــ راجع ما دار بين الحصين وبين ابن الزبير عند الطبري (جـ ٢ ص ٤٣٠ ــ ٤٣٢). ولم يكن ابن الزبير، من حيث الأسلوب ــ بصرف النظر عن الموضوع ــ دبلوماسياً، ويصدق عليه ما وصف به من أنه كان لجوجاً (الطبري جـ ٢ ص ٢٢٤ س ١٢) ــ المترجم].

٣ ــ يقول أبو معشر والواقدي وإلياس النصيبي إن يزيد مات في حُوّارين (قرب دمشق) يوم الثلاثاء لأربع عشرة ليلة خلت من شهر ربيع الأول سنة ٦٤هـ، وهو الموافق يوم الثلاثاء ١١ نوفمبر سنة ٦٨٣هـ[١]. ولما كان قد تولى الخلافة بغير حق شرعي، وكان إلى جانب ذلك يحمل الإثم في مقتل الحسين وانتهاك حرمة الأماكن المقدسة، فإنه لا يُذْكر بخير عند المسلمين. ولكن يزيد في الحقيقة لم يكن من رجال العنف، وكان يترك السيف في غمده ما وسعه ذلك. وقد وضع حداً للحرب التي استمرت مع الروم سنين كثيرة. أما الذي يمكن أن يُعَاب عليه فهو قلة الهمة وقلةُ الاهتمام بالشئون العامة للدولة؛ وكان، خصوصاً وهو أمير، لا يأبه لها، وبذلك جعل ما كان يسعى إليه أبوه من تعيينه خليفة بعده مهمةً عسيرة، وهو لم يشترك في الحملة الكبيرة التي وجهت إلى القسطنطينية سنة ٤٩هـ[٢] إلا كارهاً. ويظهر أنه بعد أن صار خليفة قد جمع همته بعض الشيء، وإن كان لم يترك، من أجل ذلك، ما كان يهواه قديماً من خمر وموسيقى وصيد ونحوه من أنواع الرياضة. وفي كتاب الصلة Continuatio § 27 يُقال عنه ما يأتي:

iucundissimus et cunctis nationibus regni eius subditis vir gratissime habitus, qui nullam unquam, ut omnibus moris est, sibi regalis fastigii causa gloriam appetivit, sed communis cum omnibus civiliter vixit[3].

ومثل هذا الإطراء لم يُقَلْ عن أحد.

---

(١) الطبري جـ ٢ ص ٤٢٨ س ٨ وص ٤٨٨ س ١٤. أما ما يخالف ذلك (ص ٤٣٧ س ٣ وص ٥٠٦ س ٧) فهي أقوال خاطئة. وذكر سنة ٦٣هـ (ص ٤٦٨ س ١٥، قارن ص ٤١٢ س ٩) خطأ. ويذكر الزهري والواقدي أن عمره كان ٣٨ أو ٣٩ عاماً، ويذكر ابن الكلبي أنه كان ٣٥ عاماً ــ قارن Nöldeke, DMZ. 1901. p. 683s

(٢) راجع مجلة Göttinger Nachrichten (١٩٠١ ص ٤٢٣). وبعد أن حضر يزيدُ القتال مرة تبين أنه شجاع وكفء (الأغانى جـ ١٦ ص ٣٣) [هذا في قيادته للحملة الصائفة على الروم، وقد ضرب يزيد باب القسطنطينية ــ المترجم].

(٣) [وترجمة هذا الكلام اللاتيني هي: «كان رجلاً لطيفاً إلى أقصى حد، وهو بعد أن أخضع جميع أمم مملكته أولاه الناس أحسن تقديرهم. وهو لم يطمح أبداً إلى أي مجد لنفسه =

يقول ابن عرادة، وهو في خراسان (الطبري ج ٢ ص ٤٨٨):

أبَنِي أُميــةَ إنَّ آخِــر مُلْكِــكُم جَســدٌ بحُوَّاريــن ثــمَّ مقيــمُ
طــرقَتْ مَنِيَّتُهُ وعِنْدَ وسَــادِهِ كوبٌ وَزِقٌ راعفٌ مرثــوم[١]

وقد بدا كأنما قد انهارت دولة بنى أمية لما مات يزيد، فلم يؤيّدها أمراء الأمصار أيضاً. فعقد سَلْمُ بن زياد في خراسان وعبيد الله بن زياد في البصرة البيعة لأنفسهما، وإن كانا قد فعلا ذلك حتى يصطلح الناس على إمام يرتضونه. وكان طبيعياً أن ينال معاوية الثاني، ابن يزيد، وكان أبوه قد عينه خلفاً له، اعتراف أهل الشام، في دمشق على الأقل. وقد أسقط عند تولّيه الخلافة ثلثَ الخراج «عن جميع أمصار مملكته»[٢]، ولكنه مات بعد حكم قصير جداً. ويقول عوانة (الطبري ج ٢ ص ٤٦٨ ــ والبلاذري ص ٢٢٩ س ٣) إنه تنازل عن الخلافة قبل موته. أما الواقدي (الطبري ج ٢ ص ٥٧٧ س ١) فلا يذكر شيئاً من ذلك. والأغلب أن رواية تنازله ترجع إلى محاولة تغطية ما وقع من أن الفرع الأحدث من بيت بني أمية، وهو فرع المروانيين، قد أزال الفرع الأقدم، وهو فرع السفيانيين، عن الخلافة ظلماً وعدواناً؛ وهذه المحاولة هي التي تفسر لنا أن معاوية الثاني لا يُذكر في كتب التواريخ القديمة بين الخلفاء، بل الذي يذكر هو أن مروان جاء بعد يزيد مباشرة. ومثل هذا وقع في قوائم التاريخ في العهد القديم حيث يُغْفَل ذكر حكم اشبوشتا (Isboseth) ويُعتبر داود تالياً لشاول مباشرة[٣]

= بسبب ما كان يتمتع به من عظمة الملك، بل عاش رجلاً عادياً مع الجميع كأحد الرعايا». والفضل في ترجمة النصوص اللاتينية واليونانية في هذا الكتاب يرجع إلى معاونة الزميل الفاضل العلامة الأستاذ أمين سلامة ــ المترجم].

(١) ن: مرقوم.

(٢) راجع كتاب Cont, Byz. Ar, § 27؛ ومثل هذا الـ ἀφεσις [الإعفاء] كان عند تولي الملك عادة جارية.

(٣) قارن ما يقوله نولدكه (Nöldeke) في *Epimetrum zu Mommsens Ausgabe der Cont. isidor* وفي مجلة .DMZ، ١٩٠١ ص ٦٨٣ والصفحات التالية.

وفي حياة معاوية الثاني بدأت، فيما يظهر، الاضطراباتُ في الشام؛ وسننتقل إلى الكلام عنها. وقد جاءت هذه الاضطرابات من جانب قبائل قيس الذين كانوا يسكنون خصوصاً في شمال الشام وفي الجزيرة على جانبي نهر الفرات (الطبري جـ ٢ ص ٧٠٨ س ٤) وفي قنّسرين وقرقيسيا وحرّان. فيقال إن قبائل قيس كانت هي وحدها، دون جميع أهل الشام، هي التي امتنعت من مبايعة معاوية الثاني. وكانوا حنقين على ما كان لكلب من شأن بسبب يزيد وابنه معاوية، لأن أم كل منهما كانت كلبية (الحماسة ص ٣١٩ س ٢، ٤). وكان لحسّان بن مالك بن بَحْدَل الكلبي خال يزيد مركزٌ قوي في الدولة؛ فكان كالمالك للأمر، وكان العماد الأكبر لمعاوية الثاني، وكان أخوه سعيد أميراً على قنّسرين. فرأت قيس أن إسناد الإمارة عليهم وفي مدينتهم إلى رجل من كلب أمر لا يمكن أن يطاق، فبدأوا بأن وثبوا عليه وأخرجوه من قنسرين. وقد فعلوا ذلك تحت إمرة زفر ابن الحارث الكلابي (الأغاني جـ ١٧ ص ١١١)، وكان زفر من قبل في صفوف ابن الزبير يحارب يزيد (الحماسة ص ٣١٩ س ٢٢). على هذا فقد كان زُبَيْرِيَّ الهوى، وتَبِعَتْه قيس بعد أن بويع لابن الزبير في العراق المجاورة لأرض قيس. ولكن ابن الزبير كان له أيضاً بعض أجزاء الشام. وابن بحدل وحده ــ وهذه هي الصورة المختصرة لاسمه الكامل: حسان بن مالك بن بحدل ــ هو الذي ظل بعد وفاة معاوية الثاني متمسكاً بسلالة أخته. ولكي يكون أقرب إلى دمشق، فإنه خرج من فلسطين التي كان أميراً عليها وانتقل إلى الأردن. أما أمير حمص، وهو النعمان بن بشير الأنصاري، ونحن نعرفه تماماً، فقد بايع لابن الزبير. وفعل مثل ما فعل أيضاً ناتلُ بن قيس الجُذَامي، فاستولى على فلسطين، بعد أن تركها ابنُ بحدل. أما في العاصمة، وهي دمشق، فقد كان الأمر في يد الضحاك بن قيس الفهري، وكان يقف موقفاً متأرجحاً وذا وجهيْن، ولكن لما كان مُعَرّضاً لخطر فقدان كلّ من الجانبين، فإنه وجد نفسه. آخر الأمر،

مضطراً أن ينضم نهائياً إلى جانب ابن الزبير.

والأخبار متضاربة فيما يتعلق بتطور الحوادث حتى وقوع الصدام الدموي الحاسم في موقعة مرج راهط. فيقول عوانة (الطبري جـ ٢ ص ٤٦٨ فما بعدها) إن الأمويين الذين كانوا قد أُخرجوا من المدينة، وكذلك عبيد الله بن زياد الذي فرّ من البصرة وكان أميراً عليها؛ ذهبوا إلى دمشق؛ ويظهر أن هذا كان بعد موت معاوية الثاني. وكان الضحاك، وهو السيد في دمشق، يهوى هوى ابن الزبير ويدعو إليه سِرّاً. وكان الذي يمنعه من إظهار هواه الحقيقي أن بني أمية كانوا عنده. وبلغ ذلك ابنَ بحدل رئيس كلب الذين يَهْوَوْن هوى بني أمية ورئيس اليمانيين، فأراد أن يستخرج الثعلب من جحره، فكتب إلى الضحاك كتاباً ليقرأه على الناس، وفيه عظَّم حقَّ بني أمية وحُسْنَ بلائهم عنده وصنيعهم إليه، وذكر ابن الزبير ووقَع فيه واتّهمه بأنه منافق قد خلع خليفتَين. وسرّح ابن بحدل بالكتاب مع رجل من كلب يدعى ناغِضَة. ودفع ابن بحدل إلى ناغضة نسخة أخرى من ذلك ليقرأها على الناس، إنْ لم يقرأ الضحاكُ الكتابَ الذي أرسله ابن بحدل إليه. وكتب ابنُ بحدل إلى بني أمية يأمرهم أن يَحْضُروا ذلك. فقدم ناغضة بالكتاب على الضحاك. فلما كان يوم الجمعة صعد الضحاك المنبر، ولم يقرأ الكتاب. فقام إليه ناغضة وطلب منه أن يقرأه، فلم يفعل، فأخرج ناغضة النسخة التي كانت معه وقرأها على الناس، وكان من أثر ذلك منظرُ قتال هو المعروف بيوم جيرون[١]. فهاجت قيس وكلب بعضهم على بعض، واقتتلوا في المسجد. وانقسم الأمويون في الجانبين. وقام الوليد بن عتبة بن أبي سفيان، ثم

---

(١) تسميته بيوم جيرون الأول تسمية غير صحيحة، لأن ما يسمى يوم جيرون الثاني ليس سوى اختلاف في قراءة النصوص (الطبري جـ ٢ ص ٤٧١ س ١٣ ــ ١٩). وكان جيرون بيتاً كبيراً قديماً. ويظهر أن ضرب الضحاك وقع فيه بعد الصلاة. ويسمى أحد الأبواب الكبيرة في المسجد باسم باب جيرون ــ قارن الحماسة ص ٦٥٦ بيت رقم ٤.

يزيد بن أبي النمس الغساني، ثم سفيان بن الأبرد الكلبي فأقرّ كلٌّ منهم ما جاء في كتاب ابن بحدل، وأنكر عمرو بن يزيد الحكمى ما جاء فيه. وبعد الصلاة وثبت كلب على عمرو بن يزيد الحكمى فضربوه ومزقوا ثيابه. أما الضحاك فقد أمر بالقبض على المعارضين الذين هاجموا ابن الزبير، وحَبَسهُمْ. ولكن قامت كلب وغسّان فأخرجوا رَجُلَيْهم، ولم يبق في الحبس إلا الوليد بن عتبة، لأنه لم يكن له قبيلة تخرجه، ولقد قال: «لو كنتُ من كلب أو غسّان لأخْرجت»، فعند ذلك تدخل خالد وعبد الله ابنا يزيد بن معاوية، وهما الأخوان الأصغران لمعاوية الثاني، فجاءوا ومعهما أخوالهما من كلب فأخرجوه من السجن.

وفي اليوم التالي ندم الضحاك على ما كان منه، فبعث إلى بني أمية واعتذر إليهم، وقال إنه لا يريد شيئاً يكرهونه، واقترح أن يكتبوا هم إلى ابن بحدل ويكتب هو إليه أيضاً، فيسير ابن بحدل من الأردن إلى الجابية، ويسير هو والأمويون حتى يوافوه هناك. ولكن الضحاك انقلب في آخر لحظة، بعد أن خرج الناس وخرجت بنو أمية، وذلك أن ثَوْرَ بن مَعْن بن يزيد بن الأخنس السلمي، أحد رجالات قيس، جاء إليه وكلمه قائلاً: دعوتَنا إلى طاعة ابن الزبير، فبايعناك على ذلك، وأنت تسير إلى هذا الأعرابي، تستحلف ابن أخته خالد بن يزيد!». وانتهى الكلام بأن مال الضحاك إلى ما اقترحه عليه ثَوْرٌ من إظهار ما كان يُسِرُّه من طاعة ابن الزبير والدعوة إليه والقتال على ذلك. وعطف الضحاك من كان معه من الناس، وسار بهم حتى نزل بمرج راهط، قريباً من دمشق. وأظهر هناك البيعة لابن الزبير، وبايعه على ذلك جُلُّ أهل دمشق، من اليمن وغيرهم. وكتب الضحاك إلى النعمان بن بشير أمير حمص وإلى زُفَر بن الحارث أمير قنسرين وإلى ناتل بن قيس أمير فلسطين، وكانوا جميعاً على طاعة ابن الزبير، يستمدُّهم، فأمدُّوه بالأجناد. أما بنو أمية فإنهم ذهبوا إلى ابن بحدل في الجابية. وكانت

أهواء الناس في الجابية المختلفة[١]. وكان أمَامَهم السفيانيون الذين كانت الخلافة حتى ذلك الحين في أسرتهم، وكان يُمَثّلهم بنو يزيد بن معاوية. وكان يقابلهم في الجانب الآخر الأكبر عدداً بقيةُ الأمويين، وعلى رأسهم شيخُ بني أمية وكبيرُهم مروان بن الحكم. وكان هناك خلافٌ حول من تُعْقَد له البيعةُ: فكان ثَمَّ من يميل إلى خالد بن يزيد من أخواله الذين كانوا يأملون أن يَضَعَهُمْ على رقاب العرب وأن يتجنبوا شرَّ مروان، وكان هناك من يميل إلى مروان بن الحكم، ممن لم يريدوا أن يبايعوا غلاماً حَدَثاً، بل يريدون شيخاً يقف أمام بن الزبير. وقد انتهى الخلاف باقتناع ابن بحدل ــ وكان هو الوصي على أبناء يزيد ــ بمبايعة مروان. وأجمع الناس أيضاً على البيعة له، على أن تكون الخلافة بعده لخالد بن يزيد ثم لعمرو بن سعيد بن العاص. وكان لأسرة عمرو بن سعيد هذا مطامع في الخلافة، وكان لا بد من إرضائها. وخرج مروان إلى مرج راهط ومعه أهل الأردن من كلب، وأَتَتْهُ السكاسك والسَّكُون وغسّان وربع حسّان بن بحدل. وبينما كان الجيشان المتعاديان يعسكر أحدهما أمام الآخر، وثب يزيد بن أبي النمس الغسّاني على دمشق في عبيدها، فغلب عليها وأخرج عامل الضحاك بن قيس منها، وغلب على الخزائن وبيت المال، وبايع لمروان وأمدّه بالأموال والرجال. واستمر القتال في مرج راهط عشرين يوماً. وأخيراً هُزِمَتْ قيس وأهلُ الشام، بعد أن قُتِلُوا مَقْتَلَةً عظيمة، وقُتِل الضحاك ومعه ثمانون من أشراف الناس من أهل الشام، كان كل منهم يأخذ

---

(١) كان من الأمويين فرع، هو فرع العَبَلات، وكان هذا الفرع نفسه ينقسم على العنابس والأعياص. وكان السفيانيون من العنابس، وكانت معظم بقية الأسر الأموية من الأعياص. ومروان بن الحكم وابن عمه عثمان بن عفان كانا من بيت أبي العاص، وكان عمرو بن سعيد من بيت العاص، وتتكرر الأسماء نفسها، مع فوارق قليلة الشأن، فيقال: أمية وعبد أمية، العاص وأبو العاص ــ قارن الأغاني (جـ ١ ص ٨ فما بعدها، ص ٨٤ س ١٠ وجـ ١٠ ص ١٠٣ فما بعدها وجـ ٧ ص ٦٢ والطبري جـ ١ ص ٢٥٣٥.

القطيفة، والذي كان يأخذ القطيفة كان يتقاضى عطاءً مقداره ألفا درهم.

وإلى جانب رواية عوانة هذه تقف رواية المدائنى (الأغاني ج ١٧ ص ١١١). لا يقول المدائني شيئاً عن يوم جيرون، وهو يحكى عن مروان شيئاً آخر. غير أنه يتفق مع عوانة في آخر روايته اتفاقاً تاماً، فيقول: إن مروان لما قدم إلى دمشق، ومعه الأمويون الذين كانوا في المدينة، أقنعه الضحاكُ في أول الأمر، بالانضمام إلى ابن الزبير، ورضى مروان بأن يَقْدم بنفسه على ابن الزبير بِبَيْعَةِ أهل الشام؛ ولكن عمرو بن سعيد بن العاص وعبيد الله بن زياد ومالك بن هبيرة والحُصَيْن بن نمير[١] ــ والأخيران منهما من قبيلة سَكُون ــ أقنعوه بأن يقرر عقد البيعة لنفسه. فلما علم الضحاك بذلك رجع عن رأيه واعتذر لبني أمية، واقترح أن يذهب معهم إلى ابن بحدل في الجابية ويشترك معهم في اختيار الخليفة. فأقبل ابن بحدل في أهل الأردن إلى الجابية. وسار الضحاك وبنو أمية في أهل الشام إلى هناك أيضاً؛ ولكن قيساً قبضت على الضحاك، في آخر لحظة، وهو يصلي، وقالت له: دَعَوْتَنا لبيعة ابن الزبير، وهو رجل هذه الأمة، فلما تابعناك خرجتَ تابعاً لهذا الأعرابي من كلب، تبايع لابن أخته[٢]، تابعاً له! فعند ذلك اضطر الضحاك أن ينقلب وأن يفعل ما أشاروا به عليه من إظهار بيعة ابن الزبير، وسار حتى نزل مرج راهط. وأقبل ابن بحدل حتى لقى مروان حتى نزلوا المرج على الضحاك، وهم نحو سبعة آلاف رجل، والضحاك في نحو من ثلاثين ألفاً، وبدأ القتالُ فقُتِل الضحاك، وقتل معه أشراف من قيس، وأقبل زُفَر بن الحارث هارباً من وجهه إلى قرقيسيا، وأقام عمير بن الحباب شيئاً على طاعة

---

(١) وفي رواية عوانة خلاف يسير ــ الطبري ج ٢ ص ٤٧٤، وقارن ص ٤٨٧.

(٢) هذا لا يتفق تمام الاتفاق مع المقدمات، وابن أخت ابن بحدل المقصود هو خالد بن يزيد.

بني مروان، ثم أقبل حتى دخل قرقيسيا على زفر بن الحارث، فأقام معه، وذلك بعد يوم خازر، حين قُتِل عبيد الله بن زياد.

أما أبو مخنف (الطبري جـ ٢ ص ٤٨٠ فما بعدها) فهو يروى رواية مغايرة لذلك تماماً، فيقول إن مروان والأمويين الذين نفاهم ابن الزبير من المدينة ومكة ومن الحجاز كله لم يقصدوا دمشق، لأن الضحاك كان أميراً عليها لعبد الله بن الزبير، بل هم نزلوا تدمر، المقر الرئيسي لكلب والنقطة الوسطى لتَجَمُّعِهم. وبينما كان مروان على وشك أن يركب بنفسه إلى ابن الزبير ليبايعه بالخلافة ويأخذ منه الأمان لبني أمية، إذ ظهر عبيد الله بن زياد في تدمر آتيا من البصرة، فأشار على مروان بأن يأخذ البيعة لنفسه من أهل تدمر ويسير بهم وبمن معه من بني أمية، ويُخْرِجَ الضحاكَ من الشام. ووافق عبد الله بن زياد على رأيه عمرُو بْن سعيد. ثم أشار عمرو على مروان بأن يتزوج أرملةَ يزيد ليكون ابنها خالد في حجره، وكذلك حدث. فأخذ مروان البيعة لنفسه في تدمر وسار بعد ذلك في ستة آلاف رجل لقتال الضحاك، وخرج في أهل دمشق، وخرج معه زفر بن الحارث وغيره من أنصار ابن الزبير وساروا إلى مرج راهط، فقُتِل الضحاك وعامة أصحابه في المعركة، وتفرق جيشه. فأما زفر بن الحارث فإنه أخذ وجهاً من تلك الوجوه هو وشابّان من سُلَيْم؛ فجاءت خيلُ مروان تَطْلُبهُم، فخاف الشابان السُلَمِيّان أن تدركهم جميعاً خيلُ مروان، فقالا لزفر: يا هذا! أنْجُ بنفسك؛ أما نحن فمقتولان! وهكذا ضَحّيا بأنفسهما من أجله[١]. ثم لحق زفر بقرقيسيا، واحتال على واليها حتى دخل المدينة، ثم أخرجه منها وتحصّن هو بها. وأما ناتل بن قيس الجدامى أمير فلسطين، فإنه خرج منها هارباً ولحق بابن الزبير في مكة. ولما بلغ النعمانَ بن بشير أمير حمص خبرُ موقعة مرج راهط من أجناد حمص الذين

---

(١) وتشهد بذلك أبيات لزفر نفسه، فهو صحيح ــ قارن كتاب أنساب الأشراف ص ٢٥٣ فما بعدها.

انهزموا إليها، خرج هارباً ليلاً، ومعه أهلُه وولدُه وثُقْلُه. وتحيّر ليلته كلها، وأصبح أهل حمص، فطلبوه ولحقوه وقتلوه. وبعد هذا النصر أطبق أهلُ الشام كلهم على مروان واستوسقوا له، واستعمل عماله على بلاد الشام.

والواقدي يقف في موقف شبه وسط بين أبي مخنف من جهة وبين عوانة والمدائني من جهة أخرى. ويمكن جمع روايات الواقدي المتفرقة عند الطبري وتلخيصها على النحو الآتي: كان معاوية الثاني لما حضرته الوفاة قد أبى أن يستخلف أحداً (الطبري جـ ٢ ص ٥٧٧ س ١)، فبويع الضحاكُ مُؤَقّتاً في دمشق، إلى أن يجتمع أمر الأمة الإسلامية (الطبري جـ ٢ ص ٤٦٨). وكان الضحاك يعمل من أجل البيعة لنفسه، ولكن قريشاً دفعوه إلى مبايعة ابن الزبير (الطبري جـ ٢ ص ٤٧٣ فما بعدها)، وانضوى مروان تحت لواء الضحاك. ثم جاء الحصينُ بن نُمَيْر مع الأمويين الذين أخرجهم ابن الزبير من المدينة، وأخبر مروان بخبر ابن الزبير، وحثّه على أن يعمل هو وبنو أمية على إزالة ما هم فيه من اختلاف شديد وأن يقيموا أمرهم قبل أن يدخل ابن الزبير عليهم الشام فتكون فتنةٌ عمياء صمّاء. فكان من رأى مروان أن يرحل إلى ابن الزبير فيبايعه. ولكن عبيد الله بن زياد قدم إلى دمشق، لحسن الحظ، وشدّ ظهر بني أمية (الطبري جـ ٢ ص ٤٦٧ فما بعدها). وعند ذلك قصد مروان إلى الجابية، لكي يتحالف مع ابن بحدل واليمانيين. وهناك تلقى البيعة لنفسه باعتبار أنه شيخ بني أمية وكبيرهم، لأن أهل الشام لم يريدوا أن يبايعوا خالد بن يزيد، لأنه كان غلاماً حدثاً (الطبري جـ ٢ ص ٤٧٢ فما بعدها). وعند ذلك خرج مروان مع اليمانيين إلى دمشق، وهُزمت قبائل قيس عند مرج راهط في سنة ٦٤هـ، وقُتِلَتْ مَقْتَلَةً لم يُقْتَلْ مثلها في موطن قط (الطبري جـ ٢ ص ٤٧٣ س ١).

واهم النقط التي تختلف فيها هذه الروايات هي: لا يوجد ذكر ليوم جيرون

الذي كان فيه أول مَنْزَعٍ للتوتر الموجود في دمشق إلا عند عوانة، ولا يُذْكر عند غيره قط. ويؤيده كتابُ الحماسة (ص ٦٥٦ بيت رقم ٤) تأييداً لا يُدفَع، والشارح يخطئ في ذكر مناسبة ذلك (فهو يقول إنها كانت في عهد معاوية الأول)؛ وليراجع القارئ، خلافاً لذلك، كتاب الحماسة (ص ٦٥٧ بيت رقم ٣) وينفرد أبو مخنف بالقول بأن الأمويين الذين أخرِجوا من المدينة ذهبوا إلى تدمر، ولقيهم هناك عبيد الله بن زياد. وأبو مخنف يخالف في ذلك جميع الرواة، لأنهم يذكرون أن الأمويين توجهوا إلى دمشق[١]. على أن الواقع على كل حال هو أن ما حدث على مسرح جيرون حدث أيضاً في دمشق وحضره بعض الأمويين (الطبري ج ٢ ص ٤٧١ ـ ٤٧٢). أما القول بأن جميع الأمويين جاءوا من المدينة كانوا هناك فلا يظهر من وصف ما حدث، ولا يُذكر مروان وعمرو بن سعيد، وهما لا يظهران حيث يُنْتَظَرُ أن يظهرا. ورغم هذا فإن رواية أبي مخنف قد جُعِلتْ أعمَّ مما كانت، وذلك خطأ على كل حال، لأن تدمر عند أبي مخنف لا تحل محل دمشق وحدها، بل محل الجابية أيضاً. وهو يعتبر أن مبايعة مروان، التي حدثت في الجابية من غير شك، حدثت في تدمر. وربما كان ذلك لأن تدمر كانت المقر الرئيسي لقبائل كلب ولم تكن الجابية هي هذا المقر.

أما انقلاب مروان فلا يذكره عوانة على الإطلاق. وأما القول بأن مجيء عبيد الله بن زياد هو الذي أحدث هذا الانقلاب، فهو ما يقوله أبو مخنف والواقدي، وهما جديران بالثقة، وخصوصاً أن المدائني يوافقهما فيما يقولان (الطبري ج ٢ ص ٤٥٩؟).

ويقول عوانة والمدائني إن الضحاك كان من أول الأمر يهوى هوى ابن الزبير، وإن كان لم يجاهر بذلك. ويقول أبو مخنف إنه كان أميراً لابن الزبير

---

(١) انظر أيضاً كتاب *Cont. Byz. Ar*, § 29.

على دمشق. ولكن أبناء الضحاك قالوا للواقدي (الطبري ج ٢ ص ٤٧٣ فما بعدها) إن ذلك كذبٌ من جانب آل الزبير، وإن الضحاك أراد أن يبقى محايداً لكي يصل هو إلى الخلافة، وإنه لم يبايع ابن الزبير إلا كارهاً. ويستطيع الإنسان أن يصدق أبناء الضحاك. ويظهر أن الضحاك، شأنه شأن مسلم بن عقبة، قد احتفظ في خلافة يزيد أيضاً بالمركز الذي كان له أيام معاوية، وكان هو الساعد الأيمن لمعاوية. وبعد أن انتهى ملك أسرة معاوية كان الضحاك هو الخليفة المؤقّت في دمشق، ولكنه لم يستطع أن يحتفظ بمركزه فوق الأحزاب، وبعد تردد طويل انضم أخيراً إلى جانب قيس وابن الزبير.

وكان الذي أخرجه عن الحياد هو بوجه خاص حسّان بن مالك بن بحدل، منافسه القديم وخصمه الخطير عندئذ. وكانت وراء حسّان قبائلُ كلب، وظلّ حينا ينافح وحده عن راية بني أمية بدفاعه عن حقوق أبناء يزيد، وهم أبناء أخته. وقد انضم إليه أَمَوِيّو المدينة في ذلك، ولكنهم لم يُقَدِّموا في أول الأمر مُرَشَّحاً للخلافة من بينهم، بل كانوا يعتقدون أنهم يجب عليهم أن يسالموا ابن الزبير، مهما كان في ذلك من خير أو شر، ولم يغيِّر رأيَهم إلا عبيد الله بن زياد، ذلك أنها لما بيّن عبيد الله لمروان أنه ليس مضطراً أن يختار بين ابني يزيد الغلامين القاصرين وبين ابن الزبير وحدهم، بل يجب عليه أن يتقدم هو للرياسة، كانت الوسيلة الوحيدة لذلك هي أن يتفاهم مع ابن بحدل لأن ابن بحدل هو الذي كانت في يده دون غيره القوةُ الكافية (الطبري ج ٢ ص ٧٠٨ س ٤ ــ ٥). ولتحقيق هذا الغرض تمّ الاجتماع في الجابية، ويظهر أن الضحاك كان قد وافق على أن يحضر الاجتماع، وهو الذي وصل الاجتماع إلى غايته بعد مفاوضات طويلة. ومن المؤكد أن هذا الاجتماع وقع فعلاً، وإن كان أبو مخنف لم يذكره؛ ذلك أنه ما كان شيءٌ ليمكن أن يُعْمل بدون ابن بحدل، وظل ابن بحدل

يصلى بالناس في الجابية أربعين يوماً، وكان هو المنتصر الحقيقي في مرج راهط[١]. يقول تيوفانيس في أخبار حواث سنة ٦١٧٥:

Και συναχθέντες οί Φοίνικες καί οί Παλααιστίνης ἐπὶ τὴν Δάμασκον ἔρχονται καὶ ἕως τοῦ Γαβιθᾶ πρός Ἄσαν ἀμηρᾶν Παλαιστίνης, καὶ δίδουσι χεῖρας δεξιὰς τφ Μαρονὰμ καὶ ἱστῶσιν αὐτὸν ἀρχηγόν[2].

أما المؤرخون المحدثون، وعلى رأسهم دوزى، فهم يتكلمون عن عداوة متأصلة بين كلب وقيس، ويزعمون أنها ترجع إلى أزمان لا تعيها ذاكرة التاريخ ولا يمكن الوصول إلى عروقها. ولكن شيئاً من ذلك لا يوجد في الروايات السابقة على الإسلام. فالحقيقة هي أن العداوة لم تكن موجودة قبل فتح الشام على يد المسلمين ولا قبل هجرة قبائل قيس إلى الشام[٣]. على أن التمايز في النسب بين قضاعة وقيس كان موجوداً من قديم، ولكنه لم يصبح سبباً في تسمم العلاقة بينهم إلا الآن. وقد اشتدت الخصومة بينهم أول الأمر، لأن قضاعة كانت متوطنة في الشام من قبل وأن قيساً كانت حديثة عهد بالهجرة إلى هناك. ولكن الخصومة زادت حدة بوجه خاص لأن قبائل كلب أصبحت بفضل مصاهرتها

---

(١) قارن الحماسة ص ٣١٩ س ٧:

وما الناس إلا بَحْدَليٌّ على الهوى وإلا زُبَيْــرِيٌّ عصى فَتَزبَّــرا

ولكن قارن خصوصاً ص ٦٥٨ بيت رقم ١ ــ ٢

أعَبْدَ المليك ما شكرتَ بلاءَنَــا فكُلْ في رخاء الأمن ما أنْتَ آكلُ

بجابية الحُــولان لولا ابْنُ بحدل هلكتَ ولَم ينطقْ لقــومِك قــائلُ

(٢) [وترجمة هذا النص اليوناني هي: وبعد أن اجتمع أهل فينيقية وأهل فلسطين وذهبوا إلى دمشق ومنها إلى الجابية إلى الحسن أمير فلسطين بايعوا مروان ونصَّبوه خليفة ــ المترجم].

(٣) وقد أصاب جولدزيهر (*Muh, Studten* 1, 78) في القول بأن التنافس بين عرب الشمال وعرب الجنوب لم يظهر حقيقة إلا في الإسلام.

لمعاوية ويزيد قريبةً من البيت الحاكم. وكان من أثر ذلك أن امتلأت نفوس قيس بالحسد، لأنهم اعتقدوا أنهم قد زُحْزِحوا إلى المرتبة الثانية. ثم صاروا هم البادئين بالشرّ، وذلك أنه لما ارتفع شأنُ ابن الزبير بعد وفاة يزيد، انضمُّوا إلى جانبه، على حين حافظت كلب على ولائها للأمويين. وهكذا امتزج الخصام القَبَلي بالسياسة العليا، وكانت مجموعات القبائل المرتبطة برابطة النسب هي بالإجمال الأحزاب السياسية التي كانت في أصلها مستقلة عن القبائل. وفي موقعة مرج راهط، إذا أخذنا بالقصائد القديمة التي قيلت فيها، كانت قبائل سُلَيْم وعامر (هوازن) وذبيان (غطفان) ــ وكلها قبائل تنتمي إلى مجموعة قبائل قيس ــ يحاربون تحت إمرة الضحاك مع ابن الزبير. أما القبائل التي كانت تحارب لأجل مروان تحت قيادة ابن بحدل فكانت قبائل كلب وغسّان وسَكُون وسَكسَك وتنوخ وطيّئ وقين، وهذه المجموعة التي كانت تتألف من قبائل كلب[1]، وهي القبيلة الرئيسية في قضاعة، كانت أكثر تنوعاً، وهي تسمى أحياناً باسم شامل هو: اليمن. ولكن اعتبار قضاعة داخلة في قبائل اليمن لم يكن قديماً، ولم تنضم قبائل اليمن كلها في الشام إلى قبائل كلب. وقد انتهت موقعة مرج راهط بانتصار كلب على قيس التي كانت أكثر من كلب ضعفيْن أو ثلاثة أضعاف. ولكن النزاع بين قيس وكلب لم ينته بذلك، لأن قيساً كان لا بد أن تثأر لقتلاها الكثيرين. وهنا، لا قبل ذلك، يبدأ على وجه أصح ذلك الخصامُ المرير المستمر الذي يعتبره دوزى ظاهرة قديمة جداً يردُّها إلى الأزل، مخالفاً في ذلك للتاريخ مخالفة تامة.

---

(١) كانت سكون (من كندة) تعتبر أنفسها منهم (الطبري ج ٢ ص ٤٧٥ س ٢). وكانت تنوخ وطيئ أيضاً مرتبطة بهم ارتباطاً وثيقاً (الطبري ج ٢ ص ٤٨٤ س ١٢). أما غسان (من الأزد) فكانت هي القبيلة القديمة الحاكمة من عرب الشام. وفي كتاب الحماسة (ص ٧١ بيت رقم ٣) تسمى قبائل كلب باسم تغلب، إذا صح ما جاء في الشرح.

وكان البغض الناشئ عن اختلاف الدم يتجدد في كل مناسبة يجد فيها ما يشفيه، وهو قد كان يُلهب نيرانَ العداوة، حتى بعد أن زالت الأسباب السياسية، وبعد أن نُسيت، بزمان طويل. والوزن في ذلك يرجع إلى موقعة مرج راهط؛ وفي هذا ينحصر شأنها الخطير وما جرّته من كوارث؛ فلقد جاءتْ للأمويين بالنصر، ولكنها في الوقت نفسه زعزعت أسس ملكهم.

وتلقى مروانُ البيعة في الجابية يوم الأربعاء لثلاث خلون من ذى القعدة سنة ٦٤هـ، الموافق الأربعاء ٢٢ يونيه سنة ٦٨٤ م. بعد موقعة مرج راهط (آخر عام ٦٤هـ) جاءت بيعةٌ أخرى كانت ذات صبغة أعمّ وأقوى احتفالاً، وذلك في دمشق في المحرم سنة ٦٥هـ، الموافق يوليه ـــ أغسطس سنة ٦٨٤ م.

وقد وصل مروان، بفضل إخراجه من المدينة، إلى عرش دمشق دون فضيلة اختص بها[١]، بل ودون أن يكون هو نفسه قد أراد ذلك أو حدّث نفسه به. وقد بدا هذا لصاحب كتاب Cont. Byz. Arab. شيئاً عجيباً، وله أن يعجب؛ فهو يقول[٢]:

---

(١) [الحقيقة أنه بعد موت يزيد وتنازل معاوية الثاني ثم موته لم يبق من بيت أبي سفيان سوى غلامين حدثين، هما خالد وعبد الله، ابنا يزيد. وكانت تلوح على خالد ـــ الذي اتجه إلى دراسة الحكمة فيما بعد ـــ علامات الذكاء، ولكنه كان حدثاً لا يمكن اختياره للخلافة أمام ابن الزبير. ولم يكن هناك من بيت النبي نفسه أحد بعد قتل الحسين ووفاة الحسن، وقد استعرض روح بن زنباع الجذامى الموقف في خطبة له (الطبري جـ ٢ ص ٤٧٥ ـــ ٤٧٦) عند تنوّع الأهواء حول المرشح للخلافة، وأن ابن الزبير، رغم مكانته، منافق خارج على الأمة، قد سفك دماء المسلمين؛ فلم يبق إلا مروان بن الحكم. ويذكر عند الطبري في مواضع أخرى، ما كان لمروان من سن وتجربة، وما كان مسلماً له به من أنه شيخ بني أمية وكبيرهم. وإذن فلم يكن انتخاب مروان جزافاً، بل كان لأنه لم يكن في بيت بني أمية من يصلح للخلافة غيره؛ ولولا تعيينه خليفة اتفقت عليه كلمة أهل الشام الذين كانوا عماد الدولة العربية، لتعرضت هذه الدولة لأعظم الأخطار. أما إنه لم يكن يطمح في الخلافة فهذا صحيح ـــ المترجم].

(٢) [وترجمة هذا النص اللاتيني هي: وشاعت إرادة الله أن يعتلى مروان العرش (بعد أن كان قد أخرج غدراً من المدينة) بعد فترة طويلة من الزمان، وذلك بفضل جماعة من الجيش اتفقت على ذلك ـــ المترجم].

Marvan (insidtose ab Almidina pulsus) post modica temporis intervalla aliquantis de exercitu consentientibus deo conivente provehitur ad regnum.

وهكذا بقيت الخلافة في بيت بني أمية، ولكن المروانيين أزاحوا السفيانيين عنها[١]؛ وكان زواج مروان من فاختة[٢] أرملة يزيد، أشبه بأخذ الميراث منه بأن يكون زواجاً ومصاهرة. وقد آلم مروان بذلك نفس خالد بن يزيد[٣]، الذي أصبح في حجره، ألماً شديداً. وكان مروان لا يألو جهداً في إسقاط خالد من أعين الناس (الطبري ج ٢ ص ٥٧٧). وأخيراً حرمه مما كان قد وعده به في الجابية من أن تكون له الخلافة بعده، فأخذ البيعة لابنيه: عبد الملك وعبد العزيز، على أن يكون عبد العزيز بعد عبد الملك[٤]. ولم يعارض ابن بحدل في هذا النكث بالعهد، وربما كان ذلك لأن من شأن هذا النكث أن يُنَحّيَ عمرو بن سعيد بن العاص أيضاً، لأن مروان كان شيخاً قد كَبِرَتْ سِنّهُ ودقّ عظْمُه، وكان لا يُنْتَظَرُ له أن يعيش طويلا؛ وكان خالد بن يزيد، بحسب رأي العرب، لا يزال صغيراً لا يصلح لتولي الخلافة، وعلى هذا كان مآل الخلافة إلى عمرو بن سعيد، وكان عمرو واثقاً من ذلك. ولكن فاختة انتقمت لابنها خالد من غدر مروان وتعمُّده إسقاط خالد في أعين الناس، فغطَّته بالوسادة وهو في سريره حتى قتلته، وهذا ما يرويه الواقدي (الطبري ج ٢ ص ٥٧٦ فما بعدها).

٤ ــ ومات مروان بن الحكم، بحسب رواية الطبري (ج ٢ ص ٥٧٧ س ١٧)، في رمضان، وبحسب رواية الطبري أيضاً (ص ٥٧٦ س ١٦) في

---

(١) قارن ما تقدم ص ١٦٦ ــ ١٦٧ و١٧٥.

(٢) لم تكن فاختة في رأي ا. موللر A. Müller, I, 375 بدوية أبية، وإنما كانت قرشية [كيف وقد تقدم أنها كانت أخت ابن بحدل، سيد كلب ــ المترجم].

(٣) راج البيت المذكور عند ابن الأثير، ج ٤ ص ٢٧٥، وقارن ص ٢٩٦ س ٨.

(٤) راجع فيما يتعلق بزمان هذه البيعة ومكانها كتاب أنساب الأشراف (ص ١٥١، ١٦٤ فما بعدها).

هلال رمضان. وبحسب ما يقوله إلياس النصيبي في يوم الأحد ٢٧ رمضان سنة ٦٥هـ، الموافق الأحد ٧ مايو سنة ٦٨٥ م. وتختلف الروايات في عمره عند الطبري (جـ ٢ ص ٥٧٧ فما بعدها) بين ٦١ و ٨١ عاماً بحسب الأقل والأكثر. ويقول تيوفانيس إنه حكم تسعة أشهر، ويقول الطبري إنه حكم تسعة أشهر أو عشرة. ويذكر في كتاب Contin. Byz. Ar. § 29 أنه مات بعد عام مملوء بالحروب؛ وإني أضمُّ هذه الحروب إلى حروب ابنه وخليفته عبد الملك، لأنها ليست إلا البداية، ولأن الحدود بين حكميها لا يمكن وضعها في كل الأحوال وضعاً دقيقاً[١].

وكانت أكبر حرب هي الموجهة إلى ابن الزبير، وعلى الأقل إلى الولايات التي كانت قد بايعت له وكان عليها أمراءٌ من قِبَلِهِ[٢]. وعاد الموقف في الجملة إلى ما كان عليه بعد مقتل عثمان. فوقفت الشام وحدها أمام جميع البلاد الإسلامية؛ غير أن سيد الشام عند ذلك لم يكن واثقاً من ولائها له ثقة معاوية من قبل. وبعد موقعة مرجع راهط انضمت فلسطين وحمص، من غير تردد، إلى الجانب المنتصر. وسلّمت قنسرين أيضاً. ولكن قبائل قيس ثبتت على ضفاف الفرات على عنادها وكان سيِّدُها زفر بن الحارث في قرقيسيا. ورغم هذا ظهر مروان وعبد الملك من أول الأمر مهاجميْن لابن الزبير؛ وربما كان ما على ابن الزبير أن يواجهه من اضطرابات في الداخل، خصوصاً في العراق، أشد عليه من هجوم مروان وعبد الملك[٣].

وبعد أن اجتمع لمروان أمرُ الشام سار إلى مصر، وأخذ البيعة فيها لنفسه؛

---

(١) والحدود المرسومة عند الطبري (جـ ٢ ص ٥٥٨ س ١٤، ٥٧٨ س ٩، ٧٠٨ س ٤) خطأ من غير شك.

(٢) قارن فيما يتعلق بخراسان الطبري جـ ٢ ص ٨٠٦، ٨٣١ فما بعدها، وقارن الفصل الثامن فيما يلي.

(٣) قارن فيما يتعلق بما يأتي: *Schia*, p. 72ss. *Chavârig*, p. 32ss.

ثم أقبل راجعاً إلى دمشق، حتى إذا دنا منها بلغه أن ابن الزبير قد بعث أخاه الأصغر مصعب بن الزبير نحو فلسطين؛ فسرّح إليه مروانُ عمرو بن سعيد في جيش فهزمه[١]. غير أن محاولَةً لمروان أراد بها استرداد المدينة باءت بالفشل[٢]، ووجّه مروان عبيد الله بن زياد إلى الجزيرة لكي يعبر إلى العراق التي كانت قد مزقها النزاع بين الأحزاب الدينية السياسية. ويروى أن مروان وعد عبيد الله بأن تكون له جميع البلاد التي يغلب عليها وأنه أمره إذا هو غلب على الكوفة أن يُنْهِبهَا ثلاثة أيام (الطبري جـ ٢ ص ٥٧٨ و٦٤٢). وفي أول هذه الحملة، عندما كان عبيد الله لا يزال عند جسر مَنْبِج على الفرات. كانت مقتلةُ شيعة الكوفة الذين كان يقودهم سليمان بن صُرَد عند عين وردة، وكان قتلهم على يد الحصين بن نمير قائد عبيد الله بن زياد يوم الجمعة ٢٤ جمادى الأولى سنة ٦٥هـ، الموافق الجمعة ٦ يناير سنة ٦٨٥ م (الطبري جـ ٢ ص ٥٥٩ س ٤، ٢٠). ثم اضطر عبد الله أن يشتغل عند ذلك بقتال زُفَر بن الحارث ومن معه من قيس نحواً من سنة[٣]، وبعد ذلك تقدّم سائراً مع طريق الجيوش العادي إلى العراق قاصداً الموصل، وذلك في الوقت الذي كان فيه المختار الثقفي قد استولى على الكوفة. وانحاز أمير الموصل من قِبَل المختار إلى تكريت (الطبري جـ ٢ ص ٦٤٣)، فهزم عبيدُ الله الجيشَ الأول الذي وجهه إليه المختار، بعد قتال عنيف، وذلك في العاشر والحادي عشر من ذى الحجة سنة ٦٦هـ، الموافق ٩ و١٠ يوليه سنة ٦٨٦ م (الطبري

---

(١) الواقدي عند الطبري جـ ٢ ص ٤٦٧ س ١٠، وأبو مخنف ص ٤٨١، وعوانة ص ٥٧٦؛ وقد تم ذلك على يد عمرو بن سعيد، قبل أن يأخذ مروان البيعة لولديه ــ راجع كتاب أنساب الأشراف ص ١٦٤ س ١٧.

(٢) عوانة عند الطبري جـ ٢ ص ٥٧٨ فما بعدها وص ٦٤٢، راجع أيضاً كتاب أنساب الأشراف ص ١٥٥ س ٢، ١٨٠ س ٢. وكان يوسف الثقفي والد الحجاج مشتركا في ذلك، وهذا بحسب حكاية ابن قتيبة ص ٢٠١.

(٣) الطبري جـ ٢ ص ٤٦٣، ويعتبر فان جيلدر (Van Gelder في كتابه Muchtar, P. 96, 152) أن هذا خطأ. دون أن يبدي الأسباب الكافية لما يقول.

جـ ٢ ص ٦٤٦ وما يليها). ولكن عبيد الله لم يلبث أن هُزِم بعد ذلك أمام جيش ثانٍ للشيعة يقوده إبراهيم بن الأشتر، وذلك في موقعة خازر، في أول سنة ٦٧هـ[١]؛ وقُتل عبيد الله نفسه كما قُتل الحصين بن نمير أيضاً (الطبري جـ ٢ ص ٧١٤ س ١ ــ ٣). وكان طبيعياً أن ترفع قيس رأسها من جديد في قرقيسيا، وشَدّت من أزرهم رجالٌ من قبائلهم، جاءوا تحت إمرة عُمَيْر بن الحباب، وكانوا من قبل يحاربون في جيش الشام، ولكنهم انفصلوا عنه في أثناء موقعة خازر أبو بعدها. وذهب العمل الذي قضى عبيد الله قرابة عامين في تحقيقه سدىً، وكان لا بد أن يُعمَل من جديد. وكان من حسن حظ عبد الملك أن مصعب بن الزبير، وكان أميراً لأخيه على العراق، قد ضايقه الشيعة والخوارج في إمارته نفسها، فلم يكن يستطيع أن يفكر في الشروع في حرب خارج العراق.

وكان لا بد أن يمضي زمانٌ طويل قبل أن يستطيع عبد الملك أن يستأنف المهمة التي فشل فيها عبيد الله بن زياد، أعني إخضاع العراق التي كان يحكمها مصعب مستقلا بعض الاستقلال عن أخيه. وكان على عبد الملك أن يشتغل بمشكلات في الداخل، لأن ناتِلَ بن قيس، فيما يظهر، بدأ يتوثب من جديد[٢]، ولكن الذي عاق عبد الملك هو بنوع خاص أن الروم خرقوا السلام، وأخذوا يحرضون الجراجمة (die Mardaiten) في جبال اللكام (Amanus) على العرب[٢]؛ ولكن مصعباً قُتل في سنة ٧٢هـ، وانتهت الحرب الأهلية في سنة ٧٣هـ. وفيما

---

(١) أغسطس سنة ٦٨٦ م. وقد نبهنى دى غوى إلى التاريخ الدقيق الموجود في كتاب التنبيه والإشراف للمسعودي ص ٣١٢ س ١٧ [هو يوم عاشوراء سنة ٦٧هـ ــ المترجم].

(٢) راجع اليعقوبي جـ ٢ ص ٣٢١ والمسعودي جـ ٥ ص ٢٢٥، لكن ربما لا يكون هنا سوى خطأ في تاريخ السنة.

(٣) Göttinger Nachrichten 1901, p. 428ss.، [وجاء عند اليعقوبي ص ٣٢١، أنه لما أراد عبد الملك النهوض إلى محاربة ناتل بن قيس بفلسطين أتاه الخبر أن طاغية الروم قد أناخ على المصيصة، فكره أن يتشاغل بمحاربته مع اضطراب البلدان، فوجه إليه فصالحه وحمل إليه أموالا كثيرة ــ المترجم].

يتعلق بالمدة بين سنة ٦٧هـ، التي قُتل فيها عبيد الله بن زياد، وسنة ٧٢هـ نجد الروايات ناقصة. والمهم هو تحديد أزمنة الحوادث، وهي لا تزال مضطربة اضطراباً تاماً. ويجب ألا يعزب عن البال أن نقطة الانتقال من عام إلى عام، بحسب التاريخ الهجري، كانت تقع في ذلك الوقت في الصيف وأن الحوادث التي كانت تتوقف في الشتاء عادة (الطبري جـ ٢ ص ٧٩٧ س ١٠) كانت تنقسم بين سنتين من سنى الهجرة، على حين أنه لا تذكر في تحديد تواريخ الحوادث إلا سنة واحدة.

ومن السهل أن نفهم لماذا ترك عبدُ الملك مصعبَ بن الزبير يحارب المختار في سنة ٦٧هـ، وأنه لم يُزعج أهل العراق، وهم يقتتلون ويفنى بعضهم بعضاً. ويذكر الطبري (جـ ٢ ص ٧٦٥) وإلياس النصيبي أنه كان في الشام قحطٌ في سنة ٦٨هـ وبسببه لم يقدر أهلها على الغزو. ويتكلم تيوفانيس (في أخبار سنة ٦١٧٩ = ٩٩٨ من حكم السلوقيين = ٦٨هـ) عن ذلك أيضاً. أما المدائني (الأغاني جـ ١٧ ص ١٦١ س ٢٦) فليس على حق فيما يقوله خلافاً لذلك، وهو يضع المجاعة في سنة متأخرة عن ذلك بعض التأخير.

ويقول رواةُ العرب وإلياس النُصَيْبي[1] إن أول خروج عبد الملك لقتال مصعب بن الزبير كان في صيف سنة ٦٨٩ م = ٦٩ ــ ٧٠هـ. وكان معسكره ونقطة تجمع جيشه وقاعدة تدبير عملياته الحربية في بُطْنَان حبيب من أعمال قنسرين، في هذه السنة وفي السنين التالية[2]. أما مصعب فكان معسكره في

(١) إن ترتيب الأحداث العربية في هذه السنين مضطرب عند تيوفانيس اضطراباً تاماً، بحيث لا يستطيع الإنسان أن يعتمد على ما يقوله عن زياد (= ابن زياد) والمختار وسعيد (= ابن سعيد) وعن مصعب إلا بعد إصلاح ترتيب الحوادث من حيث الزمان.

(٢) إن الرواية القائلة بأن عبد الملك كان مع الجيش في بطنان حبيب منذ سنة ٦٧هـ تخالف الرواية المتقدمة عليها التي تقول إنه في هذه السنة لم يستطع أن يغزو بسبب القحط. وإنما تذكر هنا كلمة «بطنان» بمناسبة ما يحكى من أنه في ذلك الوقت كان تحت أقدام الجيش بطنان الوحل، وذلك بسبب المطر الذي نزل بعد الجفاف. وسبب التسمية لا بد أنه كان يرجع إلى أحوال دائمة لا إلى ظروف طارئة، كما قيل عن هاربورج Harburg في إقليم Landdrestei Lüneberg إنها هاربورج الوحل Dreck-Harburg.

باجُمَيْرا، عند تكريت[١]؛ وكل من المعسكرين كان ثغراً ونقطة حدود على الطريق الكبير بين الشام والعراق. أما أرض الجزيرة فكانت منطقة بين العَدُوَّيْن، غير أنها كانت أقرب إلى أن تكون في يد مصعب منها إلى أن تكون في يد عبد الملك، وذلك أن قبائل قيس على الفرات كانت أيضاً إلى جانب مصعب. ولكي يكفى عبد الملك نَفْسَه خطرَ الروم فإنه صالحهم على أن يحمل إليهم أموالاً كثيرة[٢]؛ ولكن عمرو بن سعيد بن العاص ثار في دمشق وتحصَّن بها، يريد الحصول على ما صار له في معاهدة الجابية من حق في الخلافة وحرمه منه مروان بنقضه هذه المعاهدة. فصار عبد الملك مُهَدَّداً من خلفه، واضطر إلى أن يقفل راجعاً لدرء هذا الخطر، فأعمل السيف وقتل أعداءه (الطبري جـ ٢ ص ٨٠٥)، وقتل بيده عمرو بن سعيد بن العاص على نحو فيه غَدْرٌ وقسوةٌ منكرةٌ. والروايات (الطبري جـ ٢ ص ٧٨٣ فما بعدها وص ٧٩٦ وكتاب أنساب الأشراف ص ٢٥) تضع بعض هذه الحوادث في سنة ٦٩هـ، وتضع بعضها الآخر في سنة ٧٠هـ؛ ولكن لا يصح أن يُخدع الإنسان بهذا فيعتبرها منفصلة، لأنها في الحقيقة متصلة وقد وقعت في صيف واحد. والروايات مضطربة أيضاً فيما يتعلق بالمدى الذي ذهب إليه عبد الملك بالفعل في حملته نحو الشمال الشرقي. فيقول الواقدي (الطبري جـ ٢ ص ٧٨٣) وإلياس النُصَيْبي إنه رجع من عند عين وردة، ولكن الواقدي نفسه (الطبري جـ ٢ ص ٧٩٦) يقول إنه لم يكن قد تجاوز بطنان حبيب. ويظهر أن عوانة (الطبري جـ ٢ ص ٧٨٣ فما بعدها) يأخذ بالرواية

---

(١) يقول ياقوت (جـ ١ ص ٦٦٤) إن عبد الملك أيام حربه مع مصعب بن الزبير كان يشتو في بطنان حبيب، وإن مصعبا كان يشتو في مسكن. وكان لمسكن نفس الأهمية الجغرافية العسكرية تقريباً التي لباجُمَيرا ــ قارن البلاذري (ص ١٤٩ س ٨).

(٢) راجع Göttinger Nachrichten 1901 p. 488 [ويقول الطبري جـ ٢ ص ٧٩٦، إن عبد الملك صالح ملك الروم على أن يحمل إليه في كل جمعة ألف دينار، وذلك خوفاً منهم على المسلمين ــ راجع هامش صفحة ١٨٢ ــ المترجم].

الأخيرة؛ وهو يقول إن عبد الملك كان في طريقه إلى محاربة زفر بن الحارث في قرقيسيا[١]، ولكنه اضطر أن يرجع لأن عمرو بن سعيد ــ بعد أن كان قد رافق عبد الملك إلى البطنان ــ رجع خفية هو وآخرون إلى دمشق، واستولى عليها، ونجد مثل هذا عند اليعقوبي (ج ٢ ص ٣٢١ فما بعدها).

وفي السنة التالية، سنة ٧٠ ــ ٧١هـ = صيف ٦٩٠ م، أعيدت الحملة؛ وفي هذه المرة أيضاً لم يشتبك الخصمان. وبينما كان مصعب في الميدان (الطبري ج ٢ ص ٧٩٨ ــ ٨٠٣) دبّر عبد الملك ثورةَ قبائل كلب أو ربيعة (وهم المسمون الجُفرِيَّة) في البصرة؛ وقد اشترك في قتال مصعب وزفر رجلان من تلقاء أنفسهما، ولم يكن ناشئاً عن المحبة لعبد الملك بمقدار ما كان ناشئاً عن البغض لمصعب بن الزبير: وهما عبيد الله بن الحرّ الجعفى من أشراف الكوفة (الطبري ج ٢ ص ٣٠٥ و٣٨٨ فما بعدها و٧٦٥ فما بعدها) وعبيد الله بن زياد بن ظبيان البكري من أهل البصرة، وكان شجاعاً مقداماً ومن أفتك الناس (الطبري ج ٢ ص ٨٠٠ و٨٠٧ ــ ٨١٠، ابن الأثير ج ٤ ص ٢٥٥ و٢٦٨ وكتاب الأغاني ج ١١ ص ٦٢).

ولم ينته هذا اللقاء إلى شيء. يقول الطبري في حوادث سنة ٧١هـ (ج ٢ ص ٧٩٧) إن عبد الله خرج إلى العراق لقتال مصعب بن الزبير. ثم يذكر ما كان يقال من أن عبد الملك كان لا يزال يقرب من مصعب حتى يبلغ بطنان حبيب، وأن مصعباً كان يخرج إلى باجُمَيْرا ــ فكانت المسافة بينهما غير كبيرة ــ ثم يهجم الشتاء، فيرجع كل واحد إلى موضعه؛ ثم يعودان، ويمكن الشك فيما إذا كان ما يقال هنا من خروج عبد الملك تكرار خطأ لما كان

---

(١) وفي كتاب الحماسة (ص ٦٥٨ بيت رقم ٦) ذكر هجوم قيس على البطنان، وأن الفضل في رد هجومهم لقبائل كلب.

قد وقع في سنة ٦٩ ــ ٧٠هـ. وثورة الجفرية التي يذكرها الطبري في حوادث سنة ٧١هـ (قارن الطبري جـ ٢ ص ٨١٣ س ١١ وما بعدها) كانت قد وقعت بحسب ما جاء عند الطبري نفسه (جـ ٢ ص ٧٩٨ س ٥) في سنة ٧٠هـ. ويظهر أن الواقدي (الطبري جـ ٢ ص ٨٠٥) يضع هذه الثورة في نفس الوقت الذي يضع فيه ثورة عمرو بن سعيد في دمشق؛ ولكنه على كل حال لا يذكر تاريخ الحملة الأخيرة الحاسمة، فيجعلها سنة ٧٠ ــ ٧١هـ (الطبري جـ ٢ ص ٨١٣).

وعلى هذا فلا يمكن في الجملة إلا القول بحملتين. ولكن الإنسان مع هذا لا يظفر بحقيقة الأمر؛ وهذا يتبين، كما سنرى، إذا حسبنا تاريخ الحوادث من أواخرها. ولكنه يتبين أيضاً من الدلائل المباشرة؛ ففي بيت شعري من ذلك العصر (الأغاني جـ ١٧ ص ١٦٢ والمسعودي جـ ٥ ص ٢٤١) يُخَاطَب مصعبٌ هكذا:

أكلَّ عـــام لـــك باجُمَيـــْرا تغـــزو بنـــا ولا تُفيد خيـــرا

وفي بيت آخر (الطبري جـ ٢ ص ١٠٣٨ س ٤) ذكرُ كلمة باجُمَيْرا في صيغة الجمع، أعني باجميرات. والمقصود هو جمع الزمان لا جمع المكان. أما المدائني (الأغاني جـ ١٧ ص ١٦١ فما بعدها) فهو يصرح بذكر ثلاث حملات في ثلاث سنين متوالية، ويروى أنه لما كانت سنة ٧٢هـ استشار عبد الملك رجالاً في المسير إلى العراق ومناجزة مصعب بن الزبير، فقال عبد الرحمن بن الحكم: يا أمير المؤمنين! قد واليتَ بين عاميْن، تغزو فيهما، وقد خَسِرْتَ خيلك ورجالك؛ وعامُك هذا عامٌ حاردٌ، فأرِح نفسَك ورجالك، ثم ترى رأيك. وقال له يحيى بن الحكم ــ وكان عبد الملك يقول: من أراد أمراً فليشاور يحيى بن الحكم. فإذا أشـــار عليه بأمر فليعمل بخلافه ــ: أرى أن ترضى بالشام وتُقِيمَ بها، وتدَعَ مصعباً بالعراق، فلعن الله العراق! وقال له محمد بن مروان:

أرجو أن ينصرك الله، أقمتَ أم غزوتَ، فَشَمِّرْ! فإن الله ناصرُك. فاستعدّ عبد الملك للمسير، وخرج لقتال مصعب، فجاءت له السنة الثالثة بالنصر الحاسم.

وكان ذلك في صيف سنة ٦٩١ م = ٧١ ــ ٧٢هـ. وقضى عبد الملك الشطر الأكبر من هذا الصيف في إخضاع أرض الجزيرة. وقد استسلم زُفَرُ بنُ الحارث في قرقيسيا بعد حصار طويل، أما ابنه الهذيل فقد اضطر إلى أن يلحق بعبد الملك في حروبه[1]. ونجد الأخبار المفصلة في هذا عند ابن الأثير (جـ ٤ ص ٢٧٥ فما بعدها)، وعنده توجد أيضاً أخبار غَزْوٍ لقرقيسيا قام به قبل ذلك، بأمر من عبد الملك، أبانُ بن عقبة بن أبي معيط، أمير حمص؛ ولكنه لم ينته إلى شيء. وبحسب هذه الأخبار لم يستسلم زُفَر أمام جيش كلب وقضاعة، بل هو انضم إلى عبد الملك طوعاً واختياراً، بعد أن أعطاه عبدُ الملك الأمانَ. ولا شك أن هذا من إملاء روح الفخر الكاذب عند قيس؛ فهي تريد، بعد أن انهزمت، أن تُزيل مرارة الهزيمة. ولكن كان لا بد بعد تسليم قرقيسيا من التغلب على عين وردة (Rasaina)، وكان عمير بن الحباب لا يزال فيها متحصناً مستمراً في المقاومة[2]، كما كان لا بد من التغلب على نصيبين أيضاً. وكان المسمَّون بالخشبية، وهم بقية

(١) راجع كتاب أنساب الأشراف ص ٢٤ س ١٧ فما بعده، وابن الأثير (جـ ٤ ص ٢٦٥). أما تيوفانيس فهو يضع الاستيلاء على Cirecium (قرقيسيا) في سياق حوادث خاطئ. [وفي كتاب أنساب الأشراف ص ٢٤ ــ ٢٥ أن زفر بن الحارث لما صالح عبد الملك اشترط ألا يقاتل معه، وابن الزبير حي. ولم يدخل الهذيل بن زفر بن الحارث في شرط أبيه. فلما سار عبد الملك إلى مصعب سار معه الهذيل، ثم تحول إلى مصعب، وقاتل مع إبراهيم بن الأشتر... ثم عفا عنه عبد الملك لشجاعته ــ راجع أيضاً ابن الأثير جـ ٤ ص ٢٦٥، ٢٧٥، ٢٨٥ ــ المترجم].

(٢) راجع .Barhebr، ط .Bedjan ص ١١١. وحباب هو بطبيعة الحال ابن حُباب، راجع ابن الأثير جـ ٤ ص ٢٥٤.

أتباع المختار الثقفي، لا يزالون يدافعون عما في أيديهم وقد استسلموا أخيراً، وأدْمِجُوا في الجيش[١].

ولما جاء الصدام الحاسم آخر الأمر بين عبد الملك ومصعب كان قد مضى من الصيف شطرٌ كبيرٌ. وكانت المعركة في دير الجاثليق بين مسكن، حيث ضرب عبد الملك معسكره كما ضره معاوية من قبل، وبين باجُمَيْرا، حيث كان يعسكر مصعب (الطبري جـ ٢ ص ٨٠٥). وكان الشهر شهر جمادى الأولى أو جمادى الآخرة، أما السنة فتختلف فيها الروايات بين ٧١ و٧٢هـ (راجع الطبري جـ ٢ ص ٨١٣ وكتاب أنساب الأشراف ص ٨). ويذكر الواقدي وإلياس النصيبي سنة ٧١هـ، ويذكر غيرهما سنة ٧٢هـ[٢]. وإذا صرفنا النظر عما تقدم ذكره، فإن الدليل على صحة التاريخ الأخير هو أن إرسال الحجاج إلى الحجاز أعقب انتصار عبد الملك في العراق مباشرة، ولا شك في أن إرسال الحجاج إلى العراق كان في سنة ٧٢ ــ ٧٣هـ[٣].

وتوجد روايات كثيرة (أو بعبارة أدق: مجموعات من الروايات) فيما يتعلق بسير المعركة. وقد كانت العلاقة بين هذه الروايات مثاراً لمناقشة غير عادية، وذلك

---

(١) المسعودي جـ ٥ ص ٢٤١، وقارن أيضاً الأغانى جـ ٥ ص ١٥٥، وجـ ٨ ص ٣٣، وجـ ١١ ص ٤٧، وكلامنا عن الشيعة Schia ص ٨٠، هامش رقم ١ وص ٨٤ هامش رقم ٣.

(٢) هكذا يقول المدائنى (الطبري جـ ٢ ص ٨١٣، ١٤٦٦ س ٩)، والأغانى جـ ١٧ ص ١٦١، وابن الكلبي نقلا عن جده، وأبو مخنف في كتاب أنساب الأشراف ص ٢٦ والمسعودي جـ ٥ ص ٢٤٢.

(٣) وفيما يتعلق بسنة ٧١هـ يستطيع الإنسان أن يعتمد على ما رواه أبو مخنف (الطبري جـ ٢ ص ٨١٣) من أن المعركة كانت يوم الثلاثاء ١٣ جمادى الأولى أو الثانية. أما المدائني فهو يذكر سنة ٧٢هـ. ولكن يوم ١٣ جمادى الأولى أو الثانية في هذه السنة لم يكن يوم ثلاثاء، أما يوم ١٣ جمادى الثانية من سنة ٧١هـ فكان يوم الثلاثاء. ورغماً عن هذا فيبدو لي أنه من المستحيل ومن المخالف للوقائع التي تؤيدها روايات ثابتة إنقاص عدد الحملات الثلاث التي وجهت إلى العراق إلى حملتين فقط وأن تكون قد مضت سنتان كاملتان بين احتلال الكوفة الذي كانت نتيجة لمعركة الدير وبين أخذ مكة. وسأعود إلى هذا الموضوع.

أن آلقارت (Ahlwardt) قارن بين ما جاء في كتاب التاريخ الذي نشره، وهو جزء من كتاب أنساب الأشراف للبلاذرى، وبين ما عند ابن الأثير (جـ ٤ ص ٢٦٣ فما بعدها)، ووجد أن ابن الأثير قد اقتبس من ذلك الكتاب أجزاء كبيرة؛ وقد اعترض نولدكه (Nöldeke) على ذلك، وربما كان اعتراضه ظناً منه أن الإنسان يستطيع هنا، كما في حالات أخرى، أن يكتفي باعتبار أن الطبري هو مرجع ابن الأثير. وقد أثبت بروكلمان (Brockelmann) أن هذا غير ممكن، وذلك بعد أن كانت قد ظهرت نصوص الطبري المتعلقة بالموضوع والتي لم يكن قد عرفها نولدكه[١]. ولكن هذا لا يؤدي إلى الفصل في أمر المشكلة فلا يؤيد آلقارت إلا إلى حدّ ما، ذلك أنه لا بد من أن تدخل في الاعتبار رواية أخرى أغفلها كلها من آلقارت ونولدكه وبروكلمان، وهي موجودة في كتاب الأغانى (جـ ١٧ ص ١٦١ فما بعدها) وهي من جهة ما تتضمنّهُ قريبةٌ جداً مما جاء في الكتاب الذي نشره آلقارت، ولكنها لا تستند إلى ما في هذا الكتاب، وصاحبها هو الزبير بن بكّار. وإذن يتبين ما يأتي: ابن الأثير لا يتابع الطبري وحده، لكن معرفته بالكتاب الذي نشره آلقارت لا تزيد عن معرفته بما جاء في كتاب الأغاني، وهو في الأجزاء المشتركة بينه وبين هذين المصدريْن يوافق أحدَهما أحياناً ويوافق الآخر أحياناً أخرى، لكنه يختلف عنهما من حيث صورة الرواية اختلافاً من شأنه أن يجعل القولَ بأنه رجع إليهما مباشرة قولاً مستحيلا. هذا إلى أننا نجد فيما يقوله أحياناً ــ إذ صرفنا النظر بطبيعة الحال عما نقله عن الطبري ــ زياداتٍ غَيْرَ موجودة في المصدريْن، المذكورين، كالذي نجده من

---

(١) راجع مقدمة كتاب أنساب الأشراف ص ١٧ فما بعدها، وراجع .Göttinger Gel. Anz، عام ٨٨٣، ص ١١٠٢، ورسالة بروكلمان في الدكتوراه عن العلاقة بين ابن الأثير والطبري *Über das Verhätnis von Ibn al-Athir zu Tabari*، شتراسبورج، ١٨٩٠، ص ٤٤ وما بعدها.

حكاية سبب العداوة بين ابن ظبيان وبين مصعب. وإذن فالظاهر أنه اعتمد على كتاب آخر يرجع معظم ما فيه إلى مصادر واحدة[١]؛ وبعض الرواة الذين تُذْكَر أسماؤهم هم في الكتاب الذي نشر آلڤارت وفي كتاب الأغاني هم بأعينهم الرواة الذين يُذْكرون عند الطبري، غير أن الطبري يذكر الواقدي كمصدر، وهو مرجعه في الرواية الأساسية، هذه الرواية التي تستمر، رغم انقطاعات قليلة، من ص ٨٠٤ س ١٥ ــ إلى ص ٨٠٨ س ٢.

ولا تكاد توجد من الناحية التاريخية فوارقُ ذاتُ بال: استفاد عبد الملك من الفترة السابقة على القتال، وهي الفترة التي انقضت لما كان الجيشان معسكريْن أحدهما أمام الآخر في مسكن وباجميرا، على مسافة غير كبيرة ــ استفاد منها في مكاتبة شيعته من أهل العراق وفي الاتصال بأشراف الكوفة، فدعاهم لنفسه ووعده ومنّاهم. وهذا هو عين ما فعله معاوية من قبل وفي موقف شبيه بموقف عبد الملك، ومن المكان نفسه. ولم يكن لأهل العراق رغبة في القتال، كما يدل على ذلك البيت الذي تقدم ذكره في ص ١٨٦، وهم لم يكونوا قط قد تعودوا التزام النظام والطاعة، ولم يتعلموا من الحروب الحزبية المروّعة التي وقعت بينهم في السنين السابقة على ذلك، ولم يكن عندهم شيء من الوفاء السياسي والحربي؛ وكما تريد المومسة كلَّ يوم خليلا كانوا يريدون كل يوم أميراً (الأغاني جـ ١٧ ص ١٦٢ س ١٧، وابن الأثير جـ ٤ ص ٢٦٥ س ٢٣). ولقد هم العراق بالغدر بمصعب، فقال لهم قيس بن الهيثم: «ويْحَكم! لا تُدْخِلوا أهل الشام عليكم، فوالله لئن تطعّموا بعيشكم ليضيقنَّ عليكم منازلكم! والله لقد رأيتُ سيد أهل الشام على باب الخليفة يفرح إن أرْسَلَه في حاجة؛ ولقد رأيتُنا في الصوائف وأحَدُنا على ألف بعير، وإن الرجل من وجوههم ليغزو على فرسه، وزادُه

(١) لا يمكن في هذا المقام أن نعطي البرهان الكامل على ذلك، لأن المسألة ليس لها إلا شأن أدبي وليس لها شأن تاريخي، ومحاولة الحكم في أمر العلاقة بين الكتب فيها دائماً شيء من الصعوبة.

خلفه». ولكن ذلك لم يُجْدِ نَفْعاً (الطبري جـ ٢ ص ٨٠٦؛ وابن الأثير جـ ٤ ص ٢٦٥ فما بعدها، وكتاب أنساب الأشراف ص ١٤). وكان لا بد لمصعب أن يترك أحسن جنده تحت قيادة المهلب، لكي يحموا البصرة من هجوم الخوارج[١]. وكانت بين البصريين الذين كانوا معه قبيلة ربيعة التي لم يكن يطمئن إليها والتي كان لا بد له في السنة السابقة أن يقضي على ثورتها (الطبري جـ ٢ ص ٨٠٧، والأغاني جـ ١٧ ص ١٢٧) وجاء بمعظم جيشه من الكوفة، ومنها كان خروجه (الطبري جـ ٢ ص ٨٠٤، ٨٠٧، وابن الأثير ص ٢٦٤ وما بعدها). ولم تكن أهواء أهل الكوفة إلى جانبه، ولم يستنجد به أشراف الكوفة ليساعدهم على المختار إلا لأنهم كانوا مضطرين إلى ذلك، وكثيرون كانوا يكرهونه، لأنه جعل دماء أتباع المختار تجرى أنهاراً. ولهذا كانت مهمة عبد الملك مهمة سهلة؛ فأدخل مِعْوَله بين أهل الكوفة، والأبيات المحفوظة لنا عن ذلك العصر (أنساب الأشراف ص ١١ فما بعدها) تعبِّر عن الألم من خيانة رجال الكوفة. وكان القواد الكوفيون الذين كاتبهم والذين تُذْكر أسماؤهم، كوفيين خُلّصاً (أنساب الأشراف ص ١٣ س ٢١ ـــ ٢٣، ص ٢٧ س ١٤)، وكلُّهم شرط عليه ولاية أصبهان، فأنعم بها لهم كلهم، جزاء على خيانتهم لمصعب (أنساب الأشراف ص ١٣، ٣٢). وكانت أصبهان تابعة للكوفة، وكان يتولاها رجالٌ من الكوفة. ولم يستطع مصعب أن يتخذ إجراءات صارمة إزاء الخونة الذين كان يراسلهم عبد الملك، بل هو تركهم في مواضعهم، رغم أنه قد حُذِّر من ذلك. وكان الذي حذّره وأشار عليه بقتلهم أو بالقبض عليهم وإبعادهم على الأقل، هو إبراهيم بن الأشتر، صاحب النصر في موقعة خازر؛ فقد أعطى الكتاب الذي تلقاه من عبد الملك إلى مصعب مختوماً من غير أن يفضه أو يقرأه، وقال

---

(١) الطبري جـ ٢ ص ٨٠٦، وابن الأثير ص ٢٦٥ فما بعدها؛ وكتاب أنساب الأشراف ص ١٤، وكلامنا عن الخوارج *Chavarig*, 36ss.

له إن عبد الملك كتب الكتب إلى جميع القواد، ولكنهم لم يظهروها له. وكان إبراهيم هو المخلص الوحيد، وكان في الوقت نفسه أبرز شخصية في الكوفة، وكان ظاهرةً جديرة بالإعجاب في تلك البيئة، والابن الجدير بأبيه الذي انتصر يوم صفين. وكان عدم استماع مصعب لنصيحته، وذلك في أوائل المعركة عند دير الجاثليق، دليلاً على الهزيمة الحاسمة لمصعب؛ ذلك أن عتّاب بن ورقاء التميمي هرب، وكان على خيل مصعب، وعصى بقيةُ القواد ورؤساء القبائل القائدَ الأعلى، واعتذروا عن الهجوم بجنودهم بغير العذر. وأخيراً بقي مصعب وحده تقريباً في مكانه، ونظراً لهذا الموقف الفريد في بابه صارت لموقعة دير الجاثليق شهرتها: ولا يحتاج الإنسان إلى معرفةٍ بخطط الجيوش وقيادتها لكي يفهم مجراها. وقد بعث عبد الملك أخاه محمداً إلى مصعب يعطيه الأمان. فأبى وقـــال: إن مثلي لا ينصرف عن مثل هـــذا الموقف إلا غالباً أو مغلوباً. ونادى محمدُ بن مروان عيسى بنَ مصعب ــ يعطيه الأمان ويحثُّه على ألاّ يقتل نفسه. وحاول مصعب أن يقنع ابنَه بقبول الأمان والمضيّ إلى عبد الملك، فأنف أن يُقال عنه إنه أسلم أباه، فقال له مصعب: فتقدمْ بين يدي احتسبْك! فقاتل بين بيدي أبيه حتى قُتِل، وكان عيسى لا يزال صبياً، لأن مصعباً نفسه لم يكن قد تجاوز السادسة والثلاثين. ثم أُثْخَنَ مصعبٌ بالسهام، فشدّ عليه زائدةُ بن قُدامة، وطَعنه قائلا: يالثارات المختار! فصرعه، ونزل إليه عبيد الله بن زياد بن ظبيان، فاختز رأسه وحملها إلى عبد الملك[١].

وبعد هذا النصر الذي ليس لصاحبه أن يفخر به كثيراً، دخل عبدُ الملك

---

(١) [لما قتل مصعب أمر عبد الملك بدفنه هو وابنه عيسى، وقال: واروه! فقد والله كانت الحرمة بيننا وبينه قديمة، ولكن هذا الملك عقيم (ن. عقم) ــ المترجم نقلا عن الطبري جـ ٢ ص ٨١١ ــ ٨١٢)، وراجع خطبة عبد الله بن الزبير، لما بلغه خبر مقتل أخيه مصعب، عند الطبري، جـ ٢ ص ٨١٨ ــ ٨١٩ ــ المترجم].

الكوفةَ، وأخذ البيعة من القبائل، وفرّق أعمال العراق والمصريْن: الكوفة والبصرة، على عُمّاله[١]. وعسكر أربعين يوماً في النُّخَيْلةَ، في نفس الموضع الذي كان معاوية قد عسكر فيه من قبل مع جيش الشام. وفي ذلك الوقت وجّه الحجاجَ بن يوسف إلى الحجاز لمحاربة عبد الله بن الزبير. هذا ما يقوله الهيثم بن عدي في كتاب أنساب الأشراف (ص ١٨، س ١) ويوافقه الواقدي في ذلك، وهو يقول (الطبري جـ ٢ ص ٨٣٠ وكتاب الأنساب ص ٣٨) إنه بعد قتل مصعب بن الزبير أرسل عبدُ الملك الحجاجَ في ألفين من جند أهل الشام إلى مكة، وذلك في جمادى، أعنى في الشهر الذي وقعت فيه معركة الدير، أو في الشهر التالي، لأن اسم جمادى يطلق على شهرين؛ وهو يذكر أن ذلك كان سنة ٧٢هـ. ولا يستطيع أن يذكر غير ذلك، لأنه يقول إن حصار مكة لم يبدأ إلا في أواخر سنة ٧٢هـ وإنه استمر شطراً كبيراً من سنة ٧٣هـ. ولكن كيف استطاع إذن من قبل أن يجعل الموقعة الخاصة بذلك في سنة ٧١هـ؟ لا يمكن حل هذا الإشكال بالرجوع إلى الشذرات المحفوظة لنا عن الواقدي، ولا شك في شدة اتصال الحوادث في العراق والحجاز, ولا شك أيضاً في أن سنة ٧٢هـ كانت هي السنة التي هُزم فيها مصعب.

ويقول الواقدي إن الحجاج لم يقصد إلى مكة رأساً، ولا هو عرض للمدينة، بل ذهب أولا إلى الطائف، فوصل إليها في شعبان، ولبث فيها عدة أشهر[٢]. ومن هناك شرع يبعث البعوث لمناوشة ابن الزبير في سهل عرفة، وكانت خَيْلُه تَهزِم خيلَ ابن الزبير وترجع ظافرة. ثم كتب الحجاج إلى عبد الملك يستأذنه في حصار ابن الزبير ودخول الحرم عليه، ويسأله أن يُمِدَّه بالرجال. وكان طارق بن عمرو مولى عثمان بن عفَّان قد احتل المدينة وأخرج منها عامل ابن الزبير (الطبري

---

(١) فيما يتعلق بخراسان، راجع هنا وفي حالات أخرى الفصل الثامن مما يلي.

(٢) المسعودي جـ ٥ ص ٢٥٩، وكتاب أنساب الأشراف س ١٣٩.

ج ٢ ص ٨١٨، وكتاب أنساب الأشراف ص ٣٤ فما بعدها)، فأمره عبد الملك أن يلحق بمن معه من الجند بالحجاج ليساعده. وبدأ حصار مكة، كما يقول الواقدي (الطبري ج ٢ ص ٨٨٤ فما بعدها)، في هلال ذى القعدة سنة ٧٢هـ، الموافق ٢٥ مارس سنة ٦٩٢ م)، ورُمِيَت مكة والكعبة بالمنجنيق[١]. وفي أثناء ذلك قام رعدٌ وبرق وصواعق، وسقطت صاعقةٌ على المنجنيق فأحرقته وقتلت بعض رجال الحجاج؛ فأعظم ذلك أهلُ الشام وأمسكوا، اعتقاداً منهم أن ذلك شيء من الله بسبب مهاجمتهم الكعبة، ولكن الحجاج استطاع أن يُذْهِب عنهم ما اعتقدوه. وأخذ أصحابُ ابن الزبير يتفرقون عنه شيئاً فشيئاً، وأخيراً ألقَوْا السلاح جميعاً وخرجوا إلى الحجاج يطلبون الأمان؛ وكان فيمن خرج حمزة وحبيب ابنا عبد الله بن الزبير نفسه. لكن ابن الزبير، وكان شيخاً في الثالثة والسبعين من العمر، خجل من ذلك، فودّع أمَّه وقبَّل رأسَها، وخرج يقاتل وحدَه، وقُتِل (كتاب أنساب الأشراف ص ٣٨ فما بعدها وكتاب الحماسة ص ٣١٩)[٢].

---

(١) انظر ما تقدم ص ١٦٣.

(٢) [جاء في الطبري (ج ٢ ص ٨٤٤ ـ ٨٥٢) أن ابن الزبير لما تفرّق عنه أصحابه دخل على أمه أسماء بنت أبي بكر، فقال لها: «يا أمَّه! خذلني الناس حتى ولديّ وأهلي، ولم يبق معي إلا اليسير ممن ليس عنده من الدفع أكثر من صبر ساعة. والقوم يعطونني ما أردت من الدنيا، فما رأيك؟» فقالت: أنت والله يا بني أعلم بنفسك، إن كنت تعلم أنك على حق وإليه تدعو، فامض له، فقد قُتل عليه أصحابك، ولا تمكّن من رقبتك، يتلعّب بها غلمان بني أمية! وإن كنت إنما أردت الدنيا، فبئس العبد أنت! أهلكتَ نفسك وأهلكت من قتل معك. وإن قلت: كنتُ على حق، فلما وهن أصحابي ضعفت، فهذا ليس فعل الأحرار ولا أهل الدين، وكم خلودك في الدنيا! القتل أحسن!». فدنا ابن الزبير فقبل رأسها، وقال: «هذا والله رأيي والذي قمتُ به». ثم بين لها حقيقة مقصده وتمسكه بالحق والعدل، وخرج من عندها، وهي تدعو له، وقاتل قتال الأبطال، وهو يتمثل بأبيات في الشجاعة والصبر من الشعر الجاهلي. وكان يشد وحده على الجم الغفير، وكان كأسد في أجمة.. حتى قتل. ولما بلغ مقتله الحجاج سجد شكراً لله. وعلقت رأسه ورأس بعض أصحابه في المدينة، ثم أرسلت إلى دمشق. وكان ابن الزبير في شجاعته موضع إعجاب أعدائه. راجع تفصيل مقتله عند الطبري ـ المترجم].

ويقول الواقدي إن ذلك حدث بعد بدء حصار مكة بستة أشهر وسبعة عشر يوماً، وذلك في يوم الثلاثاء ١٧ جمادى الأول سنة ٧٣هـ، الموافق ١٨ سبتمبر سنة ٦٩٢ م (الطبري ج ٢ ص ٨٤٤، هامش f)؛ ولكن اسم اليوم غير موافق لتاريخه، ففي كتاب الطبري (ج ٢ ص ٨٥١ س ١٠) وكتاب أنساب الأشراف (ص ٥٧) أن الشهر لم يكن جمادى الأولى بل جمادى الآخرة. ويذكر إلياس النصيبي أن ذلك كان يوم الاثنين ١٧ جمادى الآخرة، واسم اليوم بحسب ما يقوله إلياس أيضاً، غير متفق مع مكانه من الشهر.

ولم يكن تسليم مكة[١] سوى الفصل الأخير القليل الشأن في الرواية، وذلك أن الحجاز، منذ مقتل عثمان، كان قد أصبح ركناً ميتاً، ولم يكن من الممكن جَعْلُه مركزاً للحياة السياسية، ولا شك أن ابن الزبير كان يرمي إلى هذا، وكان لا بد له أن يجعله غايةً له، تمشياً مع طبيعة الحركة التي ارتفع شأنه بسببها[٢]. وقد كشف، في الوقت نفسه، عن الصبغة الروحية لخلافته بأن ظلَّ مقيما في الحرم الذي عاذ به، حتى عندما كانت أبواب مجد الدنيا مفتوحة أمامه. ولكن الأمر انتهى إلى أن أصبح هو نفسه في أثناء الفتنة التي سُمِّيَت باسمه في مكان ثانوي إلى أبعد حد. وكان القتال، من حيث الاسم، يدور حول شخصه، ولكنه لم يشترك فيه، وتقررت نهاية القتال بدونه أيضاً. ولم يكن شأنه في جزيرة العرب نفسها، في أثناء سنين طويلة، أكبر من شأن نجدة الخارجي (الطبري ج ٢ ص ٧٣٧، وما قلناه عن الخوارج في بحث لنا ص ٢٩ فما بعدها). وهو قد أُخِذَ في المكان الذي عاذ به، وفيه قُتل. وبذلك انتهت الفتنةُ الكبرى وعادت الجماعة الإسلامية إلى وحدتها.

---

(١) تجد تهنئة شعرية لذلك في شعر الهذليين، قصيدة رقم ٢٥٩ بيت ١٧ فما بعده، واقرأ: وَفَدٍّ. [ويشير المؤلف إلى نشرته لشعر الهذليين في الجزء الأول من كتابه المسمى *Skizzen und Vorabeiten*، برلين ١٨٨٤ ص ٩١ ــ ٩٢ ــ والشعر لأبي صخر قصيدته التي أولها: عفت ذات عرق عصلها فرئامها ــ المترجم].

(٢) انظر ما تقدم ص ١٦١.

الفصل الرّابع

بنو مروان الأولون

١ ــ على أن العواصف في العراق لم تسكن بانتهاء الحرب التي استمرت سنين طوالاً مع ابن الزبير، بل ملأت هذه العواصف كلَّ مدة خلافة عبد الملك تقريباً، كما سنرى. وفي الشام أيضاً استمرّ صَخَبُ العداء بين قيس وكلب. وقد ألقى زفر بن الحارث في قرقيسيا السلاح في السنة التي قُتل فيها مصعب بن الزبير، ولكن العداء بين القبيلتين لم يَنْتَهِ بذلك، بل ظل إلى ما بعد تلك الحرب الطويلة. ولكي يدرك الإنسان هذا العداء في جملة الحوادث المتصلة به، لا بد له أن يرجع في الماضي، حتى يصل إلى موقعة مرج راهط (الأغانى جـ ١١ ص ٦١ س ٣١)؛ ففي هذه المعركة دفعت قيس حسابها واقْتِيد منها. لكن كان لا بد لها، بحسب العادات العربية، من أن تثأر لدماء قتلاها من المنتصر. وكانت قيس هي الموتورة، فكانت هي التي بدأت، وإنما كانت كلب تدافع عن نفسها. وقد اشتركت في هذا العداء من قبائل قيس قبائلُ عامر وسُلَيْم وغنىً وباهلة[1]، وذلك بمقدار الجماعات التي نزلت من هذه القبائل في شمال الشام وجنوب أرض الجزيرة على ضفّتي الفرات. أما في جانب كلب فكانت سائر قبائل قضاعة[2]، ولكن يظهر أنه لم يدخل في القتال بالفعل إلا قبائل كلب. والمصادر لمعرفة «الأيام» المتفرقة المتباعدة أحياناً، والتي كان

---

(١) ابن الأثير جـ ٤ ص ٢٥٦ س ١٠ و١٥ وص ٢٥٨ س ١٨ وص ٢٥٩ س ١٧ وص ٢٦٠ س ٢٤ وفي ص ٢٥٦ س ١٠ يجب قراءة: أعصر، كما في ص ٢٥٦ س ١٥.

(٢) وتسمى قضاعة باليمنيين في بيت شعر لزفر بن الحارث ــ ابن الأثير جـ ٤ ص ٢٥٦ س ١٨.

فيها ذلك القتال الطويل، هي القصائد الشعرية التي ترجع إلى ذلك العصر والحكايات المرتبطة بها. كلها قد بقيت إلينا عند ابن الأثير وفي كتاب الأغاني وكتاب الحماسة وعند الميداني. ومعظم هذه الأخبار جديرة بكل ثقة، غير أنها منقطعة الصلة فيما بينها أحياناً، وليس ثمّ ما يدل على زمانها، ولا شك أن ثمّ وسيلة لوضعها في ترتيب مقبول.

يقول صاحب الأغاني (جـ ٢ ص ١٢٠ فما بعدها) إن القتال بدأ بأن أغار زُفَر بن الحارث الكلابي في قرقيسيا، وهو رئيس عامر، على جماعة من كلب في المصيّخ، وقتل منهم عشرين رجلاً. فقامت كلب، وعلى رأسها حُمَيْد بن حُرَيْث بن بحدل، وهو ابن عم لحسان بن مالك ابن بحدل المشهور[١]، للأخذ بالثأر، فقتلوا ستين رجلا من نُمَيْر، كانوا يعيشون بينهم في تدمر. ويقال إن زفر بعد ذلك قتل خمسمائة أو ألف من كلب وإنه قتل منهم في يوم الإكليل مقتلة عظيمة، وإنه بعد هذه الفعلة الكبيرة رجع إلى قرقيسيا آمناً لم يُصِبْه سوء، ومن غير أن يستطيع حُمَيْد أن يلحق به. ولكن غارة يوم الإكليل، في موضع آخر من كتاب الأغاني (ص ١٢٢ س ١٧ فما بعده)، لا تنسب إلى زُفَر، بل إلى عُمَيْر بن الحُباب، رئيس سليم. أما الذي لا شك فيه فهو أن عُمَيْراً كان منذ ذلك الحين هو القائم الحقيقي بالثأر لقيس من كلب؛ ذلك أن القتال الكبير بين الشام والعراق حول الخلافة صرف زُفَر عن حروب التِرَاتِ التي كانت تجري في البادية. وقد تلقى زفر في أول الأمر هجمات عبد الملك وقاومها سنين طويلة، كما رأينا، وكان مائلاً لمصعب بن الزبير مدافعاً عن حِماه.

على أن ظهور عمير في الميدان يعطينا نقطة نستطيع منها تحديد أزمنة الحوادث، لأنه كان لا يزال موجوداً في معركة خازر في الجيش الشامي، ولم ينضم إلى زفر

---

(١) والشارح في كتاب الحماسة ص ٦٥٨ بيت رقم ٢ يخلط بينهما.

إلا بعد ذلك، أعنى أنه لم ينضم إليه قبل سنة ٦٧هـ. وتذكر مجموعة كبيرة من «الأيام» التي كان يشهدها ويبرد فيها نار الثأر، وتسمى هذه «الأيام» بأسماء مواضع مختلفة من بلاد السماوة. وعند أرض كابة أفلت منه حميد بن حريث، ركضاً على فرسه السريع، وما كان يفلت، حتى إذا ألحّ عُمَيْرٌ على قبائل كلب التي كانت تسكن في متناول غزواته، اضطرت إلى أن ترحل عن البلاد آخر الأمر، فهاجرت إلى بلاد الغور، من أعمال فلسطين حيناً من الزمان.

وعند ذلك فقل عُمَير راجعاً عبر الفرات، ونزل هو وقومه من سليم بإزاء بلاد الخابور، وكان هذا هو السبب في الصدام بين تغلب النصرانية، التي كانت قد هاجرت إلى هناك حتى بلغت نهر دجلة وما وراءه، وبين قيس. وقد لجأت تغلب إلى زُفَر لكي يأمر سُلَيْماً بالرحيل عن قرى الخابور، لأنهم صاروا يغيرون عليهم ويوجدون أسباباً للحروب. ورأى زفر أنه غير قادر على ذلك. وهكذا بدأ العداء والقتال بين تغلب وسليم، وقد حاول زفر أن يتدخل لإنهاء هذا القتال، لأنه لم يحبّ أن يدفع تغلب إلى إلقاء أنفسهم بين أحضان أهل الشام. ولكن عميراً، وهو الرجل المشئوم، عارضه في ذلك واستتر وراء مُصْعَبَ بن الزبير، وسعى بتغلب لأنهم نصارى، فاتهمهم بالميل إلى أهل الشام، واستطاع أن يهاجمهم باسم حكومة ابن الزبير، وأن يطلق العنان للانتقام منهم، فذبح منهم الكثيرين في يوم ماكس أو ماكسين. وعند هذا تنتهي رواية صاحب الأغاني (جـ ٢٠ ص ١٢٠ فما بعدها)؛ وهي تجد ما يكملها عند ابن الأثير (جـ ٤ ص ٢٥٥ فما بعدها) وفي الأغاني (جـ ١١ ص ٥١ فما بعدها و٦١ فما بعدها). ونجد هنا أن زفر أيضاً قد أُقْحِم في القتال دون رغبة أو إرادة منه، ووقعت غاراتٌ واشتباكات كثيرة. وأماكن هذه الغارات، وهي تذكر أيضاً في أشعار

الأخطل[١]. كانت عند نهر الخابور ونهر البليخ ونهر الثرثار وفي ناحية دجلة، وكانت تغلب في معظم الأحيان هي التي تُمْنى بالهزيمة، على أنهم انتصروا في أول الأمر عند الحشاك على نهر الثرثار الذي يصب في دجلة غير بعيد من تكريت إلى جهة الجنوب، وقتلوا عمير بن الحباب سنة ٧٠هـ، وبعثوا برأسه إلى عبد الملك في دمشق. ولكن قيساً عند ذلك اضطرت زفر إلى أن يتولى الأخذ بثأر عمير، فضرب تغلبَ ضربةً قاسية عند مدينة الكحيل، على نهر دجلة، وقتل مائتين من أسراهم وقعوا في يده. ولكن الأحداث الكبرى التي وقعت سنة ٧١ و٧٢هـ، وكان مسرحها أرض الجزيرة، وضعت حداً للغارات الدموية هناك، وأنقذت تغلب.

ولكن الحرب بين كلب وقيس ثارت من جديد بعد ذلك في موضع آخر (الحماسة ص ٢٦٠ فما بعدها، والميداني ١٤، ٨٥[٣] والأغاني جـ ١٧ ص ١١٣ فما بعدها وياقوت جـ ١ ص ٧٣٩). فقد أصاب حمدُ بن حريث بن بحدل الرئيس السابق لكلب، في حربه مع عمير[٣]، سبيلا سهلا لكي ينتقم من فزَارة في جزيرة العرب نفسها ــ وكان موطنهم الأكبر إلى شرقي المدينة ــ لما فعلته سليم وعامر على الفرات، لأنه لم يستطع أن ينال منهم. ولم تكن فزارة هذه قد اشتركت حتى الآن في القتال، ولكنهم كانوا ينتمون إلى المجموعة الكبيرة لقبائل قيس. ومنهم ــ من أعضاء بيت الأمراء القديم، من الذين كانوا مستوطنين في الكوفة ــ من كانوا قد أعانوا زفر وعميراً (ابن الأثير

(١) لم أستطع حتى الآن أن أراجع نشرة بارت (Barth) لديوان القطامى.

(٢) إن ترجمة فريتاج (Freytag) تحتاج إلى إصلاح كثير.

(٣) يذكر ابن حبيب عند الميداني اسم أبيه حريث خطأ، بدلا من ذكر اسمه. راجع، خلافاً لذلك، كتاب الحماسة (ص ٢٦٠ بيت رقم ١)، والأغانى جـ ١٧ ص ١١٣ أسفل وص ١١٤ س ٢٨.

ج ٤ ص ٢٥٨ ص ١٩ فما بعده). وجَعَل حَمَيْدَ خالداً بن يزيد بن معاوية[١]، وهو الذي كانت جدته من كلب، يفتعل له عهداً باسم عبد الملك ليأخذ صدقاتِ قبائل البدو. وخرج حميد باعتباره مُفَوَّضاً من قبل الحكومة، ومعه جمع كبير جداً من عبد ودّ وعُلَيْم من قبائل كلب، مجتازاً الصحراء؛ وأخذ يضرب فزارة، وكان في الحقيقة يقصدهم، وارتكب فيهم فظائع منكرة، متلمِّساً لذلك الأسباب الواهية. فَجُرِح وقُتِل كثيرون، وخصوصاً عند موضع يسمى العاه. واشتكى من أصابتهم أعماله إلى عبد الملك، فظن عبد الملك أنه يكفى أن يدفع لهم دية قتلاهم. فأخذوا المال، لكنهم اشتروا به سلاحاً وخيلاً، وأعدوا أنفسهم لغارة يثأرون فيها لأنفسهم. فهاجموا منازل لكلب عند منابع بنات قيْن في أرض السماوة، وقتلوا تسعة عشر رجلاً من عبد ودّ وخمسين من عُلَيْم، فَغَضِبَ عبد الملك لذلك أشدّ الغضب، وأمر عامله الحجاج بأن يقتص من فزارة. وعند ذلك دفع الرجلان اللذان كان عليهما الوزرُ، الشَرَّ عَنْ قومهما بأن قدما على الحجاج طائعيْن، فأرسلهما إلى عبد الملك. وكان لا بد لكلب من أن تكتفي بقتلهما. ويومُ بنات قين هو أشهر «يوم» في كل الحروب المتواصلة بين قيس وكلب، وهو لم يقع إلا عندما كان الحجاج أميراً على المدينة (سنة ٧٣ و٧٤هـ). ولا يمكن أن يكون زمان السبب الذي دعا إلى هذه اليوم، وهو ما أريق من دم في العاه، قبل ذلك بكثير[٢]. وعلى هذا فإن القول السائد في كل روايات

---

(١) [في كتاب الحماسة ص ٢٦٠ فما بعدها أنه في أيام الحرب بين عبد الله وابن الزبير كان أبناء القيسيات من بني أمية يفخرون على أبناء الكلبيات بما يفعله بهم أخوالهم القيسيون. وكانت قيس مع ابن الزبير، وكان هذا الفخر سبباً في إغضاب أبناء الكلبيات أمثال خالد بن يزيد وعبد العزيز بن مروان. وخالد بن يزيد هو الذي بحث عمن ينتقم من قيس، وهو الذي دبر العهد المزور وأعطاه إلى حميد بن حريث بن بحدل ــ المترجم].

(٢) على أنه ليس بمستحيل أن يكون قد وقع في الفترة السابقة على عودة الوحدة للجماعة الإسلامية، كما يقول ابن حبيب عند الميداني. ولكن دوزى (120 ,1) يجعل يوم بنات قين في عهد معاوية، وهذا خطأ تام.

هذه الحكاية، من أن بِشْراً وعبدَ العزيز ابنيّ مروان المتباغضيْن[١] كانا في دمشق يوم بنات قيْن وبَعْدَه أيضاً، هو قولٌ خطأ؛ بل هما قد كان أحدهما قبل ذلك بكثير أميراً على الكوفة، والآخر أميراً على مصر، فلا يمكن أن يكونا قد كانا في دمشق إلا زائريْن فترةً من الوقت.

وكذلك بقيت للحرب بين سُلَيْم وتغلب بقية، بعد أن كان النزاع حول الخلافة قد انتهى، وكان السلام في الدولة عند ذلك قد عاد إلى نصابه منذ وقت طويل (راجع الأغاني ج ١١ ص ٥٩ فما بعدها، وابن الأثير ج ٤ ص ٢٦١ فما بعدها وكان الأخطل الشاعر هو السبب في إثارة هذه الحرب من جديد، وذلك أنه قدم على عبد الملك وعنده الجحّاف بن حكيم السُلَيْمى، فسأله عبد الملك: أتعرف هذا يا أخطل؟ قال نعم: هذا الذي أقول فيه:

ألا سائلْ الجَحّافَ هل هو ثائرٌ بقتلى أصيبت من سُلَيْمٍ وعامرِ

والأخطل يقصد ما فعله أخواله من تغلب بقبيلة الجحاف، وكان الجحاف قد اشترك في قتال تغلب تحت قيادة عُمَيْر بن الحباب. ولما بدأ الأخطل ينشد قصيدتَه كان الجحاف يأكل رطباً، فجعل النوى يتساقط من يده غيظاً. فلما انتهى الأخطل من إنشاد قصيدته أجابه الجحاف قائلا:

بل سوف نَبْكيهم بكلِّ مُهنَّدٍ ونَنْعِى عُمَيْراً بالرماح الشواجِرِ

وفعل الجحاف ما فعله حُمَيد بن حريث الكلبي من قبل، فتلطّف لبعض كتاب الديوان حتى اختلق له عهداً على صدقات تغلب وبكر في الجزيرة. وخرج بصفته عاملا على الصدقات، ومعه عدد كبير من فرسان قيس، وقَصَدَ الجزيرة. وفي أثناء الطريق كشف لمن معه عن قصده الحقيقي، وحدّثهم بما كان من الأخطل

---

(١) [كانت أم عبد العزيز كلبية، وأم بشر قيسية (الحماسة ص ٢٦٠) ــ المترجم].

وأنه يريد منهم أن يوقعوا ببني تغلب شَرَّ وقيعة، وقال لهم: إنما هي النار أو العار، فمن صبر فلْيُقدم، ومن كره فليرجع! فرجعوا عنه غيرَ ثلاثمائة آثروا النار على العار، واتّبعوه قائلين: نحن معك فيما كنت فيه من شر وخير. وأغاروا على تغلب في سنة ٧٣هـ، عند موضع يسمى بِشراً (أو الرهوب)، فأسرفوا في القتل والفساد، وبقروا بطون النساء، وقتلوا ابناً للأخطل أيضاً. ووقع الأخطلُ نفسه في أيديهم، وعليه عباءةٌ دَنِسة، فسألوه، فذكر أنه عبدٌ من عبيدهم، فأطلقوه. وبعد ذلك لحق الجحاف بأرض الروم. ثم تدخَّلت قيس لدى عبد الملك لكي يُؤَمِّنَه، فأذِنَ له بالرجوع بعد زمان طويل؛ لكن كان لا بد أن يدفع لتغلب ديةَ ما أريق من دماء عند بشر، فلما لم يقدر على ذلك تقدم إلى الحجاج، وكان في ذلك الوقت أقوى رجل بين قيس، لكي يحتمل دَفْعَ الدِّيات، فاعتذر الحجاج أولاً، ولكنه قبل آخر الأمر. ثمَّ صلَح أمرُ الجحّاف أخيراً، فتألّه وتنسّك، وذهب مع القوم الذين شهدوا معه غزو تغلب إلى الحج، وقد لبسوا الصوف وخَزَموا أُنوفَهم، وجعلوا فيها البُرى حتى وصلوا مكة. وتعلق الجحّاف بأستار الكعبة، يدعو دعاء اليائس، ويقول: اللهم اغفر لي، وما أراك تفعل! فسمعه عبدُ الله بن عمر، فقال له: يا هذا لو كنتَ الجحّافَ ما زِدْتَ على هذا! فقال: فأنا الجحّاف.

ويرى الإنسان أن العرب في أرض الشام والجزيرة لم يتغيروا في ظروفهم الجديدة عما كانوا عليه؛ فلا الإسلام ولا النصرانية استطاعا أن يَحُولا بينهم وبين وضع القبيلة والثأر فوق كل شيء. فكانوا يُؤْثرون النار على العار، وكانوا لا يندمون إلا أخيراً حين لا ينفع الندم. بل هم صاروا في ظروفهم الجديدة أشد قسوة مما كانوا عليه في الجاهلية في وطنهم القديم، فصاروا يقتلون بعضهم بعضاً على نحو أوسع نطاقاً وأقل مبالاةً، فكانوا يبقرون بطون من يأسرونه من النساء، وهذه عادة لم تكن موجودة في جزيرة العرب بمعناها الحقيقي، ولكن يشهد بأنها

كانت موجودة في الشام ما يقوله عاموس النبي[١]؛ بل إنه بعد أن كان القتال من أجل الخلافة قد انتهى وكان قد عاد، استمرّ القتال الوحشي بين القبائل أمام أبواب دمشق وتحت بصر الخليفة، ومع الاستهانة بهيبته أحياناً.

وكان للعداوات القبلية موطنٌ ثانٍ في الشرق الأقصى للدولة الإسلامية، ذلك أن البغض القديم بين تميم وربيعةً اشتد في البصرة بسبب هجْرة أزد عمان في أواخر أيام معاوية وفي أيام يزيد الأول. فتحالفت ربيعةُ مع الأزد، وتحالفت تميم مع قيس، وهكذا نشأت مجموعتان كبيرتان من القبائل. وفي أثناء الفترة التي اضطرب فيها أمرُ الخلافة بعد وفاة يزيد الأول بدأ القتال في البصرة[٢]، واضطُرَّ أميرُها، عبيد الله بن زياد، إلى الهرب. وأراد مسعود بن عمرو، رئيس الأزد، أن يحتلَّ منصبه، واستطاع أن يستولي على القصر وعلى المسجد بالقوة، يساعده الأزد وربيعة في ذلك. ولكن بينما هو على المنبر في المسجد إذْ اقتحمت عليه تميم، فأنزلوه من على المنبر وقتلوه. وعند ذلك قامت حرب الثأر بين الأزد وتميم بسبب قتل هذا الأمير القبلي. ولكن الأحنف بن قيس، سيد تميم، وكان حكيماً حنّكتْه السِّنُّ، أفلح في إعادة السلام في مقابل دفع دية كبيرة. ولكن العداوة بين الأحزاب لم تَزُل، ووجدت الصدور المُتْرَعة منزعاً في خراسان[٣]؛ وكانت خراسان أشبه بمستعمرة بصرية، وإليها انتقلت ظروف الحياة القبلية من البصرة. وكانت الحروب القبلية كلما خبت نارُها اندلعتْ من جديد. وكانت في أول الأمر بين تميم وربيعة، ثم بين مضر (تميم وقيس) واليمن (الأزد وربيعة)، وذلك بعد أن دخل الأزد أيضاً على المسرح بفضل المُهلّب. وكان الخصام بين

---

(١) [راجع العهد القديم، عاموس، الإصحاح الأول، فقرة ١٣ ــ ١٤ حيث يذكر من جرائم بعض بني إسرائيل أنهم بقروا بطون الحوامل ــ المترجم].

(٢) [راجع الطبري ج ٢ ص ٤٣٣ ــ ٤٦٧ ــ المترجم].

(٣) [راجع الطبري أيضاً ج ٢ ص ٤٨٨ ــ ٤٩٦ ــ المترجم].

مجموعات القبائل في شرق الدولة مرتبطاً في آخر الأمر بالخصام بينها في مغربها. وكان الوزر في ذلك وِزْرَ قيس خاصة، لأن قيساً كانوا موجودين في المشرق والمغرب على سواء، وكانوا في كل مكان متماسكين فيما بينهم «كما تتماسك أجزاء البناء»، وقد كان هذا الخصام ينزع إلى أن يمتص في ذاته أنواع الخصومات الأخرى، وأن يقسم العالم العربي كله قسمين متنابذيْن.

وقد تسرّبت سموم هذه الخصومة إلى الدوائر الحاكمة، وكان من العسير تفاديها. فماذا كان يستطيع أميرٌ أن يفعل، إذا كانت قيس تعتبره أميرَها! فهو إن ردَّهم حرم نفسه تأييدهم ولم يجد ما يستند إليه. بل إن بعض الأمراء في بلاط عبد الملك كانوا يتحمسون في الميل إلى أحد الجانبين أو إلى الآخر، بحسب نسب أمهاتهم[١].

ولا شك أن الفكرة السياسية للإسلام، أعني الوحدة والتضامن في الجماعة الإسلامية، كان لها تأثيرٌ مُضَادٌّ لتأثير النزعة القبلية، وكان الممثلون الطبيعيون للروح الإسلامية هم قريش الذين كانوا، بحكم وضعهم القانوني فوق القبائل وخارج منافساتها، وكان القرشيون الحاكمون، أعنى بني أمية، قد اضْطُرّوا إلى أن يرموا أنفسهم في الشام بين أحضان كلب لكي يحافظوا على سيادتهم إزاء قيس المائلين مع ابن الزبير. ولكن كانت تربطهم مع ذلك بقيس رابطةُ الدم[٢]. ومن هذا الوجه كان من السهل عليهم أن يقفوا موقفاً وسطاً. وقد عرف عبد الملك أين مصلحتَه فكان يحاول أن يرتفع عن منازعات الأحزاب. وبعد أن أقلعت قيس عن

---

(١) [راجع إلى جانب ما تقدم كتاب الحماسة ص ٢٦٠ فما بعدها ــ المترجم].

(٢) قال عُوَبج الطائي يمتدح كلباً والحميد بن بحدل في قصيدة له (الطبري ج ٢ ص ٤٨٧ س ١٩ فما بعده):

فلولا أمير المؤمنين لأصبحت قضاعةُ أربــاباً وقيسٌ عبيدَها

فالخليفة يعتبر من قيس (الطبري ج ٢ ص ٤٧٢ س ١٨)، لأنه مثلهم من مضر على الأقل، وليس من قضاعة أو اليمن.

المعارضة له، عاملهم باللطف وحاول أن يسترضيهم. وكان زفر بن الحارث وأبناء هذيل وكوثر من بعده، من أكبر الشخصيات وأعظمها جاهاً في بلاط دمشق[١]. وكانت كلب بطبيعة الحال غيرَ راضية عن ذلك، ولكن ما عابوه على عبد الملك من أنه لم يكن يشكر لهم حسن بلائهم مع بني أمية كما ينبغي له أن يشكر (الحماسة ص ٦٥٦ فما بعدها) هو في الحقيقة مَدْحٌ له. أما القول بأنه تحوّل من جانب كلب إلى جانب قيس فهو يعبر عن الموقف تعبيراً معوجاً كل الاعوجاج؛ فنحن نجد في مجلس عبد الملك بعد ذلك أيضاً رجالا ذوى نفوذ ينتمون إلى مجموعة قبائل كلب، كابن بحدل وروح بن زنباع. والأحرى أن يُقال إن عبد الملك تصرّف كما ينبغي على الخليفة وعلى السياسي أن يتصرف. فكان الأمويون يعتمدون على أهل الشام، وهم بمعونة أهل الشام قد أخضعوا أرض الدولة الإسلامية كلها، وبمعونتهم حافظوا عليها؛ ولو أن انشقاقاً حصل في الشام لتضعضع الأساس الذي تقوم عليه سيادة بني أمية على الدولة الإسلامية. أما خراسان فقد كانت في ذلك الحين لا تزال في مرتبة ثانوية جداً، وكان الشقاق في هذه الجهة النائية قليل الأثر على وسط الدولة. أما في الشام فقد كان الأمر على خلاف ذلك، وكان من المستحيل أن يغيب عن بال أهل الشام أنهم لا بدّ لهم من أن يتضافروا مع الأسرة الحاكمة لكي يحافظوا على مركزهم هُمْ، وكان ذلك عاملاً فعالاً في كسر شوكة الخصومة القبلية بينهم. فكانت كل ولايات الدولة، عدا بلاد أهل الشام، تعتبر خاضعة مغلوبة، وكانت بلادُهم وحدها هي التي تعتبر الغالبة الحاكمة. وكانت مصلحتهم، وهي مصلحة مادية إلى حد كبير، في أن تظل الخلافةُ والسيادةُ ملكاً لهم من جملة الأسباب التي أوجدت

---

(١) قارن الطبري جـ ٢ ص ١٣٠٠ و١٣٦٠ فما بعدها و١٤٤٥، وكتاب أنساب الأشراف ص ١٧٣ و٢٥٣، وكتاب الأغانى جـ ١٦ ص ٤٢، ١٥٣ فما بعدها. ويرى الإنسان من ذلك مقدار قوة مركز هؤلاء الأمراء القيسيين في عهد بني أمية، ولكنهم لم يسيئوا استعمال هذا المركز.

شعوراً بالتضامن السياسي بينهم. وقد تجلى هذا الشعور بنوع خاص في المناسبات التي كان لا بد لهم فيها، بوصف أنهم جيش الدولة، من محاربة أعداء الأسرة الحاكمة في الداخل والخارج؛ وقد أتيحت لهم فرصٌ كثيرة لذلك.

٢ ــ ولكي يزيدَ خلفاءُ بني أمية في رجحان كفة الشام من الناحية السياسية، حاولوا، فيما حاولوا، نقل مركز الشعائر الدينية إلى الشام. وكان مما استوجب ذلك أن ابن الزبير ظلّ يحتل البيت الحرام في مكة قرابةً من عشر سنين، فلم يكن أهل الشام يستطيعون الحج، ما داموا على ولائهم للأسرة الأموية، إلا بمشقة. وقد استغلّ عبد الملك ذلك لمنع رعاياه من الحج إلى مكة، وحضّهم على أن يحجوا إلى بيت المقدس بدلاً من أن يحجوا إلى مكة؛ وهذا ما يحكيه أوتيخيوس (Eutychius) على الأقل[١]. أما الذي لا شك فيه فهو أن عبد الملك جهد في أن يجعل لبيت المقدس، باعتباره مكاناً مقدساً في نظر الإسلام، مظهراً أروع مما كان له، وذلك أن الدليل على صدق الرواية القائلة بأنه هو الذي بنى قبة الصخرة موجودٌ في النقش الذي لا يزال باقياً في الجزء القديم من هذا البناء. أما النقش الحالي فيُذْكَر فيه اسم المأمون الخليفة العباسي على أنه هو الباني. ولكن دى فوجى De Vogüe[٢] اكتشف أن اسم المأمون إنما أدخِل في النقش الأصلي من طريق تصحيح لكتابة سابقة، وقد فات على المصححين أن يصححوا التاريخ القديم الذي يبين السنة التي كان فيها البناء. ويمكن على هذا أن يكون النص [الأصلي على القطع، هكذا: بنى هذه القبة في سنة ٧٢هـ عبد الله عبد الملك،

---

(١) في كتابه في التاريخ (Annales) ط. Pococke جـ ٢ ص ٣٦٥. ويحكى أوتيخيوس مثل هذا عن مروان (جـ ٢ ص ٣٦٢) وعن الوليد الأول (جـ ٢ ص ٣٧٣).

(٢) في كتابه *Temple de Jerusalem*، ١٨٦٤، ص ٨٥ فما بعدها. راجع أيضاً ما يقوله جيلدمايستر Geldmeister في مجلة Zeitschr. des Deutsch. Palästinavereins، ١٨٩٠، ص ١٤. ولا يرجع الخطأ المطبعي في الأرقام إلى المؤلف الذي كان عند الطبع قد توفى.

أمير المؤمنين. فقد كان للشام في بيت المقدس المكانُ الوحيد الذي يستطيع أن يبارى مكة، على ظهر الأرض (الطبري جـ ٢ ص ١٦٦٦ س ٣). ولم يكن مكاناً مقدساً عند اليهود والنصارى فحسب، بل كان عند المسلمين أيضاً مكاناً مقدساً من أول الأمر، ولم يَعْدِل عنه محمد [عليه السلام] إلى مكة إلا فيما بعد؛ وذلك نتيجة لما قضت به الظروف من تساهل مع الوثنية العربية[١]. وقد جعل الخليفة عمر لبيت المقدس بفضل زيارته له شأناً خاصاً، وأثار بذلك حسد أهل العراق. وفي بيت المقدس نصّب معاويةُ أيضاً نَفْسَه خليفةً، وصلى في هذه المناسبة على جبل الجلجلة وعند جيتسيمانى. ولكن عبد الملك ترك ما كان ينويه من إحلال القدس محل مكة، إن كان قد نوى ذلك على الإطلاق، وذلك بمجرد أن امتد سلطانهُ إلى ما وراء بلاد الشام. وقد بدا أن فكرةَ إحلال بيت المقدس محل مكة بالنسبة للأمة الإسلامية كلها فكرةٌ لا يمكن تنفيذها[٢]. ولكن عبد الملك حاول، فيما بعد ذلك، أن يجعل للشام شأناً دينياً على حساب ما كان للمدينة من شأن، ومن قبله كان معاوية قد أمر في سنة ٥٠هـ بأن يُحْمل المنبر النبوي إلى الشام، فكسفت الشمس حتى رؤيت النجوم بادية عند كسوفهم. وأعظم الناسُ ذلك، فرجع معاوية عما أراد وقال: «ألم أُرِدْ حَمْلَه، وإنما خِفْتُ أن يكون قد أُرِض، فنظرت إليه»؛ ثم كسا معاوية المنبر. وقد همّ عبد الملك بما كان معاوية قد همّ به، ولكن صاحب خاتمه صرفه عن ذلك. ويقال إن ابنه الوليد هم مرةً أخرى بما همَّ به أبوه، ولكنه كفّ عن ذلك، لما طلب سعيد بن

---

(١) [يقصد المؤلف في أغلب الظن تحويل القبلة عن بيت المقدس إلى مكة، وهذا التحويل سياسة إلهية حكيمة، لا يدركها من يريد أن ينظر إلى كل شيء بمنظار السياسة الإنسانية ــ راجع تفاسير آية: سيقولُ السفهاءُ من الناس ما ولاّهم عن قبلتهم التي كانوا عليها؟ قُلْ: لله المشرقُ والمغربُ... الآية» (سورة البقرة) ــ المترجم].

(٢) ويروى أن خالد بن عبد الله القسرى قال: لو أمرني أمير المؤمنين نقضتُ الكعبة حجراً حجراً ونقلتها إلى الشام (الأغانى جـ ١٩ ص ٦٠).

المسيب من عمر بن عبد العزيز أن يكلِّم الوليد في ألا يتعرض لسخط الله عزّ وجلّ (الطبري جـ ٢ ص ٩٢ فما بعدها نقلاً عن الواقدي). ولم يكن الأمويون بحاجة إلى أن يراعوا، فيما يتعلق بالمدينة، ما يراعونه فيما يتعلق بمكة من اعتبارات، ذلك أن أهل المدينة جاهروا بنى أمية بالعداء أكثر من مرة وأخرجوهم أخيراً من المدينة على بكرة أبيهم؛ وقد حملوا ذلك لأهل المدينة في نفوسهم. ويظهر أن عبد الملك كان يعيِّن من يعيّنه من أمراء المدينة، وفي نفسه شيء من الحنق على أهلها. وقد نميز بروح خاصة من الشر من بين هؤلاء الأمراء هشامُ المخزومى (تولى إمارة المدينة منذ سنة ٨٢هـ).

وكان موقف عبد الملك منذ نشأته من الإسلام مغايراً لموقف سلفه منه؛ فقد وُلد عبد الملك في الإسلام وتربّى عليه، فضلاً عن أن ميلاده كان في مدينة الرسول، وفيها كان التراث النبوي الذي بقى جزءاً من تراث الحكومة التيوقراطية ينالُ عناية بالغة، وفيها أصبح موضوعاً لاهتمام طائفة من العلماء تَفَرّغت له، وقد اجتهد عبد الملك نفسه في صباه في هذه الدراسات الدينية، وكان يُعْتَبر من العلماء بالقرآن. ويروى أنه تغيّر لما تولى الخلافة (أنساب الأشراف ص ١٦٤ و١٦٧ و١٩٠)[1]. ولا شك أنه بعد توليه الخلافة جعل كلَّ شيء خاضعاً للسياسة، وقد عرّض الكعبة نفسها للهدم. ولكن عبد الملك، بحكم السياسة أيضاً، تحاشى أن يجرح العواطف الدينية لرعيته على النحو الذي كان عليه يزيد بن معاوية من قلة الاكتراث. وقد عرف عبد الملك هذه العواطف

(١) [جاء في كتاب أنساب الأشراف ص ١٦٤ و١٦٧ أن عبد الملك أنكر مهاجمة الكعبة أيام يزيد، ثم ابتلى بأن كان ضربها على يديه. وأدخل عليه مرة أسرى، فأمر بضرب أعناقهم، قبل سؤالهم. فقال له رجل من أهل الشام، كان له صديقاً أيام تنسُّكه: يا أمير المؤمنين! لقد أقست الخلافة قلبك، بعد أن كنت رؤوفاً! قال: كلا! الخلافة لم تقس قلبي، ولكنه أقساه احتمال الضغن بعد الضغن ــ المترجم].

أحسن بكثير مما عرفها يزيد، وعرف كذلك كيف يحترمها أكثر منه، فكان رجاء بن حَيَوة الكندي، وهو الرجل الصالح الذي سنسمع عنه فيما يلي، مقرباً لعبد الملك وصاحب جاه عنده[١]. وقد قتَل عبد الملك أيضاً رجلاً ادعى النبوّة أيامه (كتاب أنساب الأشراف ص ٢٥٣). ويذكر اوتيخيوس (Eutychius, 2. 365) أنه أراد أن يضم كنيسة القديس يوحنا في دمشق إلى المسجد الذي كان إلى جانبها، ولكنه عدل عن ذلك احتراماً للنصارى. على أنه تعوزنا المادة للحكم في أمر علاقة عبد الملك برعاياه للنصارى، ولكنا نعرف أن نصرانية تغلب لم تَضِرْهم ولم تَضِرْ شاعرهم الأخطل في نظر عبد الملك على كل حال. أما ما يذكره تيوفانيس (في حوادث سنة ٦١٨٦ لتاريخ الخليقة) من قتل الخنازير في الشام، فقد نشأ عن العداء للنصارى، ولكنه لم يأتِ من قِبلِ الخليفة.

وحَيْثُما كان الإسلام متمشياً مع العروبة في الأغراض، فإنه كان يلائم أغراض الحاكم، وكان يخدم أغراض الدولة بسهولة. ولم يلبث عبد الملك، بعد أن فرغ من القضاء على منافسيه، أن استأنف على الفور جهاد الروم، بعد أن ركد هذا الجهاد خمسة عشر عاماً[٢]. فهزم جوستنيان الثاني في سباستبول سنة ٧٣هـ التي تبتدئ في أواخر سنة ٦٩٢ م، وكان قائد عبد الملك هو أخوه محمد بن مروان أمير الجزيرة وأرمينية، وكانت له أيضاً قيادة الجيش في آسيا الصغرى وأرمينية. وكان المسلمون يقومون بغزو بلاد الروم في كل عام غزواتٍ صغيرة أو كبيرة، كما كان الحال في أيام معاوية. وهذه الغزوات، وإن لم تكن لها نتائج، فإنها كانت مدرسة مفيدة لعرب الشام والجزيرة، لأنهم بفضلها لم ينقطع تدرُّبهم على الحرب.

---

(١) كتاب أنساب الأشراف ص ١٩٣. ويروى أن رجاء كان صاحب الخزانة أيام بناء مسجد الصخرة في بيت المقدس (انظر Zeitschrift des Deutschen Palästinavereins ١٨٩٠ ص ٢١).

(٢) انظر مجلة Göttinger Nachrichten، ١٩٠١ ص ٤٣١ فما بعدها وكذلك بدأت الحرب في أفريقية من جديد (نفس المصدر ص ٤٣٤ فما بعدها).

وكان من إصلاحات عبد الملك المرتبطة باستئناف الحرب مع الروم، والتي كان لها أيضاً شأن في إرضاء الشعور الديني والوطني، تغييرهُ لنظام العُملة — ويحكى البلاذري (ص ٢٤٠ وص ٤٦٥ فما بعدها) عن سبب ذلك ما يأتي: كانت القراطيس تدخل بلاد الروم من أرض مصر، وكانت الدنانير الذهبية تأتي إلى العرب من قِبَل الروم، وكانت الأقباط تذكر المسيح في رؤوس الطوامير وتنسبه إلى الربوبية، وتجعل الصليب مكان بسم الله الرحمن الرحيم، فكان عبد الملك أول من أحدث الكتابة في رؤوس الطوامير، مثل: قل هو الله أحد، وغيرها من ذكر الله. فكتب ملك الروم إلى عبد الملك: إنكم أحْدَثْتُم في قراطيسكم كتاباً[١] نكرهه؛ فإن تركتموه وإلا أتاكم في الدنانير من ذكر نبيكم ما تكرهونه. فكبر ذلك في صدر عبد الملك، واستشار خالد بن يزيد بن معاوية، فأشار عليه بضرب العملة وبتحريم الدنانير الرومية ومنع التعامل بها وبمنع تصدير القراطيس من مصر إلى بلاد الروم؛ فمكثت القراطيس حيناً لا تُحْمَلُ إلى بلاد الروم. وبدأ عبد الملك بضرب الدنانير في دمشق سنة ٧٤هـ، وبدأ ضرب الحجاج للدنانير في آخر سنة ٧٥هـ. وكانت الدنانير الرومية والدراهم الكسروية وقليل من الدراهم الحميرية (وعليها صورة البومة الأثينية) هي الجارية. ويقول الواقدي (الطبري ج ٢ ص ٩٣٩) إن عبد الملك لم يبدأ في ضرب الدراهم الفضية والدنانير الذهبية إلا في سنة ٧٦هـ، ولكن إن كان تيوفانيس (سنة ٦١٨٣ من تاريخ الخليقة) على حق فيما يقوله من أن رد جوستنيان الثاني للدنانير الذهبية الدمشقية كان هو السبب في استئناف الحرب بين المسلمين والروم، فإن الأولى أن يُزاد في سنى التاريخ الذي يذكره البلاذرى، لا أن يُنْقَصَ منها. وكانت العملة الجديدة تضرب وعليها: بسم الله، وكانت تنقش عليها آيات من القرآن تدل على

---

(١) [الطوامير هي القراطيس، والمقصود بالكتاب هنا هو الكتابة — المترجم].

وحدانية الله وصدق رسالة رسوله[١]. ولقد كان العرب، قبل أيام عبد الملك، يضربون عملة من الفضة والنحاس، لكن على نماذج رومية وفارسية. ويظهر على كل حال أن معاوية كان من قبل قد حاول أن يفعل ما حققه عبد الملك؛ ففي كتاب المؤرخ السرياني الذي نشره نولدكه أن معاويةَ ضرب عملة فضية وذهبية، لكنها لم تُقْبَل، لأنه لم يكن عليها الصليب. وكذلك لم تكن العملة التي ضربها عبد الملك تُقْبَل في أول الأمر، خصوصاً في المدينة (البلاذرى ص ٤٦٦ فما بعدها) بحجة أن وزنها لم يكن يزيد على وزن الدنانير القديمة الممسوحة[٢].

وإلى جانب العمل على التخلص من التأثير الأجنبي من طريق ضرب عملة إسلامية خاصة، عُمِلت محاولة مماثلة بقصد الوصول إلى الغاية نفسها، وهي جعل اللغة العربية لغة الديوان، أعنى ديوان المال؛ ذلك لأن إدارة الدولة كانت في الغالب مقصورة على الناحية المالية، وكان حساب الدولة حتى ذلك الحين يُعمل بالرومية في دمشق، وبالفارسية في الكوفة. ويبدو من حكاية البلاذى (ص ٣٠٠ فما بعدها، وكتاب الفهرست ص ٢٤٢) أن بدء التعريب كان في الكوفة، وكان زاذان فرّوخ بين بيرى[٣]، أو ابنه مردانشاه، آخر كاتب فارسي، وكان مساعده في ذلك صالح بن عبد الرحمن، فعرض صالح على الحجاج أن يحوّل

---

(١) وقد كره الفقهاء من الحجاج أنه كتب على الدراهم اسمه بعد عبارة: بسم الله [ويؤخذ من البلاذى (ص ٤٦٨ وابن الأثير جـ ٤ ص ٣٣٧) أن الفقهاء كرهوا كتابة القرآن على العملة تعظيماً للقرآن، حتى لا يمسه إلا المطهرون ــ المترجم].

(٢) قارن أيضاً ابن الأثير جـ ٤ ص ٣٣٧ فما بعدها، ويتجلى عدم النجاح في تنفيذ وحدة حقيقية في العملة وفي الموازين في الدولة الإسلامية من حديث ينسب إلى الرسول (صلى الله عليه وسلم) ذكره يحيى بن آدم في كتابه الخراج ص ٥٢ ــ ٥٣: منعت العراق درهمها وقفيزها، ومنعت الشام مديها ودينارها، ومنعت مصر إردبها ودينارها، وعدتم من حيث بدأتم، وعدتم من حيث بدأتم، وعدتم من حيث بدأتم.

(٣) راجع الطبري جـ ٢ ص ١٠٣٤ وكتاب أنساب الأشراف ٣٤٣ وص ٣٥٢.

الحساب باللغة العربية، وقد استطاع ذلك، وإن كانت كتابة الكسور قد شقّت عليه — ويظهر أن رموز الأرقام لم تكن تستعمل في الكوفة، أما السبب الذي من أجله عُرِّب الديوان في دمشق فإن البلاذرى (ص ١٩٣) يقص فيه قصة عجيبة فيقول: إن رجلا من كُتاب الروم احتاج أن يكتب شيئاً، فلم يجد ماء، فبال في الدواة. فبلغ ذلك عبدَ الملك فأدّبه، وأمر بنقل الديوان من الرومية إلى العربية وكلّف سليمان بن سعد بإنجاز هذا العمل، فأتمّ ما عهد به إليه في خلال عام، وكوفئ عليه بأن أعطى خراج بلاد الأردن في عام، وكان مقداره مائة وثماني ألف دينار. وبقى النظام الرومى والفارسى في الديوان كما هو بطبيعة الحال، ولم تتغير إلا لغة الديوان. ولا شك أيضاً في أن الكُتاب الروم والفرس الذين كانوا في خدمة الدولة قد بقوا كما كانوا، لأنهم كانوا يعرفون العربية، وكان صالح بن عبد الرحمن الذي قام بنقل الديوان في الكوفة، هو نفسه، فارسياً من سجستان (البلاذرى ص ٣٠٠ س ١٢، ١٣ وص ٣٩٣ س ١٥)، وكان لا بد للكاتب من معرفة الفارسية والرومية لكي يستطيع النقل إلى العربية. ولم يزل لسرجون الرومي في دمشق على عهد عبد الملك ما كان له من مركز ونفوذ أيام معاوية ويزيد (الطبري جـ ٢ ص ٨٣٧ س ١١)[١].

ويقول تيوفانيس (في حوادث سنة ٦١٩٩ من تاريخ الخليقة) — وهو يَنْسُب إلى الوليد الأول، لا إلى من قبله، إحلال اللغة العربية محل الرومية في الكتابة في الديوان[٢] — إن العرب قد اضطروا إلى الاحتفاظ بعلامات الأرقام

---

(١) [النص الذي يذكره المؤلف لا يدل على ما يقوله، وكل ما فيه أن سرجون كان يكتب لمعاوية على الديوان، ولكن البلاذرى (ص ١٩٣) يقول إن سرجون كان كاتباً لعبد الملك، وإن عبد الملك عرض عليه عمل سليمان بن سعد — المترجم].

(٢) وقد نقل الوليد الديوان إلى اللغة العربية بمصر سنة ٨٧هـ، لكن إحلال اللغة العربية لم يكن محل اليونانية بل القبطية، كما يقول المقريزى (الخطط جـ ١ ص ٩٨).

الرومية، وإن كتّابهم كانوا ما يزالون نصارى؛ والحقيقة أن الكتاب النصارى في العصر العباسى، الذي ألف فيه هذا المؤرخ البوزنطى كتابه، كانوا أقوى نفوذاً وأعظم سلطاناً مما كانوا في أي وقت مضى؛ ولكن البغض لهم لم يبلغ ما بلغه في ذلك العصر أيضاً. ومهما يكن من شيء فإن العرب كانوا يُعتبرون غير صالحين لتولى شئون الخراج، ولم يكن ذلك لمجرد قلة المعرفة الفنية عندهم (الطبرى جـ ٢ ص ٤٥٨، ١٤٧٠)[١].

ويبدو للإنسان أن عبد الملك قد أقام الدولة من وجوه أخرى على قواعد جديدة، فأصبحت إدارتها فيما يظهر ذات طابع فنى ومتدرج أكثر مما كانت عليه من قبل، وإن لم تبلغ في ذلك إلا درجة أقل بكثير مما بلغته إدارة الدولة العباسية. ومن المناصب العليا في الدولة ما لا ذكر لوجوده قبل عهد عبد الملك، ولكن لا يتحتم أن يؤخذ من ذلك أن هذه المناصب لم تكن موجودة من قبل. على أنه من المؤكد مثلا أن لقب الـ Πρωτοσύμβουλος (= المستشار الأول) أصبح لا يلائم عبد الملك، وقد كان لقباً يلقب به عند مؤرخى الروم الخلفاء الأولون من بنى أمية. وقد اختط عبد الملك في معاملته لعماله خطة صارمة أوشك معها أن يكون جافياً غليظاً، حتى مع الحجاج، على علو فضله ومكانته، فكان يعامله معاملة تختلف كل الاختلاف عن معاملة معاوية لزياد؛ وقد أصبح عبد الملك أيضاً لا يسمح لذوى النباهة من الرجال، الذين كان ـــ بحسب العادة القديمة ـــ يجتذبهم إلى مجلسه ويشاورهم، بأن يرفعوا الكلفة بين أنفسهم وبينه، كما كان يفعل معاوية من قبل، مطمئناً إلى أن رجحان عقله كفيل بأن يسعفه. ولم يكن لعبد الملك ولا لمن جاء بعده من خلفاء بني أمية، ذلك اللطف المعروف عن الخلفاء السفيانيين، وهو

---

(١) [أخذ على عبيد الله بن زياد أنه استعمل الدهاقين في جباية الخراج، فعلل ذلك بأنه وجدهم «أبصر بالجباية وأوفى بالأمانة وأهون في المطالبة من العرب» ـــ المترجم نقلا عن الطبرى جـ ٢ ص ٤٥٨].

اللطف الذي ربما كان لهم، كما كان للسيد العربي القديم، أشبه بفضيلة مكتسبة منه بأن يكون صفة فطرية. وإنما أراد عبد الملك أن يظهر بمظهر السيد الصارم (كتاب أنساب الأشراف ص ١٧٨)[١].

وكان عبـــد الملك، إذا كان الأمر أمر خلافته، لا يأبه لأي اعتبار؛ فقتل بيده ابنَ عمه عمرو بن سعيد، لأنه تطاول للخلافة. وقد عارضه أخوه عبد العزيز فيما أراده من جعل الخلافة في أبنائه، فلم ينقذه من بطش عبد الملك إلا الموت. على أن عبد الملك أعطى أقاربه من بنى أمية من التمتع بالسيادة نصيباً أوفر مما كان يعطيهم إياه من كان قبله من الخلفاء، فكادت تكون في أيديهم في أول الأمر كل إمارات الأمصار، فكان عبد العزيز بن مروان أميراً على إفريقية ومصر، وربما كان ذلك بفضل وصيةٍ أمر بها مروان في كبره، ويروى أن مروان كان يريد أن تكون لعبد العزيز ولاية العهد بعد عبد الملك[١]. وكان محمد بن مروان أميراً على الجزيرة وأرمينية، وكان لهذه الإمارة خَطَرُها، نظراً للحرب مع الروم. وتقلد بشر بن مروان، على صغر سنه، إمارة الكوفة؛ ثم ضُمّت إليه إمارة البصرة،

---

(١) [يجد القارئ في خطبة لعبد الملك خطبها في الحجاز هذه العبارات مثلا: «أيها الناس! لست بالخليفة المستضعف، يعنى عثمان، ولا بالخليفة المداهن، يعنى معاوية، ولا بالخليفة المأفون، يعنى يزيد. ألا وإن من قبلي من الولاة كانوا يأكلون ويؤكلون، وإني والله لا أداويكم إلا بالسيف... هذا عمرو بن سعيد قال برأسه كذا، فقلنا بسيفنا كذا... إن الله عز وجل فرض فرائض وحدد حدوداً، فما زلتم تزدادون في الذنوب ونزداد في العقوبة، حتى اجتمعنا وأنتم عند السيف...» ــ المترجم، نقلا عن أنساب الأشراف ص ١٧٧ ــ ١٧٩].

(٢) جاء في كتاب *Cont. B.A.* § 29:

Marvan antequam moreretur… Aegyptum vel (=et): ulterioris Aethiopiae partes, Tripoleos Africae et usque ad Gaditana freta adiacentes provincias Habellaziz filio dereliquit.

[وقبل أن يموت مروان كان قد ترك لابنه عبد العزيز مصر أو (= و) أجزاء من الحبشة القصوى وطرابلس أفريقية والولايات المجاورة، حتى مضيق قادس ــ المترجم]. وقد غضب عبد العزيز من عبد الملك، لأن عبد الملك طلب منه أن يحمل له خراج مصر؛ ولم تكن أم عبد العزيز أما لمروان (أنساب الأشراف ص ٢٣٩، ٢٦١).

وقبل ذلك أمويٌّ آخر، هو خالد بن عبد الله بن خالد بن أسيد، يتولى البصرة. وكانت جماعة بني أمية في مجلس الخلافة، منذ أن خرجوا مع مروان من المدينة إلى دمشق، أكبر بكثير من ذى قبل. وكان هناك شأن أيضاً لخالد بن يزيد بن معاوية. وقد حاول عبد الملك أن يخفّف عليه وطأةَ ما كان يحس به من مضاضة بسبب إقصائه بغير حق عن وراثة الخلافة، فَقَرَّبه إليه وزوّجه من ابنته. وقد تزوج عبد الملك نفسه إحدى بنات يزيد، وكان اسمها عاتكة، وكانت زوجة الأثيرة عنده، وكان لها عنده شأن عظيم.

وتُذكر في كتاب أنساب الأشراف الذي نشره آلڤارت[١] حكايات كثيرة عن هذا الخليفة الذي بلغ من الشهرة ما لم يبلغه أحد من خلفاء أسرة بني أمية. وهذه الحكايات تزيد في معرفتنا بشخصه وتعطينا إلى جانب ذلك أيضاً كل ما أحاط به من طرائف: فهي تحدثنا عن الأماكن التي كان يغير بينها مقامه بحسب فصول السنة، وعن نسائه وعن أسرته، وعما كان قد اعتاد أن يباشره في كل يوم من أعمال، وعن عنايته بتأديب أولاده، عن فضائله ووجوه ضعفه ومعايبه ــ كان فاسد الفم ــ وعن الألقاب التي كان يلقب بها. وهو قد شاب قبل الأوان، وتوفى عن ستين عاماً في دمشق[٢]، يوم الخميس ١٤ شوال سنة ٨٦هـ. (= ٩ أكتوبر سنة ٧٠٥م).

---

(١) [راجع الكتاب المذكور ص ١٦١ ــ ٢٣٨ ــ المترجم].

(٢) يذكر الواقدي عن أبي معشر (الطبري جـ ٢ ص ١١٧٢ ــ قارن أنساب الأشراف ص ٢٦٤) أن عبد الملك مات يوم الخميس النصف من شوال؛ وبحسب ڤستنفيلد Wüstenfeld وافق يومُ الخميس الرابعَ عشر من الشهر، وهذا هو أيضاً التاريخ الذي يذكره إلياس النصيبي. أما عمره فيذكر المدائنى (الطبرى جـ ٢ ص ١١٧٣) وصاحب أنساب الأشراف أن عبد الملك مات وله اثنتان وستون أو ثلاث وستون سنة، أما أبو معشر فيقول إنه مات وله ستون سنة، والواقدى يذكر أنه مات وهو ابن ثمان وخمسين (الطبرى جـ ٢ ص ١١٧٣ وأنساب الأشراف ص ١٦٣، وكذلك الأنساب ص ١٥٢ بالقراءة الصحيحة)؛ ورقم الـ ٦٠ هو الأصل كما في الطبرى (جـ ٢ ص ٤٦٧ س ١١).

ويسمى عبدُ الملك أبا الملوك، لأن أربعة من أبنائه صاروا ملوكاً من بعده، وكان خلفاء بني أمية بعده كلهم من ذريته، ولم يخرج عن ذلك إلا اثنان من خلفاء بنى أمية المتأخرين. وكان أخوه عبد العزيز، أمير مصر، قد عُيِّن خلفاً له، وبويع أيضاً على ذلك. وقد جهد عبد الملك في أن يحمله على التنازل عن الخلافة لكي يصرفها إلى أعزّ أبنائه عنده، ولكن جهده لم يثمر. فامتنع عبد العزيز امتناعاً شديداً، ولم يُفِدْ معه ولا الترغيب. ولكن القدر أسعد عبد الملك بأن مات عبد العزيز قبله (الطبرى جـ ٢ ص ١١٦٤ فما بعدها، قارن أيضاً ص ١١٧١)؛ وعند ذلك جعل عبدُ الملك ولايةَ العهد في الوليد أكبر أبنائه. ثم ارتقى الوليد عرش الخلافة، وفي عهده وثبت سيوفُ العرب وثبة جديدة، فاحتلوا حصن طوانه (Tyana) بعد حصار طويل، وأُعدت حملة كبيرة على القسطنطينية نفسها. وهكذا بدأت من جديد فترةٌ من الفتوحات الكبيرة، فغلب العربُ على ما وراء النهر وعلى أسبانيا. وفي داخل الدولة سادت السكينة بعد طول انتظار، وجنى الوليدُ ثمرات عمل أبيه، وهو قد ترسم آثاره، فتمسّك بالحجاج، أمير المشرق الذي أثار على نفسه كثيراً من العداوات وكان بمثابة العلامة المميزة لحكومة الخلفاء الذين خدمهم. وقد كان الوليد حريصاً على أن يظهر بمظهر السيد والآمر، ويقال إنه كان أول من تجبَّر من الخلفاء (كتاب أنساب الأشراف ص ٢٤٣)، وتنسب إليه كلمات من قبيل oderint modo metuant[١] (الطبرى جـ ٢ ص ١١٧٨)[٢]. وقد عمل على تقوية الإسلام من حيث هو دين الدولة، وربما كان له في قلبه محبة عميقة أيضاً. فوضع حداً لإيذاء أهل الدين والورع في المدينة على يد أميرها هشام بن إسماعيل المخزومى، وعيّن مكانه ابن عمه عمر بن عبد العزيز،

(١) [معنى هذه العبارة اللاتينية هو: فليكرهوا، ما داموا خائفين ــ المترجم].

(٢) [ختم الوليد أول خطبة خطبها بعد أن انتهى من دفن أبيه بقوله، بعد حض الناس على الطاعة والاتحاد: أيها الناس! من أبدى لنا ذات نفسه ضربنا الذي فيه عيناه، ومن سكت مات بدائه ــ المترجم].

وكان تعيينه موافقاً لهوى الفقهاء (الطبرى جـ ٢ ص ١١٨٢ فما بعدها). وكان الوليد يحتم على الناس جميعاً أن يقرءوا القرآن ويعرفوه، وكان يجعل ذلك شرطاً في قضاء حوائجهم وصلة أرحامهم (الطبرى جـ ٢ ص ١٢٧١)، وإن كان هو في شبابه قد كان يلحن في اللغة التي نزل بها القرآن لحناً فاحشاً، مما اهتم له أبوه كثيراً (أنساب الأشراف ص ٢٣٦ فما بعدها وص ٢٦٠). وقد نفذ الوليد ما يقال إن أباه عبد الملك كان قد عزم عليه ثم تركه، وهو أنه أخذ من النصارى في دمشق كنيسة القديس يوحنا، فوسع بها المسجد الملاصق لها وجدّده تجديداً رائعاً في سنة ٨٤هـ (البلاذرى ص ١٢٥ فما بعدها والطبرى جـ ٢ ص ١٢٧٥). وأخذ من كنيسة نصرانية في بعلبك قبتها النحاسية المطلية بالذهب ووضعها في بيت المقدس فوق الصخرة المقدسة (Eutych. 2, 373). وكذلك أمر بإعادة بناء مسجد المدينة (البلاذرى ص ٦، ٧). على أنه قد أغضب أهل الورع في المدينة بذلك، كما أغضبهم بأنه في سنة ٩١هـ خطب فيه الخطبة الأولى من الخطبتين، وهو جالس، على عادته في الشام (الطبرى جـ ٢ ص ١٢٣٣). وكان مولعاً بكل أنواع البناء وبتخطيط الضياع وتحسينها، فانتقلت هذه الروح منه إلى الناس (الطبرى جـ ٢ ص ١٢٧٢)(١). وقد جلب له الحجاجُ الجاموسَ من الهند إلى إقليم المستنقعات عند خلجان إلسوس. على أنه عُنِي أيضاً بأهل العاهات، فأعطى المجذّمين وأعطى كلَّ مُقعَد خادماً وكلَّ ضرير قائداً، لكيلا يضطروا إلى سؤال الناس (الطبرى جـ ٢ ص ١٢٧١). وكان أهل الشام أكثر من استفاد منه، وكانوا يعتبرونه أفضل خلفائهم (الطبرى جـ ٢ ص ١٢٧١ س ٣). ومن العسير أن

---

(١) [جاء في الطبرى جـ ٢ ص ١٢٧٢ ـ ١٢٧٣: أن الوليد كان صاحب بناء واتخاذ المصانع والضياع، وكان إذا التقى الناس في زمانه فإنما يسأل بعضهم بعضاً عن البناء والمصانع. فولى سليمان بن عبد الملك، فكان صاحب نكاح وطعام، فكان الناس يسأل بعضهم بعضاً عن التزويج والجوارى. فلما ولى عمر بن عبد العزيز كانوا يلتقون فيقول الرجل للرجل: «ما وردك الليلة، وكم تحفظ من القرآن، ومتى تختم، وما تصوم من الشهر؟» ـ المترجم].

نصدق أنه كان في الشام متحيزاً إلى قبيلة قيس، لأنه لم يكن بحاجة إلى ذلك، ولأن المؤرخين القدماء لا يذكرون شيئاً من ذلك، ونحن لا ينبغي أن نستنتجه من أمِّه ولاّدة بنت العباس العبسي كانت قيسية (أنساب الأشراف ص ١٧٢ س ١٩ فما بعده، والحماسة ص ٦٧٢) وأن الحجاج، وهو قيسى النسب، كان ساعده الأيمن. ويميل المؤرخون المتأخرون إلى وضع كل الرجال الذين لعبوا دوراً في تاريخ الدولة في جانب أو في آخر، ويقلدهم دوزى في ذلك. وقد مات الوليد في يوم السبت منتصف جمادى الآخرة من سنة ٩٦هـ، وهو في حوالى الأربعين من العمر (الطبرى جـ ٢ ص ١٢٦٩ فما بعدها)، وكان يوم السبت يوافق ١٣ جمادى الآخرة = ٢٣ فبراير سنة ٧١٥ م[١].

٣ ـــ وفي خلافة عبد الملك وابنه الوليد ظل العراق سنين طويلة تحت إمرة الحجاج بن يوسف بن الحكم بن عقيل الثقفى الذي تقدم ذكره كثيراً والذي ظهرت مواهبُه في مكة والمدينة أول الأمر. وكان تاريخ العراق في تلك الحقبة هو التاريخ الحقيقي للدولة الإسلامية.

ولما تولى الحجاج على العراق كانت تنتظره مهام ثقيلة، فكانت تلك الولاية يغلى باطنُها كالمرجل، ولم يكن ذلك لمجرد الصراع الذي استمر سنين طويلة حول الخلافة. وقد أخمدت الثورة العنيفة التي قام بها شيعة الكوفة ومن انضم إليهم من الموالى، بقيادة المختار الثقفى، ولكنها خلّفت في النفوس ناراً متوقدة[٢]، ولم تكن البصرة قد تحررت بعد من الخوارج الذين كانوا يقفون أمام أبواب هذه المدينة مهددين لها[٣]. ولم يكن مصعب بن الزبير قد استطاع أن

---

(١) لعل عبارة «منتصف الشهر» كانت لا تدل قديماً على اليوم الخامس عشر من الشهر على التدقيق، كما يفهم ذلك عادة. ويذكر إلياس النصيبى أن الوليد توفى يوم الأحد الرابع عشر من جمادى الثانية سنة ٩٦هـ.

(٢) انظر ما كتبناه عن الشيعة .*Schia* p. 74ss

(٣) انظر ما كتبناه عن الخوارج .*Chavarig* p. 32ss

يقضى عليهم، وقد فتّوا في عضده وهو يحارب أهل الشام، حتى اضطر أن يترك وراءه أحسن قواده لحماية البصرة من الخوارج. فلما هُزم مصعب وقتل على نهر دجلة أمام عبد الملك، كان المهلب في ميدان القتال مع الأزارقة، فأدرك جملة الموقف وتصرف طبقاً لذلك، فانضم إلى المنتصر، وعرف له المنتصرُ قدره. ولكن الأمراء الأمويين الذين أرسلهم عبد الملك أمراء على العراق لم يكونوا يصلحون إلا لتولى المنصب بلا عمل. فلم يكن من خالد بن أسيد الذي عُين على البصرة إلا أن نحى المهلبَ عن القيادة وجعله على خراج الأهواز، وتولى هو في أول الأمر القيادةَ في محاربة الخوارج، أولئك الثوار المتعصبين الخطرين، ثم عهد بها لأخيه عبد العزيز، فجاءت على أثر ذلك هزيمةٌ قبيحة لحقت بجيوش الدولة. فلما كتب خالد إلى عبد الملك يخبره بها، رد عليه عبد الملك مُسفِّهاً رأيه في إبعاد المهلب، وهو البصير بالحرب المقاسى لها، وفي جعله أخاه قائداً مع أنه أعرابي من أهل مكة؛ وأمره بأن ينتفع بالمهلب ويستشيره في كل ما يتعلق بقتال العدو. ثم إن عبد الملك ولى المهلب حربَ الأزارقة، ولكنه، بعزله خالداً عند ذلك وتعيينه أخاه بشراً بدلا منه وإسناده إليه إلى جانب إمارة الكوفة إمارة البصرة، لم يسعف المهلبَ، لأن بشراً، وكان غلاماً أخرق معجباً بنفسه، لم يكن أحسن صنعاً ممن سبقه من أمراء بني أمية؛ وقد شق عليه أن إمرة المهلب جاءت من قبل الخليفة مباشرة، فامتلأ قلبه حقداً عليه. وهو قد شد أزر المهلب بجند الكوفة بناء على الأمر الأعلى الآتى له من الخليفة، ولكنه أمر قائدهم أمراً صريحاً بأن يستبد على المهلب بالأمر، وبألا يقبل له مشورة وألا يحترمه. وكان بشر أخرق فيما صنع، لأنه استجهل القائدَ وطلب منه ما لا يصح طلبُه وأغراه بالمهلب مع أنه ابن عمه؛ ولذلك فإن ذلك القائد لم يكن منه إلا أنه تجاهل كلام الأمير الشاب واستخفّ

بعقله. وكان من الحظ الحسن أن بشراً توفى عام ٧٤هـ[١]، فوجه عبد الملك الحجاج والياً على العراق، وقرّت بذلك عينُ المهلب. وقد تولى الحجاج عمله في أول سنة ٧٥هـ[٢]. وهذا هو مجمل حكاية أبي مخنف، كما نجدها عند الطبرى (جـ ٢ ص ٨٢١ فما بعدها، وص ٨٥٥ فما بعدها).

وتقدم الحجاجُ إلى أهل الكوفة بخطبة خطبها لما دخل الكوفة لمباشرة مهام منصبه، وهي ليست دون خطبة زياد بن أبيه، شريكه في الوطن وسلفه في المنصب ــ تلك الخطبة التي ألقاها في البصرة. وما جاء عند الطبرى (جـ ٢ ص ٨٦٣ فما بعدها) من أخبار ذلك يرجع إلى عمر بن شبّة (نقلا عن أبي غسان والمدائنى)، ويمكن مقارنته بما في كتاب أنساب الأشراف (ص ٢٦٦ فما بعدها وكتاب الكامل ص ٦٦٥ فما بعدها). وقد صعد الحجاج المنبر متلثّما، ولبث لا يتكلم. فقال محمد بن عمير بن عطارد: ما له، ترَّحه الله، لا يتكلم! ما أعياه وأشناه وأذَمَّه!... ثم أخذ كفاً من حصى ليحصب الحجاج[٣]. وأخيراً قام الحجاج ليخطب خطبته التي أوَّلُهَا:

أنا ابنُ جــلا وطــلاّع الثنايا متى أضــعُ العمامةَ تعرفوني

وهي الخطبة التي تهدد فيها أهلَ العراق وتوعّدهم. وتبين لابن عمير أن الحجاج ليس عَيّاً ولا ضعيفاً، فجعل الحصا يتساقط من يده، كلما استمر الحجاج في كلامه. وكانت أول مهام الوالى الجديد إعادة النظام بين جند الكوفة والبصرة، وكأنما كان هؤلاء الجند قد رأوا أن موت بشر بمثابة إشارة لترك معسكر المهلب في رامهرمز، دون إذن لهم بذلك. وهم قد كانوا سئموا البقاء في ميدان القتال بعيداً عن

---

(١) يقول الواقدي (الطبري جـ ٢ ص ٨٥٢ س ٨ وص ٨٥٤ س ١) إنه مات سنة ٧٣هـ، ولكن هذا مستحيل.

(٢) لا في رمضان كما يذكر عند الطبري (جـ ٢ ص ٨٧٢)، قارن الطبري جـ ٢ ص ٩٤٤ س ٩ وص ٨٧٦ س ٣، وأنساب الأشراف ص ٢٧٠ س ١.

(٣) فالظاهر إذن أن زياداً ترك بعض الحصى في المسجد [راجع ما تقدم ص ١١٩ ــ المترجم].

أهليهم وأولادهم زماناً طويلاً، وكانوا قد اعتادوا الرغد الحقيقي في ديارهم (الطبرى ج ٢ ص ٨٦٥ فما بعدها[١]). فأنذر الحجاج على الفور أهلَ الكوفة من أعلى المنبر؛ أن من رُئى في المدينة من الجند الهاربين من عصاة الجيوش بعد ثلاثة أيام فالذمّة منه بريئة، ومالُه نَهْبٌ، ودَمُهُ مباحٌ، وقد عرف كيف يؤكّد هذا التهديد، فضرب أمثلة قاسية كان لها أثرها، ثم بدأ الحجاج عمله في البصرة بمثل ما بدأه به في الكوفة، وكان حظه من التوفيق هناك مثل حظه هنا. وتزاحم الجند الذين كان عليهم أن يعودوا إلى الجيش على قنطرة دجلة، لكي يعودوا إلى رامهرمز، وذهب الحجاج بنفسه معهم إلى أن بلغ رستقأباد. وكان عليه في شعبان سنة ٧٥هـ أن يقضى هناك على ثورة بسبب إنقاص الزيادة التي كان ابن الزبير قد زادها في أعطيات أهل العراق. وتدل رواية صاحب كتاب أنساب الأشراف (ص ٢٨٠ فما بعدها) ورواية ابن الأثير (ج ٤ ص ٣٠٩ فما بعدها) على أن هذه الثورة كانت أخطر بكثير مما يبدو من الرواية المقتضبة الموجودة عند الطبري (ج ٢ ص ٨٧٩)، وبعد القضاء عليها أصبح من الممكن توجيه القتال إلى الأزارقة بوسائل كافية، وإن كان لم يمكن القضاء عليهم قضاء تاماً إلا بعد مضى أكثر من عامين[٢].

وفي الوقت الذي لم يكن قد تمّ فيه التغلب على الأزارقة في المشرق، قام خوارج آخرون في أول سنة ٧٦هـ، في غرب العراق، كانوا يتميزون بأنهم ينتمون في الأغلب إلى قبيلة واحدة أبيّة، هم بنو شيبان من بكر. وكانوا قد تركوا مواطنهم الأولى على الضفة اليمنى للفرات، في بادية الكوفة والبصرة، وهاجروا منذ زمان قصير إلى شمال أرض الجزيرة، وكان أشهر زعمائهم وأخطرهم

---

(١) يعتمد المؤلف في هذا على ما جاء في خطبة الحجاج في الكوفة من قوله إن أهل العراق أشبه بأهل قرية كانت آمنة مطمئنة، يأتيها رزقها رغداً من كل مكان، فكفرت بأنعم الله... الخ، ودلالة هذا على ما يقوله المؤلف ليست مباشرة ــ المترجم].

(٢) راجع ما كتبناه عن الخوارج ص ٣٩ فما بعدها من كتابنا.

شبيب بن يزيد[١] الذي كان بفضل سرعة فرسانه كثير الظهور والاختفاء، كأنه في كل مكان، وكأنه ليس في أي مكان؛ بل هو في سنة ٧٦هـ خرج من الجزيرة إلى العراق وهزم جيوشاً كثيرة أرسلها الحجاج لمقاتلته، وبلغ منه أن طرق أبواب العاصمة. وكانت الأرض التي اختارها لجولاته هي الأرض القديمة للخوارج الأولين، أعنى أرضَ جوخى على النهروان والجبال التي تقع إلى شمالها. وبعد أن لبث فترة طويلة في بلاد أذربيجان الجبلية، تقاطر إليه في أثنائها خلقٌ كثير، تقدم في النصف الثاني من سنة ٧٧هـ، ومعه جيوش كبيرة، نحو الجنوب، يحاول هجوماً حاسماً على الكوفة، وقد أمر الحجاج جيوشاً شتى لكي تجتمع لمناجزته؛ ولكنه هزم جيوش الكوفة كلها هزيمة شنعاء جعلتهم يلوذون بالفرار، ثم ترك الميدان. وكانت موارد الحجاج من الجند قد نضبت، فوجد نفسه مضطراً إلى أن يطلب إلى الخليفة أن يرسل له جنداً من الشام، وجاء هؤلاء في الوقت المناسب تماماً، وطردوا شبيباً، فقفل راجعاً إلى أرض جوخى أول الأمر، ولكنه لم يلبث أن أرتحل عنها إلى بلاد كرمان النائية، أعنى إلى حصن الأزارقة المنيع، ثم خرج من هناك والتقى عند دُجيْل (في الأهواز) بجيش الشام الذي أرسِلَ وراءه؛ وغرق، وهو راجع عبر النهر، وذلك في سنة ٧٧هـ (ربيع سنة ٦٩٧ م). وهكذا أنقذ أهلُ الشام الكوفَة، وسنرى الثمن الغالي الذي كان لا بد أن يُدْفَع لِقاء معونتهم. وإلى أبي مخنف[٢] ترجع رواية أخبار شبيب الرواية المفصّلة التي حكاها الطبري (جـ ٢ ص ٨٨١ ـ ١٠٠٢).

---

(١) كانت أسرة شبيب تقطن غير بعيد من الموصل، لكنها كانت قد هاجرت إلى هناك (انظر فيما يتعلق بالكوفة الطبري جـ ٢ ص ٩٧٧) من ماء اللصاف، أو اللصف، في بادية الكوفة (الحماسة ص ١٥)، وبقى بعض أقاربه يقطن هناك. وكان شبيب وأبوه يختلفان إليهم (الطبري جـ ٢ ص ٩١٥، ٩٧٨). وربما كان تفرق بني شيبان لم يأت اختياراً، بل بسبب من معاوية.

(٢) راجع *Chavarig*, p. 41ss

وفي سنة ٧٨هـ، بعد أن كان قد تمَّ القضاء على خطر الخوارج في شرق العراق وغربه، ضمّ عبدُ الملك خراسانَ وسجستان إلى الحجاج، وذلك زيادة على ما كان له من إمرة الكوفة والبصرة (الطبري جـ ٢ ص ١٠٣١ فما بعده، وأنساب الأشراف ص ٣١٠ فما بعدها)، فأعطى الحجاج ولايةَ خراسان للمهلب بن أبي صفرة الأزدى، قاهر الأزارقة، الذي كان قد اكتسب مجداً وشهرة هناك من قبل (البلاذرى ص ٤٣٢). وبقى المهلب هناك حتى وفاته (آخر سنة ٨٢هـ)؛ وقد أورث أسرتَه وقبيلته ما كان له من سلطان.

ووجه الحجاجُ إلى سجستان[١] عبيدَ الله بن أبي بكرة[٢]، وهو بصرى نابه من البيت الثقفى المعروف الذي ينتسب إليه زياد بن أبيه. فقام عبيدُ الله في سنة ٧٩هـ بحملة وجّهها إلى زنبيل[٣] كابل وزابل، لأنه منع الخراج؛ فاستدرجه الزنبيل إلى الإمعان في البلاد، حتى انتهى إلى شِعْب، ثم أخذ عليه الطريق، فلم يستطع عبيدُ الله أن ينجو ويشق طريقه راجعاً إلا بعد مصالحة الزنبيل؛ وقد تكبد خسائر جسيمة أصابت جند الكوفة خاصة، وحزن حزناً قصَّر أجله؛ فيقال إنه مات كمداً، وذلك في سنة ٧٩هـ (كتاب أنساب الأشراف ص ٣٢٠) أو في سنة ٨٠هـ (الطبري جـ ٢ ص ١٠٤٦). وكان سجستان تحتاج إلى قائد

---

(١) فيما يتعلق بالتاريخ السابق لسجستان قارن البلاذرى ص ٣٩٢ فما بعدها.

(٢) [تجد حكاية حملة ابن أبي بكرة على الزنبيل عند الطبرى جـ ٢ ص ١٠٣٦ فما بعدها وفي كتاب أنساب الأشراف ص ٣١١ فما بعدها ــ المترجم].

(٣) النطق الصحيح هو زُنْبيل (اسم علم ولقب في وقت معاً) لا رتُبيل (راجع ما يقول له كاننجهام (Cunningham) في أعمال المؤتمر الدولي العاشر للمستشرقين، مجلد ١ ص ٢٤٤، وراجع Justi, Namenbuch, 385 وكتاب Marquart, Eranschahr, 37)، قارن الطبرى جـ ٢ ص ١٦٥٢ س ١٨ وجـ ٣ ص ١٩٤ س ٣، ويوجد زنكبيل اليمني عند الطبري جـ ١ ص ١٨٥٥ س ١٦، ويسمى الزنبيل سيد الترك ــ الطبرى جـ ٢ ص ١١٣٢ فما بعدها و١١٣٧ س ٢ و١٠٤٢ س ١٢. وكان أهل البلاد إيرانيين، لكن الأسر الحاكمة (والجند) كانوا تركاً؛ قارن ديوان الفرزدق طبعة بوشيه ص ٢٠٦ س ١٠ (؟).

محنك يكون والياً عليها، فاختار الحجاج لذلك كوفياً أبياً من قبيلة ملوك كندة القدماء، وهو عبد الرحمن بن محمد الأشعث، الذي كان في بلاد كرمان[١] المجاورة لسجستان، وشدّ أزره بجيش كبير كامل الأعطيات تامّ الأهبة والعدة، انتخبه من أهل الكوفة والبصرة، ولذلك سُمى هذا الجيش «جيش الطواويس».

وكان هذا هو الموقف لمّا اندلعت على الحجاج في سجستان ثور جيش العراق، وهي الثورة التي هزّتْ دولة الأمويين هزّاً شديداً. ويذكر الطبرى[٢] في ذلك رواية أبي مخنف، وهي رواية حيّة مُفَصَّلة، مؤثراً لها على غيرها؛ أما رواية كتاب الأنساب (ص ٣٠٨ فما بعدها)، وهي أيضاً مفصلة تفصيلا وافياً، فهي ترجع إلى رواة كثيرين. اتبع عبد الرحمن بن محمد — وهو يسمى عادة بابن الأشعث نسبة لجدّه — طريقة مغايرة لطريقة سلفه، فلم يقم بغارات متفرقة، بل بحرب حقيقية منظمة؛ وأراد أن يحذر مغبة التسرع في التوغل في البلاد، فكان لا يفتح حصناً ولا يجاوز عُمْراناً إلا خلّف فيه قائداً، معه حاميةٌ من المسلمين؛ ونظّم المراسلات بالبريد بين البلاد، وجعل الأجناد على العِقاب والشعاب، ووضع المسالح بكل مكان مخوف. وبعد أن حاز أرضاً عظيمة وامتلأت يداه بالغنائم، حبس الناس

---

(١) يقول أبو عبيدة (أنساب الأشراف ص ٣٢٠ فما بعدها، والطبري ج ٢ ص ١٠٤٦) إنه كان هناك لإخماد ثورة قام بها هميان بن عدى السدوسى السكرى (قارن كتاب الأنساب ص ٣٤٢) وفي روايات أخرى (الأنساب ص ٣١٨ س ٢، ٣٢٠ س ١٠)، خلافاً لذلك أنه كان هناك لمحاربة الخوارج. وبحسب كتاب الأنساب (ص ٣٠٩ كان في أول الأمر قد ذهب إلى سجستان من أجل ميراث له، فجعل يختلف إلى بغيّ يقال لها ماهبوش، فأَخِذَ معها. ولكن بحسب كتاب الأنساب (ص ٣٣٤ فما بعدها) كانت هذه تسكن كرمان ولم تستهوه هو بل استهوت عربياً نبيلا غيره، حتى رهن من أجلها سرج حصانه وطلب من ابن الأشعث أن يَفْتَكّهُ حتى يستطيع أن يركب معهم، قارن ديوان الفرزدق، طبعة بوشيه (ص ٢٠٩ س ١٢).

(٢) [تجد رواية الطبرى في الجزء الثاني ص ١٠٤٢ فما بعدها و١٠٥٢ فما بعدها، و١٠٦٣ فما بعدها و١٠٧٠ فما بعدها و١٠٨٥ فما بعدها و١٠٩٨ فما بعدها حتى ص ١١٣٨ — المترجم].

عن الوغول في البلاد حتى يتعوّد جنوده على طبيعة الجبال، بما فيها من شعاب وعقاب، وكتب إلى الحجاج بذلك. ولكن الحجاج، وهو الرجل السريع القليل الصبر، كما هي عادته، كتب إليه يتّهمه بالضعف والجبن ومحبة المهادنة والموادعة، وحثّه في كتب متلاحقة على التقدم في بلاد العدو والتوغل فيها، وهدّده، إن لم يفعل، بأن يجعل القيادة لأخيه إسحاق بن محمد بن الأشعث، حتى يصير هو من تحت يده كبعض الجند. فغضب عبد الرحمن وجمع رؤوس الناس وأخبرهم بما تضمنته كتب الحجاج، وقال لهم: إنى لكم ناصحٌ ولصلاحكم مُحِبٌّ ولكم في كل ما يحيط بكم نَفْعُه ناظرٌ، ولقد كان من رأيي فيما بيني وبين عدوكم رأيٌ استشرتُ فيه ذوى أحلامكم وأولى التجربة للحرب منكم، فرضوه رأياً... وقد كتبتُ إلى أميركم الحجاج، فجاءني منه كتاب يُعَجِّزني ويضعّفني ويأمرني بتعجيل الوغول بكم في أرض العدو، وهي البلاد التي هلك إخوانكم فيها بالأمس ــ وختم عبد الرحمن كلامه قائلا: «وإنما أنا رجل منكم، أمضى إذا أمضيتم، وآبى إذا أبيتم». وكان أهل العراق يبغضون الحجاج، وكرهت نفوسُهم ما يتوقعونه من حرب طويلة شاقة في بلاد قاصية، فكانوا يرحّبون بكل فرصة تسنح للعودة إلى أوطانهم. وكان ابن الأشعث يعلم تماماً ما سيقولون في جوابهم. فملا انتهى من كلامه ثار الناس فقالوا: لا، بل نأبى على عدو الله ولا نسمح له ولا نطيع. ثم قام أحدهم فقال: إن الحجاج لا يرى فيكم إلا رأى من قال لأخيه: احمل عَبْدَك على الفرس، فإن هلك هلك، وإن نجا فلك! إن الحجاج والله لا يبالى أن يخاطر بكم فيقحمكم بلاداً كثيرة اللغوب والعقاب والأشب، فإن ظفرتم فغنمتم أكَلَ البلاد وحاز المال، وكان ذلك زيادة في سلطانه، وإن ظفر عدوُّكم كنتم أنتم الأعداء البغضاء الذين لا يبالى عنتهم ولا يُبقى عليهم، فاخلعوا الحجاج وبايعوا أميركم عبد الرحمن! فإنى أشهدكم أنى أوّل خالع. وقام آخر فقال: إن أطعتم الحجاج جعل هذه البلاد بلادكم ما بقيتم، وجمَّركم تجمير فرعون الجنودَ...

ولن تعاينوا الأحبّة، فيما أرى، أو يموتَ أكْثَرُكم، بايعوا أميركم وانصرفوا إلى الحجاج فانفوه عن بلادكم! ووثب الناس إلى ابن الأشعث وبايعوه جميعاً على خلع الحجاج وجهاده، حتى يخرج من العراق. وكان أشدُّهم حماسة يَمَنَ الكوفة الذين كان منهم ابن الأشعث[1]. على أن إخوة ابن الأشعث لم يكونوا في جانبه (أنساب الأشراف ص ٣٢٦ فما بعدها).

ولما أظهر عبدُ الرحمن خَلْعَ الحجاج وَادَع الزنبيل وكتب بينه وبينه كتاباً؛ وعاهده ألا يرزأ منه شيئاً، فإن ظفر بالحجاج لم يسأل الزنبيل خراجاً أبداً ما بقى، وإن انتصر عليه الحجاج لجأ ومن معه إلى الزنبيل، فمنعهم. وعيّن عبدُ الرحمن خلفاء لنفسه في بُسْت وزَرَنْج، حاضرتي سجستان، ثم تحرك بالجيش في سنة ٨١هـ، وانضم إليه في طريقه جندٌ من الكوفة والبصرة، كانوا في حاميات الأمصار، حتى إذا صار ابن الأشعث بجيشه إلى فارس، قال الناس بعضهم لبعض: إنا إذا خلعنا الحجاج عامل عبد الملك، فقد خلعنا عبد الملك؛ واجتمعوا إلى ابن الأشعث، فكان أول من خلع عبد الملك، وخلعه الناس، وبايعوا ابن الأشعث على كتاب الله وسنة نبيه وخَلْع أئمة الضلال. ولم يكن ابن الأشعث بحاجة إلى أن يدفعهم لذلك، بل هم الذين دفعوه؛ ولم يستطع أن يتحلَّل من سلطان أولئك الجن الذين قد ناداهم. وأقبل الجيش، كما يقول المهلّب في كتاب يُرْوى أنه كتبه إلى الحجاج يشير عليه بما يفعل، «مثل السيل المنحطّ من علٍ، ليس يردّه شيءٌ حتى ينتهي إلى قراره».

---

(١) يصرح الفرزدق بأن ربيعة ومضر لم يختلفا، ولكنه يجعل الوزر الأكبر على يمن الكوفة، على السبئية الذين رفعوا المختار اليهودي من قبل (ص ٢١١ بيت رقم ١٠ من الديوان) والآن يرفعون ابن الأشعث النسّاج (الديوان ص ٢٠٨ س ٩ و٢٠٩ س ١٦ و٢١١ س ١١). ويلقب أهل اليمن بالنساجين (الحوّاكين) على سبيل التشنيع، كما يلقب أزد عمان بالصيادين والسفانين.

أما المهلّب في خراسان فإنه لم ينضم لابن الأشعث[١]، ويروى أنه كتب إلى الحجاج يبلغه تحرُّكَ جيش ابن الأشعث إليه كالسيل المنحدر، وأن لأهل العراق شِرّةً في أول مخرجهم، وبهم صبابة إلى أبنائهم ونسائهم، ونصحه أن يخلّى لهم الطريق حتى يسقطوا إلى أهليهم وينتسموا أولادهم، فترق قلوبهم ويخلدوا إلى المقام في منازلهم ويتفرقوا عن ابن الأشعث، وتحدث لهم آراءٌ غير آرائهم[٢]. ولكن الحجاج لم يستمع إلى نصيحة المهلب، وكانت جند الشام وفرسانها تسقط إليه في كلّ يوم. ثم تقدم بجيشه، ومعه الإمدادات التي بعثها عبد الملك من الشام، وسار لقتال الثوار. ووقع أوّلُ صدام على ميدان القتال القديم عند نهر دجيل، في تُسْتَر ورستقأباد. فعبر ابن الأشعث النهر، وانتصر في مساء العاشر من ذى الحجة سنة ٨١هـ، الموافق ٢٥ يناير ٧٠١ م. وفر المهزومون إلى البصرة واتبعهم المنتصرون ودخلوا المدينة. أما الحجاج فإنه أمر الجند بالرحيل عن البصرة ومضى لا يلوى على شيء حتى نزل الزاوية، إحدى ضواحي البصرة وخندق بها، وانضم إليه هناك بعض الثقفيين والقرشيين من أهل البصرة. وقد صمم الحجاج على أن يَهلِك ولا يتراجع. ولبث جنوده من أهل الشام وعلى رأسهم سفيان بن أبرد[٣] الكلبي شهراً كاملا يقاومون هجمات أهل العراق الذين كانوا قد عسكروا في الخُرَيْبَة (أنساب الأشراف ص ٣٥٥)، وقد هزموهم آخر الأمر هزيمة حاسمة

---

(١) [كتب ابن الأشعث إلى المهلب يدعوه إلى الثورة معه، فقال المهلب: ما كنت لأغدر بعد سبعين سنة، ثم قال: ما أعجب هذا! يدعوني إلى الغدر من بعضُ ولدى أكبر منه، وقال لرسول ابن الأشعث: قل له: اتق الله في دماء المسلمين. ويقال إنه كتب إليه يلومه على الثورة وترك قتال المشركين والإقبال على قتال المسلمين، وينهاه عن نكث البيعة وتفريق كلمة الجماعة. المترجم نقلا عن أنساب الأشراف ص ٣٢٩، ٣٣٤، ٣٣٥].

(٢) هكذا عند الطبري (جـ ٢ ص ١٠٥٩)، أما بحسب أنساب الأشراف (ص ٣٤٣) فإن النصيحة لم تقدم للحجاج إلا في مناسبة بعد ذلك، قدمها له زاد انفروخ كاتبه الفارسي أو قدمها عبّاد بن حصين [بلى ـ يذكر صاحب الأنساب ص ٣٣٦ ـ ٣٣٨ نصيحة المهلب الحجاج].

(٣) هو قاهر شبيب ـ قارن الأنساب (ص ٣٣٨، ٣٤٢).

في المحرم سنة ٨٢هـ (أوائل مارس ٧٠١ م). وانسحب ابن الأشعث على أثر ذلك مع شطر من جنده من أهل الكوفة[١]، وساروا إلى الكوفة التي كانت المركز الحقيقي للثورة وفيها التقت جيوش الحاميات العراقية آتية من جميع نواحي الأمصار. واستخلف ابن الأشعث عبد الرحمن بن العباس الهاشمي القرشي في البصرة، فواصل القتال، لكن ذلك لم يدم إلا أياماً، لأن سواد أهل البصرة قبلوا الأمان الذي نادى به الحجاج بعد انصراف ابن الأشعث إلى الكوفة وأفسحوا له الطريق حتى دخل المدينة (أنساب الأشراف ص ٣٤٩ س ٥). وفي أول صفر ٨٢هـ (منتصف مارس سنة ٧٠١ م) استطاع الحجاج أن يبدأ في التقدم نحو الكوفة. ولما انصرف ابن الأشعث إلى الكوفة واصل عبد الرحمن بن العباس الحرب مع الحجاج وقاتل بمن معه خمسة أيام أشد قتال رآه الناس، ثم لحق هو وأصحابه بابن الأشعث في الكوفة دون أن يلقوا السلاح.

وكان مطر بن ناجية التميمي عاملاً للحجاج على المدائن وناحيتها، فأتى الكوفة، فلما علم بهزيمة الحجاج وثب بالكوفة واستطاع أن يخرج جند الشام منها، واستولى على القصر. فلما صحت عنده هزيمةُ ابن الأشعث أراد أن يبايع لنفسه خلفاً لابن الأشعث، فلم يبايعْه سوى نفر قليل من قومه، فعدل إلى أخذ البيعة لعبد لرحمن بن العباس، وتمَّت على يد عبد الرحمن بن أبى ليلى. وأقبل ابن الأشعث والخلاف على هذه لبيعة قائمٌ، فسبقت إليه همدان بالناس، وكانوا أخواله، واستطاع أن يقبض على ابن ناجية وأن يحبسه، ثم بايعه ابن ناجية على كره منه بطبيعة الحال. وكان ثوب ابن ناجية بالكوفة أحد الأسباب التي من أجلها وجد ابن الأشعث نفسه مضطراً إلى أن يسرع بالرحيل عن البصرة والعودة إلى الكوفة (أنساب الأشراف ص ٣٤٨، ٣٥٤). ولكن ابن الأشعث

---

(١) في كتاب الأنساب (ص ٣٤٩ س ١) أنهم كانوا ألف رجل فقط، وعلى هذا فلا بد أن تكون غالبية الكوفيين في جيشه قد انسحبوا إلى مدينتهم من قبل، وكل القرائن ترجح ذلك.

استطاع أن ينتهي من القضاء على مُنافسه قبل أن يأتي إليه الحجاج. وأخذ الحجاج طريقه عبر الصحراء إلى الشاطئ الأيمن من نهر الفرات، وعسكر في دير قُرّة، عند الكوفة، حيث كان الطريق مفتوحاً أمام مواصلاته مع الشام. أما فيما يتعلق بالإمدادات فلم يكن أمامه بطبيعة الحال سوى طريق الفلاليج وعين التمر. وخرج أهل العراق الثائرون إلى خارج المدينة، على العادة العربية، واحتلوها معسكراً حصيناً عند دير الجماجم[١]، أمام جنود الشام، وذلك في أوائل ربيع الأول سنة ٨٢هـ (منتصف إبريل سنة ٧٠١ م). ويروى أنهم كانوا مائة ألف ومعهم مثلهم من مواليهم، وخندق كلٌّ جيش في عسكره؛ والناس يخرجون كل يوم فيقتتلون، وظلّوا كذلك شهوراً كثيرة دون الوصول إلى نتيجة حاسمة. ثم اشتدّ القتال، وقلق عبد الملك، فأشار عليه رؤوس قريش وأهل الشام بأن ينزع الحجاج عن أهل العراق، إن كان ذلك يرضيهم. فأرسل عبد الملك أخاه محمد بن مروان وابنه عبد الله بن عبد الملك على رأس جيشين[٢] من أهل الشام، وأمرهما أن يعرضا على أهل العراق نَزْعَ الحجاج، وأن تجرى عليهم أعطياتُهم كما تجرى على أهل الشام، وأن ينزل ابن الأشعث أي بلد من العراق شاء يكون عليه والياً ما دام حياً؛ فإن قبلوا ذلك عزل الحجاج عنهم، وإن أبوا فللحجاج القيادة العليا في محاربة الثوار. ولم يكن أمرٌ أشدّ غيظاً للحجاج ولا أوجعَ لقلبه من هذا الذي عُرِض على أهل العراق. فكتب لعبد الملك يُنَبّهه إلى غدر أهل العراق وسابق أعمالهم مع عثمان، ولكن عبد الملك أصرّ على عرض الصلح على أهل العراق. وقد أراد ابن الأشعث أن ينصحهم ويقنعهم بالقبول، لكنهم

---

(١) هل هو دير الجلجلة؟؟

(٢) وبذلك عرّى عبد الملك الحدود أمام الروم فاغتنم هؤلاء الفرصة (راجع مجلة Göttinger Nachrichten، عام ١٩٠١ ص ٤٣٣.

ثاروا وخلعوا عبد الملك من جديد، وكانوا يأملون أن ينهزم أهل الشام وشيكاً بعد ما لحقهم من ضيق وضنك ومجاعة.

ولكنهم أخطأوا التقدير. ذلك أن أهل الشام ثبتوا ثبات المستميتين؛ أما أهل العراق فقد تركوا القتال بعد أن كان قد استمر مائة يوم، وفي جمادى الآخرة سنة ٨٢هـ (آخر يوليه سنة ٧٠١ م) أخلوا الميدان دون سبب كاف، ولم يثبتوا على حماستهم ثبات أهل الشام على نظامهم. وفي آخر يوم من أيام القتال قاتل أهل العراق أحسنَ قتال، إذ خرج سفيان بن الأبرد الكلبى، وكان عليه هنا أيضاً أن يقوم بالعمل الحاسم مرة أخرى، من قِبَل ميمنة جيش الحجاج حتى دنا من الأبرد بن قرّة التميمى، وهو على ميسرة جيش ابن الأشعث، فما قاتله كبير قتال حتى انهزم، وكان شجاعاً ولم يكن الفرار له بعادة، فظن الناس أنه قد كان أُعطِى له الأمان وقد صولح على أن ينهزم بالناس. وأثار ذلك ريبة الخيانة وأحدث ذعراً شاملا بين الجند، فتقوّضت الصفوف من نحوه، وركب الناس وجوههم وأخذوا في كل وجه هاربين. ولم يستطع ابن الأشعث أن يوقف فرارهم، وفرّ هو أيضاً. وزاد الحجاج في فرارهم وتبديدهم بأن لجأ إلى الوسيلة التي لجأ إليها ونجح بها في البصرة، وذلك أنه أمر منادياً بأن ينادى معلناً الأمن لكل من يعود إلى داره أو معسكره، وأنه منع جند الشام من مطاردتهم. وهكذا وصل إلى الغاية دون إراقة كثير من الدماء، واستطاع أن يدخل الكوفة منتصراً، وهناك تلقى بيعة من ألقى السلاح واضطرهم في ذلك إلى أن يشهدوا على أنفسهم أنهم بثورتهم قد كفروا، ولم يأنف من إنقاذ حياته بمثل هذا الإذلال إلا قليلٌ منهم[(١)].

---

(١) [جاء في الطبري (جـ ٢ ص ١٠٩٧ — ١٠٩٨) أن رجلا من خثعم، كان معتزلاً للفتنة، جاء إلى الحجاج ليبايع مع الناس؛ فطلب منه الحجاج أن يشهد على نفسه بالكفر؛ فقال: بئس الرجل أنا، إن كنت عبدت الله ثمانين سنة ثم أشهد على نفسى بالكفر. قال له الحجاج: إذن أقتلك، فقال: وإن قتلتني، فوالله إني ما بقى من عمري إلا ظمء حمار، وإني لأنتظر الموت صباح مساء؛ فأمر الحجاج بضرب عنقه، فرثى له الناس جميعاً من عراق وشامى. =

ولكن الكثير من أهل العراق الذين تشتتوا في الكوفة تجمعوا في مواضع أخرى. رجع ابن الأشعث أول الأمر إلى البصرة، وكان عبد الله بن عبد الرحمن بن عبد شمس القرشي قد استردها له، ولكنه لم يلبث هناك طويلاً، بل رجع على مسكن على نهر الدجيل[١]، وهناك انحاز إليه جنود كثيرون وفلول جاءت من كل ناحية، فقاوم الحجاج لمَّا لحقه، وكان ذلك في شعبان سنة ٨٢هـ (سبتمبر ــ اكتوبر سنة ٧٠١ م) وكان القتال مستميتاً ودام مدة طويلة وانحسم آخر الأمر، كما يقول الطبري (جـ ٢ ص ١١٢٣ فما بعدها) بأن قامت فرقة شامية يقودها شيخ خبير بالبلاد وطرقها، فاخترقت المستنقعات، وحصرت أهل العراق بين نهرى دجيل ودجلة، وهاجمتهم ليلاً، ففروا يريدون عبور الماء، وكان من غرق منهم أكثر ممن قُتل بحدّ السيف.

وهناك واصل ابن الأشعث تقهقره نحو المشرق، واتبعه أهل الشام بقيادة عمارة بن تميم اللخمى، وأدركوه واضطروه للقتال مرتين عند السوس وسابور، ولكنه أفلح في صدهم، وسار من طريق كرمان حيث أقام زماناً طويلاً، حتى وصل إلى سجستان (آخر سنة ٨٢ أو أول ٨٣هـ)، فأغلق عاملُه وواليه على زرنج الأبواب دونه، بل وثب هذا الوالي عليه فأوثقه وأراد أن يسلمه للحجاج ليأمن بذلك عنده ويتخذ به عند الحجاج مكاناً. وعند ذلك جاء الزنبيل، فخلّصه من الأسر وتعهّد له بأن يمنحه حق الالتجاء عنده إذا احتاج إلى ذلك، وأخذه

= وقد امتنع شيخ آخر من أن يشهد على نفسه بالكفر أشد امتناع وأشجعه. وجاء رجل بعده، فقال الحجاج: إنى أرى رجلا ما أظنه يشهد على نفسه بالكفر، فقال الرجل، يريد النجاة من القتل، للحجاج: أخادعى أنت عن نفسى؟ أنا أكفر أهل الأرض وأكفر من فرعون ذى الأوتاد، فضحك الحجاج وخلى سبيله ــ المترجم].

(١) ليست مسكن المنعزلة الواقعة بين الموصل وتكريت، كما يظن ڤايل وموللر، بل هي مسكن أخرى في ايزقباد (الطبري جـ ٢ ص ١٠٩٩ و١٠٢٣ وياقوت جـ ٤ ص ٥٢٩ و٥٣١).

معه إلى كابل هو ومن كان معه من الفلول الكثيرة وأكرمه وعظّمه تعظيماً كبيراً. ولكن كثيراً من فلول جيش العراق لحقت فيما بين ذلك بزعيمها الهارب، وتجمعت تحت قيادة عبيد الله بن عبد الرحمن بن عبد شمس الذي تقدم ذكره وعبد الرحمن بن عباس الهاشمي الذي كان في سجستان، وطلبوا من ابن الأشعث أن يرجع إليهم، فرجع أيضاً واستولى على مدينة زرنج، وهناك عاقب عاملَه الخائن. وأخيراً لمَّا أقبلت جنودُ الشام تحت قيادة عمارة بن تميم، عبرت جنود ابن الأشعث حدود خراسان على غير رضاه، وكانوا يأملون أن يكونوا هناك بنجوة من القتال. ثم انشق عليه فريق من جيشه وسلك طريقاً آخر غير طريقه، فاتخذ ابن الأشعث من ذلك سبباً للرجوع إلى الزنبيل وتركهم لمصيرهم. فأمّروا على أنفسهم ابن العباس الهاشمى واستولوا على مدينة هراة وقتلوا هناك عاملها من قِبَل يزيد بن المهلب الذي كان قد حل محل أبيه آخر سنة ٨٢هـ. فاضطر يزيد على كره شديد منه أن يخرج لقتالهم، فشتتهم بعد قتال قصير. وفي أثناء هذا القتال وقع في يده كثير من الرجال ذوى المكانة، فأطلق من كان بينهم من اليمنيين، شركاته في النسب، وأرسل الباقين إلى الحجاج. وكان الحجاج يقيم في مدينة واسط، وهي إذ ذاك في مرحلة التشييد (سنة ٨٣هـ)، فحاكمهم الحجاج محاكمة أراق فيها دماءَهم ــ وهذا هو ما يحكيه أبو مخنف (الطبري جـ ٢ ص ١١٠١ ــ ١١٠٦). أما رواية المدائنى فهي تختلف عن رواية أبي مخنف بعض الاختلاف (الطبري جـ ٢ ص ١١٠٦ ــ ١١١٠). ولكن عمارة بن تميم، قائد جند الشام، استطاع أن يستولى على سجستان بعد أن كان قد حاصر طائفة من جيش ابن الأشعث انشقت عليه تريد مواصلة القتال، وذلك بعد أن آمنهم عمارة فخرجوا إليه؛ ولكن ابن الأشعث نفسه كان ما يزال مصدر خطر على الدولة. وقد حاول الحجاج أن يغرى الزنبيل بالترهيب حيناً والترغيب حيناً آخر، لكي يسلم له ابن الأشعث بعد أن لجأ إليه، واستطاع أخيراً أن يحصل من الزنبيل على

ما أراد وذلك بأن عرض عليه أن يعفيه من الخراج سبع سنين أو عشراً، ولكنه لم يحصل على عدوه حيّاً، بل حصل على رأسه مقطوعاً. ويروى أن ابن الأشعث كان قد مات مريضاً بالسل، أو أنه انتحر قبل ذلك وأن الزنبيل إنما احتز رأسه بعد أن كان قد مات وأريد دَفْنُه. وكان ذلك في سنة ٨٤ أو ٨٥هـ (الطبري جـ ٢ ص ١١٣٨ فما بعدها).

وتحديد تواريخ هذه الحوادث ليس يقيناً إلى درجة الكمال. ولا شك أنه قد بقيت بعض الأيام والشهور عالقةً بذاكرة الرواة، مثل يوم عرفة بالنسبة لموقعة تُسْتَر، وهو في آخر السنة التي بدأت فيها الثورة، ومثل شهر المحرم بالنسبة للمعارك التي كانت عند البصرة في السنة التالية، ومثل شهر ربيع وجمادى بالنسبة لمعارك الكوفة، وشهر شعبان بالنسبة لموقعة مَسْكِن[١]. أما فيما يتعلق بالسنين فالروايات مضطربة؛ وقد اتبعتُ فيما يتصل بتاريخ السنين التاريخ الذي يجعل الثورة قد بدأت سنة ٨١هـ، وتكون بحسبه معارك البصرة والكوفة ومسكن قد وقعت في سنة ٨٢هـ، ومعارك سجستان وخراسان في سنة ٨٣هـ. وبحسب ترتيب آخر للتواريخ تكون السنون متأخرة سنةً، بحيث تكون سنة ٨٢ و٨٣ و٨٤ على الولاء[٢]، ثم يأتي موت ابن الأشعث في سنة ٨٤ أو ٨٥هـ، على أثر فتح جند الشام لسجستان مباشرة. ولكن مزية الترتيب الجديد ظاهرية فحسب، لأنه من الممكن أن تكون قد مضت فترة طويلة بين فتح سجستان وبين موت ابن الأشعث. ومما له وزنه، خلافاً لذلك، أن الروايات متفقةٌ على أن ابن

---

(١) ولا ينهض دليلاً قوياً على خلاف ذلك ما يقوله الواقدي من أن موقعة دير الجماجم كانت في شعبان سنة ٨٢هـ وأن الثورة قد بدأت في السنة نفسها (الطبري جـ ٢ ص ١٠٧٠، ١٠٥٢). أما إن موقعة تستر كانت يوم عرفة فهو ثابت.

(٢) ويظهر أن أبا مخنف يخلط بين التواريخ المختلفة، إذ يجعل أول الثورة معركة تستر في سنة ٨١هـ، على حين يجعل معركة الزاوية (في البصرة) كما عند الطبري (جـ ٢ ص ١٠١١) في سنة ٨٣هـ، لا قبل ذلك، وهذا أيضاً هو تاريخ معارك الكوفة.

الأشعث جاء إلى سجستان في سنة ٨٠هـ، وشرع في محاربة الزنبيل على الفور، وأن الحجاج قد أغضبه في هذه الحملة نفسها، مما دعاه إلى الثورة. وعلى هذا فليس من الممكن أن تكون الثورة لم تبدأ إلا بعد سنة ٨٠هـ بعامين. ومما يدخل في الاعتبار أيضاً أنه لما جيء بأسرى هراة الذين بعث بهم يزيد بن المهلب إلى واسط، لم تكن واسط قد بُنِيَتْ، وهذا ما يوجد صراحة في الروايات (الطبري ج ٢ ص ١١١٩ فما بعدها) ولكن الحجاج انتقل إليها في سنة ٨٣هـ، وهو أقام بها في سنة ٨٤هـ على كل حال. وعلى هذا فمن الممكن أن تكون معارك سجستان وخراسان قد وقعت سنة ٨٣هـ، لا في سنة ٨٤هـ. ولا يستطيع الإنسان للأسف أن يصل من كثرة ذكر أسماء الأيام التي وقعت فيها الحوادث إلى رأى حاسم، لأن الأيام المذكورة لا تتفق مع مكانها في الشهور، لا فيما يتعلق بسنة ٨١هـ ولا بسنة ٨٢ و٨٣هـ[١].

وقد ألقى الفريد فون كريمر (Alfred von Kremer) على ثورة ابن الأشعث نوراً جديداً، أعشى به بصر آخرين مثل ا. مولّر، وج. فان فلوتن (صاحب كتاب بحوث في السيادة العربية[٢])، ذلك أنه يجعل ثورة ابن

---

(١) وبحسب كتاب أنساب الأشراف (ص ٣٤٠ س ١٠) كانت موقعة تستر يوم الجمعة ١٠ ذى الحجة سنة ٨١هـ، وكان نزول الحجاج معسكر الزاوية في يوم الخميس ٢٣ ذى الحجة سنة ٨١هـ (ص ٣٤٢ س ١٠). وأسماء الأيام المذكورة لا تتفق مع أيام الشهر لا في سنة ٨١ ولا في سنة ٨٢، بل في سنة ٨٠هـ، وهذه السنة ليست مذكورة في أي من الروايات. ولا يستطيع الإنسان أن يتمسك بها، ويقول أبو مخنف (الطبري ج ٢ ص ١٠٩٤) إلى قتال المائة يوم بدأ يوم الخميس ٢ ربيع الأول سنة ٨٣هـ وانتهى يوم الأربعاء ١٤ جمادى الثانية سنة ٨٣هـ. وهنا أيضاً لا تتفق أسماء الأيام مع مكانها من أيام الشهر لا في سنة ٨٣ ولا في ٨٢، وربما كانت أقرب إلى الاتفاق مع أيام سنة ٨١، حيث لا يزيد الفرق على يوم واحد. ويظهر أن مثل هذا الفرق شيء ممكن وأنه ينشأ من الاضطراب في ذكر أول الشهر أو أول اليوم (في المساء أو في الصباح). وعلى هذا فالظاهر أن الأصح هو سنة ٨٠ و٨١ لا ٨٢ و٨٣هـ، ولا سنة ٨١ و٨٢هـ. وتيوفانيس (في حوادث سنة ٦١٩٢) لا يقول ما ينافى ذلك.

(٢) *Recherches sur la domination Arabe*، امستردام، ١٨٩٤.

الأشعث راجعة إلى طموح من جانب المولى، أعنى الرعايا الذين دخلوا الإسلام في الكوفة والبصرة، للحصول على المساواة بطبقة الأشراف الحاكمين، أعنى العرب، وللتخلص من دفع الجزية، وإلى طموحهم إلى أن تُقَيَّد أسماؤهم في ديوان أصحاب الأعطيات ــ وكانت هذه الأعطيات رمزاً يدل على شرف العرب. وأراد الحجاج أن يتلافى التناقص في دخل الدولة، وهو تناقص لا بد أن ينشأ من توسيع نطاق الإعفاء من الضرائب وفرض الأعطيات للمسلمين من غير العرب ــ أو هو أراد أن يتلافى هذا النقص الذي كان قد حصل بالفعل ــ فأمر بفرض الجزية من جديد على الموالى الكثيرين الذين دخلوا في الإسلام، والذين ما كان يجوز بحسب الشرع أن يدفعوا جزية، وبذلك أضرموا نار الثورة ــ يقول فون كريمر[١]: «أمر الحجاج بأن يدفع من دخل في الإسلام، أعنى كل الطبقة الكبيرة من المسلمين الجدد، ضريبة الرأس، كما كانوا يدفعونها قبل إسلامهم؛ وهذا إجراء كان من أثره ثورة مريعة قام بها المسلمون الجدد ومواليهم[٢]. وقد اشترك فيها بنوع خاص كثيرٌ من الناس من أهل البصرة ومن المقاتلة القدماء والموالى والقُرّاء، وفي رواية أنه كان من هؤلاء الثوار مائة ألف رجل مقيدين في ديوان الأعطيات، أو إذا أردنا أن نعبِّر تعبيراً حديثاً، هم كانوا من فرق المقاتلة في الأمصار، وقد انضم إليهم مثلهم. وقد قهر الحجاج هؤلاء الثوار وأعادهم إلى رشدهم[٣]، وصمم على أن يشتت كل طائفة الموالى تشتيتاً لا يجتمع بعده شمل، حتى لا يستطيعوا أن يتجمعوا من جديد لتكوين معارضة موحّدة، فأمر باستدعائهم أمامه وقال لهم: إنكم عُجْمٌ وعلوجٌ أشقياء، والأجدر بكم أن تبقوا في قراكم؛ وبعد ذلك أمر بأن يُفَرّقوا في القرى، وشتت جميعهم تشتيتاً تاما. ولكي

---

(١) في كتابه *Culturgeschichte des Orients* (١٨٧٥) جـ ١ ص ١٧٢ وكتابه *Culturgeschichtlichen Streifzüge* (١٨٧٣) ص ٢٤.

(٢) لا أعرف ما يقصده فون كريمر من عبارة: ومواليهم (Clienten) التي يضيفها لكلامه.

(٣) وفون كريمر في كلامه أكثر تعسفاً من الحجاج في أفعاله.

لا يستطيع أحد أن يرحل عن القرية التي أمره بالمقام فيها، فإنه أمر بأن يُطبَع على يد كل واحد اسم القرية التي يجب عليه ألاّ يبْرَحها»، ويعتمد فون كريمر على رواية للجاحظ في كتابه «الموالى العرب» مذكورة في كتاب العقد الفريد، لابن عبد ربّه (ط. بولاق ج ٢ ص ٩٣[١]).

ولا شك في أن ثورة المختار لم تقض قضاءاً تاماً على طموح هؤلاء المسلمين الجدد إلى الارتفاع، وأن الحجاج كان يعالج الصعوبات التي نشأت من دخول الموالى في الإسلام طلباً للمساواة السياسية وفراراً من الجزية. ولا شك أيضاً في أن ثورة ابن الأشعث كان مهدها الحقيقي في الكوفة، شأنها شأن ثورة المختار[٢]. لكن القول بأن ثورة ابن الأشعث كانت في روحها مجرد استمرار لثورة المختار لا يجد سنداً يؤيده في المصادر الأولى التي اعتمد عليها الطبري، ولا في كتاب أنساب الأشراف؛ ولم يكن الموالى هم الذين طبعوا ثورة ابن الأشعث بطابعها الخاص. صحيح أن كثيرين منهم اشتركوا فيها، ويذكر

---

(١) «وذكر عمرو بن بحر الجاحظ في كتـــاب الموالى والعرب أن الحجاج لما خرج عليه ابن الأشعث وعبد الله بن الجارود ولقى ما لقى من أهل العراق، وكان أكثر من قاتله وخلعه وخرج عليه الفقهاء والمقاتلة والموالى من أهل البصرة، فلما علم أنهم الجمهور الأكبر والسواد الأعظم أحب أن يسقط ديوانهم ويفرق جماعتهم حتى لا يتألفوا ويتعاقدوا. فأقبل على الموالى وقال: أنتم علوج وعجم، وقراكم أولى بكم، فقرقهم وفض جمعهم كيف أحب وصيرهم كيف شاء ونقش على يد كل رجل منهم اسم البلدة التي وجهه إليها». وعلى هذا فقد كان ما اتخذه الحجاج من إلزام الموالى البقاء في قراهم أحد الإجراءات التي اتخذها لكسر القوة التي أصبحت بعد التجارب السابقة، خطراً عليه في مدينة البصرة، بعد أن اتسعت اتساعاً عظيماً. وكان من هذه التجارب ثورة ابن الأشعث، وكانت قبلها بسنين ثورة ابن الجارود (كتاب الأنساب ص ٢٨٠ فما بعدها وابن الأثير ج ٤ ص ٣٠٩ فما بعدها)؛ ولا نجد أكثر من ذلك. أما (الطبري ج ٢ ص ١١٢٢ وص ١٤٣٥) فيروى أن الموالى الذين كان الحجاج قد أخرجهم، انضموا هم والقراء الذين كانوا يعطفون عليهم إلى ابن الأشعث، ولكن لا ذكر عند الطبري للقول بأن الثورة جاءت من الموالى.

(٢) ولذلك استطاع الفرزدق أن يقول، على سبيل الذم: إنه كما أن الكوفيين كانوا من قبل سبئية يعني أتباعا للمختار، فهم اليوم أتباع للثائر الجديد ابن الأشعث. راجع الديوان ص ٢١١ ب ٣، ١٠، ١١.

أبو مخنف (الطبري ج ٢ ص ١٠٧٢) أنه كان في معسكر دير الجماجم مائة ألف من أصحاب الأعطيات من المقاتلة العرب، وكان معهم مثلهم من مواليهم. ولكن هؤلاء الموالى كانوا مجرد مرافقين للسادة العرب، وكانت العادة أن يأخذ هؤلاء مواليهم معهم، إن كان لهم موالٍ، إلى ميدان القتال ويجعلوهم يقاتلون معهم راجلين؛ أما هم فكانوا يقاتلون على ظهور الخيل: ومثل هذه العلاقة كانت بين الفرسان وخُدَّامهم في العصور الوسطى. على أنه إذا كان الموالى قد اشتركوا في الثورة فإن ذلك لا يجعلها ثورة الموالى. ومن الجائز أيضاً أنه قد كانت للموالى مصلحة خاصة في معاداة حكومة الشام التي كانت عماد العروبة، ولكنهم لم يكونوا أكثر من مؤيِّدين، ولم تأت الثورة منهم، بل من جانب جيش «الطواويس»، وهو الجيش الذي كان يؤلفه أهل العراق والذي انضمت إليه مسالح سائر الولايات والثغور: وقد قام هذا الجيش بالثورة لما صار في سجستان[١]،

(١) [الحق أن ثور ابن الأشعث وليدة لعوامل كان لها تأثير في الأحداث التاريخية الكبرى عند العرب، وهي قد تولدت عن طبيعة الرجال الذين قاموا بها. فكان هناك من جهة عبد الرحمن بن الأشعث الذي يرجع نسبه إلى ملوك كندة. وكأنه كان يشعر أن دم المجد القديم يجرى في عروقه، فيروى أنه كان أشد العرب أبهة وكبراً وأنه كان معجباً ذا نخوة وطموح شديد، وأنه كان يقول: ما رأيت أميراً فوقي إلا ظننت أنى أحق بإمرته منه. ونظراً لهذه الروح المعروفة عنه، فإنه لما أراد الحجاج أن يوليه قيادة جيش الطواويس جاء إليه إسماعيل بن الأشعث، عم عبد الرحمن، يشير عليه بألا يوجهه في الجيش خوفاً من تمرده، وقال عم عبد الرحمن عنه: إنه ما جاز جسر الفرات قط فرأى لوال من الولاة عليه طاعة وسلطاناً. وكان هناك من جهة أخرى الحجاج بن يوسف، من ثقيف الطائف، رجلا ليس من علية أشراف العرب، لكنه كان والياً من ولاة الدولة، يعمل لمجدها ويخضع لرئيسها ويصدر فيما يقول أو يفعل عن «وجهة نظر الدولة»، يفهم حاجات الدولة من ثبات السلطان وإقرار النظام وحماية الحدود وتوسيعها وزيادة قوة الدولة في الداخل ونحو الخارج، وكان هناك من جهة ثالثة أهل العراق، قوم أصحاب ثراء وتحضر وحياة رغدة هانئة، يدلون بغنى بلادهم وخصبها، ويضمرون في أنفسهم شيئاً من الاحتقار لأهل الشام الفقراء ذوى العيش الضنك وشيئاً كثيراً من الغيرة منهم والمقت لسيادتهم والاستهانة بقدرهم، ويطمحون للرئاسة =

ثم فتحت له الكوفةُ والبصرةُ الأبوابَ. وقد اشترك في ثورة ابن الأشعث أكابر العرب وأكثرهم نباهة، فكان منهم رؤساء قبائل، مثل ابن الأشعث

= أو الاستقلال ويتعلقون بكل ثائر على سلطان أهل الشام أياً كان، سواء كان من أهل البيت أو من غيرهم.

وكان الحجاج بحكم شخصيته ومنصبه يبغض عبد الرحمن بن الأشعث ويقول: «ما بالعراق رجل أبغض إلى منه، وما رأيته ماشياً أو راكباً إلا أحببت قتله. وكانت في عبد الرحمن خيلاء، فكان الحجاج يغتاظ منه ويقول له: «إنك لمنظرانى»، يعنى أنه مختال فخور، فيغيظه عبد الرحمن قائلاً: «ومخبرانى»، يعنى أن خيلاءه بقدر ماله في الحقيقة من مواهب. وبلغ ابن الأشعث ما يكنه له الحجاج من البغض والحقد والرغبة في القضاء عليه، فأقسم ليحاولن إزالة سلطان الحجاج، إن طال بهما العمر. هذا هو الموقف، فماذا يمكن أن يخرج منه عند وجود أزمة بين سيد عربي وبين أمير للدولة على ولاية من الولايات، أو بين أمير وبين الدولة التي يمثلها! ثم جاءت الحرب مع الزنبيل، فأعد الحجاج جيشاً من صفوة أهل العراق وأمر عليه ابن الأشعث، رغم نصيحة الناصحين له بألا يفعل، وقال لناصحه: «إنه لي أهيب وفي أرغب من أن يخالف أمرى أو يخرج عن طاعتي». وظن الحجاج، وهو رجل الدولة، أن القائد العربي مطيع له، وإن اشتد معه، خاضع لأمره وإن أهانه وصغر من أمره، ونسى رجل الدولة، ما في الطبيعة العربية من إباء وأنفة من احتمال الضيم، فكان ما كان من ثورة ابن الأشعث التي ترجع إلى الإباء العربي وإلى بغض أهل العراق للحجاج ولأهل الشام معه، وإلى ضجر أهل العراق من التضحية بأنفسهم وعيشهم الرغد والموت في بلاد العدو القاصية من أجل مجد الحجاج وخليفته بالشام. وإذا عرفنا أن الحجاج كان من قبل قد بعث عبيد الله بن أبي بكرة الثقفي، فأهلكه في محاربة الزنبيل، ولحقه من ذلك غم شديد، فإن للمؤرخ أن يتعمق في معرفة الباعث الذي حمل الحجاج على توجيه ابن الأشعث وعلى استحثاثه على التوغل في أرض العدو الكثيرة الشعاب والعقاب استحثاثاً شديداً ومهيناً، مع علمه بالمصير المحزن الذي لقيه جيش ابن أبي بكرة في تلك البلاد من قبل، ثم على إلحاحه علي ابن الأشعث لكي يتقدم مخالفاً ما تقضى به الخطة العسكرية الحكيمة. فلا بد أن يكون البغض الذي كان يملأ نفس الحجاج وابن الأشعث كل على صاحبه ويملأ نفوس أهل العراق على الحجاج وعلى السادة من عرب الشام قد لعب أكبر دور في نفس الحجاج، حتى خالف نصيحة إسماعيل ابن الأشعث ونصيحة المهلب، وفي نفوس المتمردين على أوامر الحجاج أولاً ثم في الخروج على سيادة الدولة نفسها بعد ذلك، اتهاماً لها بالعلم ولأصحاب الأمر فيها بالضلال. ولعبت العصبية القبلية في ذلك دورها، فتغنى الشعراء بمجد ابن الأشعث وبقرب زوال مجد بني أمية. وقد حاول المهلب أن يثنى ابن الأشعث عن تمرُّده منبهاً إياه إلى أنه بثورته ينكث عهد البيعة ويفرق كلمة الأمة ويستعمل قوته هو ومن معه في قتال المسلمين ودولتهم بدلا من استعمالها في قتال المشركين ودولتهم. ولكن ذلك لم يجد نفعاً، وغلب الكبرياء على الإيمان والأنفة على واجب الخضوع للدولة. وكثيراً ما حصل مثل هذا في تاريخ العرب ـــ وفيما يتعلق بالنصوص ليراجع القارئ كتاب الطبري (جـ ٢ ص ١٠٤٢ فما بعدها) وكتاب أنساب الأشراف (ص ٣٠٨ فما بعدها) ـــ المترجم].

الكندي، وجرير بن سعيد بن قيس بن همدان (كتاب الأنساب ص ٣٤٠) وعبد المؤمن بن شبث بن ربعي من تميم (الطبري جـ ٢ ص ١٠٥٤) وبسطام بن مصقلة بن هبيرة الشيباني من بكر (الطبري جـ ٢ ص ١٠٨٨ و١٠٩٩)؛ وكان منهم قرشيون مثل محمد بن سعد بن أبي وقاص (الطبري جـ ٢ ص ١٠٩٩) وعبيد الله بن عبد الرحمن بن عبد شمس، وعبد الرحمن بن العباس الهاشمي؛ وكان منهم علماء مثل القاضي الشعبي والمؤرخ محمد بن السائب الكلبي صاحب أبي مخنف (الطبري جـ ٢ ص ١٠٩٦)؛ ولا يُذْكر إلاّ اسمُ مولى واحد، هو اسم فيروز حُصَيْن، وهو رجل صاحب ثراء من سجستان ولعله هو ابن سبُخْت الذي يذكره الفرزدق (الديوان ص ٢٠٦؟) وقد أنِفَت الطبقة الأرستقراطية العربية من قبول المعاملة الجارحة والغطرسة التي أبداها الحجاج ممثل سلطان الدولة الذي لم يكن يعتبر من أشراف العرب. يقول أعشى همدان الشاعر[1] (الأغانى جـ ٥ ص ١٥٣):

يأبى الإلـــهُ وعِــزَّةُ ابـــن محمــد	وجـــــدودُ ملـــك قبـــل آل ثمـــود
أن تأنســـوا بمذمَمين، عـــروقهـــم	في الناس إنْ نُسبوا، عروقُ عبيد[2]
كـــم من أبٍ لـــك كان يعقد تـــاجه	بجبـــين أبلـــج مِقْـــوَل صنـــديـــد
وإذا ســــألتَ المجــد أيـــن محلُّه	فالمجـــــد بيـــن محمـــد وســـعيد
بين الأشـــج وبيـــن قيـــس بـــاذخ	بـــخ بـــخ لوالـــده وللمـــولـــود[3]

---

(١) [خرج أعشى همدان مع بن الأشعث وجعل يقول الشعر في مدح ابن الأشعث وفي تحريض أهل الكوفة على القتال. وكان للأعشى مع ابن الأشعث مواقف محمودة وبلاء حسن، وكان الأعشى من أخوال ابن الأشعث ـ المترجم].

(٢) من الثقفيين، كالحجاج.

(٣) يظهر أن المقصود بالأشج هو الأشعث، قارن (كتاب الأنساب ص ٣٣٥)، وقيس هو أبو سعيد الهمداني المشهور الذي انضم ولد ولده جرير إلى ولد ولد الأشعث [الأشج هو في الحقيقة أحد آباء ابن الأشعث].

وإذا دعـــا لعظيمة حشـــدت لـــه همـــدان تحت لـــوائه المعـــقود
ما إن ترى قيساً يقـــارب قيســـكم في المكرمات ولا ترى كســـعيد

في هذه الأبيات يعبر الأعشى عن روح الطبقات الأرستقراطية. وقد تبعت القبائلُ العربية رؤساءها، وكانت القبائل هي فرق الجيش، وكانوا أشد رغبةً في اتباع رؤسائهم، بعد أن أصبح طول الحرب والإقامة في المسالح القاصية شيئاً بغيضاً إليهم بالجملة، وصار لا ينقطع حنينُهم إلى أوطانهم. وكان يمن الكوفة وخاصةً من كندة وهمدان ومذحج كثيرى العدد بين الجند، وكانوا في الكوفة هم الغالبية، وكانوا يعدُّون ابن الأشعث منهم. ولكن بقية القبائل وقبائل البصرة لم يكن بينهم تنافر. وكان أشد الناس حماسة وأقواهم صوتاً في الاشتراك في الثورة هم القراء، أعنى أهل الدين من العلماء بالقرآن، وكانوا في كل مناسبة كهذه يظهرون في المقدمة باليد واللسان[١]، وذلك أنه لم يكن هناك بدّ، ما دامت الحكومة تيوقراطية، من بيان السند الديني الذي من أجله تُتّهم السلطة الحاكمة بالظلم، وعلى أساسه تَحِلّ الثورةُ عليها. ولكن ثورة ابن الأشعث لم يكن لها بالجملة أسباب دينية، بل هي كانت بالأحرى محاولة جديدة قوية ومستميتة من جانب أهل العراق لطرح نير أهل الشام من على كاهلهم. ولما جاء الحجاج زاد في ضجرهم من هذا النير، وذلك أنه استبقى جند الشام الذين كان قد جاء بهم لمحاربة شبيب في بلاد العراق، ولم يكن ذلك بقصد حماية الدولة من العدوان الخارجي بمقدار ما كان لأجل حماية سلطانها في الداخل؛ فكان هؤلاء الجند يمثلون السيادة الأجنبية مجسَّمة[٣]. وكان على جند العراق أن يقنعوا بأعطيات قليلة ويحتملوا في الوقت نفسه مؤونة جند الشام، وكانوا يُوجَّهون في حملات بعيدة

---

(١) والرواة مولعون بإبراز فضائلهم حتى إن أبا مخنف (الطبري جـ ٢ ص ١٠٨٦ فما بعدها) ليذكر حكاية جبلة بن زحر القارئ كما لو كانت أهم حادث في موقعة دير الجماجم، قارن ما كتبناه عن الخوارج (في ص ٩ وما بعدها).

(٢) وكذلك أحدث دخول جند الشام في إفريقية وإسبانيا أيضاً فيما يعد تذمراً.

ويُرْسلون إلى المسالح القاصية، على حين كان يبقى جند الشام في أهليهم. وإذن فلا يمكن تجاهل طبيعة ذلك الصراع؛ فهو لم يكن صراعاً بين الموالى والعرب، بل كان صراعاً بين عرب العراق وعرب الشام (الطبرى جـ ٢ ص ١٠٨٩)، فكان صراعاً بين ولايتين في الدولة العربية كانتا تتنافسان دائماً. وكان أهل العراق، أياً كان أصلُهم، متحدين في ذلك الصراع، وكذلك كان جنود الاحتلال الشاميون يشعرون، وهم خارج وطنهم، بما بينهم من أواصر الاتحاد على أنهم كانوا في الأغلب ينتسبون إلى كلب وقضاعة؛ أما قول شاعر العراق في وصفه موقف أهلها، بعد رحيلهم مع ابن الأشعث، وهو:

تركنـــا دورنا لطغـــام عكٍّ وأنبـــاط القـــرى والأشعرينا

(الطبرى جـ ٢ ص ١١٠٢).

ففيه وصف إجماليٌّ لأهل الشام، بذكر البعض بدلاً من ذكر الكل، ويظهر أنه هجاء لهم بأنهم غير متحضرين، وهم يوصفون (عند الطبري جـ ٢ ص ١٣٩٣) بأنهم الأنباط والأقباط، يعني الأعراب الأجلاف غير المتحضرين[١].

وقد أدّى ذلك إلى زيادة في شدة الحكومة العسكرية الشامية في العراق. وفي سنة ٨٣هـ بنى الحجاج مدينة واسط، وجعلها حصناً في منتصف الطريق بين الكوفة والمدائن والأهواز والبصرة، وجعلها مقراً للحكومة، ونقل جمهور جند الشام إليها إليها أيضاً. ويقال إنه فعل ذلك لكي يتلافى ارتكابهم للمفاسد في الأحياء التي يقيم فيها الناس في الكوفة والبصرة. ولكن يظهر أن السبب الأكبر هو أنه أراد أن يعزل جند الشام عن أهل العراق[٢] ويجعلهم حولَه ليكونوا أداةً طيِّعة

---

(١) [يذكر المؤلف هنا كلمتي Kaffern und Botokuden، وهما في الغالب تسميتان لقبائل متوحشة في أواسط أفريقية ــ المترجم].

(٢) ولهذا السبب نفسه أبقى جند الشام بعيدين عن خراسان لكي لا ينفث فيهم أهل العراق سمومهم، فأرسلهم إلى الهند حيث لا يوجد عراقيون (الطبري جـ ٢ ص ١٢٥٧، ١٢٧٥).

تحت يده، ونقل مقرَّ إقامته هو من وسط الجماعة إلى مركز قيادة حربي، فأبان بذلك عما يشعر به من أنه في بلاد معادية؛ وأخرج الحكومة عن الأساس الديني الأبوي الذي نشأت عليه، وأقامها على القوة في صورتها الصريحة. ولم يكن هناك سبيل غير ذلك، إذا كان لا بد من المحافظة على سيادة بني أمية على العراق.

وبعد القضاء على ثورة ابن الأشعث أصبح شرق الدولة كله تحت قدمي الحجاج، ولم تكن هناك مقاومة إلا من جانب المهالبة في خراسان، فإنهم كانوا ما يزالون رافعى الرأس، وكانوا يعتمدون على قوة قبيلتهم، أزد عمان، الذي جاء بهم المهالبة إلى خراسان، وكانوا سبباً في أن تكونت هناك كما تكونت في البصرة من قبل مجموعةٌ من قبائل الأزد وربيعة (اليمن) في جانب، ومجموعة أخرى من تميم وقيس (مضر) في جانب آخر. وكان على رأس المهالبة ومجموعة قبائل اليمن يزيدٌ بن المهلب، أمير خراسان، وكان تابعاً للحجاج. لكن يظهر أن الحجاج لم يكن في مقدوره أن يعزله، مهما كان من ابن المهلب ما يدعو الحجاج إلى ذلك. ولم يتحرك ابن المهلب للقضاء على أصحاب ابن الأشعث في هراة إلا كارهاً، ثم أخذ من وقع في يده من أسرى هؤلاء الثوار بالهوادة، خصوصاً اليمنيين منهم. وقد تلكأ طويلاً في تنفيذ الأمر الذي صدر إليه بطرد ثوار قيس الذين كانوا قد ثبّتوا أقدامهم في ترمذ (قرب بلخ) تحت إمرة موسى بن عبد الله بن خازم، وذلك أتباعاً لوصية أوصاها المهلب لبنيه بألاّ يتعرضوا لابن خازم، اعتقاداً منه أن أبناءه سيظلون ولاة ثغر خراسان ما بقى ابن خازم، فإذا قُتل كان أولُ طالعٍ عليهم أميراً على خراسان رجلاً من قيس[١]. وقد أراد الحجاج أن يخرج ابن المهلب من خراسان، فكان يبعث إليه يستزيره فيعتلّ ابن المهلب بحرب العدو ونحوه من أعمال مانعة، ولم يستطع الحجاج أن يعزله آخر الأمر

---

(١) [راجع هنا وفيما تقدم وما يلي الطبري (جـ ٢ ص ١١٥١ ـ ١١٥٢، ١١٣٨ ـ ١١٤٣).

إلا بعد إلحاح شديد على الخليفة في سنة ٨٥هـ فحبسه الحجاج ونحّى إخوته شيئاً فشيئاً، لكنه لم يفعل ذلك إلا بعد موت عبد الملك في سنة ٨٦هـ.

على أن مسلك عبد الملك بن الحجاج كان أحياناً مسلك السيد الآمر، فلما جاء الوليد بن عبد الملك، وكان الحجاج من قبل قد عمل جاهداً في أن يجعل له ولاية العهد، ترك الحجاج يتمتع بكامل سلطاته، بل كان ينصاع له ويستجيب إلى رغباته حتى في دائرة اختصاصه كخليفة. فمن أمثلة ذلك أن عمر بن عبد العزيز كان والياً على المدينة، فلجأ إليها بعضُ أهل العراق فراراً من عسف الحجاج، فكتب عمر بن عبد العزيز إلى الوليد ينبِّهه إلى ظلم الحجاج لأهل العراق واعتدائه عليهم بغير حق. فلما بلغ الحجاجَ ذلك كتب إلى الوليد بأن مُرَّاق أهل العراق وأهل الشقاق قد جلوا عن العراق ولجأوا إلى المدينة، وأن ذلك وهَنٌ في سلطان الدولة. فطلب الوليد من الحجاج أن يرشح له رجلين ليوليهما مكة والمدينة، فأشار الحجاج بخالد بن جرير بن عبد الله القسرى، وعثمان بن حيّان المُرِّى؛ فعزل الوليدُ عُمَر بن عبد العزيز وولّى خالداً مكة وعثمان المدينة، وذلك في سنة ٩٣ أو ٩٤هـ (الطبري جـ ٢ ص ١٢٥٤) فجدّ كل منهما في استئصال شأفة أهل الريبة والفتنة جداً كبيراً[٢]. وفي عهد الوليد جنى الحجاج ثمرات عمله الشاق الذي قام به أيام عبد الملك، فعمّت في العراق السكينةُ، واغتنم هو ذلك في العمل على مداواة الجروح التي ألحقتها برفاهية البلاد حربٌ استمرت عشرين عاماً. وكان الحجاج لا يقل عن الوليد في العناية باستصلاح الأراضي، فوجه اهتمامه إلى تعهد الأنهار التي تتوقف عليها

---

(١) [كانت مهمة عثمان بن حيان هي القضاء على من لجأ إلى المدينة من أهل الفتنة في العراق، فحبس بعضهم وعاقبهم وأرسلهم إلى الحجاج في السلاسل، وأخرج كل من كان بالمدينة من أهل العراق حتى التجار منهم وطارد «أهل الأهواء»، وهدد من يؤوى رجلا من أهل العراق بهدم بيته، وله خطبة لها دلالة كبيرة على روح أهل العراق وخصالهم وإثارتهم للفتنة ــ راجع (الطبري جـ ٢ ص ١٢٥٨ ــ ١٢٦١) ــ المترجم].

خصوبة الأرض التي تغمرها المياه في الحوض الأدنى لدجلة والفرات[٢]. وفي وسط أرض السبخ الكبرى التي كانت أرض مستنقعات وقصب أنشأ الحجاج مدينة واسط. وقد حاول أن يوقف ما أدى إليه نقص سكان الريف من تدفق أهلها نحو المدن الكبيرة. ويُروى أيضاً أنه منع أهل السواد في العراق من ذبح البقر لكي تكثر الحراثة والزراعة[٢]. ولم يقم بحروب إلا مع الأعداء في الخارج، وقد انتصر انتصارات باهرة، ففتح قتيبة بن مسلم الباهلى الذي خلف المهالبة على خراسان بلاد ما وراء النهر في عهد الحجاج، كما فتح محمد بن القاسم الثقفي بلاد السند؛ ويرجع الفضل إلى الحجاج في اختيار هذين الرجلين للمنصب اللائق بهما، وقد منحهما أيضاً تأييداً فعالا بفضل اسمه الذي كان يبعث الخوف في أقصى

---

(١) عنى ملوك الفرس أشد عناية بتصفية مياه المناطق ذات المستنقعات وبإنشاء تمتلكات لهم فيها، وكان أحدهم إذا استصلح قطعة من الأرض سماها باسمه. وفي عهد قباذ حدث ثقب كبير في السد عند كسكر، فغمر كثيراً من الأرض وبقى مهملا حتى أصلح أنوشروان الفساد بعض الإصلاح. وفي سنة ٦ و٧ من الهجرة حدثت من جديد ثقوب أكبر ولم تثمر كل جهود كسرى برويز التي بذلها للإصلاح. وفي أثناء الاضطراب الذي أنشأ أيام الفتح العربي ازدادت رقعة منطقة المستنقعات عما كانت عليه من قبل، ولم يستطع الدهاقنة (وكانوا ملاكا للأرض وولاة) بمجهودهم الخاص أن يكافحوا ذلك، ولم تتغير الأحوال إلا في عهد معاوية وخصوصاً في عهد الوليد بن عبد الملك وأخيه هشام. فشق الحجاج نهرى النيل والزابى، وجلب الجاموس الهندى إلى إقليم المستنقعات، ومنها أدخله إلى جليقية. وإذا كان لم يستطع أن يفعل أكثر مما فعل ذلك يرجع إلى أن الوسائل التي كانت في مكنته كانت محدودة. وقد طلب ثلاثة آلاف ألف لإعادة بناء السدود، فاستكثر الوليد ذلك، ولكنه طلب من أخيه مسلمة أن يقوم بالمشروع على نفقته الخاصة، وحصل مسلمة من ذلك على ربح عظيم، وكان الخبير الذي أشرف على التخطيط، في عهد الحجاج وهشام هو حسان النبطى. وفي رواية غير جديرة بأن نصدقها أن الحجاج تعمد ألا يصلح الفساد الذي أحدثه فيضان عظيم في عهده، وذلك عقاباً للدهاقنة، لأنه اتهمهم بالميل إلى ابن الأشعث ــ قارن الطبري ج ١ ص ٩٦٠ فما بعدها والبلاذرى ص ٢٩٢ فما بعدها والمسعودي ج ١ ص ٢٢٥ فما بعدها وابن خرداذبه ص ٢٤٠ فما بعدها وياقوت ج ٣ ص ١٧٤ فما بعدها.

(٢) البلاذرى ص ٢٩٠ و٢٧٥، وابن خرداذبه ص ١٥ وص ٢٤١ والأغانى ج ١٥ ص ٩٨ وياقوت حـ ٣ ص ١٧٨.

المشرق[١]. وكان الحجاج نفسه لا يذهب إلى الميدان، ولكنه كان يعنى أخلص عناية بإعداد الجيش وتجهيزه بكل ما يحتاج إليه حتى أصغر الأشياء (البلاذرى ص ٣٤٦)[٢]، وكان لا يَضِنُّ في ذلك بمال. وكان خمس الغنيمة يعوِّض عليه أكثر مما أنفق؛ فأنفق مثلا في الحملة الكبرى وجهها إلى الهند ستين ألف ألف درهم، وعادت عليه بعشرين ومائة ألف ألف (البلاذرى ص ٤٤٠)[٣]. وقد كانت مدة إمارته عشرين عاماً، ومات، كما كان يتمنى، قبل موت الوليد، وذلك لتسع بقين من رمضان أو في شوال سنة ٩٥هـ = يونيه أو يوليه سنة ٧١٤ م عن ثلاثة وخمسين أو أربعة وخمسين عاماً (الطبري جـ ٢ ص ١٢١٧ و١٢٦٨). وقد عين الوليد مكانه الأمير الذي اقترحه هو نفسه، كما أقر جميع عماله في مناصبهم؛ وكان لأسرة الحجاج في الكوفة شأنها فيما بعد[٤].

كان زياد بن أبيه والحجاج أعظم نائبيْن لخلفاء بني أمية في العراق، وكان العباسيون يحسدون بني أمية بحق على هذين الرجلين[٥]، وكان كلاهما لا يشعر بأنه في منصبه صاحب قُنية يستغلّها لمنفعته الخاصة، بل كان يشعر بأنه ممثل سلطان الدولة. وقد مكّنهما سادتهما من سلطان كبير وتركوهما في منصبهما إلى آخر

---

(١) قارن البلاذرى ص ٤٠٠ فما بعدها وص ٤٣٥، وما ذكر رايسكه (Reiske) تعليقاً على أبي الفداء جـ ١ ص ٤٢٧. وفيما يتعلق بالكرك الهندي الذي لا يعرف رايسكه أمره، قارن الطبري جـ ٣ ص ٣٥٩ و٣٧٠.

(٢) [يقول البلاذرى إن الحجاج جهز محمد بن القاسم بكل ما احتاج إليه حتى الخيوط والمال، بل أرسل الحجاج معهم الخل المجفف على طريقة طريفة لكي يستعملوه في طعامهم وفيما يحتاجون إليه ــ المترجم].

(٣) [أنفق الحجاج في حملة الهند ستين ألف ألف درهم، وحمل إليه منها عشرون ومائة ألف ألف، فقال الحجاج: شفينا غيظنا، وأدركنا ثأرنا، وازددنا ستين ألف ألف درهم ــ المترجم].

(٤) الطبري (جـ ٢ ص ١٦٩٩ س ٥ و١٧١١ س ٧ ــ ١٠ و١٧١٢ س ٧).

(٥) [كان المنصور يقول: الخلفاء ثلاثة معاوية، وكفاه زياد؛ وعبد الملك، وكفاه الحجاج؛ وأنا ولا كافى لى. المترجم نقلا عن أنساب الأشراف ص ١٧٢).

حياتهما؛ وهما في مقابل الثقة التي نالها أدّيا واجبات منصبهما بإخلاص ودون مبالاة برضا الرأي العام أو بسخطه. وإن المؤرخ ليشعر بميل إلى المقارنة بينهما: فأما زياد فإنه كان قد وصل إلى مكانة رفيعة قبل أن يجعله معاوية حليفاً له وقبل أن يضمَّه إلى جانبه، وأما الحجاج فيستطيع الإنسان أن يعتبره من صنع يدي عبد الملك. وكان زياد يعرف كيف يكبح جماح القبائل بعضهم ببعض ويسخّرهم في العمل له، وقد وُفِّق في ذلك وجنى ثمرته؛ وكان عمر بن عبد العزيز يُعْجَبُ به، لأنه قبض على زمام أهل العراق من غير أن يكلف أهلَ الشام قط مؤونة مساعدته في ذلك (الكامل ص ٥٩٥)[١]. أما الحجاج فلم يكن يستطيع أن يحافظ على سلطانه إلا من طريق الاستعانة بالسيادة الأجنبية، أعنى مستنداً إلى جند الشام. على أن ذلك كان يرجع إلى تغير الظروف، لأن التوتر بين الشام والعراق كان فيما بين عصر زياد وعصر الحجاج قد اشتد كثيراً. ولم يقصر الحجاج في أعماله عن سلفه زياد؛ بل هو قد أثر في توجيه السياسة بعد موته. وكان السؤال هو: مع الحجاج أو عليه؟ وكانت إصلاحاته الإدارية، فيما يتعلق بنظام العملة والمكاييل والضرائب وفي تنمية الزراعة مبدأ عهد جديد[٢]. وكان يلقى عناءً في المحافظة على المستوى العالى لدخل الدولة في العراق التي كدرتها الحروب المستمرة وأنضبت مواردها. ولكن خزائنه لم تكن تخلو من مال، وكان كثير الإنفاق (الطبرى جـ ٢ ص ١٠٦٢ وأنساب الأشراف ص ٢١٧)[٣]. وكان فصيحاً تنقاد له الألفاظ، حتى كان مغروراً بعض الغرور بجمال أسلوبه، وكان يكره

---

(١) [قال عمر بن عبد العزيز في علاقة زياد بأهل العراق: قاتل الله زياداً، جمع لهم كما تجمع الذرة، وحاطهم كما تحوط الأم البرة، وأصلح العراق بأهل العراق، وترك أهل الشام في شأمهم ــ المترجم عن كتاب الكامل].

(٢) انظر كتاب الخراج ليحيى بن آدم في مواضع كثيرة خصوصاً ص ٩٩ فما بعدها.

(٣) [بلغت عبد الملك كثرة نفقات الحجاج وأنه مثلا ينفق في اليوم ما ينفقه الخليفة في الجمعة... الخ. فرد عليه الحجاج أنه قد جاء إلى بلاد ذات فتنة تتضرم بنيران الحوادث، فهو يستعمل الحزم جاهداً ويعطى إذا لزم العطاء، وأنه ناصح لأمير المؤمنين لا يضيع شيئاً ــ المترجم].

أن يقال إن أحداً يفوقه في ذلك (الطبري ج ٢ ص ١١٣٢)[١]؛ فلا غرو إذن أن نجد رواة خطبته التي ابتدأ بها ولايته على الكوفة يوشّونها بعبارات مُتَكَلَّفة. وكان جنانه لا يتزعزع في أي موقف من المواقف، وإنما كانت عظمته تتجلى عند الشدائد[٢]. ولكن الحجاج كان فيه تعجُّلٌ كبير، ولم يكن صبوراً على من يكلِّفُه تنفيذ أوامره، ولم يضع يده الحديدية في قفاز من القطيفة. ولا كانت له الآداب التي تُنَال بها محبة الناس، بل كان غليظاً وشديداً أحياناً؛ ولكنه لم يكن قاسياً[٣]، ولا كان صغير القلب ولا محدود الأفق. فقد عفا عن الشعبيّ الذي ثار مع ابن الأشعث ثم وقع أسيراً في يده، وقد أطلقه كرماً منه، لأنه لم يحاول أن يعتذر بالكذب، بل قال الحق، معترفاً بأنه ثار وحارب عن قصد (الطبري ج ٢ ص ١١١٢ ــ ١١١٣). وقد عرف للمختار قدرَه، مع أنه كان بثورته قد خالف الدين والدولة؛ وكان عند الحجاج من الشجاعة ما يجعله يصرح بإعجابه به. وهو لما ضرب الكعبة بالمنجنيق، وجاء رعد وبرق أشعر الناس بغضب الله على هذه الفعلة الشنيعة، لم يتردد في أن يفسر ذلك بأنه تحية من السماء تبشر بالنصر[٤]؛

---

(١) [استدعى الحجاج رجلا ذُكر أمامه بالفصاحة، كان يكتب الكتب ليزيد بن المهلب، فسأله فيما سأله عن نفسه: هل يلحن؟ فقال: تلحن لحناً خفياً، تزيد حرفاً وتنقص حرفاً، وتجعل أنّ في موضع إن وإن في موضع أنَّ. فقال له الحجاج: قد أجلتك ثلاثاً، فإن أجدك بعد ثلاث بأرض العراق قتلتك ــ المترجم نقلا عن الطبري في نفس الموضع].

(٢) [مرت بالحجاج محن كثيرة، ولعل أكبر محنة لقيها هي محنته أيام ثورة ابن الأشعث وتزعزع سلطانه وتزعزع ثقة عبد الملك به، فليراجع القارئ تفاصيل ذلك عند الطبري ــ المترجم].

(٣) [لو راجع القارئ مثلا ما فعله الحجاج بالأسرى الذين بعث بهم إليه يزيد بن المهلب، وما فعله بمن استسلم بعد فتنة ابن الأشعث (الطبري ج ٢ ص ١١١٨ و١١٢٣ و١٠٩٧، ١٠٩٨) فربما رأى رأيا غير رأي المؤلف ــ المترجم].

(٤) [لما رمى الحجاج الكعبة بالمنجنيق جاءت صاعقة، فرعدت السماء وبرقت وعلا صوت الصاعقة على صوت الحجارة، فأعظم جند أهل الشام ذلك وأمسكوا، ولكن الحجاج لم يأبه بذلك واشترك بنفسه في الرمى. وفي اليوم الثاني جاءت صاعقة تتبعها أخرى فقتلت بعض =

فكان الحجاج أقلّ وقوعاً في حبائل الخرافات والمأثورات من معاصريه. ولكنه مع ذلك لم يكن كافراً بالله، ومن المؤكد أنه لم يكن منافقاً. وكان في حياته وأعماله يراقب ضميره، ولكن جراءته وقلة تَحَرُّجِه في القضاء على عش الفتنة الذي كان بمكة؛ وكذلك عدم قبوله أن يتخذ أهل الفتنة في الكوفة والبصرة من الدين سنداً يبررون به ما يثيرونه من فتنة، كان بطبيعة الحال كافياً، عند الرأي العام بالحجاز والعراق، في إثبات قلة إيمان الحجاج. وقد اتُّهِمَ الحجاج بفظائع أخرى، وهي في الواقع مخترعة، وقد ولّدها بغض أعدائه له، هذا البغض الذي لم يهدأ حتى بعد موته. فيروى مثلا في رواية لم يُذْكر صاحبها أنه قتل في البصرة بعد موقعة الزاوية أحد عشر ألف رجل، بل مائة وعشرين أو مائة وثلاثين ألفاً (الطبري ج ٢ ص ١١٢٣). ويظهر أن كلا من فون كريمر وفلوتن يصدق مثل هذا الهراء؛ وهما، إيثاراً منهما لنظريتهما، يتلمسان في الموالى الدليل على تعطّش الحجاج للدم. ولكن الروايات القديمة الصحيحة تقول خلاف ذلك تماماً، فالحجاج أمر في البصرة والكوفة بعد انتصاره على الفور بالنداء بالأمان الشامل لمن ألقى السلاح، وكان حريصاً كل الحرص على منع جند الشام من ارتكاب المفاسد في المدن التي يفتحونها. أما الذين أصروا على محاربته ولم يقبلوا الأمان ثم وقعوا في يده بعد ذلك، فإنه قتل بعضهم، كالذي فعله في واسط من قتل بعض القرشيين وغيرهم من الثوار الذين بعث بهم إليه يزيد بن المهلب. ولكنه حتى في ذلك كان يحترم الحقوق المدنية الشخصية، ولم يجرؤ مثلا على مصادرة أموال أحد الموالى

= جنود الشام؛ فانكسر أهل الشام، فقال الحجاج: يا أهل الشام! لا تنكروا هذا، فإني ابن تهامة، هذه صواعق تهامة، هذا الفتح قد حضر، فابشروا! إن القوم يصيبهم مثل ما أصابكم. فصعقت من الغد، وأصيب بعض أصحاب ابن الزبير، فقال الحجاج: ألا ترون أنهم يصابون وأنتم على الطاعة وهم على خلاف ذلك! ـ المترجم نقلا عن الطبري ج ٢ ص ٨٤٤ ـ ٨٤٥ وأنساب الأشراف ص ٤٧].

الأغنياء (فيروز حصين[١])، مع أنه لم يوص في شأنها إلا في اللحظة الأخيرة[٢].

٤ ــ وجاء بعد الوليد الأول أخوه سليمان، وكان عبد الملك قد أخذ له البيعة ولياً للعهد بعد الوليد ــ في جمادى الآخرة سنة ٩٦هـ = آخر فبراير ٧١٥ م. وقد سار على أثر سلفه من حيث ما كان ينويه من توجيه ضربة كبيرة للقسطنطينية بعدّة وأُهبة عظيمة، وإن كانت هذه الضربة لم تكن موفقة[٣]. لكن سليمان كان يخالف أخاه في أمور أخرى، فلم يكن راضياً عن ذلك النفوذ الكبير الذي جعله للحجاج، ولا بد أنه في هذه النقطة قد عارض أخاه، وهو ما يزال والياً للعهد؛ ففي سنة ٩٠هـ فرّ يزيد بن المهلب من السجن الذي كان قد حبسه فيه الحجاج[٤]، وذهب إلى الرملة في فلسطين، حيث كان يقيم سليمان بن عبد الملك، فجعله سليمان في جواره واحتمل بعض المال الكثير الذي كان مطلوباً منه، وتدخل لدى الخليفة من أجله بإلحاح شديد، حتى أمر الخليفةُ الحجاجَ بأن يكفّ عن يزيد بن المهلب؛ وقد ألجأه سليمان تسعة شهور عنده، فوقع تحت تأثيره وقوعاً تاماً وزادت نفسه امتلاءً على الحجاج. ولم يكن الحجاج غافلاً عما كان يريده به سليمان، فأيد الوليد فيما أراده من خلع أخيه سليمان وجعل ولاية العهد في ابنه عبد العزيز، فزاد بذلك في كره سليمان له[٥]؛ فكان لدى الحجاج من الأسباب ما يدعوه إلى أن يتوقع

(١) [راجع ما كان بين الحجاج وبين فيروز حصين وتعذيب الحجاج له عند الطبري (ج ٢ ص ١١١٩ ــ ١١٢٢) ــ المترجم].

(٢) وقد بقيت لنا قصائد لجرير والفرزدق في مدح الحجاج.

(٣) راجع مجلة Göttinger Nachrichten، ١٩٠١ ص ٤٣٩ والصفحات التالية.

(٤) [راجع قصة هرب يزيد بن المهلب وإخوته، عند الطبري ج ٢ ص ١٢٠٨ ــ ١٢١٧ ــ المترجم].

(٥) كان هذا بحسب ما يفترض عادة هو السبب في بغض سليمان للحجاج، ولكن يظهر أنه كان بالأحرى نتيجة له، ذلك أن أمر نية الوليد جعل ولاية العهد في ابنه لا يذكر إلا في أواخر حكمه (الطبري ج ٢ ص ١٢٧٤ وص ١٢٨٣ فما بعدها)، بل إن التوتر بين سليمان والحجاج كان قبل ذلك: منذ سنة ٩٠هـ. وهو المبرر لهرب يزيد بن المهلب إلى الرملة.

أكبر الشر من تولى سليمان للخلافة، وكان دعاؤُه المستمر هو أن يجعل الله مَنِيّتَه قبل مَنِيّة الوليد (الطبري جـ ٢ ص ١٢٧٢)[1]. وقد استجاب الله دعاءه، فلم يستطع سليمان بن عبد الملك أن ينال من الحجاج نفسه، فصبَّ غضبه على آل الحجاج وأصدقائه وعماله. فعزل عثمان بن حيان المرّى عن ولاية المدينة، وخالد بن عبد الله القسرى عن ولاية مكة (الطبري جـ ٢ ص ١٢٨١ ــ ١٢٨٢ وص ١٣٠٥)، وأمر بقتل آل الحجاج وبسط العذاب عليهم. أما قتيبة بن مسلم[2]، الأمير القوي في خراسان، فقد أراد أن يسبق القدر الذي كان يهدِّده؛ واعتمد على ماضيه وما كان فيه من فتح ونصر، فحاول أن يضم إليه جنده في ثورة على الخليفة الجديد، لكنه لم يفلح. وذلك أن تميماً، وكان قد أساء إليهم، انقلبوا عليه، فهزموه؛ لأن بقية العرب تخاذلوا عن نصرته؛ وأما محمد بن القاسم الثقفي، فاتح بلاد السند

---

(١) [لما مرض الوليد رهقته غشية، فظن الناس أنه مات وخرجت البرد بذلك. فلما قدم البريد على الحجاج استرجع ثم أمر بحبل فشد في يده، ثم أوثق إلى أسطوانة، وقال: اللهم لا تسلط عليّ من لا رحمة له، فقد طال ما سألتك أن تجعل منيّتي قبل منيّته، ثم جعل الحجاج يدعو. فإنه لكذلك إذ ورد عليه بريد بإفاقة الوليد. ولما أفاق الوليد قال عمر بن عبد العزيز: «ما أعظم نعمة الله علينا بعافيتك، وكأني بكتاب الحجاج قد أتاك يذكر فيه أنه لما بلغه برؤك خر لله ساجداً، وأعتق كل مملوك له، وبعث بقوارير من أنبج الهند». فما لبث إلا أياماً حتى جاء كتاب الحجاج بذلك. ولكن من عبر أحوال النفوس البشرية وعواقب الفناء في خدمة الملوك أن الحجاج لم يمت حتى كان قد ثقل على نفس الوليد؛ فيحكى أن الوليد كان يتوضأ يوماً للغذاء، فجعل خادمه يصب على يديه الماء، وهو ساهٍ، والماء يسيل، والخادم لا يستطيع أن يتكلم، فنضح الوليد الماء في وجه الخادم، وقال له: «أناعس أنت؟» وسأله: ما تدرى ما جاء الليلة؟ «قال الخادم: «لا»، فقال الوليد: «ويحك! مات الحجاج». فلما استرجع الخادم قال له الوليد: اسكت! ما يسر مولاك أن في يده تفاحة يشمها ــ المترجم نقلا عن الطبرى جـ ٣ ص ١٣٧٢].

(٢) [كان قتيبة بن مسلم، شأنه شأن الحجاج، قد أيد الوليد فيما كان يريده من خلع سليمان أخيه وعقد البيعة لابنه عبد العزيز. فلما مات الوليد وتولى سليمان الخلافة، خاف قتيبة, ولكنه أراد أول الأمر أن يسترضى سليمان، ثم ثار عليه معتمداً على مجده في الفتح وعظم قدره عند ملوك العجم وعلى أعماله المجيدة في خراسان وعمله على رفاهية أهلها ومدعياً أنه عراقي النسب والهوى والرأي والدين؛ ولكن لم يتبعه أحد ــ راجع التفاصيل عند الطبري جـ ٢ ص ١٢٨٣ فما بعدها ــ المترجم].

فلم يحاول أن يشق عصا الطاعة على الخليفة، مع أن جند الشام ربما كانوا على استعداد لتأييده (الطبري جـ ٢ ص ١٢٧٥ س ٣)؛ فجيء به إلى أواسط وحبس حيناً، ثم قتل[١].

وقد خلف الحجاجَ في منصبه عدوُّه الألدُّ، يزيد بن المهلب؛ وهذا هو أكبر ما يميّز حكومة سليمان عن حكومة الوليد. ويرى دوزى (Dozy) أن هذا التغير نتيجة للاختلاف في موقف كل من سليمان والوليد إزاء الأحزاب الكبرى التي كانت تتألف من القبائل، فيقول إن الوليد كان قيسياً لحماً ودماً، أما سليمان فكان يمنيَّ الهوى[٢]، ويقول: «إن حكومة الوليد كانت قد أبلغت قيساً ذروةَ قُوَّتِها، فجاء سقوطها بعد موته على الفور، وكان سقوطاً مريعاً». على أن يزيد بن المهلب أخذ جانب اليمن في صورة صريحة، وكان، باعتباره أزدياً، ينتسب إليهم، وكان معارضاً لقيس. أما الحجاج فإنه لم يضطره إلى معارضة اليمن وإلى

---

(١) [لما مات الوليد بن عبد الملك وولى سليمان واستعمل صالح بن عبد الرحمن على خراج العراق، حمل محمد بن القاسم مقيضاً مع معاوية بن المهلب، فقال محمد بن القاسم متمثلاً:

أضاعوني وأيَّ فتى أضاعوا ... ليوم كريهةٍ وسداد ثغر

وقد جزع أهل الهند عليه، وقال، وهو في حبس صالح بن عبد الرحمن في واسط:

فلئن ثويتُ بواسط وبأرضها ... رَهْنَ الحديد مكبَّلاً مغلولا

فَلَرُبَّ فتية فارس قد رُعْتُها ... ولربّ قِرْنٍ قد تركت قتيلا

ويقال:

ولو كنتُ أجمعتُ الفرار لوطّئت ... إناثٌ أعِدَّت للوغى وذكورُ

وما دخلت خيل السكاسك أرضنا ... ولا كان من عَكٍّ عليَّ أميرُ

ولا كنت للعبد المزونى تابعاً ... فيا لك دهرٌ بالكرامِ عَثُورُ!

[المترجم نقلا عن البلاذري ص ٣٤٠ ــ ٣٤١]

(٢) راجع كتاب دوزى *Histoire des Musulmans d’Espagne*، جـ ١ ص ٢١١، ٢١٥.

الظهور من هذا الوجه بمظهر من يكون في جانب قيس إلا يزيد بن المهلب وابن الأشعث من قبله؛ وهو من نفسه لم يتنكر لأصله وأنه من ثقيف الذين كانوا يُعَدُّون من قيس، كما قد آثر أن يختار حاشيته من دائرة من يعرفهم. وكان ذلك شيئاً طبيعياً، ولا يصح أن يبالغ فيه أحد، ولا أن يعتبره القاعدة العامة، ولا أن يعتبره نزعةً قيسية أصيلة كانت عند الحجاج. وإذا كانت قيس أنفسهم يعتبرون الحجاج منهم فلا يمكن أن يؤخذ من ذلك أنه كان زعيماً لحزب قيسي، ذلك أن القبائل العربية كانت تتعلّق بكل رجل قوي تستطيع أن ترتقى إليه بالنسب ولو من بعيد. فالسبب الذي من أجله عيّن عبدُ الملك الحجاج، والذي من أجله تمسك به الوليد، لم يكن بوجه من الوجوه قيسيةً كانت عند الحجاج ــ ولم يكن الحجاج من أسرة نابهة ــ بل كان السبب هو كفاءته الشخصية. وكان الذي جعل للحجاج شأنه هو شخصه لا قبيلته، وكذلك كان بغض سليمان منصبّاً على شخص الحجاج وعلى نفوذه الشخصي. ولا شك أيضاً أنه إلى جانب هذا قد سُعِيَ بالحجاج عند سليمان، وقيل له إنه ليس هو الرجل الذي يصلح لتهدئة أهل العراق، بل إنه الرجل الذي يُبغّض إليهم حكم بني أمية (الطبري جـ ٢ ص ١٣٣٧). وقد عزل سليمان عمالَ الحجاج، لأنهم كانوا صنع يده، لا لأنهم كانوا قَيْسيِّيى الهوى. أما خالد بن عبد الله القسرى فكان، خلافاً لذلك، يعتبر عند اليمن على أنه منهم (الأغانى جـ ١٩ ص ٦١). وأما قتيبة فكان من باهلة، وهي قبيلة محايدة؛ وفي خراسان لم يكن أكبر خصومه هم اليمن بل المضريون، ومن جهة أخرى كانت له محبَّةٌ في الشام عند قيس الذين كانوا يقطنون أرض الجزيرة وكانت باهلة تقيم بينهم (الطبري جـ ٢ ص ١٣٠٠). وكان موسى بن نصير في إسبانيا يمنياً، ويقال إن الوليد أساء معاملته لهذا السبب[1]. ولكن سليمان أساء معاملة عبد الرحمن بن موسى أكثر مما أساء

---

(١) قارن البلاذرى ص ٢٣١ كتاب Cont Isid. Hisp. § 76.

الوليد معاملة أبيه؛ وهذا واقع من شأنه أن يضايق دوزى وتلاميذه (ا. موللر A. Müller جـ ١ ص ٤٢٩ فما بعدها) أشد المضايقة. فلا شك أن سليمان لم يكن ينزع نزعة يمنية ظاهرة، كما نزع يزيد بن المهلب. وليس ثمة أي أثر يدل على أنه كان في الشام منحازاً إلى جانب اليمن عن جانب قيس، بل هو كان يأسف لأنه جرح مشاعر قيس الشام بما صنعه مع قتيبة(١). وكانت أم سليمان هي أم الوليد، وكانت قيسية من عبس؛ ومن العسير جداً أن يتنكر سليمان لما يجرى في عروقه من دم. أما انقسام العالم العربي إلى قسمين متخاصمين على أساس الانقسام القبلي، فإنه كان في ذلك الوقت ما يزال في دور التكوين. وقد كان ما بين الولاة والرؤساء الأقوياء من عداء شخصي سبباً جوهرياً في تفاقم خطب هذا الانقسام؛ ولا يصح للمؤرخ أن يعمد إلى ما هو نتيجة في التاريخ فيجعله بمثابة صل وقاعدة يرجع بها إلى الوراء حتى يجعلها في بدايات ما قبل التاريخ.

وبعد موت الحجاج امتنع الزنبيل في سجستان عن دفع الإتاوة، ولم يتحرج من أن يصرح بمقدار استصغاره لشأن من جاء بعد الحجاج (البلاذرى ص ٤٠٠ فما بعدها)(٢). وأيضاً بعد موت الحجاج وموت الوليد بعده بقليل تنفس أهل العراق الصعداء، ولكنهم لم يلبثوا أن تبينوا أن تغيّر الأشخاص لم يأتِ معه تغيُّر النظم وأن يزيد بن المهلب، وإن كان قد آذى آل الحجاج وعماله (الطبري جـ ٢ ص ١٣٥٩) فإنه لم يسلك في الحكم طريقاً غير طريق الحجاج. فهو أقام مثله

---

(١) [راجع الطبري جـ ٢ ص ١٣٠٠ س ٥ ـ ٦ ـ المترجم].

(٢) [لما منع الزنبيل العروض التي كان قد صالح الحجاج عليها سأل عمال يزيد بن عبد الملك قائلاً: ما فعل قوم كانوا يأتوننا خماص البطون سود الوجوه من الصلاة، نعالم خوص؟ قالوا: انقرضوا، قال: أولئك أوفى منكم عهداً وأشد بأساً، وإن كنتما أحسن منهم وجوهاً. وقيل له: ما بالك كنت تعطي الحجاج الإتاوة ولا تعطيناها؟ فقال: كان الحجاج رجلا لا ينظر فيما ينفق، إذا ظفر ببغيته، ولو لم يرجع إليه درهم؛ وأنتما لا تنفقون درهما إلا إذا طمعتم في أن يرجع إليكم مكانة عشرة ـ المترجم نقلا عن البلاذرى].

في واسط، واستبقى أهل الشام في العراق، ووجد أنه لا يستطيع أن يغير شيئاً من نظام الضرائب التي بغَّضت الحجاج إلى العرب، إن كان لا بد أن يبقى دخلُ الدولة في المستوى العالي الذي كان عليه. على أن يزيد أراد أن يتفادى بغض أهل العراق له، فطلب إلى الخليفة أن يعفيه من ولاية الخراج وأن يقلدها لعامل آخر أشار به؛ ولكن ذلك آل إلى شيء لم يكن يخطر له على بال، لأن العامل الذي أشار به يزيد وعَيَّنَه سليمان على خراج العراق كان عاملاً قديماً من عمال الحجاج، وكان حتى ذلك الحين يعمل في الديوان، وقد جعله سليمان مستقلاً على رأس ديوان الخراج[١]، وهو صالح بن عبد الرحمن أحد موالى سجستان، وهو الذي نقل لغة الديوان إلى العربية. وكان لصالح في واسط أربعمائة من جند الشام تحت تصرفه يسيرون بين يديه إذا خرج، وكان مستقلا عن يزيد استقلالاً تاماً. وقد ضُيق على يزيد، فلم يملِّكه شيئاً، ورفض في جفاء أن يُحَمِّل خزانة الخراج تلك النفقات الكبيرة التي كان ينفقها يزيد. وأخيراً ضجر يزيد بسبب هذا التضييق ولم يحتمل المقام في العراق، وعرف كيف يدبر الحيل ويلتمس السبل حتى أسند سليمانُ إليه إمرة خراسان إلى جانب إمرة العراق[١], فنقل مقر إقامته إلى الولاية القديمة التي كان عليها حيث لا يراقب أعماله أحد[٣]. ولكنه في خراسان لم يجد ما كان

---

(١) هذا بحسب رواية أبي مخنف ــ الطبري جـ ٢ ص ١٣٠٦ فما بعدها، أما كيف أن دوزى يفهم هذه الرواية على هواه فيستطيع القارئ أن يطلع عليه عند دوزى نفسه (Dozy, 1, 226). على أنه بحسب الطبري (جـ ٢ ص ١٢٦٨ ــ ابن قتيبة ص ١٨٣) كانت ولاية الخراج قد فصلت عن الإمارة في الفترة بين الحجاج ويزيد؛ فلا بد أن يكون هذا الفصل قد ألغى أيام تولى يزيد للإمارة، ثم عمل به من جديد بناء على طلبه، وليس على هذا الذي نفترضه أي اعتراض.

(٢) [راجع الطبري جـ ٢ ص ١٣٠٦ ــ ١٣١٤ ــ المترجم].

(٣) كان ذلك في سنة ٩٧هـ. وقد احتفظ يزيد مع هذا بالإمرة على العراق.

يحتسب، فقد كان رجلاً همه الطعام والشراب والنساء[١]، وكان بديناً فاسد الصورة. وتبين الفرق البعيد بينه وبين قتيبة بن مسلم. ولكنه أراد أن يفوق قتيبة بفتح جرجان وطبرستان، فلم يُوَفَّق في ذلك إلا توفيقاً ناقصاً، وقد كتب إلى سليمان بتعظيم قيمة الفتح وعمد إلى الافتخار وتسميع الناس فبالغ في تقدير قيمة خمس الغنائم التي حصل عليها، وبذلك حفر الحفرة لنفسه بيديه[٢].

وقد احتفظ سليمان بعد أن تولى الخلافة بمقر إقامته في الرملة من أعمال فلسطين. وكان الناس هناك يحبونه كثيراً (الطبري ج ٢ ص ١٨٣١)؛ ولكنه كان يكثر من الذهاب إلى معسكر دابق في شمال الشام، وهو المعسكر الذي كان قاعدة لتدبير أمور الحرب الكبيرة الموجهة إلى القسطنطينية، وهناك مات بعد حكم لم يدم ثلاث سنين كاملة، وكان موته في صفر سنة ٩٩هـ (سبتمبر سنة ٧١٧ م). ويقول إلياس النصيبي إنه مات يوم الثلاثاء الثامن من صفر؛ أما أبو مخنف (الطبري ج ٢ ص ١٣٣٦) فيقول إنه مات يوم الجمعة العاشر من صفر[٣]. وعلى حين كانت أحاديث الطبقة الممتازة في زمان الوليد تدور حول مسائل الزراعة وتخطيط الضياع، صارت أحاديث الناس في عهد سليمان تدور حول التزويج والجوارى. وكان سليمان نفسه غير متحفظ، وكان صاحب نكاح وطعام. ولكنه كان غيوراً شديد الغيرة، فأمر بمكافحة الفحش في المدينة؛ وربما كان ما فعله أمير المدينة من خصى المخنَّثين بدلا من إحصائهم نتيجة لتصحيف في الكتاب الذي

---

(١) [راجع مثلا ما يقوله عنه قتيبة بن مسلم وما حكاه عنه عمر بن عبد العزيز (الطبري ج ٢ ص ١٢٨٧ و١٣١٣ ــ المترجم].

(٢) [راجع الطبري (ج ٢ ص ١٣١٧ ــ ١٣٣٥). وقد قدر يزيد بن المهلب خمس الغنائم بستة أو أربعة آلاف ألف، فحاسبه عليها عمر بن عبد العزيز فيما بعد ــ المترجم].

(٣) بحسب ڤوستنفيلد يكون يوم الثلاثاء هو التاسع من صفر ويوم الجمعة هو الحادي عشر منه. ومثل هذا الاختلاف في يوم واحد يعرض كثيراً، وليس بذى بال. [لكن إذا كان يوم الثلاثاء يوافق ٩ صفر فإن يوم الجمعة يوافق ١٢ منه ــ المترجم].

وصله (الأغانى ج ٢ ص ٥٩ فما بعدها)[١]؛ وهو مع أنه كان شهوانياً، فإن ذلك لم يمنعه من أن يميل إلى أهل الديانة والصلاح؛ وهذا يتجلى في أنه كان يظهر العطف على معارضة أهل العراق للحجاج، هذه المعارضة التي كانت دائماً تظهر في ثوب معارضة دينية باسم الله وباسم سلطان الله ضد غشم الأقوياء؛ كما يتجلى في أنه كان يقرّب العلويين إليه (الطبري ج ٢ ص ١٣٣٨ س ٧) وفي أنه عيّن أحد الأنصار والياً على المدينة، وهو أبو بكر بن محمد بن عمرو بن حزم الذي كان لجده محمد ضلع كبير في الثورة على عثمان، على أن أوضح ما يدل على ميله لأهل الدين والورع هو أنه كان يستمع لرجاء بن حيوة، أحد علماء الدين في القصر. وإن المكانة التي جعلها خلفاء بني أمية لهذا الرجل هي مقياس لموقفهم هم أنفسهم من الإسلام. وقد بدأ تأثير رجاء في عهد عبد الملك، وازداد في عهد الوليد، وبلغ أوجه في عهد سليمان. وقد استطاع رجاء أن يقنع سليمان بجعل الخلافة في عمر بن عبد العزيز، وعندنا في هذا رواية الواقدي التي ذكرها الطبري[٢].

كان عبد الملك قد عقد البيعة لابنه يزيد على أن يتولى الخلافة بعد الوليد وسليمان ابنيْه. وأخذ عبدُ الملك العهد من الوليد وسليمان على ذلك. ولكن سليمان لم يلتزم العهد، فعهد إلى ابنه أيوب بالخلافة أولاً؛ ولكن أيوب مات

---

(١) [بلغ سليمان بن عبد الملك ما كان يأتيه المخنثون في المدينة من فساد في النساء والرجال، ولاحظ لما تأثير اشتغالهم بالغناء وإجادتهم له في النساء، فكتب إلى عامله على المدينة أن إخص من قِبَلك من المخنثين المغنين. وظن البعض أن كتابه كان فيه «إن إحص»، ولكن القارئ صحفها؛ وهذا غير معقول، وقد صرح الرواة بأنه كذلك ــ المترجم].

(٢) ج ٢ ص ١٣٤٠ فما بعدها. وكان الهيثم بن واقد، عم الواقدي، وهو طفل، حاضراً في دابق؛ وقد أصاب يوم استخلاف عمر بن العزيز ثلاثة دنانير (الطبري ج ٢ ص ١٣٦١).

في حياة سليمان نفسه، وقبل أن يجعل سليمان الخلافة في ابنه الثاني داود[١] — وكان هذا مع الجيش الأموي أمام القسطنطينية — كان على فراش الموت (الطبري ج ٢ ص ١٣٣٥ و ١٣٤١). عند ذلك وضع رجاء يده في الأمر، وأقنع سليمان بأن يرضى الله بوصية يستخلف فيها على المسلمين الرجلَ الصالح. فتخطى سليمان الورثة المباشرين، وعهد بالخلافة إلى ابن عمه الورع التقى، عمر بن عبد العزيز، على أن يكون العهد بعده ليزيد بن عبد الملك. وجاءت سكرات الموت تغشى سليمان، فبقى رجاء عنده، فلما مات حَرَّفَه إلى القبلة وغمّض عينيه وسجَّاه، وأغلق عليه الباب واستوثق من إخفاء موته على أهله. ثم جمع الأمويين في مسجد دابق دون أن يقول إن الخليفة قد مات، وطلب منهم أن يبايعوا على ما أمر به الخليفة في وصيته ومن سمّى في العهد الذي كتبه؛ ولم يذكر رجاء اسم ولي العهد[٢]، ولم يخبرهم بموت سليمان ولا باسم خليفته الذي عيّنه بنفسه إلا بعد أن بايعوا. وكانت مفاجأة كبيرة عندما وقف رجاء وقرأ كتاب سليمان، وفيه استخلاف عمر بن عبد العزيز. وكان عمر بن فرع جانبي من بني أمية، كان قد نحّاه عبد الملك، والآن جاء ابنٌ لعبد الملك فآثره على أمراء الفرع الأساسي لبني أمية على كثرتهم. ولم يكن ذلك يخطر ببال أحد، وربما كان أبعد شيء عن ذهن عمر بن عبد العزيز نفسه. ولم تقم مع هذا معارضة ذات شأن بسبب تعيين عمر. ويظهر أن رجاء قد أحكم ما صنع، وقد عارض هشامُ بن عبد الملك في البيعة بعض المعارضة، ولكنه أخذ

---

(١) والأسماء التي سمى بها سليمان أبناءه، وهي الأسماء الموجودة في التوراة، ربما كانت دليلا على ورعه، وهي فيما عدا ذلك نادرة عند الأمويين في ذلك العصر. أما اسمه هو فقد أُعطى له من غير أن يكون له في ذلك دخل على كل حال.

(٢) بحسب رواية الواقدي أن سليمان نفسه، وهو على فراش الموت، فعل ما فعله رجاء في المسجد بعد موت سليمان — ومن الواضح أن هذا تكرار في الرواية.

جانب العقل لما هُدِّد بالسيف[١]. أما عبد العزيز بن الوليد فلم يكن حاضراً في دابق، ولما علم بموت سليمان ظن أن زمانه قد جاء، ولكنه اطمأن لما علم بأن عمر صار خليفة[٢].

---

(١) [لمّـا قرأ رجاء كتاب العهد الذي كتبه سليمان بمن يخلفه وانتهى إلى ذكر عمر بن عبد العزيز، نادى هشام بن عبد الملك: لا نبايعه أبداً، فقال رجاء: أضرب والله عنقك، قم فبايع! فقام يجر رجليه ــ وتفصيل موت سليمان ومبايعة عمر موجود عند الطبري في الموضع المتقدم ذكره ــ المترجم].

(٢) [لم يكن عبد العزيز بن الوليد يعلم بعهد سليمان، ولا ببيعة الناس لعمر بن عبد العزيز، فعقد لواء ودعا لنفسه. ثم بلغه الأمر، فأقبل وبايع عمر، فلما سأله عمر عما كان منه، قال له بما فعل، واعتذر بأنه إنما بايع لنفسه خوفا على الأموال أن تنتهب. ــ المترجم نقلا عن الطبري ج ٢ ص ١٣٤٥].

الفصل الخامس

عمر بن عبد العزيز والموالى

١ ــ كان عمر بن عبد العزيز ابناً لعبد العزيز بن مروان الذي ظل أميراً على مصر لخلفاء بني أمية سنن طويلة. أما أمه فكانت أم عاصم بنت عاصم بن عمر بن الخطاب، وكان عمر بن عبد العزيز يعتزّ بذلك. وولد عمر في المدينة في عهد يزيد بن معاوية (الطبري جـ ٢ ص ١٣٦١)[١]، وقضى هناك الشطر الأكبر من صباه، وتغذّى عقلُه بالتراث الروحي في مدينة الرسول. وبعد أن مات أبوه (سنة ٨٤ أو ٨٥هـ) أخذه عبد الملك إلى دمشق وزوّجه ابنته، ثم أرسله الوليد بن عبد الملك إلى المدينة أميراً على الحجاز، وكان قصده من ذلك نحو الذكرى السيئة التي خلفها الوالي الذي كان قبل عمر واسترضاه أهل المدينة. ووثّق عمر بن عبد العزيز صلته بالعلماء الذين اشتغلوا بكتابة العلم وبعلم الحديث، وكان علم الحديث قد ازدهر هناك. ولم يكن يضايقه أن ينتقد علماء المدينة أساليب حكومة الأمويين، خصوصاً أساليب الحجاج. وكان من أثر ذلك أن صار أهل الفتنة والشقاق من أهل العراق يلجأون إلى الحجاز، فلم يرض الحجاج من ذلك بطبيعة الحال، وعُزل عمرُ بن عبد العزيز عن المدينة بناء على إلحاح الحجاج[٢]، ولكن عمر لم يفقد العطف من جرّاء ذلك، فقد كان أخاً لامرأة الوليد وظل عنده مُكَرّماً، ولم تكن مكانته الكبيرة عند سليمان أقل من ذلك.

قويت الروحُ الإسلامية في الأسرة الحاكمة، كما رأينا؛ فمنذ معاوية

---

(١) [جاء في الطبري جـ ٢ ص ١١٨٢ أن عمر بن عبد العزيز ولد سنة ٦٢هـ ــ المترجم].

(٢) [راجع ما تقدم ص ٢٤٣ ــ المترجم].

وعبد الملك إلى الوليد وسليمان نراها في ازدياد مستمر. وعمر بن عبد العزيز يقف على رأس هذه السلسلة من خلفاء بني أمية. ولكن تدينه وورعه لم يكونا شبيهيْن بما كان عند سلفه، ذلك أن روحه تشربت هذا الورع على نحو آخر تماماً. وكان الورع موجِّهاً لأعماله في أمور الدولة. ولقد كان سليمان بن عبد الملك رجلاً متبدِّياً صاحب متاع. أما عمر فيكاد يكون زاهداً، وقد أتاحت السيادة لسليمان وسائل للمتاع لا حدود لها، أما عمر فقد ألقت السيادةُ على كاهله مسئوليةً ثقيلة، وكان في كل شيء يفعله يتمثل الحساب أمام عينيه، وكان يخشى دائماً أن يقصّر في حدود الله(١).

ولم يكن عمر ميالا إلى حروب الفتح، وكان يعلم حق العلم أنها لم تكن حروباً

---

(١) [لما ولى عمر بن عبد العزيز الخلافة كتب إلى يزيد بن المهلب: «أما بعد، فإن سليمان كان عبداً من عبيد الله، أنعم الله عليه ثم قبضه واستخلفني ويزيد بن عبد الملك من بعدي... وإن الذي ولاني (يعني الله) ليس عليّ بهين، ولو كانت رغبتي في اتخاذ أزواج واعتقال أموال كان في الذي أعطاني من ذلك ما قد بلغ بي أفضل ما بلغ بأحد من خلقه. وأنا أخاف فيما ابتليت به حساباً شديداً ومسألة غليظة إلا ما عاق الله ورحم». وكتب عمر بن عبد العزيز لأهل الشام: «سلام عليكم ورحمة الله، أما بعد فإنه من أكثر ذكر الموت قل كلامه، ومن علم أن الموت حق رضى باليسير». ويروى أنه قال: «من عمل من غير علم كان ما يفسد أكثر مما يصلح، ومن لم يعد كلامه من عمله كثرت ذنوبه، والرضا قليل، ومعوَّل المؤمن الصبر، وما أنعم الله على عبد نعمة ثم انتزعها منه فأعاضه ما انتزع منه الصبر إلا كان ما أعاضه خيراً مما انتزع منه، ثم قرأ هذه الآية: إنما يوفَّى الصابرون أجرهم بغير حساب». وقد أوصى أحد ولاته في كتاب له: «كن عبداً ناصحاً لله في عباده ولا تأخذك في الله لومة لائم، فإن الله أولى بك وحقه عليك أعظم، فلا تولين شيئاً من أمور المسلمين إلا المعروف بالنصيحة لهم والتوفير عليهم وأداء الأمانة فيما استرعى، وإياك أن يكون ميلك ميلا إلى غير الحق، فإن الله لا تخفى عليه خافية، ولا تذهبن عن الله مذهباً، فإنه لا ملجأ من الله إلا إليه». ولما كتب إليه الجراح بن عبد الله الحكمى، بعد أن ولاه على خراسان، قائلاً: «قدمت خراسان، فوجدت قوما قد أبطرتهم الفتنة... فليس يكفّهم إلا السيف والسوط، وكرهت الإقدام على ذلك إلا بإذنك». كتب إليه عمر: يا ابن أم الجراح! أنت أحرص على الفتنة منهم، لا تضربن مؤمناً ولا معاهداً سوطاً إلا في حق، واحذر القصاص، فإنك صائر إلى من يعلم خائنة الأعين وما تخفى الصدور، وتقرأ كتاباً لا يغادر صغيرة ولا كبيرة إلا أحصاها». المترجم نقلا عن الطبري جـ ٢ ص ١٣٦٣، ١٣٦٧، ١٣٦٨، ١٣٧٦، ١٣٥٧، ١٣٥٥].

في سبيل الله، بل من أجل الغنائم. على أنه ليس من المحقق على كل حال أنه هو الذي أرجع الجيش الإسلامي من القسطنطينية[١]. وهو لم يستطع أيضاً، من حيث المبدأ، أن ينهى الجهاد مع قيصر الروم؛ ولكنه ترك المراكز الأمامية وجمَّع جنود الغزو فيما دونها. وربما كان يرضى عن الانسحاب من بلاد ما وراء النهر، لولا أن الإسلام كان قد رسخت قدمه في بعض مدنها. ولكنه قد منع على الأقل توسيع الحدود هناك[٢]، وكان جل اهتمامه متجهاً إلى السياسة الداخلية، وهنا نجد أنه قد حصل في عهده تحول ذو طابع مغاير للتحول الذي كان بين عهد الوليد وعهد سليمان وأكبر منه شأناً بكثير.

وقد شغل عمر أهم المناصب الكبرى بعمال جدد، فحبس يزيد بن المهلب — وكان عمر يبغضه[٣] — حَبْسَ دَيْنٍ حتى يقضى ما عليه، وذلك أن يزيد لم يستطع دفع الخمس من غنائم أقاليم بحر الخزر[٤]، وكان قد بالغ في قيمتها على سبيل الافتخار وتسميع الناس. ووجه عمر إلى خراسان الجراح بن عبد الله الحكمى، وإلى البصرة عدى بن أرطأة الفزارى، وإلى الكوفة عبد الحميد بن عبد الرحمن القرشى الذي ينتسب إلى عمر بن الخطاب، وإلى العراق عمر بن هبيرة الفزاري،

---

(١) [جاء في الطبري جـ ٢ ص ١٣٤٦ أن عمر بن عبد العزيز في سنة ٩٩هـ كتب إلى مسلمة بن عبد الملك، وهو بأرض الروم، وأمره بالقفول منها بمن معه من المسلمين — المترجم].

(٢) وفي عهد عمر بن عبد العزيز فتحت مدينة نربونة بفرنسا وحصنت. فتحها المسلمون من قواعدهم في إسبانيا.

(٣) كان يزيد بن المهلب يبغض عمر بن عبد العزيز ويقول عنه: «إني لأظنه مرائياً»، فلما ولى عمر الخلافة عرف ابن المهلب أنه كان بعيداً من الرياء. وكان عمر يبغض يزيد بن المهلب وأهل بيته ويقول: «هؤلاء جبابرة، ولا أحب مثلهم». وقد تبين لابن المهلب أن عمر لم يكن يظهر التقى رياء، لأنه استدعاه وحاسبه — المترجم نقلا عن الطبري جـ ٣ ص ١٣٥٠].

(٤) [يقول المؤلف: غنائم الخزر، والمقصود هو غنائم جرجان وطبرستان، كما تقدم كلام المؤلف — وفيما يتعلق بمحاسبة عمر بن عبد العزيز ليزيد بن المهلب على ما كان قد كتب به إلى سليمان من خمس الغنائم ليراجع القارئ كتاب الطبري (جـ ٢ ص ١٣٥٠ — ١٣٥٢، ١٣٥٩ — ١٣٦٢) — المترجم].

وإلى الهند عمرو بن مسلم أخا قتيبة بن مسلم. وكان الجراح (الطبري ج ٢ ص ١٣٥٤) وعَمراً من مدرسة الحجاج، وكان عدي وابن هبيرة من قبيلة قيس. ولكن عمر لم يعين هؤلاء الرجال على سبيل الانصراف عن الجانب الذي كان ينحاز إليه سلفه، وعلى سبيل الإيثار لقيس أو للحجاج، بل لأنهم كانوا رجالا أكفاء أمناء (الطبري ج ٢ ص ١٣٨٣ س ٣). وعين على الأندلس السمح بن مالك الخولاني، أحد اليمنيين، وعلى إفريقية إسماعيل بن عبد الله بن أبي المهاجر، لأنه كان يعلم من أمر هذين الرجلين أنهما غير متحيزين لفريق دون فريق، وأن لهما قلباً يعطف على المظلومين. على أن عمر بن عبد العزيز لم يكن يكتفي باختيار رجال يظهرون أنهم على شاكلته، ثم يتركهم بعد ذلك يفعلون ما يشاؤون، ما داموا يحملون إليه ما يلزم أن يحملوه من أموال، بل كان يشعر أنه مسئول هو نفسه عما يجري في جميع البلاد، ولم يكن همه الزيادة في قوة الدولة، بل إقامة الحق والعدل فيها. وعلى يديه صار للفقهاء وأهل العلم كلمة مسموعة[١]، بعد أن كانوا حتى ذلك الحين أشبه بحزب ذى كيان شرعي مستقل عن الحكومة ومناوئ لها بعض الشيء. ويظهر من هذا الوجه أيضاً أن منصب القاضي قد أصبح على عهد عمر أكثر استقلالا وأكبر شأناً مما كان؛ فقد جاء في كتاب كتبه عمر إلى عقبة بن زرعة في خراسان: إن للسلطان أركاناً لا يثبت إلا بها. فالوالي ركن، والقاضي ركن، وصاحب بيت المال ركن، والركن الرابع أنا — يعني الخليفة[٢]. وكان الحسن المشهور[٣]. في عهد عمر بن عبد العزيز قاضياً على

---

(١) [راجع الطبري ج ٢ ص ١١٨٢ — ١١٨٣ — حيث يروى أن عمر بن عبد العزيز بدأ ولايته للمدينة سنة ٨٧هـ. باستدعاء الفقهاء وقوله لهم إنه لا يريد أن يقطع أمراً إلا برأيهم، وطلبه منهم أن يدلوه على ما يرون من ظلم، وفي هذا دليل على روحه بوجه عام — المترجم].

(٢) [راجع الطبري ج ٢ ص ١٣٦٦ — المترجم].

(٣) [المقصود بطبيعة الحال هو الحسن البصري — المترجم].

البصرة، وعامر الشعبي قاضياً على الكوفة. وقد أرسل عمرُ مع عبد الحميد بن عبد الرحمن القرشي أمير الكوفة أبا الزناد الفقيه ليكون كاتباً عنده.

وكانت إدارة الأمصار في الدولة الإسلامية تتلخص في تنظيم الناحية المالية فيها، وكان إصلاح هذه الناحية أول ما اتجهت إليه همة عمر بن عبد العزيز. ولكن ليس السهل أن نتبين بوضوح نوع إصلاحاته في ميدان نظام الخراج، والآراء التي جاء بها في هذا الشأن الفريد فون كريمر (Alfred von Kremer) وتابعه فيها أوجست موللر (A. Müller) مشوبة بأخطاء حقيقية.

يرى فون كريمر وموللر أن الذي دعا عمر بن عبد العزيز إلى إصلاحاته في نظام الخراج إنما هو القصد إلى العودة إلى النظام القديم[١]، وأن عمر بن الخطاب

---

(١) كان ذهن عمر بن عبد العزيز بحكم سلطان الدين عليه بعيداً عن كل إدراك لما تقتضيه الحكمة السياسية. وإنه وإن كان لا يمكن النزاع في أن بعض ما وضعه من نظم قد أدى إلى تقوية روح الإسلام في ذاته تقوية كبيرة، فإن كل ما فعله يكاد يكون قد ساعد في الجملة على إفساد نظام الدولة من أساسه، بعد أن كانت قد أصبحت دولة دنيوية. والرومان، وهم أكفأ الشعوب التي عرفها التاريخ في مسائل السياسية الكبيرة، إنما قرروا المبدأ الذي قرروه عن علم، وهو أنه لا دولة يمكن أن تعيش إلا بالوسائل التي أدت إلى قيامها. أما عمر بن عبد العزيز فقد انصرف عن الأصول المتمشية مع الواقع والتي وضعها خلفاء الأمويين بعد عصر معاوية، وأراد أن يستعيض عنها بتحقيق مبادئ مثالية استمدها من القرآن والحديث، حتى ولو كان هذا العمل الخليق بالثناء لا يمكن تنفيذه إلا على أساس علم غير كامل بالظروف الواقعة ولكن عمر بن عبد العزيز، وهو الخليفة الورع، كان متأثراً بمبادئ حاشيته الدينية إلى حد أنه لم يقم حتى بمحاولة اصطناع شيء من العقل عند تطبيق ما في القرآن من مبادئ كبرى على أحوال هذه الدنيا الناقصة، وكان تفكيره الساذج يقول له إن الله يريد كذا وكذا، وإنه إذا كان الله يريد ذلك فمن الممكن تنفيذه. أما كيف يريد الله من الخليفة أن يحكم فيرى عمر أن الله قد أظهر ذلك للمؤمنين حساً ملموساً بأن أخضع لسلطان الإسلام على يدي عبديه أبي بكر وعمر متمردى العرب أولاً، ثم فارس كلها والشام ومصر؛ وعلى هذا فلم يكن المثل الأعلى لعمر بن عبد العزيز سوى صورة حرفية للتنظيم الذي وضعه للدولة عمر بن الخطاب وغيّره في أهم نواحيه خَلَفُ السوء تغييراً لا يمت إلى الدين بسبب. وإذا عرفنا كيف أن هذه التغيرات لم تقض بضرورتها الأهواءُ الشخصية بل دعت إليها شدة وطأة الوقائع القاسية، فإنه يصبح من المفهوم بنفسه أن يكون الرجوع إلى تطبيق الأصول القديمة في تدبير أمور الدولة التي نظمها عبد الملك والحجاج بمثابة ما تقع على العين ضربةٌ بجمع اليد. ولكن ثقة عمر بن عبد العزيز، ذلك الخليفة الجديد بالإعجاب، بما فيها من روع مؤثر، لم يكن ينيرها ولو قبس من تلك المعرفة =

كان مثاله أراد أن يتبعه وأن يرجع إلى ما كان قد وضعه من نظم، كما أراد أن يزيل ضروب الفساد التي استحدثها خلفاء بني أمية وعمالهم حتى ذلك الحين وهنا يقوم سؤال مبدئي عن طبيعة المثال الذي أراد عمر بن عبد العزيز أن يحتذيه،

= فلم يلبث بعد توليه عرش الخلافة أن أمر بإلغاء القانون الذي وضعه الحجاج والذي كان يقضي بأن يدفع من يدخل في الإسلام من أهل الذمة الجزية التي كانوا يدفعونها من قبل، وذلك تلافياً للنقص فيما يدخل إلى بيت المال. ولما كان من شأن هذا الإجراء أن يجعل الدخول في الإسلام مفيداً لغير المسلمين من جديد، فإن الخليفة الورع ــ وكان قد نظم في الوقت نفسه دعوة حارة لنشر الإسلام في جميع الأمصار ــ قد قرت عينه بأن يرى جحافل المؤمنين في المشرق والمغرب قد زادت ملايين في وقت قصير. وحتى لو كان دخولهم نفاقاً في بدايته فإنه يجب أن لا ننسى أن الشريعة الإسلامية كانت من أول الأمر تقضي بالموت على من يرتد عنها، وعلى هذا كان ارتداد من أسلم مستحيلا، وبعد ذلك سيكون معظم الجيل الثاني على الأقل مؤلفاً من مسلمين صادقين، لذلك فإن أغلبية المؤمنين بالله بالنسبة لغيرهم قد زادت في الحقيقة بفضل هذا الأمر الذي أصدره عمر زيادة كبيرة، ولكن أصاب الخزانة من جرائه نقص كبير، ثم جاء أمرٌ ثان لعمر فزاد في هذا النقص زيادة أخلت بالتوازن في مال الدولة إخلالاً كبيراً. على أنه كان من الواضح لعمر نفسه أن العودة إلى تطبيق القانون القديم الذي يحرم امتلاك الأرض على المسلمين لا يمكن أن تكون في صورة مطالبة كل من ملكوا أرضاً في الأمصار خلال أكثر من سبعين سنة خلت بأن ينزلوا عنها، وكان هذا مستحيلا من الناحية العملية لأسباب كثيرة، فتركت هذه التجربة على الأقل بسبب خطورتها التي لا حد لها. ولكن على حين أن كل شراء للأرض قد صار محرماً على المسلمين بعد سنة مائة للهجرة، فإن عمر بن عبد العزيز أراد أن يفرق بين المسلمين وأهل الذمة تمسكا منه بأصول الدين. فألغى الخراج من أراضي المسلمين التي كانوا قد تملكوها مخالفين النهي عن ذلك، وجعلها أرض عشر، فصار ما يؤخذ عنها أقل مما كان يؤخذ خراجا بكثير، فأدى ذلك من جديد بطبيعة الحال إلى نقص كبير في دخل الدولة، وكان أيضاً إجراء غير موفق من الناحية العملية، لأن هذه المحاباة للملاك، إذا قورنوا بمن لم يكن قد ملك أرضاً من قبل ولا يستطيع أن يملك أرضاً من بعد، بدت في صورة ميزة بغيضة. وإذا كان الذين لم يملكوا أرضاً قد عوضوا من طريق التنفيذ لنظام الأعطيات السنوية، فإن ذلك لم يأت شافياً الداء، لأن هذه الأعطيات لم تكن عالية بدرجة كافية، وإن كانت بالنظر إلى الزيادة الكبيرة في عدد الداخلين في الإسلام قد كلفت الدولة مبالغ لا تتصور. وإلى جانب كل هذه الإجراءات التي أضرت ببيت المال أكبر الضرر جاء أمر آخر أصدره عمر، وقد أوحى به إليه إحساس إنساني بالعدالة، ولكنه لم يكن موفقاً من الناحية العملية، وهو يقضي برد جميع الأموال التي ابتزت من الرعايا ظلماً إلى أصحابها، ولا نعرف إن كان هذا قد وقع مقصوراً على أحوال فردية. ولكن أكثر العمال خيانة ما كان يستطيع أن يتمنى فرصة أكثر مواتاه من هذه الفرصة لانتهاب الخزانة من غير أن يناله عقاب». هذا ما يقوله ا. موللر A. Müller في كتابه *Geschichte des Islams im Morgen und Abendlande* = تاريخ الإسلام في =

وفي هذا الشأن يدخل الاعتبار إجراءان يُنسبان إلى عمر الأول: فيروى أنه منع العرب من أن يقتنوا أرضاً في البلاد التي فتحوها، وأنه أمر بأنه عند دخول المغلوبين من غير العرب في الإسلام لا ترفع عنهم إلا بالجزية، أما الخراج فيبقى عليهم لأنه يتعلق بالأرض لا بصاحبها؛ والحقيقة أن عمر لم يفعل هذا ولا ذاك.

وبحسب حكم الله وحكم العدل، كان يجب تقسيم جميع الأرض المفتوحة على العرب المحاربين، لأنها كانت، بحسب قانون الغنائم، ملكاً لهم. ولكنها، لأسباب عملية، بقيت دون تقسيم وصارت إما أرض بيت المال، وإما أرض عامة المسلمين. وكان نصيب بيت المال أو نصيب الخليفة تلك الأراضي التي رحل عنها ملاكها السابقون، أو الأرض التي كانت للملوك والأشراف وأخذت من غير قتال، أو الأرض التي ليست ملكاً لأحد مثل مواضع البريد وبيوت النار. وهذه «الصوافى» كانت كثيرة، خصوصاً في أهم ولاية كان ينظر إليها بالنسبة لبيت المال، أعنى أرض السواد(١) بالعراق. أما ما أخذته جيوش العرب عنوة،

= المشرق والمغرب، الجزء الأول جـ ١ ص ٤٣٩ فما بعدها، نقلا فيه تصرف عن كتاب فون كريمر المسمى تاريخ حضارة المشرق جـ ١ ص ١٧٤ فما بعدها (A. von Kremer, *Culturgeschichte des Orients*).

(١) «طول أرض السواد مائة وستون فرسخاً وعرضها ثمانون، وطول أرض العراق مائة وخمسة وعشرون فرسخاً، وعرضها مثل عرض أرض السواد؛ فيكون طول أرض العراق أقل من طول أرض السواد بـ ٣٥ فرسخاً، يكون ذلك مكسراً عشرة آلاف فرسخ، وطول الفرسخ اثنا عشر ألف ذراع بالذراع المرسلة، ويكون بذراع المساحة، وهي الذراع الهاشمية، تسعة آلاف ذراع، فيكون ذلك إذا ضرب في مثله، وهو تكسير فرسخ في فرسخ، اثنين وعشرين ألف جريب وخمسمائة جريب. فإذا ضرب ذلك في عدد الفراسخ وهي عشرة آلاف فرسخ بلغ مائتي ألف ألف وخمسة وعشرين ألف ألف جريب يسقط منها بالتخمين مواضع التلال والآكام والسباخ والآجام ومداس الطرق والمحاج ومجاري الأنهار وعراض المدن والقرى ومواضع الأرحاء والبريدات والقناطر والشادرونات والبنادر ومطارح القصب وأتانين الآجر وغير ذلك، الثلث، وهو خمسة وسبعون ألف ألف جريب، يصير الباقي من مساحة العراق مائة ألف ألف وخمسين ألف ألف جريب، يراح منها النصف ويكون النصف مزروعا، مع ما في الجميع من النخل والكرم والأشجار، فإذا أضيف إلى ما ذكره قدامة في مساحة العراق ما زاد عليها من بقية السواد، وهو خمسة وثلاثون فرسخاً، كانت الزيادة على تلك المساحة قدر ربعها، فيصير ذلك =

فكان يُعْتَبر ملكاً لعامة المسلمين، وقد تُرِك في يد المغلوبين ووُضع عليه الخراج؛ وكان الواجب أن يُقَسَّم الخراج في كل عام على الملاك الشرعيين للأرض، باعتبار أنه غلَّةٌ لهم. ولكن الدولة وضعت يدها عليه وصارت تدفع للمقاتلة المسلمين أعطيات تحددها على هواها، وبذلك انطمس الفرق بين أرض الخراج وأرض الصوافى، وكان ما يُحْمَل منهما جميعاً من غلةٍ يجرى إلى بيت مال الدولة. وقد تمَّ هذا التطور في فترة الفتوحات الكبرى، وأشرف عليه عمر بن الخطاب وجعله وضعاً قانونياً في آخر الأمر. ولكن عمر بن الخطاب لم يذهب، فيما يتعلق بأرض الخراج، إلى حد منع الملكية الخاصة للأرض، بالمعنى الحقيقي لهذه الملكية، منعاً باتاً؛ أما التحريم لملكية الأرض على العرب في الأمصار تحريماً شاملاً فلم يوجد قط[1]. وقد جرى خلفاء النبي من بعده، دون استثناء أبي بكر وعمر، على ما كان قد جرى عليه النبي نفسه من تصرف حرّ في الصوفي أو ممتلكات الدولة، فكانوا يهبون أجزاء منها لأهل النباهة والفضل، لا على أنها بمثابة عارية تبقى ملكاً للدولة، بل بمثابة هبات تصير ملكاً خاصاً، وهذه هي القطائع. وكان من أثر ذلك أن نال كل من علي وطلحة والزبير ثروة كبيرة[1]. وفوق هذا صار مقاتلة العرب في الأمصار أصحاب أرض بطبيعة الحال، ولم تقتصر ملكيتهم على الدار وما إليها، بل كانت لهم ضياع أيضاً في القرى المحيطة بهم. وكان أول ما اتجه إليه

= مساحة جميع ما يصلح الزرع والغرس من أرض السواد». هذا ما يقوله قدامة كما ذكره الماوردى في الأحكام السلطانية ص ٣٠١ من طبعة إنجر، وقد بين هرمان ڤاجنر Hermann Wagner Göttinger Nachrichten، ١٩٠٢ ص ٢٢٤ فما بعدها أن تقدير المساحة خطأ، وأنه أكثر مما هي عليه [ذكر المؤلف النص غير كامل، والذي نقله ليس مساحة السواد بل مساحة العراق، ولذلك ذكرنا النص أطول مما ذكره من أوله ومن آخره ــ راجع كتاب الأحكام السلطانية ص ٩٩ ــ ٣٠٢. وفي كتاب المسالك والممالك لابن خرداذبه ص ١٤ من طبعة ليدن أن طول السواد ٢٢٥ فرسخاً وعرضه ٨٠ فرسخاً، ويظهر أن ثم خلطاً بين تقدير مساحة أرض العراق وأرض السواد ــ المترجم].

(١) قارن في هذا Juynboll im Indischen Gids، فبراير ١٨٩٩.

(٢) كتاب الخراج ليحيى بن آدم ص ٤٢، ٥٦ فما بعدها و٦١ و٦٧.

تفكيرهم في أثناء خلافة عمر بن الخطاب هو القتال والغنيمة، ولكن تفكيرهم تغيّر في غضون ما جاء بعد ذلك من سنين أكثر هدوءاً. وكان الميل إلى امتلاك الأرض قد ظهر عند العرب منذ العصر الجاهلي؛ ولم يجيء الإسلام، ولا محمد عليه السلام، مانعاً من ذلك، بل جاء على العكس مقوياً له. ولا شك في أن الميل إلى التملك كان أحد العوامل في حروب الفتوحات. والقانون القديم الذي كان يقضي بأن تكون الأرض غير المملوكة ملكاً خاصاً لمن يستصلحها كان موجوداً، لا في جزيرة العرب وحدها، بل في الأمصار أيضاً، وقد استُغِلَّ هناك استغلالاً واسعاً. ولم تقتصر الرغبة في تملك الأرض على أرض الفلاحين المغلوبين التي وُضع عليها الخراج، بل كانت هذه الأرض تنتقل إلى أيدي السادة من العرب في صور شتى، من طريق الشراء أو ما هو شرٌّ منه. أما القول بأن العرب قد منعهم التشريع منذ بادئ الأمر من امتلاك الأرض فلا يوجد عليه دليل قط، ولم يكن هناك ما يدعو عمر بن الخطاب إلى معارضة شيء لا يكاد يكون في عهده قد بدأ، ولم يكن على أي حال قد أدّى بعد إلى نتائج ضارة.

وكذلك لم يكن عمر بن الخطاب هو الذي وضع قاعدة أن الخراج إنما يتعلق بالأرض لا بصاحبها، سواء أكانت ملكاً لمسلم أو لغير مسلم، وأن الدخول في الإسلام لا يعفى الداخل فيه إلا من الجزية، لأن هذه الجزية تتبع الطبقة الاجتماعية، وهي علامة تميز المغلوبين في مقابل المسلمين، وكان كل من الخراج والجزية، في أول الأمر، يعتبر خراجاً على حد سواء، لا فرق بينهما في ذلك، وهو خراج بدفعة الخدم إلى أعضاء الحكومة التيوقراطية، أو أبناء الدولة (إنجيل متى ١٧ ــ ٢٥)[١]، وكان هؤلاء لا يدفعون ضريبة لا عن أشخاصهم ولا عن

---

(١) [تعبير المؤلف عن حقيقة الجزية أو الخراج غير دقيق فيما يتعلق بالإسلام، فالجزية فدية أو ضريبة يدفعها غير المسلم في مقابل تمتعه بحقوق المواطن في الدولة الإسلامية وفي مقابل حمايتها له، وهي لذلك لم تكن تؤخذ إلا من القادر على الحرب ممن شأنه أن يقوم بواجب =

أرض مزارعهم، بل إنما كانوا يدفعون عشر ما تُغِلُّه الأرض، ولم يكونوا يعطونه للناس بل يعطونه لله، وكانت الفكرةُ القائلة بأنه إنما يشين المسلم أن يدفع جزية عن نفسه، فأما إن أُلزم بدفع الخراج عن الأرض التي يملكها فلا يشينه ذلك، فكرة بعيدة عن الأذهان: وفي الاستعمال اللغوي القديم لا توجد تفرقة مّا بين الخراج والجزية؛ فهما يدلان على شيء واحد، هو الإتاوة التي يدفعها غير المسلم. وفي كثير من الأحيان نجد ذكر عبارة «جزية الأرض»، وليس ورود عبارة «خراج الشخص» أقل من ذلك(١)، أما بحسب أي تسمية كان يجب على الأفراد الذين يلزمهم الخراج أن يؤدوا ما عليهم فكان وقْعُه على العرب قليلا، وخاصة عندما يفرض الخراج مبلغاً إجمالياً ذا مقدار ثابت على الجماعة متضامنة فيما بينها. ويظهر أن هذا كان في أول الأمر هو القاعدة العامة، ولم يكن شيئاً شاذاً نادراً.

وإذن فقد كان المبدأ المعمول به في أول الأمر هو أن الإسلام يعفى المسلم من كل إلزام بدفع جزية أو خراج، وأن أرض الخراج تصبح معفاة من خراجها إذا ملكها عربي مسلم(١)، أو إذا دخل مالكها الذي ليس بعربي في الإسلام. ولكن كان من جرّاء ذلك أن وُضعت إتاوة على الأرض المزروعة التي يتخذها

= الدفاع الوطني، ولذلك أيضاً كان يعفى من دفعها القسس والنساء والأطفال والشيوخ الضعفاء؛ أما الخراج فهو ضريبة قضى بفرضها كيان الدولة. فليس دافع الجزية خادماً ولا عبداً كما يفهم من كلام المؤلف، أما النص الذي يشير إليه المؤلف في إنجيل متى فهو يتضمن التفرقة بين الأجنبي غير الحر في دولة وبين المواطن العادي فيها، وهذا غير موجود في الإسلام ــ المترجم].

(١) قارن ما يقوله دى غوى في حواشيه على الطبري وكذلك البلاذرى ص ٦٥ س ٥ ــ ٧ بص ٦٦ س ١٥ وص ٣٥١ س ١ بص ٣٥١ س ٥ وس ١٣. وفي خراسان كان يقال دائماً جزية ولا يقال خراج (الطبري ج ٢ ص ١٣٥٤ و١٣٦٤ فما بعدها و١٥٠٧ فما بعدها)، وفي كتاب الخراج نجد استعمال كلمتي الجزية والخراج دون تمييز بينهما، ونجد في كتاب الخراج أن عبارة جزية الأرض تستعمل استعمالا جارياً تماماً.

(٢) وكذلك كانت الأرض الزراعية عندنا تعفى من الضرائب إذا ملكها أحد الأشراف، لأنه بحكم أنه شريف كان معفى من الضرائب.

السادة من العرب، ثم على دافع الجزية إذا دخل في الإسلام، وفي كلتا الحالين انمحى الفرق بين الطبقات وبين نوع ممتلكاتها، هذا الفرق الذي ينبني عليه النظام المالي على عهد عمر بن الخطاب، ونشأت عن ذلك صعوبات وأوضاع غير سليمة، فإذا خُفِّضت الجزيةُ بمقدار ما ينقص منها بسبب الدخول في الإسلام أضرّ ذلك ببيت المال، وإذا أخذت مبلغاً إجمالياً بالمقدار الذي كانت عليه أولا زاد العبءُ على الجماعة، بعد أن تكون قد صارت بسبب دخول من دخل منها في الإسلام أقل مقدرة على دفع الجزية. وهذا أيضاً لم يكن في مصلحة بيت المال، إذا هجر المسلمون الجدد ـ كما كان يحدث في العادة، وربما في أكثر الأحيان ـ قراهم ومزارعهم، فتركوها دون من يُعنى بها وهاجروا إلى المدن التي كان يقطنها العرب. وكان هذا سبباً في حرمان أرض القرى من قوة اليد العاملة، حتى تعرض بعضها للخراب. ولكن الهجرة إلى المدن لم تكن شيئاً مرغوباً فيه. وحتى بدون هذه الهجرة كان في الكوفة والبصرة ـ ولدينا عن العراق فيما يتعلق بهذا كله أحسن المعلومات، وتكاد تكون هي المعلومات الوحيدة التي بين أيدينا ـ عددٌ كبير من المسلمين الجدد أو الموالى، وكانوا أول أمره أسرى حرب قد أطلقوا، وكان معظمهم من أصل فارسي، وكانوا يكوّنون طبقة وسطى بين السادة من العرب وبين الرعايا من غير العرب، ولم يكونوا يدفعون لا خراجا ولا جزية، ولكنهم لم يكونوا مقيدين في ديوان المقاتلة، وعلى ذلك لم يكونوا يتقاضون أعطيات، مع أنهم كانوا يرافقون سادتهم السابقين في الحرب ويحاربون معهم، وكانوا ملزمين أدبياً بأن يقوموا لسادتهم بكل أنواع الخدمات، فكان موقفهم هذا، لا هم أعلى ولا هم أسفل، لا يرضيهم بطبيعة الحال. وكان من شأن الإسلام أن يدفعهم إلى الطموح، فكانوا يسعون إلى المساواة الكاملة بالعرب المسلمين. وقد أظهرت ثورتهم بقيادة المختار مدى الخطر الذي كان يهدد الدولة العربية من جانبهم. وقد قضى على هذه الثورة بإراقة دماء القائمين بها، ولكن مَلْءَ الفجوة

التي أوجدها السيف في صفوفهم كان سهلا بفضل المسلمين الجدد الذين جاءوا من القرى والرساتيق، هؤلاء المسلمين الذين ربما كانت روحهم أكثر حباً للإسلام من غيرهم، ولكن كانت لهم نفس المصالح التي كانت لطبقة الموالى، وكان هــذا بمثابة فجــوة في النظام الذي وضعه عمر بن الخطاب؛ ذلك أن مدن الجيش والحكومة لم تلبث أن فقدت طابعها العربي المميِّز لها.

ترك هذا النظام الذي وضعه عمر بن الخطاب، وكان نظاماً بدائياً بعض الشيء وقاصراً على الخطوط الرئيسية، المجالَ لتطور كان يهدد بالقضاء عليه، ولكنه تطورٌ لم يحسب عمر حسابه من قبل. وفي عهد عمر نفسه بدأت تتجلى بعض نواحي القصور هذه؛ ففي عهده كانت رغبة العرب في التملك متجهة في العادة إلى شيء غير اقتناء الأراضي والضياع. ولم يكن الذين يلزمهم دفع الجزية من غير العرب قد بدأوا يدخلون في الإسلام على نطاق أضر ببيت المال، وكان بيت المال، إلى جانب ذلك، يفيض بما كان يحمل إليه من غنائم لا تنقطع، ولم يكن عليه أن يواجه نفقاتِ المطالب الكبيرة التي جَدَّتْ فيما بعد. أما في الجيل الثاني، خصوصاً في عهد الأمويين، فقد تغيرت الأحوال. ويُرْوَى أن الحجاج كان أول من قرر تغيير النظام الموروث لكي يقاوم النقص الذي لحق ببيت المال، فلم يُعْفِ العرب الذين تملكوا أرضاً من أرض الخراج من أن يدفعوا ما عليها منه، وفرض الخراج من جديد على قوم كان حتى ذلك الحين موضوعاً عنهم. ولا بد أنه عامل المسلمين الجدد الذي بقوا في قراهم واحتفظوا بأراضيهم من حيث ما يجب عليهم من خراج بمثل ما عامل به العرب، ولكنه حرم عليهم الهجرة إلى حواضر الإسلام والسيادة العربية، وكان في بعض الأحيان يعيدهم إلى قراهم بالقوة. وكانت إجراءاته جديدة لا تتفق وما كان يعتبر حتى ذلك الحين عند الجميع على أنه الحق، وقد أثارت صيحاتٍ إجماعية من كل من أصابه صنيع الحجاج من العرب ومن الموالى، زاعمين أن ذلك ضربة في وجه الإسلام؛ ولكن الحجاج لم يرجع عما صنع.

وكان عمر بن عبد العزيز بحكم ورعه مضطراً أن يسلك طريقاً آخر، وهو لم يكن من حيث مقصده يختلف عن الحجاج اختلافاً كبيراً، ولكنه حاول أن يصل إليه من طريق لا يتعارض مع الشعور الإسلامي بالحق والعدل، فحافظ من هذا الوجه على المبدأ القديم الذي يقضي بأن المسلم ليس عليه أن يدفع جزية ولا خراجاً، سواء أكان عربياً أم كان مولى، وسواء أكان من الطبقة العليا أو الطبقة الدنيا. ولكي يتفادى النقص فيما يدخل إلى بيت المال فإنه، بعد مشاورة علماء المدينة من غير شك، استنبط من السُّنّة السابقة أن أرض الخراج يجب أن تكون ملكاً للمسلمين جميعاً أولاً، ثم هي بعد ذلك لأهل القرى الذين تركها لهم المسلمون مقابل خراجها، بحيث لا يصح أن تقتطع أجزاء منها وتعتبر بسبب انتقالها إلى أيدي المسلمين ملكة خاصاً معفى من الخراج؛ وتبعاً لذلك أعلن عمر بن عبد العزيز أن بيع أرض الخراج على العرب والمسلمين غير جائز اعتباراً من سنة مائة للهجرة. ولكنه لم يجعل لهذا المنع أثراً رجعياً، أما إذا دخل المالك الملزم بدفع الجزية في الإسلام فالظاهر أن عمر قرر رجوع ممتلكاته إلى أهل القرية التي هو منها، وكان المالك يستطيع بعد ذلك أن يبقى فيها مُتَقَبّلا لها ــ وليست القَبَالة خراجاً ــ ولكنه كان يستطيع أن يرحل إلى العواصم، ولا شك أنه كان في العادة يرحل، (وهذا ما لم يرد الحجاج أن يسمح به). أما هل كان يصبح بسبب هجرته إلى العواصم، صاحب حق في العطاء؟ فهذه مسألة ليس من السهل أن يُجاب عنها إجابة سريعة.

وعلى حين أن الاعتراف بحصانة المسلمين من دفع ضريبة الرعايا لم يجعل هناك محلاً إلا للنظام المأثور الذي لم يكن قد اقتُلِعَتْ أصوله بل عاد من جديد، كان تحريم انتقال ملكية أرض الخراج إجراءً تشريعياً جديداً له أعمق الأثر ولكنه كان يستند على كل حال إلى الفكرة الأصلية فيما يتعلق بأرض الخراج، وكان نتيجة للمبدأ الذي عُمِل به في أيام الفتح، وهو أن الأرض لم تعتبر غنيمة.

بل بقيت دون تقسيم؛ ولكن هذه النتيجة العملية لم تكن في أيام الفتح نفسها قد استُنْبِطَتْ بعد.

ولم يستطع عمر بن عبد العزيز أن ينفذ سياسته. ونظراً للطريقة التي حاول بها ما أراد فإن الإضرار ببيت المال صار شيئاً لا يمكن تفاديه. ولم يمكن العمل بمبدأ عدم انتقال ملكية أرض الخراج، ولم يمكن إيقاف انتقال الممتلكات، كما لم يمكن إيقاف تغيير الدين. ثم عاد الحال، فيما بعد، إلى العمل بما كان قد جرى عليه الحجاج، لكن مع تعديل كانت له من الناحية الموضوعية أهمية قليلة، وإن كان له من الناحية الشكلية شأن كبير؛ ذلك أنه ظهرت تفرقة بين الخراج والجزية لم تكن موجودة من قبل، فاعتبرت الجزية متعلقة بالشخص، فلا تقع إلا على غير المسلمين، وكانت تسقط عن رؤوسهم إذا دخلوا في الإسلام؛ أما الخراج فصار يعتبر متعلقاً بالأرض المزروعة، كما اعتُبر أنه لا يشين الشخص، ويجوز، بل يجب، أن يدفعه المسلمون أيضاً إذا كانوا يملكون أرض خراج. ولما كانت الأرض المنزرعة هي أهم ما يُدْفَع عنه الخراج فإن إسقاط الجزية عن الداخلين في الإسلام لم يكن في الحقيقة من جانب بيت المال تضحية كبيرة[1]. وهكذا أمكن أن يَفِيَ بيت المال بحاجة الدولة الإسلامية من غير مشقة، وكان الأمر أمر تدقيق فقهي، أمر تخريج هدت إليه الضرورة القاهرة: لأننا لو نظرنا بمنظار العقل السليم لوجدنا أن الذي يؤدي الخراج في الحقيقة ليس هو الأرض بل مالك الأرض.

ونسمع عن إصلاح للخراج قام به آخر أمير للأمويين على خراسان، وهو نصر بن سيّار، فوضع نصر نظاماً يقضي بجعل الخراج مقداراً ثابتاً لا يتغير يُفْرَض على مختلف مناطق أرض الخراج، بحيث لا يعدو خراج الأرض. ومن أجل هذا كان

---

(١) لم يطالَب المسلمين الجدد، أعنى الموالى في الكوفة والبصرة، بدفع الجزية قط؛ وهم إنما كانوا يشعرون بأنهم دون غيرهم، لأنهم لم يكونوا يقيدون في ديوان المقاتلة ولم تكن لهم أعطيات، وكانت مطامحهم في هذا الباب متجهة إلى مساواتهم بالمسلمين من العرب في الحقوق.

لا بد أن يساهم ملاك الأراضي جميعهم بنسبة ما يملكون، مسلمين كانوا أو غير مسلمين، وعرباً كانوا أو فرساً. ولكن فُصِلَتْ الجزية عن الخراج وأصبحت مقصورةً على المجوس واليهود والنصارى، ولا يدفعها العرب المسلمون ولا الداخلون في الإسلام. أما نقص ما يدخل إلى بيت المال بسبب ازدياد عدد من يدخلون في الإسلام وتسقط عنهم الجزية فقد حُسب حسابُه مقدماً؛ ولم يُرَ هناك بأس من أن تكون ضريبة الخراج وحدها هي الدخل الضروري الثابت لبيت المال(١). وكان هذا النظام جديداً وغير معروف من قبل، وهو قد انتشر بعد قليل من الزمان أو كثير إلى سائر أنحاء الدولة الإسلامية، لأنه كان يوفق توفيقاً بارعاً بين المصلحة المالية وبين مبدأ إعفاء مواطني الدولة التيوقراطية من دفع الإتاوة. ولا شك أن الفقهاء قد قاموا في ذلك بمهمة التوليد والتخريج من النصوص، وكان ذلك في الحقيقة نتيجة لعمل استنباطي معقد من جانبهم غايته التوفيق بين مطالب متضاربة. غير أنهم فيما بعد نظروا إليه على أنه الحق الذي لا شك فيه واعتبروه موجوداً من أول الأمر؛ ولكن لو أنه كان في الحقيقة موجوداً من أول الأمر لما قامت صعوبات قط.

٢ ــ ومن عادة فقهاء الإسلام دائماً أنهم، إذا تقررت قاعدة ما شيئاً فشيئاً تحت تأثير الحاجات أو النزعات المتجددة حيناً بعد حين، أرجعوها إلى البدايات الأولى وجعلوا لها صبغة مقدسة بردّهم إياها إلى سنة النبي وسنة الخلفاء الأولين(٢).

---

(١) يجد القارئ هذا الكلام أكثر تفصيلا في الجزء الخاص بخراسان من الفصل الثامن، ويستطيع أن يرجع إليه.

(٢) [لا شك أن فيما يقوله المؤلف هنا وفيما سبق كثيراً من المبالغة، لأن القواعد التي كانت جديدة في صورتها أو تفاصيلها لم تكن كذلك في أصولها ومصادرها الشرعية. وطبيعي أن يكون هناك فرق بين الصورة القانونية الفقهية للأحكام وبين صورتها في النصوص الأولى أو في السنة الأولى المأثورة عن النبي أو بين الصور القانونية الفرعية وبين القواعد العامة التي تتضمنها النصوص من القرآن والسنّة؛ وهذا معروف في كل العلوم الإسلامية مما لا يجعل صنيع الفقهاء عملا متكلفاً أو ادعاء من غير استناد إلى نص قرآني أو سنة نبوية أو إلى ما يؤخذ منهما من طريق القياس ــ المترجم].

ولذلك فإنه يردُّون الصورة التي لم يصل إليها نظامُ الإدارة والخـــراج إلا بعد تردد طويل إلى عمر بن الخطاب، مع أن عمر لم يخطُ في ذلك إلا الخطوات الأولى الأساسية. فإذا أراد الإنسان أن يحكم على ما فعله الحجاج وعمر بن عبد العزيز حكماً صحيحاً فإن من الواجب عليه أن يأخذ حذره من غلوّ الفقهاء في إيمانهم بأن كل شيء كان موجوداً في التاريخ السابق. والأجدر به أن يتمسك أول ما يتمسك بما يذكره المؤرخون على الحقيقة وبما يذكره أقدمهم بطبيعة الحال، لأنهم كانوا أكثر احتراماً للوقائع، ولأنهم اعتمدوا في بعض ما قالوا على وثائق ولم يذكروا القواعد العامة التي وضعها الحكام بقدر ما ذكروا القرارات المتفرقة، وهذه لا يصح أن يتسرع الإنسان فيعتبرها قواعد عامة من غير تفكير فيها، وهو يستطيع بعد ذلك أن يزن ما يجده عند الفقهاء من مادة تاريخية تصلح للإثبات بهذا الميزان، ففي هذه المادة كثير مما لا يدخل في بضاعة الفقهاء ولا يتمشى مع منازعهم. وإن آرائي عن هذه المسألة الصعبة المختلف فيها إنما اتضحت لي شيئاً فشيئاً ودون تكلف؛ والمادة التي كانت أساساً لآرائي لم أجمعها في أيام معرفتي بها، وها أنا ذا أجمع منها ما تصل إليه يدى، وفي ذلك مجال لإضافة هذا أو ذاك مما لم أذكره في هذا الموجز الذي قدمته.

فنعرف من البلاذرى (ص ٣٦٨) أن الحجاج رد على الخراج أرضين كانت عشرية معفاة من الخراج بسبب إسلام أهلها أو بسبب انتقالها إلى أيدي قوم من العرب. وفي النص الذي ذكرناه في ص ٢٣٥ ــ ٢٣٦ مما تقدم، نقلا عن ابن عبد ربه، أن الحجاج أخرج الموالى من حواضر الأمصار وأعادهم إلى قراهم وبلدانهم وقال للموالى: «أنتم علوج وعجم! وقراكم أولى بكم»، ففرقهم وفضّ جمعهم كيف أحبّ وصيّرهم كيف شاء ونقش على يد كل رجل منهم اسم البلدة التي وجَّهه إليها، وكان الذي تولى ذلك رجلاً من بني سعد بن عجل بن لجيم يقال له خراش بن جابر، قال الشاعر:

وأنتَ مــن نَقَشَ العجــليُّ راحتَه   وفَــرّ شَــيْخُك حتى عــادَ بالحكم[١]

قال شاعر آخر:

جارية لم تــدر ما سَوْقُ الإبل[٢]   أخرجها الحجــاج من كنّ وظل

لو كان عمرو شــاهداً وابن جبل   ما نقشت كفّــاك من غير جدل

ولما عُين نوح بن درّاج، أحد الموالى، قاضياً على البصرة فيما بعد، قال فيه أحد الشعراء:

إن القيــامة، فيما أحسب، اقتربت   إذ كان قاضيكمُ نــوح بن درّاج

لو كان حيّــاً له الحجاج ما بقيت   صحيحةَ كفُّه من نقش حجاج[٣]

وتشهد بهذا أيضاً الروايات الموجودة في كتاب الطبري (جـ ٢ ص ١١٢٢ و١٤٣٥ وفي كتاب أنساب الأشراف ص ٣٣٦). فيُذْكَر أنه لما كتب عمالُ الخراج إلى الحجاج أن الخراج قد انكسر وأن أهل الذمة قد أسلموا ولحقوا بالأمصار، كتب إلى البصرة وغيرها أن من كان له أصلٌ في قرية فليخرج إليها. فخرج الناس فعسكروا وجعلوا يبكون ويقولون: وامحمداه! وجعلوا لا يدرون أين يذهبون. فجعل قراء البصرة يخرجون إليهم متقنّعين فيبكون معهم. وقدم ابن الأشعث على بغتة، فاستنصر القراء أهل البصرة في قتال الحجاج مع ابن الأشعث[٤].

ونجد عند البلاذرى (ص ٣٦٨) أن عمر بن عبد العزيز أبطل ما فرضه

---

(١) كان الحكم بن أيوب الثقفي خليفة الحجاج في البصرة.

(٢) يعنى أنها لم ترتحل قط.

(٣) وكذلك كان حسن البصري الذي تولى القضاء أيام عمر بن عبد العزيز أحد الموالى.

(٤) [يبين النص كما ذكره صاحب كتاب أنساب الأشراف وبينه كما حكاه البلاذرى فرق في بعض الكلمات. ولا شك أن فيه خطأ أو نقصاً، وقد اخترنا هذه القراءة، وليرجع القارئ إلى الأصول العربية ـــ المترجم].

الحجاج على المسلمين من دفع الخراج. ولم يكن ذلك في ميسان وحدها بل في سائر ما عداها. وفي كتاب لعمر بن عبد العزيز كتبه إلى أمير الكوفة وذكره الطبري (ج ٢ ص ١٣٦٦ فما بعدها) قرر عمر القاعدة الأساسية، وهي ألاّ خراج على من أسلم من أهل الأرض. ويقول تيوفانيس (في أخبار حوادث سنة ٦٢١٠ من تاريخ الخليقة) أن عمر أعفى النصارى الذين اعتنقوا الإسلام من الخراج.

أما ما اتخذه عمر بن عبد العزيز من إجراء حرم به بيعَ أرض الخراج للمسلمين بعد سنة مائة للهجرة، فيشهد به نص في كتاب ابن عساكر عن تاريخ دمشق، ذكره باللغة العربية الفريد فون كريمر Alfred von Kremer في كتابه لمحات من تاريخ الحضارة في بلاد الإسلام = (*Kulturgeschichtliche Streif züge auf dem Gebiete des Islams*) ص ٦٠ والصفحات التالية وترجم بعضه في كتابه عن تاريخ حضارة المشرق في عهد الخلفاء بعنوان *Kulturgeschichte des Orients unter den Chalifen*, I, p. 76ss. وهذا النص متعلق بالشام، وهو أيضاً مهم، لأنه يبين أن الأصول التي عُمِل بها في الشام شبيهة بالأصول التي عمل بها في العراق. ومعلوماتنا عن العراق خير من معلوماتنا عن غيرها.

يروى ابن عساكر «أن عمر وأصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم أجمع رأيُهم على ما كان بأيديهم[١] من أرضيهم يعمرونها ويؤدون عنها خراجها إلى المسلمين؛ فمن أسلم منهم رُفِع عن رأسه الخراج[٢]، وصار ما كان في يده

---

(١) [لا يدل النص على ما يعود إليه الضمير في: «بأيديهم»، والظاهر أن المقصود، كما يلي، المغلوبون الذين استسلموا ولم يسلموا ــ المترجم].

(٢) يلاحظ أن كلمة الخراج هنا تستعمل في الدلالة على ما تدل عليه كلمة الجزية.

من الأرض ودارُه بين أصحابه من أهل قريته يؤدون عنها ما كان يؤدي من خراجها، ويسلمون له ماله ورقيقه وحيوانه، وفرضوا له في ديوان المسلمين[١]، وصار من المسلمين له ما لهم وعليه ما عليهم؛ ولا يرون أنه وإن أسلم أولى بما كان في يديه من أرضه من أصحابه من أهل قريته[٢]، لانقلابها صافية للمسلمين. وسموا من ثبت منهم على دينه ذمة للمسلمين، ويرون أنه لا يصح[٣] لأحد من المسلمين شراء ما في أيديهم من الأرضين كرهاً، لما احْتَجُّوا به على المسلمين من إمساكهم كان عن قتالهم وتركهم مظاهرة عدوهم من الروم عليهم. فهاب لذلك أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم وولاة الأمر غشمهم[٤] وأخذ ما كان في أيديهم من تلك الأرضين، وكرهوا للمسلمين أيضاً شراءها طوعاً لما كان من ظهور المسلمين على البلاد وعلى من كان يقاتلهم عنها، ولتركهم كان البعثة إلى المسلمين وولاة الأمر في طلب الأمان قبل ظهورهم عليهم، قالوا: وكرهوا شراءها منهم طوعاً لما كان من إبقاء عمر وأصحابه الأرضين محبوسة على آخر هذه الأمة من المسلمين المجاهدين، لاتُبَاع ولا تورث، قوةً على جهاد من لم يظهروا عليه بعد من المشركين ولِمَا ألزموه أنفسهم من إقامة فريضة الجهاد قولَه عزّ وجل: ﴿وقاتِلُوهم حتى لا تكونَ فتنةٌ ويكونَ الدينُ كلُّه لله﴾ إلى تمام الآية. فقلتُ لغير واحد من مشايخنا ممن كان يقول هذه المقالة: فمن أين جاءت هذه القطائع التي بين ظهراني القرى الراهنة[١] والمزارعُ التي بيد غير واحد من الناس؟ فقال:

---

(١) كان طبيعياً أن يهاجر من يدخل في الإسلام إلى المدن التي أسست للجيوش العربية ولم يبق على الديانة القديمة إلا الوثنيون.

(٢) في الأصل قرابته وهو خطأ.

(٣) [في الأصل: يصلح، والأغلب أنه خطأ ــ ويشير ڤلهاوزن إلى خطأ وقع فيه فون كريمر في ترجمته للأصل العربي مما لا محل لذكره هنا ــ المترجم].

(٤) في الأصل: قسمهم، وهو خطأ.

(٥) في الأصل: الراحنة، وهو خطأ.

إن بدْءَ هذه القطائع أن ناساً من بطارقة الروم، إذ كانت ظاهرة على الشام، كانت هذه القرى التي منها هذه القطائع، كانت من الأرضين التي كانت بأيدي أنباط القرى. فلما هزم الله الروم هربت تلك البطارقة عما كان في أيديها من تلك المزارع، فلحقت بأرض الروم، ومن قتل منها في تلك المعارك التي كانت بين المسلمين والروم، فصارت تلك المزارع والقرى صافية للمسلمين موقوفة يُقَبِّلَها وإلى المسلمين كما يقبّل الرجلُ مزرعتَه... قالوا: فلم تزل تلك المزارع موقوفة مقبَّلة تدخل قَبَالَتُها بيت المال فتخرج نفقة مع ما يخرج من الخراج، حتى كتب معاوية في إمرته على الشام إلى عثمان أن الذي أجراه عليه من الرزق في عمله ليس يقوم بمؤن من يقدم عليه من وفود الأجناد ورسل أمرائهم ومن يقدم عليه من رسل الروم ووفودها، ووصف في كتابه هذه المزارع الصافية وسَمّاها له، يسأله أن يُقْطِعَه إياها ليقوى بها على ما وَصَف له، وأنها ليست من قرى أهل الذمة ولا الخراج، فكتب إليه عثمان بذلك كتاباً. قالوا: فلم تزل بيد معاوية حتى قُتِل عثمان وأفضى إلى معاوية الأمر، فأقَرَّها على حالها، ثم جعلها من بعده حبساً على فقراء أهل بيته والمسلمين. قالوا: ثم إن أناساً من قريش وأشراف العرب سألوا معاوية أن يقطعهم من بقايا تلك المزارع التي لم يكن عثمان أقطعه إياها، ففعل، فمضت لهم أموالاً يبيعون ويمهرون ويورثون. فلما أفضى الأمر إلى عبد الملك بن مروان، وقد بقيت من تلك المزارع بقايا لم يكن معاوية أقطع منها أحداً شيئاً، سأله أشراف الناس القطائع منها، ففعل. قالوا إن عبد الملك سُئل القطائع، وقد مضت تلك المزارع لأهلها فلم يبق منها شيء، فنظر عبد الملك إلى أرض من أرض الخراج قد باد أهلها ولم يتركوا عقباً [فـ] أقطعهم منها ورفع ما كان عليها من خراجها عن أهل الخراج ولم يحمله أحداً من أهل القرى وجعلها عشراً ورآه جائزاً له، مثل إخراجه من بيت المال الجوائز للخاصة. قالوا: فلم يزل يفعل ذلك حتى لم يجد من تلك الأرض شيئاً، فسأل الناس عبد الملك والوليد

وسليمان قطائع من أرض القرى التي بيد أهل الذمة، فأبوا ذلك عليهم، ثم سألوهم أن يأذنوا لهم في شراء الأرضين من أهل الذمة، فأذنوا لهم على إدخال أثمانها بيت المال وتقوية أهل الخراج به على خراج سنتهم مع ما ضعفوا عن أدائه، وأوقفوا ذلك في الدواوين ووضعوا خراج تلك الأرضين عمن باعها منهم وعن أهل قراهم وصيّروها لمن اشتراها، يؤدي العشر، يبيعون ويمهرون ويورثون. قالوا: فلما ولى عمر بن عبد العزيز أعرض عن تلك القطائع التي أقطعها عثمان معاوية رضى الله عنهما ومعاوية وعبد الملك والوليد وسليمان، فلم يردّها عمر على ما كانت عليه صافية ولم يجعلها خراجاً، وأمضاها لأهلها تؤدي العشر. قال: وأعرض عمر عن تلك الأشربة بالإذن لأهلها فيها لاختلاط الأمور فيها لما وقع فيها من المواريث ومهور النساء وقضاء الديون، فلم يقدر على تخليصه ولا معرفة ذلك. قال: وأعرض عن الأشربة التي اشتراها المسلمون بغير إذن ولاة الأمر، لما وقع في ذلك من المواريث واختلاط الأمر، وجعل الأشربة وغير الأشربة سواء وأمضاه لأهله ولمن كان في يده، كالقطائع للأرض، عشر ليس عليها ولا على من صارت إليه بميراث أو شراء جزية. قالوا: وكتب بذلك كتاباً قرئ على الناس في سنة مائة، وأعلمهم أنها لا جزية. قالوا: وكتب بذلك كتاباً قرئ على الناس في سنة مائة، وأعلمهم أنها لا جزية[١] عليها وأنها أرض عشر، وكتب أن من اشترى شيئاً بعد سنة مائة فإن بيعه مردود، وسمّى سنة مائة المدّةَ، فسماها المسلمون بعده المدة. فأمضى ذلك في بقية ولايته، ثم أمضاه يزيد وهشام ابنا عبد الملك. قالوا: فتناهى الناس عن شرائها بعد سنة مائة بسُنَيّات، ثم اشتروا أشربة كثيرة كانت بأيدي أهلها يؤدون العشر عليها ولا جزية عليها. فلما أفضى الأمر إلى أبي جعفر عبد الله بن محمد أمير المؤمنين رُفِعَتْ إليه تلك الأشربةُ، وأنها تؤدي العشر ولا جزية عليها، وأن ذلك أضرّ بالخراج وكسره، فأراد ردّها إلى أهلها، [فـ] ـقيل له: وقعت في المواريث والمهور واختلط أمرها [فـ] ـبعث المعدّلين إلى كور الشام سنة أربعين

---

(١) يلاحظ استعمال كلمة الجزية هنا في معنى كلمة الخراج.

أو واحد وأربعين [ومائة]، منهم عبد الله بن يزيد إلى حمص، وإسماعيل بن عياش إلى بعلبك، في أشباه لهم، فعدّلوا تلك الأشربة على من هي بيده، شراءً أو ميراثاً أو مهراً، وعدّلوا ما بقى بأيدي الأنباط من بقية الأرض على تعديل مسمى، ولم تعدل الغوطة في تلك السنة، وكان من بيده شيء من تلك الأشربة من تلك الغــوطة يؤدي العشر، حتى بعث أمير المؤمنين عبد الله بن محمد هضاب بن طوق ومحرز بن زريق؛ فعدلوا الأشربة، وأمرهم أن لا يضعوا على شيء من القطائع القديمة ولا الأشربة خراجاً وأن يمضوها لأهلها عشرية ويضعوا الخراج على ما بقى منها بأيدي الأنباط وعلى الأشربة المحدثة من بعد سنة مائة إلى السنة التي عدّل فيها. قال: وأ ابن عايذ أن الوليد بن مسلم حدثني سليمان بن عتبة أن أمير المؤمنين عبد الله بن محمد سأله في مقدمة الشام سنة ثلاث أو أربع وخمسين ومائة عن سبب الأرضين التي بأيدي أبناء الصحابة ويذكرون أنها قطائع لآبائهم قديمة؛ فقلت: يا أمير المؤمنين! إن الله تبارك وتعالى لما أظهرا المسلمين على بلاد الشام وصالحوا أهل دمشق وأهل حمص، كرهوا أن يدخلوها دون أن يتم ظهورُهم وإثخانهم في عدو الله، [و] عسكروا في مرج بردى ما بين المزّة وبين مرج شعبان جنبتى بردى، وكانت مروجاً مباحة فيما بين أهل دمشق وقراها، ليست لأحد منهم، فأقاموا بها حتى أوطأ الله المشركين ذُلاًّ وقَهْراً؛ فأحيا كل قوم محلتهم وهيأوا فيها بناء، فرُفِعَ ذلك إلى عمر بن الخطاب فأمضاه لهم، فبنوا الدور ونصبوا الشجر، ثم أمضاه عثمان ومَن بعده إلى ولاية أمير المؤمنين. فقال: قد أمضيناه لأهله».

وابن عساكر أحدُ مؤلفى القرن السادس للهجرة، وهو قد كتب في ظل الرأي الذي كان، في أيامه، قد مضى عليه زمان طويل على أنه الرأي السائد، وهو أن عمر بن الخطاب والصحابة ــ وكانوا بعد وفاة النبي المنظّمين الذين يعتدّ برأيهم في الحكم في الأحوال التي تجددت بسبب الفتح ــ هم الذين

وضعوا في كل المسائل الميزانَ الحق لما يحدث بعدهم، وأن هبة أرض الصوافي وبيع أرض الخراج عملٌ فاسد يخالف الحق، وأنه لم يحدث إلا منذ عصر الفساد الذي جاء مع خلافة عثمان وبنى أمية. ولكن ليس هناك ما يبرر للإنسان أن يشك في أن ابن عساكر استقى ما ذكره من مراجع قديمة، ما دام ما يذكره غير متأثر بالرأي السائد الذي تكلمنا عنه. والأشياء التي يذكرها هي أشياء إيجابية لا يمكن أن تكون مخترعة. ونستطيع أن نصدق أن عمر بن عبد العزيز بدأ بمقاومة ما قد وقع في عهد من تقدمه من الخلفاء من تمزيق صوافي الدولة وانتقاص الممتلكات الشائعة للمسلمين، وذلك بأن منع بيع أرض الخراج. أما أن يكون عمر قد حافظ على جملة أرض الصوافي ولم يهب شيئاً منها لأحد فإن ابن عساكر لا يذكر ذلك، ولكن يمكننا أن نفترضه مطمئنين(٢).

وإذا كان عمر بن عبد العزيز قد عارض في تجريد الدولة من أرض الخراج من طريق بيع أهلها لها، فإنه لا يمكن أن يكون قد رضى بأن تفقدها الدولة من طريق دخول أهلها في الإسلام. ويظهر أنه اتخذ إجراءات من شأنها أن تجعل

---

(١) وما يذكره ابن عساكر عن زوال وانتهاء أرض الصوافي تكمله رواية تستلفت النظر نجدها عند البلاذرى ص ٢٧٢ فما بعدها وعند يحيى بن آدم ص ٤٥. ويقول يحيى بن آدم: إن عمر بن الخطاب رضى الله عنه أصفى السواد عشرة أصناف «أصفى أرض من قتل في الحرب ومن هرب من المسلمين، وكل أرض لكسرى وكل أرض كانت لأحد من أهله وكل مغيض وكل دير بريد... وكان خراج ذلك سبعة آلاف ألف (درهم). فلما كانت موقعة (دير) الجماجم أحرق الناس الديوان، فأخذ كل قوم ما يليهم». [ويذكر البلاذرى أن عمر أصفى عشر أرضين من السواد ... ... الآجام ومغايض الماء وأرض كسرى وكل دير بريد وأرض من قتل في المعركة وأرض من هرب ... ... ولم يزل ثابتاً حتى أحرق الديوان أيام الحجاج بن يوسف فأخذ كل قوم ما يليهم ــ ولا تذكر الأصناف العشرة لا عند يحيى بن آدم ولا عند البلاذرى، وذلك بسبب سهو الرواة ــ المترجم]. ولم يكن الخطر يهدد أرض الصوافى بسبب أن الخلفاء كانوا يهبون لمن يشاؤون أجزء منها، بل كان في الناس جميعاً غضب على الممتلكات الواسعة اللدولة والخلفاء وكبار الناس، وكانوا يحاولون أن يقضوا على الأساس التاريخي الذي يقوم عليه هذا الحق الذي لم يرضوا عنه في تملك الأرض، أو هم كانو يحاولون أن يطمسوه.

تطبيق المبدأ الذي يقضي بإسقاط الجزية عمن يدخل في الإسلام غير ضار ببيت المال، وأن تجعل لهذا المبدأ شأنا معنويا أكثر منه مادياً[١]: فعند يحيى بن آدم (ص ٤٤) أن عمر بن عبد العزيز رفض تحويل الخراج على قوم دخلوا في الإسلام إلى عُشْرٍ، وأنه فوق ذلك أعلن أن من بقى منهم على جدوله[١] يدفع ما كان يدفعه من قبل، وأن من يهاجر إلى المدن تُرَدُّ أرضُه إلى أهل القرية. على أن إلزام من بقى على جدوله من الداخلين في الإسلام بالاستمرار في أداء الخراج لا يتفق مع ما هو معروف لنا من جهات أخرى؛ ولكن التناقض يختفي إذا عرفنا أن هذا الأداء لم يكن يعتبر خراجاً، بل كان يعتبر بمثابة قَبَالَةٍ[٤] ولا شك في صدق ما يقوله الخليفة في الموضع الذي أشرنا إليه من قبل، من أنه يرى أن أرض الخراج وما يخرج منها للدولة من غلة إنما هو فَيْءُ الله على المسلمين[٩]

(١) من العسير وجود أدلة على ما يقال من أن ملايين دخلت في الإسلام، في عهد عمر بن عبد العزيز، على أثر إسقاط الجزية.

(٢) إن أرض الخراج في العراق هي الأرض التي ترويها الجداول، وكانت أرض العشر لا توجد إلى خارج ما يرويه النهر.

(٣) جاء في كتاب الخراج ليحيى بن آدم (ص ٤٣) أن دهقاناً من أهل عين التمر أسلم، فقال له علي عليه السلام: «أما جزية رأسك فنرفعها، وأما أرضك فللمسلمين؛ فإن شئت فرضنا لك، وإن شئت جعلناك قهرماناً لنا، فما أخرج الله عز وجل أتيتنا به». [وفي كتاب الخراج أيضاً ما يلي: أسلم دهقان من أهل السواد في عهد علي عليه السلام، فقال له علي: «إن أقمت في أرضك رفعت الجزية عن رأسك وأخذنا منك أرضك، وإن تحولت عنها فنحن أحق بها». والمقصود من أن يكون هذا الدهقان قهرماناً هو أن يكون متولياً للأرض بالنيابة عن الخليفة، يزرعها ويعطيه ما يخرج منها، وهذا هو المقصود أيضاً من عبارة «تقبيل» الأرض، أي أن مالكها الحقيقي يقبلها لمن يشاء، أي يضمنها إياه بحسب الاصطلاح الحديث على مقدار يقدمه لصاحبها، وهو المسمى القبالة ـ المترجم].

(٤) [تابعنا المؤلف في كلامه بقدر الإمكان، وفي كتاب ليحيى بن آدم (ص ٤٤) أن أناساً من أهل السواد طلبوا رفع الجزية عن أرضين في أيديهم ووضع الصدقة عليها، ومعنى هذا تحويلها من أرض خراجية إلى أرض عشرية. وسأل الوالي عمر بن عبد العزيز في ذلك فكتب إليه: إني لا أعلم شيئاً هو أنفع لنائبة المسلمين ومادتهم من هذه الأرض التي جعلها الله فيئاً لهم، فانظر من كان منهم له بها أرض أو مسكن فاجر على كل جدول منها ما كان يجري قبل ذلك، ومن لم يكن له بها أرض أو مسكن فارددها إلى أهلها ـ المترجم].

وأيضاً إذا كان عمر بن عبد العزيز لم يستطع أن يجعل لما قرره من عدم إنقاص ملك الدولة أثراً رجعياً، فإنه أراد أن يحتفظ للمستقبل بجملة أرض الفيء كما هي. وهو وإن لم يَمسّ حق الإعفاء من الجزية والخراج بالنسبة للمسلمين ــ قدماء كانوا أو محدثين ــ فإنه لم يرد الإضرار بالحق التاريخي القديم من طريق تغييرات جاءت بعده، ولا انتقال المزارع إلى ملكية الأفراد، لأن هذه المزارع في الحقيقة ملك لجملة المسلمين، لا يصح خروجها عن ذلك.

أما فيما يتعلق بالولايات التي كانت قد مضى على فتحها ما يقرب من قرن، وكان نظام الخراج فيها، طبقاً لقانون الفتح ولقانون الغنائم الإسلامي في صورة معدلة بعض التعديل، قد وُضِع وضعاً نهائياً، فقد حافظ عمر بن عبد العزيز في الجملة على الوضع المستند إلى هذا الأساس التاريخي ودرأ عنه ما يهدده من مؤثرات. أما في البلاد التي لم يغزُها المسلمون إلا في عهده، أو على الأقل البلاد التي لم يكن قد تمّ إخضاعُها إخضاعاً حقيقياً، مثل بلاد ما وراء النهر والهند وإفريقية والأندلس، فقد فعل عمر غير ذلك. ويجب فيما يتعلق بصنيعه هنا أن ننظر إليه على حدته ولا يصح أن مخلطه بغيره، فهو يقوم على اعتبارات خاصة به. فالإسلام يقضي على المسلمين ألا يبدأوا بقتال قوم وثنيين إلا بعد أن يدعوهم إلى الدخول في الإسلام وطاعة الله؛ فإن أسلموا دخلوا في الدولة التيوقراطية، لهم ما للمسلمين وعليهم ما عليهم، ولا خراج عليهم. هذا ما قضى به الإسلام، لكن المسلمين لم يعملوا به تماماً، بل هم أرادوا من الجهاد أن يأتي لهم بالأموال والغنائم، وصار هذا هو غرضهم من الجهاد، ولم يكن الغرض نشر الدين. أما عمر بن عبد العزيز فإنه كره الجهاد وأراد، على العكس من ذلك، أن تدخل الأمم في الإسلام دخولاً سلمياً؛ وفي هذه الحالة كان لا يطالبهم بخراج. أما الكلام عن إسقاط الفيء فلم يكن موجوداً لأنه لم يكن هناك فيء.

فيحكى البلاذرى (ص ٤٤١) أن عمر بن عبد العزيز كتب إلى ملوك

السند يدعوهم إلى الإسلام والطاعة على أن يُملّكَهم ويكون لهم ما للمسلمين وعليهم ما عليهم. وكانت قد بَلَغَتْهم سيرتُه ومذهبُه، فأسلم هؤلاء الملوك وتسموا بأسماء العرب. ويحكى البلاذرى أيضاً (ص ٤٢٦) أن عمر بن عبد العزيز كتب إلى ملوك ما وراء النهر يدعوهم إلى الإسلام، فأسلم بعضهم، ورفع عمر الخراج عمن أسلم بخراسان وفرض لمن أسلم(١). وجاء عند الطبري (جـ ٢ ص ١٣٥٣ ــ ١٣٥٤) أن رجلاً من الموالى يكنى بأبي الصيداء، وكان فاضلاً في دينه، ذهب مع رجليْن من العرب في وفد إلى عمر بن عبد العزيز، فتكلم العربيان، ولم يتكلم هو، فسأله عمر إن كان من الوفد، فلما أجاب بنعم، طلب منه عمر أن يتكلم، فشكا من أن عشرين ألفاً من الموالى يغزون في خراسان مع العرب بلا عطاء ولا رزق ومن أن مثلهم قد أسلموا من أهل الذمة يؤخذون بالخراج، كما شكا من أن أمير خراسان رجلٌ عصبيٌّ جاف، يقوم على المنبر فيقول لأهل خراسان: «أتيتكم حَفِيًّا، وأنا اليوم عَصَبِيٌّ؛ والله لرجلٌ من قومي أحبُّ إليَّ من مائةٍ من غيرهم!» ثم قال هذا المولى عن الوالي إنه سيفٌ من سيوف الحجاج، قد عمل بالظلم والعدوان. فأُعجب عمرُ بكلامه وقال: «إذن مِثْلَك فليوفد». ثم كتب عمر لأمير خراسان. وكان الجراح بن عبد الله الحكمي، انظر من صلتي قِبَلَك إلى القبلة فضَعْ عنه الجزية. فسارع الناسُ إلى الإسلام، فقيل للجراح: إن الناس قد سارعوا إلى الإسلام نفوراً من الجزية فامْتَحِنْهم بالختان! فكتب بذلك إلى عمر؛ فكتب إليه عمر «إن الله بعث محمداً صلى الله عليه وسلم داعياً ولم يبعثْه خاتناً» وحكى البلاذري (ص ٤٢٢) والطبري (جـ ٢ ص ١٣٦٤ فما بعدها) أنه لما تولى الخلافة عُمر بن عبد العزيز وظهر عدلُه، وفَدَ عليه قومٌ من أهل سمرقند طمعاً في عدله، ورفعوا إليه أن قُتَيبَة بن مسلم ظلمهم وأخذ

---

(١) [في كلام المؤلف أن عمر رفع الخراج عن أهل ما وراء النهر وفرض لهم أعطيات، ولكنا تابعنا النص الذي اعتمد عليه وجئنا بالكلام أكثر تفصيلا ــ المترجم].

أرضهم ودخل مدينتهم وأسكنها المسلمين على غدر. فكتب عمر إلى عامله يأمره أن ينصب إليه قاضياً ينظر فيما ذكروا، فإن قضى بإخراج المسلمين أخرجوا ليعود الحال على ما كان قبل عهد قتيبة. فحكم القاضي بإخراج المسلمين من عرب سمرقند على أن يُنَابِذُوا أهل سمرقند على سواء، فيكون صلحٌ جديد أو ظفرٌ وعنوةٌ. فكره أهل مدينة سمرقند الحرب وأقروا المسلمين، فأقاموا بين أظهرهم(١).

وكذلك كتب عمر كتباً يدعو البربر إلى الإسلام، فقرأها عليهم وإليه إسماعيل بن عبد الله، فغلب الإسلام على المغرب. وعلى أثر ذلك حطّ عنهم الجزية، وكانوا يؤدون الجزية بأن يقدموا أبناءهم عِوَضاً عن المال، وقد أمر عمر بأن من كانت عنده بنتٌ من البنات اللاتي قُدِّمْن في الجزية بأن يخطبها إلى أبيها فيتزوجها منه، أو أن يردَّها إلى أهلها (البلاذرى ص ٢٢٥ و ٢٣١).

وثم إجراء آخر غريب جداً في بابه، حكى صاحب كتاب Cont Isid Hisp & 186 أن السمح بن مالك اتخذه في الأندلس، وهو وإن لم يكن من صنع عمر نفسه فهو من غير شك يتمشى مع سياسة عمر وكان بتكليف منه، وهو إجراء يتعلق بالأرض، يقول الكتاب المتقدم:

Zama ulteriorem vel (= et) citeriorem Iberiam proprio stilo ad vectigalia inferenda describit. Predia et manualia vel quidquit illud est, quod olim predaviliter indivisum retentabat in Spania gens omnis arabica, sorte sociis dividendo partem ex omni re mobili et immobili fisco adsociat.(2)

---

(١) [فصلنا ما ذكر المؤلف طبقاً للنص الذي اعتمد عليه، لأنا لو اقتصرنا على الترجمة لأصبح الكلام مبتوراً والمعنى ناقصاً. والمؤلف يقول إن عمر أبى أن يعطى مدينة سمرقند لأهل السند، وإن كان قد عرف أن العرب أخذوها منهم غدراً، وأنه لم يصلح ما كان قد وقع منذ سنين. وحقيقة الأمر هي كما ذكرناه نقلا عن النصوص — المترجم].

(٢) قد غيرت ترقيم Memmsen، وأصلحت كلمة preda، فجعلتها: predia طبقاً =

وإذن فعلى حين أن جزءاً من الأرض المفتوحة تُرك في يد أهله السابقين في مقابل تأدية الخراج، فإن جزءاً آخر كان حتى ذلك الحين قد احتُفِظَ به ثم وُزِّع على الجند بعد أخذ الخمس منه. ولا نعرف شيئاً عن نوع هذا الجزء الذي كان محجوزاً، وربما أنه كان يتكون من نظائر تلك الأرضين التي اعتبرت صوافى للدولة في العراق والشام[١]. وكانت يد عمر بن عبد العزيز فيما يتعلق بالأندلس لا تزال مطلقة بعض الشيء، ولا شك أنه كان يقصد من هذا الإجراء الذي اتخذه أن يوثق صلة المحاربين العرب ببلاد الأندلس من طريق تمليكهم أرضاً فيها. ويقال إنه فيما صنع اعتزى إلى عمر بن الخطاب قائلاً: لولا أن عمر أقطع الجند أرضا في الثغور الهندية لما أمكن سدُّها[١]. ولا شك أن عمر بن الخطاب لم يكن له شأن بالهند، وأنه إنما كان يريد بوجه عام أن يجعل الأرض ملكاً للدولة ما وسعه ذلك. ولكن لا بد أن يكون صنيع عمر بن الخطاب دائماً هو المثل السابق، ولو كان في مسيره يتردد ذات اليمين وذات الشمال، على أنه مما يجدر ملاحظته مقدار قلة اتفاق المأثور القديم مع الآراء التي جاءت بعده من أن العرب لم يكن لهم حق في أن يمتلكوا أرضاً في الأمصار على الإطلاق.

وأُضيف أخيراً إلى ما قدمت ذكره هنا بعض الروايات المتعلقة بإجراءات

= لما يلي، وهو أن res mobilis معناها هو manualia وأن res immobilis معناها هو predia.

[أما ترجمة هذا النص اللاتيني فهي: نظم السمح على طريقته الخاصة ايبيريا البعيدة أو (= و) القريبة، وذلك بقصد فرض الخراج. وكان العرب في إسبانيا قد احتفظوا بالضياع والعقار المنقول ونحو مما لم يكن قد قسم من قبل، فقسمه السمح بالقرعة على الأصحاب بعد أن ضم جزءاً من كل شيء ثابت ومنقول إلى بيت المال — المترجم].

(١) قارن الهامش المذكور في ص ٢٨١ مما تقدم، وهو على كل حال لم يكن الخمس. [في النص العربي الذي اعتمد عليه دوزى أن موسى بن نصير بعد فتح الأندلس لم يكن قد أتم تقسيم أرض العنوة على الجيش بعد أخذ خمسها لبيت المال، فيجوز أن ما بقى هو المقصود. أما الإقطاعات التي أقطعها عمر للجند فكانت من الخمس — المترجم].

(٢) Dozy, *Recherches* (1881), 1, 76.

مالية أخرى اتخذها عمر بن عبد العزيز، مبتدئاً بما يمس المسلمين منها.

كانت أرض فدك، قرب المدينة، مما أفاء الله به على رسوله، ثم انتقلت بعد وفاته إلى وليِّ الأمر من المسلمين، فتولاها الخلفاء من بعده واصطفاها الأمويون، فأقطعها معاوية لمروان بن الحكم، ثم آلت آخر الأمر إلى عمر بن عبد العزيز، فردَّها إلى ما كانت عليه أول أمرها وأعطاها لآل النبي [عليه السلام]، وهم العلويون وبذلك ألغى عمر بن عبد العزيز ما كان قد جرى عليه أبو بكر وعمر. ومعنى هذا أنه لم يكن يتبعها اتباعاً تاماً. وكذلك ردّ عمر على إبراهيم بن محمد بن طلحة دارَه التي كانت قد أُخذت منه في مكة (البلاذرى ص ٣٠ ــ ٣٢، والطبري جـ ٢ ص ١٤٨٣ فما بعدها).

وفي اليمن كان محمد بن يوسف أخو الحجاج قد أساء السيرة وظلم الرعية وضرب على أهل اليمن خراجاً جعله وظيفةً عليهم، فلما ولى عمر بن عبد العزيز كتب إلى عامله بإلغاء تلك الوظيفة والاقتصار على العشر (البلاذرى ص ٧٣). وفي عمان كانت عشور التمر والحبّ تقسم في فقراء أهلها ومن سقط إليها من أهل البادية ومن أضافته إليها الحاجة والمسكنة وانقطاع السبيل، فبيع مرةً وحُمِل ثَمَنَهُ إلى بيت مال البصرة، فأمر عمر برد الثمن ليصرف فيما كان قد أمر بصرفه فيه (البلاذرى ص ٧٧ فما بعدها)[١]. ولم يكن المأثور المعمول به في جميع أجزاء جزيرة العرب[٢] على هذا النحو، بل كان يختلف هنا وهناك بحسب اختلاف الظروف التي فيها دخلت القبائل والبلاد في الإسلام أوّلَ الأمر[٣]، وبحسب كونها ظروفاً طيبة أو غير طيبة: فمثلاً نظراً لأهمية ثغر خراسان أمر عمر بن عبد العزيز بإبقاء خراجها فيها لكي تصرف منه الأعطيات؛ وكتب إلى واليه بذلك وبأنه مستعد أن يحمل إليه أموالاً أخرى، إن كانت أموال الخراج

---

(١) [جئنا بالكلام أكثر تفصيلا بحسب الأصل ليكون مفهوماً ــ المترجم].

(٢) [هكذا الأصل لكن المقصود بالبلاد: البلاد التي كانت خاضعة لسلطان الدولة العربية ــ المترجم].

(٣) راجع كتابنا *Skizzen*... 4, 95

لا تكفى (الطبري جـ ٢ ص ١٣٦٦). ولكن لا يصح أن نعتبر ما فعله عمر بالنسبة لخراسان قاعدة عامة سار عليها، لأن ما فعله بخراسان كانت له أسباب خاصة.

أما فيم يتعلق بأعطيات المقاتلة من المسلمين في مدن المعسكرات وفي حاميات الثغور فقد كانت الحكومة تسير في أول الأمر على مشيئتها الخاصة، فكانت تسقط من ديوان المقاتلة من تشاء وتفرض فيه لمن تشاء، وكانت تزيد في الأعطيات أو تنقصها كما تشاء، وكان هذا دائماً سبباً للشكوى. وذلك أن أموال الفيء التي تجري منها الأعطيات إنما هي بحسب قانون للغنائم لورثة جنود الفتح وحدَهم، ولم يسكت لهم صوت قط في المطالبة بأن يُعْطى إليهم كلُّ مال الفيء. ولا يصح أن نصدق أن عمر بن عبد العزيز — وعلياً من قبله، كما يزعم البعض — عارضهم في ذلك، لأن عمر ما كان ليقدم أبداً على اتخاذ مثل هذا الإجراء بدون تفكير (البلاذرى ص ٤٥٨ فما بعدها)، بل ذهب عمر في إرضاء المطالب التي كانت توجه إلى بيت المال إلى حد بعيد، فوسع دائرة أصحاب الأعطيات، حتى صارت أكثر شمولاً لغير العرب مما كانت عليه من قبل، وهو لم يقتصر على إعفاء الموالى الذين كانوا يحاربون مع العرب في خراسان من الخراج، بل جعل لهم أرزاقاً وأعطيات، وكتب لواليه على خراسان يعده بإرسال أموال إن لم تكْفِ في ذلك أموالُ الخراج في خراسان؛ ولكن لم تدع الحاجة إلى ذلك (الطبري جـ ٢ ص ١٣٥٤ و١٣٦٦). على أنه يجب أن نشك كل الشك في صحة ما يُقال من أنه كان يعتبر كل من يعتنق الإسلام ويلحق بالكوفة والبصرة مهاجراً ويجعل له من الحقوق ما لذرارى الفاتحين العرب: ذلك لأن هذا ما لم يكن يمكن تبريره من الناحية الفقهية وكان يكون له من الناحية العملية أسوأ النتائج. وكان عمر بن الخطاب قد فرض لعيال المقاتلة، وأمضى عثمان ومن بعده ذلك، وجعلوا الأعطيات موروثة لذرية الميت؛ وجاء معاوية فضيَّق دائرة

أصحاب الأعطيات من ذرارى المقاتلة، ثم جاء عبد الملك فأوقفها كُلِّيَّةً. فلما جاء عمر بن عبد العزيز أعادها (البلاذرى ص ٤٥٨ فما بعدها والطبري جـ ٢ ص ١٣٦٧). وأمر عمر بن عبد العزيز بإعانة فقراء المسلمين، خصوصاً من كان يريد الحج منهم، كما أعطى الزمنى أعطيات ثابتة؛ ولم يفعل ما فعله الوليد الأول من قصر أعمال البرّ على أهل الشام، بل هو شمل بِبِرِّه العراق وخراسان، لأنه لم يكن يميز بعض الولايات على بعض (الطبري جـ ٢ ص ١٣٣٧ و١٣٦٤ و١٣٦٧ و١٨٥٤).

أما فيما يتعلق بمعاملة عمر بن عبد العزيز لأهل الأديان الأخرى فإن تيوفانيس (في حوادث عام ٦٢١٠ من تاريخ الخليقة) يذكر في ذلك ما يأتى: «ولما حدث في تلك السنة زلزال كبير في الشام[1] حرم عمر النبيذ في المدن وأكره النصارى على الدخول في الإسلام، وكان من فعل ذلك رفع عنه الجزية، أما من لم يفعل فإنه قتلهم. وقد استشهد كثيرون، وأمر بألا تقبل شهادة نصراني على عربي، وكذلك وجه إلى القيصر ليو (Leo) كتاباً بيّن له فيه عقيدة الإسلام أملاً في أن يقنعه بالدخول فيه». وفي الــذي يذكره تيوفانيس خلط بين باطــل وحق: أما الحق فهو أن عمر بن عبد العزيز كان مسلماً متحمساً وأن النصارى أحسوا بذلك، ولكن عمر لم يُكره النصارى على الدخول في الإسلام مهدِّداً إياهم بالقتل[2]، لأنه لو كان فعل ذلك لكان فيه اعتداءٌ على الحق القائم (الذي ضمنه الإسلام للنصارى)؛ وهذا ما لم يكن من عمر، لأنه مسلم حق. وهو فيما يتعلق بالنصارى قد التزم حدود الشرع

---

(١) كان الزلزال في ١٥ جمادى الأولى سنة ٩٩هـ = ٢٤ ديسمبر سنة ٧١٧ م. وفي صفر (سبتمبر سنة ٧١٧ م) تولى عمر الخلافة.

(٢) يزعم ديل (Diehl) في كتابه عن تاريخ إفريقية (*Histoire d'Afrique*)، ١٨٩٦، ص ٥٩١) أن عمر بن عبد العزيز أمر الكاثوليك في إفريقية أن يدخلوا في الإسلام أو يرحلوا عن البلاد، ويستند ديل إلى ما جاء في رسائل Monum Germ. Epsist. 3, 267. ولكن البابا جريجور في هذا الموضع لا يأمر Bonifatius بأكثر من ألا يهتم بأي وجه بالإفريقيين الذين في جميع البلاد يريدون اللحاق بالهيئات الكنسية، لأن معظمهم قد اعتنق مذهب مانى والبعض الآخر قد عُمّد أكثر من مرة

(Afros passim ad ecclesiasticos ordines praetendentes nulla ratione suscipiat, quia aliqui eorum Manichaei, aliqui rebaptizati saepius sunt probati.)

التزاماً تاماً، وإن كان الأمر ربما بدا في أعين النصارى على غير ذلك. وقد حمى عمر للنصارى ملكيتهم لكنائسهم القديمة التي ضمنها لهم الصلح، ولم يكن يمنع إلا بناء كنائس جديدة (الطبري ج ٢ ص ١٣٧١)[١]، وهمّ عمر بن عبد العزيز بأن يرد للنصارى ما أخذه الوليد بن عبد الملك من كنيسة القديس يوحنا بغير حق، لو أنهم في مقابل ذلك تنازلوا عن الكنائس التي كانت خارج باب دمشق، خصوصاً كنيسة القديس توما، لأن النصارى صارت لهم هذه الكنائس في الحقيقة خلافاً لشروط الصلح، بحكم أن ما كان خارج دمشق قد فتح عنوة ولم يعط للنصارى في شروط الصلح. فلما لم يرض النصارى بذلك جعل عمر ما كان قد صار لهم من كنائس عوضاً لهم عما أخذه الوليد من كنيسة القديس يوحنا (البلاذرى ص ١٢٥ ــ ١٢٦ والطبري ج ٢ ص ١٢٧٥)[٢]. وكان

= فهل يكفى هذا دليلا على أن عمر أصدر ذلك الأمر الذي كان من شأنه أن يخالف الشرع الإسلامي مخالفة تامة؟

(١) [كتب عمر بن العزيز في كتاب له لأحد عماله: لا تهدموا كنيسة ولا بيعة ولا بيت نار صولحتم عليه ولا تحدثن كنيسة ولا بيت نار ــ المترجم نقلا عن الطبري ج ٢ ص ١٣٧١ ــ ١٣٧٢].

(٢) [ذكر البلاذرى ص ١٢٥ أن معاوية وعبد الملك من بعده أرادا أخذ كنيسة يوحنا لتوسيع المسجد وبذلا للنصارى مالا عظيما، فلم يقبلوا حتى جاء الوليد، فجمع النصارى وبذل لهم مالا عظيما فأبوا، فهدد الوليد بهدم الكنيسة؛ فقال له بعضهم: من هدم كنيسة جُنَّ وأصابته عاهة؛ فأحفظ ذلك الوليد، ونادى بمعول وبدأ هدمها بيديه ووسع المسجد. ثم شكى النصارى لعمر بن عبد العزيز ما كان الوليد قد فعله بكنيستهم، فكتب يأمر بأن يرد على النصارى ما أخذه الوليد من الكنيسة وزاده في المسجد. فكره أهل دمشق ذلك، وأقبل الفقهاء على النصارى، فسألوهم أن يعطوا جميع كنائس الغوطة التي أخذت عنوة وصارت في أيدي المسلمين، على أن يصفحوا عن كنيسة يوحنا ويمسكوا عن المطالبة بها، فرضوا بذلك وأعجبهم، وأخبر عمر بذلك فسر به وأمضاه. أما الطبري (ج ٢ ص ١٢٧٥) فيقول إن النصارى شكوا لعمر أمر كنيسة يوحنا، فقيل له: إن كل ما كان خارجاً من المدينة افتتح عنوة، فقال عمر: نرد عليكم كنيستكم ونهدم كنيسة توما، فإنها فتحت عنوة ونبنيها مسجداً، فلما قال لهم ذلك، قالوا: بل ندع لكم هذا الذي هدمه الوليد ودعوا لنا كنيسة توما، ففعل عمر ذلك. هذا ما يؤخذ من النصوص التي يعتمد عليها المؤلف، وفيه تفصيل لما يقول وفيه أيضاً إصلاح الفكرة التي أخذها من النصوص ــ المترجم].

القانون الذي طبقه عمر هنا هو، على كل حال، القانون الشرعي الذي لا شك فيه، وكان لا يمكن أن يفعل غير ذلك، إلا إذا تنكر للإسلام. أما الأحـــوال التي كان الأمر فيها أمر المال فقد كان عمر بن عبد العزيز أوسع صدراً، فكان نصارى أيلة وقبرس مثلا قد صولحوا على إتاوة، ولكنها زيدت على مرور الزمان لأسباب مختلفة، فلما جاء عمر بن عبد العزيز حطّ ما زيد على أهل قبرس وأمر بألا يزاد على ما صولح عليه أهل أيلة شيئاً (البلاذرى ص ٥٩ و١٥٤ فما بعدها). وكان النبي صلى الله عليه وسلم قد صالح أهل نجران في اليمن على ألفى حُلّة، ثمن كل حلة أوقية، ووزن الأوقية أربعون درهما، وجعل لهم في مقابل ذلك ذمةَ الله وعهده على أنفسهم وملتهم وأراضيهم وأموالهم. ولكن عمر بن الخطاب أخل بالعهد إخلالاً منكراً، وجد من يصوره في صورة جميلة متنوعة؛ فأكره نصارى نجران هم ومن تبعهم من اليهود على الجلاء عن جزيرة العرب إلى العراق والشام، وذلك بأن اشترى منهم أرضهم أو أبدلهم غيرها في مواطنهم الجديدة، واستمر سوادهم في النجرانية قرب الكوفة، ولكنهم أُلزِموا على أن يستمروا على دفع المقدار القديم الذي كانوا قد صولحوا عليه. وكان رئيسهم في النجرانية هو المسئول عن ذلك، وكان يأخذ ما صولحوا عليه من النجرانيين الذين ارتحلوا إلى الشام أيضاً. فلما جاء عثمان بن عفان حطّ عنهم مائتي حلة، ثم حطّ عنهم معاوية مائة أخرى، لأن عددهم كان قد تناقص بمن مات أو دخل في الإسلام. فلما جاء الحجاج زاد عليهم مائتي حلة، لأنه، كما يروى، اتهمهم فيمن اتهم بموالاة ابن الأشعث. فلما جاء عمر بن عبد العزيز شكوا إليه فناءهم ونقصانهم وضعفهم وإلحاح الأعراب عليهم بالغارة وتحميلهم إياهم المؤن المجحفة بهم وظلم الحجاج إياهم، فأمر عمر بإحصائهم، فتبين أنهم على العشر من عدتهم، إذ وجد أنهم أربعة آلاف نفس بعد أن كانوا أربعين ألفاً، فأراد أن يخفف عنهم، ورأى أن ما صولحوا عليه من مال ليس صلحاً على أراضيهم التي أخذت منهم غصباً (أو هي على الأقل خرجت عن

أيديهم)، بل هو يجب أن يعتبر جزية على رؤوسهم مع إسقاط جزية من مات أو أسلم؛ ونظراً لأن عددهم قد نقص إلى العشر فإن عمر أنقص تبعاً لذلك ما كانوا قد صولحوا عليه إلى العشر، فألزمهم مائتي حلة بدلا من ألفين، أو بعبارة أخرى ثمانية آلاف درهم بدلا من ثمانين ألفاً. وربما كان عمر بن عبد العزيز قد أراد من وجه ما أن يصلح ظلم عمر بن الخطاب[١] (البلاذرى ص ٧٦ فما بعدها).

وأمر عمر بن عبد العزيز واليَه على الكوفة عبد الحميد بن عبد الرحمن في الكتاب الذي تقدم ذكره، وهو عند الطبري (جـ ٢ ص ١٣٦٦ فما بعدها)، أن يعدل في معاملة الرعايا غير المسلمين أيضاً، وأن يحسن معاملتهم، وأن يأخذ الخراج في رفق، وألا يحمل خراباً على عامر ولا عامراً على خراب، وألا يأخذ من العامر سوى الخراج، متجنباً الهدايا التي كانت منذ زمان قديم تهدى للولاة في

(١) [يجد القارئ عند البلاذرى قصة هؤلاء النجرانيين: وفد رؤساؤهم على النبي عليه السلام، فدعاهم إلى الإسلام فأبوا، فدعاهم إلى المباهلة فتجنبوها، وصالحوه على شروط منها: إعطاء ألفى حلة كل عام، مع إمكان دفع ما يقابل بعضها سلاحاً أو خيلاً أو عروضاً أخرى ومنها: أن يضيفوا رسل النبي عليه السلام شهراً وأن يعيروه (عارية ترد أو يرد ثمنها) ثلاثين درعا وثلاثين بعيراً وثلاثين فرساً، إن كان باليمن كيد. وفي مقابل ذلك جعل لهم ذمة الله وعهده ألا يُفتنوا عن دينهم ومراتبهم فيه ولا يحشروا ولا يعشروا ولا يطأ أرضهم جيش، وأن تكون لهم أرضهم وأموالهم. واشترط النبي عليهم ألا يأكلوا الربا ولا يتعاملوا به. ثم أجلاهم عمر، وفي رواية أنه فعل ذلك تنفيذاً لأمر الرسول عليه السلام بألا يبقى دينان في أرض العرب. وفي رواية أخرى أن النجرانيين تزايد عددهم واختلفوا فيما بينهم فاختصموا إلى عمر، ويظهر أن بعضهم كان يريد إجلاء البعض، لأنهم طلبوا منه أن يجلبهم، فاغتنم عمر ذلك وأجلاهم، خوفاً منهم على المسلمين وتجنباً لوجود فتن في الجزيرة. وفي رواية ثالثة أنهم خالفوا شروط الصلح، فأكلوا الربا، فأجلاهم عمر. ويجوز أن يكون الذي دفعه إلى ذلك أكثر من سبب، وهو على كل حال اشترى منهم أرضهم وأموالهم، وكتب إلى عماله أن يوسعوا لهم من الأرض، وأن يجعلوا لهم ما يعمرونه ويستصلحونه منها، تعويضاً لهم عن أرضهم التي كانت في اليمن. وعند البلاذرى نص كتاب الصلح بينهم وبين النبي وذكر تفاصيل أخرى. ولا يمكن على كل حال أن يكون عمر قد أجلاهم من غير مبرر لذلك، وإلا فإنه ينقض عهداً للنبي، وهذا ما لا يمكن أن يفعله خليفة ــ المترجم].

البلاد التي كانت فارسية، مثل هدايا النيروز والمهرجان ودراهم النكاح وثمن الصحف وأجور الضرّابين والآيين[١]، ومعنى هذه الكلمة هو العادة، والمقصود بها الضرائب على تنوعها، وهو ما تدل عليه الكلمة الإنجليزية (Custom)[٢]. وهذه الهدايا لم تكن مشروعة، وكان يصعب الإشراف عليها، وفي معظم الأحوال كانت لا تدخل بيت المال، ولذلك كان القضاء عليها عسيراً، وكان الولاة لا يحبون أن يأتي لهم الناس في النيروز وغيره من مناسبات بأيدٍ خالية (الطبري جـ ٢ ص ١٦٣٥ فما بعدها).

وقد دعت عمرَ إلى تحريم بيع أرض الخراج اعتباراتٌ ترجع إلى أحوال بيت المال. فهو قد أراد أن يتفادى نقص الخراج الناشئ من انتقال أرض الخراج إلى أيدي المسلمين وسقوط الخراج عنها لهذا السبب، ولكنه بذلك وضع في نفس الوقت سدّاً أمام الرغبة في اقتناء الضياع، محاولا أن يحمى دافعى الخراج من الملاك من أن تطغى على أرضهم شهوة التملك من جانب السادة العرب الذين كان امتلاك الأرض أكثر فائدة لهم بحكم أنهم لم يكونوا يؤدون عنها خراجاً. ومثل ذلك حدث في شمال غربي ألمانيا، في مقاطعة «براونشفيج ــ لونبرج» (Braunschweig-Lüneberg) مثلا، من معارضة الأمراء لأسباب مالية في انتقال الأرض الزراعية إلى يد الأشراف، لأنها عند ذلك تعفى من الضرائب، ولكنهم في نفس الوقت أنقذوا بذلك طبقة الزراع دون أن يقصدوا إلى إنقاذها. ولا شك في أن عمر بن عبد العزيز لم ينجح نجاح هؤلاء الأمراء، ولكن

(١) [يحسن الرجوع إلى نص الكتاب الذي كتبه عمر بن عبد العزيز إلى عبد الحميد والي الكوفة، وهو مذكور عند الطبري (جـ ٢ ص ١٣٦٦) بنصه الكامل، وهو أوضح وأشمل من كلام المؤلف ــ المترجم].

(٢) إن فكرة الضرائب الجمركية غير معروفة في التشريع الضرائبي الإسلامي، فلا يوجد بحسب هذا التشريع إلا الخراج والعشر. على أن المشرعين الإسلاميين عرفوا كيف يطبقون قاعدة أخذ الخراج والعشر على التاجر الذي يرتحل ببضائعه.

الأحوال في المشرق كانت أيضاً مغايرة للأحوال في ألمانيا؛ فكان في المشرق قليل من الفلاحين بالمعنى المعروف عندنا، هذا إلى أن ملاك الأرض من غير العرب كانوا في الغالب دهاقين أو بعبارة أخرى، سادة يملكون الضياع والقرى وكان الفلاحون تبعاً لهم.

٣ ــ وعلى الرغم من أن أشياء كثيرة لا تزال غامضة فإن ثم شيئاً واحداً واضحاً إلى حد كبير، وهو أن المؤرخ يجلب على نفسه السخرية إذا نظر إلى عمر بن عبد العزيز نظرة استهزاء مقصود؛ وهذا هو ما بدأه دوزى، فأعطى بذلك الإشارة لغيره. من الجائز أن يكون عمر متأثراً بالدين، أعنى في هذه الحالة بعلم الفقه، تأثراً أكثر مما يريد البعض، وأن يكون تدقيقه في محاسبة نفسه قد أدى به في كثير من الأحيان إلى تشكك عاقه في تنفيذ سياسته. فيروى أنه مرة ختم خطبة له بقوله: أقول لكم هذا وما أُحسُّ بأنى خير منكم[١]. فلم يكن عند عمر

---

(١) [لا يذكر المؤلف المصدر الذي اعتمد عليه؛ ولكن ثم خطبة لعمر بن عبد العزيز ذكرها الطبري (ج ٢ ص ١٣٦٨ ــ ١٣٦٩)، وهي تدل على نواح كثيرة من روحه وشخصيته، وفيها جوهر العبارة التي يذكرها له المؤلف، وها هي بنصها الكامل: «أيها الناس! إنكم لم تخلقوا عبثاً، ولن تتركوا سدى، وإن لكم معاداً ينزل الله فيه للحكم فيكم، وقد خاب وخسر من خرج من رحمة الله التي وسعت كل شيء وحرم الجنة التي عرضها السموات والأرض. ألا فاعلموا أنما الأمان غداً لمن حذر الله وخافه، وباع نافداً بباق وقليلا بكثير وخوفا بأمان. ألا ترون أنكم في أسلاب الهالكين، وسيخلفها بعدكم الباقون، حتى ترد إلى خير الوارثين! وفي كل يوم تشيعون غاديا ورائحاً إلى الله، قد قضى نحبه وانقضى أجله، فتغيبونه في صدع الأرض، ثم تدعونه غير موسود ولا ممهد، قد فارق الأحبة وخلع الأسباب، فسكن التراب وواجه الحساب، فهو مرتهن بعمله فقير إلى ما قدم، غنى عما ترك، فاتقوا الله قبل نزول الموت، وأيم الله إنى لأقول لكم هذه المقالة وما أعلم عند أحد منكم من الذنوب أكثر مما عندي، فاستغفر الله وأتوب إليه، وما منكم من أحد تبلغنا عنه حاجة إلا أحببت أن أسد من حاجته ما قدرت عليه، وما من أحد يسعه ما عندنا إلا وددت أنه ساواني ولحمتى الذين يلوننى، حتى يكون عيشنا وعيشه سواء، وأيم الله لو أردت غير هذا من الغضارة والعيش لكان اللسان مني به ذلولا عالماً بأسبابه، ولكنه مضى من الله كتاب ناطق وسنة عادلة يدل فيها على طاعة وينهى عن معصية». ثم رفع طرف ردائه فبكى حتى شهق وأبكى الناس حوله، ثم نزل فكانت إياها لم يخطب بعدها حتى مات. ويظهر أن هذه هي الخطبة التي يقصدها المؤلف، غير أنه لم يقرأها إلى نهايتها ــ المترجم].

ابن عبد العزيز ذلك الشعور الوطيد بأن له سلطاناً شخصياً، هذا الشعور الذي كان لجدّه عمر بن الخطاب، وكان به يُرهب الدنيا. ولكن عمر بن عبد العزيز لم يكن معنياً بنفسه، بل عنى بالخير للناس والبرّ بهم، وقد دفعه ورعه إلى الحكم الصالح وإلى معالجة الأعباء الكبيرة التي كان يقتضيها الحكم الصالح بما هي أهل له.

وليس من الضروري، بطبيعة الحال، أن يكون عمر قادراً على تحقيق كل ما اتجهت إليه نيته الطيبة، فمثلا يذكر بعض من لم ينصف أن الدليل الأكبر على عدم كفاءته السياسية أنه ضيّع الأموال، ولكنا قد عرفنا فيما تقدم حقيقة الأمر في ذلك، فهو إذا كان قد أسقط الجزية عمن دخل في الإسلام من الشعوب والممالك، فإنه إنما أراد بذلك أن يتفادى شن الحروب لمجرد الغنائم، ولم يفرّط في شيء يدخل في بيت مال الدولة: لأن السمك لم يكن قد وقع بعد في الشبكة، أما في الولايات التي كانت قد فُتحت قبل عهده بزمان طويل، وتقررت جزيتها وخراجها طبقاً لقانون الفتح، أعنى أرض السواد وأرض مصر، فإن عمر بن عبد العزيز تمسك بالقانون المأثور الذي كان قد جرى العمل به، وقاوم انتقاص أرض الدولة ودخلها، كما أنه حاول أن يتفادى الضرر الذي من شأنه أن يلحق بأموال الدولة بعد إسقاط الجزية عن جميع المسلمين. ولا شك أيضاً في أنه، إذْ مَنَعَ من قبول الولاة للهدايا والعطايا بما فيها من إساءة استعمال السلطة، إنما نال من العمال وحدهم، وهم الذين كانوا يستولون على تلك الهدايا. وأقصى ما يمكن أن يؤخذ عليه هو أنه كان يكثر من إلقاء الأعباء على بيت المال بسبب أنواع المساعدات والبرّ التي قدمها للجميع أو كان يود لو استطاع تقديمها لهم. أما فيما يتعلق بنفسه فإنه لم يستعمل شيئاً من أموال الدولة ولا جمع منها الكنوز[1] ولا هو

---

(١) [راجع ما تقدم في هامش ص ٢٩٤ حيث يعرب عمر عن عدم رغبته في جمع الأموال. وهنا نجد دليلا على روح البر التي كانت تملأ نفسه، حتى إنه كان يتمنى أن يكون عيش الناس وعيشه سواء، أما فيما يتعلق بأنواع البر فقد قدم المؤلف ذكر بعضها. وفي =

أسرف فيها أيضاً في حملات حربية على القسطنطينية: وكان في ذلك مخالفاً لسلفه كل المخالفة. وكذلك عنى عمر بالحيلولة بين الولاة وبين أن يكون همُّهم الأول من مناصبهم جمع الأموال لأنفسهم؛ والأغلب أن ذلك عوض النفقات التي اقتضتها إصلاحاته ضعفين. أما ما يزعمه البعض (ا. موللر A. Müller 1, 441) من أن أموال الدولة في عهده قد تلاشت، كما يزول الشيء بإشارة سحرية، وأن ما يتحصل من الخراج قد انحطّ دفعة واحدة، فإنى لا أريد هنا أن أتعرض للكلام فيما إذا كان ذلك الزعم أكثر من أن يكون نتيجة خطأ، ولكنه على كل حال زعمٌ لا يمكن أن يكون صحيحاً بوجه من الوجوه، وذلك أن الأحوال المالية كانت سيئة في الأيام المضطربة لعهد عبد الملك والحجاج، أما في عهد عمر بن عبد العزيز فقد عادت إلى حالة الصحة، ومهما كان الأمر فإن الاهتمام بالشئون المالية ليس هو كل ما يعنى الدولة. ومن ذا الذي يكون عنده من الجرأة ما يجعله يستنكر على عمر أنه أسقط عن البربر الجزية، جزية الأبناء ـــ فقد كانوا يقدمون أبناءهم على سبيل الجزية ـــ وأنه خفّف العبءَ على نصارى نجران، وأنه عمل على حماية الرعية من العمال، وأنه حرص على ألاّ تكون إدارةُ الأمصار مجرد وسيلة لاستغلالها استغلالاً مالياً!

أما فون كريمر وأوجست موللّر فرأيهما أن عمر بن عبد العزيز إنما تدخل في الأمور المالية دون أية ضرورة عملية جَرْياً وراء ما صوّره له ورعه من مثل عليا خيالية، فأفسد المجرى الطبيعي للمالية وأخرجها عن الطريق الذي أدّى بها إليه التطور السابق؛ وهما يزعمان أيضاً أنه لم تكن عنده أية فكرة عن الأحوال الواقعية. أما الحقيقة فهي بالأحرى أن المؤرخين الذين ينقدون أعمال عمر هم الذين يتصورون الأحوال الواقعة لذلك العصر تصوراً خاطئاً. فلقد كانت هذه الأحوال مضطربة

= الطبري (جـ ٢ ص ١٣٦٤) زيادة على ذلك أنه أمر بعمل خانات لفقراء من يمر من المسلمين يوما وليلة ولتعهد دوابهم ولقراء من كانت به علة يومين وليلتين وتقوية المنقطع بما يصل به إلى بلاده. وقد كان عدل عمر وإحسانه سبباً في كثرة المطالب والشكاوى ـــ المترجم].

ومحتاجة إلى تنظيم جديد. ولم يكن عمر نفسه هو الذي أحدث الاضطراب في نظام الخراج، بل كان الاضطراب موجوداً من قبل، وما كان يمكن أن يستمر. ولم يكن الواجب الذي أراد عمر الاضطلاع به واجباً خيالياً موهوماً، بل كان واجباً حقيقياً ومُلِحّاً. وكان أول من حاول النهوض بهذا الواجب محاولة جدِّيّة هو الحجاج، غير أنه قام بذلك على نحو أثار عليه بغض الناس. أما عمر فقد حاول تحقيق ذلك الواجب على طريق آخر، مراعياً تلك الحساسية التي يؤيدها الإسلام أو التي تستند إليه على الأقل. وقد كان أمام كل من الحجاج وعمر نفس المشكلة التي تمخّضت عنها الأيام وكان لا بد لها من حلّ، وهي إنما نشأت من أن أرض الخراج أخذت تنتقل شيئاً فشيئاً إلى أيدي مالكين لا يلزمهم أداءُ الخراج.

وبذلك أيضاً يبطل في الجملة ما يؤخذ على عمر بن عبد العزيز من أنه زعزع أركان الدولة الأموية. فالحقُّ أنها كانت تَمِيدُ من قبله، وكانت من أول الأمر مزعزعة. فأما القاعدة التي تمخضت عنها الحكمة الرومانية، وهي أن دولةً لا يمكن أن تعيش إلا بالوسائل التي اعتمدت عليها في قيامها، هذه القاعدة التي يسوقها ا. موللر في أخذه على عمر بن عبد العزيز انحرافَه عن سنّةِ سلفه من خلفاء بني أمية، فهي قاعدة يمكن أيضاً أن تُذْكَر في معرض النقد لخلفاء بني أمية أنفسهم، ذلك أن حكومتهم لم تكن بأي حال من الأحوال سائرةً على سنّة حكومة النبي [عليه السلام] وأصحابه؛ وهي وإن كانت قد أرادت أن تتمسك بالإسلام، وما كان يمكنها أن تتنكر له، فإن الإسلام لم يكن من شأنه أن يؤيِّدها بل أن يقوّضَ الأساس الذي قامت عليه. وكان على بنى أمية دائماً أن يشتغلوا بالقضاء على الثورات التي كانت تقوم لمحاربة سلطانهم باسم الله وباسم الدين. وإلى جانب ذلك كانت تهددهم من جانب أهل العراق عداوةٌ لا تلين، هذه العداوة التي كانت تندلع بين حين وآخر في صورة ثورات هائلة على الاستبداد الشامى البغيض. على أن أكبر خطر كان يهددهم هو تلك الحركة الاجتماعية التي لم تكن

موجهة إليهم وحدهم بل إلى السيادة العربية على إطلاقها. وكان عمر بن الخطاب قد نظم الدولة الإسلامية طبقاً لقانون الفتح، بحيث جعلها دولةً للعرب على المغلوبين وأقامها على أساس من التمييز الديني والقومي على السواء بين طبقتين منفصلتين: طبقة العرب المسلمين وطبقة أهل الديانات الأخرى من غير العرب، أو بعبارة أخرى طبقة الأرستقراطية الحربية من العرب، وطبقة دافعي الجزية والخراج من كافة غير العرب. ولكن عمر بن الخطاب بصنيعه هذا لم يُقِمْ بناء الدولة على أساس ثابت، ذلك أن الحاجز الذي كان يفصل بين السادة العرب والخدام من غير العرب أخذ يتصدع بسبب دخول غير العرب في الإسلام شيئاً فشيئاً، وبسبب غلبتهم في المدن التي أُنْشِئَتْ للجيوش العربية. وكان صبغ المغلوبين بصبغة الإسلام شيئاً فشيئاً، وهو عملية طبيعية لا يمكن إيقافها، سبباً في تعويض النظام الذي وضعه عمر بن الخطاب للخطر، وإن كان ذلك لم يحصل في عهد عمر، بل في عهد بني أمية الذين أخذوا بذلك النظام. وكان الواجبُ، مراعاة للأصول التي تقوم عليها الدولة التيوقراطية على الأقل، أن يكون المركز السياسي للمواطنين فيها تابعاً للدين؛ وأن يكون الإسلام لا القومية، هو الذي يجعل للمواطنين فيها حقوقهم.

وكان الموالى بالباب يتربصون الدوائر، كانوا يتطلعون إلى المساواة التامة بالعرب. وكان الإسلام في جانبهم، فاجتذبتْهم الثورة التي كانت تستند إلى الإسلام. وقد حاول عمر بن عبد العزيز أن يجيب مطالبهم دون ثمن غال، ولعل الاعتبارات التي كانت تحدوه في ذلك قد كانت اعتباراتٍ دينيةً أكثر منها سياسية، ولم يكن من المستطاع كَسْرُ الروح الإسلامية، بل كان لا بد من أن يُحْسَب حسابُها، وكانت خصومة الإسلام للدولة الأموية تهددها بالانهيار؛ وعلى هذا فإن خليفةً أموياً يجتهد في أن يتمشى مع أصول الإسلام وفي تجريد حركات المعارضة من سلاحها الإسلامي بأن يزيل أسباب الشكوى التي كان لها

ما يبررها ويستجيب إلى ما يمكن الاستجابة إليه من مطالب، إن خليفةً يعمل لذلك لا يكون قد أتى شيئاً يضرّ بمصلحة أسرته الحاكمة. وربما كان هذا هو البرنامج الذي وضعه عمر بن عبد العزيز، فهو قد حاول أن يجد في الإسلام أساساً مشتركاً بين الجميع، يمكن أن تلتقى عنده الحكومة والقوى المتحفّزة الطامحة المعادية لها. وهو، تمشّياً مع هذه الغاية، سار على سياسة التفاهم والتصالح. ولم يكن عمله في ذلك مقصوراً على الموالى وحدهم، فقد حاول أيضاً أن يزيل أسباب التذمر في الأمصار، وخصوصاً حاول أن يزيل ما كان في نفوس أهل العراق من شعور بأنهم تحت حكم رياسة شامية أجنبية عنهم، وكان بِرُّه يتسع للجميع على سواء، بل كان يظن أنه يستطيع إرضاء الخوارج بمناظرته إيّاهم في آرائهم[١]، وهو قد نجح على الأقل في أن جعلهم يغمدون سيوفهم ما امتدت حياتُه. ولم يكن يعاقب المجرمين السياسيين، على حين أنه كان شديداً على غيرهم من المجرمين، وقد أثبت برَّه بالعلويين، وردّ إليهم ما كان قد أُخذ منهم من ممتلكات. وفعل مثل ذلك مع ورثة طلحة، وترك لعن علي بن أبي طالب على المنبر، وكتب بذلك إلى الآفاق[٢] أما القول بأنه كان يعترف في أعماق نفسه بصحة دعوى العلويين في الخلافة فلا يمكن أن يؤخذ من ذلك[٣] ولا يصح تصديقه. لقد كان عمر بن

---

(١) [راجع في هذا الطبري مثلا (جـ ٢ ص ١٣٤٨ ـ ١٣٤٩)، حيث طلب عمر من رئيس من رؤساء الخوارج أن يناظره ـ المترجم].

(٢) الأغانى جـ ٢ ص ١٥٣ واليعقوبي جـ ٢ ص ٣٦٦، ويشك ڤايل Weil في صحة هذه المسألة شكا ليس له مبرر، وذلك أنه، حتى بعد عمر، لم يصدر أمر رسمي بلعن علي (الطبري جـ ٣ ص ١٤٨٢ ـ ١٤٨٣).

[أراد سعيد بن عبد الله بن الوليد بن عثمان بن عفان أن يزين لهشام بن عبد الملك، وهو يحج بالناس سنة ١٠٦هـ، لعن علي بن أبي طالب؛ فثقل كلامه على هشام ورد عليه قائلاً: ما قدمنا لشتم أحد ولا للعنه! قدمنا حجاجاً. فلم يقع ما طلبه حفيد عثمان في نفس هشام إلا موقعاً سيئاً ـ المترجم نقلا عن الطبري في الموضع المشار إليه].

(٣) يميل الفصل المعقود لعمر في كتاب الأغانى إلى تصويره شيعياً مستتراً؛ ولكن يستطيع الخوارج، وهم من الشيعة على طرق نقيض، أن يعتبروا عبد العزيز منهم.

عبد العزيز مسلماً من الطراز القديم، وكان الإسلام الأول لا يؤيد في الجملة ما يدعيه الشيعة من أنهم أصحاب الحق في الخلافة. وربما كان من شأن الإسلام أن يرضى عن الأمويين أيضاً ــ رغم أن أصل سيادتهم لم يكن متفقاً مع القانون ــ لو أنهم بعد ذلك لم يخالفوا الإسلام. وقد شهد المنصور العباسي لعمر بن عبد العزيز بأن أعماله مرضية في جملتها؛ ولكنه كان يرى أن عمر كان أموياً، لأنه تمسك بتقديم أهل بيته (الطبري ج ٢ ص ٥٣٤)(١).

وهذا هو حكم صاحب كتاب الصلة لتاريخ ايزيدور (الفصل ٣٨) على عمر بن عبد العزيز:

Hamer in exercitibus nihil satis prosperum nec quicquam adversum peregit, tantae autem benignitatis et patientiae fuit, ut hactenus tantus ei honor lausque referatur, etiam ab externis quantus ulli umquam viventi, regni gubernacula praeroganti, adlatus est.(2)

ومهما يكن من شيء فقد كانت أغراض عمر أغراضاً طيبة، وربما لم تكن

---

(١) [هذا ما يقوله المؤلف بحسب ما فهمه من النص الذي اعتمد عليه، وهو من حيث الفكرة صحيح بعض الشيء، أما ما يؤخذ من النص فهو هذا: وهو أن المهدي جلس للمظالم، فتقدم إليه رجل من آل الزبير يطلب رد ضيعة كانت له عن أبيه واصطفاها بعض ملوك بني أمية، فلما أمر المهدي بالبحث عن حقيقة أمرها في الديوان العتيق اتضح أن أمرها قد عرض على عدة منهم لم يروا ردها إليه ومنهم عمر بن عبد العزيز. فقال المهدي: يا زبيري! هذا عمر بن عبد العزيز، وهو منكم معشر قريش، لم يَرَ رَدَّها. قال: وكل أعمال عمر ترضى؟ قال: وأي أعماله لا ترضى!؟ قال: منها أنه كان يفرض للسقط من بني أمية في خرقة في الشرف من العطاء، ويفرض الشيخ من بني هاشم في ستين. قال للمهدى: أكذلك كان يفعل عمر؟ قيل: نعم. فقال: أردد على الزبيري ضيعته. يتبين من جملة هذه الحكاية حسن ظن المهدي بعمر بن عبد العزيز ورضاه عن أعماله، لكن ما يعاب على عمر من أنه كان يحابى الأمويين إنما جاء من جانب الزبيري في معرض نقده لأعمال عمر التي أراد المهدي أن يعتبرها صواباً كلها. ويدل السياق على أن النقد جاء على لسان الزبيري. ــ المترجم نقلا عن الطبري ج ٣ ص ٥٢٤].

(٢) [وترجمة هذا النص اللاتيني هي: «إن عمر لم يقم فيما يتعلق بتسيير الجيوش لا بما جلب نصراً ولا بما جر نكبة، لكنه كان رجلا له من الرقة والحلم ما استحق له التقدير والثناء حتى من الأباعد، وقد قال من ذلك ما لم ينله حيٌّ يطمح إلى الملك ــ المترجم].

أيضاً بعيدة عن الحكمة. ولا يمكن التكهن بما كان سيحقق من أعمال، لأن خلافته لم تدم إلا نحو عامين ونصف؛ فقد توفى عن تسع وثلاثين عاماً في يوم الجمعة لخمس بقين من رجب سنة ١٠١هـ (٩ فبراير سنة ٧٢٠ م) في الخناصرة، قرب دمشق. ويقول أبو عبيدة إن الأمويين دسّوا إليه من سقاه السمَّ، لأنهم خافوا من أن يستمع إلى الخوارج، فيخلع يزيد بن عبد الملك من ولاية العهد، مخالفاً في ذلك لما عهد به سليمان بن عبد الملك من أن يكون يزيد هو الخليفة بعد عمر بن عبد العزيز[1]. ولكن المؤرخين القدماء الذين يعول عليهم لا يذكرون هذه الرواية وهي لا تنمُّ إلا عن الأسف من أن عمر بن عبد العزيز المصلح قد اختُرِم وفارق الدنيا قبل الأوان، وأن النظام الذي كان سائداً قبله عاد من جديد.

(١) [تختلف الروايات في تاريخ ومكان وفاة عمر بن عبد العزيز، وهي موجودة عند الطبري (جـ ٢ ص ١٣٦١ فما بعدها)، وعند المسعودي في كتاب التنبيه والإشراف مثلا ص ٣١٩ من طبعة ليدن. أما مسألة أن الأمويين دسّوا إليه من سقاه السم فهي موجودة عند الطبري جـ ٢ ص ١٣٤٨ ــ ١٣٤٩. وهي تتلخص في أن بعض الخوارج ثاروا في عهده، فكتب عمر إلى زعيمهم: بلغني أنك خرجتَ غضباً لله ولنبيه، ولست أولى بذلك مني، فهلم أناظرك، فإن كان الحق بأيدينا دخلت فيما دخل فيه الناس، وإن كان في يديك نظرنا في أمرنا. فبعث الزعيم الخارجي رجلين لمناظرة عمر، فكان مما اعترضنا به عليه أنه أقر يزيد بن عبد الملك لكي يلي الخلافة بعده. فقال لهما: صيّره غيري، فقيل له: أفرأيت لو وليت ما لا لغيرك ثم وكلته إلى غير مأمون عليه، أتراك كنت أديت الأمانة إلى من ائتمنك؟ فقال عمر: أنظراني ثلاثاً. وخرج المندوبان الخارجيان من عنده. وخاف بنو مروان أن يخرج ما عندهم وفي أيديهم من الأموال وأن يخلع يزيد، فدسوا إليه من سقاه سما، فلم يلبث عمر إلا ثلاثة أيام حتى مات. فالظاهر أن عمر اقتنع باعتراض هؤلاء الخوارج وأراد التفكير فيما يصنع ــ المترجم].

الفصل السادس

المروانيون المتأخرون

١ ــ كان يزيد بن عبد الملك حفيداً ليزيد بن معاوية من طريق ابنته عاتكة التي تزوجها عبد الملك، وكثيراً ما يُنْسَب إلى أمه النابهة، فيسمى يزيد بن عاتكة[١]. وكان يحس أنه أشرف من بقية بني مروان، وكان يباهى بما يجرى في عروقه من دم سفياني. والحقيقة أن عرقاً من جده لأمه كان ينبض عليه، وإن كان لم يرث من جده رقته وتلطفه مع الناس.

ولم يكد يرتقى عرش الخلافة حتى كانت كائنةٌ صار لها تأثيرها الحاسم في حكومته وفي العصر التالي له. فقد كانت ليزيد بن عبد الملك صلات وثيقة بالحجاج، وهو تزوج ابنة محمد بن يوسف أخي الحجاج نفسه، فأنجبت له في حياة الحجاج ابنه الوليد الذي صار خليفة فيما بعد، وقد أسمت ابنها الأول الذي توفى الحجاج على اسم خاله. ومن جراء ذلك كان يزيد بن عبد الملك يبغض يزيد بن المهلب؛ وكان يزيد هذا والياً على العراق، وقد عذّب آل الحجاج. وكان يزيد بن المهلب من المستظلين بظل سليمان بن عبد الملك، فلما تولى يزيد بن عبد الملك الخلافة لم يتوقع ابن المهلب منه خيراً[٢]. فهرب من السجن الذي كان حبسه فيه عمر بن عبد العزيز إلى أن يقضى الأموال التي كان كتب بها إلى سليمان بن عبد الملك أنها صارت إليه عند

---

(١) كانت لا تزال في ذلك العهد تعلق قيمة كبيرة على ميلاد الرجل من أم كريمة، وكانت أم مسلمة بن عبد الملك جارية غير عربية، ولذلك لم ينظر إليه الترشيح للخلافة رغم أنه كان رجلا كفؤاً وحاذقاً ورغم أنه كانت له في أسرة الأمويين أرفع مكانة.

(٢) [راجع الطبري جـ ٢ ص ١٣٥٩ س ١٥ ــ ١٣٦٠ س ٢، ص ١٣٦٠ س ١١، حيث يعبر ابن المهلب عن خوفه من يزيد بن عبد الملك ــ المترجم].

فتحه جرجان وطبرستان[١]. ويقول الواقدى إن يزيد لم يهرب من السجن إلا بعد وفاة عمر[٢]. أما أبو مخنف، وهو عمدة الرواة الذين اعتمد عليهم الطبري، فيقول إنه هرب بعد أن علم بأن المرض قد ثقل على عمر. وقصد يزيد البصرة، موطن أسرته من المهالبة وموطن قبيلته أزد عمان. وقد مر في طريقه بقبيلة قيس، فأتبعوه؛ ولكن ردهم عنه الهذيل بن زفر. وبعث والي الكوفة جماعة من شرطة الكوفة ووجوه الناس وأهل القوة فيها ليعرضوا له، ولكنه مرَّ غير بعيد منهم، فأشفقوا من الإقدام عليه. ومضى حتى ظهر أمام البصرة في كتيبة كبيرة من أصحابه الذين أقبل فيهم ومن رجال من أهل بيته ومواليه، جمعهم أخوه محمد بن المهلب وخرج بهم لاستقباله. وكان عديّ بن أرطأة الفزارى والي الكوفة قد قبض على من وصلت إليه يده من آل المهلب، وخرج مع قبائل البصرة، فوقفوا أمام المدينة لكي يمنعوا ابن المهلب من دخولها، ولكنه لما أقبل جعل لا يمر بخيل من خيلهم ولا قبيلة من قبائلهم إلا تنحّوا له عن السبيل. واستقبله المغيرة بن عبد الله الثقفى في خيل، فحمل عليه محمد بن المهلب في الخيل، فأفرج له عن الطريق. فدخل ابن المهلب البصرة، وأقبل حتى نزل داره، واختلف إليه الناس. ومن الواضح أن الخليفة الجديد لم تسبق خلافته سمعةٌ طيبة، ويظهر أنه لم يكن من جند الشام لا في البصرة ولا في الكوفة العدد الكافي. ويجوز أن يكون عمر بن عبد العزيز قد أعادهم إلى الشام من قبل.

وقد بدأ يزيد بن المهلب بمفاوضة عدى بن أرطأة أمير البصرة في أن يُفرج عن بني المهلب الذين كان قد حبسهم في القصر بالبصرة، وذلك في مقابل أن

---

(١) زدنا كلمات على الأصل الألماني، أخذناها من التنبيه للمسعودي (ص ٣٢٠ — ٣٢١) زيادة في الإيضاح — المترجم].

(٢) تجد ذلك في الطبري جـ ٢ ص ١٣٦١ س ٢ — ٣. وتجد قصة ابن المهلب وما كان منه عند الطبري جـ ٢ ص ١٣٥٩ — ١٣٦١ وص ١٣٧٩ وص ١٤١٦ — المترجم].

يصالحه على البصرة ويخلّيه وإياها، حتى يأخذ لنفسه ما يجب من يزيد بن عبد الملك؛ فلما لم يقبل عدى جعل ابن المهلب الحكم للسيف. وقد انضمت إليه قبائل اليمن، أعنى الأزد وربيعة، وكانوا متحالفين في البصرة وفي خراسان. وكان ابن المهلب قد استمال الناس بما فرق فيهم من ذهب وفضة. أما قبائل تميم وقيس ــ وكانوا منذ القدم ينافسون قبائل اليمن ــ فإنهم كانوا في جانب الوالي، ونظراً لأن الوالي لم يكن جواداً بالأموال، لأنه لم يكن يستحل أن يمد يده إلى بيت المال[1]، فإن أنصاره من قيس وتميم، بل وبعض جند الشام، تراخوا وتفرقوا عنه عند أول صدام بين الفريقين؛ وفر عديّ منهزماً، فحوصر في القصر. وكان المهالبة محبوسين هناك أيضاً، فلما سمعوا الأصوات تدنو والنشاب تقع في القصر علموا أن أخاهم قد ظهر، وخشوا أن يقتلهم أنصار عدي، فأغلقوا الباب عليهم ووضعوا خلفه الأمتعة واتكوا على الباب. وجاء أعداؤهم وعالجوا الباب فلم يستطيعوا الدخول، حتى أعجلهم أنصار ابن المهلب، فتفرقوا. وبعد أيام قليلة سقط القصر في يد ابن المهلب، وأسر عدي بن أرطأة، وجيء به إلى ابن المهلب، وهو يبتسم، لأنه كان واثقاً من أن الثوار لن يمسوا له شعرة واحدة خوفاً من جند الله (أعنى جند الحكومة) في الشام[2].

---

(١) [جاء في الطبري (جـ ٢ ص ١٣٨٢ ــ ١٣٨٣) أن ابن المهلب كان يقطع لمن يأتيه من الناس قطع الذهب والفضة، وأن عدي بن أرطأة كان لا يعطى إلا درهمين درهمين، ويقول لأصحابه: لا يحل لي أن أعطيكم من بيت المال درهماً إلا بأمر يزيد بن عبد الملك، ولكن تبلغوا بهذا حتى يأتي الأمر في ذلك ــ وللفرزدق أبيات في هذا ــ المترجم].

(٢) [جيء إلى ابن المهلب بعدي بن أرطأة، وهو يبتسم، فقال له ابن المهلب: لم تضحك؟ فوالله لينبغي أن يمنعك من الضحك خصلتان: إحداهما الفرار من القتلة الكريمة، حتى أعطيت بيدك إعطاء المرأة بيدها، والأخرى أني أتيت بك تتل كما يتل العبد الآبق إلى أربابه، وليس معك مني عهد ولا عقد، فما يؤمنك أن أضرب عنقك؟ فقال له عدي: أما أنت فقد قدرت علي، ولكني أعلم أن بقائي بقاؤك، وأن هلاكي مطلوب به من جرته يده؛ إنك قد رأيت جنود الله بالمغرب وعلمت بلاء الله عندهم في كل موطن من مواطن الغدر والنكث، فتدارك فلتتك وزلتك بالتوبة واستقالة العثرة قبل أن يرمي إليك البحر بأمواجه!... المترجم نقلا عن الطبري جـ ٢ ص ١٣٨٥ فما بعدها].

وكان حُمَيْد بن عبد الملك بن المهلّب، لما ثار عمُّه، قد ذهب إلى يزيد بن عبد الملك، فبعث معه بالأمان للمهالبة جميعاً، ولكنه لما أقبل بالأمان، ومعه خالد بن عبد القسرى وعمرو بن يزيد الحكمى، كان يزيد بن المهلب قد انتصر وقتل القتلى وحبس عدي بن أرطأة وجاهر بالدعوة إلى كتاب الله وسنة نبيه صلى الله عليه وسلم وحث الناس على الجهاد. وكان يزعم أن جهادَ أهل الشام أعظمُ ثواباً من جهاد الترك والديلم[١]. فهو قد أراد أن يتخذ من الإسلام قوة يَشْتَدُّ بها أزره. ولكن كان في البصرة رجلٌ تَجَرّأ على أن يرفع صوته معارضاً ليزيد، وذلك هو الحسن البصري، صديق عمر بن عبد العزيز. فقد كان الحسن يُثَبِّط الناس عن الفتنة ويحضّهم على أن يكفوا أيديهم عن قتالٍ على دنيا زائلة وأن يكتفوا بالإقبال على الله وعظيم ثوابه في الآخرة: وقد اتهم الثوارُ الحسنَ بأنه موالٍ لأهل الشام وبأنه الشيخ الضال المرائي؛ فقال فيه مروان بن المهلب مثلاً: «والله لو أن جاراً له نزع من خُصِّ دارهِ قصبةً[٢] لظل يرعف أنفُه، أيُنْكر علينا وعلى أهل مصرنا أن نطلبَ خيرَنا وأن ننكرَ مظلمتنا!». ولكن الحسن لم يكفّ عما كان يفعل، وهو لم يُفْتَنْ عن رأيه كما لم يُفْتَن إرميا النبي في موقف مشابه لموقفه، بل هو مضى في سبيله محاولاً أن يثبّط من استمع إليه عن الاشتراك في الفتنة؛ وقد كان له تأثيرٌ خصوصاً على الموالى في بعض القرى القريبة من البصرة[٣]. على أن الحسن، بفصله بين الدين والسياسة في الدولة التيوقراطية، قد

---

(١) [هذا هو مضمون خطبة ليزيد بن المهلب (الطبري ج ٢ ص ١٣٩١). أما بيعته (الطبري ج ٢ ص ١٣٩٨) فكان يقول لمن يبايعه: «تبايعون على كتاب الله وسنة نبيه صلى الله عليه وسلم، وعلى ألا تطأ الجنود بلادنا ولا بيضتنا ولا تعاد علينا سيرة الفاسق الحجاج؛ فمن بايعنا على ذلك قبلنا منه ومن أبي جاهدناه وجعلنا الله بيننا وبينه». فإذا قالوا: نعم، بايعهم ـ المترجم].

(٢) كانت الدور العادية في البصرة تبنى من القصب.

(٣) [ولذلك يقول عنه مروان بن المهلب: وأيم الله ليكفَّنَّ عن ذكرنا وعن جمعه إلينا سقراط الأبلة وعلوج فرات البصرة، قوم ليسوا من أنفسنا ولا ممن جرت عليه النعمة من أحد منا، أو لأنحين عليه مبرداً خشناً ـ المترجم].

اتخذ موقفاً شاذاً[٢]، ولم يكن أتباعه من ذوى النباهة، وإلا لكان من الصعب أن يسكت عنه ابن المهلب. وقد اتبع عامة المؤمنين في البصرة، وعلى رأسهم القراء، دعوة يزيد، وتبعهم عددٌ كبير من الموالى، وبهذا تضخم عدد أنصاره تضخماً كبيراً. ولكن هذه الجموع الكثيفة لم تكن لها مهارة حربية بقدر ما كان لها من كثرة العدد؛ ثم تبين أن الإسلام حليف صعب القياد.

وغلب ابنُ المهلب على البلاد التابعة للبصرة مثل الأهواز وفارس وكرمان، ولكن لم تنضم إليه خراسان. وهي ولايتُه القديمة التي فيها قومه، وذلك لأن قبائل تميم هناك لم تمكّن الأزد من أن تتحرك. وقد أشار على ابن المهلب أخوه حبيب وغيره أن يخرج من العراق حتى ينزل فارس، فيأخذ بالشعاب والعقاب ويدنو من خراسان ويطاول أعداءه، وفي يده القلاعُ والحصون، ويكون الناس قد انضموا إليه. ولكنه لم يرد أن يترك العراق أمام جند الشام، وكانوا

---

(١) [لا شك أن أهل الدين كانوا دائماً معارضين لأساليب بني أمية ولأساليب عمالهم في الحكم، وكثيراً ما كان عمالهم ينتقضون عليهم، وكأنما كانوا يحسون أن لهم الحق في ذلك (الطبري جـ ٢ ص ١٤٠٠). أما موقف الحسن البصري فهو يحتاج إلى تأمل، فقد كان صديقاً لعمر بن عبد العزيز، وكان عمر يكره المهالبة ويقول إنهم جبابرة. ولعل الحسن أيضاً كان يكره المهالبة للسبب الذي كرههم له عمر من قبل، والدليل على ذلك أنه وصف من اجتمع ليزيد بن المهلب بأنهم عتاة، وأنه كان يرى في يزيد بن المهلب أنه غير صادق فيما يدعو إليه من الكتاب والسنة، وأن الأولى به أن يوضع قيد في رجليه ويرد إلى محبس عمر الذي حبسه فيه. ولكن لم يكن معنى ذلك أن الحسن البصري كان راضياً عن أهل الشام، فقد دفع عن نفسه هذه التهمة دفعاً صريحاً (الطبري جـ ٢ ص ١٣٩١ ـ ١٣٩٣). ولما كان الحسن يعتقد أن ثورة ابن المهلب ليست لله فقد دعا الناس إلى الكف عنها وعن الفتنة. وقد عجب الحسن النضر بن أنس بن مالك كيف غره ما يقول ابن المهلب من دعوة إلى الكتاب والسنة، مع أنه كان بالأمس يضرب أعناق الناس إرضاء لبني مروان. ولا شك أن الحسن كان يمقت المهالبة، وإن كان ليس هناك ما يمنع أن يمقت الفتنة خصوصاً من أجل الباطل، ولولا أن نغمة الزهد والدعوة إلى ترك النزاع على الدنيا والإقبال على الله كانت هي الغالبة في كلامه لكان الإنسان على حق في رفض ما يقوله المؤلف من أن الحسن فصل بين الدين والسياسة. فربما كان العكس هو الصواب، لأن الحسن اشترك فعلا من طريق تثبيطه الناس عن الدخول في فتنة لم يتوفر لها السند الديني الصادق, راجع أيضاً الطبري جـ ٢ ص ١٤٠٠ ـ ١٤٠١ ـ المترجم].

قد تقدموا نحوها بل أراد أن يسبقهم إلى الكوفة بقدر الإمكان. وفي آخر سنة ١٠١هـ (صيف ٧٢٠ م) خرج إلى الكوفة ماراً بواسط، فاستولى عليها، ثم مرَّ بفم النيل، ووقف عند الموضع الذي يصب فيه النيل في الفرات، في مكان كثيراً ما يسمى عقراً قريباً من بابل القديمة(١). وقد حاول والي الكوفة الذي كان معسكراً في النخيلة على الشاطئ الآخر أن يأخذ على ابن المهلب طريق الكوفة، ولكنه لم يستطع أن يمنع الكثيرين من أهل الكوفة من الانحياز إليه، وكان منهم طائفة تحمل أنبه الأسماء العربية، ولم يكونوا من قبائل اليمن وربيعة فحسب، بل من قبائل تميم أيضاً.

ولم يمض غير قليل حتى ظهر على المسرح مسلمة بن عبد الملك، قائد الحملات الحربية في آسيا الصغرى وأرمينية سنين طويلة، فأقبل في عُظْمِ جيش الشام. وقد حدث من يزيد أنه عبر الفرات للقاء مسلمة وعسكر بهدوء على مقربة منه، وذلك أن اثنين من زعماء الفرق التي كان يتألف منها جيشه، وكان لهما تأثير كبير

---

(١) بحسب البيت الموجود في كتاب التنبيه للمسعودي (ص ٣٢٢ س ١) كانت الموقعة بين بابل وعقر، وعلى هذا فإن عقراً المقصودة كانت تقع، شأنها شأن بابل، على الضفة الشرقية للفرات، ولم تكن هي عقر كربلاء التي يجب البحث عنها إلى الغرب من مدينة الهندية. على أن وصف الطريق الذي سلكه مسلمة بحسب رواية الطبري (جـ ٢ ص ١٣٩٥) يثير مشكلة، فهو يقول: «إن مسلمة أقبل يسير على شاطئ الفرات حتى نزل الأنبار، ثم عقد عليها الجسر، فعبر عليه من قِبل قرية يقال لها فارط، ثم أقبل حتى نزل على يزيد بن المهلب في (عقر)». ولما كانت الأنبار على الضفة الشرقية، فلا بد أن يكون مسلمة قد سار أولاً من هناك، من عند بلدة الفارط إلى الغرب، ثم قفل راجعاً إلى الضفة الشرقية، كما فعل قحطبة فيما بعد. أما ما يقال من عبوره النهر مرة أخرى فلا يذكر الرواة عنه شيئاً، ولكن يذكر جسرٌ عبر عليه أهل الشام إلى عقر وأحرقوه وراءهم. ويعتبر نولدكه (Nöldeke) أن عقراً (ἄκρα) هي قصر (castra)؛ وهو محق في ذلك، لأن نهر النيل القديم، أحد روافد الفرات، يصب في الفرات بين بلدة نصر وبين بلدة بابل، ولأن الحصن كان يقع عند مصب النيل بين عقر وبابل. والمعلومات الطبوغرافية الموجودة عند الطبري (جـ ٢ ص ١٣٩٧) غير واضحة، وهي ليست أوضح منها عند ابن سيرابيون (B. Serapion). لكن الطبري يذكر (جـ ٢ ص ١٣٩٧) أن مسلمة قطع الماء ووصل إلى أعدائه.

على جمهور الجيش، وهما السَّمَيْدع الكندي وأبو رؤبة، اعترضا على مهاجمة أهل الشام ليلاً، وقال لابن المهلب: إنا قد دعوناهم إلى كتاب الله وسنة نبيّه صلى الله عليه وسلم، وقد زعموا أنهم قابِلو هذا منا، فليس لنا أن نغدر ولا أن نريدهم بسوء، حتى يردّوا علينا ما زعموا أنهم قابِلوه منا[١]. فاضطر يزيد بن المهلب إلى الخضوع لرأيهم على كره منه، كما خضع عليّ لجنده يوم صفين من قبل؛ ولكنه كان قد فقد البقية الباقية من ثقته بجنوده، وصرح في يأس شديد بما كان يودُّه من أن يكون معه قومه من أزد خراسان بدلاً من تلك الجموع التي لا حصر لها.

وفي يوم الجمعة ١٤ صفر سنة ١٠٢هـ = السبت ٢٤ أغسطس سنة ٧٢٠ م بدأ مسلمةُ الهجوم، بعد أن أحرق الجسر وراءَه. ولم يثبت أهل العراق، وكانت تميم الكوفة أوَّلَ من لاذ بالفرار، وقد شبّه يزيد بن المهلب أنصاره، وقد انهزموا من غير كبير قتال، ببقّ دُخن عليه فطار، أو بغنم عدا في نواحيها الذئب. ولم يندهش يزيد لذلك، وقد أشار عليه أبو رؤبة بأن يرجع إلى واسط، فيتحصن بها حتى تأتيه الأمداد، ولكنه أنف من ذلك وآثر الموت في ميدان القتال، فلقى الموت فيه. وقُتِل معه اثنان من إخوته كما قُتل السميدع الزعيم الورع.

---

(١) إن الآراء التي ذكرها المؤلف لأحد المرجئة هي التي تضمنتها قصيدة الشاعر ثابت قطنة، وقد أوردها المرحوم أحمد أمين في كتابه «ضحى الإسلام»؛ وهي:

يا هندُ فاستمعى لي إن سيرتنا   أن نعبد الله لا نشرك به أحدا

نُزْجى الأمور إذا كانت مشبَّهةً   وصدق القول فيمن جار أو عندا

المسلمون على الإسلام كلهمو   والمشركون استووْا في دينهم قددا

ولا أرى أنّ ذنبا بالغٌ أحدا   م الناس شركا إذا ما وَحدوا الصمدا

لا نسفك الدم إلا أن يراد بنا   سفكُ الدماء طريقا واحدا جددا

من يتق الله في الدنيا فإنَّ له   أجرَ التقيِّ إذا وفَّى الحساب غدا

وما قضى اللهُ من أمرٍ فليس له   ردٌّ وما يقض من شيءٍ يكن رشدا

كل الخوارج مخطٍ في مقالته   ولو تعبَّد فيما قال واجتهدا

أما عليٌّ وعثمانٌ فإنهما   عبدان لم يشركا بالله مذ عبدا

وكان بينهما شغب وقد شهدا   شقَّ العصا وبعين الله ما شهدا

يجزى علياً وعثماناً بسعيهما   ولستُ أدرى بحقٍّ أية وردا

الله يعلم ماذا يحضران به   وكل عبدٍ سيلقى الله منفردا

[المترجم]

وأُسِرَ نحوٌ من ثلاثمائة من جيش ابن المهلب، بعد اقتحام معسكره. وقُتل بعضهم بعد ذلك، وكان منهم طائفة من تميم، كانوا قد انهزموا بالناس أملاً في أن يعرف لهم جند الشام فَضْلَهم في أنهم بانهزامهم بالناس قد سهلوا على جند الشام النصر؛ ولكن أملهم لم يتحققْ، فكانوا أول من ضربت أعناقُهم. ومن جهة كان معاوية بن يزيد بن المهلب في واسط، فلما جاءه الخبر بهزيمة أبيه أخرج اثنين وثلاثين أسيراً كانوا في يده فضرب أعناقهم، وكان منهم عديٌّ بن أرطأة أمير البصرة ورجالٌ آخرون. ولم يُبق معاوية منهم إلا على رجل شيخ من قومه له شرف ومعروف، لم يتهمه ولم يَخَفْ بَغْيَه.

وتفرق سواد الهاربين مع كل ريح، ولكن المُطَارِدين لم يتعقبوا إلا المهالبة الذين نفروا كالوحوش. وقد اجتمعوا أولا في البصرة، وكان معهم بعض أشراف اليمن في الكوفة وبعض سلائل ابن الأشعث ومالك الأشتر. ومن هناك ركبوا السفن ولجؤوا في البحر حتى نزلوا على شاطئ كرمان. وبعث مسلمة بن عبد الملك في طلبهم هناك، فحاولوا الالتجاء إلى قندابيل من شاطئ السند، ولكنهم لم يجدوا هناك سبيلاً إلى الإفلات. فقد لحقهم المطاردون، وخرج المهالبة بأسيافهم، فقاتلوا مطارديهم، حتى قُتِلوا عن آخرهم إلا اثنين نجوا ولحقا بخاقان وزنبيل. وأرسلت رؤوسهم المقطوعة إلى الشام وعُلِّقت في حلب، وأرْسِلَ نساءُ المهالبة وأولادهم إلى مسلمة بن عبد الملك في الحيرة. فأقسم مسلمة أن يبيع ذرية المهالبة، مخالفاً في ذلك كل آداب الإسلام. ولكن الجرّاح بن عبد الله الحكمى، وكان رجلاً من أكفأ عمال الأمويين وأخلصهم، أنقذ ما تقضى به الآداب الإسلامية فعرض على مسلمة أن يشتريهم بمائة ألف ليبرّ بيمين مسلمة. ولكن مسلمة لم يأخذ المال، وخلّى سبيلهم إلا تسعةَ فتيةٍ أحداثٍ بعث بهم إلى يزيد بن

عبد الملك، فضرب أعناقهم. أما أموال المهالبة فقد صودرت بطبيعة الحال[١].

وقد أسندت ولاية العراق في أول الأمر لصاحب النصر في موقعة عقر، وهو مسلمة بن عبد الملك، فعين ولاةً جدداً في الكوفة والبصرة وخراسان، ولكنه لم يلبث أن عزل لأنه لم يرسل إلى دمشق شيئاً من خراج العراق[٢]. وعُيّن مكانه أميراً للأمويين على العراق وعلى ولايات المشرق عُمَرُ بنُ هبيرة الفزارى الذي كان في عهد عمر بن عبد العزيز والياً على أرض الجزيرة. وكان قيسياً من أنقى دم في قيس، وكانت إدارته متمشية مع ذلك[٣]، وقد لقيت قبائل الأزد واليمن بوجه عام، خصوصاً في خراسان، على يديه عنتاً، فأبعِدوا وأهينوا وعُذّب الموالون للمهالبة أو المتهمون بذلك وأخذت أموالُهمْ، ولكن كانت قيس هي التي انتصرت واستطاعت أن تشعر بأنها هي السيدة في المشرق كله، وهي وإن كانت متنازعة فيما بينها، فإنها أخلصت في الاتحاد أمام القبائل الأخرى. ومما له مغزاه في هذا الصدد حكاية يذكرها الطبري (جـ ٢ ص ١٤٥٣ فما بعدها)، وإن كانت حكاية غير جديرة بالثقة. فيحكى الطبري أن عمر بن هبيرة عيّن سعيد بن عمرو الحرشى، وكان من قيس، على خراسان، فكان يستخف بأمر ابن هبيرة ويهزأ به فيقول عنه: قال أبو المثنَّى، فعل أبو المثنّى. فوجّه ابن هبيرة رجلاً من قيس أيضاً، هو معقل بن عروة، إلى هراة إما عاملاً وإما في غير

---

(١) قارن أبيات جرير في تعليق رايسكه (Reiske) على أبي الفداء جـ ١ ص ٢٠٧، وهذه الأبيات غير موجودة في طبعة القاهرة سنة ١٣١٣هـ.

(٢) وكذلك لم يرسل عبد العزيز بن مروان إلى دمشق شيئاً من خراج مصر، ولم يكن ثم ما يدعوه إلى ذلك. ويجوز أن يكون مسلمة قد عين أميراً على العراق على أن تكون له هذه المزية مكافأة له على ما أحرزه من نصر.

(٣) ويقول الفرزدق الشاعر، وإن لم يكن يمنياً بل مضرى النسب، متهكماً بعد أن عين ابن هبيرة الفزارى على العراق:

ولقد علمتُ لئن فــزارةُ أُمرت   أن سوف تطمع في الإمارة أشجع

وكانت فزارة هي رأس غطفان قيس وكانت أشجع هي ذنَبَهم.

ذلك، فقصد هراة دون أن يمر بالحرشي؛ وكتب هذا إلى عامله أن يحمل إليه معقلَ بن عروة، فلما جيء به إليه سأله: ما منعك من إتياني قبل أن تأتي هراة؟ فأجاب أنا عامل لابن هبيرة، ولأني كما ولاّك! فضربه الحرشي مائتين وحلّقه، فغضب ابن هبيرة وازدادت موجدته على الحرشي، فعزله، ثم أسلمه إلى عدوه معقل بن عروة فعذّبه وضيق عليه، وأمره ابن هبيرة يوماً أن يعذبه حتى يموت، فلما أمسى ابن هبيرة جلس إلى سُمَّاره، كما يفعل الأمراء، فقال «من سيد قيس؟» فقيل له: «الأمير»، فقال: «دعوا هذا! سيد قيس الكوثر بن زفر، لو بوّق بليل لوافاه عشرون ألفاً، لا يقولون: لِمَ دعوتَنا، ولا يسألونه[١]، وهذا الحمار الذي في الحبس، قد أمَرْتُ بقتله، فارسها. وأما خيرُ قَيْس لها فعسى أن أكونه؛ إنه لم يعرض إليّ أمرٌ أرى أنى أقدر فيه على منفعة وخير إلا جررته إليهم». فعند ذلك قال له أعرابي من بنى فزارة: «ما أنت كما تقول! لو كنتَ كذلك ما أمرت بقتل فارسها». فلما سمع ابن هبيرة كلامه أرسل إلى معقل بن عروة يأمره بالكَف عما كان أمره به من تعذيب الحرشي حتى يقتله. ثم تغير وجه الصحيفة بعد حين، فاضطر ابن هبيرة إلى الهروب من خالد بن عبد الله القسرى، وأرسل خالد عدوَّه الحرشي في طلبه، فلما لحقه الحرشيُّ، وهو في سفينة يريد أن يقطع الفرات، سأله: أبا المثنى! ما ظنُّك بي؟ فأجاب: ظني بك أنك لا تدفع رجلاً من قومك (قيس) إلى رجل من قريش (قسر)؛ فقال: هو ذاك فالنجاء!

وكان لشبح الحجاج بعد موته من التأثير ما يصعب أن تَقَرَّ به عينُه. وذلك أنه بسبب عداوته في حياته لابن الأشعث وابن المهلب قد زاد في حدة النزاع بين

---

(١) يوصف زفر بن الحارث رئيس قيس في أرض الجزيرة دائماً بأنه رجل نبيل بنوع خاص، وبأنه كان فوق المنافسات السياسية، وقد ورث ابناه: هذيل وكوثر، ما كان له من جاه، وكان لهما احترام كبير عند الخليفة. قارن الطبري ج ٢ ص ١٣٠٠ و١٣٦٠ فما بعدها، والأغاني ج ١٦ ص ٤٢ وديوان القطامى الذي يقوم الآن بارث (Barth) بنشره.

قبائل قيس وقبائل اليمن. وقد أدى إلى ذلك تحيز الخلفاء، أياً كان الجانب الذي مالوا إليه. ثم جاء يزيد بن عبدالملك، فنكأ، لاعتبارات أخرى، ذلك الجرح الذي أحدثه سليمان والذي لم يكن في أيام حكم عمر بن عبد العزيز قد اندمل إلا قليلا. وتأثر يزيد بن عبد الملك بالحجاج، فارتاب بالمهالبة، وكان يكنّ لهم في قلبه بغضاً، وكان تخوفه وارتيابه من مطامحهم في المشرق لهما ما يبررهما، وكانت ثورتهم سبباً في انفجار هذا البغض. ولكن إفناء جميع أفراد ذلك البيت القوى النابه، وهو فَعْلةٌ لم يسمع بمثلها في طول تاريخ الدولة الأموية، كان بمثابة إعلان الحرب على قبائل اليمن. وكانت نتيجة ذلك أن حكومة بني أمية انقلبت حزباً يحكم باسم قيس. وكان الخليفة هو الذي يحمل الوزر في ذلك، وقد عين ابن هبيرة أميراً على العراق وتركه في ميدان إمرته الواسع يفعل ما يشاء ولم يكن من شيء قد بعثه على ذلك إلا مجرد الرغبة في الانتقام، وكان بعيداً عن أن يكون رجلا سياسياً يدرك مدى النتائج السياسية، لأعماله. أما في الشام فإنه لم يحاب قيساً على قضاعة، لأن قضاعة كانت نواة الجيش الذي انتصر في موقعة عقر، وكان الذي قتل يزيد بن المهلب، عندما جاء لقتال مسلمة بن عبد الملك، رجلا، من كلب؛ وكان الكلبيون هم الذين تعقبوا المهالبة الهاربين واستأصلوا شأفتهم.

وقد ابتعد يزيد بن عبد الملك كل البعد عن سياسة التقريب والمصالحة التي جرى عليها عمر بن عبد العزيز قبله مباشرة. ويقول ابن الأثير (جـ ٥ ص ٥٠) إنه «عمد إلى كل ما صنعه عمر بن عبد العزيز مما لم يوافق هواه فردّهُ، ولم يخَف شناعة عاجلة ولا إثماً آجلاً». وهو لم يكد يتولى الخلافة حتى عين ولاةً جدداً على المدينة وإفريقية من غير أن يُقْدِم من فوره على إحداث تغيير منظم وشامل. وأخذ أهلَ السغد الذين دخلوا الإسلام بأداء الجزية، بعد أن كان عمر بن عبد العزيز قد وعدهم بأن يُسقِطَها عنهم. وفعل مثل ذلك مع البربر يزيدُ بن

أبي مسلم[١] عامله على إفريقية، ولكن البربر تآمروا عليه وقتلوه وولوا على أنفسهم الوالي الذي كان عليهم قبله، وهو محمد بن يزيد مولى الأنصار، وكتبوا إلى يزيد بن عبد الملك يبلغونه ذلك رسمياً: إنا لم نخلع أيدينا من الطاعة، ولكن يزيد بن أبي مسلم سامنا ما لا يرضى الله والمسلمون، فقتلناه وأعدنا عاملك قبله. فكتب إليهم يزيد بن عبد الملك: إني لم أرض ما صنع يزيد بن أبي مسلم، وأقر عاملهم السابق على إفريقية[٣]. وكان يزيد لا يمنع ولاته إذا ما تجاوزوا ما أمرهم به، وكان ضعيفاً قليل الاهتمام والاكتراث بأمور الحكم. وإذا كان قد خالف عمر بن عبد العزيز، فإنه لم يفعل ذلك بباعث من السياسة، ولا عن قصد. وهو عندما كان يريد أن يصلح من أمر نفسه أراد أن يتشبه بعمر بن عبد العزيز (الأغانى جـ ١٣ ص ١٥٧)، ولكن طبيعته كانت تختلف كل الاختلاف عن طبيعة عمر ولم تكن الصفة الغالبة عليه تتمثل في الزهد والتحرر من الإثم مما هو معروف عن عمر، بل كانت تغلب عليه خفة الأرستقراطيين[٢]. وهو قد كان نبيلا فارساً وفتى سيداً أكثر منه حاكماً، فترك الولايات لأمرائها ولم يهب وقته لأمور الدولة، بل للهوى والغناء والشراب. ولذلك نجد أهل العبث الذين كان عمر بن عبد العزيز قد أقصاهم يعودون إلى الحظوة والمكانة الشريفة عنده. وهو لم يكن كثير المراعاة لكرامة البيت الذي كان يمثله، بل هو لم يكلف نفسه مؤونة المحافظة على مظهر الخلافة؛ ولقد لعبت مغنيتان، هما: سلامة وحبابة، دوراً كبيراً في بلاطه، وكان

---

(١) [كان يزيد بن أبي مسلم مولى للحجاج، ويظهر أنه أراد أن يسير سيرته في رد من لحق بالمدن من مسلمى الموالى إلى قراهم ورساتيقهم وفي وضع الجزية على رقابهم، كما كانت تؤخذ منهم وهم على كفرهم (راجع الطبري) جـ ٢ ص ١٤٣٥ ـ المترجم].

(٢) الطبري جـ ٢ ص ١٤٣٥. ويقول البلاذرى (ص ٢٣١) إن الذي قتل الوالي هم حرسه من البربر، لأنه أراد أن يسم كل امرئ منهم على يده: حرسى.

(٣) [يصفه المسعودي في التنبيه (ص ٣٢٠) بأنه كان فخوراً متكبراً يحب اللهو، لا يعرف صواباً فيأتيه ولا خطأ فيدعه ـ المترجم].

من يريد بلوغ شيء يلجأ إليهما. ويروى أن ابن هبيرة نفسه قد وصل من هذا الطريق إلى المنصب الرفيع الذي وصل إليه (ابن الأثير ج ٥ ص ٧٥ فما بعدها والأغانى ج ١٣ ص ١٥٧). وقد جزع على موت حبابة جزعاً أخرجه عن كرامته، حتى أن مسلمة بن عبد الملك رجاه ألا يظهر في الناس على الأقل في هذه الحالة التي لا تليق بخليفة. وقد مات بعد حبابة بسبعة أيام؛ وظن الناس أنه مات كمداً على فقد فتاته المحبوبة(١).

يحكى تيوفانيس أن عمر بن عبد العزيز كان يطمح إلى أن يدخل القيصر ليو (Leo) في الإسلام، وهو يحكى فوق هذا أن يهودياً عرّافاً من أهل اللاذقية قال ليزيد بن عبد الملك إن خلافته ستمتد أربعين عاماً إن هو كسر الصور التي في الكنائس النصرانية بمملكته؛ ويمضي تيوفانيس فيقول إن ذلك بعث يزيد على إصدار أمر عام بتحطيم الصور المقدسة؛ ولكن هذا الأمر لم ينفذ بسبب موت يزيد بعد ذلك بقليل، بل إن هذا الأمر لم يبلغ إلا دوائر ضيقة؛ ولكن القيصر ليو كان على هذا الرأي الشنيع المخالف للدين؛ وقد قواه في ذلك نصراني اسمه بشر، على أسماء العرب؛ وكان وهو أسير حرب في الشام قد اعتنق الإسلام، ثم ارتد عنه بعد أن أطلق ولكنه بقيت في نفسه آثار منه، وهذا ما يقوله تيوفانيس؛ ولكن مما يدعو إلى الشك الكبير في وجود هذا الأمر الشيطاني الذي يقال إن الخليفة أصدره أنه لم يعرفه إلا الأقل من الناس؛ أما مجرد ما يقال من أن يهودياً تنبأ للخليفة بأن تمتد خلافته أربعين سنة فهو موجود عند الطبري أيضاً(٢)؛ ولكن النبوءة لم تتحقق؛ فلم تدم خلافة يزيد الثاني إلا أربع سنين. فقد توفى يوم الجمعة لخمس ليال بقين من شعبان سنة ١٠٥هـ (٢٦ يناير سنة ٧٢٤ م) في

---

(١) [يجد القارئ أخبار حبابة ويزيد في كتاب الأغاني (جـ ١٣ ص ١٥٤ ـ ١٦٦)، وهي مفصلة تفصيلا كافياً، كما يجد شيئاً من ذلك عند الطبري (جـ ٢ ص ١٤٦٤ ـ ١٤٦٦) ـ المترجم].

(٢) [الطبري جـ ٢ ص ١٤٦٣ ـ ١٤٦٤ ـ المترجم].

البلقاء من أعمال دمشق[١]. وتختلف الروايات في عمره بين ثلاثة وثلاثين وبين أربعين عاماً.

٢ ـ وكان يزيد قد جعل ولاية العهد لأخيه هشان ثم لابنه الوليد بن يزيد من بعده، ويلاحظ المؤرخ الإسباني الذي كتب مكملا لتاريخ إيزيدوروأن.

Talis enim inter Arabes tenetur perpetim norma, ut nonnisi cunctas regum succesiones prerogative a principe percipiant nomina, ut eo decidente absque scandala adeant regiminis gubernacula.[2]

ومما يستلفت النظر في الحقيقة ترتيب ولاية العهد من طريق الوصية. وقد سُمى هشام بن عبد الملك باسم جده لأمه: هشام بن إسماعيل المخزومى، وقد حابى أخواله. وهو تسلم شعار الخلافة، وهو العصا والخاتم، في الرصافة[٣]، وهي مدينة كانت قد بنتها الروم على حافة صحراء الشام، غير بعيد من الرقة، وكان قد جدد بناءها، وكان ـ وهو خليفة ـ يؤثر الإقامة بها. لأنه كان يكره هواء دمشق خوفاً من الطاعون. وتلقى هشام البيعة في العاصمة. وكان قليل الشبه بأخيه. فكان بعيد النظر متيقظاً طيب السيرة. وأول صفاته أنه كان يعرف كيف ينجح في مشروعاته، ولكنه كان يختلف اختلافاً كبيراً عن عمر بن

---

(١) [يقول المؤلف إنه توفى يوم الأربعاء في إربد من أعمال شرق الأردن، وهو بهذا يخالف ما عند الطبري ج ٢ ص ١٤٦٣ وفي التنبيه للمسعودي ص ٣٢٠ ـ المترجم].

(٢) [وترجمة هذا النص اللاتيني هي: وهكذا كانت القاعدة المرعية بين العرب دائماً، بحيث تكون وراثة العرش من حق الخليفة؛ فهو الذي يعين من يأتي بعده، حتى إذا مات وصل من بعده إلى دفة الحكم من غير غدر ـ المترجم].

(٣) يقول الطبري خلافاً لذلك إنه تسلمها في حمص (الطبري ج ٢ ص ١٤٦٣ س ١٦) [لا يقول الطبري في هذا الموضع أكثر من أنه لما مات يزيد كان هشام في حمص. ويذكر الطبري (ج ٢ ص ١٤٦٦ ـ ١٤٦٧) أن الخلافة أتت هشاماً وهو بالزيتونة في منزله في دويرة له هناك.. فجاءه البريد بالعصا والخاتم. وسُلم عليه بالخلافة، فركب هشام من الرصافة حتى أتى دمشق ـ المترجم].

عبد العزيز، ولم يكن عنده شيء على الإطلاق من تلك الروح المثالية المعروفة عن عمر[(١)].

وكان أول ما فعله أن كسر شوكة القيسيين الذين كانت قد أخذتهم العزة بالإثم في المشرق، فعزل عمر بن هبيرة وعين مكانه خالد بن عبد الله القسرى في شوال سنة ١٠٥هـ (مارس سنة ٧٢٤ م)، وبذلك صار على العراق وال يمكن أن يُعتبر في عداد زياد والحجاج إلى حد ما. وشخصه يثير من عطفنا عليه أكثر مما يثيره شخص الخليفة نفسه، وإن كنا نعلم عن سقوطه وما جر من نكبات أكثر مما نعرف عن أعماله أيام ولايته.

كان خالد بن عبد الله القسرى قد بدأ حياته في عهد الحجاج، وأرسل بناء على سعى الحجاج إلى مكة في سنة ٩١هـ، لكي يحول بين أهل الشقاق والفتنة من سكان العراق وبين أن يتخذوا البيت الحرام مأوى لهم. وقد قام بهذه المهمة بأن حرَّم على الناس إيواء أهل الفتنة وجعل أصحاب الدور مسئولين عمن ينزل فيها. وقد نال التقدير إلى جانب هذا في البلاد المحيطة بمكة لما قام به من إجراء المياه فيها، لكنه لم ينل من الشكر على ذلك أكثر مما ناله بيلاتوس (Pilatus) على مثله في بيت المقدس. ونظراً لأنه كان من صنائع الحجاج فإن سليمان بن عبد الملك عزله، ولم يسند إليه بعد ذلك عمل؛ حتى رفعه هشام، وعهد إليه بأهم منصب في الدولة وقد جعل خالد مقر ولايته في واسط، كما فعل الحجاج من قبل، وتفرغ للأعمال السلمية. ويظهر أنه كان رقيق الطبع لين الجانب، وإن كانت لم تعوزه الهمة[(٢)].

---

(١) يجد القارئ شيئاً كثيراً من سيرة هشام عند الطبري ج ٢ ص ١٧٣٠ ــ ١٧٤٠ ــ المترجم].

(٢) يقول ڤايل (Weil, 1, 620) معتمداً على الطبري: إن خالداً عامل الوالي الذي كان قبله معاملة قاسية وإنه قتله أخيراً؛ ولكن شيئاً من ذلك لا يوجد في طبعة ليدن لكتاب الطبري، أما الذي عند الطبري فهو أن ابن هبيرة أفلت من طلب خالد إياه وأنه عاد إلى وطنه قنسرين، فوقع في يد الخليفة فأمر بجلده مائة سوط، ولكنه رغم ذلك غضب كل الغضب من =

ولم يكن يعتبر في عداد أهل الحرب، بل كان يعتبر من أجبن الناس. وكان الناس ينعون عليه أنه كان مرة على المنبر، فجاءه خبر ثورة قام بها الشيعة في الكوفة، فدهش وتحير، فقال: «أطعموني ماء». وتبين فيما بعد أنه لم يهلك في هذه الفتنة سوى ثمانية من الفرس. على أنه لم تكن هناك إلا مناسبات قليلة تدعو خالداً إلى إخراج السيف من قرابه. وفي أواخر إمرته حدثت بعض الفتن من جانب الشيعة والخوارج ولكن واحدة منها فقط هي التي اتخذت صورة ذات بال[١]. وعلى الجملة عاشت العراق في عهده فترة من الهدوء غير مألوفة في طولها، وازدهرت الحياة الاقتصادية فيها (الطبري جـ ٢ ص ١٧٧٨ س ١٣ فما بعدها) ولكنه رغم هذا لم يكن محبوباً، بل عودى ألد العداء، وقد جمع صاحب الأغاني (جـ ١٩ ص ٥٢ فما بعدها) كوماً كبيراً من حكايات أصحاب المثالب في حقه؛ ويوجد عند الطبري أيضاً مقدار كاف من ذلك.

وكانت قبيلة قسر التي ينتمي إليها خالد فرعاً من بجيلة، وكان بجيلة في

= يزيد بن هبيرة لأنه لم يرض أن يزوج ابنته لابن الخليفة. وأيضاً عامل خالد بعض الثوار معاملة لينة ولم يحرقهم إلا بأمر من الخليفة (الطبري جـ ٢ ص ١٦٢٨ ــ ١٦٢٩). أما الكميت الشاعر فإن خالداً لم يطلقه، فيما يقال، إلا لكي يخرج من المصيبة إلى مصيبة أكبر منها عند هشام.

(١) كان الفرس الثمانية الذين نادى من أجلهم خالد بقدح الماء هم المسمون «وصفاء الكوفة»، وكان على رأسهم المغيرة بن سعيد «الساحر» وبيان [ابن سمعان؟]. ويجوز أنهم كانت لهم صلة بالدعوة العباسية. وأيضاً يظهر أن وزير السختياني (تاجر السفيان ــ قارن يحيى بن آدم ص ٣٤ س ١٨)، وهو الذي أقلق بجماعته ناحية الكوفة، كان مولى فارسياً وأنه كان من إحدى فرق الشيعة. أما الصحارى بن شبيب وبهلول بن بشر فكانا من الخوارج العرب. أما الأول فهو ابن شبيب المشهور، وقد أغار في ثلاثين رجلا من بكر من ناحية جَبُّل على الدجلة على ضيعة خالد المسماة «المبارك». وأما بهلول فقد قام بثورة أكبر شأناً، وذلك بأن خرج من الموصل وانتصر مرتين على الجند الذين أرسلوا لقتاله، ولكنه قتل بعد ذلك في موقعة الكحيل. والذي روى أمر هؤلاء الثوار عند الطبري هو أبو عبيدة [راجع الطبري جـ ٢ ص ١٦١٩ ــ ١٦٢٩ (أخبار المغيرة وبيان) وص ١٦٣٣ ــ ١٦٣٤ (أخبار الصحارى بن شبيب) ــ المترجم].

الجاهلية قد مزقتها خلافات داخلية كبيرة ونزلت مرتبتها حتى لم يعد لها شأن، ولم يرتفع أمرها من جديد بعض الشيء إلا بعد الإسلام. وإذن فلم تكن لخالد قوة تؤيده من قومه، ولم تكن وراءه قبيلةٌ قويةٌ ذاتُ نباهة يستطيع أن يعتمد عليها. وهذا وإن بدا أنه كان مما يفت في عضده فقد كان مما يساعده في مقابل ذلك على القيام بأعباء منصبه أن قبيلته بجيلة لم تكن تنتسب إلى مصر ولا إلى اليمن، فهو لم يكن مضطراً بحكم نسبه أن يتخذ في النزاع بين مجموعات القبائل المتخاصمة موقفاً معيناً. ولكن قيساً كانوا بطبيعة الحال مضطرين إلى أن يعتبروه عدواً لهم، لأنه كان قد أرسل لكي يزيل ابن هبيرة «خَيْرَ قيس لها» ولكي يزيل سلطانهم. ويظهر أيضاً أن سائر مضر لم تتقبل تعيينه قبولاً حسناً، وقد قُدِّر لأحد أشراف تميم في البصرة، وكان معانداً لواليها من قِبَلِه وهو من أبناء أبي موسى الأشعري، أن يلقى حتفه من جراء ذلك[١]. وخالد نفسه، وإن كان قد جاء بنيّة التمسك بالحياد، فإنه انجرّ في تيار المنازعات بين الأحزاب، وقد دفعته عداوة مضر، طائعاً أو مختاراً، إلى أن يأخذ جانب اليمن؛ وهو يبدو، بحسب الروايات، من أول الأمر، يمنياً لحماً ودماً[٢] «شديد العصبية على مضر والبغض لهم»[٣] هم ومن ينتمي إليهم من قريش حتى أنيابِهم. ومن المضحك ما يحكى من أنه كان، بما يشعر به من شرف بجيلة، لا يخفى ما يخالج نفسه من أحساسات؛ ولا شك أن فيما يحكى من ذلك مبالغةً كبيرة، ومن هذا الوجه شتّان

---

(١) [لم أهتد إلى هذا فيما قرأته من نصوص ـــ المترجم].

(٢) [راجع مثلا الطبري جـ ٢ ص ١٤٦٨ ـــ ١٤٧١ ـــ المترجم].

(٣) [الأغانى جـ ١٩ ص ٥٩، ٦٠. وقد اقتبسنا هذه العبارة لتكون أبلغ في التعبير عما يريده المؤلف من أن خالد بن عبد الله القسرى «كان في صدره احتقار لمضر». ونجد ذكر تعصب أسد بن عبد الله القسرى أخي خالد على مضر مما كان سبباً في عزلهما عن خراسان عند الطبري (جـ ٣ ص ١٤٩٧ فما بعدها) وتجد فخر خالد وغروره وما كان من عزل هشام إياه عند الطبري، جـ ٢ ص ١٦٤١ ـــ ١٦٥٨ ـــ المترجم].

ما بينه وبين يزيد بن المهلب زعيم الأزد غير مدافع، ولم يكثر أهل اليمن الضجيج في رفع شأنه إلا بعد عزله وخصوصاً بعد موته، واتخذوه ذريعة للثورة دون أن يريدهم على ذلك، بل على كُرْهٍ منه. أما هو فقد كان يعلم تماماً أنه لم يصب الأموال ويبلغ الرفعة إلا بفضل بني أمية (الطبري ج ٢ ص ١٦٥٦ ــ ١٦٥٧) وكان يشعر بأنه خادمهم، لا أنه رئيس قبيلة أو رئيس حزب. وقد أثبت ولاءه لبيت بني أمية بأن اشتد في معارضة هشام، لما أراد مخالفة وصية يزيد بن عبد الملك وإخراج ابنه الوليد بن يزيد من ولاية العهد، وإن كان خالد لم يكن يجهل ما سيصيبه من هشام. وقد حافظ خالد بعد سقوطه أيضاً على صدق الولاء لبني أمية، وكان من شأن هذا الولاء، خصوصاً في ذلك العصر، أن يظهر كأنه في نور باهر.

وقد جرّ خالد على نفسه إلى جانب عداوة قيس عداوةَ الإسلام أيضاً. فقد كانت أمه رومية نصرانية، وظلّت على نصرانيتها، وقد بنى لها كنيسة في الكوفة في ظهر قبلة المسجد الجامع، وهو سمح للنصارى بوجه عام بأن يبنوا كنائس جديدة[١] وكان متسامحاً مع اليهود أيضاً. واستعمل في أعمال الخراج وفي الإدارة كثيراً من المجوس، وعابه بهلول الخارجي بأنه «يهدم المساجد ويبني البِيَع والكنائس ويولّى المجوسَ على المسلمين ويُنكِحُ أهل الذمة المسلمات». وقد حكيت عنه فضائح تقشعر لها الأبدان[٢]، فقيل إن أصله من يهود تيماء وإن جده كان آبقاً من موالي عبد القيس من هَجَر، وإنه كان في حداثته في المدينة يتخنَّث ويتبع المغنين والمخنَّثين، وإنه كان يمشي مع عمر بن أبي ربيعة صاحب

---

(١) ولكن النصارى في الحيرة، وهي المدينة النصرانية قرب الكوفة، أخذوا جانب أعداء خالد لما سقط (الطبري جـ ٢ ص ١٦٥٣).

(٢) يجد القارئ كثيراً من أخبار خالد في الأغانى جـ ١٩ ص ٥٣ ــ ٥٦، قارن الطبري جـ ٢ ص ١٦٢٣ ــ المترجم].

التشبيب الكثير ويترسل بينه وبين النساء، حتى كان يقال له: خالد الخرّيت، وإنه زنديق كافرٌ فاسق، وإنه قال عن بئر زمزم ــ وكان قد عرف كيف يقلل من شأنها بإنشاء مجرى مائي جديد ــ إنها «أمُّ الجعلان» وإنه قال مثل هذا الفسق عن الكعبة وعن النبي [عليه السلام] وآل بيته وعن كتاب الله نفسه. ويجوز أنه قال ما ينسب إليه في مقام التعريض بغباء أهل الورع من أنه لا يوجد رجلٌ عاقل يحفظ القرآن عن ظهر قلب. ويظهر أنه كان يشعر بتفوقه العقلي، وأنه لم يكن دائماً يمسك لسانَه الفصيح، حتى صدرت منه عباراتٌ نابية استُغلّت في التشنيع عليه[١].

وقد فعل خالد إلى جانب ذلك ما جعله هدفاً لمطاعن أخرى. فقد امتاز باهتمامه الشديد بأمور الزراعة، وكان في ذلك ينافس هشامَ بن عبد الملك. وهو قد مضى فيما كان الحجاج قد بدأه، وكان الإخصائي الفني الذي تولى في عهده أعمال التجفيف في جهة واسط في مستنقعات دجلة الأدنى هو حسّان النبطي الذي خدم الحجاج من قبل. وقد عمل خالد في ذلك أكثر مما يعود عليه بالنفع، فاقتنى من طريق تجفيف المستنقعات مساحةً من الأرض واسعةً وخصبة جداً، ويحصى الطبري (جـ ٢ ص ١٦٥٥) ضياعه الكبيرة بأسمائها. وقد حصل له مما أخرجته تلك الضياع غلاتٌ هائلة. ولم يكن يبالي بالمال، وكان يسرف في الهبات خصوصاً لخدمه وخاصته، فجعلهم بذلك موالين لشخصه. وكان يسرُّه أن يظهر بمظهر السيد الكبير، لكنه كان بخيلاً على الطعام لا يوسع فيه، وكان يغتاظ ممن يأكل من الضيوف فيكثر.

ولا عجب أن ينشأ التذمر من هذا كله. وقد سخط الناس بالإجمال على حفره الأنهار، أعنى استصلاح مساحات كبيرة من الأرض البكر، وكان لا يستطيع

---

(١) [راجع مثلا الأغاني جـ ١٩ ص ٥٩، ٦٠ ــ المترجم].

ذلك إلا أهل الحظوة والحظ ممن يُؤْذَن لهم فيه وتكون لديهم وسائل الزراعة. وقد أقبل على هذا العمل في ذلك العهد إقبالاً كبيراً وعلى أوسع نطاق أمراءُ البيت المالك وخصوصاً هشام بن عبد الملك، ولكن الناس ما كانوا يستطيعون أن يتجرأوا بسهولة على هشام، فتجرأوا على عامله خالد الذي كان حتى من غير ذلك مكروهاً عند طوائف كبيرة. وربما يكون الناس لم يتكلموا في العيب على خالد أنه استغلَّ نفوذه في منصبه من أجل مصلحته الخاصة، لأن ذلك كان هو العادة في ذلك الوقت، ما دام صاحب النفوذ يحترم حق الأفراد فيما يملكون ويحمل إلى دمشق مما يفضل من الخراج مقداراً كافياً. أما الذي أُخِذَ على خالد فهو أنه كان يؤخِّر بيع غلته فيرتفع سعر القمح. وكان الناس يعتقدون أيضاً أن المال الذي يبعثره حوله لم يحصل عليه مما يخرج إليه من ضياعه وحدها، بل اعتقدوا أنه كان يختلس من بيت المال الذي كان تحت يده مبالغ كبيرة. وهكذا أثارت أموال خالد عليه الحسدَ، وجاءت طريقتُه التي كان يحاول بها أن يجعل لنفسه أصدقاء فخلقت له أعداءً يزيدون بكثير على ما خلقت من أصدقاء.

ورغم هذا فإنه لبث في إمرته على العراق زهاء من خمسة عشر عاما، وهي أطول مدة قضاها والٍ على العراق، إذا استثنينا الحجاج. وربما يحسب من الفضل للخليفة أنه استبقاه في الإمرة هذه المدة الطويلة، ولكن الخليفة أطاع إلحاح أعداء خالد آخر الأمر، وذلك أن قوماً من أشراف قريش ومن الأمويين ممن كان خالد قد استخفَّ بهم وعضَّهم بلسانه، تضافروا مع قيس عليه (الطبري جـ ٢ ص ١٦٤٢ و١٦٥٥ فما بعدها)، وحاولوا أن يضموا إليهم حساناً في الدسّ له، وكان حسان عليما بأحواله. أما هشام فلم يكن في الحقيقة يرتاب به من الناحية السياسية[1]، ولكنه رغم هذا أحس بشيء من الغيرة منه، وكان يستطيع في

---

(١) [راجع الطبري جـ ٢ ص ١٨١٤ ـ المترجم].

الواقع أن يعتبره منافساً له من الناحية الاقتصادية. وقد ارتاب في أمره أيضاً بسبب ظهوره بمظهر الرياسة والكرم، وبسبب كلمات له كان يقولها استخفافاً بهشام وبلغت هشاماً[١]، فتغير له وعزم على أن يعزله وأن يعيِّن مكانه يوسف بن عمر الثقفي القيسي، أحد أقرباء الحجاج، وكان يوسف قد تولى إمرة بلاد اليمن سنين طويلة. وعندما كان يحدث مثل هذا التغيير كان الأمير المعزول في كثير من الأحيان يُفاجَأ بالأمر الواقع، فلا يعلم بعزله إلا إذا قدم عليه من سيخلفه في منصبه وأخذه ليحاسبَه على أعماله، فكان لا يُعْطى له من الوقت ما يتمكن فيه من الاستعداد للمفاجأة؛ ولكن السِّرِّية التي اصطنعها هشام في هذه الحادثة كانت شيئاً غير مألوف وتروى في ذلك (الطبري ج ٢ ص ١٦٤٧ فما بعدها) حكاية مسليّة[٢]. وذلك أن هشاماً أخفى تعيين يوسف بن عمر، حتى على حامل كتاب التعيين، وأمره أن يُقبل في ثلاثين من أصحابه إلى الكوفة فجأة، وذلك في جمادى الأولى سنة ١٢٠هـ[٣] (مايو سنة ٧٣٨ م)، وهناك وضع نصارى الحيرة وثقيف ومعهم آخرون من مضر في الكوفة أنفسهم تحت تصرفه ولم يقاومه أحد. أما خالد فكان في واسط ورضى بأن يقبض عليه وأن يُؤسَر هادئاً. وكان حَبْسُه في الكوفة ولم يجعل يوسف بن عمر مقرّ ولايته في واسط بل في الحيرة. ويظهر أن الحيرة، وهي المدينة النصرانية الصغيرة قد بدت أكثر ملامة لأن تكون مقر الجند من

---

(١) [نقل إلى هشام أن خالداً كان يقول عنه: ابن الحمقاء أو الأحول (الطبري ج ٢ ص ١٦٤٦ ــ ١٦٤٧). وكانت أم هشام حمقاء حقيقة (الطبري ج ٢ ص ١٤٦٦). ولكن هشاما كان «محشواً عقلا» (الطبري ج ٢ ص ١٧٣١ س ٤)، أما غيرة هشام. من خالد لما كان قد اقتناه من أموال وضياع فهي موجودة عند الطبري ج ٢ ص ١٦٤١ ــ ١٦٤٧ ــ المترجم].

(٢) [لم نفصل هنا شيئاً وليراجع القارئ القصة عند الطبري ــ المترجم].

(٣) [هذا بحسب الطبري ج ٢ ص ١٦٥٨، ١٨١٢، ولكن قارن الطبري ج ٢ ص ١٦٥٢ ــ المترجم].

مدينة الكوفة الإسلامية المجاورة لها، الحافلة بالسكان المسلمين، وقد منع هشام نفسُه يوسف من أن يعسكر بجند الشام بين أهل الكوفة.

ولبث خالد في السجن مع أخيه إسماعيل وابنه يزيد بن خالد وابن أخيه المنذر بن أسد ثمانية عشر شهراً، ولم ينصره أحدٌ من اليمنيين بيد ولا بلسان إلا رجلٌ عبسي من قيس، فإنه قال (الطبري جـ ٢ ص ١٨١٦ ـ ١٨١٧):

ألا إن بحر الجـود أصبح سـاجياً أسـير ثقيف موثقـاً في السلاسل
فإن تسجنوا القسرى لا تسجنوا اسمه ولا تسجنوا معروفـه في القبـائل

وكان لا بد من أن يحاسب على أموال الدولة، ومعنى ذلك أن يعترف بأنه رزأ مبلغاً كبيراً وأن يتعهد بدفعه، وكان التعذيب للوصول منه إلى ذلك هـو الوسيلة المُجَرَّبة. وقـد استأذن يوسف بن عمر هشاماً في إطلاق يده على خالد وتعذيبه، فلم يأذن له هشام، حتى أكثر عليه يوسف وألح، فأذن له مرة واحدة وبعث حَرَسيّاً يشهد ذلك، وحلف لئن أتى على خالد أجلُهُ، وهو تحت العذاب، ليقتلنَّه به[1]. وفي شوال سنة ١٢٠هـ (سبتمبر سنة ٧٣٩ م) أمر هشام بتخلية سبيله، لأنه لم يمكن استخراجُ شيء منه، فذهب خالد إلى بلدة «القرية»، بإزاء باب الرصافة، فأقام حيناً، وهشام لا يأذن له في القدوم عليه، واضطر خالد إلى الاكتفاء بمكاتبة الأبرش الكلبي، وكان مستشار هشام الذي يثق فيه. وبعد أن أقام خالد حتى شهر صفر سنة ١٢١هـ (يناير سنة ٧٤٠ م) سار حتى نزل دمشق، وأقام فيها بعد ذلك. على أن يوسف بن عمر لم يمسك عن مطاردة الغنيمة التي أفلتت من بين مخالبه، وأقنع الخليفةَ المتمنّع، في آخر الأمر، بأن يأذن بأخذ يزيد بن خالد على الأقل، فأذن له بأخذه، ولكن يزيد أفلت بالفرار. وقد تحامل على خالد إلى جانب يوسف بن عمر كلثومُ بن عياض القسرى، صاحب شرطة دمشق،

---

(١) [الطبري جـ ٢ ص ١٨١٢ ـ ١٨١٣ ـ المترجم].

وإن كان لا يتحتم أن يكون قد اتفق مع يوسف، فقد كان ابنَ عَمٍّ لخالد. وكان بحكم وظيفته هو الذي يراقبه. وسواء عن حسن نية أو عن تحامل وغيرةٍ من خالد فإن كلثوماً اتهم موالى خالد، وهو وابنه يزيد في غزوة الصيف التي كان يوجّهها هشام في بلاد الروم، بأنهم هم الذين أحدثوا تلك الحرائق التي كانت تظهر كل ليلة في دمشق، حتى أتت على الكثير من دورها[1]، بقصد الوثوب على بيت المال. وصدَّق هشامٌ ذلك، لأنه لم يتهم كلثوماً بالتحامل على ابن عمه، وكتب إلى كلثوم يأمره بحبس آل خالد، الصغير منهم والكبير، والموالى والنساء. ولم يلبث أن ظهر أن خالداً لم يكن له أيةُ علاقة بالذين كانوا يحدثون الحرائق وأنها كانت من فعل رجل من أهل العراق يُقال له أبو العمرَّس وأصحابٍ له، فكانوا إذا وقع الحريق أغاروا يسرقون، لكنها كانت من فعل قوم من أهل العراق على كل حال. وعند ذلك كتب هشام إلى كلثوم يشتمه ويعنّفه ويأمره بتخلية سبيل جميع من حبس. حتى إذا رجع خالد، وكان قد علم بحبس آله ولم يعلم بتخلية سبيلهم، غضب غضباً شديداً، وظهر غضبُه لما اجتمع الناس في داره، إذ قال فيهم: «خرجتُ غازياً في سبيل الله سامعاً مطيعاً، فَخَلُفْت في عَقبِي وأخِذَ حرمى وحُرَمُ أهل بيتي، فَحُبِسوا مع أهل الجرائم كما يُفْعَل بأهل الشرك، فما منع عصابة منكم أن تقوم فتقول: علامَ حُبِس حُرَمُ هذا السامع المطيع؟ لَيَكُفَّنَّ عني هشام أو لأدعونّ إلى عراقيّ الهوى شاميّ الدار حجازيِّ الأصل ــ يعني محمد بن علي بن عبد الله بن عباس ــ وقد أذنتُ لكم أن تبلغوا هشاماً!». وفي مناسبة أخرى أراد هشام سؤالَ خالد، لما بلغه من أنه أذن لرجل أن يمتدحه مُتَقرِّباً إليه بعبارات فيها اجتراء على مقام الذات الإلهية. فأجاب خالد بأن الرواية تحريفاً، واتهم الخليفةَ بمثل ما اتهمه به أعداؤه، فكظم الخليفةُ غيظَه واكتفى

---

(١) يذكر تيوفانيس (حوادث ٦٢٣٢ من تاريخ الخليقة) هذه الحرائق أيضاً. فلا بد أنها أثارت شيئاً من السخط والذعر.

بأن قال: «خَرِف أبو الهيثم»[١]، يعني أنه يهذى بما لا يدرى. وكان هشام دائماً لا يتخذ خطوة مؤذية لخادمه القديم إلا كارهاً، لأنه لم يكن في الحقيقة يشك في ولائه له[٢]، وكان يندم في كل مرة على ما فعل. ويكفى من النبل لهشام أنه كان يشعر بالخجل وأنه لم يحمل غضب خالد على محمل سوء، بل رأى فيه دليلاً على حسن طويته. وقد أذن له في السنين الأخيرة من خلافته أن يقيم في دمشق دون أن يتعرض له، ولكن لا شك أنه لم يكن ينظر بعين الرضا لما كان يراه من محبة لخالد عند الناس.

وإذا كان الهدوء قد ساد العراق سنين طويلة في عهد خالد، فإنه لم تلبث بعدها أن حدثت في العاصمة في عهــد خلفه ثورةٌ كانت تؤذن بأحداث غير معروفة العواقب. ذلك أن زيد بن عليّ بن الحسين بن علي[٣] كان قد خرج من المدينة، موطن أسرته، على كل شديد منه، ووقع في الكوفة، لكنه بقى هناك لا يستطيع الفكاك، لأنه وقع في أيدي الشيعة، فأمسكوه عن الخروج، وقالوا له إنهم يرجون أن يكون هو المنصور وأن يكون ذلك هو الزمان الذي يهلك فيه بنو أمية، وإن سيادة بني أمية في الكوفة لا تستند إلا إلى عدة قليلة من جند الشام، لا يستطيعون أن يقفوا أمام مائة ألف من أهل الكوفة يضربون دونه بسيوفهم. واغترَّ زيدٌ بكلامهم ولكنه أخذ لنفسه الحيطة، فكان دائماً يغير الدار التي ينزل فيها، واستمرت إقامتُه في الكوفة نحو عشرة أشهر في الجملة، وفي خلال هذه الفترة اتخذ الأهْبَة للثورة. وضمَّ لنفسه أنصاراً في البصرة والموصل أيضاً، وبايعه الناس في الكوفة حتى أحصى ديوانُه خمسة عشر ألف رجل، وكانت بيعتُه التي يبايع

---

(١) [راجع الطبري ج ٢، ص ١٨١٤ ــ ١٨١٩ ــ المترجم].

(٢) [راجع الطبري ج ٢، ص ١٨١٤ ــ ١٨٢٠ ــ المترجم].

(٣) [راجع الطبري ج ٢، ص ١٦٦٧ ــ ١٦٦٨، ١٦٩٨ ــ ١٧١٤ ــ المترجم].

عليها الناس: «إنا ندعوكم إلى كتاب الله وسنة رسوله صلى الله عليه وسلم» وجهاد الظالمين، والدفع عن المستضعفين، وإعطاء المحرومين، وقَسْم هذا الفيء بين أهل السواد، ورد المظالم، وإقفال المُجْمَّر[١]، ونصرنا أهل البيت على من نصب لنا وجهل حقّنا»؛ فإذا قبلوا البيعة عن ذلك أخذ عليهم عهد الله وذمَّةَ ورسوله بالوفاء وأشهد الله. ولبث يوسف بن عمر غافلا زماناً طويلاً لا يدرى عن الحركة شيئاً، ولكنه أفلح أخيراً في أن يحصل على معلومات عما يدبِّرُه زيد، من رجلين من الموالين له كان يوسف قد قبض عليهما. ثم عرف أيضاً أن زيداً، على أثر هذا القبض، قرر التعجيل بالثورة مخافةَ أن يؤخَذ، وأنه حدد لها ليلة الأربعاء أول ليلة من صفر سنة ١٢٢هـ (٦ يناير سنة ٧٤٠ م)، فأمر يوسف بدعوة أهل الكوفة في يوم الثلاثاء السابق على يوم الثورة، وجمعهم في المسجد الأعظم، وهناك حصرهم، وغلَّق عليهم أبواب المسجد، ووضعهم في حراسة طائفة من جند الشام. ويظهر أنهم بعد أن تبينوا خطأهم كانوا راضين كل الرضا عن نجاتهم في المسجد من عواقب ما أقدموا عليه. ولما جاء زيد، ومعه مائتان وثمانية عشر رجلا، كان قد جمعهم في ليلة الأربعاء وسط الظلام والبرد الشديد، وأراد أن يخلصهم من الحصر، لم يتحركوا، واضطر أن ينسحب من أمام المسجد، لأن ألفين من جند الشام كانوا قد قدموا من الحيرة لمحاربته، فردَّهم زيدٌ في يوم الأربعاء، وثبت في الخميس أيضاً هو وأصحابه القلائل أمام رُماة النشَّاب من القيقانية والبخارية حتى جاء الليل، فأصيب زيدٌ بسهم في جانب جبهته اليسرى، فرجع ومعه أصحابه فدخلوا الكوفة. ومات زيد من السهم، ووقعت جثته في أهل الشام، وصُلِب جسدُه في الكوفة. وأما رأسه فقُطع وأرسل إلى هشام بن عبد الملك في الشام، فأمر به فنُصِب على باب دمشق، ثم أرسل به إلى المدينة، ومكث بها

---

(١) [يقصد من طالت غيبته عن أهله يحارب في بلاد بعيدة عنهم ــ المترجم].

مصلوباً حتى مات هشام. وأما ابنه يحيى، وكان غلاماً حدَثاً، فقد استطاع أن يفر إلى خراسان، فأقام مختفياً في بلخ سنين كثيرة. ولكنه عُرف بعد ذلك، فصار ينتقل من مكان إلى مكان، حتى قُتِل سنة ١٢٥هـ، في عهد الوليد بن يزيد، وهو يحارب من كانوا من طلبه(١).

ومع أن هذه الثورة قد انتهت إلى نهاية يُرْثى لها، فإنها كانت ثورة لها شأنها، لأن ثوراتٍ شيعيةً أخرى أعقبتها. وأمام هذه الثورات سقطت دولة دمشق آخر الأمر، ولم يلبث بعد مقتل يحيى أن نهض أبو مسلم لينتقم له، فقتل قاتليه.

٣ ـ ولا شك أن المؤرخَ يخطئ في تصوير هشام، إذا ظنّ أنه كان خليفةً لا همَّ له إلا أمور الإدارة والشئون الداخلية. على أن هشاماً لم يكن جندياً(٢)، ولكنه لم يكن يرهب الحروب، بل هو وجّهها بهمة وبكل الوسائل، وجهّز جيوشاً كبيرة، ولم يدّخر في ذلك الأموالَ ولا حياة الرجال. وكانت يداه دائماً مشغولتيْن بالمشروعات الحربية في أكثر المواضع تباعداً.

ففي أول حكمه استأنف قتال الروم، وكانت الحروب معهم قد توقفت بعد أن أدى غزو القسطنطينية في سنة ٩٨ ـ ٩٩هـ (٧١٦ ـ ٧١٧ م) إلى استنزاف قوى الدولة دون أن يؤدي إلى نتيجة. ويحكى البلاذرى (ص ١٦٥ ـ ١٦٧) أن هشاماً بنى حصوناً ومسالح في مواجهة الروم، وكان يقوم كل صيف بغزوات كبيرة، وكان في كل مرة يوجه غزوتين أو ثلاثاً في وقت معاً لتلتقي في نقطة واحدة. وكان الذي يقود هذه الغزوات ابنه معاوية وابنه سليمان، وكان كل منهما رجلَ حرب مولَعاً بها. أما معاوية فهو جد الأمويين في الأندلس، وقدمات في سنة ١١٨

---

(١) [راجع الطبري جـ ٢ ص ١٧١٣ ـ ١٧١٤، ١٧٧٠ ـ ١٧٧٤ ـ المترجم].

(٢) [راجع الطبري جـ ٢ ص ١٧٣٥ ـ ١٧٣٦ ـ المترجم].

أو ١١٩هـ (٧٣٦ ـ ٧٣٧ م) في بلاد الأعداء، ويروى أنه ثار بين يديه ثعلبٌ، فركض خلفه، فعثر به فرسُه، فسقط ومات، فقال هشام متوجِّعاً: «تالله لقد أجمعتُ أن أُرَشِّحه للخلافة، ويتبع ثعلباً!(١)». ولكن البطل الأكبر في هذه الحروب كما تُصَوِّره الرواياتُ والأساطير هو عبد الله البطّال؛ وقد بذل المسلمون في حربهم للروم جهوداً كبيرة وأفلحوا في افتتاح بعض القلاع والمدن، ولكنهم كانوا لا يستطيعون الثبات فيها في الشتاء، يقول أحد المؤرخين الروم:

Nonnulla prospera per duces exercitus a se missos in Romania terra et pelago gessit.(2)

على أن الروم لم يخفقوا في الدفاع عن أنفسهم، ففي سنة ١٢٢هـ (٧٤٠ م) قضوا على جيش عربي عند اكرونيوس (Akronius) من أعمال أفريجية (Phrygien). وفي هذه الموقعة قُتِل عبد الله البطال. وفي السنة التالية قام الروم من جانبهم بالهجوم على عاصمة بلاد ملطين (Melitene)، ولكنهم ارتدوا لما خرج هشام بنفسه مسرعاً من الرصافة وملبياً نداء العرب المحاصرين. وإلى جانب الحروب التي وجهها هشام إلى الروم كانت هناك حروب أخرى في الشمال الشرقي من الدولة الإسلامية وجهها إلى الترك فيما دون بحر الخزر، وفي هذه الحروب أيضاً لم يكن الحظ دائماً مواتياً للعرب، ففي سنة ١١٢هـ (٧٣٠ م) هُزموا هزيمة كبيرة، ولكن الموقف تحول بعد ذلك في مصلحتهم، ويرجع الفضل في ذلك إلى مسلمة بن عبد الملك وخصوصاً إلى مروان بن محمد.

وفي نفس الوقت زحف المسلمون من جهة المغرب على أوروبا زحفاً يكاد يكون أشدَّ اندفاعاً من زحفهم عليها من جهة المشرق(٣)، وبذلك وضعوا العالم

---

(١) [راجع الطبري ج ٢ ص ١٨٣٨ ـ ١٨٣٩ ـ المترجم].

(٢) [وترجمة هذا النص اللاتيني هي: وهو لم يحرز إلا بعض النصر في تلك الحملات البرية والبحرية التي وجه فيها قواد الجيوش إلى بلاد الروم ـ المترجم].

(٣) إن أغنى الأخبار وأحسنها في هذا الصدد موجود في كتاب Continuatio Isidori Hispana، ولكن فهمها للأسف عسير جداً بسبب سوء لغتها اللاتينية، وقد جمعها ورتبها =

المسيحي بين نارين. وهم قبل خلافة هشام بسنين كانوا قد هاجموا الفرنج من جهة إسبانيا وكان الحرّ بن عبد الرحمن الثقفي، أمير الأندلس، هو أول من عبر جبال البرانس، وربما كان ذلك في عهد سليمان بن عبد الملك. وفي عهد عمر بن عبد العزيز فتح السمح بن مالك الخولاني مدينة أربونه (Narbonne) وظلت هذه المدينة نقطة ارتكاز وحصناً يلجأ إليه العرب زماناً طويلاً، ولكن السمح لما تقدم إلى تولوشة (Toulouse) هزمه الفرنج بقيادة أودو (Eudo) وقتلوه في ذى القعدة سنة ١٠٢هـ (مايو سنة ٧٢١ م)، فلما جاء خلفه عنبسة بن سحيم الكلبي قام، بعدة غزوات كثيرة لم يكن هو نفسه الذي تولى قيادتها، بحملة كبيرة في سنة ١٠٨هـ (٧٢٦ م) ومات فيها، وكان ذلك في عهد هشام بن عبد الملك. ثم أعقبت ذلك فترةُ توقُّف لأن الأمراء كانوا يتغيرون بسرعة وكانوا في شغل بأمور داخلية. وأحسّ البربر الذين كانوا يؤلفون شطراً كبيراً في الجيوش العربية بأن العرب يؤخرونهم عن مكانتهم ويضايقونهم في حقوقهم كمسلمين وكجند.

وكان العرب أنفسهم قد مزّقتهم الخلافاتُ، ولم يتغير الموقف إلا بعد أن عين هشام على الأندلس عبد الرحمن بن عبد الله الغافقى مكان الهيثم بن عبد الكافى الذي كان متشدداً ومقته الناس. وكان لا بد لعبد الرحمن من أن يبدأ بإزالة الشوكة التي في جسمه، وذلك أن مونوزا البربري انتقض على العرب واستقل بثغر الشمال، وكان قد حالف أودو الفرنجي وتزوج ابنته. وبعد أن قضى عليه عبد الرحمن اتجه إلى أودو وهزمه بين نهر الجارون ونهر الدوردونى،

= الدكتور لودلف شفينكوف Ludolf Schwenkow، في رسالة تقدم بها إلى جامعة جوتينجن سنة ١٨٩٤ م، بعنوان:

Kritishe Betrachtung der lateinischen Quellen Zur Geschichte der Eroberung Spaniens durch die Araber.

ولا ينقص من قيمة هذا الكتاب، بما فيه من عمل دقيق غاية الدقة، أن مؤلفه كثيراً ما يتبع فيما يتعلق بالموضوعات الشرقية الخالصة آراء معكوسة.

ثم لاحقه في جهة إقليم نهر اللوار، فالتقى في رمضان سنة ١١٤هـ (أكتوبر سنة ٧٣٢) فيما بين مدينتي نور وپواتيه بقارله (بشارل مارتيل) الذي كان أودو قد دعاه لنجدته. وبعد مناوشات دامت أياماً قام العرب بهجوم عام عنيف. ولكن الفرنج الشرقيين ثبتوا طول اليوم، وفي الصباح التالي أدهشهم أنهم وجدوا العرب قد أخلوا الميدان بعد أن قُتِل قائدهم. وهنا يقف جيبون (Gibbon) ليتخيل مصير أوروبا لو أن العرب انتصروا: إذن فلربما كان القرآن يُفَسَّر اليوم في جامعة أكسفورد، ولكانت قداسة الديانة المحمدية وحقائقها تُلقى من المنابر أمام شعب قد خُتِن. والحق أن فضل الفرنج على أوروبا النصرانية كان كبيراً، ولكن الحق أيضاً أن الروم في شرق أوروبا احتملوا من الجهد والمشقة في حماية أوروبا أكثر مما احتمله الفرنج.

ولكن العرب لم يُدْحَرُوا عند تور دحراً حاسماً[١]، وقد حثَّ الخليفة نفسه بحماسة شديدة على مواصلة القتال مع الفرنج. وفي سنة ١١٥هـ (٧٣٣ م) عنّف الخليفةُ عبد الملك بن قَطَن الفهرى خليفة عبد الرحمن الغافقى على الأندلس لإبطائه في القيام بمهاجمة الفرنج. وعلى هذا سار عبد الملك لقتالهم، لكنه لم يتقدم كثيراً، فقد سدّ النصارى أمامه طريق جبال البرانس (جبال البرنات) ودحروه إلى السهل. وعند ذلك عين الخليفةُ عقبةَ بن الحجاج السلولي مكانه (سنة ١١٧هـ)، وهو الذي نجد اسمه عند المؤرخين الإسبان محوَّراً في اللغة اللاتينية تحويراً جميلاً: أوْكوپا (Aucupa). ولكن عقبة شُغِل أولاً وقتاً طويلا بالمسائل الداخلية، ولما تحرك بعد ذلك قاصداً بلاد غاليس (بلاد الغال) لحقته في سرقسطة الكتبُ لكي يعود إلى إفريقية للمساعدة على إخماد الثورة التي قام بها البربر هناك، فرجع

---

(١) [موقعة تورپواتية تسمى عند العرب موقعة بلاط الشهداء ــ المترجم].

وعبر الجبال[١] التي دون جبل طارق ثم جاز المضيق ومعه الجيش العربي الإسباني. وبعد أن اعتقد أنه قام بما عليه من عمل في أفريقية قفل راجعاً إلى الأندلس ومات سنة ١٢٢هـ (٧٤٠ م).

وقد قضت الظروف على البربر أن يصيروا على كره منهم حلفاء للفرنج، لهم شأنهم، وذلك أن البربر تذمروا من أن العمال العرب، بعد موت عمر بن عبد العزيز، صاروا يعاملونهم، مع أنهم مسلمون صادقون في إسلامهم ومع أنهم يشتركون في الجهاد متحمسين، معاملة الخدم الذين يلزمهم أداءُ الجزية. فصارت نفوس البربر تربة خصبة لبعض دعاة الخوارج الذين جاءوا من العراق وعلى رأسهم ميسرة الصَّقْرى لبذر بذور مبادئ الخوارج بين البربر. ويحكى سيف (الطبري جـ ٢ ص ٢٨١٥ فما بعدها) أنهم في أول الأمر، ومن غير ثورة، التجأوا إلى هشام لكي يسألوه أن يرفع عنهم ما يَشْكُون منه، ولكن لم يُؤذَن لرسلهم في الدخول عليه، فلما نفدت نفقاتُهُم رجعوا؛ بعد شيء من الانتظار، وهم يشعرون بخيبة الأمل، وكتبوا أسماءهم في رقاع تركوها للخليفة. وعند ذلك اقتنعوا بأن الخوارج على حق فيما يقولونه من أن ظلم العمال لهم إنما هو بأمر من الخليفة نفسه، وأن الخليفة بسبب جشعه للحصول على الأموال هو الذي يكرههم على أن يمتصُّوا دم الرعايا. ولهذا ثاروا ثورة مُريعة بقيادة أحد الخوارج، امتدت من مراكش إلى القيروان. وتبيَّن أن أمراء إفريقية غير قادرين على أن يفعلوا إزاء هذه الثورة شيئاً. وكذلك لم تُفِدْ معونة عقبة، بعد أن عاد إلى إفريقية قادماً من الأندلس، إلا قليلا. وكان لا بد من مجيء الفيلق الثالث، أعنى أنه

---

(١) وبحسب كتاب الصلة الإسباني لتاريخ ايزيدور وقعت عند هذه الجبال الموقعة التي قتل فيها لوذريق ملك القوط، على مقربة من جبل طارق فيما يظهر [جاء في كتاب تاريخ افتتاح الأندلس لابن القوطية القرطبي (ط. مدريد ١٨٦٨ م ص ٧): وكان اجتماع طارق ولوذريق على وادي بكة (Beca) من شذونة (Sidonia) فهزم الله لوذريق... الخ — المترجم].

كان لا بد من أن يأتي جند الحكومة من الشام، كما كان الحال في العراق، فأرسلهم هشام. وفي سنة ١٢٣هـ[١] (٧٤١ م) ظهرت في ميدان القتال بالمغرب الأقصى جحافلُ خيل الشام، وكان على رأسهم كلثوم بن عياض القسرى[٢] عامل دمشق. ولكن حتى جند الشام، على جودة عُدَّتهم وحسن مرانهم على القتال، هُزموا أمام فرسان البربر الذين كانوا أشبه بالعُراة، وقُتِل كلثوم في معركة كبيرة عند نهر نوام (Nauam)[٣]، يصفها مؤرخو الشـــام وصفاً فنياً رائعاً، ولم يستطع ابن أخيه بلج بن بشر أن ينجو إلى سبته ومنها إلى الأندلس إلا بثلث جيشه، وكانت تلك أشنع هزيمة هُزمها العرب على الإطلاق حتى ذلك الحين، وكانت أشنع بما لا يقاس من هزيمتهم عند مدينة تور، فقد استطاع البربر باسم الإسلام أن يضربوا العرب في المغرب أشَدَّ ضربة، وإن كان العربُ في السنة التالية قد أحرزوا نصراً استطاعوا بفضله أن يستولوا على القيروان، وأن يثبتوا أقدامهم فيها.

---

(١) هذا هو التاريخ الصحيح كما عند البلاذرى (ص ٢٣٢). أما عند الطبري (جـ ٢ ص ١٧١٦ وعند تيوفانيس (في أخبار ٦٢٣١ من تاريخ الخليقة) فنجد أن التاريخ الذي يذكر أنه هو ١٢٢هـ. ولكن في هذه السنة التي كان فيها خالد القسرى مشتركاً في حملة حربية في آسيا الصغرى كان كلثوم ما يزال صاحب الشرطة في دمشق، وهو يسمى عند تيوفانيس (سنة ٦٢٣١) باسم Δαμασκηνός (الدمشقي).

(٢) هو يسمى في العادة القشيري كما عند البلاذرى وابن الأثير في جميع المواضع وعند الطبري أيضاً (جـ ٢ ص ١٧١٦ و١٨٧١)، ولكن الصواب هو «القسرى». كما يسميه الطبري (جـ ٢ ص ١٨١٤ فما بعدها) لأنه كان ابن عم لخالد بن عبد الله القسري. ويقول ا. موللر (A. Müller, 1, 449) إنه «قيسي بطبيعة الحال»، كأن موللر يعرف ذلك بداهة بفضل معرفته بنفسية العرب والأصول التي كان يجري عليها هشام في حكومته (A. Müller, 1, 445) وكثيراً ما يحصل الخلط بين كلمتي قسري وقيسي، وبين كلمتي: قشيري وقريشي، قارن مثلا الطبري (جـ ٢ ص ١٤٥٦ س ٧) [على أن كلثوما هذا يسمى في تاريخ ابن القوطية (ص ١٧) هكذا: كلثوم بن عياض القيسي ــ المترجم].

(٣) [يقول ابن القوطية في تاريخه (ص ١٥) إن المعركة كانت عند موضع يقال له: نفدوره... المترجم].

وكذلك في الطرف الآخر من الدولة الإسلامية، بلاد نهر الشاش التي لم تعرف الهدوء قط، كانت الحركة في عهد هشام أقوى منها في العادة، ذلك أن أهل السغد كانوا قد تبعوا أمراءهم ودخلوا في الإسلام أيام عمر بن عبد العزيز، بعد أن وعدهم عمر بألاَّ تؤخذ منهم جزية. ولكن عمال الدولة بعد ذلك لم يتقيدوا بهذا الوعد، وكانوا يتغيرون كثيراً، وكان أحدهم يسير على سياسية ويسير من يخلفه على سياسة أخرى، ولكنهم جميعاً كانوا يجعلون القوة فوق الحق. فإذا أعفى أَحَدُهم أولئك المسلمين الجدد من الجزية فإن ذلك كان يُعتبر فضلاً وإحساناً منه سرعان ما يُرْجع فيه، حتى إذا غضب أهل السغد من ذلك وامتلأت نفوسهم حقداً رموا بأنفسهم بين أحضان الترك، أعدائهم القدماء ودعوهم إلى بلادهم. وكان أهل الديانة والورع من المسلمين يعطفون عليهم، ولم يقتصروا في التعبير عن هذا العطف على مجرد الكلام، وصار من العسير على أمراء العرب أن يقووا على الدفاع عن أنفسهم أمام هذا التكتّل، ووقعت جيوشهم أكثر من مرة في أشد المآزق خطراً، وكانوا يفرحون إذا استطاعوا النجاة ولو بخسائر كبيرة. ومما يدل على مقدار تعوّد الخليفة على الأخبار السيئة التي كانت ترد من خراسان أنه كان لا يصدق الخبر الصحيح إذا ورد إليه مُنْبئاً بانتصار جنوده[1]. وكان كل ما يستطيعه في تدارك الأمور هو أن يغيِّر القائد، ولكن ذلك كثيراً ما كان ينتهي بالفشل، وكان دائماً يجرّ إلى عواقب وخيمة. ولكن الخليفة في آخر الأمر اتخذ إجراءً فعالاً، فبعد أن عزل خالد بن عبد الله القسرى، كان يوسف بن عمر ــ وهو الذي خَلَف خالداً على العراق ــ يُمَنِّى نفسَه بأن يسند إليه الخليفةُ إمرة خراسان إلى جانب إمرة العراق. ولو أنه نال ذلك لاستخلف على خراسان عاملاً قيسياً لحماً ودماً، فزاد بذلك من حدة التنازع بين الأحزاب القَبَلية، وكانت الخصومة

---

(١) [راجع الطبري مثلاً جـ ٢ ص ١٦١٤ ــ ١٦١٦ ــ المترجم].

بينها لا تحتاج إلى مزيد. ولكن الخليفة حال بين يوسف بن عمر وبين ما يشتهي، فقام من جانبه بتعيين نصر بن سيَّار الكنانى[١]، وكان صاحب سنّ وتجربة وقائداً محنَّكاً وعاملا من أكفأ العمال، ولم يكن ينتمي لأية قبيلة قوية في خراسان. وقد بذل كل ما في طاقته، ولكنه كان يحاول أمراً مقضياً وموقفاً خاسراً.

ومات هشام في الرصافة يوم الأربعاء لست ليال خلون من شهر ربيع الآخر سنة ١٢٥هـ (٦ فبراير ٧٤٣ م)، ولم يكن قد تقدمن به السنُّ كثيراً، فكان في وسط العقد الخامس من العمر[٢]. ولكن لعل الشباب لم يَبْدُ عليه قط، وكان مظهره غير رائع، فقد كان «أحول شديد انقلاب العيْن» وهو وإن كان قد استطاع أن يفرض على الناس احترامه، فإنه لم يكن له الصفات ما يملأ نفوس الناس لأول وهلة أو يجتذبهم إليه أو يملؤهم رهبة منه، وكان فيه شيء من خصال أوساط الناس من أهل التحفظ، ولكنه كان «دقيق النظر... متيقظاً في سلطانه، سائساً لرعيته»[٣]، وهو لم يفعل بنفسه ما يغضب أهل التقى، بل كان مسلماً حسن الإسلام، من طراز السلف الأولين، وكان صديقاً لرواة الحديث والأثر أمثال الزهري وأبي الزناد، وعدواً للقدرية المبتدعة الذين أثاروا البحث في مسائل اعتقادية، وكانوا يقولون بالاختيار (الطبري جـ ٢ ص ١٧٧٧ ــ قارن أيضاً ص ١٧٣٣)، ولذلك لم يكن متعصباً على رعاياه المسيحيين. فأذن لهم «للملكانية منهم؟» في أن يعيدوا شغل كرسي أنطاكية بعد أن كانوا قد مُنِعوا

---

(١) [راجع الطبري جـ ٢ ص ١٦٥٩ فما بعدها وص ١٧١٨ فما بعدها ــ المترجم].

(٢) [الطبري جـ ٢ س ١٧٢٨ فما بعدها ــ المترجم].

(٣) [آثرت اقتباس هذه الصفات من كتاب التنبيه للمسعودي ص ٣٢٢ عوضاً عن كلمتين للمؤلف، ويجد القارئ كثيراً من صفات هشام عند الطبري جـ ٢ ص ١٧٣٠ فما بعدها ــ المترجم].

من ذلك أربعين سنة. ولكنه اشترط عليهم ألا يعينوا من يحبون من أهل العلم والنباهة، بل أن يعينوا راهباً بسيطاً هو اصطفان (Stephanus)، صديق هشام وأن يختاروه بطريقاً عليهم. وهم قد رضوا أيضاً بذلك(١). ويحكى أن رجلاً نصرانياً شجّ غلاماً لمحمد بن هشام، وبدلاً من أن يرفع محمدٌ الأمر إلى القاضي ذهب خصى لمحمد فضرب النصراني، فلما بلغ ذلك هشاماً ضرب الخصيَّ وشتم ابنه محمداً. وكان هشام في حكومته يسعى إلى أن يجعل نفسه فوق الأحزاب، ولكن ليته استطاع أيضاً أن يغير من نفوس العرب والولاة. وكان فيه شيء من خشية الظهور أمام الناس، فآثر أن يعتزل في الرصافة بعيداً عن الأنظار، وكان إذا قدم عليه من الناس من يريد أن يلقاه كلَّف صديقه الأبرش الكلبي أن يتصل بهم، وكان الأبرش موضع ثقة هشام (الطبري ج ١ ص ٢٨١٦، وج ٢ ص ١٨١٣). ولكن هشاماً كان رغم ذلك ممسكا زمام الأمور وكان يفهم عمله ويهب له وقته وكان ديوانه مثالا للدقة والنظام، وكان ذلك موضع إعجاب الخليفة المنصور العباسي. وقد قضى هشام على فساد كان موجوداً، وهو أن أعطيات المقاتلة كانت تُمْنَح لقوم من الأشراف أشبه شيء بالاستغلال من غير عمل، فصار لا يأخذ أحدٌ العطاءَ في أيام هشام، حتى من أمراء الأمويين، إلا إذا قام بالغزو بنفسه أو أناب أحداً عنه. وكان لهشام مولى اسمه يعقوب، فكان يأخذ عطاء سيّده وينوب عنه في ميدان القتال. والحكايات الكثيرة التي تحكى عن هشام كما تحكى بكثرة عن عمر بن الخطاب ومعاوية وعبد الملك، تصوره في صورة

---

(١) انظر ما يقوله تيوفانيس في أخبار سنة ٦٢٣٤ (من تاريخ الخليقة)، وقارن أيضاً أخبار سن ٦٢٣٦. وقتل أسرى الروم إذا لم يفك أسرهم أو لم يعتنقوا الإسلام، وهو ما يذكره تيوفانيس في أخبار سنة ١٢٣٢، ليس شيئاً غريباً ولا خاصاً، لأنه كان من قوانين الحرب القديمة.

رجل مبالغ في الحساب في الإنفاق مَعْنِيٍّ بالتدبير على قواعد الاقتصاد(١).

ولكن هذه الصفة التي ربما يكون من الممكن تبريرها، إذا نظرنا إلى أن من تقدم هشاماً من الخلفاء كان يخالفه فيها، انقلبت عنده إلى عيب جرّ النكبات، وذلك أنه اهتم بأن يملأ خزانته، ويصفه تيوفانيس بهذه الكلمات:

ἤρξατο κτίξειν κατὰ χώραν ναὶ πόλιν παλάτια καὶ κατασπορὰς ποιεῖν καὶ παραδείσους, καὶ ὕδατα ἐκβάλλειν(2)

وهو قد فعل ذلك جرياً وراء مصلحته الخاصة وأثار بذلك سخطاً شديداً إلى حد أن العباسيين، في وضعهم لبرنامج حكومتهم وفي التحبب إلى من دخل في طاعتهم، لم يجدوا شيئاً أحسن من أن يعدوهم بأنهم لا يريدون أن يبنوا قصوراً، ولا أن يحفروا أنهاراً، ذلك أن النهر معناه امتلاك الضياع وأن القصر من لواحق ذلك. ونظراً لأن هشاماً كان من كبار ملاك الأرض فإنه كان ينافس خالد بن عبد الله القسرى، وكان يمنع خالداً من أن يبيع غلته حتى تباع غلات أمير المؤمنين، فكان السعر يرتفع ارتفاعاً كبيراً، والأدهى من ذلك أن هشاماً كان يعتبر الدولة نفسها أشبه بصافية من صوافيه(٣)، يجب أن يخرج منها أكبر ما يمكن من المال. وانتهت سياسته في الحكم آخر الأمر إلى نزعة ظاهرة نحو ملء الخزانة، فكان لا بد أن يحمل إليه عمالُه أكبر ما يمكن من الأموال، ولم يكن يعبأ بالوسائل التي يبتزونها بها، وزاد في جزية أهل قبرص وضاعف جزية أهل الإسكندرية، ودفع برعاياه في أرض ما وراء النهر وإفريقية والأندلس إلى أحضان اليأس. يقول صاحب كتاب الصلة الأسباني الذي أكمل تاريخ ايزيدور:

---

(١) [راجع الطبري جـ ٢ ص ١٧٣٠ ــ ١٧٤٠، والمسعودي في التنبيه مثلا ص ٣٢٢ ــ ٣٢٣ ــ المترجم].

(٢) [وترجمة هذا النص اليوناني هي: شرع في بناء الدور وإنشاء الضياع في المدن والقرى وفي عمل البساتين البديعة وفي تجفيف الأرض ــ المترجم].

(٣) يعنى الممتلكات الخاصة التي تتبع الخليفة ــ المترجم].

Cupiditate praereptus tanta collectio pecuniarum per duces Oriente et Occidente ab ipso missis est facta, quanta nulla umquam tempore in reges qui ante eum fuerant extitit congregata: unde non modicae populorum katervae cernentes in eo improbam manere cupiditatem ab eius dicione suas dividunt mentes. (§ 94)(1)

هذا ما يقوله عن هشام صاحب كتاب الصلة، مع المبالغة المألوف في تقدير ما جمع من أموال. ويستطيع الفريد فون كريمر ومن تابعه أن يحكموا بأن هشاماً عاد إلى الأصول السليمة القديمة التي كان يسير عليها خلفاء بني أمية، وذلك بعد ما يزعمونه من تزعزع في إدارة الدولة الاقتصادية على يد عمر بن عبد العزيز. ولكن مهما يكن من شيء فإن آخر حكم هشام، وكان حكماً طويلاً مملوءاً بالجد والعمل إذا قورن بغيره، كان تعساً إلى أكبر حد ممكن. وهو لم يكن محبوباً عند أحد، وقد فشل فشلا كبيراً في كل شيء، ثم ترك وراءه تلك الدولة الشاسعة الأطراف في حال أسوأ وأقرب إلى اليأس مما كان قد وجدها. ولم يكن من باب المصادفة أن الدعوة العباسية قويت واشتد أمرها في أيامه.

٤ ــ كان يزيد بن عبد الملك في وصيته التي عهد فيها بالخلافة إلى أخيه هشام، قد عيّن ابنه الوليد بن يزيد ولياً لعهد هشام. وكان الوليد بن يزيد شبيهاً بأبيه يزيد، غير أنه كان يُربى عليه فيما كان له من صفات، وهو يسمى عند صاحب الصلة لتاريخ أيزيدور «بالجميل»، وكان حسن الصورة قويَّ البنية إلى درجة غير مألوفة، ولكنه كان مع ذلك قوي الحيوية ممتاز المواهب العقلية التي أيقظها ووجّهها مُؤَدّبُه عبد الصمد بن عبد الأعلى الشيباني اللغوي المشهور. وقد نشأ في بلاط عمه هشام، ولكن لم يكن في صباه سعيداً، وكان يفعل ما يشتهي ولا يأبه إلى ما سوى ذلك، وكان مطمئناً على مستقبله، لأنه كان يعلم من أول الأمر أنه

---

(١) [وترجمة هذا النص اللاتيني هي: وقد استولى عليه الجشع، وجمع له العمال الذين بعثهم إلى المشرق والمغرب من الأموال ما لم يجمع للملوك الذين كانوا قبله. ولذلك رأى غير قليل من الناس أنه قد ملكه الجشع المعيب، فانصرفت نفوسهم عن الولاء لسلطاته ــ المترجم].

وارث عرش الخلافة. وقد دفعه إلى التمادي في ذلك من كان حوله من أهل المجون والفسق. ووجد هشام أنه يعوزه الجد والظهور اللائق بولي العهد، فكان يتبرم بأنه يقضى وقته في الصيد والشراب مع رفاق من أهل اللهو واللذات وبأن الموسيقى والشعر كانا أحب إليه من القرآن. وقد حاول هشام إصلاحَه، ولكنه لم يحسن اختيار الطريق إلى ذلك، فأخطأ الغرض، ولم يجد الوليد في تبرم هشام به وسوء معاملته له ما يدل على نية طيبة، وكان يُفسِّر ذلك بأن هشاماً يريد أن ينزعه من ولاية العهد. ولعل الوليد لم يكن في ذلك مخطئاً، لأنه كان طبيعياً، ومهما يكن من شيء فإن سوء سلوك الأمير الذي استعصى على الإصلاح دعا هشاماً آخر الأمر إلى أن يخلعه من ولاية العهد وأن يجعلها في ابنه مسلمة بن هشام.

ولكن هشاماً اصطدم فيما أراد بمعارضة حاسمة من جانب بعض أشراف الأمويين وكبار العمال، وخصوصاً أن مسلمة نفسه كان فتى هازلا. ولم يرض الوليد نفسه بأن يتنازل عن حقه. ثم جاءت المضايقة التي لقيها من هشام وحاشيته بسبب رفضه التنازل فجعلته أشد عناداً، وملأت نفسه بالبغض. وأخيراً لم يطق الحياة في القصر؛ وبعد أن مات مسلمة بن عبد الملك، ذلك الرجل ذي السنّ والمكانة العالية التي كان يعيب هشاماً ويكفُّه عن الوليد، خرج الوليد من الرصافة[١] وذهب إلى مكان منعزل في البرية إلى الشرق من فلسطين[٢]، وهناك مضى فيما كان عليه، بل ازداد تمادياً. ولم يكن يعوزه الزوار الذين كانوا يطمعون

---

(١) ويظهر أن هذا هو الذي يؤخذ مما جاء في الأغاني (جـ ٦ ص ١٠٣). أما ما يقال من أن ذلك حدث في السنين الأخيرة لخلافة هشام، فهو يؤخذ بوضوح مما عدا ذلك أيضاً. وقد مات مسلمة بن عبد الملك سنة ١٢٢هـ.

(٢) ذهب الوليد إلى الأبرق أو الأزرق، عند ماء يقال له: الأغدف، بين أرض بلقين وأرض فزارة (أغاني جـ ٦ ص ١٠٤ والطبري جـ ٢ ص ١٧٤٣) من أعمال عمان (الطبري جـ ٢ ص ١٧٩٥ س ١١). ويمكن أن يؤخذ مما جاء عند الطبري (جـ ٢ ص ١٧٥٤ ش ١١) أن ذلك المكان كان قريباً من منزل زيزاء، لكن هذا المكان بعيد جداً إلى الجنوب.

في كرمه وفي دُنُوِّ ملكه، فيجدون عنده ما يرجون. وكان يترقب موت هشام ولا يُخفى ذلك. ولم يكن يكتم ما يجول في نفسه من إحساسات، بل كان يعبِّر عنها في أشعار لا يحتفظ بها لنفسه.

وقد اضطر أن ينتظر سنين، ثم وقع الأمر الذي لم يكن هو وحده يترقبه. ذلك أن حكم هشام كان قد طال، فتنفس الناس الصعداء لما أغمضت المنيةُ عينيه. ولم يكد يموت حتى خرج عياضُ بن مسلم، كاتب الوليد، من السجن — وكان الوليد قد خلفه في الرصافة ليكتب له بما يكون فيها من أحداث، فأخذه هشام وضربه وحبسه — فختم عياض أبواب الخزائن حتى لم يبق قمقم لتسخين الماء لهشام ولا شيء يُكَفَّن به، وذلك أن عياضاً أمر بإنزال هشام من على فرشه وبحمله خارج غرفته. وتلقى الوليد مع أخبار هذه الحوادث شارات الخلافة[١]. وقد احتفل بتلك الساعة على طريقته من التعطش للشراب، ألّف قصيدة مثّل فيها لنفسه بنات هشام يَنْدُبْنَه، وعبّر عما يضمره لهن[٢]، وأمر أن تحصى أموال هشام وولده في الرصافة وبأن يؤخذ أبناؤه وعماله وحَشَمُه إلا مسلمة ابن هشام، ذلك أن مسلمة، وإن كان منافساً حقيقياً له وإن كان أيضاً قد سخر منه سخرية قاسية باسم مستعار، فإنه كان يكثر الكلام مع أبيه في الرفق بالوليد ويكفُّه عنه. ولم يلبث الوليد أن ذهب إلى دمشق لكي يتلقى البيعة في العاصمة (الأغانى ج ٦ ص ١١١ س ١٢). وجاءت الوفود من جميع الآفاق، وكتب إليه العمال الكتب يهنئونه[٣] ويخبرونه بأخذ البيعة له في ولاياتهم ويصفون

---

(١) لا يتكلم الوليد نفسه (الأغانى ج ٦ ص ١٠٩ س ١) عن شيء سوى الخاتم، ويرد بعد ذلك (ص ١٠٩ س ١٨) ذكر الخاتم والقضيب والطومار، ولا شك أن الطومار هو الخطاب الذي جاء فيه نعى هشام له. [لكن نجد عند صاحب الأغانى ج ٦ ص ١١٠ ذكر الحلة والقضيب والخاتم — المترجم].

(٢) [راجع مثلا الأغانى ج ٦ ص ١٠٨ فما بعدها — المترجم].

(٣) [راجع مثلا الطبري ج ٢ ص ١٧٥٢ — ١٧٥٤ — المترجم].

سرور الناس واستبشارهم وتحقق أملهم في خلافته. وكان احتفالٌ كبير. وقد أظهر الوليد ما يدل على تقديره لما كان وعلى عرفانه به، كما أنه استطاع أن يحقق الآمال التي عُقِدت عليه بفضل الأموال التي ادخرها له هشام، فزاد الناس جميعاً في العطاء عشرة دراهم، وزاد لكل من أهل الشام خاصة عشرين درهماً، وردَّ الأعطيات إلى أهل المدينة ومكة، بعد أن كان هشام قد منعها عنهم عقاباً لهم على ميلهم إلى زيد بن علي، وزاد من وفد إليه من أهل بيته في جوائزهم الضعفَ. وأجرى الأرزاق على زَمْنَى أهل الشام وعميانهم، وكساهم، وأمر لكل منهم بخادم، وأخرج لعيالات الناس الطيب والكسوة وزادهم على ما كان يخرج لهم هشام[١].

ولكن الوليد انتقم من أعدائه، غير أنه لم ينتقم من آل هشام مباشرة خشية أن يثير على نفسه الأمويين، فاكتفى بأن ضرب سليمان بن هشام مائة سوط ونفاه بعد ذلك إلى عمان وحبسه بها، وحبس الأفقم يزيد بن هشام. لكنه عاقب إبراهيم ومحمد ابني هشام بن إسماعيل المخزومى على ما اقترفاه من التخلي عنه والانضمام إلى جانب مسلمة بن هشام، لأن مسلمة كان ابن أخت لهما؛ فوجههما إلى المدينة أولاً، وكانا قد فعلا هناك ما بغَّضهما إلى الناس فأقيما للناس (يوم السبت لاثنتي عشرة ليلة بقيت من شعبان سنة ١٢٥هـ = ١٤ يونيه سنة ٧٤٣ م)، ثم أمر بأن يُبعث بهما إلى يوسف بن عمر بالكوفة، وأمره أن يبسط عليهما العذاب حتى يتلفا. وقد فعل ذلك، وكان هذا أيضاً هو مصير بني القعقاع العبسيين الذين كانوا قد أيدوا هشاماً فيما أراده من خلع الوليد من ولاية العهد وجعلها في ابنه (ابن الأثير جـ ٥ ص ١٩٨)، فعُزلوا عن ولايتهم

---

(١) [جاء عند الطبري أن الوليد لم يقل في شيء يُسأله: «لا» فقيل له: «إن في قولك: انظر، عدة ما يقيم عليها الطالب»؛ فقال: «لا أعود لساني شيئاً لم أعتده» الطبري جـ ٢ ص ١٧٥٤ ــ المترجم].

قنسرين وحمص وأسلِموا إلى يزيد بن عمر بن هبيرة الفزارى لينتقم منهم، وكان بنو القعقاع قد ضربوا عمر بن هبيرة بأمر هشام قبل ذلك بعشرين عاماً. وهكذا وقع فصلٌ دموي أخير من فصول العداوة بين قبيلتي عبس وفزارة. وكذلك عزل الوليد عُمّالَ هشام في المدينة ودمشق وعيّن عمالاً غيرهم، فوجَّه خاله يوسف بن محمد بن يوسف الثقفي والياً على المدينة ومكة والطائف، ووجه إلى دمشق رجلاً من ثقيف أيضاً من سلالة الحجاج مباشرة، هو عبد الملك بن محمد بن الحجاج بن يوسف ـــ وهكذا صار الوليد بسبب نسب أمه موالياً لقيْس.

أما فيما يتعلق بالمنصبين الكبيرين في العراق وخراسان، فإنه أقر الواليَيْن اللذين وجدهما، وهما يوسف بن عمر في العراق ونصر بن سيار في خراسان[١]، بل هو أقر حتى آخر أيامه الأبرش الكلبي، كاتب هشام في المنصب الذي كان له من قبل، وجعله موضع ثقته ـــ فكان خِلافُه مع هشام خلافاً شخصياً فحسب. وكان من حيث التمسك بالدين يختلف في سلوكه الشخصي عن هشام اختلافاً كبيراً، لكن اختلافه عنه من حيث المبادئ الأساسية كان أقل من ذلك كثيراً[٢]. أما الزهري وأبو الزناد صديقا هشام فكان الوليد يبغض أحدهما[٣]، لأنه كان يعيبه مع هشام؛ فأما الآخر، وكان قد التزم الحكمة والصمت في أمر يزيد، فإن الوليد أكرمه، وهو كان يحبه من قبل. وكذلك عادى الوليدُ القدريةَ المبتدعة، كما عاداهم هشام من قبل، وأقرّ ما كان قد صنعه هشام من نفى رؤسائهم إلى جزيرة دهلك (قرب مصوع)، واعتبر ذلك عملاً ترجى

---

(١) [لكن الوليد باع في آخر أيامه نصر بن سيار وعماله إلى يوسف بن عمر، (الطبري ج ٢ ص ١٧٦٤ فما بعدها) ـــ المترجم].

(٢) [ربما قصد المؤلف مثلا ما يقوله فيما يلي: من أن الوليد لم يغير شيئاً مما فعله هشام بالقدرية (الطبري ج ٢ ص ١٧٧٧) ـــ المترجم].

(٣) [هو الزهرى، بحسب الأغاني ج ٦ ص ١٠٦، وقد مات قبل تولى الوليد الخلافة ـــ المترجم].

منه المغفرة لهشام. وامتنع الوليد من الاستجابة إلى من كلمه في أمر القدرية، فهو لم يَرْضَ كما لم يرض هشام من قبل بالخروج بالدين من مرحلة الأخذ بالموروث إلى مرحلة النظر العقلي. ويمكن أن يؤخذ من بعض الأخبار التي ذكرها تيوفانيس أن الوليد قد اضطهد النصارى. غير أن هذا لا يبدو متفقاً مع المعروف عن طبيعة الوليد وخليقته. ويظهر أنه في الحقيقة لم يكن له يد فيما عومل به الأسقف بطرس الدمشقي، وبطرس الميومى الذي كان عاملاً على الخراج. وكل من هذين الرجلين سعى إلى العذاب والاستشهاد طريق سب الإسلام وشتم النبي [عليه السلام]؛ أما ما كان في عهد الوليد من نقل بعض أهل قبرس إلى الشام فلم يكن له علاقةٌ بالدين.

ويمكن القول في الجملة إن الوليد بن يزيد إنما كان يعبث بما له من سلطان. فكان ينظر إلى قيامه بشئون الحكم كما ينظر إلى نوع من الرياضة والفروسية، ولم يشمل بأمور الحكم اشتغال جد وعناية، وهو بعد أن تولى الخلافة لم يغير إقامته في بريّة شرق الأردن (الطبري جـ ٢ ص ١٧٩٥ س ١١)، ولم يزايل روحَه ذلك الإحساسُ المرير المشرب باحتقار الإنسانية وكراهية الناس. وهو الإحساس الذي تكوّن في صباه. وهو بعد موت هشام أيضاً تباعد عن الجو الذي كان ينبغي أن يكون فيه، ونفّر من نفسه قرابتَه وأترابَه (أغانى جـ ٦ ص ١٣٧ س ٦). وكان لا يبالى أقل مبالاة بالرأي العام ولا يجعل له سبيلاً على نفسه. وكان له بطبيعة الحال ديوانٌ في قصره، ولكن كان لا يفارقه الجو الذي كان يرتاح إليه من قبل، من خيل وكلاب وصيد ومغنّين ومغنيات وشعراء وأدباء، وكان في أثناء النهار يركب ويجول في البادية، وكان الإجهاد البدنى بالنسبة له ضرورة أشبه شيء بلعب الأطفال. وقد بلغ من شدة قوّته أنه كانت تُوتَد لَه سكةُ حديد فيها حبلٌ ويشدُّ الحبل في رجله، ثم يثب على دابّته، فينتزع السكة ويركب، ما يمسُّ الدابةَ بيده. أما الليل فكان يقضيه في الشراب. وكان

الوليد يتميز بشعور جنوني بما له من قوة؛ ويحكى عنه أنه قال؛ وَدِدْتُ أن كل كأس يُشْرَب من خمر بدينار، وأنَّ دون كل امرأة أسداً، حتى لا يشرب إلا سخيً ولا ينكح إلا شجاع. ولكن الوليد لم يكن منغمساً في الغلظة الوضعية كل الانغماس، بل اجتمع عنده الودُّ لشرار النساء مع العشق الملتهب للمرأة النبيلة، يسعى طويلاً لوصلها دون أن يظفر بها، حتى إذا نالها أخذها منه الموتُ. وكانت كل مناسبة تبعث الشعر في نفسه قصائد قصيرة يعبر فيها عن إحساس الساعة تعبيراً رشيقاً سهلاً في صورة مبتكرة. وربما كان يستطيع الإنسان أن يجمع تاريخ حياته من هذه القصائد، لو أنها بقيت حتى وصلت إلينا كاملة، ولكن نظراً لأنه كان خليفة فلم يكن يليق به أن تُجْمع أشعاره وتُذاع في الناس، وإنما كانت تُخْتَلس اختلاساً، بل يُرْوى أن الوليد كان أحياناً يخطب الجمعة شعراً[١]. فهو كان يقدر على أشياء كثيرة، ولكن كل شيء كان عنده وليد الحالة النفسية المؤقتة التي يكون فيها، وكانت أحواله تتغير بسرعة ما يتقلب كفُّ اليد، فقد تجده يتعمق في مناقشة دينية مع أحد العلماء، وتجده بعد ذلك يشرب خمراً ويهزأ بما هو مُقَدَّس. ولم يكن يرد لأحد رجاءً، وهو لم يكن سريع الغضب فحسب، بل كانت فيه أيضاً قسوة الأطفال؛ ولقد كان من البلاد أنه تولى الخلافة[٢].

وقد أنفق الوليد الأموال التي كان قد جمعها هشام أسرع مما كان يظن، وكان

---

(١) [راجع ما روى من خطبه وكتبه شعراً، وخطبة من على المنبر شعراً بأكملها، في الأغانى جـ ٦ ص ١١١، ١٢٨ ـ ١٢٩ ـ المترجم].

(٢) قارن ما في الأغاني عن الوليد ٦ ص ١٠١ فما بعدها. وكثير من ذلك غير جدير بالثقة. ولقد قال خالد بن عبد الله القسري لما ذكر أمامه الوليد في معرض المجون والفسق: أمر الوليد أمر غائب عني، ولا أعلمه يقيناً، إنما هي أخبار الناس (الطبري جـ ٢ ص ١٧٧٦، ١٧٧٧).

لا يكفيه دخله العادي، بل كان يحتاج إلى أموال لا تتيسر عادة. وقد استفاد يوسف بن عمر من هذا لكي يشترى نصر بن سيار الذي كان قد أصبح متعززاً عليه بما له من استقلال. فعرض على الخليفة مالاً كثيراً لكي يضمَّ إليه ولاية خراسان: وقد حصل عليها، فبعث الخليفة في استدعاء نصر بن سيار وعياله أجمعين إلى الشام، وكلَّفه أن يُحْضِرَ له معه أشياء كثيرة من بُزَاة الصيد والخيل والبراذين والبرابط والطنابير وأباريق الذهب والفضة وتماثيل الظباء ورءوس السباع والأيايل وكل صنّاجة ووصيفة حسناء. ولم يدخر نصر مالا ولا وقتاً في الحصول على ما أراده الخليفة، وعلى كثير من الجوارى الحسان والمماليك بكامل سلاحهم. ولكنه عندما خرج آخر الأمر من خراسان تلقى خبر مقتل الوليد، فقفل راجعاً.

ومن جهة أخرى أفلح يوسف بن عمر، هذا الشيطان المارد، في أن يجعل خالد القسرى في قبضة يده، وذلك بعد عناء طويل في عصر هشام، لم يظفر منه بطائل. ولقد كان لدى الوليد من الأسباب ما يستوجب عليه الشكر لخالد، ذلك أن خالداً دافع عن الوليد لدى هشام وأنه بعد أن مات هشام لم ينقلب على الوليد، رغم محاولة أعداء الوليد إيقاعه في شرك الخيانة له؛ ولكن الوليد ارتاب به، لأنه كان يعلم أكثر مما كان يستطيع أن يقول[1]. فقبض عليه الوليد وحاول أن يستخرج منه أشياء، فلم يكشف عنها لكي لا يوقع غيره في البلاد والمحنة. وقد عذَّبه الوليد، فلم يتكلم ولم يتأوَّه، فعند ذلك باعه إلى عدوِّه اللدود يوسف بن عمر بخمسين ألف ألف. فحمله يوسف بن عمر إلى الكوفة على أقسى

---

(١) [لما أجمع المتآمرون على قتل الوليد جاءوا إلى خالد القسرى ودعوه إلى أمرهم، فلم يجبهم. فلما سألوه أن يكتم عليهم وعدهم ألا يسمى أحداً منهم. ثم أراد الوليد الحج، وخشى خالد أن يفتكوا به في الطريق، فقال للوليد: يا أمير المؤمنين! أخر الحج هذا العام، فلما سأل الوليد خالداً عن السبب لم يجبه، فأمر الوليد بحبسه وأن يرد ما عليه من أموال العراق (الطبري جـ ٢ ص ١٧٧٨)، ويظهر أن هذا هو الذي يريده المؤلف ــ المترجم].

صورة، وعذبه حتى مات دون أن يستطيع كَسْرَ كبريائه، أو حتى أن يبلغ منه أن يتكلم أو يعبس من الألم. ومات خالد تحت العذاب في المحرم سنة ١٢٦هـ (نوفمبر سنة ٧٤٣ م) ودُفِن في الحيرة.

وقبل ذلك بقليل (الطبري جـ ٢ ص ١٨٢٠) كان يحيى بن زيد بن علي قد قُتِل، وحُمِل رأسه إلى الوليد، فأمر بنصب الرأس أمام طائفة من علية القوم كان قد دعاهم إلى وليمة. ثم ازدادت المرارة التي أحدثتها أفعالُه في دوائر واسعة النطاق في المشرق، لأنه أمر بأن يُفْعَل بقبيلة كلب في العراق ما فعله العبرانيون من قبل في صنم لهم بأن أحرقوه وذروا رماده في الماء. ومن البديهي أن يكون السخط الذي أحدثه قتلُ خالد، بعد عذاب طويل، شديداً جداً في حينه، ذلك أن ما فعله الوليد بخالد كان بمثابة تحدٍّ لقبائل اليمن. وكان معنى تسليط يوسف بن عمر على خالد القسرى هو إغراء قبائل قيس بقبائل اليمن. وبدا أن الخليفة قد صار هو ويوسف بن عمر وبقية آل الحجاج حزباً واحداً لا يفصل بينهم فاصل. ويدل على أن هذا كان هو رأى الناس حقيقة أشعارٌ بعضها حقيقي موضوع. ولأول مرة حدث تذمُّرٌ سياسي شامل في العراق وفي الشام، وألف هذا التذمر بين اليمن هنا وهناك، وكان أشد الناس تأثراً بذلك هم يمن الشام وخصوصاً كلب، لأن خالداً كان قد قضى سنيه الأخيرة في دمشق، ونال هناك محبة أصدقاء كثيرين. ولكن التذمر من الخليفة خاصة كان أكثر منه من قيس بوجه عام، وقد نفخ أعداء الخليفة الشخصين في نار الفتنة واستغلوها لأغراضهم الخاصة. ولم يكن الاشتراك في الثورة الصغيرة التي نشأت عن ذلك اشتراكاً إجماعياً، وهي وإن كانت قد جاءت من جانب قبائل اليمن، فلم يكن اليمانية وحدهم في جانب والقيسيون وحدهم في الجانب الآخر، بل نجد عبس قيس يقفون في الجانب المعادى للخليفة، لأنه كان قد أغضبهم بما فعله مع

بنى القعقاع. ومن جهة أخرى لم يأت لنجدة الخليفة البهرانيون[١] من حمص فحسب، بل جاء أيضاً قومٌ من كلب من قبائل عامر وسُلَيم بن كيسان. ولم تندلع النار على الفور في قوة، لكنها امتدت إلى أوسع نطاق بسبب مقتل الوليد. وكانت كل مناسبة كافيةً في إثارة الشر الكامن، وفي إيجاد منزع للصدور المُتْرَعَة، وكان كل نزاع قابلا لأن ينقلب نزاعاً عاماً بين القبائل. وقد لعب الإسلام بطبيعة الحال دوراً في ذلك، فكان أهل الديانة والورع حانقين على الخليفة الذي لا دين له، خصوصاً القدرية الذين كانوا أولى الناس بأن يسخطوا عليه (الطبري ج ٢ ص ١٨٢٧).

وكان الوقت الذي انقضى بعد تولى الوليد، وكان فيه خالد بن عبد الله القسرى لا يزال يقيم في دمشق، كافياً لوضع خطة التآمر على الوليد. وكان على رأس المتآمرين أعمامُه هو، فكانوا من أمراء بني أمية، وإن كان من الجائز أنهم لم يكونوا هم الرءوس المفكرة المدبرة للموامرة (الطبري ج ٢ ص ١٨٢٣). وقد كانوا هم نصحاءه الطبيعيين، لكنه انسحب من زمرتهم ونأى بنفسه عن مشورتهم وإشرافهم، وأصبح مسلكه مهدِّداً بإضاعة ميراث آبائه، الذي كان لهم هم أيضاً الحق فيه. وقد أغضبهم أيضاً بأن عقد البيعة من بعده لاثنين من أبنائه، من غير أن يُدْخِلَ بينه وبينهما أحداً، لأنه كان قد لقى في صباه ما لقى من دخول هشام بينه وبين أبيه، وذلك بالرغم من أن ولديه لم يكونا قد بلغا سن الرشد، وكانا فوق ذلك ابنيْن لأم ولد كانت جارية عنده[٢]، فلم يكونا لهذين السببيْن وبحسب

---

(١) يخطئ ا. موللر في اعتبارهم قيسيين.

(٢) [لا يتفق هذا مع ما يقوله المؤلف فيما بعد من أن أحدهما شكا من أن أمه من كلب ــ فلا شك أن ههنا خطأً ــ المترجم].

ما تقضى به العادة العربية والإسلاميةُ أهلا لولاية الحكم[١]. وقد شعر أبناء الوليد بن عبد الملك خاصة، وكانوا كثيرين (الطبري جـ ٢ ص ١٧٩٤)، أن ما فعله يزيد آذاهم أذىً بالغاً، ذلك أن الوليد بن عبد الملك، وهو أبوهم، كان أكبر أبناء عبد الملك، وكانوا يأملون أن يصلوا إلى الخلافة بعد موت سليمان بن عبد الملك (الطبري جـ ٢ ص ١٣٤٥) ولكن لم يكن دَوْرُهم قد جاء بعد؛ والآن يُنَجِّيهم أبناء يزيد بن عبد الملك عن المكانة التي يطمحون إليها. وقد انضم إليهم أيضاً أبناء هشام وغيرهم من بنى مروان. ولم يكن ابن عمهم الوليد راضياً عنهم، وكانوا يتحدثون فيما بينهم أنه قد أعدّ مائة جامعة (سلسلة) من الحديد وكتب على كل واحدة منها اسم رجل من بني أمية ليقتله بها. وكان من الذين يؤيدونهم. وربما كانوا أيضاً هم الذين كانوا يحرضونهم، قوم من أشراف كلب[٢] في دمشق، وكانوا قواداً وعمالاً ساخطين أزيلوا عن مناصبهم، ويقال إنهم سعوا إلى خالد بن عبد الله القسرى لكي ينضم إليهم. ويذكر الطبري (جـ ٢ ص ١٧٧٨) أسماءهم، ولكن منصور بن جمهور صار أكثرهم ذكراً عند المؤرخين فيما بعد، وكان طبيعياً أن ينضم أبناء خالد القسرى إلى حزب هؤلاء المتآمرين على الخليفة؛ وقد ظهر يزيد بن خالد من مخبئه ولعب في ذلك دوراً كبيراً. ومن جهة أخرى وقف السفيانيون إلى جانب الوليد بن يزيد لأنه كان ينتسب إليهم من طريق جدته بنت يزيد بن معاوية بن أبي سفيان، وكان أبرزهم أبو محمد زياد بن عبد الله بن يزيد بن معاوية السفياني. وكان إلى جانب الوليد أيضاً من بني مروان العباس بن الوليد بن عبد الملك، وكان موضع ثقة الوليد.

---

(١) قارن كتابي الوليد إلى نصر بن سيار عند الطبري (جـ ٢ ص ١٧٥٥ ــ ١٧٦٤)، وتاريخهما الثلاثاء ٢٢ رجب سنة ١٢٥هـ (٢١ مايو سنة ٧٤٣ م) والخميس ١٥ شعبان سنة ١٢٥هـ (١٣ يونيه سنة ٧٤٣ م). وقد كتبهما سمال والنضر. وقد رفض خالد القسرى أن يوافق على مبايعة الصبيين قبل أن يبلغا ــ الطبري (جـ ٢ ص ١٧٧٦).

(٢) وكان يرتبط بكلب بعض قبائل اليمن الخالصة، وكانوا يسكنون فيما حول دمشق.

ووثب يزيد بن الوليد بن عبد الملك، وكان أكثر إخوته طموحاً، وكانت أمه إحدى بنات ملوك السغد وقعت أسيرة في يد المسلمين، فأخذ البيعة لنفسه وصار خليفة إلى جانب الوليد بن يزيد. وقد انضم إليه أولياءٌ وأنصارٌ بما بعثره عليهم من المال (تيوفانيس في أخبار سنة ٦٢٣٥ من تاريخ الخليقة)، واستطاع بفضل فصاحته وربما كان يظهره من النسك والتواضع أن يَضُمَّ إليه أهلَ الديانة (الطبري ج ٢ ص ١٨٣٧، ١٨٦٧). ولما جاء الوقت الذي واعدهم عليه تنكّر وركب حماراً، وسار إلى دمشق في سبعة نفر، وأخذ وهو في دمشق يتصل بأنصاره، ولم يكن معظمهم في دمشق نفسها، بل كانوا يسكنون في القرى المحيطة بها. وبمعونتهم دخل المسجد الجامع في يوم جمعة[١]، وهو يوم الصلاة الجامعة الذي يقع عليه الاختيار عادة لمثل هذه المناسبة، وكان في المسجد كثير من السلاح وعدة الحرب. وقبض يزيد على عمال المدينة، كما أمر بالقبض على أميرها الغائب[٢] وعلى أمير بعلبك. ثم دخل المدينة، وقد فُتِحت أبوابُها، ألفُ وخمسمائة رجل من كلب جاءوا إليه من المزة، وجاء قوم من غسان ولخم وكندة وغيرهم من القرى الأخرى المجاورة، وكان معظمهم من قبائل اليمن خاصة. ولم تقع في أي مكان مقاومة ذات بال، ويظهر أن الحكومة لم يكن تحت تصرفها عددٌ بذكر من الجند المستعدّين للقتال، بل كان الجند في الأمصار بعيدين عن الشام. ولم ينتصف اليوم التالي حتى بايع الناس في دمشق يزيد بن الوليد، وكان فرحاً، وكان يتمثل بأحد أبيات النابغة، مما عجب له من كان معه من أهل الدين، لأنه كان قبيل الصبح يسبّح وهو الآن ينشد الشعر. ولكن لما انتدب يزيد المتطوعين إلى قتال الخليفة الشرعى لم يجتمع إليه إلا قليلون، ولم يستطع رغم ما بذل من عطاء كبير أن يحصل على أكثر من ألفي رجل، وقد

---

(١) لا يذكر تاريخ دقيق لذلك.

(٢) كان يخاف على نفسه من هواء دمشق، فكان يقيم في قطن.

أمر عليهم عمه عبد العزيز بن الحجاج بن عبد الملك، وأخذوا يتناقصون كلما تقدموا في المسير[(١)].

أما الوليد بن يزيد فإنه فوجئ بأول أخبار الثورة، وقد حمل إليه الخبر مولى له خرج على فرسه مسرعاً حتى بلغ الوليد من يومه، وقد نفق فرسه؛ فكان جزاؤه من الوليد أن ضربه مائة سوط. وقد رفض ما أشار عليه أولياؤه به من المسير إلى حمص أو تدمر أو إلى حصون أخرى كانت قريبة. ولم يترك ماء الأغذف إلا في آخر لحظة عندما كان جيش عبد العزيز في طريقه إليه. ولجأ الوليد إلى حصن البخراء الذي لم يكن بعيداً عنه، وكان معه مائتا رجل، وقد أسرعت إليه فرق كثيرة من الفرسان جاءوا من بعيد ومن قريب، منهم قوم من كلب، جاءوا من تدمر (وعلى رأسهم الوليد بن أخي الأبرش الكلبي) وبهرانيون أقبلوا من حمص وغيرهم. ونهض عباس بن الوليد أيضاً لنجدته ومعه أبناؤه الثلاثون، ولكن عبد العزيز عرض له قبل أن يبلغ الوليد، فأسره وأرغمه على أن ينضم إلى جيشه.

وجاء الرسل الواحد بعد الآخر ينقلون إلى الوليد أخبار الأعداء الزاحفين إليه، ولكنه كان لا يلتفت إلى ما يقوله الرسل إلى أن رأى الأعداء أمامه. كان جنده القليلون معسكرين بحسب العادة العربية أمام الحصن، وكان قد أعطاهم صكوكا يتقاضونها فيما بعد لأن المال كان قد نفد من يديه. وقد رأوا أن حاضرَهم ليس فيه أمل؛ وأعطاهم انضمامُ العباس بن الوليد إلى المعسكر الآخر مثلاً خطراً[(٢)].

---

(١) الطبري جـ ٢ ص ١٧٩٧.

(٢) [هذه هي الترجمة الحرفية لكلام المؤلف، والمقصود إما أنهم قلدوا العباس بن الوليد في عدوله إلى جيش عبد العزيز، وبدأت الخيانة، ويدل على هذا ما جاء في الطبري (جـ ٢ ص ١٨٠٥ ـ ١٨٠٦)؛ وإما أن منع العباس من الوصول إلى الوليد وإكراهه على الانضمام إلى جيش الأعداء (الطبري جـ ٢ ص ١٧٩٨، ١٨٠٣ ـ ١٨٠٤) أظهر للمدافعين غلبة الأعداء. وعلى كل حال، فقد «أسقط في يد أصحاب الوليد وانكسروا» (الطبري جـ ٢ ص ١٨٠٥) ـ المترجم].

وزاد الطين بلّة أن كلب تدمر لم يريدوا أن يقاتلوا كلب دمشق. ولم يكن أمام عبد العزيز، لما بدأ الهجوم عند طلوع الشمس، إلا لعبة سهلة. وقد اشترك الوليد بن يزيد في المعركة بنفسه وكان أشجع من قاتل، ولكنه لم يلبث أن وجد أن الجميع تفرقوا عنه، فرجع إلى الحصن ودخل، ثم جلس ونشر المصحف يقرأ، وقال: «يوم كيوم عثمام». وتلقى الضربات التي قتلته، وهو على تلك الحال[1]. وأقبل أحد موالى خالد بن عبد الله القسرى، فسلخ من جلد الوليد قَدْرَ الكفّ وأتى بها إلى يزيد بن خالد علامةً على الثأر لخالد. أما رأسه فقد حُزَّتْ وحُمِلَتْ إلى يزيد، وكان الذي حزّها رجل يلقب بوجه الفلس[2]. فأمر يزيد بنصب الرأس على رمح والطواف به في مدينة دمشق. وبعد شهر دُفع الرأس إلى سليمان بن يزيد أخي الوليد، فلم يجرؤ على دفنه جبناً منه، وأخذ يتّهم أخاه المقتول ويذكر ما كان منه من شرب الخمر والمجون والفسق. وكانت هذه الكارثة يوم الخميس لليلتين بقيتا من جمادى الآخرة سنة ١٢٦هـ الموافق يوم الخميس ١٧ أبريل سنة ٧٤٤ م[3]. وإذا أراد المؤرخ أن يصدق يزيد بن الوليد فيما يقوله، فهو يقوله إنه ما ثار إلا غضباً لله ورسوله ودينه وإنه وصل إلى الخلافة بإرادة الشعب، ويقول

---

(١) تذكر أسماء الذين اقتحموا على الوليد وقتلوه عند الطبري جـ ٢ ص ١٧٣٠ ـ قارن أيضاً ص ١٨٧٨ [والذي يذكره المؤلف عن نهاية الوليد مضمون إحدى الروايتين اللتين ذكرهما الطبري (جـ ٢ ص ١٧٩٥ ـ ١٨٠١)؛ وعند الطبري رواية أخرى: جـ ٢ ص ١٨٠٦ ـ ١٨٠٧ ـ المترجم].

(٢) [ليس هذا الرجل هو الذي احتز رأس الوليد، والروايات مختلفة فيمن فعل ذلك ـ راجع الطبري جـ ٢ ص ١٨٠٠، ١٨٠٦، ١٨٠٩ ـ المترجم].

(٣) يذكر الطبري (جـ ٢ ص ١٨١٠ س ٦) والمسعودي في كتاب التنبيه (ص ٣٢٤) أن القتل كان لليلتين بقيتا من جمادى الآخرة وأنه كان يوم الخميس. وفي الطبري أيضاً (جـ ٢ ص ١٨٣٦ س ١٤) أن ذلك كان يوم الأربعاء. ويذكر تيوفانيس (أخبار سنة ٦٢٣٥) الخميس ١٦ أبريل سنة ٧٤٤ م، على حين أن إلياس النصيبي يذكر يوم الخميس ٢٥ جمادى الآخرة.

إن الوليد إنما قُتل لأنه رفض ما عُرِضَ عليه من أن يكون الأمر شورى، حيث ينظر المسلمون لأنفسهم من يقلّدونه الخلافة، فلم يجب الوليد إلى ذلك وبادر بالحملة على من أرسلوا إليه لدعوته إلى كتاب الله وسنة رسوله (الطبري جـ ٢ ص ١٨٣٤ فما بعدها وص ١٨٤٣ فما بعدها)(١).

ولما علم أهل حمص بمقتل الوليد وثبوا على دار العباس بن الوليد وهدموها، متَّهمين إياه بخيانة الوليد والانحياز إلى عدوه. وقصدوا دمشق وعلى رأسهم أبو محمد السفياني يعد أن قال لهم: «لو قد أتيتُ دمشق ونظرتُ إلى أهلها لم تُخَالِفْنى»، فأمَّروه عليهم ظناً منهم أنه لن يكاد يظهر أمام المدينة حتى تقع في يديه، ولكن الذي وقع كان غير ذلك، فقد هزمهم سليمان بن هشام قريباً من دمشق. وكان مصيرهم الفناء التام لولا أن يزيد بن خالد بن عبد الله القسرى وقوما من كلب حالوا بينهم وبينه. أما أبو محمد السفياني فأخِذ إلى الخضراء، سجن دمشق. وفيه حبس أيضاً ابنا الوليد بن يزيد وآخرون من السفيانيين. واجتمع أمر أهل دمشق وبايعوا يزيد بن الوليد. وقد قامت ثورات أخرى في أنحاء من فلسطين ولكن قضى عليها بالعنف أو بالصلح(٢).

٥ ــ وخطب يزيد بن الوليد بعد أن بايعه الناس خطبة افتتح بها عهده، فضمنها كثيراً من المعانى، وتشبّه بعمر بن عبد العزيز، قديس بني أمية، فقال إنه إنما خرج غضباً لله ورسوله ودينه، ثم هاجم الوليد بن يزيد، وبعد ذلك وعد الناس بأن لا يضع حجراً على حجر ولا لَبِنَةً على لبنة، وألا يَكْرِى نهراً

---

(١) [جاء في الطبري أن عبد العزيز قائد يزيد بن الوليد كان معه كتاب معلق في رمح مكتوب فيه: إنا ندعوكم إلى كتاب الله وسنة نبيه صلى الله عليه وسلم وأن يصير الأمر شورى. أما ما يقوله المؤلف فهو مأخوذ من خطاب كتبه يزيد بن الوليد إلى أهل العراق، راجع إلى جانب الإشارة التي يذكرها المؤلف ما جاء عند الطبري جـ ٢ ص ١٨٠٤ ــ المترجم].

(٢) [راجع فيما تقدم مثلاً الطبري جـ ٢ ص ١٨٢٦ ــ ١٨٣٤ ــ المترجم].

ولا يكنز مالاً ولا يعطيه زوجةً ولا ولداً، ولا ينقل مالاً من بلدة إلى بلدة حتى يَسُدّ ثغر ذلك البلد وخصاصةً أهله بما يغنيهم، فإن فضل شيء نقله إلى البلد الذي يليه ممن هو أحوج إليه، وألا يُجَمِّرَ الجُنْدَ في الثغور تجنباً لفتنتهم وفتنة أهليهم، وألاَّ يغلق بابه دون أحد حتى لا يأكل القويُّ الضعيف، وألا يحمل على أهل الجزية ما يجليهم عن بلادهم ويقطع نسلهم، وكان مما قاله: «وإن لكم أعطياتكم عندي في كل سنة وأرزاقكم في كل شهر حتى تستدرَّ المعيشة بين المسلمين، فيكون أقصاهم كأدناهم؛ فإن وفيتُ لكم بما قلتُ فعليكم الطمعُ والطاعة وحسنُ المؤازرة، وإن أنا لم أفِ لكم فلكم أن تخلعوني إلاَّ أن تستتيبوني، فإن تُبْتُ قبلتُم مني، فإن علمتُم أحداً ممن يُعْرَف بالصلاح يعطيكم من نفسه مثل ما أعطيتُكم، فأردتم أن تبايعوه، فأنا أول من يبايعه ويدخل في طاعته»، وختم خطبته قائلاً: «أيها الناس! إنه لا طاعة لمخلوق في معصية الخالق ولا وفاء له بنقض العهد، إنما الطاعة طاعة الله فأطيعوه بطاعة الله ما أطاع، فإذا عصى الله ودعا إلى المعصية فهو أهلٌ أنْ يعصى، أقول قولي هذا وأستغفر الله لي ولكم[١]». وكأنما كان الخليفة يعبر بخطبته عن أعماق نفوس القدرية الذين كانوا في مبادئهم السياسية متفقين مع المرجئة وهم الذين كان يزيد يتودد إليهم أيضاً (الطبري جـ ٢ ص ١٨٦٧ و١٨٧٤ و١٨٩١ س ١٢). ولما انتهى يزيد من خطبته قام قيس بن هانئ العبسي، وكان رجلاً صالحاً غوغائياً (ديماجوجيا)، فأثنى على يزيد ثناء ممقوتاً، لأنه قال: «يا أمير المؤمنين! اتق الله ودُمْ على ما أنتَ عليه، فما قام مقامك أحدٌ من أهل بيتك؛ وإن قالوا: عمر بن عبد العزيز!

---

(١) [خطبة يزيد عند الطبري جـ ٢ ص ١٨٣٤ ــ ١٨٣٥. وقد آثرنا اتباع نص الخطبة في النقط التي اختارها منها المؤلف ــ المترجم].

فأنت أخذتها بحبل صالح، وإن عمر أخذها بحبل سوء»[1]. وقد رأى مروان بن محمد أن هذا المتملق قد ذم جميع الأمويين وذم عمر بن عبد العزيز معهم. ولما ولى مروان بعث إليه رجلاً فقتله. وإذا كان يزيد قد وعد بدفع الأعطيات في كل سنة والأرزاق في كل شهر فإن ذلك وعدٌ لم يتحقق أكثر مما يتحقق مثله في تركيا[2]، ذلك أنه نقص الناس الزيادة التي كان الوليد بن يزيد قد زادهم إياها في أعطياتهم، فسُمِّي لذلك: يزيد الناقص، أو ὁ λειψός[3].

وقد اعتمد يزيد على أهل اليمن وخصوصاً كلباً، اعتماداً ظاهراً. فلم يكن يُرى أحدٌ من قيس يغشاه أو يقف ببابه (الطبري جـ ٢ ص ١٨٣٧). وعيّن على العراق منصور بن جمهور الكلبي، وكان «أعرابياً جافياً» متهوراً، ولم يكن من أهل الدين. فذهب منصور إلى العراق في اليوم الذي قتل فيه الوليد بن يزيد. وقد تعرض له خمسمائة من كلب وأرادوا أن يأخذوا عليه الطريق. ولكنهم لم يُهايجوه، فانتزع سلاحهم منهم وأدخلهم الكوفة؛ هذا مع أنه لم يكن معه سوى ثلاثين من رجاله، وفي رواية أخرى أنه كان معه سبعة نفر[4]. ولم يجد يوسف بن عمر من يؤيده بين جند الشام في الحيرة والكوفة، ولم يكن من الممكن، في ذلك الوقت، الاعتماد على المقاتلة من أهل العراق. وأخفق يوسف في محاولته أن يفرّق ما بين قيس وكلب، فجعل يعمد إلى من بحضرته من اليمانية

---

(١) [راعينا هنا ما جاء في الطبري جـ ٢ ص ١٨٣٥ ـ ١٨٣٦، غير متقيدين بما يقوله المؤلف مما هو استنتاج من خطبة قيس بن هانئ العبسي القصيرة جداً على كل حال ـ المترجم].

(٢) [ظهر كتاب المؤلف في سنة ١٩٠٢ ـ المترجم].

(٣) [هذه الكلمة اليونانية معناها: «المنقص»، ولا شك أنها جاءت في كتاب تيوفانيس الذي يعتمد عليه المؤلف في بعض الأحيان، على أن في تسمية يزيد بالناقص أكثر من وجه (الطبري جـ ٢ ص ١٨٢٥، ١٨٧٤) ـ المترجم].

(٤) [راجع الطبري جـ ٢ ص ١٨٣٦ ـ ١٨٤١ ـ المترجم].

فيلقيهم في السجون، ثم جعل يخلو بالرجل بعد الرجل من المُضَرِيَّة، فيقول له: «ما عندك إن اضطرب حبلٌ أو انفتق فتقٌ»، فيقول: «أنا رجلٌ من أهل الشام، أبايع من بايعوا وأفعل ما فعلوا»(١)، ذلك أن جند الشام لم يكن لهم إمامٌ بعد مقتل الوليد بن يزيد، فلم يكونوا يعرفون الخليفة الذي عليهم أن يقاتلوا من أجله. وتردد يوسف بين العناد والتحدّى وبين الشجاعة والخور، فكان أحياناً يتعالى كأنما يقف على أطراف أصابع قدميه، وأحياناً أخرى ينكمش في نفسه. وكان لا محالة واقعاً في يد منصور بن جمهور، وكان منصور يريد أخذه، لولا أن سليمان بن سليم الكلبي أنقذه بأن استحثّه على الفرار وسّهله عليه، فخرج يوسف إلى البلقاء، من أعمال شرق الأردن، وهناك اختبأ. ولكن اختباءه لم يَطُل، فقد وجَّه يزيدُ بن الوليد محمدَ بن سعيد الكلبى، أحد قواده، للتفتيش عنه في البلقاء، فأخرجه من بين أهله ونسائه وبناته، وكان قد لبس ملابس النساء. ثم أخذه فزجّ به في سجن الخضراء. وكان يوسف بن عمر من أعظم الناس لِحْيَةً، حتى كانت لحيته تجوز سُرَّتَه، وكان من أصغرهم قامة، فأضحك الناس لما بدا عليه من حمق وخوف لا معنى له، ولطول لحيته التي أغرت الحرسَ، فأخذ أحدهم بها وهزها ونتف بعضها(٢).

ودخل منصور بن جمهور الحيرة والكوفة في أوائل رجب سنة ١٢٦هـ (آخر أبريل سنة ٧٤٤ م)، فأخذ بيوت الأموال وأخرج العطاء والأرزاق، وأطلق من كان ألقى بهم يوسف بن عمر في السجون من العمال وأهل الخراج(٣). واستولى عماله على واسط والبصرة دون مقاومة، ولكنه لم يبق طويلاً على

---

(١) [راجع الطبري جـ ٢ ص ١٨٣٧ ــ ١٨٣٨ ــ المترجم].

(٢) يجد القارئ خبر عزل يوسف بن عمر وما أصابه عند الطبري جـ ٢ ص ١٨٣٦ ــ ١٨٤٣ مثلا ــ المترجم].

(٣) راجع الطبري جـ ٢ ص ١٨٤١، ١٨٥٤ ــ ١٨٥٥، على الولاء ــ المترجم].

إمرة العراق، فعزله يزيد في رمضان أو شوال سنة ١٢٦هـ (يوليه سنة ٧٤٤ م) وعيّن مكانه عبد الله بن عمرو بن عبد العزيز. وكان يزيد يعتقد أنه بذلك يُرْضِي أهل العراق، لأن عبد الله كان شبيهاً بأبيه، ولأن أهل العراق كانوا يميلون إلى عمر بن عبد العزيز[١].

وقد اعترفت ولايتا سجستان والسند بالخليفة الجديد، وعيّن هو عليهم والياً من كلب. وقد خضعت له مصر أيضاً، فيما يقوله تيوفانيس. ولكن ليس صحيحاً ما يزعمه المؤرخ الإسباني الذي كتب كتاب الصلة لتاريخ ايزيدور إذ يقول: Omnes suae patriae (eum) ocius recognoscunt (= وقد بايعه كل أهل بلاده)، ذلك أن نصر بن سيار في خراسان ومروان بن محمد في أمينية والجزيرة لم يشعرا أنهما عمال للخليفة الجديد، واتخذا موقف ترقّب[١]. ولم يطل انتظارهما، لأن يزيد مات في يوم الجمعة ١٢ من ذى الحجة سنة ١٢٦هـ (٢٥ سبتمبر سنة ٧٤٤ م)، وكان ذلك بعد أن تولى الخلافة بمائة واثنين وستين يوماً[٣]. وكان يزيد قبل موته قد أخذ لأخيه إبراهيم بن الوليد البيعة على الناس ولعبد العزيز بن الحجاج بن عبد الملك بعد إبراهيم. ويقول المؤرخون إن القدرية لم تزل تحثُّه على البيعة لمن يخلفه وتقول له إنه لا يحل له أن يهمل أمر الأمة، حتى بايع لأخيه ولمن يأتي بعد أخيه[١]. وعلى هذا فلم يكن تأثير القدرية على يزيد دينياً فحسب.

---

(١) [راجع الطبري جـ ٢ ص ١٨٤١، ١٨٥٤ ــ ١٨٥٥، على الولاء ــ المترجم].

(٢) [راجع الطبري مثلا جـ ٢ ص ١٨٤٥، ١٨٧٦ ــ المترجم].

(٣) هذا هو الصواب كما يقول إلياس النصيبي [وفي الطبري (جـ ٢ ص ١٧٨٣ ــ ١٨٧٤) أنه توفى سلخ ذى الحجة في رواية، ولعشر بقين منه في رواية أخرى، وبعد الأضحى في رواية ثالثة، وأن مدة خلافته خمسة أشهر وليلتين أو خمسة أشهر واثني عشر يوماً أو ستة أشهر وأياماً ــ المترجم].

(٤) راجع الطبري جـ ٢ ص ١٨٦٩ ــ المترجم].

الفصل السّابع

مروان بن محمد والحرب الأهلية الثالثة

١ ــ كان مقتل الوليد بن يزيد بمثابة العلامة التي آذنت بسقوط أسرة بنى أمية. وكانت هذه الأسرة الحاكمة قد انتحرت عند ذلك انتحاراً سياسياً. وكان عهد الإيمان بحقها الشرعي في الملك وبقداسة خلافتها قد ولّى، حتى في الشام، ذلك أن بلاد الشام نفسها، وكانت حجر الزاوية في النظام الذي كان قائماً، قد لفّتها دوّامةُ الثورة، وكان الثوار من أهل الديانة والورع قد ثبتت قدمهم وازدادت قوتهم في الشام أيضاً. أما رجال قبيلة كلب الذين كانوا حتى ذلك الحين أخلص أولياء الدولة، وكانوا هم الجيش الذي تعتدّ به الحكومة كما تعتدّ القبيلة برجالها، فإنهم أيضاً خرجوا على الولاء لها وانزلقوا إلى الثورة على الخليفة، بعد أن كانوا يؤمنون بحقه الشرعي(١). ويستطيع الإنسان أن يصور لنفسه مقدار ما كان لتزعزع سلطان الدولة في القلب من تأثير على الأطراف؛ فأخذت تنحلُّ في كل مكان تلك العرى التي كانت تمسكها القوةُ المركزية، وقامت أنواعٌ مختلفة من التمرد والعصيان في كل مكان. وفي وسط ذلك الاضطراب كانت تظهر تجمُّعات لا تلبث أن تزول. فكانت مختلف العناصر الهائجة تتجمع حول نقطة واحدة، ثم تتفرق بعد ذلك وتدخل في تنظيمات أخرى، وكانت تلك الفترة أنسب ما يكون للمغامرين والمتغلّبين: وكان الواحد منهم تصبح له في أقصر وقت قوةٌ كبيرة، ثم كان يختفى من جديد من غير أن يترك أي أثر.

---

(١) [راجع مثلا ما قاله مروان بن محمد عما كان من أهل الشام من وفاء وطاعة، ثم من نكث وانتقاض ــ الطبري جـ ٢ ص ١٨٥٠ ــ المترجم].

وقــد ظهر على المسرح رجلٌ لم يولد على فراش أبيه[١]، وهو مروان بن محمد بن مروان بن الحكم، من فرع جانبي في الأسرة الحاكمة، ليحارب أبناء عبد الملك، وخصوصاً أبناء الوليد وهشام ابنى عبد الملك الذين كانوا يحملون الوزر في مقتل الوليد بن يزيد وكانوا هم الذين استفادوا منه. وكان مروان إذ ذاك بين الخمسين والستين من العمر (الطبري ج ٢ ص ٩٤٠)، وكان يلقب على سبيل الاستهزاء: بالحمار، لأنه كان يحب أكل الفاونيا (Päonie)، وهي تسمى وردة الحمار[٢].. وكان أبوه محمد، أحد أخوة عبد الملك، أميراً على أرض الجزيرة وأرمينية سنين كثيرة، وكان وهو في هذا المنصب يقود الحرب مع الروم، ثم حلّ محله مسلمة بن عبد الملك وغيره. وفي سنة ١١٥هـ ارتفع نجم مروان من جديد، وأُسْنِدت إليه على الأقل أرمينية وآذربيجان، وكان هذا المنصب يتطلب جندياً، وقد كان مروان عند حسن الظن به، فقد استطاع أن يدافع عن ثغر القوقاز أمام هجمات الترك دفاعاً لا يلين، وأن يقوم بغزوات موفقة في أرض الترك، وكان هذا المنصب الذي لبث فيه اثنى عشر عاماً بمثابة مدرسة حربية له. وكان نظام الجيوش في ذلك العصر قد أخذ يتغير شيئاً فشيئاً، وأخذت الجيوش تنظم تنظيماً فنياً. ذلك أن نظام المقاتلة القديم أخذ يبدو نظاماً غير صالح للغزوات الطويلة الشاقة البعيدة، كما أخذ يتجلى أن هؤلاء المقاتلة لا يصلحون لتحقيق غايات بعيدة عن نفوسهم، فَزُحزِحوا عن مكانهم وحل محلهم جندُ الدولة من أهل الشام. وكانت الأعطيات المستمرة التي تُعْطى لكل عربي قادر على القتال قليلة الجدوى في الأغراض العسكرية، وكان الحاكم إذا أراد رجالاً يخضعون للنظام ويسيرون

---

(١) أنساب الأشراف ص ٢٦.

(٢) هذا ما يقوله مؤرخو الشام، أما ا. موللر (A. Müller, 1, 453) فهو يفسر هذه التسمية من عنده على أنها مدح. وهو بشير في ذلك إلى ما يقوله إلياس (II, 558). ويسمى مروان أيضاً بالجعدى، ولا أعرف سبب هذه التسمية ــ قارن الطبري ج ٢ ص ١٩١٢ [كان يسمى بالجعدى لأنه تتلمذ على الجعد بن درهم ــ المترجم].

أينما وجههم، لا بد له أن يجتذبهم بالمال. فمثلاً دفع يزيد بن معاوية إلى جانب عطاء سنة كاملة مائة دينار لكل من كان مستعداً أن يذهب في الجيش الذي وجّهه إلى المدينة، وعرض يزيد بن الوليد على من يتقدم لمحاربة الوليد بن يزيد ألفى درهم، وأعطى الوليد بن يزيد للمدافعين عنه كلاً منهم خمسماية درهم، وأُعْطِيَ كل من خرج من أهل الشام لمحاربة الخوارج في اليمن في سنة ١٣٠هـ (٧٤٨ م) مائة دينار وفرس وحيوان للحمل، بل يحكى أن الضحاك بن قيس، وهو أحد الخوارج، إنما حصل على أتباع له بأن كان يعطيهم أرزاقاً كبيرة (الطبري ج ٢ ص ١٩٣٩). أما الآن فقد بدأت تحل محل القبائل التي كانت تؤلف فرق الجيش في النظام القديم فرقٌ بالمعنى الحقيقي لتكون صلب الجيش، وحل القواد المحترفون محل رؤساء القبائل. وكانت كل فرقة تحمل أحياناً اسم قائدها كالوضّاحية والذكوانية نسبة إلى عمر بن الوضّاح ومسلم بن ذكوان. وقد سار مع هذا التنظيم جنباً إلى جنب تَقَدُّمٌ في الخطط العسكرية، ذلك أنه فيما سبق من الزمان كان الجند يحاربون صفوفاً طويلة طبقاً للعادة العربية وللنظام الذي صار سنّة بعد أن وضعه النبي عليه السلام. وبين الصفّيْن المتقاتلين كانت تقع المبارزات الفردية، وكانت نتيجة هذه المبارزات في كثير من الأحيان هي التي تعيّن مصير المعركة: إما بالتقدم من الجانبين وإما بالفرار. أما الآن فقد انحل نظام الصفوف القديم، بعد أن تجلى ما فيه من ضعف وحل محله نظام الكراديس، أعنى الوحدات الصغيرة التي كانت أكثر تماسكاً فيما بينها وكانت أسرع حركة. وينسب إلى مروان بن محمد إنشاء نظام الكراديس هذا. وهو وإن كان يجوز أن بداياته ترجع إلى ما قبل ذلك فإن مروان هو الذي نَفَّذَه[١]. وإذا كان مروان يعتبر هو واضع هذا النظام ففي ذلك ما يدل على مقدار كبر شهرته.

---

(١) [راجع مثلا الطبري ج ٢ ص ١٩٤١، ١٩٤٤ ــ المترجم].

ولكن مروان كان إلى جانب ذلك عليماً بألاعيب السياسة ودسائسها، فكانت له علاقات بجميع الجهات، وكان على علم تام بما يرسم من الخطط في كل مكان[١]. فلما صارت الخلافة إلى الوليد بن يزيد بعث يهنئه من كل قلبه ويستبشر بعهده. ومع أن هشام بن عبد الملك هو الذي كان قد عين مروان بن محمد في منصبه فإن مروان في كتابه انتقد هشاماً وما كان منه من تصغير بالوليد ومحاولة تنحيته، وذلك في كتاب مملوء بالجدّ، بعث به مروان إلى الوليد[٢]. ولكن مروان في الحقيقة كان يرى في الوليد غير ذلك وفعل غير ما قاله له (الطبري ج ٢ ص ١٨٥٣). ومهما يكن من شيء فإن قتل الوليد بن يزيد جاء ملائماً لأغراضه، فقد استطاع أن ينهض للثأر من القاتلين وأن يأخذ من أيديهم الغنيمة مستنداً إلى اعتبارات وجيهة. فلم يكد يسمع بقتل الوليد حتى أعلن العصيان على يزيد بن الوليد، فخرج من أرمينية متجهاً إلى الجزيرة، وكان ابنه عبد الملك قد وثب على حران ومدائن الجزيرة فاستولى عليها (الطبري ج ٢ ص ٨٧٠)، لأن واليها من قبل الوليد، وهو عبدة بن رباح الغسَّاني، خرج منها إلى الشام لما بلغه قتل الوليد، ولكنه لم يكد يسير حتى وثب في ظهره اليمانيون من جند الشام تحت إمرة ثابت بن نعيم الجذامى. وكان مروان قد ترك هؤلاء اليمانيين في أرمينية على أبواب القوقاز لكي يصدّوا هجمات الترك، وخصوصاً أنه لم يكن يطمئن إليهم كل الاطمئنان. فاضطر إلى القفول راجعاً، وقبل أن تبدأ المعركة أمر مناديا أن ينادَى فيسألهم عن سبب انشقاقهم عليه وعما ينقمون منه مع حسن سيرته فيهم وولايته عليهم، فأجابوه: «إنا كنا نطيعكم بطاعة خليفتنا، وقد قُتِلَ خليفتُنا وبايع أهلُ الشام يزيدَ بن الوليد، فرضينا بولاية ثابت ورأسْناه ليسير بنا على

---

(١) [راجع مثلا الطبري ج ٢ ص ١٨٥٣: كان يقول ليس من أهل هوى إلا وقد أعطيتهم الرضا حتى أخبروني بذات أنفسهم ـــ المترجم].

(٢) [تجد هذا الكتاب عند الطبري ج ٢ ص ١٧٥٢ ـــ ١٧٥٤ ـــ المترجم].

ألويتنا حتى نرد على أجنادنا». ولكن مروان أمر مناديه أن ينادي فيهم: وقد كذبتم، وإنما أردتم أن تركبوا رءوسكم، فتغصبوا من مَرَرْتُم به من أهل الذمة أموالَهم وأطعمتهم وأعلافهم، وما بيني وبينكم إلا السيف حتى تنقادوا إليَّ فأسير بكم حتى أوردكم الفرات؛ ثم أخلى عن كل قائد وجنده، فتلحقون بأجنادكم»، فلما رأوا منه الجد، انقادوا إليه وأمكنوه من ثابت بن نعيم وأولاده الأربعة، فوضع السلاسل في أرجلهم. وأعطى مروان جند الشام ما أرادوا من العودة إلى بلادهم، فأخذهم معه وضبطهم عن الاعتداء والظلم. وكانت جنود قيس من أهل الجزيرة يكوّنون نواة جيشه. حتى إذا ورد حرّان خلّى سبيل جند الشام. أما هو فقد بقى في حرّان، ووجد أن من الحكمة أن يبايع يزيد بن الوليد، وخصوصاً أن يزيد كاتبه على أن يبايعه ويتولى في مقابل ذلك جميع البلاد التي كان أبوه محمد بن مروان يتولاها أيام عبد الملك، وهي الجزيرة وأرمينية والموصل وأذربيجان.

ولكن يزيد بن الوليد مات بعد أن تولى الخلافة بستة أشهر، وكان قد عقد البيعة لأخيه إبراهيم بن الوليد خلفاً له، فلم يتم له أمْرُه ولم يبايع له إلا أهلُ جنوب الشام[(١)]. فعاد مروان إلى خطته القديمة على الفــور. وعبر الفرات إلى الشـــام وانضمت إليه قيس قنسرين تحت قيادة يزيد[(٢)] بن عمر بن هبيرة، كما انحاز إليه عرب حمص[(٣)]. ولم يجد مقاومة إلا في عين الجرّ عند نهير في سلسلة جبال

---

(١) [يقول الطبري جـ ٢ ص ١٨٧٥: «وكان يسلّم عليه جمعة بالخلافة وجمعة بالإمرة وجمعة لا يسلمون عليه بالخلافة ولا بالإمرة... وكانت ولايته سبعين ليلة» ــ المترجم].

(٢) يقول المؤلف: يوسف بن عمر... وهذا خلاف لما في الطبري جـ ٢ ص ١٨٧٦ ــ المترجم].

(٣) ويجب بطبيعة الحال تصحيح كلمة Edesa التي وردت عند تيوفانيس في أخبار سنة ٦٢٣٥، بحيث تصبح Emesa أعنى حمص.

لبنان الشرقية (Antilibanus)، حيث يلتقى بنهر الليطانى (Lita)، وهناك كان جيش جنوب الشام يقوده سليمان بن الخليفة هشام[١]، وكان سليمان بن هشام هذا قد قضى كل صباه في حرب الروم، وكان أحب شيء إليه أن يكون في ميدان القتال على رأس جنوده، وكان الذكوانية هم الحرس الذي يحميه[٢]، ولكنه لم يكن كفؤاً لمروان، فاشتبك معه عند ذلك الحين لأول مرة، ثم اشتبك معه بعد ذلك مرات كثيرة، فهُزم سليمان وفر راجعاً إلى دمشق، وتفرق جيشه الكبير. ولكن مروان بعد أن انتصر اصطنع العفو والهوادة، فلم يقتل سوى اثنين من كلب وقعا في يده، وكان لهما ضلع في مقتل الوليد بن يزيد. أما بقية الأسرى فقد خلى عنهم بعد أن قوى كل واحد منهم بدينار وألحقهم بأهليهم، ولكن بعد أن أخذ عليهم البيعة للحَكَمِ وعثمان ابنى الوليد بن يزيد، وكانا عند ذلك محبوسيْن في دمشق، وكان من حكمة مروان أنه لم يخرج مطالباً بحق لنفسه، بل أظهر أنه المدافع عن حق ورثة الوليد بن يزيد. وقد دفع ابنا الوليد حياتهما ثمناً لذلك، لأنهما كانا في يد الأعداء، فلما وصل سليمان بن هشام منهزماً إلى دمشق اجتمع إليه وإلى إبراهيم بن الوليد وعبد العزيز بن الحجاج رءوسُ من معهم، مثال يزيد بن خالد القسرى والأصبغ بن ذوالة الكلبى، فقال بعضهم لبعض: «إن بقى الغلامان، ابنا الوليد، حتى يقدم مروان ويخرجهما من الحبس ويصير الأمر إليهما، لم يستبقيا أحداً من قتلة أبيهما، والرأي أن تقتلهما!»، فولّوا ذلك يزيد بن خالد القسرى، فأرسل يزيد مولى لأبيه في عدة من أصحابه فدخل السجن وشدخ الغلامين بالعمد، وقتل يزيد يوسف

(١) ويصف تيوفانيس ذلك الموضع؛ وهو يسميه Garis ويترجم كلمة Sita كما لو كان معناها: الملعون؛ أما في السريانية فالموضع يسمى En Gara، قارن .DMZ، ١٨٩٧ ص ٥٨١ وعين الجر تقع على الطريق بين بعلبك ودمشق (الطبري جـ ٣ ص ٤٨).

(٢) [راجع الطبري جـ ٢ ص ١٨٩٢ س ١٢ ــ المترجم].

ابن عمر، وكان في نفس السجن. أما أبو محمد السفياني فإنه تحصَّن في بيت من بيوت السجن ولم يمكن أَخْذُه، حتى دخلت خيلُ مروان بن محمد دمشق. وقبل أن يصل مروان كان سليمان قد استطاع في الوقت المناسب أن ينهب ما كان في بيت المال ويقسمه فيمن كان معه في الجنود ويخرج من المدينة(١)، وذهب مع إبراهيم بن الوليد إلى تَدْمُر، مقر قبيلة كلب.

وبعد أن أسعدت الأقدار مروان بن محمد بإزالة ابني الوليد بن يزيد من طريقه أخذ البيعةَ لنفسه في دمشق يوم الاثنين ٢٦ صفر سنة ١٢٧هـ، الموافق ٧ ديسمبر سنة ٧٤٤ م(٢). وكان أبو محمد السفياني أول من بايعه. وزعم أن الحَكَم وعثمان ابني الوليدِ، وهما يعالجان الموت، قد أوصيا بأن يكون مروان هو الخليفة بعدهما، وأنشد أبو محمد السفياني قصيدةً للحكم بن الوليد، قالها وهو في السجن، يستغيث فيها بمروان ويصف يزيد بن الوليد بأنه: «الناقص القدرى» الذي أشعل نار الحرب؛ وهي تنتهي بهذه الأبيات:

أَتُنْكَثُ بيعتي من أجل أمِّي ... فقد بايعتمُ قبلي هجينا
فليتَ خُؤولتي من غير كلب ... فكنا من ولاة آخرينا
فإنْ أهلِك أنا وولي عهدي ... فمروان أمير المؤمنينا

وهكذا يشكو الحَكَم(٣) من أنه ينتسب من جهة أمه إلى قبيلة كلب البغيضة ومن أنه قد فقد حقه في الخلافة لهذا السبب. ويزعم تيوفانيس أن

---

(١) [راجع في هذا مثلا الطبري جـ ٢ ص ١٨٧٦ ــ ٧٨٧٩ ــ المترجم].

(٢) هذا هو الصواب كما يقول إلياس النصيبي، غير أنه يجب تصحيح يوم الثلاثاء الذي يذكره بحيث يكون يوم الاثنين، وذلك طبقاً لما جاء في كتاب التنبيه للمسعودى ص ٣٢٥، وإن كان التاريخ الذي يذكره المسعودي غير صحيح.

(٣) [ظن المؤلف خطأ أن الشاكي هو أبو محمد السفياني ــ المترجم].

مروان، بعد أن دخل دمشق، قتل كثيراً من أشراف الناس وممن كان لهم ضلع في مقتل الوليد وابنيه الحكم وعثمان، وأنه قطع أيدي قوم آخرين وأرجلهم؛ ولكن الأغلب أن هذا ليس صحيحاً. ومن الجائز أن يكون مروان قد أخذ بعض من لهم ضلعٌ حقيقي في مقتل الوليد بن يزيد بجريرتهم، إن كانوا قد وقعوا في يده. ويظهر أيضاً أن مروان قد اشتد مع الثائرين من أهل الدين، فهو قد قتل بن هانئ العبسى الذي تكلم عند بيعة يزيد بن الوليد كلاماً جاوز فيه الحدود وآذى به بني أمية جميعاً، كما أن مروان تعقب القدرية الذين كان يزيد قد قربهم إليه[١]. ولكن الروايات العربية تقول إنه دخل دمشق في المرة الأولى دون قتال، وإنه لم يظهر بمظهر المنتقم. وإذا كان موالى الوليد بن يزيد قد ثاروا إلى عبد العزيز بن الحجاج بن عبد الملك فقتلوه، وإلى قبر يزيد بن الوليد فنبشوه وصلبوه، فإن ذلك لم يحدث بأمر من مروان؛ بل يحكى أن مروان سمح للعرب في الأقسام الأربعة الكبرى التي كانت تتألف منها الشام[٢] بأن يختاروا بأنفسهم من يحبّون أن يولوه على أجنادهم، وهو لم يمانع، عملاً منه بالمبدأ الذي سار عليه، في أن يكون ثابت بن نعيم الجذامى والياً على أجناد فلسطين، مع أن ثابتاً كان هو الذي تزعم حركة العصيان التي قام بها جند الشام في أرمينية، خروجاً منهم على طاعة مروان. وقد أراد مروان بذلك كله أن يبعث الثقة في النفوس وأن يهدئ الخواطر، حتى إذا أتم عمله واستوت له الشام وعاد إلى منزله من حرّان، طلب الأمان منه خَصْماهُ الكبيران: سليمان بن هشام والخليفة إبراهيم بن الوليد؛ فآمنهما

---

(١) يصف تيوفانيس (أخبار سنة ٦٢٤١) مروان بأنه جبرى (Fatalist)، وذلك لإنكاره القول بالاختيار، والحقيقة أن مروان لم يكن بطبيعة الحال يراعى اعتبارات اعتقادية، بل اعتبارات سياسية.

(٢) هي فلسطين والأردن ودمشق وحمص. أما قنسرين، فنظراً لأنها كانت لقيس فهي لاحقة بأرض الجزيرة وكانت تعتبر منفصلة عن الشام.

مصطنعاً العفو والفضل. وقد قدما عليه في حرّان وصارا في عسكره، وكان يكرمهما ويدنيهما، وكان يسيران معه في موكبه[١].

وكان قتال مروان لأبناء عبد الملك قتالاً لكلب وقضاعة، وقد انضمت إليه قيس وحاربت معه، وهو أيضاً اتخذ مقر إقامته بين قيس، في حرّان بأرض الجزيرة، وهناك كان يقيم أبوه، وكان هناك نما هو وترعرع، وهناك كان يشعر أنه في وطنه[٢]. ويقول صاحب كتاب التنبيه إن جميع من ملك قبله من بني أمية كانوا ينزلون دمشق، وأن منهم من كان يتبدّى[٣]. ومهما يكن من شيء فإن بعض خلفاء بني أمية، وإن كانوا قد آثروا الإقامة بعيداً عن دمشق، فإنهم لم يفعلوا ذلك لأسباب سياسية، ولم يكن مقصدهم أن يُجَرِّدوا دمشق من مكانتها كعاصمة للدولة. أما مروان فيظهر أنه كان في الحقيقة يقصد ذلك. فقد نقل مقر حكومته إلى حران، ونقل إليها ــ كما يقول تيوفانيس ــ كل الأشياء والخزائن التي كانت في دمشق، وقد جرَّ هذا على مروان عواقب خطيرة، ذلك أنه بعد حرمان دمشق من مكانتها أحسَّ الشام كلُّه ــ عدا الأجزاء الشمالية ــ أنه أيضاً قد انتُزِعَتْ منه السيادة. وقد أخذت الخلافاتُ بين الأحزاب تختفي وسط هذا الشعور شيئاً فشيئاً، وأخذ الناس يشتاقون إلى عودة العهد السابق. وإلى جانب ذلك لم يكن من اليسير بطبيعة الحال القضاءُ على ما كان هناك من ميل إلى البيت الشرعي الذي أُزِيل عن العرش وكانت له علاقات وأواصر بجميع البلاد وتحويلُ هذا الميل إلى غاصب غريب عن أهل الشام، أمُّه أمُّ ولد.

(١) [راجع في هذه الحوادث الطبري مثلا (جـ ٢ ص ١٨٩٠ ــ ١٨٩٢) ــ المترجم].

(٢) ويفسر تيوفانيس ميل مروان إلى مذهب الجبرية بأنه كانت له علاقة وثيقة بالآراميين الذين بقوا في حران على وثنيتهم.

(٣) [راجع كتاب التنبيه والإشراف للمسعودي ص ٣٢٥ من طبعة ليدن سنة ١٨٩٣ ــ المترجم].

ولم ينقض عام ١٢٧هـ حتى انتقض الشام على مروان[١]. ويظهر أن الثورة نشأت من جانب أهل فلسطين، لأن ثابت بن نعيم الجذامى كان هو روح الثورة؛ ولكنها امتدت إلى جميع الجهات ووصلت حتى إلى مدينة حمص التي كانت حتى ذلك الحين في جانب الوليد بن يزيد وجانب مروان. وفي الثاني من شوال سنة ١٢٧هـ، الموافق ٧ يوليه سنة ٧٤٥ م[٢]، ظهر مروان أمام حمص، فذهبت عن أهلها شجاعتُهم وسمحوا له أن يدخل المدينة، وغدروا بألف فارس من كلب كانوا قد جاءوا من تدمر مسرعين إلى نجدتهم[٣]. وعند ذلك أرسل مروان جيشاً كبيراً إلى دمشق لكي يفكَّ الحصار الذي ضربه عليها عرب الغوطة تحت قيادة يزيد بن خالد القسري، فشتت شمل المحاصرين وقُتِلَ يزيد بن خالد القسري، وأحرقت المزّة التي كانت عشاً لرجال كلب. وبعد ذلك اتجه الجيش إلى مدينة طبرية قصبة الأردن، فطرد ثابت بن نعيم الذي كان يحاصرها،

---

(١) يذكر الواقدي (الطبري جـ ٢ ص ١٧٤٢) سنة ١٢٨هـ. بل يذكر إلياس النصيبي سنة ١٢٩هـ. وأنا أتابع تيوفانيس (أخبار سنة ٦٢٣٦) كما أتابع الرواية الأساسية عند الطبري (جـ ٢ ص ١٨٩٠ فما بعدها). وستتبين أسباب ذلك في أثناء كلامنا التالي، وكان من الممكن الخلط في التواريخ لأن مروان حاصر حمص مرتين في سنة ١٢٧، ١٢٨هـ.

(٢) بعد عيد الفطر بيومين سنة ١٢٧هـ (الطبري جـ ٢ ص ١٨٩٣).

(٣) يقول تيوفانيس (أخبار سنة ٦٢٣٦) إلى مروان صلب مائة وعشرين من كلب (Χάλβενοι). أما الطبري (جـ ٢ ص ١٨٩٣ ــ ١٨٩٤) فهو يقول إن مروان صلب القتلى حول المدينة. وكان العباس بن الوليد يقيم في حمص. وفي سنة ١٢٦هـ كان أهل حمص قد هدموا داره لأنه انحاز إلى جانب أعداء الوليد بن يزيد. ولكن يظهر أنه قد صار له من جديد تأثير على أهل حمص، وأنه غير اتجاههم السياسي وأثارهم على مروان، لأن مروان بعد أن استولى على حمص أخذه وحبسه. وجاء زنجي فوضع رأسه في كيس من الجير كان قد جيء به للطبخ. وقد فرح لذلك النصارى، لأن العباس، وكان مسلماً متحمساً، قد أغضبهم على نفسه. وكان النصارى في ذلك الوقت لا يزالون كثيرين في حمص، ويجوز أنهم قاموا بنصيبهم في تسليم المدينة إلى مروان الذي كان بعيداً عن التعصب الديني ــ راجع تيوفانيس (أخبار سنة ٦٢٣٦)؛ والمعلومات الدقيقة التي يذكرها هذا المؤرخ أجدر بالتقديم على ما جاء في الطبري (جـ ٣ ص ٤٣) من رواية موجزة.

ثم هُزم ثابت مرة أخرى في فلسطين وأسِر آخر الأمر[١]؛ فأمر مروان بثابت وبنيه فقطعت أيديهم وأرجلهم، ثم حُمِلوا إلى دمشق فأقيموا على باب مسجدها، ثم قُتِلوا وصُلِبوا على أبواب دمشق. وأخيراً جاء دور مدينة تدمر، المقر الأساسي لكلب، وكانت هي المدينة الوحيدة التي لا تزال ثائرة. وقد توجه إليها مروان بنفسه، ولكن الأبرش بن الوليد استأذن مروان في استعمال السياسة وطريق المفاوضة والتخويف، فأفلح في تفادي الحرب ووصل إلى إقناع أهل تدمر بمبايعة مروان. وشخص كبارُ أهل المدينة أمام مروان، ولم يهرب إلا أفراد قليلون خافوا على أنفسهم منه، ففروا إلى برية كلب[٢].

وأخذ مروان البيعة لابنيه. عبد الله وعبيد الله، في دمشق، وزوّجهما ابنتي هشام بن عبد الملك، وجمع للاحتفال بالزواج جميع بني أمية، وكان هذا الزواج بمثابة حفلة رسمية للدولة. وكان مروان يعتقد في ذلك الوقت أنه قد استطاع أن يصلح ما بينه وبين أسرة بني أمية وأن يضعها إلى جانبه. ثم دعا أهل الشام إلى الخروج في الحملة التي كان ينوى القيام بها على العراق، ولم تكن العراق قد خضعت له بعد، فتقدموا، وأخذ منهم عشرة آلاف رجل، وجهزهم بالسلاح والخيل، وأمرهم أن يلحقوا بالجيش الآخر الذي كان يتألف من عشرين ألف رجل من أهل الجزيرة وأهل قنسرين، وكان يسير تحت إمرة يزيد بن عمر بن هبيرة مع الفرات في أول سنة ١٢٨هـ (ربيع سنة ٧٤٥ م). فلما مر جيش العشرة آلاف رجل بالرصافة، أقبلوا على سليمان بن هشام ـــ وكان قد استأذن مروان، وهو عائد معه من تدمر، في أن يقيم في الرصافة أياماً حتى يجمّ هو

---

(١) بحسب رواية الواقدي (الطبري جـ ٢ ص ١٩٤٢) كان ذلك في شوال سنة ١٢٨هـ، ويتجلى من تسميته بالاسم القديم: ابن الجذامى، أن نعيم بن ثابت هو عين ثابت ابن نعيم.

(٢) [راجع في هذا الطبري مثلا (جـ ٢ ص ١٨٩٢ ـــ ١٨٩٧) ـــ المترجم].

ومواليه ــ ودعوه إلى خلع مروان ومحاربته، وقالوا له: «أنت أرضى منه وأولى بالخلافة». واستزلّه الشيطان، فأجابهم. ومع أن مروان كان قد آمنه وأكرمه وأنه كان عنده من الأسباب ما يدعوه إلى أن يرعى عهد الولاء له، فإن سليمان، وهو القائد المحب للحرب الذي لا يحتمل الحياة الهادئة، لم يستطع أن يقاوم الفتنة التي جاءت له. فخرج إلى الثوار بإخوته وولده ومواليه واستولى على قنسرين التي كانت مجردة من الجند، وتدفّق إليه أهل الشام من كل ناحية، حتى ليروى أن سبعين ألفاً كانوا في آخر الأمر تحت رايته. وعند ذلك أمر مروان فريقاً صغيراً من الجيش الذي كان في طريقه إلى الكوفة بالوقوف عند دورين تحت إمرة ابن هبيرة، وقاد هو الجزء الأكبر من الجيش راجعاً إلى الثائر الذي وثب في ظهره. وهاجم مروانُ سليمان في معسكره عند قرية يقال لها خساف[١]، غير بعيد من قنسرين، فهزمه، ولم يعامل العرب الذين أسرهم بشيء من العفو، فكان لا بد لهم من الموت، إلا من قال منهم أنه عبد مملوك، ليُبقى على نفسه. ويذكر الطبري أن مروان قتل ما يزيد على ثلاثين ألف أسير، أما عند تيوفانيس فإن عدد القتلى في جملتهم لا يتجاوز سبعة آلاف. أما سليمان بن هشام فقد انحاز مع فلول جيشه إلى حمص، ولكنه بعد أن اقترب منه مروان فر إلى تدمر ومنها إلى الكوفة. وبقى الجيش في حمص بقيادة أخيه سعيد بن هشام، فحاصر مروان مدينة حمص للمرة الثانية ولم يستطع أن يجبرها على التسليم في هذه المرة إلا بعد حصار أربعة أشهر واثنين وعشرين يوماً[٢]، وبعد أن نصب عليها نيفاً وثمانين

---

(١) [يقول المؤلف: الخفاف، وهذا يخالف ما عند الطبري جـ ٢ ص ١٩٠٦ س ١٤ و١٩١٣ س ٢ ــ المترجم].

(٢) هذا ما يقوله إلياس، قارن أيضاً تيوفانيس (أخبار سنة ٦٢٣٧). ويذكر الطبري (جـ ٢ ص ١٩١٢) أن الحصار دام عشرة أشهر، ولكن لا مجال لذلك، ولعل حملة سنة ١٢٨هـ كلها لم تدم أكثر من عشرة أشهر.

منجنيقاً تقذفها بالحجارة ليلاً ونهاراً، حتى تتابع على أهلها البلاء والذل وطلبوا الأمان. وقتل مروان قوماً من ألد أعدائه. أما سعيد بن هشام وأبناؤه فقد أسرهم وحبسهم[١]. ولا يقال متى أخذ أبا محمد السفياني وحبسه، ولكن أَخْذَهُ ثابتٌ مما جاء في الطبري (جـ ٣ ص ٤٣)، وهو حادث طريف، لأنه يدل على أن هذا الأموي أيضاً قد جرفه تيارُ الثورة التي لم تترك أحداً، وقد هدم مروان أسوار حمص وبعلبك ودمشق وبيت المقدس وغيرها من مدن الشام الكبرى، إلا أنطاكية فإنه لم يهدم أسوارها، لأن أغلب أهلها كانوا نصارى[٢]. ويدل هدم مروان للأسوار على أنه قد لاقى مقاومة من هذه المدن[٣]. وفي سنة ١٢٨هـ (٧٤٦ م) كان مروان قد انتهى من إخضاع الشام، فوقعت ممزقة تحت قدميه[٤].

٢ ــ وفي أثناء ذلك كان كل شيء في شرق الدولة مضطرباً وكان يزيد بن الوليد في رمضان أو في شوال سنة ١٢٦هـ قد أسند الولاية على العراق إلى عبد الله بن عمر بن عبد العزيز الخليفة الصالح، وذلك مكان منصور بن جمهور الكلبي الذي ظل رغم هذا محتفظاً بمكانة لها تأثيرها في الكوفة. أما مقر الحكومة ومقر جند الشام فقد بقى في الحيرة، وكانت الحيرة بمثابة مفتاح الكوفة. وإلى جانب هذا أمكن القبض على زمامها بفضل القصر الذي كان فيه صاحب الشرطة

---

(١) يقول تيوفانيس إن مروان قتل كل أقارب هشام وآله، ولكن هذا غير صحيح (قارن بين ما جاء في الطبري جـ ٣ ص ٤٣ وبين ما جاء في جـ ٢ ص ١٩١٢). ويذكر نفس الرواية قتل السكسكى الذي كان يعتبر فارس من أهل الشام مرتين في صورتين مختلفتين (الطبري جـ ٢ ص ١٩١٢). ومن الجائز أنه يجب التميز بين معاوية السكسكى وأبي علاقة السكسكى، والأخير منهما يسمى القضاعى، وإن كانت سكسك إنما لحقت بقضاعة وانضمت إليها من غير أن يرجع نسبها إليها في الحقيقة.

(٢) راجع ما يقوله تيوفانيس في أخبار سنتي ٦٢٣٧، ٦٢٤١.

(٣) ربما كان الواقدي غير مخطئ في أنه قد جعل أسر ثابت بن نعيم وقتله حوالي هذا الوقت.

(٤) [راجع في الحوادث المتقدمة الطبري مثلا جـ ٢ ص ١٩٠٨ ــ ١٩١٣ ــ المترجم].

ورجاله. وطبيعي أن يكون أهل الكوفة على غير وُدٍّ مع جند الشام الغرباء عنهم. وقد عمل عبد الله بن عمر على ما فيه استرضاؤهم، وربما كان بعض ما قصده من التغيير المستمر للعمال وأصحاب الشرطة (الطبري جـ ٢ ص ١٩٠٢) هو أن يحقق هذا الغرض نفسه، ولكن كان المال هو وسيلته الكبرى في ذلك، فأعاد إلى مقاتلة الكوفة أرزاقهم وأعطياتهم، بعد أن كانت قد مُنِعت عنهم لأنهم لم يكونوا في الحقيقة يؤدون واجبات حربية ولم يكونوا يستخدمون السلاح إلا في الثورة. وبعد أن مات يزيد بن الوليد وتولى الخلافة أخوه إبراهيم بن الوليد زاد عمر في الأعطيات. وقد تذمر قواد أهل الشام من ذلك ونازعوه فيه قائلين: «نُقَسِّم على هؤلاء فَيْئَنا، وهم عدُّونا!»[(١)]. ولكن أهل الكوفة لم يرو فيما بدا من روح الحير عند ابن عمر إلا دليلاً على الضعف، فلما مات يزيد بن الوليد ظنوا أن مركزه قد تزعزع إلى حد أنهم اجترءوا عليه بالثورة[(٢)].

ذلك أنه كان يقيم بين أهل الكوفة في ذلك الوقت رجلٌ يمكن أن يعتبر من آل بيت النبي [عليه السلام]، وهـو عبد الله بن معاوية بن عبد الله بن جعفر بن أبي طالب. فهو أحد أحفاد جعفر بن أبي طالب أخي علي بن أبي طالب[(٣)]، وكان قد وفد هو وإخوته على عبد الله بن عمر يلتمس صِلَتَه، لكنه بقي في الكوفة لا يريد عنها رحيلاً، وتزوج من أسرة ذات نباهة. ونظراً لنسبه

---

(١) [راجع الطبري جـ ٢ ص ١٨٥٤ ـ ١٨٥٥ لترى أيضاً كيف استطاع ابن عمر أن يتغلب على الموقف بأن أخرج جند الشام من جهة وأراد أن يكبح جماحهم بجند الكوفة من جهة أخرى ـ المترجم].

(٢) [وقد جاء هذا من جانب الشيعة بنوع خاص ـ راجع الطبري جـ ٢ ص ١٨٨٣ ـ المترجم].

(٣) [تجد أخبار خروج عبد الله بن معاوية والروايات المختلفة في ذلك والظروف التي دعا فيها لنفسه أو حسّن له غيره أن يفعل ذلك، وما كان من جميع أمره عند الطبري جـ ٢ ص ١٨٧٩ ـ ١٨٨٧ وص ١٩٧٦ ـ ١٩٨١ ـ المترجم].

فقد بدا أنه أهلٌ للخلافة[١]، وقد أظهر استعداده للخروج من أجلها. وكان الزيدية، أعنى الشيعة الذين كانوا قبل ذلك ببضع سنين قد ثاروا على حكومة هشام وعلى رأسهم زيد بن علي، يكوّنون نواة أنصاره، فجاءوا به وأدخلوه القصر وحالوا بين صاحب الشرطة وبين القصر؛ وكان بينهم كثير من الموالى، ولكن بقية أهل الكوفة بايعوه، ثم خرجوا معه يريدون ابن عمر في الحيرة. ولم يكن في ابن عمر شيء من التراخى، ولكن لم يكن من الممكن أن يخرجه عن هدوئه شيء مهما كان. وكان إذا لم يستطع تغيير مجرى الأمور عام في تَيّارِها، وقد ثبت له من التجربة أن ذلك يؤدي به إلى الغرض. وبينما كان يأكل ويشرب ترك لجنده من أهل الشام أن يصدوا المهاجمين، ولم يكن ذلك بالأمر العسير، فقد فرَّ أهلُ الكوفة عندما بدأ القتال، وذلك في المحرم سنة ١٢٧هـ (اكتوبر ــ نوفمبر سنة ٧٤٤ م). ولكن كان الزيدية هم الذين قاتلوا قتال الشجعان، بل صمدوا في القتال أياماً في القصر وفي شوارع الكوفة، حتى حصلوا على الأمان لأنفسهم ولعبد الله بن معاوية، يذهبون حيث شاءوا، لا يمنعهم أحد[٢].

فخرج ابن معاوية من الكوفة، ولم يكن قد انتهى الدور الذي أراده، وقصد إلى المدائن وبلاد الجبل (ميديا)، فبايعه أهلها، وكان قد أتاه قوم من

---

(١) [قال له أهل الكوفة، بعد قيام النزاع بين مروان بن محمد وإبراهيم بن الوليد: أدع لنفسك، فبنو هاشم أولى بالأمر من بني مروان» الطبري جـ ٢ ص ١٨٨٠ ــ المترجم].

(٢) [يحكى المؤلف القصة كلها في أقضاب؛ فلا بد من الرجوع إلى المواضع التي أشرت إليها في هامش سابق. أما ما يقوله عن عبد الله بن عمر فليس دقيقاً تماماً، لأن الذي حصل هو أن ابن عمر كان رجلاً سياسياً هادئاً، فلما جاء خبر قدوم ابن معاوية إلى الحيرة لقتاله، وخادمه بين يديه ليأذن له بتقديم الطعام، لم ينزعج، بل أطرق ملياً يفكر، وكأنما أراد أن يجعل فترة تناول الطعام فترة رسم الخطة، فلما انتهى من طعامه استدعى قواده ففرق فيهم الأموال، وخرج بنفسه مع الجند وأدار المعركة على طريقته الخاصة، وهي كما يقول المؤلف (ص ٣٦٩ مما تقدم) تعتمد على المال كوسيلة أساسية ــ راجع الطبري جـ ٢ ص ١٨٨٥ ــ ١٨٨٧ مثلا ــ المترجم].

أهل الكوفة. ثم خرج إلى بلاد الجبل فغلب عليها، وعلى حلوان وقومس وأصبهان والرى، وانضم إليه خصوصاً كثير من العبيد والموالى، أي من الفرس. فاستقر أولاً في أصبهان، لكنه ذهب إلى اصطخر في فارس سنة ١٢٨هـ (٧٤٥ ـ ٧٤٦ م)، وخضعت له أجزاء كبيرة من بلاد الجبل والأهواز وفارس وكرمان، لأنه بدا بحكم نسبه أهلاً للخلافة. وبايعه أيضاً آخرون من صغار الثوار الذين ظهروا في ذلك الوقت في تلك الناحية، وكانوا يريدون أن يُقِرَّهم على ما غلبوا عليه، ومنهم محارب بن موسى وسليمان بن حبيب[١]. وجاء آخرون من بني أمية وبني العباس ممن لم يأمنوا على أنفسهم في أوطانهم. فاستتروا تحت جناحه، طامعين في أن ينالوا منه صِلَةً أو ولاية. أما التشيّع الذي ارتفع شأن ابن معاوية بسببه فقد كان عنده شيئاً ثانوياً، وقد التفّ حوله كلُّ ألوان الناس. وهكذا قامت فجأةً في المشرق الذي لم يكن له سَيِّدٌ دولةٌ شاسعة من الدول السريعة الزوال: وهذا من العلامات التي كان يتميز بها ذلك العصر.

ثم إن ابن عمر أسعده الحظ بالتخلص من عبد الله بن معاوية (في المحرم سنة ١٢٧هـ). ولكن ابن عمر لم يعترف بخلافة مروان بن محمد (صفر سنة ١٢٧هـ)، بل هو بعد أن سقطت حكومة الأمويين في الشام كان هو الذي يمثلها في العراق دون أن يظهر بمظهر الخلافة، كان مُعَوَّلُه على قبائل اليمانية من أهل الشام (قضاعة وكلب)، وهي على كل حال لم تتعلق به إلا لأنه لم يكن هناك خيرٌ منه. وكان أهل اليمن قبل ذلك بزمان طويل يؤلِّفون الشطرَ الأكبر من جند الدولة، وصاروا يكوِّنون ما يشبه المستعمرة في الكوفة والحيرة، ولكنهم إذ ذاك برزوا أكثر من ذى قبل، بعد أن ثقل عليهم العناء والسأم من أمر بلادهم،

---

(١) لا شك أن هذا شخص آخر غير القاضي المسمى بالاسم نفسه والذي كان قاضياً في الشام في عهد الوليد وسليمان وهشام، أبناء عبد الملك.

وبعد أن أصبحت أبوابها موصدةً دونهم. وقد شد من أزرهم مهاجرةٌ آخرون، لم يستطيعوا، أو هم لم يريدوا، أن يسالموا مروان، كما زادهم قوةً إخوةٌ وأبناءٌ لخالد القسرى وقوادٌ من كلب، من طراز منصور بن جمهور، وآخرون من زعماء أحزاب الأقلية في الشام، ممن جاءوا بأهليهم معهم. وعندما يرد عند الطبري ذكر أهل اليمن في حروب ذلك العصر، فإن المقصود عادة هم يمن الشام في الكوفة.

ولم يستطع مروان في أول الأمر أن يفعل أكثر من أن يعيّن على العراق أحد كبار رجاله ليكون والياً مُضَادّاً لعبد الله بن عمر، وهو النضر بن سعيد الحرشى. وكان النضر قيسياً؛ وكان أبوه قائداً وعاملا نابها تخرّج في مدرسة الحجاج. وقد أفلح في أن يضم إليه المُضَرِيين الذين كانوا في جيش الشام، ولكن أهــل اليمن، وخصوصاً كلباً ــ وكانوا هم الغالبية وكان منهم الأصبغ بن ذوالة القائد الكبير وأحد قتلة الوليد بن يزيد ــ بقوا على ولائهم لعبد الله بن عمر، الوالي القديم. فاستطاع عبد الله أن يثبت في الحيرة، على حين نزل الحرشى في دير هند. وقد لبث الواليان المتنافسان أربعة أشهر يتناوشان فيما بين الحيرة والكوفة ولكن لم يكد يحدث في هذه المناوشات اشتباك دموي حقيقي، ثم اضطرهما إلى الصلح خطرٌ هدَّدَهما معاً[١].

وذلك أن الخوارج ظهروا على المسرح واحتلوا المكان الأول حيناً من الزمان، وكانوا دائماً فيما قبل قليلي العدد. ولذلك كان لا بد لهم من الاكتفاء بالحروب الصغيرة. ومع ذلك استطاعوا أن يتعبوا أميراً كبيراً كالحجاج، بما كلفوه بذله من جهد، لكنهم لم يكن عندهم اهتمام جدّيّ بالتوصل إلى تولي الحكم، بل كانت سياستهم «غير سياسية بتَّةً»، وكانت غايتهم أن ينجوا بأرواحهم من شرور هذه الدنيا، لا أن يسيطروا على العالم الإسلامي، لأنهم

---

(١) [راجع الطبري مثلا جـ ٢ ص ١٨٩٧ فما بعدها ــ المترجم].

كانوا يتبرؤون من غيرهم من المسلمين. فأما الآن فقد تَضَخَّمَتْ جماعتُهم الصغيرة، فصارت جماهير كبيرة، هذا إلى أنهم تركوا ما كانوا عليه من تشدُّد أخرجهم على الناس وباعد الناس عنهم، وصاروا يقبلون كل من ينضمّ إليهم ليعينهم على تحقيق أغراضهم. وهم وإن كانوا كانوا قد أخذوا من كان ينحاز إليهم بأن يقول بمقالتهم في الدين، فإنهم لم يطردوا حليفاً أراد أن يقاتل في صفوفهم. على أنهم الآن لم يكونوا في الحقيقة يسعون إلى الجنة، بل صاروا يطمعون في ملك الدنيا، وصاروا في ميدان التدافع من أجل السيادة المتداعية ينافسون غيرهم بنفس وسائل هؤلاء، ولم يكن بينهم وبين الظفر إلا قليل، ولو أنهم ظفروا لما بقوا خوارج النزعة كما كانوا.

وقد بدأت الحركة في أرض الجزيرة، وهي الولاية التي كانت بمثابة وطن لمروان، لكنها لم تبدأ بين قيس في الجنوب بل بين ربيعة في الشمال، وكانت ربيعة من قبل متباعدة دائماً بعض التباعد عن بقية العرب المسلمين، خصوصاً عن مضر، منافسيهم القدماء. وكانت ربيعة قد اضطروا أن يتخلوا لمضر عن أرضهم القديمة ولم تكن نفوسهم راضية بأن تكون في مضر النبوة والخلافة. وكانت شيبان بكر بنوع خاص ــ وكانوا يقطنون ناحية الموصل على ضفتي نهر الدجلة ــ هم مقدمة جيوش الخوارج منذ أيام شبيب بن يزيد. وبعد أن قتل الوليد بن يزيد ثار بينهم سعيد بن بهدل الشيباني وبايع لنفسه خليفة على الخوارج، وهو بعد أن تغلب على بسطام البيهسى ــ وكان هذا قد خرج منافساً له في وطنه ومفارقاً لرأيه ــ خرج إلى الكوفة حيث كانت تلوح له آمالٌ في النجاح أكثر مما كانت تلوح في البلاد التي كانت لمروان. ولكن سعيدا مات وهو في الطريق، فخلفه في منصبه شيباني آخر، هو الضحاك بن قيس، من بيت مُرَّة النابه الذي كان منه شبيب أيضاً، فانحاز إليه الخوارج في شهرزور وأمينية وآذربيجان، حتى صارت

تحت لوائه آلاف كثيرة. وتوجه معهم إلى الكوفة، وقد تضافر عليه الواليان المتنازعان هناك (ابن عمر والحرشى)، ولكنهما لم يستطيعا صَدَّه، وهُزما في رجب سنة ١٢٧هـ (إبريل سنة ٧٤٥ م) أقبح هزيمة. وعلى أثرها أخليا الكوفة، فأما الحرشى فإنه توجّه إلى مروان في الشام، وأما ابن عمر فإنه لحق بواسط[١]، وكان قد سبقه إليها بعض أصحابه من كلب. وفي شعبان سنة ١٢٧هـ (مايو سنة ٧٤٥ م) اتبعه الضحاك وحاصره. وقد تميز في قتال الخوارج منصورُ بن جمهور، ولكنه كان أول من جنح إليهم[٢] وقَبِلَ مقالتَهم في الدين، وذلك بأن أعلن أنه قد أسلم وامتثل لكلام الله[٣]. وفي أواخر شوال سنة ١٢٧هـ (أول أغسطس ٧٤٥ م) سلّم لهم ابن عمر أيضاً بعد شيء من التردد، ودخل في طاعة الضحاك وصلّى خَلْفَه، فقال أحد الشعراء في هذه البيعة:

ألم تَــرَ أن الله أظهــر دينَه   فصلّت قريشٌ خَلْفَ بكرِ بن وائل

---

(١) هذا ما جاء عند الطبري (جـ ٢ ص ١٨٩٩). أما أبو عبيدة (الطبري جـ ٢ ص ١٩٠٢) فهو يقول إنهما جميعاً هربا إلى واسط وعادا هناك إلى نزاعهما السابق، ولم يصيرا يداً واحدة إلا بعد أن ظهر الخوارج، ولكن أبا عبيدة يقول أيضاً إن الحرشى في واسط لم يشترك في قتال الخوارج ولا في الصلح معهم. فلا بد إذن من أن يكون قد اختفى سريعاً وذهب من واسط إلى الشام (الطبري جـ ٢ ص ١٩١٣)، وفي هذه الحالة يجوز أن يكون قد قتل عامل الكوفة من قبل الضحاك، كما يحكى أبو عبيدة (الطبري جـ ٢ ص ١٩٠٣، ١٩١٤). أما بحسب ما جاء في رواية عند الطبري (جـ ٢ ص ١٨٩٩ فما بعدها، ص ١٩٣٨) فإن الذي فعل ذلك هو عطية التغلبي، وهو يشق طريقة من واسط إلى الكوفة فالشام، في سبعين أو ثمانين من قومه.

(٢) [كان الخوارج يقاتلون كأنهم الأسد عند أشبالها، وقد هرب جنود ابن عمر والحرشى أمام شدة بأسهم. وقد قاتلهم منصور بن جمهور أشد قتال، حتى إذا رأي ألا أمل في قهرهم أشار على ابن عمر أن يرضيهم ويجعل بأسهم على مروان بن محمد، فتردد ابن عمر، فانحاز منصور إلى الخوارج وناداهم: إني جانح أريد أن أُسْلِمَ وأسمع كلام الله. وكان لا بد لمن يريد أن ينضم إليهم من أن يقول ذلك، وكان ذلك امتحانهم له. وقد لحق بهم منصور وبايعهم. عن الطبري جـ ٢ ص ١٩٠١، ١٩٠٧ ــ المترجم].

(٣) كان الخوارج يعتبرون أنهم هم وحدهم المسلمون، وكانوا يعتبرون من عداهم من جماعة المسلمين غير أهل لهذه التسمية.

والشاعر يعبر هنا عن عجبه من أن أحد الأمويين بايع خارجياً من شيبان على الإمامة، ذلك أن الانتقال السياسي في هذه الحالة كان في نفس الوقت انتقالاً دينياً. والحقيقة أن هذا التغير كان عجيباً، وفوق هذا لم يأنف ابن عمر أن يكون والياً من قبل الخوارج على كسكر وميسان ودستميسان وكور دجلة والأهواز وفارس وفي أن يبقى في واسط. ووقع ابن عمر وهو في هذا المنصب في نزاع مع عبد الله بن معاوية، جاره من جهة المشرق.

أما الضحاك فقد رجع إلى الكوفة، ومنها صار يحكم النصف الغربي من دولته، ويُرْوى أنه بعد أن بقى بعيداً عن وطنه عشرين شهراً[١] رجع إليه في أرض الجزيرة في وقت كان فيه مروان مشغول اليدين تماماً في الشام. ولكن لا شك أن رجوعه لم يكن قبل منتصف سنة ١٢٨هـ (ربيع ٧٤٦ م). جاء الضحاك واستولى على الموصل وأخرج منها عاملها، وكانت قد التفّت إليه جموع كثيرة، وخصوصاً أنه كان يدفع لهم أعطيات كبيرة. ويقال إن جيشه بلغ مائة وعشرين ألف رجل. وطبيعي أن هذا العدد يستند إلى تقدير شعبي. ولكن تيوفانيس يقول إن الضحاك كان له جيش هائل وكان معه مهاجرةُ كلب ومغامروهم، ويمكن أن نَعُدَّ منهم سليمان بن هشام بن عبد الملك الذي كان قد أنقذ فرقته الذكوانية من هزيمة معركة يوم خساف وانحاز في أربعة آلاف رجل إلى الخوارج.

وبينما كان مروان يخضع الشام كان يتعرض لخطر ضياع أرض الجزيرة من

---

(١) هكذا عند الطبري (جـ ٢ ص ١٩٣٨). أما أبو عبيدة (الطبري جـ ٢ ص ١٩١٤) فيقول إن الضحاك خرج إلى الجزيرة في ذى القعدة سنة ١٢٧هـ (أغسطس ـ سبتمبر سنة ٧٤٥ م) كما يقول أيضاً إن مروان انتهى من إخماد حمص في نفس الشهر من السنة نفسها (الطبري جـ ٢ ص ١٩١٣)، ففرغ للضحاك. والتاريخان مرتبطان، ولكن السنة غير صحيحة في الحالين، أما في التاريخ الثاني فالشهر صحيح.

يده، وهي القاعدة التي كانت تستند قوَّتُه إليها. ولكنه لم يترك ما كان مشتغلاً به من حصار حمص، بل اكتفى مؤقتاً بأن كلف ابنه عبد الله ـــ وكان قد خلفه وراءه على أرض الجزيرة ـــ بأن يخرج إلى نصيبين ليشغل الضحاك عن توسط بلاد الجزيرة، بعد أن كان مروان قد غلب على الموصل. فسار عبد الله حتى بلغ نصيبين، ولكنه بعد قتال لم يمكنه المضى فيه لكثرة جيش الضحاك تقهقهر إلى ما وراء أسوار المدينة وحوصر هناك. غير أن الضحاك أخفق في محاولته الاستيلاء على الفرات عند الرقة. وكان مروان فيما بين ذلك قد استطاع أخيراً أن يقهر حمص، ثم خرج بنفسه إلى الرقة لقتال الخوارج، والتقى الجيشان عند كَفَرْتُوثَا، فقُتِل في اليوم الأول للمعركة، لأنه كان من عاداته أن ينزل الميدان ولا يبالى. وهو في مساء ذلك اليوم ترجّل في أهل الثبات من أصحابه ـــ وأكثر جنده لا يعلمون ما كان منه ـــ فأحدقت به خيل مروان فألحّت عليه هو وأصحابه حتى قتلتهم عند العتمة، ولم يكن يعلم بقتله أحدٌ. ولما علم مروان أرسل في البحث عنه على ضوء النيران والشمع، فوجدوه، وتبين أنه كان في وجهه أكثر من عشرين ضربة. وتولى قيادة الخوارج بعده رجل من بنى شيبان اسمه الخيبرى، فعاود الهجوم من بعد غده، وتقدم حتى اقتحم معسكر الأعداء، ففر مروان في قلب جيشه، ووصل الخيبرى إلى حجرة مروان وجلس على فرشه. ولكن تكاثر عليه عبيدٌ من أهل العسكر، وضربوه بعمد الخيام وقتلوه. وكان ذلك في أواخر سنة ١٢٨هـ (الموافق حوالي سبتمبر ٧٤٦ م)[١].

---

(١) يتفق تيوفانيس (أخبار سنة ٦٢٣٦) مع عبد الوهاب صاحب الرواية الأساسية عند الطبري، فهو يقول إن الضحاك ثار سنة ١٢٧هـ في Persis، أي في العراق، وإنه ظهر في أرض الجزيرة سنة ١٢٨هـ، وأرسل إليه مروان ابنه في أول الأمر ثم خرج إليه مروان بنفسه بعد فتح حمص وقتل الثوار.

ولكن الخوارج لم يُغْلَبُوا إلا في السنة التالية[١]، وكان لا يزال لهم جيش في أربعين ألف رجل، وقد بايعوا شيبان بن عبد العزيز اليشكرى (أبا دلف) خليفةً عليهم. وأشار عليهم سليمان بن عبد الملك بأن يرجعوا إلى الضفة الشرقية من نهر دجلة بإزاء الموصل، ولكن الموصل كانت ما تزال بأيديهم وكانوا يعبرون إليها على جسر من المراكب. وكان مروان معسكراً قبالتهم على الضفة اليمنى، وقضى أشهراً طويلة من سنة ١٢٩هـ (٧٤٦ ــ ٧٤٧ م) من غير أن يصل إلى انتصار حاسم. ولم يتزحزح الخوارج عن موقفهم على نهر الدجلة إلا بعد أن فقدوا سيادتهم على العراق، فعند ذلك لم يستطيعوا أن يصدوا الجيش الذي كان مسرعاً من جهة الكوفة لمساعدة مروان وأرادوا أن يتجنبوا الوقوف بين نارين، فتخلوا عن مركزهم في الموصل حوالي آخر سنة ١٢٩هـ (أغسطس ٧٤٧ م) واجتازوا الجبال قاصدين جهة المشرق.

وكان عامل مروان الذي انتزع العراق من يد الخوارج، فجعل مقامهم على الدجلة مستحيلاً، هو يزيد بن عمر بن هبيرة، من قيس قنسرين، وكان أبوه في عهد يزيد بن عبد الملك أميراً على الكوفة. وكان قد خرج إلى هناك في أوائل سنة ١٢٨هـ، ولكنه اضطر إلى أن يقف طويلاً على الحدود عند قرقيسيا، ولم يستطع الهجوم إلا في أواخر تلك السنة أو في أوائل سنة ١٢٩هـ، وبعد اشتباكات كثيرة موفّقة مع المثنى بن عمران ــ وكان هو من قِبل الخوارج الوالي الذي كان منصور بن جمهور يحارب تحت إمرته ــ أفلح في دخول الكوفة في رمضان سنة ١٢٩هـ (مايو أو يونيه سنة ٧٤٧ م)[٢]، وبعد ذلك استولى

---

(١) تيوفانيس ــ في أخبار سنة ٦٢٣٩ = ١٢٩هـ.

(٢) هذا ما يقوله أبو مخنف (الطبري جـ ٢ ص ١٩٤٦)، وهو وإن يكن مؤرخاً عالماً كالواقدى فإنه في هذه الحكاية لا بد أنه كان على علم بالأمر، لأنه كان في ذلك الزمان يعيش في الكوفة شيخاً كبيراً، أما أبو عبيدة (الطبري جـ ٢ ص ١٩١٤ فما بعدها) فهو يذكر أخباراً أخرى، ولكنه ليس أهلا للثقة، وهو وإن كان يعرف تفاصيل طريفة ويقص قصصاً ممتازاً فإنه من حيث هو مؤرخ لا تصح مقارنته بأبي مخنف.

على مدينة واسط وأسر عبد الله بن عمر. أما منصور بن جمهور فقد فرّ مع أصحابه من كلب إلى بلاد عبد الله بن معاوية، وكان الخوارج الذين كانوا يقاتلون مروان على الدجلة قد تقهقروا هم أيضاً إلى هناك، فارتفع شأن ابن معاوية بحكم هذه الظروف حيناً، بعد أن لم يكن له كبير شأن، ولا شك أنه لم يكن يحلم بذلك. فقد اجتمع إليه الشيعة والخوارج وكلب والعباسيون والأمويون. وقد بدا أن كل الفوارق في هذه الكتلة المتعصبة الموالية لمروان قد تلاشت. ولكن لم يمض وقتٌ طويل حتى تفرقت هذه الفلول المختلفة التي ألفت بينها الضرورة ولم تحتمل الحياة معاً(١).

وعاد مروان إلى مقر حكومته في الحيرة، وكان له أن يعطى نفسه شيئاً من الراحة(٢)، ذلك أن أهم ولايات الدولة: الجزيرة والعراق والشام ومصر، كانت قد خضعت له، وأيضاً كان قد تم القضاء على خوارج حضرموت الذين فتحوا صنعاء ومكة والمدينة في جزيرة العرب، وكان القضاء عليهم في سنة ١٣٠هـ (٧٤٨ م). وقد لبث مروان في ميدان القتال ما يقرب من ثلاث سنين، حقق فيها وهو يحارب عالَماً معادياً له، انتصارات غير مألوفة، وقد فاق كل من كان قبله من ملوك بنى أمية بفضل مقدرته الشخصية على احتمال الجهد والمشقة.

وهو قد ترك محاربة الخوارج ومحاربة ابن معاوية في المشرق لابن هبيرة، عامله على العراق. أما الجيش الذي أرسله إليه ابن هبيرة لمساعدته في حرب الخوارج عندما كانوا على نهر دجلة فقد كان تحت إمرة عامر بن ضبارة، فكلفه مروان بمطاردتهم، ففعل حتى دخل بلاد ابن معاوية. وكان معه قائد

---

(١) [راجع فيما يتعلق بحرب مروان مع الخوارج منذ الضحاك وخلفائه الطبري مثلا جـ ٢ ص ١٨٩٧ ـ ١٩٠٨، ١٩١٣ ـ ١٩١٦، ١٩٣٨ ـ ١٩٤٢، ١٩٤٣ ـ ١٩٤٩ ـ المترجم].

(٢) ومن المشكوك فيه أنه كان ينوى ذلك. وقد استفاد الروم من الحرب الأهلية، فوسّعوا حدودهم نحو الشرق، وربما أن مروان كان إذ ذاك يريد أن يتحول لمحاربتهم. على أنه هاجم قبرس من مصر، لكن دون أن يظفر بما أراد.

آخر من قواد ابن هبيرة هو نباتة بن حنظلة. وقد هُزِم ابن معاوية وهو يحارب ابن ضبارة في مرو الشاذان سنة ١٣٠هـ، فترك دولته وشأنها وفرّ من الأعداء إلى خراسان، وهناك قتله أصحابه. أما شيبان بن عبد العزيز اليشكرى، قائد الخوارج، فإنه ذهب إلى الساحل الشرقي من جزيرة العرب، وقُتِل أخيراً، وهو يحارب بنى جلندى أمراء عمان، وكانوا قد استوطنوها منذ زمان طويل، وكان قتله سنة ١٣٤هـ(١). وأما سليمان بن هشام ومنصور بن جمهور فقد عبرا البحر متوجهين إلى أرض السند(٢).

حتى إذا أفلح قواد ابن هبيرة في تشتيت هذه الكتلة، التي تألفت من مغامرين، وكانوا على أحسن أهبة لإخضاع العرب في فارس لسيادة مروان إخضاعاً تاماً، انبرى لهم خصوم جدد لا قِبَلَ لهم بهم، وهم أهل خراسان تحت اللواء الأسود لبنى العباس. وقد حاول نصر بن سيّار عامل بنى أمية على خراسان في ثنايا سنين طويلة أن يحذرهم من الخطر الداهم، وهو ألحّ أيضاً في طلب المعونة لإخماد النار قبل الضرام، فذهب سعيه سدىً. ذلك أن مروان كان عنده في وسط الدولة من المشاغل ما يكفيه، وكان لا يريد أكثر من أن يستطيع المحافظة على ما صار في يده. حتى إذا كان مروان في ذروة نجاحه برز له فجأةً ذلك الشبحُ الأسود الذي لم يكن قد فطن إليه. واستطاع أهل خراسان أن يضيعوا عليه ثمرة عمله الشاق. وذلك في الوقت الذي كان يبدو فيه أنه قد وصل إلى الغرض. والواقع أنه لما ظهر أبو مسلم كان أقوى من مروان.

---

(١) هكذا عند الطبري ج ٣ ص ٧٨، قارن أيضاً ج ٢ ص ١٩٤٥، ١٩٤٩، ١٩٧٩، أما أبو مخنف (الطبري ج ٢ ص ١٩٤٨) فهو يقول إن شيبان بن عبد العزيز قتل في سجستان سنة ١٣٠هـ. والأرجح أنه يخلط بينه وبين شيبان بن سلمة الحرورى الذي لعب في ذلك الوقت نفسه دوراً في خراسان وقتل بالفعل سنة ١٣٠هـ، لكن لا في سجستان بل في سرخس.

(٢) راجع نهاية أمرهما في الأغاني (جـ ٤ ص ٩٦) واليعقوبي (جـ ٢ ص ٤٢٠) والطبري (جـ ٢ ص ٧٢، ٨٠).

الفصل الثامن

القبائل العربية في خراسان

١ ــ كانت ثورة الفرس من أهل التشيع في خراسان هي السبب في السقوط النهائي لدولة بني أمية، لكن الذي مهد لهذه الثورة هو ما سبق ذلك من أحداث في تاريخ خراسان، وخصوصاً تلك العداوة المستمرة التي كانت بين قبائل العرب هناك، وهي عداوة كانت قد بدأت في البصرة من قبل، وذلك أن خراسان كانت أشبه بمستعمرة تابعة للبصرة، وإذا أراد الإنسان أن يفهم الموقف في خراسان فإن عليه أن يرجع إلى معرفة الأحوال التي كانت في البصرة من قبل أو تطورت عما كان هناك.

وفي أول العصر الأموي، أدى التحاسد بن القبائل في الكوفة إلى ضروب من التوتر، لكنه لم يؤدّ إلى انفجارات معها أعمال عنيفة، ولم يكن التطاحن الدموي إلا بين الأحزاب السياسية. أما في البصرة فكانت الظروف في أول الأمر تكاد تكون شبيهة بما كانت عليه في الجاهلية، فكانت السخائم في صورتها الكامنة والظاهرة تملأ نفوس القبائل، لكنها كانت بين مجموعات القبائل أكثر مما كانت بين القبائل منفردة. وكانت أكبر مجموعة قبلية تتألف من تميم ورباب، وكان قد انضم إليها أساورة الفرس، ودخل الزطّ والسبابجة من الهنود في حماها، لأنها كانت أقوى مجموعة[1]. وكان ما بين تميم وربيعة متباعداً منذ الزمن القديم، ثم انضمت عبد القيس إلى بكر في البصرة، وكانت عبد القيس

---

(١) البلاذرى (ص ٣٧٢ فما بعدها)، والكامل (ص ٨٢ س ١٦ فما بعده).

قليلة العدد في الكوفة، وكانت الأزد هي التي تمثل قبائل اليمن، على حين أن مذْحِج وهمدان وكندة ـ وهي القبائل العربية الأصيلة النابهة ـ كانت هي أكبر القبائل في الكوفة(١).

ولم تَقْوَ الأزدُ في البصرة إلا من طريق هجرة جاءت متأخرةً، في أواخر أيام معاوية وفي أيام يزيد ابنه (الطبري جـ ٢ ص ٤٥٠ والبلاذرى ص ٣٧٣). ولم يرض الناس أن يكون لهؤلاء المهاجرين المحدثين الذين لم يشتركوا في الفتوحات الكبرى في عهد عمر وعثمان ما كان للقبائل القديمة من حقوق (الطبري جـ ٢ ص ٧٧٩). وكان مجيء هؤلاء الأزد سبباً في تغيير ما كان للقبائل حتى ذلك الحين من قوة، بعضها بالنسبة لبعض، وإن كان الأزد لم يبلغوا أوجَ عِزِّهم إلا على يد المهلب وأبنائه. وكانت تميم تريد في أول الأمر أن تكسب صداقة الأزد وأن تجعل منهم حليفاً لها، ولكنها لم تَخْطُ الخطوة الأولى في سبيل ذلك، لأن الأحنف بن قيس حكيمها الأكبر وصاحب الكلمة النافذة، قال لها إن من يبدأ بطلب الحلف يكون له دائماً الشأن الثاني فيه(٢). لذلك سبقتهم ربيعةُ إلى ذلك، فحالوا الأزد حلفاً أكَّدتْه العهودُ والمواثيق (الطبري جـ ٢ ص ٤٥٠، ١٤٩٧). ولما كانت تميم حليفةً لأهل العالية، أعنى متحدة مع قيس، فقد نشأ عن ذلك انقسام

---

(١) ويقابل أرباع الكوفة أخماس البصرة وخراسان وهي: ١ ـ بكر، ٢ ـ عبد القيس، ٣ ـ تميم، ٤ ـ الأزد، ٥ ـ أهل العالية (أهل المدينة) خصوصاً قيس ـ الطبري (جـ ٢ ص ٤٦١ س ٢١، ١٣٨٢)، ومعنى الربع والخمس معروف، لكنهما يستعملان كما نستعمل نحن كلمة: الحى أو القسم، في تقسيم لا يتحتم أن يكون في الحقيقة رباعياً أو خماسياً، ذلك أنه كان يلحق بالقبائل الكبرى التي تسمى الأخماس طبقاً لها، أجزاء من قبائل أصغر، مثل لحاق كندة وطيئ بقبائل بكر في البصرة.

(٢) [لما نزل الأزد في البصرة قالت تميم للأحنف: بادر إلى هؤلاء قبل أن تسبقنا إليهم ربيعة! فقال الأحنف: إن أتوكم فاقبلوهم، وإلا فلا تأتوهم، فإنكم إن أتيتموهم، صرتم لهم أتباعاً. ولما سعت ربيعة لمحالفة الأزد، قال الأحنف في ربيعة: أما إذ أتوهم فلن يزالوا لهم أتباعاً أذنابا ـ المترجم نقلاً عن الطبري جـ ٢ ص ٤٥٠].

إلى قسمين، فكان هناك الأزد (اليمن) وحلفاؤهم من ربيعة في جانب، وكانت مضر (تميم وقيس) في الجانب الآخر. ولكن لا يصح أن يظن الإنسان أن جميع الأزد لم يهاجروا إلى البصرة إلا حوالي سنة ٦٠هـ، بل كان هناك أزدٌ من قبل وكانوا هم وأزد الكوفة ينتمون إلى الفرع الغربي، خصوصاً إلى دوس، وكان هذا الفرع يقطن جبال الصراة، لكن لم يكن لهم كبير شأن حتى زادت قوتهم بفضل العدد الجديد الذي لحق بهم وكان أكبر منهم بكثير، وهو قد جاء من عمان على الساحل الشرقي لجزيرة العرب. وكان أزد عمان، خلافاً لأزد الصراة، يسمون مَزون، ولكنهم كانوا يكرهون هذه التسمية لما كان يبدو فيها من إشارة إلى أصلهم المشترك، فقد كان يقطن عُمَان كثيرٌ من غير العرب، وكانوا يُنْبَزون بصناعتهم القديمة، وهي صيد السمك، كما كان يُنْبَز أزد غرب الجزيرة باشتغالهم بالحياكة.

وفي سنة ٣٨ أو ٣٩هـ وَجّه معاويةُ إلى البصرة بابن الحضرمى لكي يؤلّب على عليّ، مستعيناً بتميم. ولا بد أن يكون قد أفلح أن يضم إليه شطراً كبيراً من تميم، لأن زياد بن أبيه، ذلك العامل الشاب الذي كان إذ ذاك حليفاً لأمير البصرة، طلب من بكر أن ينزلوه في جوارهم، ولكنهم لم يستطيعوا أن يجمعوا كلمتهم، فلجأ إلى أزد الصراة فوجد ركناً حصيناً لنفسه ولبيت المال عند رئيسهم صبرة بن شَيْمان الحدانى (من دوس). ولكن علياً قام بمحاولات بواسطة أوليائه من تميم لكي يصرف تميم البصرة عن ابن الحضرمى، فقُتِل أولُ رسول كلّفه بذلك، لكن ورسوله الثاني، وكان جارية بن قدامة، أصاب نجاحاً، فتخلّت تميم عن ابن الحضرميّ، وحاصره جارية في دير سنبل وأحرقه هو وأتباعه. وقد حفظت لنا الأيام أبياتاً في ذم تميم بسبب هذا الحادث الذي ظل عارُه لاحقاً بهم زماناً طويلاً (راجع رواية المدائنى عند الطبري ج ١ ص ٣٤١٤ فما بعدها).

وكان ذلك هو مبدأ المودة بين الأزد وبين زياد وأسرته، وكان زياد يحفظ لهم الجميل دائماً (الطبري جـ ٢ ص ٨٠)، وأوصى أبناءه بأن يلجأوا إليهم، إذا ضاقت بهم ضائقة (الطبري جـ ٢ ص ٤٤٠). وكان الأزد في أصل الأمر عنصراً محايداً أمام التنافس بين تميم وبكر، فكانوا لذلك عنصراً من شأنه أن يكون ملائماً لاعتماد الحكومة عليه.

ولم يقع الانفجار الحقيقي فيما كان بين القبائل من سخائم إلا بعد هجرة أزد عمان إلى البصرة وإلا بعد موت يزيد بن معاوية، وكان هذا الانفجار سبباً في زلزلة سيادة الأمويين في كل مكان. وأخبار ذلك مُفصَّلة تفصيلاً وافياً عند الطبري (جـ ٢ ص ٤٣٣ فما بعدها)، لكنها لا تخلو من تعقيد. ومما يعود على الباحث بالفائدة أن يحلّ العقد ويتبين الخطوط البسيطة، وخصوصاً أنه لا يكاد بدون ذلك أن يفهم كلمة تقال عن تلك الحوادث بما كان لها من عواقب خطيرة ولا أن يفهم كلمة عنها فهماً صحيحاً. وأكبر رواة الطبري في ذلك هو أبو عبيدة، ذلك الجامع المكثر لأخبار القبائل العربية. وروايته، وإن لم تكن لدينا كاملة، فإن من الممكن إكمالها بمساعدة رواية وهب بن جرير، وهو يوافق أبا عبيدة في الجملة والجوهر.

عن أبي عبيدة (الطبري جـ ٢ ص ٤٣٥ س ١٧ وص ٤٣٦ س ١٥)[1]: لما قَتَلَ عبيدُ الله بن زياد الحسينَ بن علي وإخوته يعث برؤوسهم إلى يزيد بن معاوية، فسُرّ بقتلهم أولا وحسنت بذلك منزلة عبيد الله عنده. ثم لم يلبث إلا قليلاً حتى ندم على قتل الحسين، فكان يقول: وما كان عليَّ لو احتملتُ الأذى وأنزلتُه معي في داري وحكّمته فيما يريد... حفظاً لرسول الله صلعم ورعاية لحقّه وقرابته، لعن الله ابنَ مرجانة!... قتله، فبغّضني بقتله إلى

---

(١) وتقابل ذلك رواية وهب ــ الطبري (جـ ٢ ص ٤٣٣ س ١٢).

المسلمين، وزرع لي في قلوبهم العداوةَ، فبغضني البرُّ والفاجرُ... وكان لعبيد الله مولى؛ يُقال له أيوب بن حمران، قد جعله في الشام رسولاً ليأتيه بأخبار يزيد؛ فلما كان ذاتَ يومٍ جاء أيوب إلى البصرة مسرعاً، وأبلغ عبيد الله موت يزيد واختلاف أمر الناس في الشام. فأمر عبيد الله بدعوة الناس إلى الاجتماع في المسجد، فأعلن لهم النبأ، وعرّض بثلْب يزيد، ثم تكلم عن أعماله هو في أثناء ولايته البصرة. فقال إنه لما تولى البصرة، كان ديوان المقاتلة (من العرب) يشتمل على سبعين ألفاً، وكان ديوان العمال (من الموالى) يشتمل على تسعين ألفاً؛ أما الآن بعد ولايته فقد صار ديوان المقاتلة يشتمل على ثمانين ألفاً، وديوان العمال على مائة وخمسين ألفاً. وقال إنه ما ترك صاحب ظِنَّةٍ يخاف منه على أهل البصرة ــ وكان يقصد الخوارج خاصة ــ إلاَّ سَجَنَه. ثم قال لأهل البصرة: «إن أمير المؤمنين يزيد بن معاوية قد توفى، وقد اختلف أهلُ الشام، وأنتم اليومَ أكثر الناس عدداً وأعْرَضُه فِناءً وأوسعه بلاداً، فاختاروا لأنفسكم رجلاً ترضونه لدينكم وجماعتكم! فأن أوّلُ راضٍ من رضيتموه؛ فإن اجتمعَ أهلُ الشام على رجل ترضونه دخلتم فيما دخل فيه المسلمون، وإن كرِهْتُم ذلك كُنْتُم على جَدِيلَتِكُمْ، حتى تُعطَوْا حاجَتَكم؛ فما بكم إلى أحدٍ من أهل البلدان حاجة، وما يستغنى الناس عنكم!». وكان عبيد الله يقصد أن يرشح نفسه أميراً إلى أن يأتي أمير، ذلك أنه بموت الخليفة انتهى واجبُ الطاعة للحكومة، وهو واجب يلتزم بحكم البيعة لشخص الخليفة. فقام أهل البصرة خطباء، وقالوا له: أيها الأمير! إنَّا والله لا نعلم أحداً أقوى عليها منك، فَهَلُمَّ نُبَايعْكَ! فامتنع عبيد الله مراراً، فألحوا عليه، حتى بسط يَدَهُ وبايعوه، ثم انصرفوا. فلما خرجوا من عنده جعلوا يمسحون أكُفّهم بالباب والحيطان وهم يقولون: «يظنُّ ابن مرجانة أننا نولّيه وننقاد له في الفُرْقَةِ؛ كَذَبَ واللهِ!» ثم صاروا يأمرهم

بالأمر فلا يطيعون ويرى الرأي فيردونه عليه، ويأمر رجاله بحبس المذنب فيحولون بين رجاله وبين هذا المذنب، ولم يلبثوا أن نبذوا كل طاعة له ووثبوا عليه[(١)].

عن أبي عبيدة (الطبري جـ ٢ ص ٤٣٧ س ١٥): كان الذي أعطى الإشارة للثورة هو سلَمة بن ذؤَيب التميمي؛ فقد ظهر في سوق الإبل على فرسه، وقد تقنّع بسلاح وفي يده لواءٌ، وهو يدعو الناس لمبايعة العائذ بمكة، يعنى عبد الله بن الزبير[(٢)]. فعند ذلك جمع عبيدُ الله أهل البصرة في المسجد وأنشأ يقص عليهم أولَ أمره وأمرهم ويقول إنه قد كان دعاهم إلى اختيار أمير يرتضونه: فبايَعه معهم، وإنهم رغم ذلك أبوا إلا أن يبايعوه هو. ثم قال لهم: إنكم مسحتم أكُفّكم بالحيطان وباب الدار وقلتم ما قلتم، وإنى آمر بالأمر فلا يُنَفَّذ، ويُرَد عليّ رأيي، وتحول القبائل بين أعواني وبين طِلْبَتي، ثم هذا سَلَمةُ بن ذؤيب يدعو إلى الخلاف عليكم إرادةً أن يفرِّق جماعتَكم ويضرب بعْضُكم جبَاةَ بعضٍ بالسيف. فقال الأحنفُ بن قيس بن تميم والناس جميعاً: نحن نأتيكَ بسلَمة، فأتوا سلَمةَ، فإذا جَمْعُه قد كَثُفَ وإذا الفتْقُ قد اتَّسع على الراتق، وامتنع عليهم؛ فلما رأوا ذلك قعدوا عن عبيد الله بن زياد فلم يأتوه.

عن أبي عبيدة (الطبري جـ ٢ ص ٤٣٩ س ٢٠)[(٣)]: كان عبدي الله في

---

(١) استطاع عبيد الله في أول الأمر أن يكتسب المحبة بأن أمر عماله أن يفرقوا ما في بيت المال في القبائل والمقاتلة ليل نهار ــ وكان ذلك المال بحسب الطبري (جـ ٢ ص ٤٣٩) ثمانية آلاف ألف درهم أو تسعة عشر ألف ألف (قارن جـ ٢ ص ٤٤٣)، وكان للقبائل والمقاتلة الحق في مال الفيء الذي أخذته الحكومة وجمعته بعد ما صرف منه من أعطيات، ولكنه بعد أن عصوه كف عن ذلك. ولما هرب أخذ معه ما تبقى في بيت المال، وكانت نفائس ذلك لا تزال تتردد في آل بيته ــ أبو عبيدة (الطبري جـ ٢ ص ٤٣٩ س ١٠ فما بعده).

(٢) يدعى برونوف (Brünow) من عند نفسه أن سلمة كان مبعوث ابن الزبير، كما يدعى ا. موللر أنه خليصة. أما الروايات فلا تعرف عن ذلك شيئاً، فلا يصح أن يخترعه المؤرخ، ذلك أنه كان من البديهي أن تتجه أنظار المعارضين لبني أمية إلى ابن الزبير. هذا إلى أنه ليس من شأن من يريد أن يدعو الناس إلى مبايعة خليفة أن يظهر في السوق على فرس ومعه لواء ــ قارن الطبري جـ ٢ ص ٤٥٢ س ١٥، ص ٤٦٥ س ٢.

(٣) تقابل ذلك رواية وهب ــ الطبري جـ ٢ ص ٤٤١ س ٢٠.

موقف سَيِّئ، حتى إنه دعا رجال الشرطة[١]، فأرادهم أن يقاتلوا معه، فقالوا: إن أمَرَنا قوادُنا. فقال له إخوته: والله ما من خليفة فتُقاتِل عنه، فإن هُزِمْتَ فِئْتَ إليه وإن استمدَدْتَه أمدَّك! وقد علمتَ أن الحرب دُوَل، فلا ندري لعلها تدول عليك، وقد اتخذنا بين أظهر هؤلاء القوم أموالاً، فإن ظفروا أهلكونا وامتلكوها، فلم تبق لك باقيةٌ. وقال له أخوه عبد الله لأبيه وأمه مرجانة: «والله لئن قاتلتَ القوم لأعتمدنَّ على ظُبَةِ السيف، حتى يخرجَ من صلبي». فلما رأى ذلك عبيدُ الله قرر ــ كما فعل أبوه من قبل، وكما أوصاه أيضاً ــ أن يلتجئ إلى الأزد، طلباً لحمايتهم من ثورة تميم. فلما جاء الليلُ خرج بخزائنه وذهب مع الحارث بن قيس إلى مسعود بن عمرو العَتَكى. رئيس الأزد، وذهب معه جميع إخوته[٢]، ولم يجسر على الخروج نهاراً مخافة أن يقتل، وكان في الليل معرّضاً لأن تصيبه سهامُ الحراس الذين كانوا يخرجون لمطاردة الخوارج. وقد عرفه رجلٌ، فرماه بسهم وقع في كور عمامته حتى إذا وصل بسلام إلى مسعود ارتاع مسعود وقال للحارث: كان يُتَعَوّذُ من سوء طوارق الليل، فنعوذ بالله من شر ما طَرَقْتَنَا به. وذلك أن مسعوداً لم يشأ أن يعادى جميع أهل البصرة من أجل عبيد الله، وخصوصاً أن الأزد كانوا قد أبْلَوْا من قبل في حماية زياد فلم يُكافأوا على ذلك وأن مسعوداً وقومه كانوا قد بايعوا لابن الزبير؛ فَهَدَّأ الحارثُ من روعه وأفهمه أن إجارته لعبيد الله لا تتعارض مع البيعة التي بايعها وأن كل ما يُراد منه هو أن يُبْلِغ عبيد الله بن زياد مكاناً آمناً خارج البصرة[٣].

---

(١) يسمون عند الطبري البخارية (قارن أيضاً ص ٤٦٤ وخصوصاً البلاذرى ص ٤١١؟)، وإلا فيسمون خاصة السلطان، أعنى جند الحكومة خاصة في مقابل المقاتلة.

(٢) عتيك أنبه بطون أزد عمان، وكان مواطنهم القديم في دَبا، ومنهم أيضاً المهلب ابن أبي صفرة.

(٣) رواية أخرى لأبي عبيدة ــ الطبري ج ٢ ص ٤٤٥ س ٧، أما بحسب رواية وهب فإن مسعوداً أظهر استعداده على الفور ــ الطبري ج ٢ ص ٤٤١ س ١٠.

عن أبي عبيدة (الطبري ج ٢ ص ٤٤٦ س ٣)[١]: لما هرب عبيد الله بن زياد أصبح أهل البصرة بغير أمير، واختلفوا فيمن يأمرون عليهم، ثم ارتضوا قيس بن الهيثم السلمى ونعمان بن سفيان الراسبى لكي يختارا أميراً يرضيانه لهم، وتمّ اختيار رجل له قرابةٌ بالنبي [عليه السلام] وبمعاوية، وهو عبد الله بن الحارث بن نوفل بن الحارث بن عبد المطلب، وأمه هند بنت أبي سفيان، وكان يلقب بَبَّةَ؛ ودخل بَبَّةُ القصر في أول جمادى الآخرة سنة ٦٥هـ.

عن أبي عبيدة (الطبري ج ٢ ص ٤٤٧ س ١٢ وص ٤٤٩ س ٢٠): وحدث بعد ذلك أن وفد على بَبَّةَ رجلٌ من ولد عبد الله بن عامر القرشى آتياً برسالة من عبد الله بن خازم فيما بيعتُه. وجلس القرشى في حلقة بالمسجد فيها مالك بن مِسْمَع. وحدث أن قـام نزاعٌ، فأغلظ القرشيُّ لمالك بن مسمع فقام رجل من بني بكر بن وائل ولطم القرشيَّ. وهاج من كان هناك من مضر وربيعة، وكادت تقع حربٌ حقيقية، لولا تدخل مالك بن مسمع. ثم وقع أن رجلاً من بني يشكر كان جالساً مع رجل من بني ضبّة في المسجد، فتذكرا لطمة البكرى للقرشيّ، ففخر بها اليشكرى وقال للضبّى: «ذَهَبَتْ طِلْقاً»، يقصد أن القرشي احتمل اللطمة دون أن يثور لكرامته. فعند ذلك غضب الرجل الضبي؛ وقام إلى اليشكرى فوجأ عنقه، ووقذ الناسُ ذلك اليشكريَّ فحُمِل إلى أهله ميتاً. وعند ذلك ثارت بكرٌ كلها وهَبّت لمحاربة تميم، وكان على رأسهم مالك بن مسمع رئيسهم القديم، لأن أشيم بن شقيق رئيسهم الجديد لم يشأ أن يقودهم إلا بعد أن يرسل إلى تميم رسولاً[٢]، واستخفّت بكرٌ مالكَ بن مسمع، فَخَفَّ، ولكنه قبل أن يهاجم تميماً طلب إلى الأزد أن يجددوا

---

(١) رواية وهب عند الطبري ج ٢ ص ٤٤٤ س ٦ وس ١٧.

(٢) ويتجلى نفس التنافس والخلاف بين القواد فيما يحكيه الطبري ج ٢ ص ٣٤١٤ — قارن ج ٢ ص ٤٤٨ — أما بحسب ص ٤٥٥ س ٥ فما بعدها فإن أشيم، لا مالكا، كان هو القائد

الحلفَ الذي كان عقد قديماً بين الأزد وبكر[١] وبلغ عبيدَ الله، وهو في بيت مسعود بن عمرو، ما حدث من تباعد بين بكر وتميم، فأعان مالك بن مسمع بأموال جزيلة، حتى أمكن التغلُّب على قوم كانوا معارضين في تجديد الحلف. ولم يَرْضَ الأزدُ بأن يسيروا إلا أن يكون الرئيس منهم، فرضيت بكر بأن يتولى الرياسة مسعود بن عمرو الأزدى، فقال مسعود لعبيد الله بن زياد: سِرْ مَعنَا حتى نعيدك إلى الدار! ــ يقصد قصر الإمارة، فأبى وأمر برواحله فَشُدّتْ عليها أدواتها وأعدّ متاعه وتأهّب للسفر، ولكن الأزد ألْقَوْا له كرسياً على باب مسعود، فقعد عليه، وبعث غلماناً له على خيل مع مسعود ليأتوه بما يحدث خيراً كان أو شراً، وانتهى مسعود إلى المسجد فدخله وصعد المنبر وأبى بَبَّةُ أن يتعرّض له، ولما لم يَحُلْ أحدٌ بين مسعود وبين صعود المنبر خرج مالك بن مسمع فأحرق دور قوم من بني العدوية، فبينما هو في ذلك إذ أتاه من أبلغه قَتْلَ مسعود.

عن أبي عبيدة (الطبري ج ٢ ص ٤٥٢ س ٦): جاء بنو تميم إلى الأحنف حكيمهم ورئيسهم فقالوا له إن ربيعة والأزد قد دخلوا المسجد، فقال لهم: لستم بأحق بالمسجد منهم؛ ثم أتوه بعد هنيهة، فقالوا: قد دخل القصر فقال: لستم بأحق بالقصر منهم. كل ذلك، والأحنف هادئ، فعند ذلك قام سَلَمة بن ذؤيب ونادى: إليّ يا معشر تميم! فإنما هذا جبسٌ لا خير لكم عنده، يقصد الأحنف. وبدرت «ذؤبانُ بني تميم»، وانتدب مع سلمة خمسمائة، وانضم إليهم أربعمائة من الموالى (كانوا من الأساورة) على رأسهم ماه أفريدون. ثم تتابعت الأخبار السيئة، وعند ذلك ارتأى الأحنف ضرورة استعمال السيف

---

(١) أودعت إحدى الوثيقتين عند الصلت بن حريث الحنفى (الطبري ج ٢ ص ٤٤٩ س ١٧ ــ قارن الكامل ص ٦٢٧ س ١٠).

فسأل عن عبَّاد بن حصين، فلم يجده، فسأل عن عبس بن طلق الصريمى فوجده، فحلّ عمامته وعقدها في رمح، وسلّم هذا اللواء لعبس بن طلق. وعند ذلك صاح الناس: «هاجت زبرا»، وزبرا هذه كانت أمةً للأحنف، وإنما كنّوا بها عنه. ولما سار عبس بن طلق جاء عباد بن حصين في ستين فارساً. وسأل عن القائد الذي خرج على رأس القوم، فلما عرف أنه عبس بن طلق قفل راجعاً إلى أهله، لأنه لم يرض أن يحارب تحت لواء عبس.

عن إسحاق بن سويد (الطبري ج ٢ ص ٤٥٤ س ٦)[1]: وأبلى ماه أفريدون وقومه أحسن البلاء في القتال إلى جانب تميم، وكان كل واحد منهم يرمى خمس نشابات في رَمْيَةٍ، فلم تثبت بكر أمام هذا الوابل من السهام. ودخلت تميم المسجد وأنزلت مسعوداً من على المنبر وقتلته. وبادر أشيم بن شقيق من بكر هارباً، وكان هذا في أول شوال سنة ٦٤هـ. ويذكر أبو عبيدة (الطبري ج ٢ ص ٤٥٥ س ١٦) أن فرار عبيد الله كان في هذا التاريخ نفسه، لأنه يرى أن عبيد الله هرب إلى الشام بعد مقتل مسعود (الطبري ج ٢، ص ٤٣٩ س ١٠).

عن أبي عبيدة (الكامل ص ٨١)[2]. قام بالثأر لمقتل مسعود أخوه زياد بن عمرو العتكى، وكان لا يزال غلاماً حدثاً، فدخل المربد في اليوم التالي وجمع جيشاً وجعل بكراً على ميمنته وعبد القيس على الميسرة والأزد في القلب.

---

(١) أغفل الطبري رواية أبي عبيدة للاشتباك بين الفريقين فلم يذكر منها (ص ٤٥٥ س ٩) سوى ما قاله الحسن البصري متهكماً بمسعود من أنه يدعو الناس إلى السنة وينهى عن الفتنة، فقد قال له الحسن: «ألا إن من السنة أن تأخذ فوق يديك» وسوى ما روى من أن القوم لم يلبثوا أن أنزلوا مسعوداً من على المنبر وقتلوه. وإسحاق بن سويد يملأ الفجوة، وهو بالجملة (وأيضاً في التواريخ) يتابع أبا عبيدة ويختلف عنه في تفاصيل صغيرة، فعنده مثلا أن القائد لم يكن مالكاً، بل أشيم.

(٢) وهذه القطعة الأخيرة من رواية أبي عبيدة غير موجودة أيضاً عند الطبري، وهو يذكر مكانها رواية أخرى لعوانة (ص ٤٦١ س ١٨).

ونظم الأحنف تميماً وأعد جيشاً، فوقفت بحذاء الأزد سعدٌ ورباب، وعلى رأسهم سعد بن طلق الصريمى. ووقفت بحذاء بكر بنو حنظلة، وعلى رأسهم حارثة بن بدر. ووقفت أمام عبد القيس بنو عمرو بن تميم. ولكن لم يقع قتال، وذلك أنهم لما تواقفوا بعث الأحنف إلى الأزد وربيعة يقول لهم: «يا معشر الأزد وربيعة من أهل البصرة! أنتم والله أحبُّ إلينا من تميم الكوفة، وأنتم جيراننا في الدار ويَدُنا على العدو، وأنتم بدأتمونا بالأمس ووطئتم حريمنا وحرّقتم علينا، فدفعنا عن أنفسنا. ولا حاجة لنا في الشر ما أصبنا في الخير مسلكاً، فتيمموا بنا طريقاً قاصدة! فوجّه إليه زياد بن عمرو: تَخَيّرْ خلةً من ثلاث، إن شِئْتَ فانزلْ أنت وقومك على حكمنا، وإن شِئْتَ فخلِّ لنا عن البصرة وارحَلْ أنت وقومك إلى حيث شئتم، وإلاّ فَدُوا قتلانا وأهدروا دماءكم، ولْيُودَ مسعودٌ دية المعشرة، يقصد أن تُدْفع له عُشْرُ ديات، شأن من كان يودى من ملوك الجاهلية. فبعث إليه الأحنف: سنختار، فانصرفوا في يومكم هذا! فهز القوم رايتَهم وانصرفوا. فلما كان الغَدُ بعث الأحنف إليهم: إنكم خَيّرْتُمونا خلالاً، ليس فيها خيار: أما النزول على حكمكم، فكيف يكون، والكَلْم يقطر دماً! وأما ترك ديارنا فهو أخو القتل، قال الله عز وجل: «ولو أنَا كَتَبْنَا عليهم أنْ اقْتُلوا أنْفُسَكم أو اخرُجُوا من ديارِكم مَا فَعَلُوه». ولكن الثالثة إنما هي حَمْلٌ على المال، فنحن نُبْطِل دماءنا وندى قتلاكم، وإنما مسعود رجلٌ من المسلمين، وقد أذهب الله أمْرَ الجاهلية. فاجتمع القوم على أن يقفوا أمر مسعود ويُغْمَد السيف ويُودى سائرُ القتلى من الأزد وربيعة، فتضَمَّن ذلك الأحنفُ، ودُفِع إياس بن قتادة المجاشِعى رهينة، وقد أعطى يديه مختاراً، وتشهد بذلك أبيات للفرزدق. وقد نهض الأحنف، على عادته، في هذه المناسبة بأهم واجبات السيد العربي، وهو حفظ السلام(١)، على نحو نادر المثال. وإلى جانبه اشتهر إياس بن قتادة، أحد أثرياء

---

(١) قد بولغ في بيان فضل الأحنف على كل حال، ويحكى المدائنى (الطبري ج ٢ ص ٤٦٥ س ٥، ٦) أن اثنين كانا هما اللذين توسطا في الصلح.

تميم، شهرة كبيرة، لأنه احتمل الشطر الأكبر من الديات (أنساب الأشراف ص ١٨٧).

ويمكن تصحيح رواية أبي عبيدة في بعض النقط بالاستعانة بقطع من روايات لرواة آخرين، لم يكن هروب عبيد الله بعد مقتل مسعود في شوال سنة ٦٤هـ (الطبري ج ٢ ص ٤٥٥ س ١٨)، بل الذي يؤخذ من أبيات للهيثم بن الأسود (الطبري ج ٢ ص ٤٦٣ س ٥) هو أن مسعوداً بنفسه مكّنه من الخروج إلى الشام. وهذا ما يقوله أيضاً وهب بن جرير (الطبري ج ٢ ص ٤٥٦). وكذلك يروى عوانة (ص ٤٦١) أن عبيد الله ذهب إلى الشام في منتصف جمادى الثانية أي بعد موت يزيد بتسعين يوماً. وعلى هذا فلم يكن عبيد الله أمام الحوادث الدامية يقف متفرجاً صامتاً، بل هو لم يكن حاضراً على الإطلاق، ولم يقع في أثناء حضوره الاختيار للأمير، لأن من العسير أن يكون قد تم الاتفاق على ذلك في مثل تلك الفترة القصيرة، بل وقع اختيار الأمير نتيجة لعقد السلام بين القبائل بعد انقسامها انقساماً أنذر بالخطر. وهذا ما يقوله عوانة (الطبري ج ٢ ص ٤٦٣): بعد قتل مسعود وحَسْم النزاع اجتمع أهلُ البصرة على أن يجعلوا عليهم أميراً يصلِّى بهم، حتى يجتمع الناس على إمام، فجعلوا عبد الملك بن عبد الله بن عامر أميراً ثم أمّروا بَبَّةَ إلى أن عَيَّنَ ابن الزبير عليهم والياً بعد ثلاثة أشهر. وهذا هو الذي يفسر لنا ما جاء في رواية أبي عبيدة من أن بَبَّةَ التزم السكوت التام، لما دخل الأزد المسجد والقصر، وما ذلك إلا لأنه لم يكن بعد قد صار أميراً.

ويروى عوانة فوق ذلك (ص ٤٦١) أن عبيد الله بن زياد، لما هرب، استخلف مسعوداً على البصرة. ومهما يكن من شيء فإن ما فعله مسعودٌ قد وقع أثناء الفترة التي كان فيها خليفةً لعبيد الله، بعد أن كان هذا قد هرب. فأراد أن يغتصب منصب الإمارة الخالى (ص ٤٥٦ س ١٦)، فلم يخرج لقتال تميم، بل

دخل المسجد والقصر، وأخذ على سبيل التعبير الظاهر عن ذلك مكان الأمير على المنبر؛ وهو من على المنبر قد أنْزِل. وكانت تميم قد أخرجت عبيد الله، فلم تشأ الأزد أن تترك الأمر في أيدي تميم، بل شاءت أن تَسْتَبِقَ تميماً وتأخذَ الأمر من يدها، ووقع القتال حول ذلك. ويتجلى من هذا أيضاً أن مسعوداً إنما تدخل من نفسه ولمصلحته الشخصية، وأنه لم ينتظر حتى تدفعه ربيعةُ إلى ذلك. فأما حكاية الصفعة فهي مسألة ثانوية تماماً.

ويتجلى الوضع المعنوي الإجمالي من رواية عوانة تجلياً واضحاً: فشلت محاولة قبيلة ورئيس لها، يجوز أنه كان مَفَوَّضاً من قِبَل الأمير الهارب، في الوصول إلى الإمارة وتحطَّمت تماماً بسبب معارضة قبيلة أخرى منافسة لها، ذلك أن الإمارة لم تكن ممكنة إلا في قريش، لأنها كانت تقف خارج ما بين القبائل من نزاع وتنافس. ويخطئ عوانة (ص ٤٦١) في روايته: إذ يقول: إن رجلاً من عصابة الخوارج الذين انضموا إلى تميم كان هو الذي قتل مسعوداً. أما عند غيره من الرواة فالذين فعلوا ذلك هم الفرس تحت قيادة ماه أفريدون، أو هُمْ الأساورة على وجه التدقيق (ص ٤٦٥)، وكانوا قد انضموا إلى تميم منذ زمان طويل. أما الخوارج فكانوا العدوَّ المشترك لجميع قبائل البصرة، وهذا الخطر المنتظر من جانب الخوارج هو أكبر ما دعا قبائل البصرة إلى الكف عن السير في طريق الخصام وإلى الاتفاق على أمير. وقد اضطر الأمير الذي اختاروه إلى التنازل عن الإمارة، لأنه لم يحقق الغرض الذي اختير من أجله ولم يجدّ في مقاتلة الخوارج. ورواية المدائنى حاسمة في هذه المسألة (ص ٤٦٥) فهو يقول: إن الأزد هم الذين زعموا أن الأزارقة قتلوا مسعوداً، لأن الأزد أرادوا أن يمحوا عن أنفسهم عار أن تكون تميم قتلتْ أمِيرَهم وأن يكونوا قد درءوا عن أنفسهم متاعب الأخذ بثأره بقبولهم الدية. ويلاحظ عوانة (ص ٤٦١ س ١٠) من أن الخوارج الذين قتلوا مسعوداً كانوا يقطنون عند نهر الأساورة ينمّ عن عدم اطمئنانه إلى ما يقول

٢ ــ وهذا نشأت العداوة بين الأزد وتميم واليمن ومضر من حادثة معينة يمكن تحديد تاريخها، كما يتجلى من الحكاية المتقدمة التي لها من أجل ذلك أهميتها. ولم يقض الصلحُ على التوتر الذي كان موجوداً وكاد أن ينفجر بعد ذلك بعامين، عندما شرع المختار الثقفى في ثورته بالبصرة (الطبري ج ٢ ص ٦٨٠ فما بعدها). على أن هذا الخصام قد تحول إلى تسابق في محاربة الخوارج، هذه المحاربة التي كان لها أثر الدواء لما كان هناك من خصام. ولم تشأ تميم أن تتخلف وراء الأزد الذين كان يقودهم المهلب بن أبي صفرة. على أنه إذا كان العداء بين القبائل قد خفت حدَّتُه في البصرة، فإنه أخذ في خراسان صورة أشَدَّ خطراً، وكان ما بين القبائل من عداء قد انتقل من البصرة إلى خراسان، لأن فتح خراسان كان من جهة البصرة، وكان عرب خراسان من أهل العراق، وكان أغلبهم بصريين وكانوا مُقَسَّمين عسكرياً إلى خمسة أقسام، كما كان الحال في البصرة. وكان والي خراسان في العادة تابعاً لأمير العراق، رغم أن الخليفة كان في كثير من الأحيان هو الذي يعينه وكان في بعض الأحيان تابعاً للخليفة مباشرةً.

وكانت خراسان بمثابة ذلك الركن من أركان الدولة الذي لا تزال القلاقل تحدث فيه، وكان لما يقع فيه من أحداث أثر على قلب الدولة أكثر مما كان لإفريقية أو الأندلس مثلاً. ولم يَدُمْ في خراسان سلامٌ قط، ولا كانت لها حدود ثابتة. وكان العرب هناك في صراع دائم مع الفرس والترك، ولكنهم فوق ذلك كانوا يغتنمون فترات الهدوء في إفناء بعضهم بعضاً. ومع أنهم كانوا معرَّضين للأخطار فإن طريقتهم في الحياة كانت غير سياسية وشبيهة تمام الشبه بما كانت عليه في وطنهم القديم. وبالرغم من أنهم لم يذهبوا إلى خراسان من تلقاء أنفسهم فإنهم كانوا يشعرون بالارتياح إلى أرضهم الجديدة وإلى سعة أرجائها، لأنها صحراوية من وجوه شتى. وقد كان يهددهم الخطرُ من الخارج، لكن ذلك لم يجمع كلمتهم. بل هو هَيَّجَهم وجعلهم أكثر خشونة وأشدَّ غلظة. وكان الإسلام

أيضاً سبباً جديداً من أسباب الثورة والهياج[١]. فأصبحت خراسان أشبه شيء بجزيرة عرب ثانية مع فرق، هو أن جزيرة العرب الجديدة هذه كانت في أرض الأعداء وأن ظروفها كانت أكثر تعقيداً وأحداثها أوسع نطاقاً وأنها كانت تسمح للنزعات الفوضوية بالظهور على نحو بعيد عن الاكتراث وعن التقيد بالقيود.

وروايات المدائنى، وهو الرواية الذي لا يكاد الطبري فيما يتعلق بحوادث خراسان يعتمد إلا عليه تُذَكِّرُ الإنسانَ إلى حد ما بحكايات الأبطال في العصر الجاهلي، كما هي معروفة من كتاب الأغاني. وفي كثير من الأحيان لا يجد الإنسان سوى مجموعة روايات مفككة تتضمن أخبار القبائل، أو بعبارة أخرى، مجموعةً من «أيام» العرب (الطبري جـ ٢ ص ١٥١٦ س ١٦)، يغلب عليها الاهتمامُ بذكر ما يتعلق بالبطولة والأبطال وذكر ما يدور حول غزوات النهب والسلب. وكان عرب خراسان، وخصوصاً تميم، يعتزّون بالتمسك بقوميتهم فمضوا في الشرق الأقصى من الدولة العربية على حياتهم القبلية القديمة وعلى تغنيهم القديم وفخرهم بما يفعلون وبه يشعرون. ولكن كان يُعْوِز ذلك تلك الصبغةُ الواقعة المتزنة العميقة التي تصطبغ بها الآثار الباقية للعروبة الأصلية القديمة.

وكان فتح إيران من جهة البصرة تحت إمرة عبد الله بن عامر الأموي في عهد عثمان. وكان ذلك الفتح عبارةً عن سلسلة من الحملات، وُجِّهت إلى نواحٍ مختلفة في وقت واحد. ولم يتمّ الفتحُ دفعة واحدة في سنة واحدة، وكثيراً ما كانت تعقد معاهدات صلح بمقتضاها يحتفظ مَرَازِبةُ الفرس بمركزهم القديم في صورة مُعَدَّلة ومقيَّدة بعض الشيء. وإلى جانب الحملات الكبرى التي وُجِّهتْ تحت إمرة قواد تعيِّنهم الدولة، وهي الحملات التي أوقعت الضرباتِ

(١) [يقصد المؤلف، كما قد تبين من مواضع كثيرة من كتابه وكما سيتبين فيما يلي، أن الدولة لم تعمل بمبادئ الإسلام الاجتماعية والاقتصادية، فدعا ذلك إلى الثورة عليها من جانب أهل الديانة ومن جانب المظلومين. وثورة خراسان التي أسقطت الدولة كانت باسم الدين وباسم المساواة التي جاء بها ــ المترجم].

الأولى بالفرس، كانت هناك غزوات صغرى قام بها أهلُ القبائل من أجل أنفسهم. لا باسم أحد، وذلك لكي يستقرُّوا أينما أمكنهم. وفي غرب إيران، وفيها كانت تقع العاصمة، وهي مدينة أبرشهر (نيسابور) كانت قيس هي الغالبة، خصوصاً في العصر الأخير (الطبري جـ ٢ ص ١٩٢٩)، أما في الشرق فقد كانت أرض بكر وأرض تميم متداخلتين. وكانت هاتان القبيلتان تتنازعان على بعض الأماكن، تدَّعي كلٌّ منهما أنها هي التي احتلّتها قبل الأخرى. وهما لم تكونا تتنافسان في خراسان وحدها، بل في سجستان أيضاً. وهاتان الولايتان المتجاورتان متصلتان، رغم أن كلاً منهما في كثير من الأحيان كان يديرها والٍ على حدة. وبعد أن كان الشأن الأكبر في أول الأمر لسجستان انتقل إلى خراسان. وكانت زَرَنْج هي عاصمة سجستان، كما كانت مرو عاصمة خراسان.

وكان قواد جيوش الفتح بحسب العادة القديمة يُكافأون بأن تُسنَدَ إليهم إدارةُ الجهات التي يسعدهم الحظ بالتغلب عليها. وقد لعب الأحنف في ذلك العهد دوراً رائعاً من الناحية العسكرية أيضاً، ولكنه لم يبق في ولاية البلاد التي فتحها مدة طويلة. ولعله، بحكم أنه كان سيد تميم في البصرة، قد أحسّ أنه أكبر من ذلك وكان أقدم أمراء خراسان (أو أجزاء منها) الذين يحدثنا عنهم التاريخ هما قيس بن الهيثم وعبد الله بن خازم، وكلاهما من سليم إحدى قبائل قيس. وكان للاضطرابات التي أعقبت مقتلَ عثمان صداها في أقصى المشرق من الدولة العربية، فقد استطاع ماهويه، مرزبان مرو ــ وكان هو الذي خان آخر شاهانشاه في فارس ــ أن يحصل من علي بن أبي طالب على الموافقة على أن يؤدِّي الدهاقنةُ والأساورة والدهشلارين إليه الجزيةَ. ولكنه رغم هذا التساهل لم يحافظ على احترام سيادة علي[1]. أما كيف أعيد سلطانُ الدولة

---

(١) [وفي نفس الوقت استولى الحبطات من العرب، وقد ظهروا بمظهر المائلين إلى عثمان (أي بمظهر الحياد) على عاصمة سجستان ولم يخضعهم إلا الحصين بن مالك، قائد عليّ، بعد عامين، وعلى اسم هذا القائد سمى مولاه المشهور فيروز حصين، البلاذرى (ص ٣٩٢ ــ ٣٩٦) ــ المترجم].

العربية في شرق الدولة بعد مقتل عثمان فهذا ما لا نعرفه (قارن البلاذرى ص ٤٠٩). وفي عهد معاوية عُيِّن قيس بن الهيثم والياً، ثم عُيّن بعده مُنَافِسُه عبدُ الله بن خازم[(١)]. ولما جاء زياد بن أبيه إلى البصرة والياً عليها (في سنة ٤٥هـ) ضُمّت إليه ولايةُ خراسان وسجستان، فصار هو الذي يعيِّن العمال عليهما فقسَّم خراسان إلى أربعة أقسام مستقلَّة: مرو، أبرشهر (نيسابور)، مرو الروذ (ومعها فارياب والطالقان)، هراة (ومعها باذغيس وقادس وبوشنج)؛ ولكنه جمعها في سنة ٤٧هـ تحت إمرة الحكم بن عمرو الغفاري الذي توفى سنة ٥٠هـ. فجاء بعده الربيعُ بن زياد الحارثي، وكان آدمَ أصهب أفْوَه، وهو الذي فتح سجستان وأرغم المرازبة على طلب الصلح، فاستقبلهم في ميدان القتال حيث جلس هو ومن معه من العرب على أجساد القتلى هادئين[(٢)]. وكان الربيع مسلماً صالحاً، ويقال إنه اغتمَّ كثيراً لمقتل حُجْر بن عدى. وفي تلك الأيام كان قد هاجر إلى خراسان خمسةٌ وعشرون ألفاً من أهل البصرة، ومثلُهم من أهل الكوفة؛ ولعلّهم لم يكونوا أهدأ الرؤوس. وبعد موت زياد (سنة ٥٣هـ) جاءت فترة في أثنائها بدا كأنما قد أصبح شرق الدولة العربية ضيعة يستغلّها أبناؤه. ففي أواخر أيام معاوية وفي عهد ابنه يزيد كان على خراسان عبد الله بن زياد، ثم جاء بعده، بعد فترة انقطاع، عبد الرحمن بن زياد، وأخيراً جاء سلم بن زياد. أما في سجستان فكان هناك عبّاد بن زياد ويزيد بن زياد. وكانوا جميعاً شباناً، ولكن كان الذين يقومون بتدبير شئون تلك البلاد القواد والعمال القدماء الخبيرون بأحوالها، أمثال قيس بن الهيثم السلمى وأسلم بن زرعة

---

(١) خلافاً لما يقوله البلاذرى، ص ٤٠٨، قارن الطبري ج ٢ ص ٦٥ فما بعدها.

(٢) [كان الربيع بن زياد أول من شرب من نهر بلخ وأول من صلى وراءه؛ أما ما يقوله المؤلف عن جلوسه على جثث القتلى فليس موجوداً عند الطبري ولكنه موجود عند البلاذرى ص ٣٩٤ ــ ولا شك أن ذلك كان بقصد إرهاب الأعداء ــ المترجم].

الكلابى وغيرهما، وكان بعضهم بتربَّص ببعض ولا يكفَّ عنه الأذى، إذا كانت القوة في يده.

ولما مات يزيد بن معاوية بدأت في خراسان أيضاً المنازعات القبلية، ووثب زنبيل كابل وهزم يزيد بن زياد وإلى سجستان، وأسر أخاه أبا عبيدة. وعند ذلك حلَّ الطَّلَحَات، ذلك الخزاعى الثرى، محل يزيد، فصالح الزنبيل وافتدى أبا عبيدة من الأسر بمال كثير. ولكنه لم يلبث أن مات، وجاء بعده والٍ من قبيلة بكر، كان قد استخلفه، فلم تخضع له تميم، بل طردته. وعلى أثّر ذلك انفجر العداءُ بين مضر وربيعة، وجنى الزنبيل ثمرة ذلك (ابن الأثير ج ٤ ص ٣٨٤ والبلاذرى ص ٩٧). وكان لذلك أثره في خراسان. وأراد سلم بن زياد، وكان والياً هناك، أن يكتم عن الناس موت الخليفة وما أصاب إخوته أبناء زياد (في سجستان والبصرة)، حتى إذا لم يمكن كتمُ الأمور دعا سَلْمٌ الناسَ إلى أن يبايعوه، على أن يقوم بتدبير الأمور إلى أن يجتمع الناس على خليفة، فبايعوه. غير أنهم سرعان ما نكثوا به فاختفى هارباً، وخلّف على مرو المهلبَ بن أبي صفرة الأزدى, وكان سلمٌ قد جاء بالمهلب معه من البصرة. ولكن بعض رؤساء القبائل العربية لم يرضوا عن ذلك فولى سلْمٌ سليمانَ بن مرثد البكري على مرو الروذ والفاريات والطالقان والجوزجان وولى أوس بن ثعلبة بن زفر، وهو من بكر أيضاً، على هراة، حتى إذا صار سلم بنيسابور ولقى عبد الله بن خازم السلمى سأله عبد الله: من ولَّيْتَ على خراسان؟ فأخبره، فلامه قائلاً: «أما وجدتَ في مضر رجلاً تستعمله حتى فرّقت خراسان بين بكر بن وائل ومَزُون عمان!» وطلب عبد الله من سلم أن يكتب له عهداً على خراسان، فتعجّب سلمٌ قائلا: أوَّلِي أنا خراسانُ! قال: أكتب لي عهداً، وخلاك ذمٌّ! وكتب سلم العهد لعبد الله، وأعطاه فوق هذا مائة ألف درهم طلبها منه. فخرج المهلب من مرو، لأنه لم تكن له قبيلة تؤيده، وذلك أن الأزد

لم يكونوا كثيرين بخراسان، واستخلف رجلاً من بني جُشَم بن سعد بن زيد من مناة بن تميم، أراد هذا أن يمنع ابن خازم لما قبل على مرو، فكانت بينهما مناوشة أصيب فيها التميمي ثم تحاجز الفريقان، ودخل عبد الله مرو الروذ، ومات التميمي بعد ذلك بيومين (الطبري جـ ٢ ص ٤٨٨ ـــ ٤٩٠).

وقد وقفت تميم إلى جانب ابن خازم بوجه عام، وإن كان لا ينتمي إليهم بل إلى مضر، وكان معادياً لبكر[١] وهو بمعونة تميم بدأ يحارب بكراً. وقد خرج أولا من مرو إلى مرو الروذ، وحارب سليمان بن مرثد فقتله، وتوجّه بعد ذلك إلى محاربة أخيه عمرو بن مرثد في الطالقان، فقتله أيضاً. ولجأ الهاربون من بكر إلى أوس بن ثعلبة في مدينة هراة، وهناك تجمّع عند أوس كلُّ البكريين، وكانوا قد حنقوا حنقاً شديداً بسبب ضياع مدينة مرو الروذ والطالقان من أيديهم[٢]، فأرادوا أن يُخرجوا جميع مضر من خراسان كلها، وقالوا: لا تتسع خراسان لمضر وربيعة. وقد أكرهت تميمُ عبدَ الله بن خازم على أن يفاوض بكراً، ولكن المفاوضات فشلت، كما كان يتوقع عبد الله. وكان أحدهم قد اعترض عليه في قتال بكر، وطَلَب إليه ألا يقاتلهم إلا بعد الإعذار إليهم، فبعثه رسولاً إليهم، فلما عاد يائساً بسبب تشدد قبائل بكر[٣] قال له عبد الله بن خازم: «لقد أخبرتُك أن ربيعة لم تزل غاضبة على ربها منذ بعث الله النبي صلى الله عليه وسلم من مضر». ويقال إن القتال قد استمر أمام مدينة هراة

---

(١) بحسب ما جاء في البلاذرى ص ٤١٤ أقرّ ابن الزبير عبد الله بن خازم على الولاية.

(٢) [يقول المؤلف: بسبب ضياع هراة، ولكن هراة، بحسب كلامه لم تكن قد سقطت بعد، أما الذي كان قد سقط فهو مدينة مرو الروذ والطالقان. على أن الذي أحنقهم أشد الحنق هو قتل سليمان وعمرو ابنى مرثد (راجع الطبري جـ ٢ ص ٤٨٨ ـــ ٤٩٧ والبلاذرى ص ٤١٤ ـــ المترجم].

(٣) [فشلت المفاوضات أمام تشدد بني صهيب من موالى بكر، حتى سخر البعض من ذلك، راجع الطبري جـ ٢ ص ٤٩١ ـــ ٤٩٣ ـــ المترجم].

أكثر من عام[١]. فجعلت بكرٌ ظهرها إلى المدينة وخندق رجالها حول المدينة واحتموا بالخندق أمامهم، واستطاعوا أن يصدوا كل هجمات ابن خازم، حتى نال من شرفهم وشجاعتهم بأن ناداهم قائلاً: «يا معشر ربيعة! إنكم قد اعتصمتم بخندقكم، أفرضيتم من خراسان بها الخندق!». فاحفظهم ذلك وخرجوا من موقعهم الحصين إلى القتال في الميدان الواسع، فهُزموا وخسروا خسائر كبيرة، وأقسم ابن خازم ليقتلنَّ منهم كلَّ أسير يُؤْتى به، حتى تغيب الشمس. وهرب أوس بن ثعلبة إلى سجستان، وكانت في تلك الأيام في يد الزنبيل. ولكنه مات هناك من جراحاته. وفي الوقت الذي كانت فيه هذه الحرب دائرة بين قبائل بكر وتميم في المشرق، كانت هناك حرب أخرى تدور بين قبائل كلب وقيس في المغرب، وذلك في سنة ٦٤ ـ ٦٥هـ (الطبري جـ ٢ ص ٤٩٠ ـ ٤٩٦). وقد كان من أثرها إضعاف بكر إضعافاً دائماً[٢].

أعانت تميم عبد الله بن حازم على من كان بخراسان من ربيعة، حتى قهرهم وأخضع مدينة هراة وصَفَتْ له خراسان. ولكنه جفا تميما وأبى أن يمكّنهم من الاستقرار في هراة استقرار الفاتحين. فعيّن على هراة ابناً صغيراً له اسمه محمد وضمّ إليه بُكَيْر بن وشاح[٣] وجعله على شرطته، وأمره ألاّ يمكِّن

---

(١) إن حكاية سليمان بن مجالد، أحد معاصري أبي مخنف، وأبو مخنف يذكره كثيراً، هذه الحكاية الموجودة عند الطبري جـ ٢ ص ٤٩٣ س ٦ ـ ٤٩٤ س ١٧، لا تدخل في هذا الموضع، بل في عصر بعد ذلك بكثير؛ أما رواية أبي الحسن الخراساني (الطبري جـ ٢ ص ٤٩٤ س ١٨ ـ ٤٩٥ س ٧) فهي تملأ فجوة في الرواية الأساسية للمدائنى.

(٢) [قُتلت بكر في هراة قتلا ذريعاً، فخسروا ثمانية آلاف رجل (الطبري جـ ٢ ص ٤٩٦) ـ المترجم].

(٣) كان تميما من بنى سعد، أما تسميته عند الطبري (جـ ٢ ص ٤٩٥ س ٧) بالثقفي فهي خطأ ـ قارن الطبري جـ ٢ س ٨٦٠ س ١٠ فما بعده و١٠٢٢ س ١ وص ١٠٣٠ س ١٣ و٢٠ فما بعده وص ١٠٤٧ س ١٨. [وكان عبد الله بن خازم قد جعل شماس ابن دثار العطاردى مع ابنه أيضاً، وأوصى الرجلين بنصحه وتربيته والعناية بأمره. ثم انشق شماس وانضم إلى تميم، وكان له شأن في الخصومة القائمة، كما سيلى، وقد أسقط المؤلف حكايته هذه ـ المترجم نقلا عن الطبري جـ ٢ ص ٥٩٣ ـ ٥٩٤].

تميماً من دخول هراة. وقد عرض بكير عليهم أموالاً كثيرة على أن ينصرفوا، ولكن هذه الطريقة للتخلص منهم زادتهم عنـــاداً وأحدثت مرارة في نفوســـهم، فاقتحموا المدينة على محمد بن عبد الله بن خازم وشدوه وثاقاً وشربوا ليلتهم، وجعل كلَّما أراد رجلٌ منهم البَوْل بَالَ عليه، ثم قتلوه في الصباح[١]. وكان معنى هذا أن تميما نبذوا عهد الصداقة لوالده عبد الله، فخرجوا إلى مرو وازدادوا قوة بعد أن انضم إليهم من كان فيها من قومهم، وولوا عليهم حُرَيش بن هلال القُرَيْعى، وأرادوا محاربة ابن خازم. وكانت هذه الحرب على الطراز القديم، فلم تكن هناك معارك، بل كان هناك فرسان أبطال، لم يُدْرَك مِثْلُهم، «الرجل منهم كتيبةٌ» وكانوا يغيرون ويأتون المغامرات، فيُحكى مثلا أن الأشعث بن ذؤيب، وهو أخ لزهير ابن ذؤيب العدوى (من تميم)، قُتل في تلك الحرب فسئل، وكان به رمق: «من قتلك؟» فقال: «لا أدرى! طعننى رجلٌ على برذون أصفر»، فكان زهير لا يرى أحداً على برذون أصفر إلا حمل عليه، فمنهم من يقتله ومنهم من يهرب، فتحامى أهلُ العسكر البراذين الصفر، فكانت مُخَلاّة في العسكر لا يركبها أحد، وهذه صورةٌ مُمَيِّزة لأحداث تلك الحرب؛ حتى إذا طالت الحرب سنتين وضجرها الفريقان وملاّها تَفَرَّقَتْ تميم، فأضعفت نفسها بذلك، فتوجه شماس بن دثار العطاردى إلى سجستان (الطبرى ج ٢ ص ٥٤٦ و١٠٢٦)، وحريش بن هلال إلى مرو والروذ واستطاع أن يثبت هناك زماناً[٢]، لكنه اضطر آخر الأمر إلى الخروج من خراسان

---

(١) [هنا يمزج المؤلف بين روايتين عند الطبري (ج ٢ ص ٥٩٤). وليس من المعقول أن يكونوا دخلوا المدينة دون معركة، ونحن لا نسمع عن هذه المعركة، بل الأحرى أن يكونوا دخلوها بعد قتله، وأنهم قتلوه خارج المدينة: ترصدوا له وأخذوه وهو يتصيد وفعلوا ما فعلوا. وهذا شطر من إحدى الروايتين. وإن قضاء ليلة شراب على النحو المتقدم لا يتيسر في مدينة، حتى ولا بعد معركة ــ المترجم].

(٢) يقول حريش (الطبرى ج ٢ ص ٥٩٨ س ٣):

حوْلين ما اغتمضت عينى بمنزنة   إلا وكفى وساد لى على حجر

ولا يتحتم من هذا الطبرى (ج ٢ ص ٥٩٥ س ١٤) أنه ظل =

(الطبري جـ ٢ ص ٥٩٣ ــ ٦٩٨) ولجأ الآخرون من فرسان تميم بقيادة زهير بن ذؤيب إلى قصر فَرْتَنَا، غير بعيد من مرو الروز. وهناك حاصرهم ابن خازم واضطرهم إلى التسليم وقتلهم دون رحمة (الطبري جـ ٢ ص ٦٩٦ ــ ٧٠٠). ويظهر أنه استطاع أن يحكم مرو حيناً لا يعكِّر حُكْمَه شيء، غير أنه بعد سنين قليلة اضطر إلى إخماد ثورة جديدة قامت بها تميم في أبرشهر بقيادة بحير بن ورقاء الصريمى (الطبري جـ ٢ ص ٥٩٦ س ٩). واستخلف ابن خازم بمرو بكير بن وشاح، ولكنه لم يترك ابنه موسى فيها لأنه لم يأمن عليه من تميم، فأمره أن يخرج منها بكنوزه وثُقْلِه فيعبر نهر بلخ ويلجأ إلى بعض الملوك أو إلى حصن يقيم فيه، ثم تقدم قاصداً أبرشهر. وبينما كان يحارب بحير بن ورقاء هناك أتاه في آخر سنة ٧٢هـ[١] كتابُ عبد الملك بن مروان، يَعِدُه بأن تكون خراسان له طعمةً سبع سنين، إذا بايع له. فتصور ابن خازم أن في ذلك إهانةً له، لأنه كان يريد أن يكون له الأمر بقوته الخاصة، وأمر رسول عبد الملك بأن يأكل الصحيفة التي حملها إليه. ولما رفض ابن خازم ما عرضه عليه عبد الملك كتب عبد الملك إلى بكير بن وشاح، وكان ابن خازم قد استخلفه على مرو، يعهد إليه بولاية خراسان ويَعِدُه ويُمنِّيه، فقبل الولاية. ولم يستطع ابن خازم أن يتغلب على بكير وبحير مجتمعيْن، فحاول أن يذهب إلى ابنه موسى في ترمذ، ولكن بحيراً لحقه. وقُتل ابن خازم بعد أن اعتوره بالطعن ثلاثةُ فرسان، فدفعهم عن نفسه دفعاً شديداً، حتى صرعوه، فلما وقع قعد على صدره وكيع بن الدَوْرَقِية، ليذبحه[٢]. وكان وكيع أحد الموالى

= يقاتل ابن خازم حَوْلين. ويجوز أنه يدخل في هذين الحولين فترة الحرب مع بكر، ذلك أننا نجده في سنة ٦٦هـ خارج خراسان. انظر ما كتبناه عن الخوارج ص ٣٤، وقد قتل حريش سنة ٨٢هـ (الطبري جـ ٢ ص ١٠٦٦ س ١٥).

(١) يذكر الطبري (جـ ٢ ص ٨٣٤) تاريخاً متأخراً عن ذلك.

(٢) يسمى باسم أمه، وكانت من سبى دورق، من خوزستان (راجع البلاذرى ص ٤١٥ ــ ٤١٦).

الغلاظ الجفاة، وقد ذكّر ابنَ خازم بثأر أخ له لأمه كان ابن خازم قد قتله، فعند ذلك تنخّم ابن خازم في وجه وكيع مستنكفاً من أن يكون أحد الموالى مساوياً له. وذبحه وكيع، واحتُزَّت رأسه، فاغتصبها بكير بن وشاح من يد بحير وأرسلها إلى عبد الملك، مدّعياً أنه هو الذي قهر ابن خازم وقتله. أما بحير، وهو المنتصر الحقيقي على ابن خازم، فقد قيّده بكير وحبسه حيناً (الطبري جـ ٢ ص ٨٣١ ــ ٨٣٥).

وكان هذا سبباً في حرب بين أخويْن من تميم أنفسهم، وخصوصاً من بنى سعد بن تميم، وكان بنو سعد في خراسان، وخصوصاً في مرو، أكثر منهم في البصرة، وكان كل من بكير وبحير ينتمي إلى بني سعد. واختلفت تميم، فتعصّبت مُقاعِسُ والبطون لبحير، وتعصب بنو عوف[1] والأبناء لبكير، ولكن لما تبين عرب خراسان آخر الأمر أن سيادتهم على خراسان لا محالة زائلة، إن لم ينقذوها من أخطار التطاحن وإن لم تكتسب صبغة شرعية بفضل تأييد يأتيها من قِبَل سلطة عليا، عند ذلك طلبوا هم أنفسهم من عبد الملك بن مروان سنة ٧٤هـ أن يُعَين على خراسان والياً قرشياً يكون فوق تباغض القبائل وتحاسدها[2]. فبعث عبد الملك أحد الأمويين من أسرته، وهو أمية بن عبد الله بن خالد بن أسيد بن العيص، وكان فتى سيداً كريماً وسهلاً ليناً يحب العافية، فلما بلغ أبرشهر خرج بحير بن ورقاء لاستقباله، وحاول أن يسعى ببكير عنده وأن يُحَذِّره منه ومن غدره، ولكن بحيراً لم يفرح فيما أراد، فأقرَّ أميةُ كل عمال بكير في مناصبهم وعرض عليه أن يوليه شرطته، فلما زهد بكير أَنَفَةً منه في هذا المنصب،

---

(١) [يقول المؤلف أوس والأبناء، ويظهر أن هنا تحريفاً، لأن الذي يؤثر عند المؤرخين هو قبائل بني عوف، راجع مثلا الطبري جـ ٢ ص ١٠٤٩ ــ المترجم].

(٢) [جاء في الطبري ما يأتي: خاف أهل خراسان أن تعود الحرب وتفسد البلاد ويقهرهم عدوهم من المشركين، فكتبوا إلى عبد الملك بن مروان أن خراسان لا تصلح بعد الفتنة إلا على رجل من قريش لا يحسدونه ولا يتعصبون عليه ــ المترجم].

مع أن صاحب الشرطة كان في نفس الوقت يقوم بخلافة الأمير إذا غاب، عند ذلك أعطى أميةُ المنصب لعدوه بحير (الطبري ج ٢ ص ٨٥٩ ــ ٨٦٢).

وغضب بكير وحنق، لأنه اضطر أن يخلى المجال أمام الأمير القرشي(١)، فاغتنم فرصة خروج الأمير في حملة حربية، وثار في ظهره بمدينة مرو(٢)، وكان أهل الجنود الذين خرجوا في لحملة في قبضة بكير(٣)، فسارع أمية بالعودة وتساهل في مفاوضة بكير والبرِّ به، فقضى عنه ديونه وأمَّنه أربعين يوماً حتى يخرج إلى إحدى مدن خراسان إذا شاء. ولكن بكيراً بقى في مرو، ومضى يحرّض على أمية، فاتهمه بحير بالتدبير لأمية ونقل إلى أمية كلاماً لبكير عنه. ولكن أمية كذّبه، حتى تأيدت إلى الشكوى من جانب آخر. وعند ذلك قبض الأمير على بكير، وتبين أن التهمة صحيحة، لأن شهودها لا مغمز فيهم(٤)، وقُتِل بكيرٌ بسيفه في يوم جمعة، قَتَلَه بحيرٌ، لأن أحداً لم يرض أن يقتله. وقال بحير وهو يقتله: لا يصلح بنو سعد ما دمنا حَيَّيْن (الطبري ج ٢ ص ١٠٢٢ ــ ١٠٣١)(٥).

ولكن آخر فصل من قصة الحرب بين بنى سعد لم ينته إلا في سنة ٨١هـ.

---

(١) [إنما أحنق بكيراً سعىُ بحير بالوشاية والإفساد بينه وبين أمية سعياً دائماً، ذلك أن أمية عامل بكيراً معاملة السيد الكريم فقطع أسباب العداوة، ولكن لم يزل بكير بالأمير حتى صار يتصرف مع بكير تصرفاً أغضبه، وجعله يشعر بأن الأمير يُضارّه ويرتاب به ــ المترجم نقلا عن النصوص التي ذكرها المؤلف].

(٢) من العسير أن يكون ذلك لم يقع إلا في سنة ٧٧هـ آخر سنى أمية، قارن بين الطبري ج ٢ ص ١٠٢٣ وبين ١٠٢٨، وبين البلاذرى ص ٤١٦.

(٣) [هدد بكير بأن يرمى كل من يرمى سهما من المحاصرين له برأس رجل من ولده وأهله، راجع الطبري ج ٢ ص ١٠٢٧ ــ المترجم].

(٤) [لا يؤخذ ذلك من النصوص، فقد اتهمهم بكير بأنهم أعداؤه، راجع الطبري ج ٢ ص ١٠٣٠ ــ المترجم].

(٥) يختصر المؤلف هنا اختصاراً كبيراً، وليرجع القارئ إلى الموضع المشار إليه عند الطبري ليرى الرواية مفصلة، ونحن قد تابعناه في الترجمة محاولين بقدر الإمكان أن نراعى النص العربي ــ المترجم].

فتعاقد سبعة عشر رجلاً من الأبناء، وهم عشيرة بكير، على قتل بحير. ولكنهم لم يقصدوا إليه مجتمعين، بل ذهب كلٌّ واحد منهم منفرداً معتمداً على يده وحدهـــا، وقد أفلح أحدهم، وهو صعصعة بن حرب العوفى: في اغتياله. فسار حتى جاور قرابةً لبحير، ولم يزل يأتيهم ويجالسهم ويلاطفهم حتى أنسوا به وأعطوه كتاباً إلى بحير، وفيه أوْصَوْه أن يساعده على الحصول على ميراث كان له. ثم قصد إلى بحير، ولم يزل عنده حتى أنس به. ثم طعنه غيلة بخنجر كان قد غمسه مراراً في لبن أتان ليزداد حدة. وكان طعنه له أمام الناس، كما ينبغي للثائر أن يفعل، وقد صاح، وهو يطعنه، قائلاً: «يا لثأرات بكير، أنا ثائرٌ ببكير!» فَقُبِضَ عليه وقُتل، فاحتمل الموت صابراً سخيةً بذلك نفسه. وذهب إليه الأبناء في السجن وقبّلوا رأسه. ولكنهم بعد مقتله غضبوا وقالوا: علام قُتِل صاحبُنا، وإنما طَلَب بثأره! ولم تهدأ ثائرتهم إلا بعد أن دُفِعت له دية، وذلك بعد أن مضى وقت، فيه أوشك الخصام بين الأبناء وبين البطون أن يثور من جديد (الطبري جـ ٢ ص ١٠٤٧ ــ ١٠٥١)[١].

وكانت لا تزال هناك لثورة عبد الله بن خازم القيسى بقية لم يتم القضاء عليها، ذلك أن سيادته وجدت من يمثّلها ويرثها إلى ما بعد مقتله باثنى عشر عاماً ذلك أن ابنه موسى ــ وكان ثطّاً[٢] ــ قد استطاع أن ينجو بنفسه من مرو في الوقت المناسب وأن يخرج، ومعه بضع مئات من فرسان كانوا معه ومن

---

(١) [لا يعطى كلام المؤلف حقيقة الوضع، ونجد عند الطبري (جـ ٢ ص ١٠٥١) أن التنازع وقع بين عوف بن كعب والأبناء وبين مقاعس والبطون، حتى خاف الناس أن يعظم البأس بينهم، فقال أهل الحجى: احملوا دم صعصعة واجعلوا دم بحير بواءً بدم بكير، فودوا صعصعة. ثم وُدى صعصعة مرة أخرى. ولو أن دفع الدية وحدة يكفى في تسكين ثائرة الموتورين، كما يؤخذ من كلام المؤلف لما بلغ الخصام عند العرب من أجل الأخذ بالثأر المبلغ الذي نعرفه ــ المترجم].

(٢) [الثط الخفيف شعر اللحية، وهو وصف موسى، وهو من كلام المهلب بن أبي صفرة عنه مع أولاده ــ راجع هامشاً تالياً ــ المترجم].

صعاليك ضووا إليه، حتى جاوز نهر بلخ، وقد حاول المرة بعد المرة أن يجد ملجأ يستقرّ فيه، ولكنه كان لا يأتى بلداً إلا كره أهلُها مُقَامَه فيهم وسألوه أن يخرج عنهم، وذلك لما كانوا قد سمعوه من أمره. وأخيراً تمكن بدهاء ومُمَاكَرَةٍ وملاطفة، ثم بحيلة جريئة فيها شيء من الغدر، من أن يستقر في ترمذ جنوب بلخ على الشاطئ الآخر في النهر، في حصن يقع على صخرة بارزة تشرف على النهر. وتجمعت له فلول قيس، حتى صار تحت تصرفه ألف ومائة رجل، جعل يغير بهم على من حوله. وكان جيرانه يخافونه هو وفرسانه كما يخافون من الجن[١]. وقد فشلت حملةٌ وجهها إليه أمية بن عبد الله أمير مرو. فلما جاء بعده المهلب بن أبي صفرة وابنه يزيد بن المهلب لم يتعرضا لموسى[٢]، ثم زاد جُنده بمن انضم إليهم من فلول جيش ابن الأشعث، حتى بلغوا ثمانية آلاف رجل. وأخذ يقوم بغزوات أخرى بعد مدىً، وقد شدّ أزرَه في ذلك قائدان من قواد الفرس، هما حُرَيْث بن قُطْبة وأخوه ثابت، انحازا إليه بمن كان معهما، مُنْشَقَّين على الجيش العربي، جيش المهلب، وكانا قبل ذلك على صلات بالأسر الحاكمة من أهل البلاد، وخصوصاً بطرخون صاحب سمرقند، واستطاعا بمعونة أهل البلاد أن يُعِدَّا جيشاً ليقاتل السادة العرب مع موسى. ولم يرد موسى رغم ذلك أن يقدم بيده على مهاجمة يزيد بن المهلب في خراسان، بل أراد أن يخرج عُمَّالَه من أرض ما وراء النهر. وقد أمكن أيضاً تطهير أرض ما وراء النهر من بقايا السيادة العربية تطهيراً تاماً، ولكن حريثاً وثابتاً كانا في أثناء ذلك قد قوى أمرُهما، وصار لهما التدبير الحقيقي ولموسى اسم الإمارة. فثار الحسد لهما في

---

(١) [راجع في ذلك قصة طريفة وحيلة عجيبة لجأ إليها موسى لكي يوقع الرعب في نفوس أهل البلاد، ذكرها الطبري (جـ ٢ ص ١١٤٨ ــ ١١٤٩ ــ المترجم].

(٢) [قال المهلب لبنيه: إياكم وموسى! فإنكم لا تزالون ولاة هذا الثغر ما أقام هذا الثَطُّ بمكانه، فإن قُتل كان أول طالع عليكم أميراً على خراسان رجلٌ من قيس ــ المترجم نقلا عن الطبري جـ ٢ ص ١١٥١ ــ ١١٥٢].

النفوس، وأراد بعض أصحاب موسى منه أن يقتلهما فأبى أن يغدر بهما، ولم يزالوا به يُلِحُّون عليه، حتى أفسدوا قلبه عليهما. وإنهم لفى ذلك إذ جاء هجومٌ على أرض ما وراء النهر، فخرجت على موسى الهياطلة والتُّبَّت والترك، وكان موسى قد أفلح قبل ذلك في صد هجوم لهم، وقد ردهم عن ترمذ في هذه المرة أيضاً وأبعدهم مسافة كبيرة. ثم بدأ من جانبه في الهجوم، وألحق بهم عند كفتان(١) هزيمة شتّتت جمعَهم، وفي هذه المعركة قتل حُرَيث بن قطبة، ولم يجزع موسى لذلك، بل ربما كانت تقر عينه لو أنه تخلص من أخيه ثابت أيضاً. وقد أراد لذلك أن يغتال ثابتاً(٢)، ولكن أحد عيون ثابت أبلغه ذلك، فهرب إلى مدينة خُشْوَارغ(٣)، وخرج إليه كثير من العرب والعجم، وأقبل لنجدته أيضاً طرخون صاحب سمرقند بجيش كبير وتقدم الرجلان معاً إلى ترمذ فحاصراها وضيقا الخناق على موسى، ولكن أحد الفدائيين العرب استطاع أن يتسلل إلى ثابت وأن يقتله. وعند ذلك تجرأ موسى على بيات(٤) معسكر الأعداء، فتوصل إلى أن رحلوا عنه. ولكنه لم يلبث المفضل بن المهلب، أخو يزيد بن المهلب وخليفته على خراسان، أن حالف طرخون السغد وسَبَلَ الختّل على موسى، فلم يستطع موسى أن يثبت أمام هذا التكتل، وقُتل وهو يحاربهم، عثرتْ به فرسُه، فسقط، فابتدروه فقتلوه. وسلّمت ترمذُ، وقُتل الأسرى من جنودها، وكان ذلك سنة ٨٥هـ.

٣ ـ وفي الفترة التي كانت فيها قوة عرب خراسان تتلاشى في هذه الخلافات الدامية، ضاعت الفتوحات الأولى التي قاموا بها في أرض ما وراء

---

(١) [في بعض النصوص: كفتان؛ وفي بعضها كفيان ـ المترجم].

(٢) [يجد القارئ تفصيل حكاية موسى عند الطبري جـ ٢ ص ١١٤٥ ـ ١١٤٦ المترجم].

(٣) هكذا تجب قراءة الكلمة، قارن الطبري جـ ٢ ص ١٥٩٤ س ٩.

(٤) [يعنى الهجوم في الليل ـ المترجم].

النهر[١] ضياعاً تاماً، بل اغتنم الترك ذلك وتجاسروا على الهجوم على خراسان حتى وصلت غارات النهب على أيديهم إلى قرب نيسابور (البلاذرى ص ٤١٤). وبعد أن عاد الهدوء والنظام جدد العرب أيضاً غزواتِهم السابقة، وكان أمية بن عبد الله أمير خراسان هو أول من عبر نهر بلخ. بعد فترة وقوف طويلة. ولكنه لم يكن رجل حرب، ومن قبل لم يمكن بقاؤه على إمرة العراق، لأنه هرب أمام أبي فديك الخارجى هروباً مخزياً. ولم يستطع في خراسان أن يقيم شرفه المتداعى. وبعد أن أصاب شيئاً من النجاح (بلاذرى ص ٤٢٦ س ١٠ فما بعده) هُزِم أخيراً هزيمة حاسمة، ولم يستطع أن ينجو بجيشه عبر نهار الشاش منصرفاً إلا بعد جهد وإشراف على الهلاك، وجلب على نفسه استهزاء الشعراء حتى قال أحدهم:

ومن سَمّاك، إذْ قَسَم الأسـامى: أميةَ، إذْ وُلِـدتَ، فقد أصـابا[٢]

وعلى أثر ذلك عزله عبد الملك من منصبه سنة ٧٨هـ. فلما أسندت إلى الحجاج مع ولاية العراق ولايةُ خراسان وسجستان، عين مكانه المهلب بن أبي صفرة الأزدى، وكان المهلب قد انتهى في منتصف سنة ٧٨هـ من القضاء على الخوارج في كرمان، ولكنه لم يأت إلى مرو بنفسه إلا في سنة ٧٩هـ[٣]. ولم يستطع المهلب، فيما وراء النهر، أن يفعل ما فعله أسلافه، وفي آخر سنى ولايته حاصر مدينة كِشْ فأخفق[٤]، ورضى بأن يدفع أهلُها إتاوةً، ثم انصرف عنهم،

---

(١) وفي عهد عبد الله بن عامر من قبل كانت قد وُجّهت حملاتٌ إلى أرض ما وراء النهر، ثم تجددت على يد عبيد الله بن زياد، وكان قد جاء إلى البصرة بجيش من أسرى بخارى ثم جدد الحملات سعيد بن عثمان خليفة عبد الله. وقد قتله خدمُه من السغد، كما جددها سلم بن زياد، وقد ولدت له امرأته ولداً في سمرقند.

(٢) [راجع الطبري جـ ٢ ص ١٠٣١ ــ المترجم].

(٣) [الطبري جـ ٢ ص ١٠٣٢ ــ ١٠٣٥ ــ المترجم].

(٤) يحكى المدائنى حصار كش مرتين في ظروف هى هى، في سنة ٨٠، ٨٢هـ (الطبرى جـ ٢ ص ١٠٤٠ و١٠٧٧ فما بعدها). ويمكن تسوية هذا الفرق في التاريخ وتعليله بأن الحصار دام عامين (من منتصف ٨٠ إلى ٨٢هـ).

ومات في زاغول (قرب مرو الروذ) وهو راجع، وذلك في ذى الحجة ٨٢هـ، الموافق يناير سنة ٧٠٢ م. فلم يزد مَجْدُه الحربي في خراسان عما كان عليه، ولكن ذهابه إلى خراسان كانت له أهمية كبيرة، فقد أَخَذَ قبيلَته معه، وكانت حتى ذلك الحين، تحارب الخوارج تحت إمرته[١]. وقد تحالف الأزد أيضاً في خراسان مع بكر وربيعة[٢]. وبذلك فقدت مُضَرُ (تميم وقيس) ما كان لها من تغلّب وخصوصاً عندما كان الأمير يضع قوة منصبه الرسمي في الجانب المعادى لمضر.

وقد استخلف المهلَّبُ في منصبه وفي رئاسة قبيلته المتنوعة في تكوينها ابنَه يزيد مؤقتاً، ثم أقرّه الحجاج في منصبه، وقد قام يزيد بحروب في فرغانه وخوارزم، كما حارب فيما دون النهر أيضاً في باذغيس، ولكن دون أي كسْب جديد، أو على الأقل دون أي كسب دائم، وكان يزيد رغم ولعه بالنساء والطعام وضخامة جسمه رجلاً نشيطاً قادراً على النهوض بالأعمال، ولكن طموحه وزهوه كان أكثر من مقدرته على العمل، وكان يشعر بشيء من المضاضة أن يكون تابعاً للحجاج، وخصوصاً أنه رئيس الأزد، على حين أن الحجاج، ذلك الرجل المُحْدَث، كان من قيس وهو لم يقض على ثوار أهل العراق الذين هربوا إلى خراسان بعد إخضاع ثورة ابن الأشعث إلا كارهاً، ولما وقع في يده الثوار خلّى سبيل اليمنيين منهم ولم يُسْلِمْ إلا المضريين، ولم يغفل الحجاج عن

---

(١) جاء الشاعر ثابت قطنه والشاعر كعب الأشقرى، وكلاهما أزدى، من فارس وكرمان وكان فيهما ميدان القتال ضد الخوارج، إلى خراسان. ويجوز أن أفراداً من الأزد كانوا قد هاجروا قبل ذلك، ولكن شأن قبيلة الأزد لم يرتفع إلا بمجيء المهلب، ولا يسمع الإنسان أقل إشارة إلى الحلف بين أزد وبكر في الحروب السابقة بين تميم وبكر.

(٢) فيما يتعلق بالنسبة بين الأقسام (الأخماس) من حيث العدد (راجع الطبرى جـ ٢ ص ١٢٩١) فقد كان لتميم عشرة آلاف مقاتل وللأزد مثلها، ولقيس (أهل العالية) تسعة آلاف ولبكر سبعة آلاف، ولعبد القيس أربعة آلاف. والجملة أربعون ألف مقاتل، وعلى هذا فإن جملة العرب في خراسان لم تكد تتجاوز مائتي ألف.

معرفة روح يزيد هذه، فعزلــه في ربيع الآخر سنة ٨٥هـ (إبريل سنة ٧٠٤ م) وعين مكانه المفضل بن المهلب أخا يزيد لأبيه، وكان المفضل يسعى بيزيد. وربما كان أحب شيء إلى الحجاج أن ينتزع خراسان من قبضة المهالبة والأزد جملة، ولكنه لم يقدم على ذلك طالما كان موسى بن خازم ثابتاً قوى الجانب في ترمذ وبلاد ما وراء النهر. وقد ظن الناس ذلك على الأقل، والأغلب أنهم في ظنهم كانوا صادقين، وكان المهلب ويزيد ابنه مقتنعين أنهما لن يطيقا والياً قيسياً إذا ذهب موسى، لأن موسى نفسه كان من قيس وكانت أهواء قيس إلى جانبه، ولذلك لم يتعرض المهالبة لموسى، بل حافظوا عليه كما يحافظ الإنسان على عدو مفيد له، وذلك لأن الحاجة إليهم ستظل قائمة وشأنهم سيظل مرتفعاً ما دام موسى في مكانه. ولكن المفضل انحرف عن هذه السياسة التي انتهجها المهالبة. وجدَّ في حرب موسى بن خازم، وبذلك قوّض الأساس الذي كان يستند إليه، فإنه لم يكد ينتهي من القضاء على موسى حتى عُزل من منصبه، بعد أن قضى فيه تسعة أشهر. وكذلك عُزل حبيب بن المهلب وعبد الملك بن المهلب من منصبهما أيضاً، وحُبس يزيد بن المهلب نفسه، ثم عين قتيبة بن مسلم والياً على خراسان (سنة ٨٥ أو ٨٦هـ). وكان ابناً لمسلم بن عمرو الباهلى البصرى الذي كان مخلصاً لحكومة الأمويين موالياً لها، وبذلك انكسرت شوكة التغلّب الذي كان للأزد وربيعة في خراسان. وكانوا يسمون خاصة اليمن. وكان العرب في أيام قتيبة يسمون المضريين بوجه عام (الطبري جـ ٢ ص ١١٨٥ س ٥)، أما قتيبة فكان ينتمي إلى قبيلة ممزَّقة غير نابهة، هي قبيلة باهلة التي كانت خارج المجموعات الكبرى للقبائل، وكان من العسير أن تجد مكانها في أنساب القبائل ومناشئها، ولكنها انضمت إلى قيس بحكم الظروف[١]، ولم يكن شيءٌ

---

(١) وكذلك أيضاً في أرض الجزيرة، قارن الطبري جـ ٢ ص ١٣٠٠، وابن الأثير جـ ٤ ص ٢٥٦ فما بعدها وانظر ما تقدم ص ١٩٦ هامش رقم ١.

أحب إلى الحجاج من أن يكون قتيبة ليست له عشيرة قوية، فيدعوه ذلك إلى أن يعوّل على الدولة.

ولم يكن العرب قبل عهد قتيبة بن مسلم قد غزوا إلا بعض البلدان الواقعة إلى الشمال وإلى الشرق من خراسان، وهي أيضاً لم تكن قد أخضعت إلا إخضاعاً مؤقتاً. وهذا ما يتبينه الإنسان من أخبار موسى بن عبد الله بن خازم. وكان قتيبة هو أول من شق الطريق لفتح هذه البلاد، وأقل ما يمكن أن يقال أنه هو الذي شق طريق الفتح الحقيقي لها. ولكي يتسنى لنا أن نفهم الحملات التي قام بها فهماً جيداً يحسن أن نُلِمَّ بشيء موجز من الملاحظات الجغرافية والملاحظات المتعلقة بأحوال الأمم، وذلك فيما يتعلق بثَغْرَيْ خراسان.

كان أحد هذين الثغرين هو طخارستان أي أرض بلخ أو البكتريان (Bakterien) القديمة. وطخارستان هي في الحقيقة تلك الأرض الجبلية الواقعة على ضفتي نهر بلخ الأوسط حتى يَدَخْشان، وتدخل في ذلك أيضاً، بحسب ما جاء في الطبري (ج ٢ ص ١١٨٠ س ٧) شومان وآخْرُون. أما في العادة فلا يُفْهم من طخارستان سوى الأرض الواقعة جنوب نهر بلخ. وكان العرب يعتبرون ذلك جزءاً من إقليم مدينة مرو الروذ، وكانت أقصى مدن معسكراتهم في جهة المشرق، وذلك أنهم لم يحتلوا مدينة بلخ (بكترا، Baktra) احتلالاً دائماً، ولكن بلخ كانت لا تزال هي العاصمة الحقيقية لتلك البلاد، وكان يقع في منطقة بلخ إلى جهة المشرق خُلْم والطالقان والفارياب وغيرها من المدن، أما إلى الجنوب وفي أعلى بلاد الغور (Paropamisus) فكانت تقع رساتيق جوزجان أو جوزستان وغرشستان أو غرجستان (مع مدينة باميان التي تتحكم في الممر بين الجبال). وإلى الغرب كانت تقع باذغيس بين وادي مرغاب وهريروذ. أما إلى الجنوب الشرقي فكانت غازنين وولشتن تتبعان كابلستان وسجستان.

أما الثغر الآخر الذي كان أعظم شأناً في خراسان فقد كان أرض ما وراء النهر، ويتبع ذلك بوجه عام من جهة المشرق أرضُ الختلان وأرض جبال (جبل الملح ١٥٩٦) الختّل التي تمتد من بذخشان إلى الغرب حتى نهر وخشاب[١]، ثم تأتي بعد ذلك أرض الصغانيان، أو أرض الصغان[٢]. أما إلى الغرب، فيما بين ترمذ على نهر بلخ وسمرقند على نهر السغد (Polytimeuts) فكانت تقع مدن شومان وآخرون، ثم كِش ونَسَف؛ والمدينتان الأخيرتان تلحقان عند المقدسى (ص ٢٦٧، ٢٨٢ فما بعدها) بأرض الصغانيان، ولكنهما عادة تلحقان بأرض السغد، وأرض السغد تقع إلى جانبي نهر السغد الأدنى الذي يسير حتى يتلاشى في واحة بخارى دون أن يبلغ نهر بلخ[٣]. والعاصمة القديمة لأرض السغد هي سمرقند، وإذا ذكر اسم السغد فإن أول ما يتبادر إلى الذهن هو سكان مدينة سمرقند وأرضها. وإلى المشرق من أرض السغد تقع من جهة بلادُ أُشروسنه الجبلية على المجرى الأعلى الضيق لنهر السغد، ومن جهة أخرى إلى شمال الجبال تقع أراضي الشاش وفرغانه على نهر الشاش (Jaxartes) عند أبواب بلاد الترك. أما المجرى الأدنى لنهر بلخ فهو بعد أن ينحنى نحو الشمال يخترق صحراوات حتى يكوّن آخر الأمر واحة خوارزم. والمعبر الأكبر في هذه المسافة يكون عند آمل، ويكون العبور على جسر من السفن.

أما سكان كل هذه البلاد الواسعة ولغتهم وحضارتهم[٤] فقد كانت إيرانية،

---

(١) وهي الآن سرغاب، وفي تسمية وخش ــ آب بقى اسم نهر (Oxus)، وقد صار لا يستعمل في تسمية النهر الأكبر.

(٢) يسمى ملك هذه البلاد صغان ــ خُداه، راجع الطبري ج ٢ ص ١٥٩٦ و ١٦٠٠ فما بعدها.

(٣) يسمى الآن زرنشن واسم (Polytimetus) غير مفهوم والأولى أن يكون اسمه (Polytmetus)، ذلك لأن النهر مؤلف من نهيرات كثيرة ينقسم إليها، ونظام الري القديم في هذه البلاد هائل ومشهور لا يفوقه نظام آخر.

(٤) وإلى جانب نظام الزراعة القائم على نظام الري الفنى كانت التجارة (الفراء، الحرير، الماء، الرقيق) مهمة جداً على الطريق إلى الصين.

وأما من الناحية السياسة فقد كان يسودها انقسام كبير، وهذا الانقسام لم يأتِ مع سقوط الدولة الساسانية، بل كان قد وقع قبل ذلك. فكانت هناك طبقة الأشراف الذين يسمون الدهاقنة، وقد تميز من بينهم حكامٌ ينتمون إلى أسر ويحكمون الأشراف العاديين، وهم كبار الملاك والحكام في القرى، ونجد في الرساتيق المتفرقة وفي المدن الكبيرة أمراء فيهم وراثة الحكم، ولهم ألقاب خاصة بهم[١]. وليست كل هذه الألقاب آرّية، فمنها ألقابٌ غير آرية، وذلك أن الإيرانيين، وهم قد كانوا ممزّقين كل ممزَّق، لم يبقوا بنجوة من الاختلاط بغيرهم ولا من الخضوع لهم، ففي إقليم Parätacene جاء الختّل وكوّنوا طبقة فوقهم وملكهم يسمى السَّبَل[٢]. ويظهر أنهم هم الهياطل (Hephthaliten) القدماء، وكان هؤلاء من قبل يحكمون أرض ما وراء النهر كلها، ولذلك يسميها المقدسي بلاد الهيطل، بإطلاق هذه التسمية. ولكن في الفترة التي تعنينا دراستها هنا كان الهياطلة قد اندحروا وراء الترك، وكان الموطن الحقيقي لهؤلاء يقع إلى الشرق من نهر الشاش، ولكنهم في أثناء الغارات التي كانوا يقومون بها من هناك، متوغِّلين مسافاتٍ بعيدة جداً، كانوا كثيراً ما يتقدمون إلى المدن الإيرانية ويستقرون فيها ويؤسسون أسراً حاكمة ويأخذون إتاوة من البلاد، ونجد اللقب التركي «طرخون» أو «طرخن» موجوداً فيما دون نهر بلخ وفيما وراءه، وهو يطلق على الأمير التابع للخاقان[٣].

---

(١) كثيراً ما نجد لقب خُداه، ونجد لقب الشاه في خوازم والأصبهذ في بلخ والأخشيد في فرغانة والشير في غرشستان.

أما لقب الإخريد ولقب الفيك في كش ولقب الأشقند في نسف ولقب الأفشين في أشروسنة فهي في الحقيقة أسماء أعلام.

(٢) إن لم يكن هذا اللقب اسم علم ــ قارن جيش (حنش) بن سَبَل.

(٣) الطبري جـ ٣ ص ٦٤٧، حيث نجد عبارة الخاقان وطراخنته، قارن لقب الرَّبْخَن في رُب والتُسيك (الترسل) في الفارياب والسهرك (السهرب) في الطالقان والشاذ ــ وكلها في طخارستان. وسيد الترك يسمى دائماً بالخاقان، كأنما لم يكن هناك سوى خاقان واحد.

فكان الترك في ذلك الزمان هم في الحقيقة الشعب الحاكم فيما وراء النهر وفي طخارستان، وكان على العرب أن يحاربوا الترك خاصة في طخارستان على الأقل، وقد ردَّهم العرب وأخرجوهم من خراسان ووضعوا حداً لغارات السلب من جانبهم. وصار العرب ينافسون الترك في السيادة على السكان الإيرانيين منافسة ناجحة. ولكن العرب أيضاً كانوا يكتفون بإخضاع البلاد إخضاعاً سطحياً جداً، وكانوا في جميع الجهات يتركون السلطة المحلية على ما هي عليه، ويأخذون إتاوة كانت تسمى فدية، أي مقابل الكفّ عن شن الغارات وعن النهب، فإذا لم تدفع هذه الفدية ـ وهذا ما كان يقع بمنتهى السهولة ـ فعند ذلك تبدأ الحروب من جديد. ولم يكن العرب دائماً يكرهون أن تتكرر المناسبات التي تمكنهم من القيام بغارات النهب.

ولم يحدث على يد قتيبة تغيير أساسي في هذا الوضع، ولكنه وسّع نطاق السيادة العربية إلى ما وراء الثغور توسيعاً أبعد أثراً مما كان لها من قبل، فلبث سنين كثيرة يخرج للغزو، وفي كل ربيع كانت تأتي المقاتلة من أبرشهر وأبيورد وسرخس ومن هراة ومرو الروز إلى مرو، لكي تخرج في الغزو دون أن يحتاج قتيبة إلى دعوتها. وفي سنة ٨٦هـ قام قتيبة بحملة على آخْرون وشومان كان قد أعدها سلفه (بعد فتح ترمذ). وقد تعهد الملك بدفع الإتاوة. وفي السنة التالية توجه قتيبة لغزو المدن الواقعة في واحة بخارى، وفي سنة ٨٧ و٨٨هـ فتح بيكند وتومشكت ورامدين، وقد غنم في مدينة بيكند، وهي مدينة تجارية ذات مخازن كبيرة للبضائع[1]، مستودعاً غنياً بالأسلحة، فجهز به جنده العرب، وكانت عدته الحربية حتى ذلك الحين قليلة، ولم يكن جنده يملكون إلا ثلاثمائة درع (الطبري جـ ٢ ص ١١٨٠ فما بعدها) وفي سنة ٨٩ ـ ٩٠هـ غلب على بخارى نفسها، وقد

---

(١) ويظهر أن إلياس النصيبي يقصد هذه المدينة فيما ذكره من أخبار سنة ٨٧هـ.

حثّه الحجاج على ذلك، وكان الحجاج قد طلب أن تُرْسَل إليه خريطةٌ لتلك البلاد، وتولى هو وضع الخطة الحربية. وفي سنة ٩١هـ اشتغل قتيبة في طخارستان بإخضاع ثورة متشعبة تشعباً كبيراً، وكان الطرخان نيزك هو روح هذه الثورة، فاستدرجه قتيبة من الحصن الذي كان قد لجأ إليه بمدينة اسكيمشت[١]، ثم قتله غدراً هو وآخرين من الطراخنة والدهاقنة، ثم عبر بعد ذلك نهر بلخ وافتتح مدينة شومان، وكان ملكها أيضاً قد اشترك في الثورة التي قام بها الطرخان نيزك، ثم تقدم قتيبة عبر الباب الحديدى[٢] وأخضع مدينتي كِش ونسف[٣]، وأقام في بخارى حكومةً جديدة بعد أن قام بقتل من اقتضى الحالُ قتلَهم. في سنة ٩٢هـ كان في سجستان، ويروى أنه أرغم زنبيل كابل على دفع الإتاوة. ثم أغار في سنة ٩٣هـ على مدينة خوارزم إغارة لم تكن متوقعة على الإطلاق.

وقد كان دعاه إلى ذلك سراً شاه خوارزم، فأخذ قتيبة في أول الأمر أيضاً جانب الشاه على أخيه الأصغر، ولكنه بعد ذلك أخرجه من خوارزم وأقام حكومة عربية في البلاد. ومن خوارزم توجه إلى سمرقند مُخْفِياً مقصده عن جنوده ما أمكنه ذلك، وكان طرخون سمرقند في سنة ٩١هـ قد صالح قتيبة على إتاوة، ولكن رعاياه أسقطوه بسبب هذه الذلة واضطروه إلى الانتحار وحل محله اخشيد غوزك. وقد رحّب قتيبةُ بهذا السبب للتدخل، وتمّ الصلح بعد حصار طويل، وتعهد الغوزك بدفع الإتاوة، وتمّ الاتفاق على أن يدخل قتيبة سمرقند ويقيم الصلاة في مسجد جديد يؤسَّس لذلك، ثم يخرج من المدينة على الفور.

---

(١) راجع الأصطخرى (ص ٢٧٥)، وهذه المدينة تقع إلى الشمال قليلا من خط عرض ٣٦° وإلى الشرق قليلا من خط ٦٩° وتسمى في المصورات الإنكليزية باسم اسكيمش، قارن Marquart: Eranschahr، ١٩٠١، ص ٢١٩.

(٢) هذا هو اسم ممر ضيق مشهور يقع على فرع النهر الذي يسمى الآن بنهر كشكه، وقد صوره ريكلوس (Reclus, 6, 502).

(٣) المقصود من فارياب عند الطبري (جـ ٢ ص ١٢٢٩ س ٣) هو فرياب ــ قارن الطبري جـ ٢ ص ١٥٦٦ س ٣.

ولكن قتيبة بعد أن دخل المدينة لم يخرج منها، بل جعلها مدينة لحاميته العربية وقاعدة لفتوحات أخرى. فمن هناك تقدم في السنين الثلاث الأخيرة لولايته (من سنة ٩٤ إلى ٩٦هـ)، فدخل وادي زرفشان الأعلى ودخل أرض الشاش وفرغانة؛ بل يروى أنه بلغ كشغر حتى اتصل بالصين[١]. وتتفق رواية المدائنى، كما حكاها الطبري، مع رواية البلاذرى في الجملة، غير أن المدائنى لا يذكر سجستان وكشغر، ولكن أشعاراً كثيرةً من ذلك العصر تؤيد رواية المدائنى[٢].

وكان من عادة قتيبة أن يترك الأمراء في البلاد التي يفتحها على حالهم، إذا صالحوه على إتاوة، وإنما كان يضم إليهم رقباء أو نوابا من العرب في كثير من الأحيان؛ أما بعض المواضع التي تكون لها أهمية كبيرة فكانت «تُسْتَعْمَر»، إذا ساغ أن نعبر بالتعبير الروماني، أي أنها كانت تُخْتَار لتكون مقراً للعروبة وللإسلام، وإن لم يُخرَج منها أهلها السابقون وإن بقى لهم أيضاً فوق ذلك شيءٌ من الاستقلال الإداري في ظل حكامهم القدماء. وكان لهؤلاء خاصةً فرضُ الضرائب وجبايَتُها. وقد جُعِلَتْ سمرقند خاصة مقراً للجيش العربي. فجاءت إليها حامية قوية معدَّة بكل عدَّة الحرب، فاحتلتها وهدمت بيوت النار ومعابد

---

(١) قارن الأشعار الموجودة عند الطبري (جـ ٢ ص ١٢٧٩ فما بعدها وما ذكره البلاذرى ص ٤٢٦ س ١٨).

(٢) أهم شعراء خراسان هم ثابت قطنه الأزدى (الأغانى جـ ١٣ ص ٤٩ فما بعدها) وكعب الأشقرى الأزدى (الأغانى جـ ١٣ ص ٥٦ فما بعدها) ونهار بن توسعة البكرى (الأغانى جـ ١٤ ص ١١٥) وزياد الأعجم مولى عبد القيس (الأغانى جـ ١٤ ص ١٠٢ فما بعدها) والمغيرة بن حَبْناء التميمي (الأغانى جـ ١١ ص ١٦٢ فما بعدها)، وثم شعراء آخرون غير معروفين لا يذكرهم إلا الطبري. والفرزدق والكميت والطرماح، كلهم أيضاً يتناولون بين حين وآخر أموراً من أمور خراسان، وكان الشعراء يتعصبون دائماً لقبائلهم، واهتمامهم بالأشياء وحكمهم عليها يتبعان ذلك، رغم ما يقوله الشعراء إلا مع الحذر، وإن كانت أشعارهم فيما يتعلق بالحوادث المجردة في ذاتها يمكن أن تعتبر شواهد تاريخية لها قيمتها الكاملة.

الأوثان. ويروى أنه صدر الأمر بأن يجلو عنها كل وثنى من ليلته. وكذلك اتُّخِذَتْ فيما يظهر في خوارزم وبخارى إجراءاتٌ مماثلة، وإن لم تبلغ من الصرامة مبلغ الإجراءات التي اتخذت في سمرقند. وقضى أيضاً على الوثنية في بخارى. أما الرواية القائلة بأنه كان فيها بيت للنار ومعبد وثنى كانت الطواويس توضع فيه فلا بد من إكمالها بالرواية القائلة بأن هذه المعالم الوثنية قد اختفت بعد ذلك[١]، وكان يقصد من هذه المدن المتقدمة أن تقوم بالنسبة للبلاد المحيطة بها مقام المدن العسكرية العربية مثل نيسابور ومرو ومرو الروذ وهراة بالنسبة لأرض خراسان. ولا شك في أن «استعمار» تلك المدن كان خطوةً أبعد مما كان يطمح إليه المسلمون ومما كانوا قد وصلوا إليه في تلك الناحية وكان لهذا «الاستعمار» أثره الدائم في جعل بخارى وسمرقند وخوارزم أيضاً حواضر كبيرة انتشر منها الإسلام وصارت حواضر للعناية بالعلوم العربية.

وعلى هذا فلم يكن زهو العرب بما أصابوه من نجاح، كما نعبر عن ذلك الزهو الأشعار الكثيرة، زهواً أجوف، وذلك أن الحرب في تلك البلاد لم تكن بالأمر اليسير عليهم. فقد كانوا في أول الأمر قِلّةً في العدد، ولم يكن سلاحهم كافياً، وكان بُعد المسافات وصعوبة الأرض وظروف المناخ كلها مصدراً لعقبات كبيرة قامت في سبيلهم، وكان لا بد لهم أن يحملوا مهم المُؤَن والملابس التي تقيهم البرد، ولم يكونوا يستطيعون الخروج إلى الغزو إلا في الفصل المناسب لذلك من العام، ولم يكن أعداؤهم بالذين يُستهان بهم. وكان العرب إذا حاصروا مدينة جاءت لنجدتها في معظم الأحيان جيوشٌ يتألف من الترك، وكان يقودها الترك أيضاً. والحق أن العرب كانوا يحاربون الترك من أجل السيطرة على تلك

---

(١) يجب أن لا يعزب عن البال بوجه عام أن الرعايا الإيرانيين لم يطالبوا قط بالدخول في الإسلام وأنهم قد تركت لهم الحرية في الدين.

النواحى، وقد انتزعوها من أيدى الترك. وكان هذا في الواقع عملاً كبيراً استحق به العرب السيادة على الإيرانيين، لأن هؤلاء ما كانوا ليستطيعوا أن يردوا الترك عن بلادهم. ويجب أن يُعْزَى الشطر الأكبر من الفضل في ذلك لقتيبة بن مسلم قائد الجيوش العربية، فقد شآى سلفه جميعاً، وكان له عند كبار الإيرانيين من الهيبة أكثر مما كان للمهلب وابنه يزيد(١). ولقد كان يسلك في الحرب مسلكاً قاسياً وخبيثاً، وكان في سبيل الله وفي سبيل الإسلام لا يرهب الغدر(٢)، وكثيراً ما يرجع الفضل في نجاحه إلى قلة مبالاته بالمبادئ، ولكنه لم يتميز بذلك عن الطراز العادى لمن تكون بيده القوة من العرب(٣).

على أنه لما بلغ قتيبة أوج مجده وقوته جاء سقوطه. وقد أثار هذا الحادث دهشة كبيرة في العالم الإسلامي، والمدائنى يدخل روايته المفصلة في ذلك أجزاءً من رواية لأبي مخنف. مات الوليد بن عبد الملك منتصف جمادى الآخرة سنة ٩٦هـ (أواخر فبراير سنة ٧١٥ م) وجاء بعده سليمان بن عبد الملك وكان يبغض الحجاج وأتباعه، لأنهم سعوا في أن يبعدوه عن ولاية الخلافة(٤). ولكن الحجاج أنقذه الموتُ من انتقام سليمان، فاستطاع هذا أن يبرد نار الثأر في قتيبة ثم جاء يزيد بن المهلب وعبد الملك بن الأهتم فحرضاه على قتيبة وزادا من حنقه عليه. ولما بلغ قتيبة خبر موت الوليد وولاية سليمان الخلافة بعده كان مع الجيش في ميدان القتال بأرض فرغانة، وقد كان يعلم أن مصيره لن يقتصر على العزل، بل إنه سيتعرض لأن ينزل به ما هو أسوأ من ذلك بكثير، فلم يَرَ أن يظل ساكتاً حتى يحل به هذا

---

(١) [قال الأصبهبد: «لو كان قتيبة بالمغرب بأقصى جحر في الأرض مكبلا بالحديد ويزيد (ابن المهلب) معنا في بلادنا والٍ علينا لكان قتيبة أهيب في صدورنا وأعظم من يزيد». — المترجم].

(٢) [كتب الحجاج إلى قتيبة: اختلهم واقتلهم في الله — المترجم نقلا عن الطبري جـ ٢ ص ١٣٠٠].

(٣) [ومن عرب العرب أيضاً — المترجم].

(٤) [راجع الطبري جـ ٢ ص ١٢٨٤ — المترجم].

كله، غير أنه لبث حيناً من الزمان قبل أن يتخذ قراراً حاسماً[١]. وقد أشار عليه أحد أخوته أن يبعث غزوةً ويوجِّه فيها كل من يخافُه، وأن يسير حتى ينزل سمرقند ويقول لمن معه: «من أحبَّ المقام فله المواساةُ ومن أراد الانصرافَ فَغَيْرُ مُسْتَكْرَهٍ ولا متبوع بسوء»، حتى لا يبقى مع قتيبة بعد ذلك إلا مُنَاصِح. وأشار عليه أخ آخر بأن يخلع سليمان على الفور وأن يدعو الناس إلى ذلك[٢]. فآثر قتيبة أن يلف الجيشَ كله معه في الثورة على الخليفة، فخطب في مسجد فرغانة وبيَّن لممثلي الجيش من هو ومن سليمان ويزيد بن المهلب، وذكر للناس ما صنعه من التأليفِ بينهم والعدل فيهم وقسمه الفيء وإجرائه الأعطيات وتأمينه البلاد، وقارن بين عهده وعهد الولاة قبله[٣]، ثم طلب من الناس أن يؤيدوه. ولكن الناس كانوا إذ ذاك في آخر حملتهم الحربية لتلك السنة[٤]، وكانوا يحنّون إلى الأهل والولد، فلم يشعروا برغبة كبيرة في مشروع خطر بعيد النهاية، ولم يجبه أحد منهم. ولم يكن قتيبة يتوقع ذلك، فغضب وفقد توازنه حتى صار لا يدرى ما يقول، وانفجر، وهو على المنبر، يتناول باللوم والتقريع الشديد والتشنيع المؤلم جميعَ القبائل، وذكر كل ما قيل في التشنيع عليها ولم يُوَفِّر عرض أية قبيلة. ولما نزل

---

(١) يروى أنه كتب لسليمان ثلاثة كتب، ولكنه لم ينتظر جوابها، فعلم رسول سليمان، وهو في حلوان، بأخبار ثورة قتيبة، أما ما يذكره ڤايل (1, 555s.) من أن سليمان كتب لقتيبة كتابين فلا ذكر له عند الطبري، وفي ذلك من الخطأ أن قتيبة لا يزال يعتبر موجوداً في مرو وأنه يؤمر بالخروج إلى فرغانة. وقبيلة باسلة، التي كثيراً ما تعتبر هنا عند المدائنى صاحبة تراث خاص، قد حاولوا أن يبرئوا صاحبهم قتيبة، انظر مثلا (الطبري ج ٢ ص ١٣١١) [ويجد القارئ أخبار الكتب الثلاثة التي كتبها قتيبة لسليمان عند الطبري ج ٢ ص ١٢٨٤ ـ ١٢٨٥. على أن قيساً تزعم أن قتيبة لم يخلع سليمان ولم يخرج عن طاعته (الطبري ج ٢ ص ١٣١١) ـ المترجم].

(٢) [راجع الطبري ج ٢ ص ١٢٨٦ فما بعدها ـ المترجم].

(٣) [الطبري ج ٢ ص ١٢٨٧ ـ المترجم].

(٤) من العسير أن يكون خبر وفاة الوليد قد بلغ فرغانة قبل شهر يوليه، ثم إنه قد مضى وقت بعد ذلك قبل أن يظهر قتيبة بخطته.

عن المنبر ودخل منزله أتاه أهل بيته ونبّهوه إلى ما كان منه من إغصاب أعدائه وأنصاره على السواء، فقال إنه لما لم يجبه أحد غضب حتى لم يَدْرِ ما يقول ــ ثم أعاد تشنيعه على القبائل.

وبذلك أسخط قتيبة كل من في الجيش من العرب واستفزهم بشتائم من شأنها أن تغضبهم أشد الغضب، فمشى بعضهم إلى بعض سِرّاً يتآمرون على خلع هذا الوالى الخائن للخليفة. وكان الأزد حانقين عليه من أول الأمر، لأنه أخرج المهالبة. وكانوا أشد الناس ضيقاً به، فتفاهموا مع حلفائهم من ربيعة وجعلوا حُضَين بن المنذر البكرى مستشاراً لهم، ولكن حُضَيناً خشى منافسة مضر وتميم بما كان لهم من قوة، وقال لهم: إن أخرجتم مضر من الأمر أعانوا قتيبة. فلما قالوا له إن تميماً موتورة من قتيبة قال لهم: لا تنظروا لهذا، فإنهم يتعصبون للمضرّية. وهكذا تُرِك المجال لتميم لتكون هي البادئة، ونصح حُضَين قومه أن يجعلوا الرياسة في تميم وأن يختاروا وكيع بن الحسن بن أبي سود، لأنه مقدام لا يبالى ما ركب ولأن له عشيرة كثيرة وهو موتور من قتيبة. والحق أن تميماً كانت غاضبة من قتيبة، لأنه وترهم بقتله ابن الأهتم، وذلك أن قتيبة كان قبل ذلك بسنوات في أثناء غزوة بخارى قد استخلف عبد الله بن الأهتم على مرو، فاغتنم عبد الله ذلك للسعى بقتيبة والدسّ له عند الحجاج، ولكنه أخفق واضطر إلى أن يهرب إلى سليمان بن عبد الملك في الشام، وكان سليمان إذ ذاك ولياً للعهد، يصارع من أجل المحافظة على حقه. فانتقم قتيبة من أخى ابن الأهتم ومن ابن عمه، فأثار بذلك على نفسه التِّرَةَ من جانب تميم[١]. وفوق ذلك كان قتيبة نفسه قد أغضب وكيع بن الحسن بن أبي سود[٢]، سيد تميم، وذلك أن وكيعاً انتصر مرة على الترك نصراً كبيراً، فكتب

---

(١) البلاذرى ص ٤٢٥ فما بعدها، والأغانى جـ ٣ ص ١ الطبري جـ ٢ ص ٨١٧ و١٣٠٩ فما بعدها و١٣١٢.

(٢) لا يصح الخلط بينه وبين سميه الذي قتل ابن خازم، وكان تميميا أيضاً ولكن من فرع آخر.

به قتيبة إلى الخليفة ولم يجعل مجد النصر لوكيع بن الحسن، وهو الذي أحرزه واستحقه، بل هو جعله لأخيه عمرو بن مسلم. ثم أغضب قتيبة وكيعاً أكثر من ذلك بأن أخذ منه قيادة خُمْس (فرقة) تميم وجعلها لرجل من بني ضبّة، فتولى وكيع قيادة الثورة على قتيبة وأيده حيَّان النبطى[١]، أحد القواد الإيرانيين، وكان قلبه مترعاً بالحنق على قتيبة لأسباب لا تحتاج إلى بيان (الطبري ج ٢ ص ١٢٥٣)[٢]. وكان حيّان هذا رجلاً خطراً في مركز متوسط بين السادة العرب وبين الموالى، له تأثير كبير، وكان يعرف كيف يدبّر المؤامرات على نحو ما يعرفه العرب، وكان له شأن خاص بحكم أنه زعيم الموالى، أولئك الأعاجم الذين اعتنقوا الإسلام، وكانوا يؤلّفون فرقة خاصة بهم تحارب في الجيش العربي، وكانوا هم أنفسهم موالين لقتيبة، ولكن حيَّاناً عرف كيف يصرفهم عنه وينفرهم منه، فقال للعجم: هؤلاء ــ يقصد العرب ــ يقاتلون على غير دين، فدعوهم يقتل بعضهم بعضاً؛ فأجابوه إلى ذلك.

وقد أنزل قتيبة في أول الأمر ما وصل إليه من تحذير منزلة كلام أهل الحسد، ولكنه دهش أخيراً من أن وكيعاً صار لا يحضر مجلسه، فدعاه إليه، فتمارض، فذهب إليه رسول قتيبة، فوجده قد طلى على رجله مَغْرةً، ووجد على ساقه خرزاً وودعاً، وعنده رجلان يرقبان رجله، فلما قال الرسول لوكيع: أجِبْ الأميرَ قال: قد ترى ما برجلي! فرجع الرسول إلى قتيبة، وانتهى الأمر إلى أن أراد قتيبة حَمْلَ وكيع إليه بالقوة. فلما عرف وكيع ذلك قطع الخرز الذي كان على

---

(١) كان يسمى النبطى لا لأنه نبطى، بل للكنته، أي لأنه لم يكن يحسن النطق بالعربية (الطبري ج ٢ ص ١٢٩١). [وكان حيان قائد جيش الموالى بخراسان، وكانوا سبعة آلاف، فعرض على وكيع أن يكف عنه على أن يجعل له وكيع خراج جانب نهر بلخ طول حياته ــ المترجم].

(٢) [وكان قتيبة قد أمر بضرب حيان وحلقه ــ المترجم].

رجله ولبس سلاحه وانتقل من فراش المرض المزعوم إلى ظهر فرسه. وقد خرج وَحْدَه، ولكنه جعل حوله جماعة كافية، لكي يستطيع أن يهجم على قتيبة. أما قتيبة فلم يجتمع إليه إلا أهل بيته من إخوته وأبناء عمومته القلائل من باهلة وآخرون من ثقاته. أما الأعاجم وعلى رأسهم قائدهم حيّان ــ وكان قتيبة يعتقد أنه يستطيع أن يُعَوِّل عليهم ــ فقد انحازوا إلى المهاجمين. ونادى قتيبة في الناس، فلم يُجِبْه أحد حنقاً عليه، فتعزّى عن اليأس بالصبر ودعا ببرذون له مُدَرَّب، كان يركبه في الزحوف، فلما قُرِّب إليه ليركبه جعل يقمص حتى أعياه. فعاد قتيبة إلى سريره أمام حصن فرغانة، ينتظر، وهو مستسلم، تلك النهاية التي لا بد أن تنتهي إليها المعركة وشيكًا. فقُتل إخوته وأنصاره وقُتل هو أيضاً، واحتز رأسه رجلٌ من الأزد. ولقد أخطأ قتيبة في تقدير ما ظن أنه يقدر عليه من إثارة الجيش معه على الخليفة. ولو أنه كانت له قبيلةٌ تؤيّده لجرى الأمر على غير ذلك (الطبري جـ ٢ ص ١٦٥٩ فما بعدها)، ولكن لم يكن له ما كان يحتاج إليه، فقد كانت باهلة قبيلة ضعيفة، وتخلت عن قتيبة قيسٌ التي كان يعتز بها، كما تخلى عن مساعدته الأعاجم. ورغم قوة تلك الفكرة التي أراد بها أن يؤثر في الجماهير فإنها لم تأت له بأنصار، لأنه ما كان يريد سوى المحافظة على نفسه وعلى منصبه. وليس من السهل على إنسان مهما كان كفؤاً عظيم المقدرة، ما دام لا يربطه بالعرب إلا منصبُه، أن يستطيع ضمَّهم إلى جانبه عندما يكون ثائراً على السلطة العليا التي يستند إليها في شرعية منصبه. وقد لقى عبيد الله بن زياد في البصرة وأخوه سلم بن زياد ما لقوا من عواقب هذه التجربة، فقد أخطأ في الحسبان، لما ظنا أنهما يستطيعان المضى في حكم الولايات التي كانا عليها حكماً مستقلاً عن الخلافة؛ وذلك أن أميراً أياً كان، ما لم يكن في نفس الوقت رئيس قبيلة، لا يستطيع شيئاً من غير الخليفة، وهو أيضاً لا يستطيع شيئاً إذا أراد الخروج على الخليفة، لأن القيمة الشخصية للأمير ليست كافية في أن تكفل له النجاح. على أن أمراء الأعاجم قد استنكروا مسلك العرب إزاء قتيبة

واعتبروا ذلك أشبه شيء بالانتحار. وقد كانوا على حق، لأن سقوط قتيبة ألحق بالسيادة العربية على الثغور التي افتتحها وأسس فيها القواعد العربية ضربةً قاسية[١].

وقد وقعت الكارثة في سنة ٩٦هـ، بحسب ما جاء عند الطبري[٢]، وفي أول سنة ٩٧هـ، بحسب ما جاء عند ابن قتيبة. وبعد أن قُتل قتيبة ونال وكيع اعتراف القبائل بالإمارة له مؤقتاً طالب برأس قتيبة المقطوع، فلما امتنع الأزديُّ الذي كانت عنده الرأس ــ لأن الأزد حرضته على ذلك ــ أشار وكيع إلى خشب جاء به ونصبه وقال: «إن هذه الخيل (يريد الخشب المنصوب) لا بد لها من فرسان»، ومعنى ذلك أنه يهدد الممتنعين عن الإتيان بالرأس بأن يصلبهم. وقد كان لكلمته تأثيرُها، فحُمِل إليه الرأس، وأرسله إلى الخليفة، لكنه أرسله مع رجال من قبائل شتى ولم يبعث من بني تميم أحداً، لأن تميماً لم تكن لترضى عن ذلك، ثم خطب في المسجد[٣] خطبة قصيرة افتتح بها عهده، وكانت تتكون من مجموعة من أمثال بذيئة تنمّ عن روح العنف ومن أبيات من الشعر، ولكنها كانت كافية للإفصاح عن رأيه، وقال في آخر خطبته: «والله لأقتلنّ ولأصلبنّ ثم لأصلبنّ: إني والغ دماً: إن مرزبانكم هذا ابن الزانية قد أغلى عليكم أسعارَكم، والله ليصيرنّ القفيز في السوق غداً بأربعة (دراهم) أو لأصلبنّه ــ صلوا على نبيّكم!». وهو يقصد من ذكر المرزبان، فيما يظهر، قتيبة، كأنما كان قتيبة أحد كبار العلوج من الطراز الإيراني[٤]. أما وكيع نفسه فقد ظهر بمظهر العربي من النموذج الأصيل

---

(١) يذكر الطبري (ج ٢ ص ١٣٠٠) قول رجل من العجم: يا معشر العرب! قتلتم قتيبة؛ والله لو كان قتيبة منا فمات فينا لجعلناه في تابوت فكنا نستفتح به إذا غزونا، وما صنع أحد قط بخراسان ما صنع قتيبة ــ قارن الطبري ج ٢ ص ١٣٠٢ ــ المترجم].

(٢) [تجد كل ما يتعلق بقتيبة بن مسلم وبثورته ومقتله عند الطبري مثلا (ج ٢ ص ١٢٨٣ ــ ١٢٩٧) ــ المترجم].

(٣) لا شك أن ذلك كان في مرو لا في فرغانة [تجد خطبته عند الطبري ج ٢ ص ١٢٩٨ ــ المترجم].

(٤) على أنه قد كان في مرو رجل يسمى المرزبان حقيقة، وربما كان على الشرطة في السوق.

القديم، وكان جاداً في إسلامه، ولكنه مثلا لم يكن يأخذ الناس بعقوبة الجلد التي جعلها القرآن حداً لبعض الجرائم. فقد جيء له يوماً بسكران، فأمر به فقُتِل، فقيل له: «ليس عليه القتل، إنما عليه الحد»، فقال: «لا أعاقب بالسياط، ولكني أعاقب بالسيف». ولما قتل قتيبة أمر وكيعٌ رجلا فنادى: لا يُسلبَنَّ قتيلٌ؛ فسلَب رجلٌ من العرب أحد قتلى باهلة، فضرب وكيعٌ عُنُقَه[١]؛ ومنع من مثل ذلك العمل منعاً شديداً. وهكذا كانت لوكيع طريقته الخاصة. وقد أقرَّهُ سليمان بن عبد الملك في الولاية في أول الأمر، ولكن بعد تسعة أشهر أو عشرة حل محله يزيد بن المهلب، فتولى خراسان إلى جانب ولايته العراق، وكان عليها من قبل. وكان ليزيد، خلافاً لقتيبة، قبيلةٌ وراءه تشدّ أزره، والإنسان يلاحظ ذلك. ولما ولى يزيد وصلت الأزدُ إلى دفة الحكم وإلى موارد الغنائم، وأزيلت تميم عن مكانها، ولقى وكيع من العذاب ما لقى. هذا إلى أن يزيد بن المهلب جاء بجند من جند الدولة في الشام فأدخلهم إلى خراسان، بعد أن كان الحجاج قد تعمد أن يجعلهم بعيدين عن خراسان (الطبري جـ ٢ ص ١٢٥٧)، وكان لا يستعملهم إلا في الهند. وملأ يزيد جميع المناصب بأبنائه وأقربائه كما هي العادة، وكان يحسُّ في خراسان أنه في بيته، فكان في خراسان أقلَّ تحرجاً مما كان في العراق. وقد أتيحت له في الولاية الجديدة فرصةٌ أكثر مواتاةً للنهب وابتزاز الأموال، وكان لا بد له من المال في حاجاته الغالية الثمن ـ مثل الجوارى الحسان ـ لأنه كان يظهر بمظهر الأبهة الكبيرة.

ويُروى أنه كلمـــا كان قتيبة يفتتح فتحـــاً، كان يُسَرُّ به سليمان بن عبد الملك[٢]، فيقول ليزيد بن المهلب: «أما ترى ما يصنع الله على يدي قتيبة!»، فيجيب

---

(١) [تدل هذه القسوة على شطط في العقوبة يتجاوز حدود الشرع مبالغة في الردع، دون أن تدل على استنكار للحدود الشرعية ـ المترجم].

(٢) [راجع الطبري جـ ٢ ص ١٣٢٧ ـ المترجم].

يزيد بأن هذه الفتوح ليست بشيء وأن الشأن لجرجان التي تحول بين الناس وبين الطريق الأعظم إلى خراسان. والواقع أن البلاد الجبلية الواقعة إلى الجنوب الشرقي من بحر الخزر كانت منطقة تقطع اتصال الأرض الإسلامية قطعاً يضايق مواصلات الدولة. فلما ولى يزيد بن المهلب خراسان لم يكن له هَمٌّ غير فتح جرجان، ولكن لم يَدْعُه إلى ذلك شعورُه بما يوجبه عليه الشرفُ، بعد أن قال في فتوحات قتيبة ما قال، بمقدار ما دعته إليه فرصةٌ سانحة أتاحت له فتح جرجان(١). وذلك أنه كان في جرجان في ذلك الوقت نزاعٌ على الملك بين الأمير فيروز بن قول مرزبان جرجان وبين ابن عم له يقال له المرزبان، وكان المرزبان هذا حليفاً لصول التركى صاحب دهستان. ففرَّ فيروز وقصد إلى يزيد بن المهلب وطلب المعونة منه، وفي ربيع سنة ٩٨(٢)هـ خرج يزيد في جيش جرّار لا نظير له من قبل، وكان الجزء الأصغر منه من أهل خراسان، أما الأكبر فكان يتألف من أهل العراق ومن أهل الشام. فأعاد فيروزَ إلى عرشه من غير قتال، وكان فيروز قد أشار على يزيد باستدراج الصول من معقله في الجبال إلى البحيرة، ففعل، وحاصره فغلبه، ويقال إنه قتل أربعة عشر ألفاً من أسرى الترك صبراً وإنه غنم غنائم لا يمكن إحصاؤها. وبعد أن تمّ ليزيد إخضاع أرض دهستان وبياسان تقدم قاصداً أصبهبذ طبرستان، فبعث إليه الأصبهبذ يطلب

---

(١) [راجع الطبري ج ٢ ص ١٣١٧ فما بعدها، خصوصاً ١٣٢٣ فما بعدها ــ المترجم].

(٢) يروى أن ذلك كان في سنة ٩٨هـ، ومن البديهي أن تكون الحملة قد بدأت في الربيع، وهو يقع في النصف الثاني من هذه السنة، ولا يمكن أن تكون الحملة قد استمرت إلى ما بعد الخريف، وفي الخريف كان في الشام موت سليمان بن عبد الملك، فخلفه عمر بن عبد العزيز، وقد أعقب هذا التغير في الخلافة سقوط يزيد بن المهلب. وإذا كان هذا هو الثابت، فإنه لا يمكن أن يكون حصاد الصول قد دام ستة أشهر وحصار المرزبان قد دام سبعة أشهر. أما الصحيح فهو أنه لا بد أن يكون يزيد قد خرج إلى جرجان بعد وصوله إلى خراسان بثلاثة أشهر أو أربعة ووصوله كان في النصف الأول من سنة ٩٨هـ وكان قد أرسل ابنه مخلداً ليسبقه إلى خراسان.

الصلح، فأبى يزيد، رجاء فتح طبرستان عنوة، لأن ذلك يؤتيه غنائم أكثر. ولكن يزيد هزم هزيمة كبيرة، ووجد أنه في نفس الوقت مهددٌ في ظهره بسبب ثورة في جرجان، وعند ذلك لجأ إلى حيَّان النبطي، رغم ما كان منه من إساءة إلى حيّان، لكي ينصح له ويتوسط في الصلح، فذهب حيّان إلى الأصبهبذ وقال له: «أنا رجل منكم، وإن كان الدينُ قد فرَّق بيني وبينكم، وأنت أحبُّ إليّ من يزيد. وقد بعث يستمدّ، وأمدادُه منه قريبة، وإنما أصابوا منه طرفاً، ولست آمنُ أن يأتيك ما لا تقوم له، فأرحْ نفسك منه وصالحْه، فإنك إن صالحتَه صَيَّر حَدَّه على أهل جرجان بغدرهم وقتلهم من قتلوا»، فصالحوا الأصبهبذُ على إتاوة اتفق مع حيّان عليها، ورجع حيان إلى ابن المهلب وأبلغه شروط الصلح، فلم يكد ابن المهلب يصدّق، من سوء ما كان يتوقع. حتى إذا تخلص ابن المهلب من هذا المأزق رجع إلى جرجان. وكان المرزبان قد ثار فيها من جديد والتجأ إلى حصن، فاستولى عليه ابن المهلب بعد حصار طويل. وكان ابن المهلب، بعد أن نكث أهلُ جرجان وغدروا بجنده، قد أعطى الله عهداً لئن ظفر بهم ألاّ يُقلِع عنهم ولا يرفع عنهم السيفَ حتى يطحن بدمائهم ويختبز من ذلك الطحين ويأكل منه، فبعد أن انتصر أراد أن يبرَّ بيمينه، فأجرى الماء في الوادي على الدماء، وكان على الوادي أرحاء، فطحن واختبز وأكل. ثم بنى مدينة جرجان، ولم تكن قبل ذلك مدينة. وكتب يزيد بن المهلب إلى سليمان بن عبد الملك يخبره بالفتح العظيم الذي تمَّ على يديه، ويقول إنه كان قد أعيى ملوك الفرس وخلفاء الإسلام، حتى فتحه الله لسليمان بن عبد الملك، فافتخر بذلك الفتح الذي لم يكن رائعاً ولم يكن على كل حال إلا فتحاً مؤقتاً. غير أنه في كتابه أخبر الخليفة أنه قد صار عنده من خُمْس الفيء، بعد أن صار إلى كل ذى حق حقُّه من الفيء والغنيمة، أربعة آلاف أو ستة آلاف ألف درهم، ووعد بأنه سيحملها إلى الخليفة. وقد نصح يزيد كاتِبُه ألاّ يرتبط

مع الخليفة ببيان مقدار المال تجنُّباً للنتائج المتنوعة التي تنتج عن ذلك، فأبى يزيد ومهّد بما فعل إلى نزول القدر الذي يستحقه، وذلك أن سليمان بن عبد الملك توفى في صفر سنة ٩٩هـ، في صيف[١] السنة التي كانت فيها الحملة الحربية على جرجان، وجاء بعده عمر بن عبد العزيز، فدعا يزيد وسأله عن الأموال التي كتب بها إلى سليمان بن عبد الملك، فقال يزيد بن المهلب إنه إنما كتب بذلك إلى سليمان ليسمّع الناس به، فقال له عمر إن تلك الأموال إنما هي حقوق للمسلمين لا يسعه تركُها، وطلب من يزيد أن يؤدِّيها. فلما لم يفعلْ حبسه حتى يؤدى ما عليه.

٤ ـ لقد ارتفع شأن الأزد في خراسان بارتفاع المهالبة، وهم كذلك سقطوا بسقوطهم، فتأخروا إلى المحل الثاني وانتقلوا إلى جانب المعارضين للحكومة. وقد كان عمر بن عبد العزيز إنما خالف سلفه من الخلفاء بأن لزم الحيادَ بالنسبة للقبائل، ولم يظهر بمظهر العداء للأزد، وإن كان قد قضى على سطوتهم بأن عزل رئيسهم يزيد بن المهلب. ولكن لما انتهى عهد عمر بن عبد العزيز وجاء عهد خلفه بدأ ردُّ فعلٍ قوامُه التعصُّب على الحزب الذي مالأه سليمان بن عبد الملك، وخصوصاً بعد القضاء على تلك الثورة الكبيرة التي كان المهالبة قد قاموا بها في العراق، فلما جاء يزيد بن عبد الملك جعل الانتقام من المهالبة وأتباعهم شعار حكومته، وقد ذاق وبال ذلك من كان من الأزد في خراسان أيضاً، وإن لم يكونوا قد اشتركوا في تلك الثورة على الإطلاق. فأقصِيَ المهالبةُ عن جميع مناصبهم وعُذِّب رؤساؤهم وأُسلِموا لباهلة لكي ينتقموا منهم لمقتل قتيبة بن مسلم، وعادت السيادة لمضر مرةً أخرى وعلى رأسهم تميم، ولكن الأمير نفسه لم يكن من تميم، وإن كان منها في كثير من الأحيان نائبه صاحب الشرطة، وهم جند الحكومة الملازمين للعاصمة،

---

(١) سبتمبر سنة ٧١٧هـ، وكان الانتقال من سنة ٩٨ ـ ٩٩هـ يقع في منتصف أغسطس سنة ٧١٧ م.

بل كان الولاة دائماً من قيس، وكان منها عمال الدولة منذ أيام الحجاج. ولكن ارتباط أمراء قيس برابطة النسب القبلى وتكوينهم حزباً واحداً لم يكفّهم عن العداوة والشر فيما بينهم، فكان الخلف منهم في الغالب يعذّب سلفه ويبتزُّ منه المال بدعوى أنه يطالب بما كان تحت تصرفه من أموال الدولة، وكان الأمير يفعل مثل ذلك مع العمال الذين استعملهم سلفه؛ وكانت هذه هي صورة المسئولية الوزارية عند العرب. وكان التغير المستمر المفاجئ في الحكومة عائقاً دون تنفيذ سياسة متصلة، وكان الحكم أمراً شخصياً محضاً، وكان بمثابة سياسة نهب يسرع الوالى في استثمارها أو في التهام الغنيمة التهاماً، إذا صح التعبير. ولم يكن ذلك مقصوراً على خراسان، لكنه كان يجرى فيها على أوقح صورة وعلى أخطرها أيضاً، لأن الحاجة إلى حكومة ثابتة الأركان دائمة السلطان في تلك البلاد النائية المعرضة لهجمات الأعداء كانت أشد ما تكون، وكان من تأثير هذه الظروف أنه لم تلبث أن تزعزعت أركان الفتوحات التي قام بها قتيبة بن مسلم، وصارت الحاجة دائماً تدعو إلى إعادة فتح ما فتح. وقد أمكن بطبيعة الحال الاحتفاظ بالقواعد الثابتة التي أسسها قتيبة للعروبة والإسلام في بلاد السغد، خصوصاً سمرقند وبخارى، كما أن العمل على صبغ تلك البلاد بالصبغة الإسلامية استمر هناك وازداد.

ولكن نشأ من ذلك خطرٌ جديد على السيادة العربية لم يكن متوقعاً، ولم يزل خَطْبُه يتفاقم باستمرار. فقد كان الأمير الذي وجهه عمر بن عبد العزيز إلى خراسان ليحل محل يزيد بن المهلب هو الجرّاح بن عبد الله الحكمى، وكان من مدرسة الحجاج، فغزا الختّل في أرض Parätacene بعد أن لم يكن قد غزاهم أحدٌ من قبل غزواً يستحق الذكر، وكتب الجرّاح يخبر الخليفة بذلك[1]. وأوفد وفداً: رجلين من العرب ورجلا من موالى بني ضبة يُكنى أبا الصيداء. وكان أبو الصيداء هذا رجلا فاضلا في دينه، فتكلم العربيان، وهو جالس

(١) [راجع الطبري جـ ٢ ص ١٣٥٣ فما بعدها ــ المترجم].

لم يتكلم، فقال له عمر: «أمّا أنت من الوفد؟» قال: «بلى»، قال: «فما يمنعك من الكلام!». وهنا وجد أبو الصيداء ــ وإن كان عربياً بالولاء[١] ــ أن الدين يقضى عليه بأن يقول كلمةً طيبة في مصلحة الأعاجم الذين دخلوا في الإسلام، فقال: «يا أمير المؤمنين! عشرون ألفاً من الموالى يغزون بلا عطاء ولا رزق، ومِثْلُهم قد أسلموا من أهل الذمة، يُؤْخذون بالخراج. وأميرنا عَصَبِيٌّ جاف، يقوم على منبرنا فيقول: «أتَيْتُكم حَفِيّاً، وأنا اليوم عَصَبِيٌّ، والله لَرَجلٌ من قومي أحبُّ إلى من مائة من غيرهم... »، وهو بعد سيف من سيوف الحجاج، قد عمل بالظلم والعدوان»، فقال عمر: «إذَنْ مِثْلُك فليُوفد»، وكتب عمر إلى الجراح يأمره بأن يضع الجزية عن كل مسلم، فسارع الناس إلى الإسلام[٢]. ولما قيل للجراح. إن الناس إنما سارعوا إلى الإسلام نفوراً من الجزية، ونصحوه أن يمتحنهم بالختان، كتب بذلك إلى عمر، فردّ عليه عمر يقول: «إن الله بعث محمداً صلى الله عليه وسلم داعياً، ولم يبعثه خاتناً. واستدعى عمرُ الجراحَ ثم عزله بعد أن كان قد قضى في الولاية ما يقرب من عام ونصف، وذلك في رمضان سنة ١٠٠هـ (إبريل سنة ٧١٩ م)، وعين مكان والياً أكثر ليناً، وكان ضعيفاً يحب العافية[٣]، وهو عبد الرحمن بن نعيم الغامدى، وكان أزدياً، لكنه لم يكن من أزد عمان، أعنى من الحزب الأزدى في خراسان. وقد جعله عمر على الحرب والصلاة، وضم إليه على الخراج عبد الرحمن بن عبد الله القشيرى من قيس، وكان رجلاً ذا همة وإقــدام. وبقى ابن نعيم بعد موت عمر في منصبه حيناً، ثم عُيّن مكانه في سنة ١٠٢هـ سعيد بن عبد العزيز بن الحارث بن الحكم بن أبي العاص أحد الأمراء الأمويين، وهو المعروف باسم سعيد خُذَيْنَة، لأنه كان رجلاً

(١) وكان لا يعرف الفارسية (الطبري جـ ٢ س ١٥٠٧)، أما إنه كان مولى، فإن هذا لا يجعله إيرانياً.

(٢) فدخل في الإسلام كثير من الملوك فيما وراء النهر (البلاذرى ص ٤٢٦).

(٣) [راجع الطبري جـ ٢ ص ١٣٥٦ ــ المترجم].

ليناً سهلاً متنعماً[١]. وقد زاد بأمر يزيد بن عبد الملك في الإساءة إلى الأزد وفي معاداتهم، ولكنه لم يشتدَّ في معاملة الأعاجم، أو على الأقل في محاربة السغد الذين كانوا قد ثاروا على العرب في ذلك الوقت بجهة سمرقند — ولم يثوروا في العاصمة نفسها — ولحقوا بالترك، بعد أن كانوا قد عادوا إلى الهجوم على ما حولهم، وساعدوهم على العرب. وبسبب هذا اللين الذي بدا للعرب أنه قد وُضِع في غير موضعه عُزِل سعيد خذينة عن منصبه، وعُيّن مكانه سعيد بن عمرو الحرشى[٢]. فاشتد سعيد مع أهل الفتنة، وخافوا على أنفسهم منه، فأجمعوا على الخروج من بلادهم والهجرة إلى فرغانة. ولم يكن للعرب في فرغانة ما كان لهم في غيرها من سلطان. وقد هاجر منهم خاصة أهل مدن قِيّ وإشتيخن وبَياركَث وبُنجيكَث وبُزْماجَن[٣]، وقد خرجوا ومعهم أمراؤهم وعلى رأسهم كارزنج صاحب مدينة قِيّ، وكان في الحقيقة شأنه شأن غيره من أمراء السغد تركى الأصل[٤]. وقد توجه معظم المهاجرين[٥] إلى مدينة خُجَنْدَة (خوكند) على نهر الشاش، ولكن سعيداً اتبعهم وحصرهم في مدينة خجندة. وكان ملك فرغانة

---

(١) الطبري جـ ٢ ص ١٣٥٧، ١٤١٧، ١٤٢١، ١٨٦٧، والبلاذرى ص ٤٢٧ وكتاب الأغانى جـ ١٣ ص ٥٢.

(٢) ينتمي إلى بني الحريش بن كعب من أهل الجاهلية.

(٣) [الطبري جـ ٢ ص ١٤٣٩] وكانت اشتيخن وبزماجن تقعان غير بعيد من سمرقند، أما بنجيكث فهي ليست مدينة أشروسنه، بل المدينة المسماة بالاسم نفسه قرب سمرقند، وكذلك كانت مدينة قى (الطبري جـ ٢ ص ١٤٢٢ س ١٦ و١٤٤١ س ٤) تقع قريبا من سمرقند على نهر زرفشن. وفيما يتعلق باسم بياركث قارن الاسم العلم بيار عند الطبري (جـ ٢ ص ١٤٤٦ ص ١٠). والمقطع كث هو أشهر مقطع يرد في آخر أسماء المدن.

(٤) في بيت الشعر المذكور عند الطبري (جـ ٢ ص ١٢٨١ س ٥) وهو مغلوط، كتبت كلمة كارازنج بدلا من كلمة كارزنج، قارن الطبري (جـ ٢ ص ١٤٤٦ س ١٠). وبحسب الطبري (جـ ٢ ص ١٤٢٢ س ١٦) كان ملك قِيّ، وكان يلقب هناك بلقب ترك خاقان، في أول الأمر صديقاً للعرب.

(٥) خلافا لم جاء عند الطبري (جـ ٢ ص ١٤٤١ س ٧، وص ١٤٤٦ فما بعدها)؛ قارن الطبري (جـ ٢ ص ١٤١٨ س ١).

قد أخبر سعيداً بأمرهم وأشار عليه بأن يعاجلهم لأنه لم يكن لهم جوارٌ عنده، ولم يكن قد حل الأجل المضروب لدخولهم في جواره. وهكذا خاب ظن المهاجرين في معونة ملك فرغانة لهم، فسلّموا وطلبوا الصلح والأمان والعودة إلى بلادهم، على أن يؤدوا ما عليهم من إتاوة وينفذوا شروطاً اشترطها عليهم. وكان من هذه الشروط أن يردّوا من أيديهم من نساء العرب وألا يغتالوا أحداً وإلا حلّت دماؤهم. ولكن أحد أمرائهم قتل امرأة كانت في أيديهم، فلما تيقّن الحرشى من ذلك قتل أميراً لهم. وخاف كارزنج مثل هذا المصير على نفسه، وكان نازلا عند العرب، فاحتال في طلب المعونة من ابن أخيه، وقال لأيوب بن أبي حسان الذي كان نازلا عنده: «إني ضيفُك وصديقك، فلا يجمل بك أن يُقْتَل صديقك في سراويل خَلَق؛ فَخُذْ سراويلي»، ثم قال: «وهذا لا يجمل، أن أقتل في سراويلاتكم، فسَرِّحْ غلامك إلى جَلَنْج ابن أخي يجيئنى بسراويل جديدة». وكان قد قال لابن أخيه: إذا أرسلتُ إليك أطلب سراويل، فاعلم أنه القتلُ[1]. فجاء جلنج وحاول الهجوم على معسكر المسلمين، ولكنه أخفق. وكان السغد قد قتلوا أسرى من المسلمين في أيديهم، فعند ذلك أمر الحرشى بقتل جميع جنود السغد، الأمراء ومن معهم. وقد حاولوا أن يدافعوا عن أنفسهم بالخشب، لأنه لم يكن معهم سلاح؛ ولكن ذلك لم يُغْنِ عنهم شيئاً. وفي اليوم التالي قتل الحرشى عدة آلاف من الحرّاثين. على أنه كان في اليوم السابق قد عزل التجار ولم يقتلهم، وكان معهم مالٌ عظيم قدموا به من الصين، وكان عددهم أربعمائة، ورغم ذلك بقى في فرغانة كثيرٌ من أهل السغد، لأنهم لم ينزلوا جميعاً في مدينة خُجَنْدَة (الطبري جـ ٢ ص ١٦١٣ فما بعدها و١٧١٧).

---

(١) [نظراً لأن المؤلف يختصر اختصاراً لا يكون معه الكلام مفهوماً تماماً، فصلنا الترجمة بعض الشيء طبقاً للطبري جـ ٢ ص ١٤٤١ ـ ١٤٤٩ ـ المترجم].

وأخضع الحرشى، وهو في طريقه راجعاً، مدناً وقلاعاً أخرى كانت قد شقت عصا الطاعة، وقد غلب عليها صلحاً وتسليما في معظم الأحيان. ولكنه كان إذا عرف أن في القلعة مالاً كثيراً صالح أصحابها بعد قبض ما في القلعة[١]. وقد أراد عمر بن هبيرة الفزارى أمير العراق — وكان الحرشى تابعاً له — أن يجعل من ذلك سبباً للموجدة على الحرشى[٢]، ولكن هذا الغضب كانت له في الحقيقة أسباب أخرى، وذلك أن سعيداً الحرشى كان في كثير من الأحيان يتجاهل ابن هبيرة، وهو أيضاً لم ينفذ أمراً له باستخراج الأموال من قوم من العرب كانوا في خراسان، وكان أهواؤهم مع ابن المهلب[٣]. هذا إلى أن ابن هبيرة وجّه معقل بن عروة إلى هراة، فلم يمرّ على الحرشى، بل قصد إلى هراة رأساً. فأمر الحرشىّ بحمله وسأله: «ما منعك من إتياني قبل أن تأتي هراة؟» فأجاب: «أنا عامل لابن هبيرة، ولانّى كما ولاّك»، فضربه الحرشى مائتين وحلّقه؛ ولهذا عزله ابن هبيرة وأمر بأن يحمل من مرو إلى الكوفة مقيداً، وعذبه ونفخ في بطنه النمل. وكان ذلك مظهراً من مظاهر العداء بين رجال قيس الذين كانت لهم السيطرة الكاملة في عهد يزيد بن عبد الملك، وذلك أن كلاً من ابن هبيرة وسعيد الحرشى كان قيسياً، وخصوصاً ابن هبيرة نفسه[٤]، وهذا في الوقت نفسه مثال يُقنع المتأمل ويبين كيف كان رجالات قيس لا يبالغون بجميع

---

(١) [راجع الطبري جـ ٢ ص ١٤٤٧ — ١٤٤٨ — المترجم].

(٢) [راجع في معرفة أسباب موجدة ابن هبيرة على الحرشى الطبري (جـ ٢ ص ١٤٤٦ — ١٤٥٧) — المترجم].

(٣) [راجع الطبري جـ ٢ ص ١٤٩٥ — ١٤٦٠ — المترجم].

(٤) [لم تكن أم الحرشى عربية وهذا ما يؤخذ مما جاء في الطبري (جـ ٢ ص ١٤٥٦ — ١٤٥٧) — المترجم].

الاعتبارات إذا كان الأمر أمر المناصب وأمر الجشع في طلب المال[١] ــ ومع هذا كانوا يداً واحدة على من عدا قيس.

وجاء بعد سعيد الحرشى مسلم بن سعيد بن أسلم الكلابى[٢]. وهو أيضاً قيسي تخرج في مدرسة الحجاج، وكان الحجاج قد ضم مسلماً، بعد أن مات أبوه، إلى أولاده فتأدب معهم ونَبُل. وكان عدى بن أرطأة قد ولى مسلماً من قبل ولاية خفيفة لكي يبدأ حياته ويرتفع، فقام بها وضبطها وأحسن، فلما وقعت فتنة يزيد بن المهلب حمل مسلمٌ الأموالَ التي كانت تحت يده إلى الشام. فلما قدم ابن هبيرة على العراق أجمع على أن يوليه ولايةً، فدعاه ليلة إلى سمره، ويظهر أنه أعجِب به، فعقد له على خراسان وعهد إليه بأخذ أموال من قوم أغنياء كانوا قد اقتطعوها واتّهمهم أعيان العرب في خراسان بأنها عندهم. ولم يكن ابن هبيرة يبالى من أين يأتي المال، ما دام يصل إليه[٣]. وواصل مسلم الحرب مع السغد والترك، ففي ربيع سنة ١٠٥هـ (٧٢٤ م) جهز حملة على فرغانة وخرج فيها[٤]، ولكن الأزد وربيعة وثبوا في طخارستان وامتنعوا من اللحاق به[٥]، وكان

---

(١) [تدل الروايات المتقدمة في العداوة بين ابن هبيرة والحرشى على أنها نشأت خصوصاً من كبرياء الحرشى واستخفافه بابن هبيرة ــ المترجم].

(٢) [راجع فيما يتعلق بولاية مسلم على خراسان الطبري جـ ٢ ص ١٤٥٧ ــ ١٤٦٣ ــ المترجم].

(٣) [لا يؤخذ هذا بسهولة مما جاء في الطبري (جـ ٢ ص ١٤٥٩ ــ ١٤٦١)، وقد حاولنا بقدر الإمكان التمشى مع الأصل العربي ــ المترجم].

(٤) ليس من الواضح إن كان مسلم قد افتتح أفشينة في هذه الحملة، أو هو فتحها قبل ذلك، وأفشينة مدينة تلحق بكور سمرقند (الطبري جـ ٢ ص ١٤٦٢ س ٩ و١٤٦٣ س ١ و١٥١٧ س ٨). أما البلاذرى (ص ٤٢٨ س ٣) فهو يجعل اسم الأفشين اسم علم على شخص.

(٥) [راجع الطبري جـ ٢ ص ١٤٧٣ فما بعدها ــ المترجم].

على رأسهم عمرو بن مسلم الباهلى، أخو قتيبة بن مسلم[١]، فبعث مسلم خليفته نصر بن سيّار الكنانى، فهزمهم عند بروقان، وكانت مقراً للحامية العربية في بلخ؛ ولم يكن من شأن ذلك أن يؤلف بين مضر واليمن. وبعد ذلك سار مسلم بنفسه حتى إذا وصل إلى بخارى بلغه الخبر بوفاة يزيد بن عبد الملك، وتولى هشام بن عبد الملك الخلافة (شعبان سنة ١٠٥هـ — يناير سنة ٧٢٤ م) وأن هشاماً عزل ابن هبيرة القيسى وعيّن مكانه على العراق خالد بن عبد الله القسرى (من بجيلة)، فكان من أثر ذلك أن هرب كثير من جنده، ولكنه مضى في المسير حتى جاوز خُجَنْدَة ودخل أرض الترك، ولكنهم هجموا عليه وهزموه، فلم يستطع أن ينصرف راجعاً إلى خجندة عبر نهر الشاش إلا بمشقة كبيرة[٣]. وهناك بلغه خبر عزله (سنة ١٠٦هـ — صيف أو خريف سنة ٧٢٤ م)، فجاء بعده أسد بن عبد الله أخو خالد بن عبد الله القسرى أمير العراق، وكان أسد لا يزال شاباً.

وكان أسد، شأنه شأن أخيه، يميل إلى قبائل اليمن، وإن لم يكن في الحقيقة ينتسب إليهم من حيث القبيلة. وذلك أن يجيلة كانت مثل باهلة، تقف خارج مجموعات القبائل المتنازعة. فضرب[٢] قوماً من عرب خراسان أصحاب المناصب الكبيرة، منهم البخترى بن أبي درهم البكرى[٤] (من نسل حارث بن عباد)،

---

(١) كانت باهلة تغير موقفها من مجموعات القبائل بحسب الظروف لأنها لم تكن بطبيعتها تنتمي إلى مجموعة ما.

(٢) في رواية قصيرة ذكرها الطبري (جـ ٢ ص ١٤٦٢ — ١٤٦٣) مقدماً، وهي في الحقيقة نفس الرواية التي يذكرها فيما بعد (ص ١٤٧٧ فما بعدها)، نجد أنه يذكر نهر بلخ، مع أنه لا يمكن أن يكون إلا نهر الشاش، والعرب يقولون في كثير من الأحيان: «النهر» فحسب، ويتركون معرفة أي نهر هو المقصود لمعرفة القارئ بالجغرافية.

(٣) [راجع الطبري (جـ ٢ ص ١٤٩٧ فما بعدها) — المترجم].

(٤) [يسمى ابن درهم وابن أبي درهم الطبري جـ ٢ ص ١٤٧٣، ١٤٧٥، ١٤٩٩، ١٦٠٥ — المترجم].

فاحتمل العذاب من غير جزع، لأن نصر بن سيار لقى من العذاب مثل ما لقى. وكان البخترى يبغض نصر بن سيار بسبب يوم البروقان[١]، وكان بعض العمال الذين عينهم أسد بن عبد الله من الأزد، ولكنّ فَرَحَ الأزد بخروجهم من الظلام إلى ضوء الشمس لم يدم طويلاً، وذلك أن الخليفة أمر بعزل أسد في سنة ١٠٩هـ، وكان أسد يوادّ دهاقنة خراسان، فصحبوه إلى العراق[٢].

وكان الوالى الذي جاء بعده هو أشرس بن عبد الله السلمى[٣]، وكان أيضاً من قيس. فحاول أن يهدئ ثائرة السغد المعاندين، سالكاً في ذلك الطريق الذي سلكه عمر بن عبد العزيز. وكان الذي دعاه إلى ذلك كاتبه عميرة اليشكرى، أحَد الموالى من الأعاجم، وبعث أشرس يدعو ذلك الرجل الذي كان ذهب في وفد من أهل خراسان إلى عمر بن عبد العزيز وكان سبباً في أن عمر أمر بالمساواة بين العرب وبين الأعاجم الذين دخلوا في الإسلام، وهو أبو الصيداء صالح بن طريف مولى بنى ضبّة، فوجَّهه إلى بلاد السغد لدعوة أهلها إلى الإسلام، على أن يضع الجزية عمن يدخل منهم في الإسلام، فذهب أبو الصيداء، ومعه قوم من العرب على رأيه وطريقته، قاصداً سمرقند، فساعده على ما أراد ابنُ أبي العَمَرَّطَة الكندي، وهو ابن ذلك الشيعي الكوفي الذي كان قد خرج بسيفه من قبل يحارب من أجل حجر بن عدي، وكان ابن أبي العَمَرَّطَة إذ ذاك والياً

---

(١) قارن على كل حال الطبري (جـ ٣ ص ١٥٣٠).

(٢) [راجع الطبري جـ ٢ ص ١٤٩٧ فما بعدها]. ثم رجع أسد إلى خراسان فيما بعد والياً، والبلاذرى يجمع ولايتيه معاً، ورواية المدائنى كما هي عند الطبري مضطربة فيما تضمنته من ذلك، وإذا كان أسد قد نقل مقر ولايته إلى بلخ فلا شك أن ذلك كان في أثناء ولايته الثانية، لأننا نجد بعد ذلك أن مرو قد صارت مقراً لولايته مرة أخرى، ولا نجد ذكراً لتغيير في ذلك، ويجوز أيضاً أن يكون ضرب نصر بن سيار قد وقع في ولايته أسد الثانية. أما ولايته الأولى فليس المعروف عنها بكثير.

(٣) [راجع الطبري جـ ٢ ص ١٥٠٤ فما بعدها و١٥٠٧ فما بعدها ــ المترجم].

على حرب سمرقند وصلاتها. وقد نجحت دعوة أبي الصيداء نجاحاً كبيراً، فأنشئت مساجد كثيرة وأخذ الوثنيون يدخلون في الإسلام زرافات، ولكن من العجيب أن الدهاقين الذين كانت الحكومة العربية قد تركتهم على سلطانهم لم يكونوا راضين بذلك، لأنهم كانوا هم المسئولين عن تحصيل الجزية، وكان من العسير عليهم أن يحصلوا على الأموال الكبيرة ـ وكانت مفروضة عليهم بمقدار لا يصح أن ينقص ـ إذا سقطت الجزية بسبب الدخول في الإسلام عمن كان يدفعها حتى ذلك الحين. ولهذا شكوا لأشرس وقالو له: «ممن تأخذُ الخراج وقد صار الناس كلهم عرباً[١]؟» ويُذْكَر من الدهاقين الذين جاءوا إلى أشرس دهاقين بخارى خصوصاً غوزك، أخشيد سمرقند الذي عرفنا أمره أيام قتيبة. فحاول أشرس أن يتخلص من نتائج عمله، فبدأ بتضييق الطريق على الداخلين في الإسلام، وذلك بأن أخذ يطالبهم بالاختتان وإقامة الفرائض وقراءة سورة من القرآن ونحو ذلك، فلما لم يَكْفِ هذا عزل ابن أبي العمرَّطة وعين مكانه عمالاً آخرين وأمرهم أن يأخذوا الجزية ممن كانوا يأخذونها منهم، فأعادوا الجزية على من أسلم، فامتنع هؤلاء من دفعها، واعتزل قومٌ من أهل السغد، وكانوا سبعة آلاف، فنزلوا على سبعة فراسخ من سمرقند، وكانوا حانقين. وخرج أبو الصيداء وقومٌ معه من مختلف قبائل العرب (من تميم والأزد وبكر) لينصروهم، وكان منهم ثابت قطنة الشاعر وأبو فاطمة الأزدى وبشر بن جرموز وغيرهم؛ ولكن أمكن صرف هؤلاء العرب بشيء من الشدة وشيء من السياسة عن القضية التي تعصبوا لها، وبذلك فقد المتمردون في سمرقند من يؤيدهم وأعيدوا إلى خضوعهم القديم، وألحّ العمال في جباية الجزية واستخفوا بأشراف العجم وعظمائهم وعاملوهم معاملة غير كريمة[٢].

---

(١) [يقصدون أنهم قد تعربوا أي أصبحوا مسلمين على دين العرب ــ المترجم].

(٢) [راجع الطبري جـ ٢ ص ١٥٠٧ ــ ١٥١٠ ــ المترجم].

ولكن المشكلة لم تنته بذلك، وكان العدول عن سياسة المسالمة والعودة إلى سياسة الشدة سبباً في إثارة السغد في جميع تلك الناحية وفي إسخاطهم إلى أكبر حد، وهم لكي يتحرروا من سلطان العرب استجاشوا الترك. ويروى أن خسرو، أحد أبناء يزدجرد آخر ملوك الساسانيين، كان معهم. وكان مركز الثورة في واحة بخارى، وجاء الخاقان إلى هناك، ومعه جيش كبير من الترك والفرس. وفي سنة ١١٠هـ، في أواخر هذه السنة على الأرجح(١)، أعنى في ربيع سنة ٧٢٩ م، خرج أشرس على رأس الجيش العربي من مرو لكي يدرأ ذلك الخطر، ولكن الترك سدوا أمامه طريق العبور على نهر بلخ، فلم يستطع أن يعبره ويتقدم إلى بيكند ويعسكر فيها إلا بعد فترة جهد وقتال. وعند ذلك قطع الترك عنه الماء وأصاب الجيشَ من العطش جهدٌ شديد، فمات منه سبعمائة، وعجز الناس عن القتال. وأخيراً قام الحارث بن سريج فحضّ الناسَ وقال لهم: القتل بالسيف أكرم في الدنيا وأعظم أجراً عند الله من الموت عطشاً، وتقدم بعض الفوارس فخاطروا بأنفسهم وقُتل بعضهم، ولكنهم قاتلوا الترك فكشفوهم وأزالوهم عن الماء، وابتدر الناس فشربوا، وقُتل من فرسان المسلمين ثابت قطنة وعبد الملك بن دثار الباهلى وغيرهما. وواصل العرب سيرهم وقاتلوا قتالاً شديداً، ولحق غوزك سمرقند بالترك، وشق العرب طريقهم إلى بخارى فعسكروا فيها، ومن هناك قاموا بحملات أخرى (على خوارزم مثلاً)، ولكن بعض فرق الجيش العربي انقطعت، فذهبت فرقة إلى كَمَرْجَة (قرب بيكند)، فاتجه الخاقان بكل قوته إليهم وحصرهم في كَمَرْجَة، ولكنهم استماتوا في الدفاع ورفضوا

---

(١) لم يخرج أسد إلا سنة ١٠٩هـ (في رمضان)؛ وبعثة أبي الصيداء وما كان لها من نتائج تحتاج أيضاً إلى حين من الزمان.

كل اقتراح من العدو، حتى وجد الترك ألا فائدة من الحصار وأعطوهم الأمان على ألاّ يتوجهوا للحاق بالجيش الأساسي في بخارى، بل على أن يعودوا إلى الدبوسية[(١)].

وهكذا أصبحت يد الخاقان طليقة لكي يتفرغ إلى أشرس في بخارى. ولم يستطع أشرس أن يفتتح أرضاً جديدة، ويظهر أيضاً أنه لم يكن قادراً على مثل ذلك. ولهذا عين الخليفةُ والياً ليخلفه بعد أن يفك عنه الحصار، فجاء الجنيد بن عبد الرحمن المرِّى[(٢)]، وكان حتى ذلك الحين في الهند ورجع منها ومعه خمسمائة من جند الشام، وبادر بعد وصوله[(٣)] لنجدة أشرس، فاستطاع بعد مشقة أن يواصله، وأفلح في هزيمة الترك عند زرمان وفي فك الحصار على سمرقند، وبعد ذلك نجح في قيادة جيشه سالماً إلى خراسان، وربما كان هذا هو غرضه الأكبر[(٤)].

وكان الجنيد في أواخر سنة ١١٢هـ — ربيع سنة ٧٣١[(٥)] قد وجه بعوثاً من الجيوش العربية في نواح شتى، خصوصاً إلى طخارستان، وعند ذلك جاءته استغاثة سورة بن الحرّ التميمي من سمرقند، لأن الخاقان وأمراء من الأعاجم تحالفوا معه كانوا قد هاجموا سمرقند، وعلى الرغم من أن الجنيد لم تكن لديه قوة كافية، فإن نهض على الفور وسار عبر نهر بلخ حتى بلغ كِشْ، وكان هناك

---

(١) [راجع الطبري ج ٢ ص ١٥١٢ — ١٥٢٥ — المترجم].

(٢) كثيراً ما يذكره في اسمه: المزنى، وهو خطأ — (مثلا الطبري ج ٢ ص ١٦٢٧ س ٣).

(٣) سنة ١١١هـ، لكن لم يأت قبل آخر تلك السنة، وذلك أن الطريق من بخارى إلى الشام ومن الشام إلى الهند ومنها إلى خراسان كان طويلا شاقا، ولا شك أن أشرس بقى في بخارى في الشتاء (سنة ١١١هـ).

(٤) [راجع الطبري ج ٢ ص ١٥٢٧ — ١٥٣٠ المترجم].

(٥) يمكن أن يفهم من قولنا ربيع ١١٢هـ أول هذه السنة أو آخرها، لكن آخرها، بحسب الظروف، هو الأرجح هنا، والتواريخ تختلف فيما يلي سنة، فهي تتردد بين ١١٢ و١١٣ و١١٤، وأنا أعتبر أن الأعداد الكبرى هي الصواب.

طريقان يؤديان من كِشْ إلى سمرقند: أحدهما طريق المحترقة، يخترق منطقة المروج والحشائش والأشجار، وقد تجنبه الجنيد، لأن الزمان كان فصل الصيف ولأنه خاف أن يُشعِلَ العدوُّ النار في العشب والشجر؛ وكان الطريق الثاني، ويسمى طريق العقبة، يخترق الجبال، فاختاره الجنيد؛ ولكن الترك هاجموه في شِعْب غير بعيد من سمرقند، ولولا شجاعة نصر بن سيار، وخصوصاً لولا شجاعة الغلمان من الموالى الذين كانوا تابعين للجيش، لفنى الجنيد ومن معه، ذلك أن هؤلاء الغلمان، بعد أن طال القتال وسقط الأبطال وكلّت السيوف حتى صارت لا تقطع، قطعوا العمد وصاروا يقاتلون بها، حتى ملّ الفريقان وتحاجزا[(١)]. ولكن الأشرس كان لا يزال في موقفه الخطر، وهو لكي ينقذ نفسه طلب من سورة أن يأتي إليه من سمرقند؛ ولو أن سورة ومن معه من جند العرب خرجوا من سمرقند لهلكوا، ولكن الجنيد استطاع أن ينقذ نفسه وأن يدخل سمرقند. فاتجه الخاقان إلى بخارى، وكان عليها أحد أبناء قتيبة، فحاصرها، ولكن الجنيد أتْبَعه من أقصر طريق وهزمه عند الطواويس، وذلك في شهر رمضان، ودخل بخارى في يوم عيد المهرجان[(٢)]. حتى إذا قرت عين الجنيد بتأمينه بخارى وسمرقند قفل راجعاً قبل دخول الشتاء. أما الجند الذين كان هشام قد أرسلهم إليه من

---

(١) [راجع الطبري جـ ٢ ص ١٥٣٢ ــ ١٥٣٦ المترجم].

(٢) لا شك أن ذلك لم يكن في سنة ١١٢هـ كما تذكر الروايات بل في سنة ١١٣هـ (نوفمبر سنة ٧٣١ م)، وعلى هذا فلا بد أن يكون عيد المهرجان في ذلك الوقت قد احتفل به بعد الانقلاب الخريفي الطبري جـ ٢ ص ١٥٥٢ س ٧، وقارن ص ١٥٥٠ س ١٣ فما بعده). وكذلك كان عيد النيروز بحسب الطبري (جـ ٢ ص ١٨٤٦ س ١٦) بعد الاعتدال الربيعي بكثير، وعلى هذا فلا بد أن يكون خطأ ما جاء في الطبري جـ ٢ ص ١٦٣٥ س ١٨). ويظهر أنه في أيام العباسيين أصلح تقويم الأعياد، ففي سنة ٢٣٩هـ وافق يوم النيروز يوم شعانين النصارى الطبري (جـ ٣ ص ١٤٢٠). وفي سنة ٢٤٥هـ أخِّر عيد النيروز أكثر من ذلك (الطبري جـ ٣ ص ١٤٤٨)، قارن أيضاً الطبري (جـ ٣ ص ٢٠٢٤ وص ٢١٤٣ فما بعدها وص ٢١٧٣).

البصرة والكوفة، وكانوا في الصغانيان في طريقهم إليه، فقد وجههم إلى سمرقند. ولا يذكر عن الجنيد شيء في أخبار سنتي ١١٤ و١١٥هـ[١]. وفي أول سنة ١١٦هـ (ربيع سنة ٧٣٤ م) عزل عن منصبه وحل محله عاصم بن عبد الله الهلالى[٢]، وكان عاصم أيضاً من قيس، ولكن هشام بن عبد الملك عينه مكان الجنيد لكي يعذبه ويزهق نفسه لأنه كان عدواً للجنيد، وذلك أن هشاماً كان غاضباً على الجنيد لأنه تزوج الفاضلة ابنة يزيد بن المهلب (الطبري جـ ٢ ص ١٦٣٣)، وكان في نظر هشام أكبر الثوار، ولكن الجنيد كان قد مرض بسقى البطن فمات لحسن حظه قبل أن يصل عاصم إلى مرو، فلم يستطع هذا أكثر من أن يحبس عمارة بن حريم ابن عم الجنيد وخليفته وأن يأخذ عمال الجنيد ويعذبهم[٣].

٥ ـ وقد تزلزلت السيادة العربية في أرض ما وراء النهر زلزلة شديدة بسبب التردد بين اللين والشدة تردداً ليس له ضابط، وكان عمر بن عبد العزيز قد حاول أن يمزج الرعايا الأعاجم بالعرب من طريق الإسلام، وذلك بأن سوّى بين الداخلين في الإسلام وبين العرب من الناحية السياسية وبأن أسقط عنهم الجزية، ولكن يظهر أن هذا المبدأ لم يلبث أن أُلغى في عهد خلفه، وهذا وإن لم تبلغنا عنه رواية صريحة فإنه يمكن أن يؤخَذ بلا شك من أنه بعد موته أصبح لا بد من استعمال سياسة العنف مع أهل السغد لإرغامهم على دفع الجزية؛ وقد امتنعوا عن ذلك بطبيعة الحال، لأنهم قد صاروا مسلمين. ويمكن أيضاً الاستدلال على مخالفة المبدأ الذي قرره عمر بأن كثيراً من أهل السغد أرادوا أن يتخلصوا من دفع الجزية، فتركوا البلاد هم وأمراؤهم وذهبوا إلى بلاد الترك

---

(١) [راجع بقية أخبار الجنيد عند الطبري جـ ٢ ص ١٥٣٦ ـ ١٥٥٣، ١٥٦٤ ـ ١٥٦٥ ـ المترجم].

(٢) [راجع الطبري جـ ٢ ص ١٥٦٤ فما بعدها ـ المترجم].

(٣) [راجع الطبري جـ ٢ ص ١٥٦٤ ـ ١٥٦٥ ـ المترجم].

ليدخلوا في حماهم. ويجب أن نلاحظ في هذا المقام أنه وإن كان المبدأ الذي وضعه عمر كان يجب أن يظل مبدأ مقرراً فإن مسلمى الأعاجم في خراسان لم يثوروا عندما خولف، وذلك أنهم منذ سنين كثيرة قد تعودوا التبعية السياسية للعرب، وأن رابطة الإسلام كانت قد ألفت بينهم وبين العرب، ولكنهم إلى جانب ذلك لم يكونوا في الحقيقة قادرين على الثورة، وهذا يصدق أيضاً بالنسبة للمدن مثل بخارى وسمرقند، وكانت قد توطدت فيها قواعد السيادة العربية. أما الثوار فكانوا هم أهل السغد، أعنى أنهم كانوا خارج المدن الكبرى ولم يكونوا قد خضعوا للسيادة العربية إلا خضوعاً مزعزعاً للغاية، وكانوا حديثي عهد بالإسلام، وهم لم يعتنقوه إلا طلباً لمزايا مادية ونفوراً من دفع الجزية، فاتبعوا أمراءهم؛ ولا شك أنهم في نفس الوقت ارتدوا عن الإسلام، لأنه لم يكن بعد قد رسخت عروقه في نفوسهم. ويتجلى مقدار قلة العمل بالمبدأ الذي وضعه عمر وحاول تطبيقه تجلياً أوضح مما تقدم من أن الأشرس قرره للمرة الثانية[١]، وعند ذلك تكرر الموقف من جديد، وكان أبو الصيداء ومن على رأيه وطريقته ــ وهم الذين كانوا قد بعثوا عمر بن عبد العزيز على تقرير المبدأ الذي قرره ــ هم أيضاً الداعين من جديد إلى الإصلاح، وقد فشل هذا الإصلاح مرة أخرى، وذلك للأسباب المالية التي لا شك أنها كانت في المرة الأولى أيضاً هي الأسباب الحاسمة. وأيضاً لم يكن عجم خراسان بل عجم السغد هم الذين ثاروا من أجل ذلك. بل يظهر أن الوعد بإسقاط الجزية في عهد الأشرس لم يكن موجهاً إلى الموالى بإطلاق معنى هذه الكلمة، ولا كان موجهاً إلى موالى خراسان، بل إلى من

---

(١) [يقصد المؤلف أن الأشرس أعاد ما فعله عمر من دعوة أهل ما وراء النهر إلى الدخول في الإسلام على أن يسقط عنهم الجزية (الطبري جـ ٢ ص ٥٠٧)، ويقصد من تكرار الموقف من جديد أنهم دخلوا الإسلام للتخلص من الجزية، فانكسر الخراج، فأعاد وضع الجزية على الداخلين في الإسلام، وكانت الثورة (الطبري جـ ٢ ص ١٥٠٧ فما بعدها ــ المترجم].

دخل الإسلام في بلاد السغد فحسب. غير أن ثورة السغد في أيام أشرس كانت أوسع نطاقاً وأشد خطراً من الثورة التي كانت بعد موت عمر بن عبد العزيز، وخصوصاً أن الترك كانوا قد دخلوا البلاد وتولوا الزعامة. وقد استطاع العرب أن يثبتوا وأن يحافظوا على سلطانهم في المدن الكبرى وفي نقط أخرى حصينة، وأمكن القضاء على حركة الثورة في سمرقند نفسها من غير كبير مشقة[١].

ثم جاءت محاولة ثالثة ترمى إلى مساعدة مسلمى الأعاجم على المساواة الكاملة بالعرب في الحقوق الوطنية في الدولة التيوقراطية، غير أنها لم تأت من أعلى، بل جاءت من أسفل، من قِبَل الحارث بن سريج، من أهل الدبوسية، وهو الذي صادفناه محارباً شجاعاً فيما تقدم[٢]. ويقال إنه كان في أوائل أمره أحد ثوار الخوارج المتشددين في الدين، ولكنه في الحقيقة لم يكن متشدداً في متابعة الآراء المتطرفة التي تعصب لها الخوارج، وهو لم يعقد الخلافة لنفسه، ولا بايع غيره عليها، وظهر بأنه يرى رأى المرجئة، وكان كاتبه الجهم بن صفوان أشهر متكلم لهذه الفرقة[٣]. وأيضاً كان الحارث نفسه يدخل في مناظرات حول مبادئها الأساسية[٤]، وانتهى مذهب المرجئة بالفعل إلى أن صار بمثابة سياسية للتوفيق بين المتخالفين، فتركت مسائل الخلاف وخصوصاً مسألة الإمام الحق ــ وهي المسألة التي لم يمكن قط أن يوصل فيها إلى حل ــ في المحل الثاني، وهي قد تركت لكي يحكم الله فيها. وفي مقابل ذلك صارت الجماعة الثائرة تؤكد شيئاً

---

(١) راجع في هذا وفيما يلي كتاب G. van Vloten: *Recherches sur la domination arabe*, Verhandl. der Amaterdamer Akademie, 1894, Letterkunde I. 3.

(٢) راجع الطبري جـ ٢ ص ١٩٢٣ س ٣ وص ١٩٢٧ س ١٢ وقارن أيضاً ص ١٨٩٠ س ٧).

(٣) [هذا ما يقوله المؤلف. وليس من السهل معرفة قصده، والأغلب أنه يقصد المرجئة، ولكنا نعلم أن الجهم صار فيما بعد رأس فرقة بأكملها ــ المترجم].

(٤) [يؤخذ من الطبري جـ ٢ ص ١٥٦٧ وص ١٥٧٠ ــ ١٥٧١ وص ١٥٧٧ و١٥٨٣، أن الحارث أراد أن يؤيد ثورته بالدين، وأنه طلب من يناظره فيما ثار لأجله ــ المترجم].

يمكن أن تتفق عليه كلمة الطوائف المختلفة لأهل الديانة من الثائرين، وهي الدفاع عن الأسس التي تقوم عليها الدولة التيوقراطية ومعارضة الاستبداد الذي كان قائماً ونصر جانب الحق الذي قدّسه الدين على جانب الظلم والعسف. وكان الولاة الذين عينتهم حكومة الأمويين من قيس قد أفقدوا هذه الحكومة في خراسان كل ثقة عند الصديق وعند العدو، وكانت سياستهم مع السغد خاصة سبباً في جلب خطر خارجي عظيم، وليس هذا فحسب، بل هي قد تركت وراءها سخطاً أدبياً عميقاً تجاوز الطائفة التي أصابتها نتائج تلك السياسة فبلغ إلى أبعد منها بكثير. وقد بدأ الحارث ثورته(١) مستنداً إلى هذا التذمر، فحرض الموالي وأثارهم بأن وعدهم بإحقاق حقهم فيما وُعِدوا به من إسقاط الجزية عنهم كما وعدهم بأن يشركهم في الأعطيات التي كانت تعطى للمقاتلة. وانضوى الدهاقنة وأهل القرى تحت رايته السوداء، وهكذا سار الحارث على أثر أبي الصيداء، وكان من بقى من أصحاب أبي الصيداء في عداد حاشيته، مثل أبي فاطمة الأيادي (من الأزد) وبشر بن جرموز الضبيّ (من تميم). وهكذا تولى العرب مرة أخرى قيادة الحركة لإنصاف الأعاجم الذين دخلوا الإسلام باعتبارهم مواطنين في الدولة التيوقراطية، ولكن اشترك في الثورة على الحكومة عدا هؤلاء القادة عربٌ كثيرون من تميم والأزد، ولم تكن الثورة بوجه من الوجوه مقصورة على المرجئة، وكان الحارث يقبل كل من يؤيده.

وكانت البلاد التي ظهر فيها هي أرض «الثغرين»، وقد رفع الراية السوداء في بلاد ما وراء النهر أول الأمر، وكان ذلك في السنين الأخيرة من ولاية الجنيد،

---

(١) [راجع فيما يتعلق بثورة ابن سريج (الطبري ج ٢ ص ١٥٦٦ ــ ١٥٧٢، ١٥٧٦ ــ ١٥٧٧، ١٥٧٩ ــ ١٥٨٠، ١٥٨١ ــ ١٥٨٦، ١٥٨٩ ــ ١٥٩١ ــ المترجم].

وهي السنين التي لا يذكر فيها من أمره شيء. وعند مجيء عاصم بن عبد الله والياً على خراسان امتدت الثورة فشملت طخارستان أيضاً. وأقبل الحارث من جهة النَخُذ حتى وصل إلى الفارياب، وسار منها إلى بلخ بعد أن قاتل حتى عبر النهر قتالاً كُلّل بالنجاح، ولم يستطع عمال بلخ ومرو الروذ وهراة وغيرها أن يثبتوا أمامه. وخضعت له طخارستان كلها، كما خضع له أيضاً العرب أنفسهم، وكانوا هناك يتألفون من الأزد وبكر بنوع خاص، وقد انضم إليه أيضاً جبغويه نائب ملك الترك في طخارستان العليا، كما انضم إليه أمير الخُتْل.

ولم يكن قد بقى في يد حكومة الأمويين (الطبري جـ ٢ ص ١٥٨٢) من مدن لم ينازعها عليها الحارث سوى مرو وأبرشهر، وكلاهما في غرب خراسان، وقد تضخم جيش الحارث بعد انتصاراته في طخارستان تضخماً كبيراً، وفي هذا الجيش اجتمع فرسان من العرب ورجّالة من جند الأعاجم، فتقدم الحارث إلى مرو ومعه جيش جرّار، وكان قد كاتب تميماً في مرو لأن أصله كان من هناك (الطبري جـ ٢ ص ١٨٩٠)، وكان عاصم يريد أن يتقهقر أمامه إلى أبرشهر، أي إلى أرض قيس، ولم يفلح رجاله في إقناعه بالثبات إلا بمشقة كبيرة، وكان قد اطمأن تماماً بعد أن حلفوا له بالطلاق والعتاق على الصدق في القتال. واستطاع عاصم أن يرد أول هجوم قام به الحارث، ولكنه لما بلغه إقبال أسد بن عبد الله القسرى ليحل محله على خراسان أوشك أن ينضم إلى الحارث، ولكن يحيى بن حُضّين رده عن ذلك، وكانت بكر في ذلك الوقت، مع أنها كانت مع الأزد في الحزب المعارض، قد غيرت اتجاهها ورأيها بقيادة هذا الرجل العاقل، لأن بكراً قد تبينت أن المصلحة العامة للأمة العربية كانت معرضة للخطر، وقد تميزت بكر عن غيرها في مقاتلة الحارث، فهزم الحارث مرة أخرى ورجع عبر النهر، وحاصر هناك مدينة ترمذ، وكانت مدينة هامة.

ويُذكر أن خراسان كانت في تلك الفترة خاضعة للخليفة مباشرة، وقد كان الخليفة نفسه قد عين عاصم بن عبد الله والياً عليها، ففعل عاصم ما كان سبباً في عزل هشام بن عبد الملك إياه عن ولايتها في أول سنة ١١٧هـ (٧٣٥ م)، وذلك أنه كتب إلى هشام[١] على سبيل الإخلاص في النصيحة: أن خراسان لا تصلح إلا أن تضم إلى صاحب العراق فتكون موادُّها ومنافعها ومعونتها في الأحدث والنوائب قريبة إليها نظراً لبعد الخليفة عنها، وتباطؤ غيائه لها. فعزله هشام، واغتنم ذلك خالدُ بن عبد الله القسرى، فعين أخاه أسد بن عبد الله والياً على خراسان، ولكن كان قد آن الأوان لكي تنتهي سيادة قيس في خراسان. وفي رواية أخرى[٢] أن هشاماً نفسه أمر خالداً أن يُعَين أخاه مكان عاصم، فاستطاع أسد بن عبد الله أن يَعُدَّ من الفخر لنفسه أنه أرسل إلى خراسان للمرة الثانية وفي ظروف عصيبة، وقد أثبت أنه كان أهلاً للثقة التي وضعت فيه، فاستخلف جُديعاً الكرماني الأزدى. وهو على كل حال لم يسلم نفسه للأطماع الحزبية لأهل اليمن، وخلَّى سبيل عمال الجنيد الذين كان عاصم قد حبسهم، وإن كانوا بحكم أنهم من قيس أعداءً لأسد بن عبد الله (الطبري جـ ٢ ص ١٥٨١ س ١٣ ــ ١٥).

وبدأ أسد قتاله للحارث في أرض ما وراء النهر، فأخضع هناك كثيراً من المدن التي كانت قد وقعت في يد الحارث، مستعملاً في ذلك السياسة والصلح أحياناً والسيف أحياناً أخرى ــ ويجوز أن سمرقند كانت من تلك المدن[٣].

(١) [راجع الطبري جـ ٢ ص ١٥٧٣ فما بعدها ــ المترجم].

(٢) [الطبري، جـ ٢ ص ١٥٨١ فما بعدها ــ المترجم].

(٣) لا يذكر أن سمرقند سقطت في يد الحارث ولا أن أسداً استردها، بل يذكر فقط أن أسداً ذهب إلى هناك وقطع الماء عن المدينة. ولكن لا يمكن أن نفهم من ذلك أكثر من عمل عدائي، ذلك أن الماء كان يأتي من وَرغسر حيث كان يوجد مركز خروج الأنهر، وكلمة ورغ معناها السكر، أما الكلمة سَرْ فمعناها هو معنى كلمة رأس اللغات السامية، وهي تدل على النقطة التي يبتدئ منها توزيع الماء بواسطة السكر [راجع الطبري جـ ٢ ص ١٥٨٦ ــ المترجم].

غير أن أسداً لم يفعل شيئاً مع الحارث لما كان الحارث أمام ترمذ، ولكن أهل ترمذ، مع أنهم عجم، دافعوا عنها دفاع الأبطال، حتى رأى الحارث أن ينصرف عنها قاصداً طخارستان، وتفرق عنه أنصاره وحلفاؤه.

وعند ذلك تحول أسد إلى طخارستان، وكانت هذه البلاد قد أخضعها قتيبة بن مسلم من قبل، ولكن لم يكن فيها ــ فيما عدا مرو الروذ ــ قاعدة للسيادة العربية ثابتة ثباتاً ما سوى مدينة بلخ، فدخلها أسد واتخذها داراً ونقل إليها الدواوين ونقل إليها من كان بالبروقان من الجند، وأقطع كل من كان له بالبروقان مسكن بقدر مسكنه، ومن لم يكن له مسكن أقطعه مسكناً ــ ويدل هذا على مقدار أهمية طخارستان في نظره. ولكنه خلط بين الجند ولم يجعلهم أقساماً (أخماساً) كما كانوا في البروقان من قبل غير مختلطين بالأعاجم، وإنما أراد بذلك أن يخلط بين الجند من مختلف القبائل ليتجنب تعصب بعضهم على بعض. وهو قد حافظ على ما كان بينه وبين الدهاقنة من مودة ــ وكان محبوباً عندهم من قبل ــ وذلك لكى يستطيع من طريقهم أن يؤثر في الطبقات الدنيا للشعب. وكلّف الرعايا الأعاجم بإعادة بناء مدينة بلخ، ولكنه أسقط قيمة العمل الذي بذلوه في ذلك من الخراج الذي كان مفروضاً عليهم، وعهد إلى برمك بالإشراف على البناء، وكان برمك دهقان النوبهار، وهو جد البرامكة الذين صار لأسرتهم شأن كبير فيما بعد(١). وعلى هذا فقد كان أسد يسعى إلى إيجاد روح التفاهم بين العناصر المتعادية وإلى مزجهم شيئاً فشيئاً في حدود معقولة.

وكان الحارث بن سريج قد هرب إلى طخارستان العليا لائذاً بأصهاره التغلبيين الذين كانوا في قلعة التبوشكان، ولكن أصهاره لم يريدوا أن يضحوا

---

(١) [راجع الطبري جـ ٢ ص ١٤٩٠، ١٥٩١ س ١٨ ــ ٢٠، والمؤلف لا يذكر أن نقل الجند كان في سنة ١٠٧هـ ــ المترجم].

بأنفسهم من أجله، فأخرجوه ومن كان معه ودخلوا في مفاوضات مع أسد. ولكن أسداً عرف من مفاوضين جاءوا إليه فغدروا بقومهم أن أهل القلعة ليس عندهم طعام ولا ماء وأن القلعة لا تكاد تصمد للدفاع، فأرسل الكرمانيَّ لمهاجمتها؛ فاضطر من فيها إلى التسليم بعد أن أجهدهم الجوع والعطش، وقُتل الأسرى (الطبري جـ ٢ ص ١٩٢٨)[١] وبيع النساء والأولاد — رغم أنهم من دم عربي — في سوق بلخ على من يزايد في شرائهم.

وفي سنة ١١٨هـ (٧٣٦ م)[٢] قام أسد بغزو الخُتّل في شمال نهر بلخ وفي مواجهة بلخ نفسها، وكانوا لم يتم إخضاعهم بعد، وكانوا أيضاً قد حالفوا الحارث بن سريج، وكان أميرهم يقيم في نواكث، فاستجاش بخاقان الترك طالباً نجدته، ولكن لما خرج الخاقان من سُويات متقدماً إلى خُشْوَارغ أخبر بذلك أسداً لكي يحذره، وكان الخاقان لا يريد النصر للترك بل كان يزاحم العرب. وبعد أن تردد أسد بعض التردد رأى أن يقفل راجعاً، ولكن بعد أن عبر النهر ظهر الأعداء على الضفة الأخرى، ثم ضربوا بكوساتهم وعبروا على دوابّهم وهي تنخر أشد النخير، ولكنهم لم يهاجموا الجيش الأساسي لأسد، بل هاجموا فرقة كان قد سرّحها أمامه بالأثقال والغنائم من الشاء والماشية حتى بلغت بطن وادٍ، فأصابها العدو واستطاع أسدٌ أن ينقذ الجند، وكان ذلك في آخر رمضان سنة ١١٨هـ[٣].

---

(١) [راجع أيضاً الطبري جـ ٢ ص ١٥٨٩ — ١٥٩١ — المترجم].

(٢) [يذكر الطبري ذلك في أحداث ١١٨هـ (جـ ٢ ص ١٥٩٣ فما بعدها) — المترجم].

(٣) ١١ اكتوبر سنة ٧٣٦ م وتاريخ السنة هنا يختلف سنة، ويذكر أن «يوم الأثقال» كان في سنة ١١٩هـ، ولكن لو حسبنا السنين من الخلف لتبين أن سنة ١١٨هـ هي الصحيحة.

ولا بد أنه قد سُرَّ بالنجاة بجلده إلى بلخ، فتغنى الصبيان بالفارسية بأغاني يغيظونه بها[١].

ولكن الخاقان لم يدع أسداً يستمتع بالهدوء، فذهب الخاقان إلى جبغوية الخَرلُخِيّ[٢] في شرق طخارستان، ويروى أن الحارث بن سريج ـ وكان يقيم هناك ـ قد استجلبه إلى طخارستان، فخرج في وسط الشتاء ومعه أتباعه وحلفاؤه متوجهاً إلى الغرب، وعلم أسد بخبر ذلك في ليلة الأضحى من سنة ١١٨هـ (١٩ ديسمبر سنة ٧٣٦ م)، فأمر برفع النيران على المدينة لكي ينجوا الناس بأنفسهم إلى بلخ، واستخلف الكرماني بن عليّ[٣] في المدينة وسار بنفسه من غير تردد، وأخذ معه من كان عنده من أهل الشام ـ لأنه كان قد صرف بقية الجند إلى أوطانهم في أول الشتاء ـ وقصد الخاقان. وكان الخاقان معسكراً غير بعيد من مدينة جوزجان. وكان قد بث الغارات في جميع النواحي، ولم يبق معه إلا أربعة آلاف رجل، فهاجمه أسد[٤]، فوجه فرقة قادها أمير الجوزجان من طريق كان يعرفه،

---

(١) [مثل:

أزختلان آمدى   بروتباه آمدى
بيدل فراز آمدى

ومثل:

أزختلان آمديه   برونباه آمديه
آبار باز آمديه   خشك نزار آمديه

لكن هذا أيضاً يذكر في تاريخ سابق (سنة ١٠٨هـ). أما ما نحن بصدده هنا فهو من حوادث سنة ١١٩هـ (راجع الطبري ج ٢ ص ١٤٩٢، ١٤٩٤، ١٥٩٣ ـ ١٦١٩) ويظهر أن ثم خلطاً بين حوادث ولايتي أسد على خراسان ـ المترجم].

(٢) خرلُخ قبيلة تركية (ابن خرداذبه ص ٣١) ويذكر في ايام قتيبة أن جبغوية كان رئيس الشاذ ورئيس طرخان نيزك الذي كان تابعاً للشاذ أو منضماً إليه ـ قارن ما أرسل إلى الخليفة في ذلك هو عند الطبري ج ٢ ص ١٦١٥.

(٣) [المقصود هو جديع بن علي الكرماني، وكلمة «بن علي» غير موجودة في الأصل الألماني، ولكنها موجودة في الطبري ج ٢ ص ١٦٠٥ ـ المترجم].

(٤) كان على ميمنة أسد الأزد وبنو تميم وبنو الجوزجان وأهل الشام من فلسطين وقنسرين وكان على ميسرته ربيعة وأهل حمص والأردن، وكان في المقدمة أهل دمشق والشرطة والحرس وغلمانه. وكان جند الشام بطبيعة الحال مع الأمير دائماً، ولم يكونوا يذهبون في الشتاء إلى =

وهاجم الخاقان من الخلف، فاضطره بذلك إلى الإسراع في الهرب، وأراد الخصيّ أن يحمل امرأة الخاقان، فأعجله العربُ، فلم يجد طريقاً لتجنب عار وقوعها في يد العرب، إلا أن يطعنها بخنجر. وظفر المسلمون بالمعسكر. فوجدوها تتحرك، ووجدوا القدور تغلي، فأطلقوا أسرى المسلمين الذين كانوا هناك ووقع في يدهم كثير من سبى الترك وغنائم لا تحصى من الشاء والدواب والدروع وغيرها من آنية الفضة، فبعث أسد بجوارى الترك إلى دهاقين خراسان[١] ليستنقذ من كان في أيديهم من أسرى المسلمين. وتلقّف أسدٌ خيلاً للترك كانت منصرفة لتغير على بلخ، فارتدت بعد أن كانت قد بلغت بيعة مرو الروذ.

وحال الشتاء دون المضي في مطاردة الخاقان، فمكث الخاقان عند جبغوية في طخارستان حيناً، ثم عاد إلى بلاده من طريق أشروسنة ومعه الحارث بن سريج. وبعد ذلك بقليل قتل أحد كبار رجاله، وهو كورصول الترقشى الذي يرد ذكره كثيراً، وعلى أثر ذلك ظل الترك في خلاف فيما بينهم[٢]، وتركوا العرب ينعمون بفترة من الهدوء.

وقد أمر أسد، بعد أن عاد إلى بلخ[٣]؛ بالصوم شكراً لله لما فتحه عليه،

= أوطانهم كما يفعل عرب خراسان. وكان مع الخاقان الحارث بن سريج وأصحابه (من أهل السغد والبابية) وملك السغد وأمير الشاش وخرابغرة من أشروسنة (وهو جد أفشين كاوس المشهور) وصاحب الختل وجبغوية. أما ملك السغد فربما أنه صاحب أشتيخن الذي تبع هو وأشكند نسف الخاقان للحرب في بلاد الختلان، على حين أن صغان ــ خداه كان يحارب في صفوف أسد، وهكذا كان العجم يحاربون في الجانبين، ولكن يلوح مما جاء في الطبري (جـ ٢ ص ١٦١٣ س ٢ فما بعده) كأنما لو كان خرابغرة قد بقى في وطنه أشروسنة، وقد كان في قلبه معادياً للخاقان.

(١) يفسر فان فلوتن (ص ٢٥ هامش ٢) هذا الخبر البسيط (الطبري جـ ٢ ص ١٦١١) تفسيراً سيئاً ــ راجع كتابه ص ٢٥ هامش رقم ٢.

(٢) [راجع فيما تقدم الطبري جـ ٢ ص ١٥٩٣ ــ ١٦١٤ ــ المترجم].

(٣) [راجع الطبري جـ ٢ ص ١٦١٥ قارن ص ١٦١٤ ــ المترجم].

ولما بلغ خبر الانتصار على الخاقان إلى هشام في دمشق لم يكد يصدقه، وأيّده في ذلك من كان عنده من قيس حسداً منهم لأسد. ولم يكن هشام يتلقى من خراسان من قبل سوى أخبار النكبات، فطلب توجيه مقاتل بن حيّان النبطي من خراسان إليه، وكان مقاتل رجلاً صادقاً، فقصّ على الخليفة أخبار غزو أسد بلاد الخُتّل وما كان من تطور في القتال حتى استباح المسلمون عسكر خاقان وأجلَوْه عنه، وكان هشام يستمع إلى مقاتل وهو متكئ، فلما أخبره مقاتل باستباحة عسكر خاقان استوى جالساً.

وفي صيف سنة ١١٩هـ (٧٣٧ م) استأنف أسدٌ الحربَ مع الخُتّل[١]، ولم يكن الترك قادرين على مساعدتهم، هذا إلى أن الختل كانوا فيما يظهر مختلفين فيما بينهم، وذلك أن بدر طرخان خرج من أرض الباميان واغتصب الحكم (قارن الطبري ج ٢ ص ١٦٩٤) وقد وقع هذا الغاصب من طريق غدر شائن في يد أسد، فأسلمه إلى رجل من الأزد كان له عنده ثأر لكي يقتله[٢]. ولكن أسداً مع هذا لم يفعل كثيراً، بل اكتفى بتوجيه خيله في غارات في أودية بلاد الختّل، وفي الشتاء التالي لذلك، في أول سنة ١٢٠هـ، عاجله الموت بغتة، ولكن موته نجّاه في الحقيقة من الوقوع في عواقب سقوط أخيه خالد[٣].

---

(١) [راجع فيما يلي الطبري ج ٢ ص ١٦٢٩ ـ ١٦٣٣ ـ المترجم].

(٢) كان أسد قد أعطاه الأمان وجعل له عهد الله والنبي والخليفة والمسلمين، فلما لم يحافظ أسد على عهده قذف بدر طرخن بحجر في الهواء وقال: هذا عهد الله، ثم قذف ثلاثة أحجار أخرى قائلاً: هذا عهد أمير المؤمنين وعهد المسلمين. [الحقيقة أن أسداً لم يغدر الغدر الذي يصفه المؤلف، وكل ما في الأمر أنه تساهل جداً مع بدر طرخان، فلما أراد أن يتدارك الأمر وأرسل رجلا وراء بدر طرخان، ظن هذا أن أسداً نقض العهد فقال ما قال، فعاقبه أسد [المترجم نقلا عن الطبري ج ٢ ص ١٦٢٩ فما بعدها].

(٣) عزل خالد في جمادى الأولى سنة ١٢٠هـ (مايو سنة ٧٣٨ م)، ولكنه تلقى خبر موت أخيه وهو لا يزال في منصبه (الطبري ج ٢ هي ١٦٥٠ س ١٢). وفي رجب سنة ١٢٠هـ خلف نصر بن سيار أسداً على ولاية خراسان، وكان بينهما فترة أربعة أشهر =

وكان كبار العرب وكبار العجم يجلّونه فيفدون إليه ويقدمون له الهدايا القيمة، وقد قدم إليه في يوم المهرجان، فيمن قدم إليه بالهدايا، خراسانُ، دهقان هراة، فقام بين يدي أسد خطيباً وبيّن من كريم صفاته وشجاعته وأعماله العظيمة ما رفعه به إلى السماء السابعة(١). ثم مرض أسد، وأفاق إفاقةً، فخرج يوماً، فقُدِّمت له كمثرى، وأراد أن يتلطف بخراسان، دهقان هراة، فرمى إليه بواحدة وكان في جوف أسد فيما ذكر، دُبَيْلَةٌ، فانقطعت عند ذلك ومات ــ هذا ما يحكى، ولكن ما يذكر من أن ذلك كان بمناسبة عيد المهرجان فهو غير صحيح، وهو يزيد الشك في القصة التي تشبه في ذاتها ما يقال في الأساطير(٢).

٦ ــ وكان سقوط خالد بن عبد الله القسرى، الذي ظل أميراً على العراق سنين طويلة، فاتحة الفترة الأخيرة المحملة بالكوارث والتي انتهت بسقوط الدولة الأموية؛ فقد خلفه على العراق والٍ قيسيٌّ لحماً ودماً، متعصبٌ لقيس، وهو يوسف بن عمر، من أسرة الحجاج، ولا شك أنه لم يكن شيء أحبَّ إليه من أن يعين على خراسان والياً من قيس، لولا أن هشام بن عبد الملك حال دون ذلك وعيّن نصر بن سيار خلفاً لأسد، وكان نصر من ذوى الأسنان القلائل جداً الذين ظهروا في تاريخ تلك الحقبة، ولم تؤثر سنوه الكثيرة في حدة ذهنه ويقظته، كما تشهد بذلك أفعاله، بَلْهَ القصائد التي ظل ينشئها حتى أواخر أيامه. وكان

= الطبري جـ ٢ ص ١٦٣٨). وعلى هذا يكون قد مات في صفر سنة ١٢٠هـ (فبراير سنة ٦٣٨ م. أما الرواية القائلة بأنه مات في يوم عيد المهرجان فلا يمكن الأخذ بها، لأن ذلك العيد وقع في الخريف، ولا يمكن أن يصلح خريف ١١٩ ولا خريف ١٢٠هـ تاريخاً لذلك.

(١) [يجد القارئ هذه الخطبة عند الطبري جـ ٢ ص ١٦٣٦ ــ ١٦٣٧، وهي تدل على فكرة أحد دهاقنة إيران عن أنفسهم وعن العرب ــ المترجم].

(٢) [يؤخذ من الطبري (جـ ٢ ص ١٦٣٨) أنه قد انقضت فترة بين يوم المهرجان. وموت أسد ــ المترجم].

قد نشأ في أرض خراسان وشاب وهو في خدمة الدولة، وكان مما دعى الخليفة إلى إيثاره على غيره أنه لم تكن له عشيرةٌ قوية يضطر إلى أن يستند إليها[١]، وذلك أنه لم ينتسب إلى أي من القبائل الكبرى في خراسان، بل كان من كنانة التي كانت قليلة العدد هناك. ولما كان كنانياً فقد كان من الطبيعي أن يميل إلى تميم، لأن تميماً وكنانة ينتسبان جميعاً إلى خِنْدِف، فعزل العمالَ الذين قد عينهم سلفُه وعدوُّه أسد بن عبد الله ــ ولكن من غير أن يعذِّبهم ــ وعين مكانهم خِنْدِفيّين أي عمالاً من تميم بنوع خاص[٢]. وإلى جانب المدن الأربعة[٣] التي كانت في خراسان حواضر للدولة، كانت هناك بلخ وخوارزم وسمرقند (الطبري جـ ٢ ص ١٦٦٤)، فنقل نصر مقر الحكومة من بلخ وأعاده إلى مرو، أي من طرف أرض السيادة العربية إلى وسطها.

وقد قام نصر في الفترة الأولى من ولايته بمحاربة الترك، وكان هو البادئ بمهاجمتهم، فخرج من بلخ وغزا ما وراء النهر من ناحية باب الحديد. ومر بمدينة وَرَغْسَر قاصداً سمرقند، وهناك وقع في يده اثنان من دهاقنة بخارى كانا قد أسلما على يديه، ولكنهما ثارا، اعتقاداً منهما بأن ظلماً وقع عليهما، وأجمعا على الفتك بواصل بن عمرو القيسي عامل بخارى وببخاراخذاه رئيس المسلحة. حتى إذا كان نصر يستمع إلى أمرهما من بخاراخذاه، قالا: نموت كريميْن؛ فشد أحدهما

---

(١) [لما استشار هشام بن عبد الملك أصحابه في رجل يصلح لولاية خراسان استبعد ممن رشحوا له من كان صاحب شراب أو فيه تيه وعظمة أو كان موتوراً أو غير عفيف أو كان منتسباً إلى قبيلة لا يعتمد عليها في سد الثغور وهكذا، فلما قيل له إن نصر بن سيار ليست له عشيرة، قال: أنا عشيرته ــ المترجم نقلا عن الطبري جـ ٢ ص ١٦٦٠ فما بعدها].

(٢) [كان هشام بن عبد الملك لا يميل إلى قيس ولا إلى ربيعة (الطبري جـ ٢ ص ١٦٦٢، ١٦٦٣)، وكذلك لم يكن نصر بن سيار يميل إلى قيس. ويذكر الطبري (جـ ٢ ص ١٦٦٤) أن نصراً ظل أربع سنين لم يستعمل فيها إلا مضريّاً ــ المترجم].

(٣) [راجع مثلا ما تقدم ص ٣٩٦ ــ المترجم].

على واصل فطعنه في بطنه بسكين، فضربه واصل بسيفه ضربة أطارت قحف رأسه، فمات ومات واصل. وأما الثاني فطعن بخاراخذاه، ولكن لجوزجان بن الجوزجان شدَّ عليه فقتله. والمظنون هو أن الظلم الذي شكا منه هذان الدهقانان هو إلزامهما بدفع الجزية مع أنهما كانا مسلميْن. وبعد أن فتح نصر سمرقند توجه إلى أشروسنة، وقد زاد جيشه بمن انضم إليه من الأعاجم، ثم خرج إلى الشاش، وكان في الشاش في ذلك الوقت كورصول، قاتل الخاقان، وكان أميراً على جماعة تبلغ أربعة آلاف قُبّة، فوقع في يد العرب بعد اشتباك، وقتله نصر وصلبه على شاطئ النهر. وكان الحارث بن سريح يقاتل العرب في صفوف الترك، وكان معه عرّادتان، فلم يرض أن ينصبهما تلقاء تميم، أن تميماً كانوا من قبيلته، وانتهى الأمر بأن صالح نصر أهل الشاش واشترط عليهم يُخْرِجوا الحارث بن سريج، وبعد ذلك صار نصر إلى فرغانة، ولكنه اكتفى بأن صالح أهلها وقفل راجعاً دون أن يسير إلى ما وراء نهر الشاش. ومن الجائز أن تكون هذه الحملة قد تطلبت أكثر من عام من الزمان، أما المدائنى فهو يجعلها ثلاث حملات، وهذا غير معقول[١]، وهو إنما ينوّع في الروايات ويجمع كل التفاصيل الممكنة ويهتم خاصة بذكر ما هو من قبيل الحكايات العجيبة؛ أما البلاذرى (ص ٤٧٩) فلا يذكر لنصر إلا حملة واحدة، وهي حملة أشروسنة، ويقول إنها انتهت نهاية غير موفَّقة[٢]. أما الأعمال الرائعة التي ينسبها إلى نصر ا. موللر (A. Müller, 1, 412) متابعاً لڤايل (Weil, 1, 632)، فلا شك أن نصراً لم يعملها، ولكنه استطاع أن يرغم الترك في بلاد الشاش على التخلّى عن الثائر المهيِّج، الحارث بن سريج، وعلى إخراجه من بلادهم، وإن كانوا لم يسلموه

---

(١) يقول المدائنى إن نصراً توجه إلى: أ — باب الحديد ورجع، ب — وإلى سمرقند ورجع، ج — وإلى الشاش، ولكن أ وب مجرد مراحل لـ ج.

(٢) والقول بأن تاريخ ذلك كان في عهد مروان بن محمد بعيد جداً عن الصواب.

له. وقــد خرج الحارث إلى الفارياب وأقام حيناً إلى أن اندلعت نـــار الحرب الأهلية بعد مقتل يزيد بن الوليد. وكذلك سمح نصر لأهل السغد الذين كانوا قد خرجوا من ديارهم، ولم تصبح لهم في بلاد الشاش وفرغانة شوكةٌ بعد الاضطرابات التي أعقبت مقتل الخاقان، بأن يعودوا إلى أوطانهم، ولكنهم كانوا قد اشترطوا للعودة شروطاً كرهها وأنكرها أمراء خراسان، مثل عدم معاقبة من ارتدّ منهم عن الإسلام وعدم أخذهم بما عليهم لبيت المال ونحو ذلك. ولم يرض نصر بهذه الشروط، ولم يرض بها هشام بن عبد الملك، إلا تألّفا لأهل السغد وتجنباً لنكايتهم في المسلمين (الطبري جـ ٢ ص ١٧١٧ ــ ١٧١٨).

وإصلاح نظام الخراج الذي قام به نصر من شأنه أن يلقى ضوءاً على سياسته الداخلية، ويروى المدائنى (الطبري جـ ٢ ص ١٦٨٨ فما بعدها) أخبار ذلك. وقد أعلن نصرٌ برنامج هذا الإصلاح في خطبة خطبها في مسجد مرو فقال: «ألا إن بهرامسيس كان مانح المجوس، يمنحهم ويدفع عنهم ويحمل أثقالهم على المسلمين؛ ألا إن إشُدَاد بن جريجور[١] كان مانح النصارى؛ ألا إن عقيبة اليهودي كان مانح اليهود يفعل ذلك؛ ألا إنى مانح المسلمين، أمنحهم وأدفع عنهم وأحمل أثقالهم على المشركين؛ ألا إنه لا يُقبل مني إلا توفّى الخراج على ما كُتِبَ ورُفع[٢]، وقد استعملت عليكم منصورَ بن عمر بن أبى الخرقاء، وأمرته بالعدل عليكم؛ فأيما رجل منكم من المسلمين كان يُؤخذ منه جزيةٌ من رأسه

---

(١) هكذا تجب قراءة الأسماء المسيحية التي يصعب التصرف عليها مكتوبة بالعربية.

(٢) إن القراءة الصحيحة موجودة في هامش ص ١٦٨٨ مع علامة V (توفير بدلا من توفى)، [نجد في المتن عند الطبري: «توفى الخراج على ما كتب ورفع». وبحسب القراءات التي ذكرها الناشر في الهوامش يمكن قراءة المتن هكذا «توفى الخراج على ما كتب ودفع» ــ ومن البين أن قراءة المتن صحيحة وإن كانت القراءة بحسب الهوامش غير مستحيلة ــ المترجم].

أو ثُقِّل عليه في خراجه وخُفِّف مثل ذلك عن المشركين فَلْيَرفَعْ ذلك إلى منصور بن عمر، يحوله عن المسلم إلى المشرك». ويروى أنه لم تأت الجمعة الثانية حتى أتى ثلاثون ألف مسلم، كانوا يؤدون الجزية عن رءوسهم، وثمانون ألف رجل من المشركين قد أُلقيت عنهم جزيتُهم، فَحُوِّل ذلك عليهم وألقِيَ عن المسلمين، ثم صنّف نصر الخراج حتى وضعه مواضعه، ثم وظّف الوظيفة التي جرى عليها الصلح، وكان يؤخذ من مرو في أيام بنى أمية مائة ألف درهم سوى الخراج.

وعلى هذا صارت الجماعات الدينية غير الإسلامية هي الجماعات التي تدفع الجزية، وكان ربّان اليهود يأخذ الجزية من اليهود، وأسقف النصارى يأخذها من النصارى، والمرزبان[١] يأخذها من المجوس، وكان المجوس بطبيعة الحال هم الغالبية الكبرى، وإن كان عدد النصارى لم يكن قليلا[٢]. ولكن كيف كان رؤساء الجماعات الدينية هؤلاء قد استطاعوا أن يحوّلوا الجزية من المجوس والنصارى واليهود ويلقوها على كاهل المسلمين تحت نظر الحكومة العربية؟ إن كلام المدائنى في هذا الموضوع غير مفهوم، ومما لا يمكن تصديقه أبداً أن تكون الجزية

(١) وإذن فالمرزبان في هذه الحالة، هو رئيس المجوس ـ قارن الطبري جـ ٢ ص ١٤٦٢ س ١٣.

(٢) كان النساطرة السريان قد انتشروا في الشرق انتشاراً بعيداً، كما هو معلوم، وقد وضع أسقف أو مطران مرو جسد يزدجر آخر ملوك الساسانيين في ناووس (الطبري جـ ١ ص ٢٨٧٤ فما بعدها وص ٢٨٨١ و٢٨٨٣ ـ قارن جـ ٢ ص ١٤٤٨ س ٥ وص ١٥٤٣ س ١). وتذكر منازل للرهبان ويذكر مكان القديس ماسَرجْسان عند مرو، وتذكر بيعة في مرو أيضاً وبيعة عند مرو الروذ (الطبري جـ ٢ ص ١٥٧٢ س ٢ وص ١٩٢٥ س ١٣ وص ١٩٥٧ س ١٤ وص ١٥٦٩ س ١٤ وص ١٦١٢ س ١١) وفي قربة النصرانية خلف نصر بن سيار زوجته المرزبانة، وهو يحاول الهروب من مرو (الطبري جـ ٢ ص ١٩٩٥ س ١٠ وقارن ١٨٨٩ س ٦). وكان في طخارستان موضع هام يسمى اليهودية.

قد ألقيت عن ثمانين ألفاً كان يجب عليهم أن يؤدوها، وأن تُلقى على ثلاثين ألفاً لا يجب عليهم أداؤها؛ فلا بد أن يكون الموقف هنا بحسب كا ما هو معروف من المواقف المشابهة له، هو أن دخول غير العرب في الإسلام كان لا يخرجهم عن تبعيتهم للجماعة التي كان عليها أن تؤدى الجزية. وكانت الجزية بحسب ما جرى عليه الصلح من قبل قد تقررت على مقدار ثابت لا يتغير، بحيث إن لم يدفعها الداخلون في الإسلام وجب على بقية الجماعة التي ينتمون إليها أن تدفعها عنهم حتى انتهى الأمر بأن أصبح جمع ذلك المبلغ المحدّد غير ممكن، وعلى هذا فإن واجب أداء الجزية كان قد صار عبثاً على من وقع على كاهلهم بمقتضى شروط الصلح، يورثونه أبناءهم من بعدهم، حتى لو دخل هؤلاء الأبناء في الإسلام بعد ذلك. وكان الرؤساء المحليون من غير العرب يعملون بهذا المبدأ بإذن من الدولة العربية، وقد تبيّن أن ما حاوله عمر بن عبد العزيز قبل غيره من إحداث تغيير أساسي في هذا الوضع كان شيئاً لا يمكن تنفيذه، ولكن تبين في الوقت نفسه أن مما يخالف روح الإسلام أن يبقى الداخلون فيه ــ وهم بحكم إسلامهم مواطنون في الدولة التيوقراطية ــ مُثْقَلين بعبء الجزية، شأنهم شأن غير المسلمين ممن ليسوا مواطنين في الدولة الإسلامية وإنما كانوا يتمتعون بتسامح المسلمين معهم، فكان لا بد من التمييز بين الفريقين، ولكن بشرط أن لا ينقص مال الجزية عن المبلغ المقرر لها، وقد قام نصر بذلك على النحو الذي لا بد منه على كل حال. وكان الخراج من قبل يأتي من ضرائب متنوعة. وكان يشتمل على الخراج الذي يدفعه ملاك الأرض أو من يقوم مقامهم، ولما كانت كل أنواع الضرائب تسمى خراجاً فلم يكن هناك سوى ضريبة واحدة تسمى الخراج أو الجزية، وكان معنى هاتين الكلمتين حتى ذلك الحين واحداً (الطبري جـ ٢ ص ١٥٠٧ فما بعدها). أما في عهد نصر بن سيار فقد وضع نظام يقضى بأن يُجبى الخراج بالمقدار الثابت الذي تقرر على المدن والنواحي، كل على حدتها، ومن الأرض وحدها، وعلى

هذا حُدِّد مقدار الخراج من جديد، وصار يؤخذ من جميع ملاك الأرض بحسب ما يملكونه، سواء كانوا مسلمين أو كانوا رعايا غير مسلمين خاضعين للدولة الإسلامية[١]. ولما كان الخراج يُؤخذ عن عين الأرض لا عن الشخص الذي يملكها، فلم يكن في ذلك ما يُشعِرُهُ بالصغار. وقد حدث مع ذلك جنباً إلى جنب فصلٌ تام بين خراج الأرض ــ فأصبح وحده هو الذي يسمى خراجاً ــ وبين ضريبة الرأس التي بقى لها اسم الجزية. أما ضريبة الرأس، التي كانت تختلف في المقدار وكان ما يتحصل منها يقل عاماً بعد عام كلما زاد عدد الداخلين في الإسلام، فقد صارت باباً يمكن الاستغناء عنه في الخراج الثابت للدولة، وخصوصاً أنها أسقطت عن المسلمين بالكلّيّة وأصبحت لا تؤخذ إلا من غير المسلمين منهم جميعاً، بقصد تكليفهم ما يبين قلة قيمتهم الشخصية[٢]. وتتجلى لأول وهلة صلاحية النظام الجديد الذي وضعه نصر، إذا قورن بذلك النظام الذي كان من قبل يُعْتَبر هو النظام المتفق مع الشرع، والذي بمقتضاه كان المسلمون يُعْفَوْن من دفع الخراج. وهكذا ظل الفرق بين معاملة الدولة للمسلمين وغير المسلمين قائماً، أما المسلمون، عرباً كانوا أو موالى، فقد صاروا من حيث المبدأ والقانون يقفون على قدم

---

(١) انتقلت الأرض إلى أيدي المسلمين، لا من طريق دخول مالكيها السابقين في الإسلام فحسب، بل أيضاً من طريق حصول العرب عليها وشرائهم لها. ويظهر مما جاء في الطبري (جـ ٢ ص ١٠٢٩ س ٦) أنه حتى قبل عهد نصر بن سيار كان على العرب الذين اقتنوا أرضاً أن يدفعوا خراجها، وأن يعطوه إلى الدهاقين، وكانوا بطبيعة الحال يدفعون الخراج عنها.

(٢) [هذا ما يقوله المؤلف، والحق أن مشكلة دفع غير المسلمين للجزية في الدولة الإسلامية قد قام حولها كلام كثير، مع أنها ليست شيئاً عجيباً في عصرها، وما هي إلا بمثابة ضريبة حماية في مقابل دفاع الدولة الإسلامية من غير المسلمين فيها وضمان حقوقهم وإعفائهم من الواجبات الحربية ــ المترجم].

المساواة[١]، وعلى هذا الوجه أمكن تفادى النقص في الدخل الثابت للدولة، وذلك أن تفاوت مقدار ما كان يتحصل من مال الجزية ــ وهو لم يكن كثيراً ــ وكذلك تناقصه المستمر شيئاً فشيئاً لم يكن له شأن له كبير. ومن الراجح جداً أن النظم التي وضعها نصر لم تقتصر على ناحية مرو، بل شملت كل الولاية فيما دون نهر بلخ وفيما وراءه، لأن هذه النظم لم تكن شيئاً خاصاً، وقد عُمِل بها في جميع أنحاء الدولة الإسلامية التي كانت أحوالها مشابهة لأحوال خراسان وما لحق بها، وصارت هذه النظم هي القانون الصحيح الذي زعم الفقهاء فيما بعد أنه كان موجوداً من أول الأمر، مع أنه في الحقيقة لم يتكون إلا شيئاً فشيئاً. وهذا هو السبب في أن المدائنى تأثر بمزاعم المتأخرين فلم يستطع أن يفهم ما وجده نصر وما ألغاه وفي أنه يتصور في إصلاحات نصر أشياء عجيبة وجد أنها تخالف القانون بعض المخالفة. على أن المدائنى يذكر الوقائع صحيحة: وهي أن المقدار الثابت للخراج وُظِّف على جميع ملاك الأرض حتى على المسلمين منهم، أما الجزية فقد أسقِطَت عن المسلمين وفُرِضَت على غير المسلمين وحدهم.

وربما كان من الممكن على أساس هذه المساواة بين المسلمين أن يتحقق توازنٌ دائم بين العرب والأعاجم، ولكن لم يكن هناك وقت لذلك، فقد عاد العرب في خراسان إلى التنازع وإهلاك بعضهم بعضاً، وكانت الثورة في الشام هي التي بعثت في هذه المرة على الثورة في خراسان، وكانت تلك الثورة ردَّ فعل من جانب الحزب الثائر على طغيان حزب قيس في أيام الوليد بن يزيد. وجاء الوليد بن يزيد بعد هشام في أول ربيع الآخر سنة ١٢٥هـ (فبراير سنة ٧٤٣ م) فأقرّ نصراً في منصبه أول

---

(١) ولكن بطبيعة الحال كان الأعاجم يدفعون في الواقع أكثر مما يدفعه العرب لأن معظم الأرض كانت في أيدي الأعاجم وخصوصاً في أيدي الدهاقنة الذين كانوا من جانبهم يمتصون دم الزراع. ولكن دفع الأعاجم أكثر مما يدفعه العرب لم يكن والحالة هذه ظلماً.

الأمر[١]، ولكنه بتأثير رئيس قيس، وهو يوسف بن عمر[٢] أمير العراق، عزله بعد فترة ما، ودعاه إلى دمشق وكلّفه أن يحضر معه أشياء كثيرة من الجوارى والبراذين والخيل والآنية والصنوج والدفوف وغيرها من الأشياء الجميلة، وأن يقدم عليه في وجوه أهل خراسان. فتباطأ نصر في الاستعداد لذلك متعمداً، حتى كان لا يزال بخراسان في يوم النيروز سنة ١٢٠هـ[٣]، لما بلغه خبر مقتل الوليد، فلم يعترف بيزيد بن الوليد الذي ثار على الوليد بن يزيد، ولا أعترف بأميره الذي بعثه إلى العراق، أو على الأقل لم يعترف نصر اعترافاً عملياً، بل دعا القبائل إلى مبايعته أميراً على العراق حتى تنتهي الفتنة وتتفق الكلمة على خليفة وحتى يأتي أمير من قِبَله. وقد انضمت إليه الأزد وربيعة، مع أنهم كانوا حتى ذلك الحين غير راضين عنه، وصار نصر لا يقصيهم عن المناصب كما كان يفعل من قبل، وقد عمل في الحقيقة عن جمع كلمة عرب خراسان حتى يعتبروا أن الحكومة حكومتهم جميعاً ولا يعتبروها شيئاً يتنازعون عليه، وقد سهّل عليه ما أراده من اتخاذ موقف الحياد وعدم الميل إلى حزب دون حزب أنه كان كنانياً لا ينتسب إلى المجموعات الكبرى للقبائل، ولكن الحكومة كانت في نفس الوقت في يده لأنه على رأسها، ويروى أن شاعراً موالياً له تغنى باسمه قائلاً: نحن بربيعة نكبح جماع

(١) [راجع في هذا وفيما يلى الطبري جـ ٢ ص ١٧٦٤ ــ ١٧٦٨، ١٨٤٥ ــ ١٨٥٠، ١٨٥٥ ــ ١٨٦٦ ــ المترجم].

(٢) وكان يوسف بن عمر نفسه هو وقيس قد دسوا لنصر سيار (سنة ١٢٣هـ) عند هشام بن عبد الملك ولكنهم أخفقوا.

(٣) قتل الوليد بن يزيد في أواخر جمادى الآخرة سنة ١٢٦هـ (منتصف إبريل سنة ٧٤٤)، وقد علم نصر بقتله سراً من رجل كان من عمال البريد قبل وصول الخبر الرسمى بعشرة أيام، وذلك أن كلمة «السكك» التي جاءت عند الطبري (جـ ٢ ص ١٨٤٥ س ٢١ ــ قارن ١٨٤٩ س ١٠) هي سكك البريد ــ قارن الطبري (جـ ٢ ص ١٧٠٩ واللسان جـ ٤ ص ٥٣). ومن العسير أن يكون الخبر وصل إلى نصر في أقل من شهر، وعلى هذا فإن النيروز لم يقع في تلك السنة قبل منتصف مايو ــ انظر ما تقدم ص ٤٣٨ هامش رقم ٢.

قيس وبالأزد نكسر شوكة تميم فيكون الأمر لكنانة[1]. فغضب نصر غضباً شديداً على هذا الشاعر المُفْسِدِ المجرد من كل فهم سياسي، لأنه بما قال لا يخدم إلا أغراض خصوم نصر.

ولكنه لم يمض وقت طويل حتى انتفضت الأزد على نصر ومعها ربيعة؛ ويجب ألا ننسى أنهم بحكم يمانية لا بد أن يقفوا في جانب يزيد بن الوليد ومن يؤيده من قبائل كلب. ولما لم يدفع لهم نصر أعطياتهم نقداً؛ بل من آنية الذهب والفضة التي كان قد أعدها للوليد بن يزيد، جاهروا بالثورة. وكان على رأسهم جُدَيْع الكرماني من الأزد، وجهر جديع بأنه كان يرمى من وراء طاعته للأمويين أن يطلب بثأر بني المهلب (الطبري جـ ٢ ص ١٨٥٨ س ١١) الذين قتلهم الأمويون قتلا لا رحمة فيه وهو بذلك قال كلمة كان لها صدىً في قلوب الأزد جميعاً: وذلك أنهم استطاعوا أيام المهلب وأولاده أن «يأكلوا» خراسان، ولم يتمكنوا من ذلك بعد أيام المهالبة، ولم ينالوا في أيام أسد بن عبد الله ما كانوا يريدون. وقد استطاع نصر أن يقبض على الكرماني نفسه وأن يحبسه في قهندز مرو في آخر رمضان سنة ١٢٦هـ (منتصف يوليه سنة ٧٤٤ م)، ولكنه هرب من الحبس بعد شهر وذهب إلى موضع بجهة مرو، وهناك اجتمع إليه جيش من الأزد وربيعة. وخرج نصر لقتاله، ولكن لم يشتبك الفريقان وأشفق كل منهما من ذلك، وبدأت بينهما مفاوضات للصلح، لكنها لم تؤد إلى نتيجة، لأن الكرماني كان يكره نصراً كرهاً عميقاً ولم يرد أن يعاهد نصراً لأنه لم يكن يأمنه.

وكانت الطامة الكبرى خروج الحارث بن سريج من بلاد الترك وظهوره

---

(١) [هذا معنى ما يذكره المؤلف وهو لم يذكر المصدر الذي اعتمد عليه حتى نستطيع ذكر كلام الشاعر بنصه ــ المترجم].

على المسرح من جديد — وربما كان ذلك قبل آخر سنة ١٢٦هـ، لأن يزيد بن الوليد — وكان قد آمنه[١] — مات آخر سنة[٢] ١٢٦هـ. ولما كان الحارث عدواً للكرماني فإن نصراً دعاه لكي يخرج من سمرقند[٣] — وكان قد نزلها أول الأمر — ويأتي إلى مرو، فأقبل الحارث إلى مرو في آخر رمضان سنة ١٢٧هـ (أول يوليه سنة ٧٤٥[٤] م). وعلى كثرة أنواع التكريم والهدايا التي غمره بها نصر فإنه لم يلزم جانب نصر، وظل متمسكاً بمطالب المرجئة كما كان يفهمها من الناحية العملية؛ وهو طالب بها نصراً أيضاً[٥]. وقد انضم إلى الحارث ثلاثة آلاف رجل من قبيلته تميم. والحق أن نصراً أفرط في التساهل مع

(١) [راجع الطبري جـ ٢ ص ١٨٦٦ — ١٨٦٩، ١٨٨٨ — ١٨٩٠، ١٩١٧ فما بعدها — المترجم].

(٢) كانت أم يزيد بن الوليد أميرة من أميرات السغد (الطبري جـ ٢ ص ١٨٧٤)، وربما كان من أجل ذلك ميالا إلى أهل السغد [ولكن الذي يقوله الطبري هنا هو أن أم يزيد كانت أم ولد اسمها شاه آفريد بنت فيروز بن يزدجر بن شهريار بن كسرى — المترجم].

(٣) [يقول الطبري (جـ ٢ ص ١٨٨٨) إن الحارث وافى مرو لثلاث بقين من جمادى الآخرة سنة ١٢٧هـ — المترجم].

(٤) [وفي رواية أن نصراً أراد مصالحة الحارث دون إذن أمير العراق ودون إذن الخليفة، وذلك خوفاً من مجيء الحارث إليه هو وأصحابه والترك معه وطمعاً في محالفته ومناصحته — الطبري جـ ٢ ص ١٨٦٧ — ١٨٦٨ — المترجم].

(٥) [أطلق نصر أبناء الحارث ورد له أمواله وأجرى عليه خمسين درهما كل يوم وأنزله قصراً، ولكن الحارث باع ما أهدى إليه وفرقه في أصحابه، وعرض عليه نصر أن يوليه ولاية وأن يعطيه مائة ألف دينار فلم يقبل، وأرسل إلى نصر يقول له: «لست من هذه الدنيا ولا من هذه اللذات ولا من تزويج عقائل العرب في شيء وإنما أسأل كتاب الله عز وجل والعمل بالسنة واستعمال أهل العدل والفضل، فإنْ فعلت ذلك ساعدتك على عدوك»، وأرسل الكرماني يقول: «إن أعطاني نصر العمل بكتاب الله وما سألته من استعمال أهل العدل والفضل عضدته وقمت بأمر الله، وإن لم يفعل استعنت عليه وأعنتك إن ضمنت ما أريد من القيام بالعدل والسنة». وظل الحارث على مبدئه الذي ثار من أجله قبل ذلك، وقد قال لنصر: «خرجت من هذه المدينة منذ ثلاث عشرة سنة إنكاراً للجور، وأنت تريدني عليه». ولكن ليس هذا مبدأ خاصاً للمرجئة، بل هو أولى أن يكون رأى الخوارج. راجع فيما يتعلق بالنصوص (الطبري جـ ٢ ص ١٨٨٨ — ١٨٩٠، ١٩١٩) — المترجم].

هذا المنافس الخطر الذي جلبه على نفسه[١]، وكان الحارث من أول الأمر وضع نفسه في خدمة قضية الأعاجم في أرض الثغرين، وكتب لهم كتاباً بسيرته وسياسته وأغراضه في إحقاق الحق والعدل، وكان رجاله يقرأون ذلك في الطرق والمساجد، وقد رضى نصر أن يبعث إلى ثغرى سمرقند وطخارستان من يرضاه أصحاب الحارث، كما عرض على الحارث أن يوليه ما وراء النهر. ولكن ذلك لم يغن نصراً شيئاً، لأن الحارث لم يكن يطمئن إليه ولا يثق في أنه سيعادى حكومة الأمويين ذلك العداء الحاسم الذي يملأ نفس الحارث ومن تحت رايته السوداء من الأتباع. هذا إلى أن الحارث لم يكن من غير شك يريد بدافع الأنانية أن يسمح لنصر بأن يكون له سلطان إلى جانب سلطانه، ويروى أن الحارث ونصرا تناظرا فتراضيا أن يحكم بينهما مقاتل بن حيَّان وجهم بن صفوان، فحكما بأن يعتزل نصر ويكون الأمر شورى، فلم يرض نصر. وعند ذلك بدأ النزاع الصريح، ونزل الحارث معسكراً أمام مرو، ومن هناك حاول أن يستولى على المدينة، وذلك في أواخر (جمادى الآخرة سنة ١٢٨هـ آخر مارس سنة ٧٤٦ م). وفشلت المحاولة بطبيعة الحال، فأسِر جهم بن صفوان وقُتِل، وكان الجهم هو الداعي إلى مذهب المرجئة[٢] وهو المؤلف لكتاب عن سيرة الحارث وبرنامجه، وكان يقرؤه على الناس[٣]. ولكن الحارث بعد ذلك كتب إلى الكرماني،

---

(١) [يجد القارئ اعتراف نصر نفسه بذلك عند الطبري جـ ٢ ص ١٩٢٤ س ١١ قارن ص ١٩٣٠ س ١٠ ــ ١١ ــ المترجم].

(٢) [كان جهم في الحقيقة صاحب فرقة قائمة بذاتها لها آراؤها الخاصة بها، وهي فرقة الجهمية ــ قارن الطبري جـ ٢ ص ١٩٢٤ ــ المترجم].

(٣) [المذكور عند الطبري (جـ ٢ ص ١٩١٨ ــ ١٩١٩) هو أن الجهم هو الذي كتب كتاباً فيه سيرة الحارث، وكان يقرؤه على الناس وأنه كان «يقص» في عسكر الحارث. وعند الطبري أيضاً (ص ١٩٢٠) أن الحارث بن سريج كتب سيرته، أي سيرة نفسه، فكانت تقرأ في طريق مرو والمساجد. على أن المشهور أن جهماً كان كاتباً لابن سريج، ولا يمكن أن يتبادر إلى الذهن أنه كان هناك كتاب بمعنى مصنف، بل المقصود من الكتاب ما يشبه منشور الدعاية اليوم، وفيه سياسة صاحب الدعاية وأغراضه ووسائله ــ المترجم].

ونحن نسمع عنه الآن من جديد لأول مرة بعد أن أختفى من مسرح السياسة سنة ونصف سنة، فدخل الكرماني في النزاع وغيّر وجهته، وبعد قتال دام أياماً رأى نصر أن يرجع إلى نيسابور؛ مقر قيس، وأن يخلى مرواً للثائرين.

ولكن الثوار من أصحاب الحارث والكرماني لم يلبثوا حتى اختلفوا، وذلك أن من كان من الحارث من تميم ندموا على أنهم قد أعانوا الأزد على إخوانهم الذين كانوا في مرو يحاربون مع نصر، وهم لا ينسوا للكرماني أنه في أيام ولاية أسد بن عبد الله قتل عدة مئات من أصهار الحارث بعد الاستيلاء على قلعة التبوشكان، وأنه بقر بطون خمسين رجلاً منهم وقطع أيدي ثلاثمائة منهم وأرجلهم إلى غير مما نقموه عليه[1]. وكان أول من نبذ هذا التحالف غير الطبيعي بين الحارث والكرماني هو بشر بن جرموز، أكبر أنصار الحارث، فخرج يدعو إلى الكتاب والسنة وقال للحارث إنه إنما قاتل معه طلباً للعدل، وإن انضمام الحارث إلى الكرماني معناه القتال لأجل الغلبة والعصبية. فاعتزل بشر في خمسة آلاف أو أربعة آلاف وخمسمائة، ولما بدأ القتال بعد ذلك انضم الحارث إلى بشر وانفصل عن الكرماني، ولكن الأزد وحلفاءهم غلبوا تميماً ومضر في آخر رجب سنة ١٢٨هـ (إبريل سنة ٧٤٦ م) وأخرجوهم من مرو وخربوا عسكرهم، وقُتِل الحارث نفسه وصُلب جَسَدُه عند مدينة مرو بغير رأس، فنال الجزاء العادل على أعماله، مهما كانت آراؤه ومقاصده. فهو في محاولته نصر الإسلام على العروبة ونصر المظلومين على الظالمين قد حالف الموت والشيطان على السلطة القائمة وحشد قوى الخير والشر جميعاً في محاربة الحكومة الأموية، وهو في أول ظهوره قاد الترك لمحاربة العرب. فلما أخفق ظل لاجئاً عند الترك سنين كثيرة، فلما ظهر من جديد فَرّق كلمةَ تميم، وكان لاتحاد كلمتهم في ذلك

---

(١) [جاء عند الطبري (جـ ٢ ص ١٩٢٨) أن الحارث بعد أن هزم نصراً بعث إليه أنه سيكف عن قتاله لأن اليمانية عيروه بهزيمته.]

الوقت الشأن كلّ الشأن في المحافظة على السيادة العربية. وقد كان الحارث بذلك سبباً في أن اليمانية لم يكتفوا بإسقاط الحكومة، بل في أنهم أرْدَوْا مضر كلها، وبحق ما قيل عنه من أنه رجل مشئوم[(١)]، وأنه كان الممهد الحقيقي لأبي مسلم[(٢)].

وعلى الرغم من أن نصراً كان من قبل قد تعصب على قيس، فإنهم، لما رجع إلى نيسابور، أحسنوا لقاءه في ذلك الوقت العصيب[(٣)]، كما انحاز إليه المضريون الذين أخرجوا من مرو. ويروى أنه حاول قبل ذلك أن يستنجد بالخلافة، ولكن طالما كانت العراق وما يلحق بها من بلاد العجم في قبضة الخوارج وفي قبضة عبد الله بن معاوية بن جعفر فإن الطريق كان مقطوعاً بين نصر وبين مقر الحكومة الأموية في الشام، ولم تتغير الحال إلا في سنة ١٢٩هـ، لما خضعت العراق لمروان بن محمد، على يد يزيد بن عمر بن هبيرة، فاعترف له نصر بالرياسة باعتبار أنه رئيسه المباشر[(٤)]، ولم يكن من نيته قط أن يخرج على الأمويين، وإنما كان ينتظر أن يهدأ الاضطراب والنزاع بين بني أمية حول الخلافة في الشام. وربما يكون قد بايع مروان بن محمد بعد توليه الأمر بقليل ولكن إمكان اتصال نصر بن سيار بيزيد بن هبيرة لم يُغنِهِ إلا قليلاً، فبقى

---

(١) [راجع أبياتاً تنسب لنصر بن سيار وغيره فيما أدخله الحارث على العرب من الذل والشؤم المردى، وهي عند الطبري جـ ٢ ص ١٩٣٥ ــ ١٩٣٦ ــ المترجم].

(٢) وقد فسر لون علمه الأسود (الطبري جـ ٢ ص ١٩١٩ س ٢ فما بعده) على هذا الوجه، وإن كان ذلك بغير حق كامل، أما الصحيح فإنه يوسف في الأشعار بأنه أردى مضراً وأنه حالف الكفار على العرب (الطبري جـ ٢ ص ١٩٢٤ س ١٠، ١٩٣٥ فما بعدها) وص ١٥٧٥ فما بعدها. وقد قال له نصر بن سيار:

إرجاؤكم لزّكـــم والشِركَ في قَرَنٍ ... فأنتمُ أهلُ إشـــراكٍ ومُرْجُـــونا

(٣) [راجع الطبري جـ ٢ ص ١٩٢٩ ــ المترجم].

(٤) إن الروايات القائلة بأن ابن هبيرة قد اتصل في أول سنة ١٢٧هـ بنصر بن سيار تتضمن خطأ كبيراً في التواريخ.

مضطراً إلى الاعتماد على نفسه، عندما أراد في سنة ١٢٩هـ أن يقوم بمهمة استرداد مرو[١]. وبعد أن قام قواده بحملات كثيرة للهجوم لم تجد شيئاً تقدم نصر نفسه، وكان في الثمانين من العمر، ووضع كل قوّته في المعركة. وخرج الكرماني لمحاربته، وعسكر الفريقان خارج المدينة في «الخندقيْن» اللذين بقيت آثارهما زماناً طويلاً، وظلاّ يقتتلان فترة طويلة من غير أن يقع القتال الحاسم. وقد بعث نصر إلى مروان بن محمد وإلى ابن هبيرة يلح في الاستغاثة وطلب العون ويصف الخطر وصفاً يحرك الهمم، ولكنه لم يظفر من استغاثته بطائل[٢]. غير أن تخوف العرب من عدوٍّ لهم جميعاً دعاهم إلى العقل والاتحاد مرة أخرى[٣]، وقد رأوا بأعينهم أن شيعة بني العباس ـ ومعظمهم من الأعاجم ـ قد تجمعوا تحت راية أبي مسلم ونزلوا معسكراً حصيناً غير بعيد من مرو، فدخلت ربيعة ـ التي مع أنها كانت حتى ذلك الحين حليفة للأزد فقد كان لها بطبيعتها موقف وسط ـ في الفرجة التي كانت تفصل بين اليمن ومضر، فاتحد يحيى بن نعيم بن هبيرة، أكبر سادات بكر، مع نصر بن سيار، ووجد أن السبيل الوحيد الممكن لنجاة القبائل العربية هو في مؤازرة الحكومة[٤]. وبدأت مفاوضات بين نصر وبين جديع الكرماني، لكنها انقطعت بسبب ابنٍ للحارث بن سريج كان مع نصر بن سيار، فاغتنم الفرصة ليثأر من قاتلى

---

(١) راجع الطبري جـ ٢ ص ١٩٧٠ ـ ١٩٧٦.

(٢) وأبيات نصر بن سيار المشهورة التي ذكرها الطبري (جـ ٢ ص ١٨٧٣) تدخل في وصف هذا الموقف [غير أنها تشير إلى الخطر الذي جاء من قبل أبي مسلم. والمؤلف لا يشير هنا إلى الدور الذي لعبه أبو مسلم في التفرقة بين نصر والكرماني. راجع الطبري جـ ٢ ص ١٩٧٢ ـ المترجم].

(٣) راجع الطبري جـ ٢ ص ١٩٦٢ فما بعدها و١٩٧٥ فما بعدها ـ المترجم].

(٤) راجع قصيدة نصر التي نادى بها ربيعة، وهي موجودة عند Nöldeke في *Delectus* ص ٨٨.

أبيه، فاغتال الكرماني خلسة[١]. غير أن ذلك لم يكن هو السبب الذي أدى إلى فشل المفاوضات. لكن سقوط مدينة هراة. تلك المدينة الهامة، في يد أبي مسلم راع العرب كثيراً وفتح أعينهم أيضاً، فحل محل الكرماني رجلٌ من أنصاره لا نعرف عنه شيئاً حتى ذلك الحين، وهو شيبان بن سلمة الحرورى الخارجى[٢]، فدعاه يحيى بن نعيم[٣] بن هبيرة إلى موادعة نصر بن سيار، فوادعه سنة، فاستطاع نصر أن يدخل مرو في آخر سنة ١٢٩هـ (٧٤٧ م). ولم يكن الأزد وحدهم هم الذين دخلوا في هذه الهدنة، بل دخل فيها أيضاً عليٌّ ابن زعيمهم المقتول: جديع الكرماني. ولم يكن من المؤكد أن ينتهي القتال بانتصار أبي مسلم، غير أن أبا مسلم عرف كيف يقنع على بن جديع الكرماني بأن قتل أبيه إنما كان بإيعاز من نصر نفسه، وكان يريد بذلك أن يضم علياً إلى جانبه (أول سنة ١٣٠هـ ـ سبتمبر سنة ٧٤٧ م). وعلى هذا عاد الكرماني ومن تبعه من الأزد إلى قتال نصر من جديد. ويظهر أن القتال استمر في ضواحي مرو وفي شوارعها مدة طويلة، وقد

---

(١) والروايات تريد على كل حال أن تظهر نصراً بمظهر المشترك في مقتل الكرماني، وذلك بأن تقول إن نصراً صلبه ومعه سمكة، وهي علامة الإزراء بالأزد. ولكن نصراً كان جاداً في المفاوضات، ولم تكن هي بقصد اغتيال الكرماني، لأن ذلك كان يهددها بالفشل. ولو أنه صلب رئيس الأزد، وخصوصاً لو أنه صلب معه سمكة، لما أمكن أن يبقى الأزد بعد ذلك على ود مع نصر لحظة واحدة. وإذا كان ابن الرئيس المقتول قد صالح نصراً بعد قتل أبيه على الفور فلا بد أنه في ذلك الحين لم يكن مقتنعاً بأن القتل كان بعلم من نصر. أما أول من أوحى إليه بفكرة اشتراك نصر في قتل أبيه فهو أبو مسلم. وعلى هذا فلا يمكن أن يكون قد وجد دليل ثابت يدل على رضاء نصر عن الجريمة، مثل أن يأمر بصلب جسد الكرماني ويصلب ومعه سمكة ولو أنه فعل ذلك لكانت له نتائج أخرى ولأدى إلى ضرب وجه سياسة التفاهم التي أرادها نصر. أما القاعدة القائلة بأن نصراً fecit cui prodest (فعل ما يفيده)، فإنها لو طبقت هنا لكان تطبيقها خطأ.

(٢) قارن ص ٣٧٨ ــ ٣٧٩ مما تقدم.

(٣) [هنا وفيما سبق قبل بقليل يقول المؤلف: يحيى بن حضين، والغالب أن هنا سهواً ــ راجع الطبري جـ ٢ ص ١٩٦٦ س ١٢ و١٩٦٧ س ٢ ــ المترجم].

انتهى هذا القتال بأن صار أبو مسلم سيد الموقف، ذلك أنه تدخل في القتال عندما بدا له أن الوقت مناسب، وقرر مصير المعركة من غير استعمال السيف، وكان ذلك في ربيع الثاني سنة ١٣٠هـ ـ ديسمبر سنة ٧٤٨م[١]. وفي صباح اليوم التالي هرب نصر إلى سرخس وطوس ومنها إلى نيسابور، فكان ذلك آخر السيادة العربية في خراسان وبدء نهاية السيادة العربية على الإطلاق.

---

(١) سنزيد من ذكر التفاصيل والوقائع في الفصل التالي.

الفصل التاسع

سقوط الدولة العربية

١ ــ إن ما قلناه في الفصل السابق عن العلاقة بين العرب والأعاجم ينصبّ خاصة على أرض «الثغريْن»، وهو ينصبّ على أرض السغد أكثر مما ينصب على أرض طخارستان. وهناك كان الفريقان لا يزالان على قدم الحرب، وكان الإسلام قد صارت له بعض المواقع الحصينة، ولكن قدمه لم تكن قد رسخت؛ أما في خراسان الحقيقية فكانت قوى الفريقين قد تعادلت وتكونت من ذلك طريقة في التفاهم (modus vivendi). وكان العمل الذي نجده لا يزال سائراً فيما وراء النهر قد تم في خراسان الحقيقة ولا نعرف عنه شيئاً، لأننا ليس لدينا أخبار كافية عن بداية العصر الذي أعقب الفتح الأول. ولكن يمكن الإلمام إلى حد ما بالنتيجة، أعنى بالأحوال فيما بين سنتي ١٠٠ إلى ١٣٠هـ(١).

لم يكن العرب والأعاجم منفصلين في الحياة الظاهرة، أعنى أنهم لم يكونوا يسكنون منفصلين. وقد بقى في مدن الجيوش العربية مثل نيسابور (أبيورد، سرخس، نَسا) ومرو ومرو الروذ وهراة سكانُها الأصليون؛ أما القلاع والحصون فقد احتلها الفاتحون بطبيعة الحال. وأيضاً لم يظل العرب متجمعين في نقط قليلة خاصة بهم، وهم لم يكونوا يعيشون فقط في المدن التي كانوا قد اختاروها لتكون بمثابة «مستعمرات حربية»، بل كانت لهم أملاك وضياع وأهل في القرى، ومنهم

---

(١) قارن كتاب فان فلوتن van Vloten: *Recherches sur la Domination Arabe* وهو ضمن Verhandelingen der K. Akademie te Amsterdam, Afd. Letterk 1, 3 أمستردام، ١٨٩٤.

من كانوا يقطنون هناك، خصوصاً في واحة مزو. وكانت مدينة مرو حاضرة لقرى كثيرة ترتبط فيما بينها بنظام ريّ موحّد، وكان للعرب بطانةٌ وموالٍ من الأعاجم، كما أنهم تزوجوا نساءً أعجميات، وكان لا بد أن يظهر أثر ذلك في أبنائهم منذ الجيل الثاني. وإنه وإن كانت هجرات العرب المتتالية من العراق إلى خراسان قد زادت من قوة العنصر العربي في بلاد العجم فإن ذلك لم يجعل العرب من حيث العدد مكافئين للأعاجم، وخصوصاً أن الحروب التي لم تنقطع كانت تأكل العرب أكلا فظيعاً. وفي بعض الروايات التي ترد بعد حين وآخر: أنه كان في خراسان ما يقرب من خمسين ألفاً من المقاتلة العرب. ومع أن نسبة من يقومون بواجب الحرب بين العرب كانت كبيرة، بحيث كانت تبلغ نصف مجموع الذكور، فإن مجموع السكان العرب في خراسان لا يمكن أن يكون قد تجاوز المئتي ألف نفس بكثير. وقد تأقلم العرب في وطنهم الجديد، وكانوا يشعرون أنه لا فرق بينهم وبين أبناء البلاد في الوطن المشترك بينهم، فكانوا يحسون أنهم خراسانيون، وكانوا يلبسون السراويل كما يلبسها أهل خراسان (الطبري ج ٢ ص ١٥٣٠)، وكانوا يشربون النبيذ ويحتفلون بعيد النيروز والمهرجان. وأخذ أشراف العرب يظهرون بمظهر المرازبة وأسلوبهم في الحياة، وكان الاشتراك في الحياة العملية مما دعى إلى التفاهم بين العرب والأعاجم، حتى كانت الفارسية في الكوفة والبصرة لغة يتكلمها الناس في السوق كما يتكلمون العربية على الأقل. وإذا حكى لنا أن رجلاً مثل أبي الصيداء كان لا يتكلم إلا العربية وأنه لذلك لم يكن يصلح وحده رسولا إلى أهل السغد الذين لم يكونوا يتكلمون سوى الفارسية، فإن أمر أبي الصيداء يبدو شاذاً. أما في جيش أبي مسلم فكان العرب يتكلمون الفارسية في الغالب[١].

---

(١) الطبري ج ٣ ص ٥١ س ٤ وص ٦٤ س ١٨ وص ٦٥ س ١٤ و١٦.

وكذلك لم يقف الأعاجم من جانبهم إزاء العرب في خراسان كتلة واحدة، ولا هم وقفوا من العرب موقف العداء أو النفور، ولم يكن تأثر الأعاجم بعملية المزج بين العنصرين أقل من تأثر العرب بها، وخصوصاً أن الفتح لم يغير أحوال المغلوبين، وهو لم يزدها سوءاً. وقد أفلح العرب في حماية البلاد من الخارج، أعنى من غزو الترك، أحسن مما أفلح في ذلك ملوك الساسانيين(١). ولم يتدخل العرب كثيراً في الأمور الداخلية، بل تركوا إدارة البلاد في يد المرازبة والدهاقنة. ولم يكونوا يتصلون بالشعب المغلوب إلا من طريق هؤلاء المزاربة والدهاقنة. وأيضاً ظلت السلطات المحلية السابقة في المدن العسكرية العربية وفي حواضر الدولة باقية إلى جانب السلطات العربية، وكان للسلطات المحلية جباية الخراج بنوع خاص، وكانت هي المسئولة أمام الفاتحين عن دخوله بيت المال على المقدار الصحيح المتفق عليه، أما سواد الشعب البائس الذي عليه أن يدفع (misera contribuens plebs) فلا شك أنه لم يكن في عهد الساسانيين يدفع من الخراج أقل مما كان يدفع في عهد العرب. هذا إلى أن العرب لم يتدخلوا في المسائل الدينية للأعاجم، وكان الأساس في المعاهدات التي يفرض فيها دفع إتاوات أن يبقى أهل البلاد على دينهم، بل كان للأعاجم أن يبقوا على دينهم حتى في المدن التي كان يسكنها العرب، وإن كان ربما تحتم عليهم أن يخفوا المظاهر الخارجية للوثنية. ولكن يظهر أن الأعاجم لم تكن تربطهم بدين زرادشت رابطة جدّية، وكان أهم ما يعنيهم هو الشعائر المصطبغة بصبغة المرح والسرور بالحياة، وكانت هذه الشعائر تتجلى في أعظم صورها في الاحتفال بعيدى النيروز والمهرجان، وكان للأعاجم أن يحتفلوا بهذين العيدين حتى بعد دخولهم في الإسلام، لأن العرب أنفسهم كانوا يشتركون في الاحتفالات الدينية للأعاجم، ما دامت هذه

---

(١) ولم يستطع الترك أن يصلوا في غاراتهم إلى مقربة من نيسابور إلا في أثناء الحرب بين قبائل تميم (البلاذرى ص ٤١٤ ــ ٤١٥).

الاحتفالات مجالاً للسرور والتسلية. وإذا كان الأعاجم قد أقبلوا في بادئ الأمر على الدخول في الإسلام فإنهم لم يفعلوا ذلك من أجل الإسلام نفسه بمقدار ما فعلوه ابتغاء المزايا التي كان يُمَكِّنُهم منها، فهم قد اتخذوا الإسلام وسيلة للتقرب من الطبقة الحاكمة وللمشاركة فيما كان لها من مزايا، أي هي اتخذوه وسيلة لكي يستعربوا وينالوا ما كان للعرب من حقوق ومزايا، ثم سموا أنفسهم بأسماء عربية وألحِقوا بالقبائل العربية[١]. وقد استطاع بعض أهل الطموح منهم أن ينالوا حظوة عند العرب، وأن يلعبوا دوراً ذا وجهين في التوسط بين القوميتين العربية والفارسية، وكانوا يسمون النصحاء، وأشهرهم سليم وحيان النبطي.

ونظراً لاستمرار الحروب في تلك الحقبة وتلك البلاد، فقد كانت أكثر المناسبات ملاءمة للدخول في الإسلام ما يَعْرِضُ من النهوض بأعباء الحرب في الجيش الإسلامي. وقد اقتدى السادة من العرب بأشراف الأعاجم، فكانوا يأخذون معهم إلى الميدان حاشية من الغلمان تكون لهم خاصة (وهم الشاكرية)، وكان هؤلاء الغلمان أيضاً يشتركون في القتال، وكانوا يقررون مصير المعركة في بعض الأحيان. وإلى جانب ذلك كانت هناك في الجيش العربي فِرَقٌ من الأعاجم خاصة على رأسها قوادٌ منهم، ومن أمثلة ذلك حريث بن قطبة وأخوه ثابت في الحقبة الأولى، وحيّان النبطي وابنه مقاتل في الحقبة الأخيرة[٢]. فكان الموالي ــ وهذه هي بوجه عام التسمية التي كانت تطلق على من دخل في الإسلام

---

(١) قارن البلاذري ص ٤٤١: أسلم بعض الملوك وتسموا بأسماء عربية، على أننا لا نجد في ذلك الوقت مسلمين أعاجم بأسمائهم الأعجمية، وكثيراً جداً ما نجدهم يستعملون الكنية، مثل: أبو داود، أبو عون، أبو مسلم، أبو نصر، وهكذا، والكنية عند عرب خراسان هي من وجه ما اسم حرب (بالمعنى الحقيقي) راجع الطبري ج ٢ ص ١٢٨٩ س ١٥ و١٤٣٠ س ٣ و١٥٩٣ س ١٦ (أبو مزاحم) و١٦٢٧ س ٤ (أبو الموت) و١٦٣١ س ١٥ وتجد اسما آخر من أسماء الحرب في ص ١٥٣٨ ص ٧.

(٢) وإلى جانب ذلك كانت هناك فرق الأمراء التابعين للدولة العربية، وكان عليها أن يحاربوا إلى جانب العرب، ولكنهم كانوا في الغالب لا يزالون على وثنيتهم.

من غير العرب وألحق بالقبائل العربية ــ يحاربون إلى جانب العرب ويحاربون الأعداء القدماء لوطنهم، وهم الترك، ولكنهم أيضاً كانوا من أجل الإسلام يحاربون أبناء وطنهم من السغد، إذا عادى هؤلاء الإسلام وحالفوا الترك. وهكذا تأصّل الإسلام في قلوبهم، بعد أن كانوا في أول الأمر قد اعتنقوه لأسباب خارجية. ولقد كانوا في إسلامهم أكثر إخلاصاً من العرب أنفسهم(١).

ولكن العرب رغم ذلك لم يكونوا ينظرون إلى الموالى نظرتهم إلى أنفسهم، فإذا كان الموالى في الجيش فإنهم كان يحاربون مترجِّلين لا على الخيل، وكانوا إذا بَرزوا يُنْظَر إليهم بشيء من الريبة. وهم وإن كانوا يتقاضون رزقاً ويأخذون نصيباً في الغنيمة فإنهم لم تكن لهم أعطياتٌ ثابتة، فلم يكونوا مقيدين في الديوان، أعنى في سجل المقاتلة الذين تُفْرَض لهم الأعطيات. ومع أنهم كانوا قد اندمجوا في القبائل العربية، فإنهم كانوا يسمون «أهل القرى» تمييزاً لهم عن «أهل القبائل». ومع أنهم كانوا مسلمين، فإنهم لم تسقط عنهم الجزية. أما الخراج الذي كان يؤديه كل من يملك أرضاً حتى العرب منهم، فيظهر أنه على كل حال لم يُحْدِثْ من التذمر بين أهل خراسان ما أحدثه بين أهل ما وراء النهر، لأن هؤلاء لم يدخلوا الإسلام إلا على أمل أن تسقط عنهم الجزية، ولكن لا شك في أن عدوى التذمر تسربت من أهل السغد إلى أهل خراسان ــ وقد عمل الحارث بن سريج وغيره على ذلك.

ولو أن العرب عاملوا من دخل في الإسلام من الأعاجم معاملة المساوين لهم

---

(١) الطبري ج ٢ ص ١٢٩١ س ٩: لم يرد الأعاجم أن يحاربوا في صفوف العرب إلا إذا كان ذلك لأجل الدين [الحقيقة أن استنتاج المؤلف فيه تعسُّف. وحتى لو فرضنا أن بعض الأعاجم كان أشد تحمساً للدين من بعض العرب فهل كان ذلك لأنهم أعاجم؟ أما النص الذي يستند إليه المؤلف فهو يتلخص في أنه في أثناء فتنة من الفتن أراد قائد فرقة الموالى في الجيش أن يغتنم الفرصة لينال ولاية يأكلها طول حياته واتفق مع أحد قواد العرب على ذلك وقال لمواليه: هؤلاء العرب يقاتلون على غير دين، فدعوهم يقتل بعضهم بعضاً ــ المترجم].

لكان من الممكن أن يتحقق مزجٌ بين الأمتين، لكن العرب بما صنعوه ربّوا في أحضانهم أعداءً لأنفسهم، حتى كبر هؤلاء الأعداء. ثم إن الإسلام لم يساعد على إزالة الخصومة بين الفريقين، بل جعلها أشد خطراً[١]، لأنه أحيى الأعاجم من جديد وشد أزرهم ووضع في يدهم سلاحاً على سادتهم العرب، وذلك أن إسقاط الدولة العربية لم يأت من أهل ما وراء النهر الذين بقوا على عجمتهم وعلى عدائهم للعرب، بل جاء من قبل من أسلم من أهل خراسان، وهم إنما قاموا بمحاربة السيادة العربية مستندين إلى الإسلام، والإسلام هو الذي جمع كلمتهم وكلمة أولئك العرب الذين كانوا يعارضون حكومة بني أمية مهتدين بالمبادئ التي يجب أن تقوم عليها الدولة التيوقراطية في نظر الإسلام ــ والعرب هم الذين كانوا أول من أثار الموالى ونظمهم.

والإسلام الأول يجعل المحافظة على وحدة «الجماعة»، أعنى على وحدة الأمة الإسلامية، فوق كل شيء، وهو أيضاً يدعو إلى شد أزر حكومته وإلى طاعتها[٢]. ولكن بعد أن حادت الحكومة عن المبادئ التي يجب أن تقوم عليها الحكومة التيوقراطية جاء الإسلام الثائر فجعل تلك المبادئ أساساً لمحاربة نظام الحكم الذي كان قائماً إذ ذاك، وجعل يدعو للحرب نصراً لله على بني أمية وعلى عمالهم، ونصراً للحق على الطغيان والعسف. أما الخوارج فلا نسمع عنهم في شرق الدولة الإسلامية إلا قليلا، ولكن لا شك في أنهم كان لهم من الشأن

---

(١) [يقصد المؤلف أن الإسلام بما تضمنه من تقرير مبدأ المساواة التامة بين المسلمين، بصرف النظر عن الجنس أو اللغة، في جميع الحقوق والواجبات كان هو السند الذي استندت إليه الثورة التي أسقطت الدولة الأموية استناداً إلى أنها لم تراع مبدأ المساواة بين المسلمين ــ المترجم].

(٢) [يأمر الإسلام بالتمسك بالوحدة في الجماعة الإسلامية وينهى عن الفرقة والشقاق، كما أنه يأمر بطاعة وليّ الأمر أياً كان، ما دام يحكم بالحق والعدل، وينفذ أحكام الدين ولكن الإسلام لا يقر الخضوع للظلم، ولا يقر الحكومة الظالمة، وقد دخل هذا في مبادئ الفرق السياسية والدينية ــ المترجم].

هناك أكثر ما يمكننا أن نأخذه من الأخبار القليلة التي تذكر عنهم. وليس من الممكن أن ينشأ شيبان بن سلمة الحروري وأتباعه الكثيرون من الأرض فجأة، على ما بدا عليه ظهورهم في خراسان. ولكن المرجئة كانوا من غير شك أكبر شأناً من الخوارج [في ذلك الوقت وفي تلك الجهة من الدولة الإسلامية]، وقد تدخلوا بقيادة الحارث بن سريج في تاريخ تلك الحقبة تدخلا كان له أثره الكبير. وكل من الخوارج والمرجئة قد استنكروا، من حيث المبدأ، كل تمييز للعرب على الموالى المسلمين. ولكن كلاً من الخوارج والمرجئة تراجعوا آخر الأمر إلى المحل الثاني تماماً أمام الشيعة الذين كانوا قد انتشروا في خراسان في وقت مبكر، ثم جاءوا بالعمل الحاسم في إسقاط الدولة العربية.

وكان مقر الشيعة في العراق، شأنها شأن الأحزاب التي كانت تتخذ من الدين سنداً لمقاومة حكومة بني أمية، على أن فتح شرق بلاد العجم كان من جهة العراق، ومن العراق كانت قبائل العرب لا تزال تهاجر إلى بلاد العجم.

ثم ظل الاتصال بين العراق وبلاد العجم قويا على الدوام، وكان لا يزال يأتى من جهة العراق سيل القبائل العربية إلى أرض النهر، ولم يكن هؤلاء المهاجرون أهدأ العرب نفوساً. ويظهر أن أمراء الأمويين في العراق، ولا سيما زياد بن أبيه والحجاج بن يوسف، أرادوا أن يصرفوا العناصر الخطرة عن الكوفة والبصرة فيوجهوها إلى خراسان ويستنفدوا توَثبها وطاقتها على العمل في جهاد المشركين ويتخلصوا بذلك من شرها. ومما له مغزاه أن الحجاج كان حريصاً على إبعاد جند الشام عن بلاد الأعاجم لكيلا تنتقل إليهم عدوى روح الشر. أما بدايات ظهور الشيعة في خراسان فليس عندنا عنها روايات دقيقة، وهذا طبيعي. ويبدو كأنما كانت بذور مبادئهم تطير في الهواء وتنتشر من تلقاء نفسها؛ أما إلى أي حد كانت أهواء الناس مع الشيعة في خراسان فهذا ما يمكن أن يتبينه الإنسان من أن زيد بن علي لما أخفق في محاولته الثورة في الكوفة أشار البعض

على ابنه يحيى بأن يخرج إلى خراسان. وقد عمل يحيى بهذه المشورة، وهو وإن كان قد قُتل وهو يقاتل ضد الدولة، فإن استشهاده أثار سخطاً عند الجميع، حتى يروى أن كل الصبيان الذين ولدوا في خراسان في تلك السنة سُمُّوا باسمه (المسعودي جـ ٦ ص ٣). وإذا كان أبو مسلم قد ظهر بمظهر المطالب بثأر يحيى فإنه كان لا شك يعلم تأثير ذلك في النفوس، وهو بذلك ضرب نغمة وجدت صدىً عند الجميع (الطبري جـ ٢ ص ١٩٨٥ وجـ ٣ ص ٥٠٦ فما بعدها). وأيضاً كان عبد الله بن معاوية بن جعفر يعتقد أنه إذا خرج إلى خراسان فهو مصيب مكاناً أميناً، ولكن أخطأ ظنه في أبي مسلم، لأن أبا مسلم لم يكن عنده مكان لعلوي حي أكثر مما كان عنده لعلوي ميت، فدسّ علي بن معاوية من قضى عليه سراً. ولكن ابن معاوية أيضاً ظل يعتبر في خراسان شهيداً يقدسه الناس زماناً طويلاً، وكان قبره هناك يزار كثيراً.

ولو أن العرب في خراسان اتحدوا فيما بينهم وشدوا أزر الحكومة لما استطاع الشيعة بطبيعة الحال أن يندسوا في الفجوات التي أوجدها الشقاق. ولكن كما أن العرب لم يريدوا أن يقاسموا الموالى السلطان فإنهم أيضاً لم يُمَتِّع بعضهم به بعضاً. وكانت المناصب والمغانم التي كانت في يد الدولة تمنحها وتمنعها موضوعاً وسبباً للتحاسد الشديد بين القبائل، وظلت العصبية داء العرب الباقي على الزمان، حتى إذا بدأ يتزلزل عرش بني أمية آخر الأمر اشتدت العصبيةُ اشتداداً مروعاً، كما رأينا. وقد استغل الشيعة ــ بالمعنى الخاص للكلمة ــ هذا الموقف، وكان العباسيون قد اتحدوا معهم منذ أن انفصلوا عن العلويين وخرجوا من المدينة إلى الحُمَيْمة في الأرض الجبلية (أرض الشراة) الواقعة بين جزيرة العرب وبين الشام[١]، حيث لا يمكن أن ينافسهم العلويون.

---

(١) يرجع نسب العباسيين إلى عبد الله بن عباس، المحدث الورع، ابن عم النبي [عليه السلام] وابن عم علي بن أبي طالب رضى الله عنه. وبعد أن قتل علي وصالح ابن عباس معاوية =

وكان الشيعة فرقتين كبيرتين، وإن كان التمييز بينهما لم يكن دائماً تمييزاً دقيقاً: فرقة معتدلة لا تختلف عن سائر المسلمين إلا في المبدأ السياسي القائل بأن الخلافة يجب أن تكون في بيت النبي [عليه السلام]، وفرقة متطرفة لها مذهبها الخاص في العقائد، وهو مذهب غريب تماماً عن الإسلام الأول. وقد سمى الشيعة الغلاة بأسماء مختلفة، ولكنها لا تدل إلا على فوارق قليلة الشأن. ففي أول الأمر سُموا السبئية، وفي رأي سيف بن عمر أن هؤلاء السبئية كانوا من أول الأمر أصل الشر والبلاء كله في تاريخ الدولة الإسلامية، وهم قتلة عثمان وفاتحو باب الفتنة والحرب الأهلية، ومؤسسو حزب الخوارج الثائرين، وهم السبب في قتل المسلمين بعضهم بعضاً. والحقيقة أن السبئية لم يصبح لهم شأنهم التاريخي إلا على يد المختار الثقفي، وإن كانوا قد كانوا موجودين قبل ذلك[١]، وكان موطنهم الكوفة وسوادها، ولم يكونوا من العرب فحسب بل كان معظمهم من الموالى، وكانوا يؤمنون بما ذهب إليه ابن سبأ من الرجعة، أعنى رجعة الأرواح في أجساد مختلفة ــ وخصوصاً رجعة روح النبي [عليه السلام] في أبنائه. وهذه النقط الثلاثة هي النقط الجوهرية التي تميزهم. أما أشراف العلويين، أعْنى أبناء السيدة فاطمة بنت النبي عليه السلام، فإنهم لم يخرجوا عن أصول الإسلام

= ظل على علاقة طيبة مع الأمويين ولم يكن يعمل ضدهم إلا خفية. فلما جاء ابنه علي بن عبد الله بعده، وكان مثله في الورع وكان يلقب بالسجاد أو بذى الثفنات، لم يفعل غير ما فعله أبوه. وفي عهد عبد الملك بن مروان انتقل إلى دمشق. ولكن الوليد بن عبد الملك، بعد أن مات عبد الملك أساء به، فانتقل في سنة ٩٥هـ مكرها كما يروى، وسكن الحميمة عند أذرح على طريق الحق الآلى من الشام؛ ومات وهو شيخ كبير في سنة ١١٨هـ (الطبري جـ ٢ ص ١٥٩٢). وكان لابنه محمد بن علي شأن أكبر منه بكثير، حتى وهو على قيد الحياة، فظهر أولا بدعوى إمامة الشيعة، وكان هو مؤسس الدعوة العباسية السرية، وجعلها تعمل من أجله في الكوفة وخراسان، في حين أنه لم يترك مكمنه في الحميمة، ومات في ذى القعدة سنة ١٢٥هـ (الطبري جـ ٢ ص ١٧٦٩)، وبعد وفاته جاء ابنه إبراهيم بن محمد إماماً ثانياً للعباسيين. وقد ولد إبراهيم هذا في سنة ٨٢هـ.

(١) راجع فيما يتعلق بالمختار ما قلته عن الشيعة في كتابي، ص ٧٤ فما بعدها.

الأول ولا عن أصول العروبة، ولذلك نبذوا السبئية فتمسك هؤلاء السبئية بأحد أبناء عليّ من زوجة أخرى له، وهو يسمى محمد بن الحنفية باسم أمه. فلم يعترض هذا على أن اتخذه السبئية بمثابة الصنم الذي كانوا يحتاجون إليه في مذهبهم، ولم يكن هناك بأس من أن يتوارى ابن الحنفية دون أن يفعل شيئاً، لأنه حتى لو كان ميتاً لما كانت فائدته أقل منه حياً. ولقد قيل حيناً من الدهر إنه لم يمت، بل كان لا يزال حياً غائباً في جبل رضوى عند المدينة، مستعداً للظهور في الوقت المناسب. ولكن صار ابنه أبو هاشم عبد الله هو الإمام، ولم يكن شأنه من حيث وراثة الإمامة أكبر من شأن أبيه. ولم يجد غلاة الشيعة الكوفيين ما كانوا يريدونه عند زيد بن علي بن الحسين. على أن أبا هاشم انتقل إلى الحميمة وأقام بها واتصل هناك بالعباسيين[١]، ويروى أنه لما مات سنة ٩٨هـ أوصى وصية صريحة بأن تكون الإمامة لمحمد بن عبد الله بن العباس.

وقد نبه فان فلوتن (van Vloten) على أهمية هذه الرواية الأخيرة تنبيهاً شديداً[٢]، ومهما يكن من شيء فالراجح أنها في صورتها هذه مخترعة[٣]، ولكن اختراعها كان منذ زمن مبكر، لأن لها شواهد قوية[٤]، ولولا ذلك لحذر العباسيون فيما بعد من أن يقيموا حقهم على مثل ذلك الأساس. وهذه

---

(١) ربما كان هناك قبل للعباسيين وانضموا إليه (٩٥هـ) ولم يكن هو الذي انضم إليهم.

(٢) راجع كتاب فان فلوتن *Opkomst der Abbasiden*، ليدن ١٨٩٠ ص ١٨ فما بعدها وص ١٤٨.

(٣) جاء في الشهرستانى (ص ١١٢ س ١٩) أن أبا هاشم، في رأي بعض فرق الهاشمية، أوصى لآخرين منهم عبد الله بن عمرو بن حرب الكندى.

(٤) انظر رواية المدائنى عند الطبري (جـ ٣ ص ٢٤)، ورواية ابن سعد في Wüstenfeld Register ص ١٩ و١٣٠. وعند فان فلوتن في كتابه *Opkomst* ص ١٤٨.

الرواية تتضمن أيضاً قدراً من الحق، فقد كان أبو هاشم في الواقع سلفاً لمحمد بن علي، وإن كان يجوز أنه لم يعينه خليفة له تعييناً حقيقياً. وقد كان لأبي هاشم حزبه الخاص، وكان أتباعه يسمون الهاشمية[١]، وهم بعد أن مات أبو هاشم قد صاروا إلى محمد بن علي (الطبري ج ٢ ص ٢٥٠٠) وبحسب ما جاء في الطبري (ج ٢ ص ١٥٨٩) كان على رأسهم خداش، وهو من أكبر دعاة الشيعة نجاحاً، وكان في أول الأمر يدعو إلى محمد بن علي. وعلى هذا ففي خبر تلك الوصية شيءٌ من الحق: فالعباسيون والوا أبا هاشم لكي يضموا الهاشمية إلى دعوتهم.

وفي هذا ما يدل على الصلة بين العباسيين وبين السبئية أصحاب المختار، ذلك أنه من بين أصحاب ابن الحنفية ظهر أصحاب ابنه وهم الهاشمية. ولم يُقْضَ على السبئية في الكوفة بقتل المختار، بل هم بقوا بين الطبقات الدنيا للشعب. والآراء التي كان يكتمها الهاشمية، كما يذكرها الشهرستاني، لا تختلف عن آراء ابن سبأ في شيء. وتآمرُ العباسيين يشبه تآمُرَ السبئية كما يصفه سيف[٢] شبهاً تاماً، وكان مقر العباسيين في الكوفة أيضاً، ومن هناك كانوا ينشرون دعوتهم في خراسان، وفي كلا الدعوتين: دعوة الهاشمية ودعوة العباسيين، استندت الحركة إلى الموالى من الأعاجم وصارت موجهة إلى محاربة العروبة باسم الإسلام. وإذن فالشبه بين الدعوتين يشمل كل النقط الهامة، فيشمل الآراء وطريقة الدعوة ومقرها والحزب الذي كونته. ويستطيع الإنسان أن يزيد على ذلك نقطتين من حيث التفاصيل: كانت العمد الخشبية هي السلاح الوطني عند أهل الطبقة الدنيا من سكان بلاد

---

(١) راجع الشهرستاني ص ١١٢ فما بعدها، أما عند الطبري فلا يرد اسم الهاشمية على أنه تسمية واضحة لفرقة إلا في ج ٢ ص ١٥٨٩ و١٩٨٧ و١٩٨٩. أما في العادة فيستعمل اسم الهاشمية مشتقاً من هاشم لا من أبي هاشم، ويقصد منه ما يقصد من قول الهاشميين، ويجوز أن العباسيين لم يكرهوا هذا المعنى المزدوج لكلمة الهاشمية. والهاشميات في شعر الكميت قصائد عن أبناء فاطمة.

(٢) راجع كتابنا... *Skizzen*، قسم ٦ ص ١٢٤، والكتب اليهودية الأولى في الملاحم تلعب دوراً في الحالين.

العجم، وقد سميت ههذ العمد باسم كفركوبات عند خشبية المختار، فكانت هذه التسمية عندهم سابقة لتسميتها عند خشبية أبي مسلم[١]. وكان أقدم أتباع المختار هم الموالى الذين كانوا في ضيعته في قرية الخطرنية من سواد الكوفة، وبحسب ما جاء في الطبري (جـ ٢ ص ١٩٦٠) أن أبا مسلم كان من أهل الخطرنية (راجع المسعودي جـ ٢ ص ٥٩). وإذا شك الإنسان في صحة هاتين الروايتين فإن ذلك لا يفقدهما شأنهما، لأن الاختراع هو الذي بعث عليهما، ونحن يكفينا الباعث. أما إذا كان العباسيون بعد أن كانوا قد ارتفعوا على أكتاف الشيعة تنكروا لهم ونبذوهم (جـ ٣ ص ٢٩ س ١٧) فليس ذلك عجيباً، لأنهم تضايقوا منهم، وكان على الشيعة أن ينصرفوا بعد أن أدّوا مُهِمَّتهم.

يدل هذا كله على وجود علاقة وثيقة بين ثورة المختار التي أخفقت وثورة أبي مسلم التي نجحت. وبالرغم من أن نار الثورة التي قامت في ٦٧هـ قد أطفأتها الدماء فيما يظهر، فإنها ظلت تومض تحت الرماد، وانتقلت من الكوفة إلى خراسان. وكانت أرض خراسان أكثر ملاءمة، لأن الموالى كانوا فيها أكثر تماسكاً، وكان العرب بالنسبة لهم أقل مما كانوا في الكوفة بكثير. ولقد كان المختار رجلا من أكبر شخصيات التاريخ الإسلامي، وقد توقع ما يحدث في المستقبل. وإذا صحت نظرية الرجعة فإن روح العربي الذي ثار في قرية الخطرنية قد رجعت في أبي مسلم، أحد موالى هذه القرية.

٢ ـ وفي سنة ١٠٠هـ وجَّه[٢] محمد بن علي بن عبد الله بن عباس وهو بأرض الشراة ميسرة إلى العراق، ووجه محمد بن خنيس وأبا عكرمة السراج الذي يسمى أيضاً أبا محمد الصادق، وحيّان العطار خال إبراهيم بن سلمة، وكلهم من أهل

---

(١) راجع الطبري جـ ٢ ص ٦٩٤.

(٢) الموجه بحسب الطبري (جـ ٢ ص ١٣٥٨) هو محمد نفسه، ولكن بحسب (جـ ٢ ص ١٤٣٤) الذي وجه في الحقيقة ميسرة ـ [قارن الطبري جـ ٢ ص ١٩٨٨ ـ المترجم].

الكوفة، إلى خراسان، وأمرهم بالدعاء إليه وإلى أهل بيته. فلقوا من لقوا، ثم انصرفوا بكتب من استجاب لهم، فدفعوا الكتب إلى ميسرة، فبعث بها إلى محمد بن علي، واختار أبو محمد الصادق لمحمد بن علي اثنى عشر نقيباً، واختـــار سبعين رجلا غيرهم (من أهل خراسان)، وأعطاهم محمد بن علي كتاباً ليكون لهم مثالا وسيرة يسيرون بها. وهذا ما يحكيه الطبري (جـ ٢ ص ١٣٥٨)، ولكن كون ذلك في سنة ١٠٠هـ، كما يقول الطبري (جـ ٣ ص ٢٤) وكذلك ذِكْر أن عدد النقباء كان اثنى عشر وأن عدد التابعين لهم كان سبعين رجلا، كل ذلك يثير الشك[١]. والروايات المذكورة في حوادث السنوات التالية تتضافر على إثبات أن أمر الدعوة لم يكن بدون تنظيم، ومعظم الروايات غير مُسْندة لأصحابها، ولا يذكر المدائنى أسماء الرواة إلا في ثلاث روايات، وها أنا ذاكرٌ ما تضمنته:

الطبري ٢ ص ١٤٣٤ (في أحداث سنة ١٠٢هـ): وجه ميسرة رسله من العراق إلى خراسان، وظهر أمر الدعة بها، فجاء رجل من بنى تميم إلى سعيد خُذَينة، أمير خراسان من قِبَل يزيد بن عبد الملك، فقال له: ها هنا قوم قد ظهر منهم كلامٌ قبيح؛ فبعث إليهم سعيد، فأُتى بهم، فقال: من أنتم؟ قالوا: لا ندري؛ قال: جئتم دعاة؟ فقالوا: إن لنا في أنفسنا وفي تجارتنا شغلا عن هذا. فسأل سعيد: من يعرف هؤلاء؟ فجاء أناس من أهل خراسان جلُّهم من ربيعة

(١) بحسب الطبري جـ ٢ ص ١٩٨٨، أرسل محمد بن علي في سنة ١٠٢ أو ١٠٣هـ رسوله (في صيغة المفرد) إلى خراسان. وبعد أن استجاب له سبعون رجلا أخذ منهم اثنى عشر نقيباً، وتختلف أسماء هؤلاء النقباء في هذا الموضع من كتاب الطبري عنها في الموضع الآخر (جـ ٢ ص ١٣٥٨) بعض الاختلاف، وفي أسماء بعضهم اختلاف أيضاً، هذا إلى أن ترتيب ذكر الأسماء ليس واحداً، ويجوز أن يكون ما جاء في كتب الملاحم اليهودية من ذكر رقم المائة قد لعب دورا. [عند الطبري، في الموضع الذي يشير إليه المؤلف س ٢ نجد أن إرسال الرسول كان في سنة ١٠٣ أو ١٠٤هـ ــ المترجم].

واليمن، فقالوا: نحن نعرفهم، وهو علينا، إن أتاك منهم شيء تكرهه، فخلى سعيد سبيلهم.

الطبري ج ٢ ص ١٤٦٧ (في أحداث سنة ١٠٥هـ) قدم بكير بن ماهان من السند، وكان بها مع الجنيد بن عبد الرحمن ترجماناً له[١]؛ فلما عُزِل الجنيد بن عبد الرحمن قدم الكوفة ومعه أربع لَبِنات من فضة ولبنة من ذهب، فلقى أبا عكرمة الصادق وميسرة ومحمد بن خنيس وسالماً الأعين وأبا يحيى مولى بنى سلمة، فذكروا له أمر دعوة بنى هاشم، فقبل ذلك ورضيه وأنفق ما معه عليهم، ودخل إلى محمد بن علي. ومات ميسرة، فوجه محمد بن علي بُكير بن ماهان إلى العراق مكان ميسرة، فأقامه مقامه.

الطبري ج ٢ ص ١٤٨٨ (في أحداث سنة ١٠٧هـ) وجه بكير بن ماهان أبا عكرمة وأبا محمد الصادق[٢] ومحمد بن خنيس وعماراً العبادى، في عدة من شيعتهم، معهم زياد خال الوليد الأزرق، دعاةً إلى خراسان، فجاء رجل من كندة إلى أسد بن عبد الله، فوشى بهم إليه، فأتى بأبي عكرمة ومحمد بن خنيس وعامة أصحابه، ونجا عمار، فقطع أسد أيدى من ظفر به منهم وأرجلهم، وصلبهم. فأقبل عمار إلى بكير بن ماهان، فأخبره الخبر، فكتب به إلى محمد بن علي، فأجابه: «الحمد لله الذي صدق مقالتكم ودعوتكم، وقد بقيت منكم قتلى ستقتل».

الطبري ج ٢ ص ١٤٩٢: نجد هنا نفس الرواية المذكورة في أحداث سنة ١٠٧هـ مذكورة في أحداث سنة ١٠٨هـ، ولكن مع فرق: هو أن أسدَ بن عبد الله أخذ عماراً فقطع يديه ورجليه، ونجا أصحابه وأخبروا بكير بن ماهان

---

(١) بحسب الطبري ج ٢ ص ١٧٢٦ س ١٠ كان بكير كاتباً لبعض عمال السند.

(٢) بحسب الطبري ج ٢ ص ١٣٥٨ س ٤ وص ٤٦٧ س ٧؛ أبو عكرمة هو أبو محمد.

بالخبر، فكتب به إلى محمد بن علي، فأجاب محمد بن علي: الحمد لله الذي صدّق دعوتكم ونجى شيعتكم.

الطبري جـ ٢ ص ١٥٠١ ــ ١٥٠٣ (في أحداث سنة ١٠٩هـ)، رواية المدائنى: أول من قدم خراسان من دعاة بنى العباس زياد أبو محمد مولى همدان، في ولاية أسد بن عبد الله الأولى، بعثه محمد بن علي بن عبد الله بن العباس وقال له: أُدْعُ الناس إلينا، وانْزِلْ في اليمن، والطُف بمُضَر؛ ونهاه عن رجل من أبرشهر (نيسابور) يُقَال له غالب، لأنه كان مفرطاً في حب بنى فاطمة. ويقـــال: أول ما جاء أهل خراسان بكتـــاب محمد بن علي، حربُ بن عثمان مولى بني قيس بن ثعلبة؛ من أهل بلخ، قال: فلما قدم زياد أبو محمد دعى إلى بنى العباس وذكر سيرة بنى مروان وظلْمَهم وجعل يطعم الناس الطعام، فقدم عليه غالب من أبرشهر، فكانت بينهم منازعة: غالبٌ يُفضّل آل أبي طالب، وزيادٌ يفضل بني العباس؛ ففارقه غالب، وأقام زياد بمرو شَتْوَةً، وكان يختلف إليه من أهل مرو يحيى بن عقيل الخزاعى وإبراهيم بن الخطّاب العدوي... وكان على خراج مرو الحسن بن شيخ، فبلغه أمره، فأخبر به أسد بن عبد الله، فدعا به وكان معه رجل يكنى أبا موسى، فلما نظر إليه أسد قال له: أعرفك؟ قال: نعم، قال له أسد: رأيتُك في حانوت بدمشق، قال: نعم، قال أسد لزياد: فما هذا الذي بلغني عنك؟ قال رُفعَ إليك الباطل، إنما قدمت خراسان في تجارة، وقد فرقت مالى على الناس، فإذا صار إلى خرجتُ، قال له أسد: اخرج عن بلادي! فانصرف فعاد إلى أمره، فعاود الحسنُ أسداً وعظّم عليه أمرَه، فأرسل إليه، فلما نظر إليه قال: ألم أنْهَك عن المقام بخراسان؟ قال: ليس عليك أيها الأمير منى بأس، فأحفظ ذلك أشداً، وأمر بقتلهم، فقال له أبو موسى. فاقْض ما أنت قاضٍ! فازداد أسدٌ غضباً، وقال له: أنزلتني منزلة فرعون! فقال له: ما أنزلتك، ولكن الله أنزلك! فقُتِلوا وكانوا عشرة من أهل الكوفة، فلم ينج منهم يومئذ إلا غلامان استصغرهما...

وقال آخرون: عرض عليهم أسدٌ البراءة، فمن تبرأ منهم مما رُفع عليه خلّى سبيله، فأبى البراءة ثمانيةٌ منهم، وتبرأ اثنان؛ فلما كان الغد أقبل أحدهما، وأسد في مجلسه المشرف على السوق بالمدينة العتيقة، فقال: أليس هذا أسيرنا بالأمس؟ فأتاه، فقال له: أسألك أن تلحقني بأصحابي! فأشرفوا به على السوق، وهو يقول: رضينا بالله ربّاً وبالإسلام ديناً وبمحمد صلى الله عليه نبياً؛ فدعا أسدٌ بسيف بخاراخذاه، فضرب عنقه بيده، قبل الأضحى بأربعة أيام. ثم قدم بعدهم رجلٌ من أهل الكوفة يسمى كثيراً، فنزل على أبى النجم، فكان يأتيه الذين لقوا زياداً، فيحدثهم ويدعوهم، فكان ذلك سنة أو سنتين، وكان أمّيّاً، فقدم عليه خداش، وهو في قرية تدعى مرعم، فغلب كثيراً على أمره؛ ويقال كان اسمه عمارة[(١)]، فسمى خداشاً لأنه خدش الدين[(٢)].

الطبري ج ٢ ص ١٥٦٠ (في أحداث سنة ١١٣هـ): سار من دعاة بنى العباس جماعة إلى خراسان، فأخذ الجنيد بن عبد الرحمن رجلاً منهم فقتله، وقال: من أصيب منهم فدمه هدر!

الطبري ج ٢ ص ١٥٨٦ فما بعدها (في أحداث سنة ١١٧): أخذ أسد بن عبد الله جماعة من دعاة بني العباس بخراسان، فقتل بعضهم ومثّل ببعضهم وحبس بعضهم، وكان فيمن أخذ سليمان بن كثير ومالك بن الهيثم وموسى بن كعب ولاهز بن قريظ (من تميم) وخالد بن إبراهيم (من بكر) وطلحة بن زريق، فأُتى بهم، فقال لهم: ألم يَقُل الله تعالى: «عفا الله عما سلف، ومن عاد فينتقم الله منه، والله عزيز ذو انتقام»؟ فذُكر أن

---

(١) بحسب الطبري ج ٢ ص ١٥٨٨ س ٩ اسمه عمار بن يزيد، أما خداش فهو يسمى في العادة خِداش، لا خدّاش، ولو أن اسمه كان خدّاشاً للزم استعمال الأداة مع الاسم فقيل الخداش [هذا ما يقوله المؤلف، ولكن يسمى خِدَاش بهذا الاسم لأنه خدش الدين ــ نقلا عن الطبري ج ٢ ص ١٥٠٣ س ١٠ ــ ١١ ــ المترجم].

(٢) [زدنا في بعض النصوص التي يذكرها المؤلف مستندين إلى الأصل ــ المترجم].

سليمان بن كثير قال: أتكلم أم أسكت؟ قال: بل تكلم! قال: نحن والله كما قال الشاعر:

لو بغير المـــاء حَلْقى شـــرقٌ　　كنتُ كالغصّان بالمـــاء اعتصارى

تدرى ما قصتنا؟ صيدت والله العقاربُ بيدك أيها الأمير، إنا أناس من قومك، وإن هذه المُضَرِية إنما رفعوا إليك هذا لأنا كنا أشد الناس على قتيبة بن مسلم، وإنما طلبوا بثأرهم. فتكلم ابن شريك بن الصامت الباهلى، وقال: إن هؤلاء القوم قد أخِذوا مرة بعد مرة، فقال مالك بن الهيثم: أصلح الله الأمير! ينبغي لك أن تعتبر كلام هذا بغيره، فقال: كأنك يا أخا باهلة تطالبنا بثأر قتيبة، نحن والله كنا أشدَّ الناس عليه. فبعث بهم أسد إلى الحبس، ثم استشار في أمرهم، وانتهى الأمر بأن أطلق أسد من كان منهم من خزاعة وبكر وعاقب من كان منهم من تميم. أما موسى بن كعب فأمر به فأُلجم بلجـــام حمار، وأمر بجذب اللجام حتى تحطمت أسنان موسى... ثم عاد بلاهز بن قريظ، فاحتج لاهز على ترك الخزاعيين والبكريين، فأمر أسد بضربه ثلاثمائة سوط، ثم قال: اصلبوه، فتدخل رجل من الأزد كان سبباً تخلية سبيل لاهز والآخرين[١].

الطبري ج ٢ ص ١٥٨٨ (في أحداث ١١٨هـ): وجه بكير بن ماهان عمار بن يزيد إلى خراسان واليـــاً على شيعة بنى العبـــاس، فنزل مرو وغيّر اسمه، وتسمى بخِدَاش، ودعا إلى محمد بن علي، فسارع إليه الناس، وقبلوا ما جاءهم به، وسمعوا إليه وأطاعوا. ثم غيّر ما دعاهم إليه وتكذّب وأظهر دين الخُرَّمية ودعا إليه، ورخّص لبعضهم في نساء بعض، وأخبرهم أن ذلك عن أمر محمد بن علي. فبلغ أسد بن عبد الله خبرُه، فوضع عليه العيون حتى ظفر به، فسأله عن حاله،

---

(١) لم يكن يستطيع أن يقتل عرب خراسان، كما فعل مع الموالى.

فأغلظ خِدَاش له القول، فأمر به أسد فقطعت يده، وخلع لسانه، وسُمِلَت عينه.

الطبري ج ٢ ص ١٥٨٩: رواية المدائنى: لما قدم أسد آمل في سنة ١١٨هـ أتوه بخداش صاحب الهاشمية، فأمر به قُرْعَةَ الطبيب. فقطع لسانه وسمل عينه، ثم دفعه إلى عامل آمل، فقتله وصلبه.

الطبري ج ٢ ص ١٦٣٩ فما بعدها (في أحداث سنة ١٢٠هـ): وجّهت شيعة بني العباس بخراسان سليمان بن كثير إلى محمد بن علي بن العباس ليعلمه أمرهم وما هم عليه، وكان السبب في ذلك أن محمد بن علي بن العباس كان واجداً على من كان بخراسان من شيعته من أجل طاعتهم لِخدَاش وقبولهم منه ما روى عن محمد من الكذب، فترك مكاتبتهم. فلما أبطأ عليهم اجتمعوا فذكروا ذلك بينهم، فأجمعوا على الرضا بسليمان بن كثير ليلقاه بأمرهم ويخبره عنهم ويرجع إليهم بما يردّ عليه. فقدم سليمان بن كثير على محمد بن علي، وهو متنكر لمن بخراسان من شيعته، فأخبره عنهم، فعنّفهم في اتّباعهم خداشاً وما كان دعا إليه وقال: لعن الله خداشاً ومن كان على دينه. ثم صرف سليمان إلى خراسان وكتب إليهم معه كتاباً، فقدم عليهم ومعه الكتاب مختوماً. ففضوا خاتمه فلم يجدوا فيه شيئاً إلا بسم الله الرحمن الرحيم، فغلظ ذلك عليهم، وعلموا أن ما أبلغهم خداش عن محمد بن علي كان عن غير أمر محمد. وبعد ذلك وجّه محمد بن علي بكير بن ماهان إلى شيعته بخراسان بعد انصراف سليمان بن كثير من عنده إليهم، وكتب معه كتاباً إليهم يعلمهم أن خداشاً حمل شيعته على غير منهاجه، فلما قدم بكير بالكتاب لم يصدقوه واستخفّوا به، فرجع بكير إلى محمد بن علي فبعث معه بعصىٍّ مُضبّبة، بعضها بالحديد وبعضها بالشبه، فقدم بها بكير وجمع

النقباء والشيعة ودفع إلى كل رجل منهم عصاً؛ فعلموا[١] أنهم مخالفون لسيرته، فرجعوا وتابوا.

الطبري ج ٢ ص ١٧٢٦ (في أحداث سنة ١٢٤هـ)، رواية المدائنى: قدم جماعة من شيعة بنى العباس، من خراسان، الكوفَة، وهم يريدون مكة، وكان معهم بكير بن ماهان، وكانوا يجتمعون في الكوفة في دار، فَغُمِزَ بهم فأُخِذوا، فحبس رئيسهم بكير بن ماهان، وكان في الحبس يونس أبو عاصم وعيسى بن معقل العجلى، وكان مع عيسى أبو مسلم يخدمه؛ فدعاهم بكير، فأجابوه إلى رأيه. وسأل بكير عيسى عن الغلام الذي معه، فقال إنه مملوك له، ثم اشتراه بكير بأربعمائة درهم. ثم خرجوا، فبعث ابن ماهان بأبي مسلم إلى إبراهيم بن محمد بن علي فدفعه هذا إلى موسى السراج، فسمع منه وحفظه، ثم صار إلى أن اختلاف إلى خراسان[٢].

ولنذكر إلى جانب ما تقدم رواية أخرى جاءت عند الطبري ج ٢ ص ١٧٢٦ فما بعدها وص ١٧٦٩: وقال غير المدائنى: توجه سليمان بن كثير ومالك بن الهيثم ولاهز بن قريظ وقحطبة بن شبيب، وكانوا نقباء شيعة بني العباس في خراسان، وهم يريدون مكة في سنة ١٢٤هـ، فلما دخلوا الكوفة أتوا عاصم بن يونس العجلى، وهو في الحبس قد اتّهم بالدعاء إلى ولد العباس، ومعه عيسى وإدريس ابنا معقل — حبسهما يوسف بن عمر فيمن حبس من عمال خالد بن عبد الله القسرى — ومعهما أبو مسلم يخدمهما، فرأوا فيه العلامات فقالوا: من هذا؟ قالوا: «غلامٌ معنا من السرَّاجين». وقد كان أبو مسلم يسمع عيسى وإدريس يتكلمان في هذا

---

(١) لا بد أنهم فهموا معنى العصى أحسن مما أفهمه أنا، ولا يمكن أن تكون العصى مجرد علامة تفويض لابن ماهان.

(٢) فيما يتعلق بالعبارة التي ليست واضحة تماماً عند الطبري ج ٢ ص ١٧٢٦ س ١٧ قارن بقية الرواية ج ٢ ص ١٩٤٩ س ١٤

الأمر، فإذا سمعها بكى، فلما رأوا ذلك منه دعوه إلى ما هم عليه، فأجاب وقبل. وقدم القوم مكة[١]، فلقوا، في قول بعض أهل السير، محمد بن علي، فأخبروه بقصة أبي مسلم وما رأوا منه، فسألهم: أحرٌ هو أم عبدٌ؟ قالوا: أما عيسى فيزعم أنه عبد، وأما هو فيزعم أنه حر، قال: فاشتروه وأعتقوه. وأعطوا محمد بن علي مائتي ألف درهم وكسى بثلاثين ألف درهم، وقال: ما أظنكم تلقوني بعد عامي هذا، فإن حدَثَ بي حدثٌ فصاحبكم إبراهيم بن محمد (ابنه)، فإنى أثق به، وأوصيكم به خيراً، فقد أوصيته بكم، فصدروا من عنده، وتوفى محمد بن علي في مستهل ذى القعدة سنة ١٢٥هـ وهو ابن ثلاث وستين سنة. وكان بين وفاته وبين وفاة أبيه على سبع سنين.

الطبري جـ ٢ ص ١٨٦٩ (في أحداث سنة ١٢٦هـ): وجه إبراهيم بن محمد الإمام أبا هاشم بكير بن ماهان إلى خراسان، وبعث معه بالسيرة والوصية، فقدم مرو وجمع النقباء ومن بها من الدعاة، فنعى لهم الإمام محمد بن علي ودعاهم إلى إبراهيم ودفع إليهم كتاب إبراهيم فقبلوه. ودفعوا إليه ما اجتمع عندهم من نفقات الشيعة، فقدم بها بكير على إبراهيم ابن محمد.

الطبري جـ ٢ ص ١٩١٦ فما بعدها (في أحداث سنة ١٢٧هـ): كتب بكير ابن ماهان إلى إبراهيم بن محمد يخبره أنه في أول يوم من أيام الآخرة وآخر يوم من أيام الدنيا، وأنه قد استخلف أبا سلمة حفص بن سليمان بن الحلاّل مولى السبيع، وهو رضىً للأمر، وكتب إبراهيم إلى أبي سلمة يأمره بالقيام بأمر أصحابه، وكتب إلى أهل خراسان يخبرهم أنه قد أسند الأمر إليه. ومضى أبو سلمة إلى خراسان فصدقوه وقبلوا أمره، ودفعوا إليه ما اجتمع قِبَلهم من نفقات الشيعة

---

(١) في آخر سنة ١٢٤هـ، وإذا كان الطبري يذكر ذلك في أخبار سنة ١٣٥هـ فليس لذلك كبير شأن، لأن الحج يقع في نهاية العام وأول العام الذي يليه.

وخمس أموالهم، وكان يلقب: «وزير آل محمد» (الطبري جـ ٣ ص ٢٠ و٦٠).

في كل هذه الروايات نجد أن الكوفة مهد دعوة العباسيين ومركزها، ففي الكوفة كان نواب الإمام الغائب وخلفاؤه، وهم ميسرة وابن ماهان وأبو سلمة، وكان بالكوفة أيضاً عدتهم وأعوانهم، وكلهم موالٍ ومن أمّة الأعاجم، ومهنتهم التجارة والصناعة. ولا شك أنه قد كان هناك عرب في شيعة بني العباس، لكنهم لم تكن لهم الرياسة، وكانت الدعوة تنتشر في خراسان، أعنى في مرو آتية من الكوفة. وبعد سنة ١٠٠هـ بزمان طويل كان الدعاة هناك من أهل الكوفة خاصة، وكانوا تجاراً غرباء، وكانت مبادئ الدعوة غير ظاهرة، وكاد يقضي عليها في مهدها، وكان أول من نجح في الدعوة خداش، وأول ما نجد ذكره في سنة ١٠٩هـ. وينبغي أن يشك الإنسان في أنه في ذلك الوقت كان قد بدأ يقوم بالدعوة فعلا، ولكن من البعيد عن الحقيقة أيضاً أن يكون إنما قدم من الكوفة إلى خراسان في سنة ١١٨هـ، وهي السنة التي قتل فيها. وقد تدفق إليه أهل مرو كالسيل، وقبلوا كلامه واتبعوه، فالظاهر أنه هو المؤسس الحقيقي لشيعة بني العباس في مرو. ويظهر أيضاً أنه هو الذي نظمهم، فلا عجب إذن أن نسمع في سنة ١١٧هـ، لأول مرة، أخبار الدعاة النقباء من أهل خراسان، وهم الذين كان محمد بن علي بن العباس نفسه قد اختارهم في سنة ١٠٠هـ، كما نسمع أن هؤلاء الدعاة النقباء صاروا أكثر تعلقاً بخداش منهم بمحمد بن علي نفسه. وعلى حين كان سواد شيعة بني العباس في مرو من الموالى كان الدعاة الأولون عرباً، ويذكر الطبري (جـ ٢ ص ١٥٨٦) ستة منهم، وكان أكبرهم، وهو الذي صار رئيسهم بعد موت خداش، سليمان بن كثير. وكان سليمان من خزاعة، وكان لخزاعة قرى في واحة مرو، وقد كان فيهم وفيمن كان معهم من الأكّارين الأعاجم طائفة كبيرة جداً تؤيد دعوة شيعة العباسيين، وكان يربط بين خزاعة وبين آل بيت

النبي [عليه السلام] حلفٌ قديم، هذا إلى أنهم كانوا ينتسبون إلى الأزد، وكان الأزد منذ سقوط المهالبة يقفون على الدوام تقريباً في صفوف الحزب المعارض لحكومة بني أمية، فكانوا أقرب للتأثر بالثورة على هذه الحكومة من قبائل مضر. على أنه كان من بين الدعاة الستة الذين أخذهم أسد في سنة ١١٧هـ ثلاثة من خزاعة وواحد من بكر واثنان من تميم. وعلى هذا لا يصح أن يعلق الإنسان كبير شأن على الفوارق بين القبائل. وكان هؤلاء الشيعة، ومن بينهم العرب أيضاً، يعارضون روح القومية العربية، وكانوا يرون أن الإسلام، لا العروبة، هو الذي يجعل للإنسان حقوق المواطن في الدولة التيوقراطية، ولم يكن الموالى أيضاً يحرمون من أن يكون لهم مكان الزعامة في الحزب، ونجد من بين الدعاة الاثنى عشر الذين يذكرهم الطبري (جـ ٢ ص ١٣٥٨)، أربعة من الموالى إلى جانب ثمانية من العرب.

ولكن محمد بن علي لم يتنكّر لخداش إلا بعد موت خداش، وهو لم يتنكر له قبل ذلك، فقيل عنه إنه الخارج المضلّ الذي بذر بذور الفساد في الدعوة وحمل الشيعة والدعاة على غير منهاج الإمام، كأنما كان خداش قد وجد حزب الشيعة أمامه، وكأنما كان قد وجده مُنَظِّماً قبل أن يدخل هو فيه. وقيل أيضاً إن الخميرة أو الطعم الذي رمى به بين مبادئ الحزب هو مذهب الخرّميّة، ولا شك أن الحزب الذي نشر مبادئه خداش وتزَعّمه كان هو حزب الهاشمية، أما الخرّمِية فلم تكن حزباً، بل كانت نزعة إباحية عامة. وكان الخرمية، كما يزعمون، لا يرضون عما في الإسلام من نزعة يهودية، أعنى أنهم كانوا يعترضون على روح التطهر والتشدد الحزبية في ذلك، فكانوا يريدون أن يجعلوا للطبيعة وللمرح مكانهما في الدين. وهم في ذلك يصلون مذهبهم بالديانة الوثنية التي كانت في بلاد العجم من قبل، ويجوز أنهم كانوا إلى جانب ذلك متأثرين بمبادئ اجتماعية كانت تلائم ما يطمح إليه الموالى أحسن ملاءمة. ويروى أن الخرّمية والراوندية قد

جددوا الدعوة إلى الشيوعية في النساء، وهي الشيوعية التي كان مزدك قد دعى إليها من قبل. وعلى هذا فإن مما يمكن تصديقه كل التصديق أن يكون خدش لم يحارب هذا الاتجاه الشيوعي، بل أن يكون قد أيّده واستفاد منه. غير أنه يجب على الإنسان أن يستبعد القول بأن يكون ذلك بمثابة حجر العثرة الذي من أجله نفر العباسيون من خداش، لأن العباسيين في ذلك الوقت جمعوا الزنادقة حولهم، وهم لم ينبذوهم إلا فيما بعد، ولم يظهروا بمظهر المتمسكين بمذهب الجماعة وأهل السنة إلا بعد أن وصلوا إلى غايتهم[١]، أما في أول أمر دعوتهم فإنهم كانوا يحاولون أن يستغلوا كل معارضة من جانب فرق الشيعة لحكومة بني أمية، أياً كان لون مذهب هؤلاء الشيعة. وكانت الغاية الأولى للعباسيين هي الناحية السلبية، أعني إسقاط حكومة الأمويين، فأما الناحية الإيجابية، وهي التغلب على الخلافة، فقد جعلوها في المحل الثاني، وهم لم يكونوا في الجملة يظهرون أمام أتباعهم بأنهم طلاب خلافة بقدر ما كانوا يزعمون أنهم الأداة التي أرادها الله لقلب حكومة بني أمية. فهم لم يُقدِّموا أشخاصهم بل قدموا القضية التي أرادوا الدفاع عنها، وهي الكفاح لنصر الحق والعدل على الباطل والظلم. وهم لم يكونوا يأخذون البيعة لأنفسهم وباسمهم، بل كانوا يأخذونها لمرضىٍّ مجهول من آل بيت النبي [عليه السلام]، ستتفق عليه الكلمة فيما بعد. بل إنه في بعض الأحيان لم تنفتح أعين أنصارهم الذين اتخذوهم وسيلة لذلك، حتى رأوا الغرض الحقيقي، إلا في وقت متأخر عن بدء الدعوة. وكان العباسيون يعملون ما استطاعوا على أن يخفوا عن الناس أنهم كانوا يريدون تنحية بني فاطمة، بل هم كانوا يظهرون أنهم يعملون من أجل بني فاطمة. وهم قد ظهروا في خراسان

---

(١) [إن كلام المؤلف هنا مبالغ فيه دون أي شك، ولقد كان غرض بني العباس أن يصلوا إلى الخلافة، ولكن أسلوب بني أمية في الحكم وسيرة بعضهم هو الذي مكنهم بحق من النجاح في دعوتهم، أما أنهم استعانوا بالزنادقة كما يقول المؤلف، فليس عليه دليل تاريخي ولا حقيقي ــ المترجم].

وفي غيرها بدعوى أنهم يريدون أن يثأروا لشهداء أبناء فاطمة، ولذلك لم يكونوا يستطيعون أن يتنكروا للحزب الآخر من الشيعة[١] ولا أن ينبذوه، لأنهم كانوا لا بد لهم أن يتخذوه عماداً لهم إزاء بني فاطمة. فأما أن يعتقد الشيعة ما يشاءون، وأن تكون سيرتهم في الحياة كما يحبون، فكان العباسيون يعتبرون ذلك مسألة يمكن حلّها فيما بعد. وكان همهم الأول هو أن يتعلق الشيعة بهم، فلم يعبأوا بالإباحية التي كنت موجودة عند الهاشمية. أما الذي كان يقلقهم فهو التنظيم الذي صار للشيعة بخراسان وصار مستقلاً عنهم وجاء على أثر اشتداد أمرهم اشتداداً كبيراً برئاسة خداش هناك. وقد تكوّنت في مرو رئاسة محلية من أهل خراسان، وهي لم تشأ ـ وهذا ما يستطيع الإنسان أن يتبينه بوضوح تام ـ أن تخضع لتوجيه رئاسة الكوفة وتأتمر بأمرها، وإن كان ذلك على كل حال لا يؤثر على الولاء لمحمد بن علي نفسه. ولكن نشأ أيضاً خطر بالنسبة لمحمد بن علي، وهو أن يفلت من يده زمام أهل خراسان، ذلك أنه إنما كان يسيطر عليهم من طريق شيعته في الكوفة، ولذلك استعمل مكانته وسلطته الشخصية التي كانت له على دعاته في خراسان في أن يحملهم على النزول عن استقلالهم والخضوع «للوزير» في الكوفة. وقد أفلح بمشقة في آخر الأمر في أن يضم إليه رئيسهم سليمان بن كثير. وعلى حين أن أهل خراسان ردُّوا «وزير الكوفة» سنة ١٢٠هـ، لما جاء إليهم في مرو، فإننا نجد أنهم رحبوا به في سنة ١٢٦ و١٢٧هـ، وأعطوه أيضاً ما اجتمع قِبَلهم من نفقات الشيعة وخمس أموالهم، وكانوا من قبل يحملون الأموال إلى الإمام نفسه، وكانوا لا يزورونه في الحميمة بل كانوا يلقونه في مكة: وكان الحج إلى مكة فرصة مواتية لاجتماع العناصر الثائرة دون أن تلتفت إليهم الأنظار، وقد صارت العلاقة الشخصية بين الأتباع

---

(١) [يقصد المؤلف في الغالب شيعة خداش ـ المترجم].

وبين الإمام تأخذ طابعاً أكثر حيوية، كما صارت من طريق المال تأخذ طابعاً أكثر واقعية.

٣ ـ وقد اتخذ إبراهيم بن محمد بن علي وخليفته خطوةً حاسمة لكي يقبض على زمام الأمر في خراسان قبضاً تاماً، وذلك بأن وجه أبا مسلم إلى خراسان[١]. وأصل أبي مسلم غامض والروايات فيه مختلفة؛ أما الذي لا شك فيه فهو أنه لم يكن عربياً بل كان أعجمياً. وكان مملوكاً أو مولى في الكوفة. وقد استرعى، وهو ما يزال في سن الصغر، انتباه شيعة بني العباس هناك، مما دعا إلى إرساله إلى إبراهيم بن محمد، فأخذه إبراهيم وضمه إلى أسرته وعلّمه لنفسه وجعله من خاصته. وفي سنة ١٢٨هـ صار أبو مسلم هو الممثل الدائم لبيت ابن العباس في خراسان، فأقام هناك وجُعل رئيساً للدعوة، وكان قد أصبح معروفاً في خراسان بعد زياراته المتكررة إليها، ثم آن الأوان، فكانت القبائل العربية الثائرة في خراسان قد أخرجت نصر بن سيّار من مرو وأصبحت أيدي الحكومة الأموية مشغولة بثورات من كل نوع وفي كل مكان[٢].

وقد بدا أن مولى يتخذه العباسيون أليق وأجدر بالثقة في خراسان من عربي حر كان حتى ذلك الحين على رأس الهاشمية هنـــاك. ولم يكن المقصود من توجيه أبي مسلم هو أن ينحى سليمان بن كثير عن مكانه، لأن الإمام إبراهيم بن محمد أوصاه بألا يخالفه ولا يعصيه وأن يكتفي عندما يشكل عليه أمر بالرجوع إليه. ولكن صار لسليمان، في شخص أبي مسلم، منافسٌ يهدد مركزه. ومن السهل أن نفهم أن سليمان، جرياً على ما فعله غيره من

(١) [راجع الطبري جـ ٢ ص ٩٤٧ ـ المترجم].

(٢) يحكى تيوفانيس (في أخبار سنة ٦٢٤٠ من تاريخ الخليقة): «ولما كان بنو أمية منذ مقتل الوليد قد وقعوا في حروب بينهم وكانوا مشغولين بذلك إلى أقصى حد، فقد اغتنم ذلك بنو هاشم وأبناء علي، وهم أيضاً قرابة النبي عليه السلام، ولكنهم كانوا يعيشون مختفين وهاربين في جزيرة العرب الصغرى، فاتحدوا تحت رئاسة إبراهيم، وبعثوا أبا مسلم مولاهم إلى خراسان، إلى رجال لهم نفوذ هناك لكي يدعوهم إلى الاشتراك في محاربة مروان».

قبل، لم يستقبل أبا مسلم فاتحاً ذراعيه، وكان من أثر ذلك أن صعب على أبي مسلم المقام في مرو. وهو لم يفده زواجه من ابنة أبي النجم ــ وكان هذا من أسرة أحد الدعاة ــ شيئاً، وظل أبو مسلم يُعْتَبَر دخيلا، ولم يستطع أن يقف إزاء سليمان، فرأى أن يخلي الميدان.

فخرج أبو مسلم من مرو راجعاً إلى الكوفة[١]، ولكنه لما بلغ مدينة قومس وأوشك أن يخرج من أرض خراسان، أمره إبراهيم بن محمد بالعودة وأرسل له راية النصر. وذلك أن تغيراً حدث في مرو، وأبدت شيعة بني العباس استعدادها لطاعة أبي مسلم نائباً مفوضاً من قِبَل آل البيت. فتولى أبو مسلم إعداد الثورة بنجاح كبير، ويظهر أن نشاطه في ذلك قد انقطع بسبب رحلة قام بها في جمادى الآخرة سنة ١٢٩هـ إلى مكة، ومعه بعض أصحابه، ليلقى الإمام هناك ويحمل إليه ما اجتمع من أموال[٢]. ولكنه لما بلغ الحدود العربية لخراسان وجه قحطبة بن شبيب الطائي إلى مكة[٣]، وعاد هو إلى مرو. فهو لم يكن يقصد من الحج سوى غرض ظاهر، أما ما كان يريده في الحقيقة فهو أن يزور الشيعة المتفرقين، على اختلاف ألوانهم، لكي يدعوهم إلى الدعوة العباسية، ويهيئهم إلى الثورة القريبة. وهو لكي يتصل بزعمائهم جاب كل خراسان الغربية حتى بلغ حدود جرجان ذهاباً وإياباً، وكان يقيم في كثير من المواضع الهامة للشيعة بعض الوقت، حتى إذا عاد إلى مرو بدأ في الظهور جهرة. وإني فيما يتعلق بالتمييز بين رحلتين قام بهما أبو مسلم أتابع تلك الرواية التي ذكرها الطبري (جـ ٢ ص ١٩٦٠ فما بعدها) دون أن ينسبها إلى أحد: ففي الرحلة الأولى خرج أبو مسلم من مرو، لأنه

---

(١) [يجد القارئ تفصيلاً في هذا عند الطبري جـ ٢ ص ١٩٤٩ فما بعدها ــ المترجم].

(٢) التاريخ الذي يذكره الطبري (جـ ٢ ص ١٩٦٢) هو بالنسبة للقيام بالحج تاريخ مبكر بعض الشيء.

(٣) [وكان هذا أيضاً بأمر من الإمام نفسه ــ الطبري جـ ٢ ص ١٩٥١ ــ المترجم].

لم يستطع المقام هناك بسبب رد الشيعة له لحداثة سنه خوفهم ألا يقوى على الدعوة وفي الرحلة الثانية جاب غرب خراسان بقصد إثارة الناس، لكنه كان يظهر الخروج للحج. أما المدائنى (الطبري جـ ٢ ص ١٩٤٩ فما بعدها) فهو لا يعرف لأبي مسلم سوى رحلة واحدة: هي الرحلة الثانية، والمدائنى لا يذكر شيئاً عما كان بين أبي مسلم وبين سليمان بن كثير من تباعد يسهل أن يكون سبباً في النزاع. لكن كل القرائن والأسباب ترجح وجود هذا النزاع، كما أبرز ذلك فان فلوتن بحق[1]. ولكن يستطيع الإنسان رغم هذا أن يكتفي برحلة واحدة، وأن يفترض أن أبا مسلم، بعد أن لم يستطع المقام في مرو، حاول بمجهوده الخاص أن يوجود لنفسه مركزاً في غرب خراسان. ولكن خروجه للحج مع قوم من أهل مرو لا يتفق مع هذا الغرض، وخصوصاً أن صعوبات ترجع إلى التواريخ تقوم دون ذلك، لأن أيام الحج الذي كان هو الغاية من السفر كانت ستحل في آخر سنة ١٢٩هـ، وأن قحطبة لم يرجع من مكة إلا في سنة ١٣٠هـ. ولكن في هذا الوقت كانت الثورة قد نظمت في مرو تحت رئاسة أبي مسلم تنظيماً تاماً، وهي قد بدأت على الفور بعد عودته من رحلته التي قام بها لدعوة الناس، ولإعدادهم للثورة. فلا بد أن يكون خلاف أبي مسلم مع سليمان بن كثير واضطراره إلى الخروج من مرو على أثر هذا الخلاف قد حدث بعد ذلك، أي قبل وصوله إلى مرو لأول مرة سنة ١٢٨هـ، وربما كان بلوغ أبي مسلم في تينكما الرحلتين إلى الحدود الغربية لخراسان، ثم عودته من هناك، قد دعا إلى اعتبار الرحلتين رحلة واحدة.

وفيما يتعلق بالثورة في قرى خزاعة عند مرو في النصف الثاني من سنة ١٢٩هـ (صيف ٧٤٧ م) يذكر الطبري رواية المدائنى (جـ ٢ ص ١٩٤٩ فما بعدها،

---

(١) قارن نص المقريزى الذي ذكره فان فلوتن عن أهل الكافية وذلك في كتابه *Recherches...* ص ٨٠.

وص ١٩٦٥ فما بعدها، وص ١٩٨٩ فما بعدها) ورواية أبي الخطاب (ص ١٩٥٣ فما بعدها وص ١٩٦٧ فما بعدها و١٩٨٤ فما بعدها) وأيضاً رواية لقوم لا يذكر أسماءهم (ص ١٩٦٠ فما بعدها و١٩٧٠ فما بعدها و١٩٩٢ فما بعدها) وهذه الروايات متفقة في بعض الخطوط الكبرى، وأيضاً في بعض التفاصيل التي تسترعى النظر، ولكنها تختلف فيما بينها بعض الاختلاف، وهي أيضاً ليست متسقة فيما بينها، وكلها بعيدة كل البعد عن أن تكون كافية.

وأقرب الروايات للصواب وأحقها بالثقة رواية أبي الخطاب، وهي تبدو عند النظرة الأولى أكثر الروايات تماسكاً؛ فهو يقول إن أبا مسلم عاد إلى مرو منصرفاً من قومس في يوم الثلاثاء ٩ شعبان سنة ١٢٩هـ (الثلاثاء ٢٥ إبريل سنة ٧٤٧ م) فنزل أول الأمر قرية تدعى فَنِين، وهي قرية أبي داود بن إبراهيم البكري[١]، وفي الثاني من رمضان (١٧ مايو) خرج أبو مسلم من هناك إلى قرية سِيقْذَنج، وهي قرية سليمان بن كثير الخزاعي، وجُعل يوم ٢٥ رمضان هو يوم الظهور بالثورة، وأخبر بذلك الأتباعُ في مرو الروذ وطخارستان وخوارزم. وفي هذا اليوم في الحقيقة عُقد اللواءان اللذان كان الإمام قد بعث بهما، ورُفعا في سيقذَنج وأوقدت النيران للشيعة من سكان القرى المجاورة، وكانت هي العلامة بينهم، فجاءوا في اليوم التالي واجتمعوا أولاً في قرية سُقادِم في ٢٧ رمضان، وبلغ عدد العسكر ألفين ومائتين من الرجالة وستة وخمسين من الفرسان. وفي يوم عيد الفطر، وهو يوم الجمعة أول شوال سنة ١٢٩هـ، أقيمت في سيقذنج أول صلاة على مذهب العباسيين، وصلى بالناس سليمان بن كثير. وبعد الصلاة والخطبة انصرف أبو مسلم والشيعة معه إلى طعام كان قد أعده لهم أبو مسلم، فطعموا مستبشرين، وبعد ظهور أبي مسلم بالدعوة بثمانية عشر يوماً[٢] أقبلت إليه خيل عظيمة بعثها نصر

---

(١) قارن الطبري ج ٢ ص ١٩٦٠ س ١٤ ــ ١٥.

(٢) ما جاء عند الطبري (ج ٢ ص ١٩٥٧ س ١٧) من ذكر أن نصراً وجه خيله لمحاربة أبي مسلم بعد ثمانية عشر شهراً من ظهوره خطأ.

ابن سيار أمير خراسان بقيادة مولى لــه يسمى زيداً، لقتال أبي مسلم، فوجه أبو مسلم أبا نصر مالك بن الهيثم الخزاعى، فهزم خيل نصر عند قرية آلين، وجُرح زيد وأسر، وأمر أبو مسلم أحد رجاله بأن يعالج هذا القائد من الجراحات التي أصيب بها وأن يحسن تعهُّده، حتى إذا اندملت الجراح دعاه أبو مسلم وخيّره بين الإقامة معه والدخول في الدعوة أو الرجوع إلى مولاه نصر بن سيار، على أن يُعطِي عهد الله ألاّ يحارب أبا مسلم وقومه ولا يكذب عليهم ولا يقول فيهم غير ما رأى، فاختار الرجوع إلى مولاه وخُلِّى له الطريق، وإنما كان أبو مسلم يقصد من حسن معاملة قائد نصر أن يكون شاهداً على أبي مسلم وشيعته في إقامتهم الصلاة وتلاوتهم القرآن... الخ. وأن يكون ذلك سبباً في رد أهل الورع والصلاح عند محاربة الثائرين. وقد شهد مولى نصر أمامه بذلك، وصرّح بأنه لولا ما يربطه بنصر من رابطة الولاء لما رجع إليه ولأقام عند أبي مسلم[١].

وفي أول ذى القعدة استولى خازم بن خزيمة التميمى على مدينة مرو الروذ، وقتل عامل نصر بن سيّار الذي كان عليها، ومكث أبو مسلم في الجملة اثنين وأربعين يوماً في سيقذنج، وفي يوم الأربعاء ٩ من ذى القعدة (السبت ٢٢ يوليه) نقل عسكره إلى الماخوان التي صارت بعد ذلك مقراً لقوم من كبار الشيعة، وهنا أعد أبو مسلم نفسه لمقام طويل وعيّن العمال وحصّن المكان. ولو أنه كان رجلاً من طرز آخر لاتخذ عند ذلك الحين مظهر الأمراء، وكان جيشه يبلغ سبعة آلاف رجل، فأمر بأن يُقَيَّد في السجل كلُّ جندي بحسب اسم أبيه واسم قريته، وكان الرزق الذي يعطيه كل منهم يتراوح بين ثلاثة وأربعة دراهم في الشهر، ووجّه أبو مسلم أهل سقادم ــ وكانوا تسعمائه رجل ــ إلى جيرنج، لكي يخندقوا هناك ويقطعوا مادة نصر بن سيار من مرو الروذ وكور بلخ وطخارستان. أما العبيد فقد جعلهم في خندق خاص بهم، ثم وجّهه

---

(١) [راجع الطبري ج ٢ ص ١٩٥٣ ــ ١٩٥٩ ــ المترجم].

بعد ذلك إلى موسى بن كعب التميمي في أبيورد، وبعد أربعة أشهر انتقل أبو مسلم من الماخوان، لأنها كانت سافلة الماء فخاف أن يقطع نصرُ بن سيار عليه الماء، وكان يخشى هجوماً من جانب عرب مرو الذين عقدوا صلحاً فيما بينهم لمحاربته، فتحول إلى آلين، واحتفل فيها بعيد الأضحى (٢٢ أغسطس سنة ٧٤٧م). وقد صح ما توقعه، فجاءت جند الحكومة بالفعل لمحاربته، وعاثوا في القرى وأفسدوا كل أنواع الفساد، حتى وجه أبو مسلم إليهم خيلاً هزمتهم. وقد وقع في يده بعض الأسرى مجروحين، فأمر بأن يعالجوا، حتى اندملت جروحهم كساهم وخلَّى سبيلهم[١]. ولكن اتحاد أعداء أبي مسلم لم يدم طويلاً، لأن سليمان بن كثير أقنع على بن جُدَيْع الكرماني بأن ينقض الصلح الذي كان بين القبائل[٢]. فقد بعث نصر بن سيار إلى أبي مسلم يلتمس منه أن يدخل مع مضر، وبعثت ربيعة وقحطان إلى أبي مسلم بمثل ذلك، فطلب أبو مسلم أن يقدم عليه وفدُ الفريقين لكي يختار أحدهما، وأمر من عنده من الشيعة أن يختاروا قحطان وربيعة، فلما أقبل الوفدان أدخل وفد قحطان في بستان أدخلهم فيه، وقعد هو في بيت، وأذِن لوفد مضر فدخلوا عليه. وكان مع أبي مسلم سبعون رجلاً من الشيعة، وكان قد أوعز إليهم بما يقولونه، فقام رجال منهم فقالوا إن مضر قَتَلَهُ آل النبي [عليه السلام] وأعوانُ بني أمية وعمال مروان الجعدى (مروان بن محمد)، وإن دماء المسلمين في أعناقهم وأموالهم في أيديهم، وإن نصر بن سيار عامل مروان ينفذ أمره ويدعو له ويسميه أمير المؤمنين، وانتهوا بأن اختاروا على بن الكرماني وأصحابه من ربيعة وقحطان على نصر بن سيار

---

(١) [راجع الطبري جـ ٢ ص ١٩٦٥ ــ ١٩٧٠ ــ المترجم].

(٢) [اتحدت قبائل العرب على محاربة أبي مسلم وإلى الوقوف إلى جانب نصر بن سيار ولكن سليمان بن كثير استطاع بتدبير أبي مسلم أن يقنع علي بن الكرماني بالانتقاض على نصر منهما نصراً بقتل أبيه جديع الكرماني وبصلبه، فأدركت الحفيظة علي بن الكرماني فانشق على الحلف وانتقض صلح العرب (الطبري جـ ٢ ص ١٩٨٤ ــ ١٩٨٥) ــ المترجم].

وأصحابه من مضر. فنهض وفدُ مضر، وعليهم الذلة والكآبة، ورجع وفد ربيعة وقحطان مسرورين. وبعد أن أقام أبو مسلم في آلين تسعة وعشرين يوماً رجع إلى الماخوان وأمر أصحابه أن يبنوا المساكن ويستعدوا للشتاء، لأن الله قد أعفاهم من اجتماع كلمة العرب. وكان رجوع أبي مسلم إلى الماخوان في يوم الخميس للنصف من شهر صفر سنة ١٣٠هـ (٢٥ أكتوبر سنة ٧٤٧ م). فأقام أبو مسلم في الماخوان ثلاثة أشهر، ثم دخل مرو في يوم الخميس ٩ جمادى الأولى(١). وكانت مدينة مرو نفسها في يد نصر بن سيار، فعند ذلك هاجم علي بن جديع مرواً من جهة، وهاجمها أحد قواد أبي مسلم من جهة أخرى، ثم دخلها أبو مسلم والقتال دائر. ووادع نصرٌ أبا مسلم، ولكنه هرب في اليوم التالي ومعه أصحابه، وقَتل أبو مسلم أربعة وعشرين من العرب من بينهم سلم بن أحوز التميمي(٢).

وليس في هذه الرواية دقة ولا كبير تماسك، وذلك يتجلى مثلاً في التكرار المتعلق برد هجوم قام به أعداء أبي مسلم على آلين، وبتعهد أبي مسلم للأسرى الجرحى وحسن معاملته لهم. غير أنه يتجلى خاصة في بعض المعلومات المتعلقة بتحديد التواريخ، وهذه المعلومات هي التي تتضمن أكبر التناقض، والفترات الطويلة المذكورة خاصة لا تتفق مع تواريخها المحددة لها في تقويم التواريخ: يأتي أبو مسلم إلى سيقذنج في ٢ رمضان سنة ١٢٩هـ (١٧ مايو سنة ٧٤٧ م) ويمكث فيها اثنين وأربعين يوماً، أي حتى

---

(١) عند الطبري ج ٢ ص ١٩٨٦ س ١٨ وص ١٩٨٧ س ١٤، كان ذلك في جمادى الأولى، ولكن بحسب ص ١٩٨٤ س ١٤ كان ذلك في جمادى الآخرة. وإذا كان أبو مسلم قد بقى في الماخوان ثلاثة أشهر تبدأ في منتصف صفر فإن الأصح هو جمادى الأولى، أما إذا كان دخوله مرواً يوم الخميس فإن جمادى الآخرة يكون هو الأصح، وذلك أن التاسع من جمادى الأولى كان يوافق يوم اثنين، والتاسع من جمادى الآخرة يوافق يوم أربعاء، وفرق يوم واحد ليس له شأن، لأن أول الشهر كثيراً ما يختلف يوما.

(٢) [راجع الطبري ج ٢ ص ١٩٨٤ ـ ١٩٩٥ ـ المترجم].

منتصف شوال (آخر يونيه). ولكنه لا يخرج من سيقذنج إلى الماخوان إلا في ٩ من ذى القعدة (٢٢ يوليه). ومن جهة أخرى يُذكر أن الفترة الأولى التي أقامها أبو مسلم في الماخوان كانت أربعة أشهر، ولكن نجده في آلين في أول ذى الحجة (منتصف أغسطس) أي بعد شهر أو أقل، ثم هو يقيم في آلين ٢٩ يوماً، أي حتى أول المحرم سنة ١٣٠هـ (منتصف سبتمبر)، لكنه لا يرجع إلى الماخوان إلا في منتصف صفر (آخر أكتوبر). أما الفترة الثانية التي يقيمها أبو مسلم في الماخوان فهي ثلاثة أشهر، أي حتى منتصف جمادى الأولى، ويتفق مع هذا على وجه التقريب تاريخ دخوله مرو؛ إذا قبلنا القول بأن ذلك كان في التاسع من جمادى الأولى لا في التاسع من جمادى الثانية.

وعلى هذا لا بد من تصحيح رواية أبي الخطاب بالرجوع إلى رواية المدائنى. أما الرواية التي يذكرها الطبري ولا ينسبها إلى أحد بعينه فهي تقف في موقف وسط بين الروايتين. فأما المدائنى فهو يقول إن أبا مسلم لم يذهب إلى الماخوان مرتين بل مرة واحدة، أما الأربعة أشهر التي يذكرها أبو الخطاب للفترة الأولى التي أقامها أبو مسلم فهي في الحقيقة كل الفترة التي أقامها أبو مسلم هناك، وعلى هذا فإن الثمانية أشهر (أربعة أشهر + ٢٩ يوماً + ثلاثة أشهر)، التي يحسبها أبو الخطاب منذ أول مجيء أبي مسلم إلى الماخوان حتى خروجه منها نهائيا تنخفض إلى النصف. على أن مقام أبي مسلم في الماخوان قد قطعته، بحسب رواية المدائنى أيضاً، رحلة قام بها أبو مسلم نفسه إلى مرو. ويقول المدائنى إنه بعد أن رجع من هذه الرحلة أقام في الماخوان ثلاثة أشهر، وهذا ما يتفق مع التسعين يوماً التي يذكرها أبو الخطاب. وكانت عودة أبي مسلم، بحسب رواية المدائنى وبحسب بعض رواية أبي الخطاب، في أول سنة ١٣٠هـ. فإذا حسبنا ثلاثة أشهر أو تسعين يوماً مبتدئين بأول سنة ١٣٠هـ، فإن أبا مسلم يكون قد خرج بعسكره من الماخوان

في أول ربيع الثاني وتوجه إلى مرو. والواقع أن المدائنى يذكر أن أبا مسلم دخل في مرو في ٩ ربيع الثاني، ويوافقه على ذلك صاحب الرواية التي لم يذكر اسمه الطبري[١]. ويؤيد هذا التاريخ، إلى جانب ما تقدم، ما يُذكر من أن النهار كان إذ ذاك قصيراً (الطبري ج ٢ ص ١٩٩٠ سطر ٢٠)، وذلك أن يوم ٩ ربيع الثاني سنة ١٣٠هـ كان يوافق يوم ١٧ ديسمبر سنة ٧٤٧ م. أما اليوم الذي يذكره أبو الخطاب بدلاً من ذلك، وهو يوم ٩ من جمادى الأولى أو جمادى الآخرة (١٥ يناير أو ١٤ فبراير سنة ٧٤٨ م) فكان بعد الانقلاب الشتوي للشمس بمدة طويلة إلى حد ما أو إلى حد كبير. وإذا رجعنا إلى الوراء أو أكثر من ذلك وصلنا إلى أول ذى الحجة سنة ١٢٩هـ ليكون أول فترة مقام أبي مسلم في الماخوان، وهي الفترة التي تبلغ في جملتها أربع أشهر. وإذا كان أبو مسلم قد عسكر في آلين فإن ذلك لم يقطع فترة الإقامة في الماخوان، بل كان قبلها. وبحسب رواية المدائنى كان أبو مسلم هناك[٢] في ذى القعدة سنة ١٢٩هـ، والروايات متفقة على أنه كان في سيقذنج وفنين في شوال ورمضان. فالإثنان والأربعون يوماً التي يقول أبو الخطاب إن أبا مسلم أقامها في سيقذنج، يقول المدائنى إن أبا مسلم أقامها في آلين، ولكن لا شك أن أبا الخطاب هو المصيب. ويستطيع الإنسان أن يأخذ بما يقوله أبو الخطاب أيضاً من أن أبا مسلم ذهب إلى فنين قبل أن يذهب إلى سيقذنج[٣].

وإذا كان هذا هو الوصف الإجمالي للحوادث استطاع الإنسان أن يحصل

---

(١) ويذكر أيضاً أن دخول مرو كان في السابع من ربيع الثاني، وكثيراً ما يحدث الخلط بين السابع والتاسع في الكتابة العربية.

(٢) بالين (الطبري ج ٢ ص ١٩٥٢ س ١٠) هي آلين أو ألّين، ولعلها نشأت من بـ + آلين، أي في آلين.

(٣) قارن كتاب van Vloten: *Opkomst der Abbasiden*، ص ٧٩.

على الصور التالية عن مجراها. إن قرى خزاعة[١] التي كان أبو مسلم يغير معسكره فيما بينها كانت تقع متقاربة في أرض خرقان، وكان المهد الأصلي للثورة في قرية سيقذنج التي كان يقيم فيها سليمان بن كثير رئيس دعاة الهاشمية، وفي قرية سيقذنج عقد اللواءان الأسودان اللذان بعث بهما إبراهيم بن محمد، وفيها أيضاً أوقدت النيران لتنبيه الشيعة، وفي سيقذنج تجمع هؤلاء الشيعة الذين كانوا في القرى المجاورة، من قرب ومن بعد، وفي سيقذنج أيضاً أقيمت في يوم عيد الفطر سنة ١٢٩هـ أول صلاة جـــامعة لشيعة بني العباس وعلى مذهبهـــم، وأمّ الناس في ذلك اليوم سليمان بن كثير. أما القول بأنه إنما فعل ذلك بأمر من أبي مسلم فهذا ما لا يصح تصديقه، بل كان لا يمكن في سيقذنج، في ذلك الحين، تنحية سليمان عن المكانة الأولى، فكان له مظهر الرئيس على الأقل، وإن كانت قيادة الثورة قد خرجت من يده. وكان أبو مسلم يشعر بأن سليمان يضيق بسلطانه، ولذلك خرج من سيقذنج بعد اثنين وأربعين يوماً، إلى آلين أولاً، ومنها توجه، قرب آخر سنة ١٢٩هـ، إلى الماخوان. وفي الماخوان ظهر بمظهر الرئيس والآمر، وزاد جيشه وزادت بذلك قوته ومكانته. وعند ذلك أثار لأول مرة القلق في نفوس العرب الذين كان يحارب بعضهم بعضاً في مرو. وقد زاد قلق العرب بسبب النجاح الذي أحرزته حركة الشيعة في نفس الوقت مواضع أخرى في ابيورد ومرو الروذ، وخصوصاً في هراة (الطبري جـ ٢ ص ١٩٦٦) وقد دعت بكر أولاً شيبان الحروري، وكانت بكر تحت إمرته، إلى مصالحة نصر، ويظهر أن علي بن جديع الكرماني حذا حذو شيبان. وكأنما أدرك العرب أخيراً ذلك الخطر الذي كان يهددهم، فأرادوا أن يواجهوه متحدين، ولكن الريبة كانت تملأ نفوسهم بعضهم من بعض، فلم يجدّوا في التضافر على حرب أبي مسلم، وأكثر ما قاموا

(١) هذه هي التسمية المشهورة، لأن قريتي فنين والماخوان لم تكونا خزاعيتين خاصة.

به أنهم أغاروا مرة على جهة من البلاد التي كانت خاضعة له، فرد أبو مسلم هذه الغارة من غير مشقة[١]، وبعد فترة قصيرة أفلح أبو مسلم في إفساد الحلف بين أولئك الإخوان المتعادين، فتوجّه بنفسه من الماخوان إلى مرو، واستطاع أن يؤثر على عليّ بن جديع الكرماني ومن معه من ربيعة وقحطان، حتى نقضوا عهدهم مع نصر بن سيار وانقلبوا عليه وعلى مضر.

وعاد أبو مسلم في أول سنة ١٣٠هـ إلى الماخوان، وكان إذ ذاك آمناً كل الأمن من خطر العرب، فاستطاع مطمئناً أن يترك بعضهم لبعض، حتى يحين الوقت الذي يجنى هو فيه ثمرة نزاعهم وقتلهم بعضهم بعضاً. وإذا كان قد أفلح في ضم ربيعة وقحطان إلى جانبه فإن ذلك لم يفسد علاقته بمضر بأي وجه من الوجوه. فيروى أنهم على خلاف ذلك كانوا قد حاولوا أن يبعدوه عن ربيعة وقحطان وأن يضموه إلى جانبهم. وإذن فقد كان الجميع يسعون إلى كسب مودته ورضاه. ومهما كان الأمر فإنهم قد أصبحوا لا يتجاسرون على أن يعاملوا أبا مسلم معاملة العدو، وهكذا أمكن أن يحدث أن أبا مسلم دخل مرواً قاضياً وحكماً، وأنه بتدخله أنهى النزاع القاسى الذي استنفدت فيه القبائل العربية قوتها. وقد حكم أبو مسلم لربيعة وقحطان على مضر، وهذا ما بدا لأول وهلة على الأقل. أما المنظر الذي يصفه أبو الخطاب لهذه الواقعة الحقيقية وبيان كيف ظهر وفد ربيعة وقحطان ووفد مضر أمام أبي مسلم وهو معسكر في الماخوان، وكيف وضعوا أمامه نزاعهم ليسكم فيه، وكيف قضى بينهم ومعه السبعون رجلا من الشيعة، فهو تصوير

---

(١) وقد أشرت من قبل إلى أن أبا الخطاب يذكر روايتين في الواقعة نفسها (الطبري ج ٢ ص ١٩٥٨ فما بعدها و١٩٧٠) في آلين، وكل منهما تنتهي بأن أبا مسلم أحسن معاملة الأسرى الجرحى لكي يكونوا دعاة له، وكلا الروايتين فيها تكلف ومبالغة. أما بحسب ما جاء في الطبري (ص ١٩٧٠) فقد كان القتال يتلخص في أن بعض جند نصر بن سيار آذوا الفلاحين وعسفوهم وذبحوا الدجاج والبقر والحمام وكلفوا الناس الطعام والعلف.

لا يخلو من تحرف، وأيضاً فإن أبا مسلم لم يفاوض جديعاً الكرماني، بل هو لم يفاوض إلا ابنه علياً. وذلك في آخر سنة ١٢٩هـ أو في أول سنة ١٣٠هـ، وكان أبو مسلم هو البادئ وكان الساعي إلى كسب مودة الكرماني ولم يكن الكرماني هو الساعي إلى مودته، وقد لاحظ ذلك فإن فلوتن بحق. وكأنما تبيَّن للناس فيما بعد مقدار ما لحق بسمعة أبي مسلم من جراء هذا الموقف، لأنه لم يكن يتفق مع الفكرة التي كونوها لأنفسهم عنه أن يُذِلّ نفسه على هذا الوجه، فمالوا إلى أن يعتبروا أن قوة موقف أبي مسلم والسلطان الذي لم يصل إليه إلا في آخر الأمر قد كانا له في وقت سابق على ذلك. ولكن إذا قبلنا هذا لم نستطع أن نفهم لماذا انتظر طويلا حتى تدخل آخر الأمر. فالحقيقة أن أبا مسلم لم يكن له في أول الأمر من القوة ما يمكّنه من أن يتحدى العرب تحدياً صريحاً، بل هو تصرّف بحكمة سياسة، فاستوقفهم وذرّ الرماد في عيونهم، بل هو لم يفسد ما بينه وبين مضر إلى حد يجعلهم يعتبرونه عدواً صريحاً لهم[1]. وإذا كان قد دعا إلى الثورة على حكومة الأمويين فإن ذلك كان في ذلك الحين شيئاً مألوفاً لا يستنكره أحد. على أن أبا مسلم لم يضع أوراقه مكشوفة على المائدة، ويحكى المدائنى (الطبري ج ٢ ص ١٩٦٥) أن فتية نُسّاكاً من أهل مرو كانوا يطلبون الفقه أتوا إليه في معسكره ليسألوه عن نسبه، فقال لهم: «خبرى خيرٌ لكم من نسبي»، فلما سألوه عن أشياء في الفقه، قال لهم: «أمْرُكم بالمعروف ونَهْيُكم

(١) [يجد القارئ في رواية عند (الطبري ج ٢ ص ١٩٩٢) أن أبا مسلم بعد أن نزل قرية الماخوان فاوض كلا من على بن جديع الكرماني ونصر بن سيار وعرض عليهما المسالمة واجتماع الكلمة والدخول في الطاعة، فقبل ذلك منه علي بن جديع الكرماني. فلما استوثق منه كتب إلى نصر بن سيار أن يبعث إليه وفداً يسمعون مقالته ومقالة أصحابه، وهذا مما يؤيد رأى المؤلف في حاجة أبي مسلم إلى السياسة والمصانعة. حتى قوى مركزه بضم اليمانية وحلفائهم من ربيعة إليه ونصرهم على المضربة أنصار الدولة الأموية ــ المترجم].

عن المنكر خيرٌ لكم من هذان ونحن في شغل، ونحن إلى معونتكم أحوج منا إلى مسألتكم، فأعفونا».

وكان أكثر أتباع أبي مسلم من الزرّاع الأعاجم، من الموالى في قرى مرو. ولكن كان بينهم بعض العرب، وكان لمعظمهم مكان الرياسة، وكانت الرابطة التي تربط بين أنصار أبي مسلم هي الدين والمذهب، وكانت نواة جيش خراسان، أعنى «جند» بني العباس، تتكون من الهاشمية، كما يصرح الطبري بذلك (جـ ٢ ص ١٩٨٧). وقد دخل أبو مسلم في مرو على رأس الهاشمية، ومن الهاشمية أمر أن تؤخذ البيعة بعد دخوله، وكان الذي يأخذ البيعة منهم هو أبو منصور طلحة بن رُزَيق الخزاعى[١] ــ أما هذه البيعة فكانت: «أبايعكم على كتاب الله عز وجل وسنة نبيه صلى الله عليه وسلم والطاعة للرضا من آل بيت رسول الله صلى الله عليه، عليكم بذلك عهد الله وميثاقه والطلاق والعتاق والمشى إلى بيت الله، وعلى ألا تسألوا رزقاً ولا طمعاً حتى يبدأ بكم وُلاتكم[٢]، وإن كان عَدُوٌّ أحدكم تحت قدمه فلا تهيجوه إلا بأمر ولاتكم». ومما يستلفت النظر في البيعة التي كان يأخذها أبو منصور، وهو الذي يذكر أنه كان رجلا فصيحاً مُفَوَّها عالماً بحجج الهاشمية وغوامض أمورهم، أنها لا تطلع الجند على غايتها الحقيقية، بل هي بيعة إجمالية في صيغتها، وهي لا تصرح بشخص الإمام العباسي من بين أهل بيت الرسول عليه السلام. وأول ما أخذه على الجند هو الطاعة التامة لولاتهم، والواقع أن هؤلاء الثائرين قد استخدموا الدين على مبادئ حربية؛ فلم يكن الرجل العادي بحاجة إلى أن يعرف أسرار قادته، بل كان يكفيه الإيمان بالراية السوداء. وكان للأحزاب الإسلامية قبل ذلك بزمان طويل ألوية من كل لون[٣]، ولكن لم يبرز شأن

---

(١) قارن في هذا ما قاله فان فلوتن عن أهل الكافية (الكفاية؟) في كتابه: *Recherches*، ص ٦٦، ٨٠.

(٢) [راجع فيما يلي الطبري (جـ ٢ ص ١٩٨٧ ــ ١٩٨٩ ــ المترجم].

(٣) كان لون العلم أحمر عند الخوارج (الأغانى جـ ٢٠ ص ١١٢ س ٣١) وكان أسود =

اللواء ولونه وأهميته عند أحد بروزَه عند شيعة بني العباس في خراسان، وكانوا يحملون اللواء الأسود على أبدانهم، ويسميهم تيوفانيس Χουρασάιοι μαυροφόροι [1] أي: الخراسانيون لابسو السواد، كما يسمون عند صاحب كتاب الصلة لتاريخ إيزيدور (نشرة Mommesen، فصل ١٣٤): Persarum pullata demonia، أي الشياطين السود من أهل فارس. ويقال إن لواء النبي [عليه السلام] كان أسود، لذلك اتخذ العباسيون لواء أسود. وفي كتب النبوءات ورد ذكر الرجل صاحب العلم الأسود الذي يبدأ عصر جديداً. ولكن الحارث بن سريج، وكان أول من قاد ثورة الموالى باسم الإسلام، كان له أيضاً علم أسود. ويجوز أن أبا مسلم أخذ عن ابن سريج دون غيره العلم الأسود لأن هذا العلم كان قد أصبح محبباً إلى نفوس الموالى.

خاطب نصر بن سيار، أمير مرو من قِبَل بني أمية، العربَ بالأبيات التالية التي حفظها لنا الدينورى (ص ٣٦٠):

أبلغ ربيعة في مروٍ وإخوتها أن يغضبوا قبل ألاّ ينفع الغضبُ

= بحسب الأغانى أيضاً وبحسب ص ٩٩ س ٩، قارن أيضاً (الطبري جـ ٢ ص ١٩٨١ وص ٢٠٠٧، ولسان العرب جـ ١١ ص ٣٢٩). أما خصوم العباسيين فقد اختاروا اللون الأبيض، ولم يقتصر ذلك على أهل الشام الموالين لبني أمية، بل اختار العلويون أيضاً اللون الأبيض (الطبري جـ ٣ ص ٢٢٣ و٢٧١ و٢٩٥ و٢٩٨ و٣٦١ و٥٠٨). وكان بعض الثوار (الخرّمية) في بلاد الجبل يلبسون اللون الأحمر، فسموا لذلك بالمحمِّرة (الطبري جـ ٣ ص ٤٩٣ و٦٤٥ فما بعدها و١٢٣٥).وكان مع الحسن بن علي بن الحسن المعروف بالأفطس علم أصفر فيه صورة حية (الطبري جـ ٢ ص ٢٣٧). وكان لبعض الرجال العظماء اللون الخاص الذي اتخذوه شعاراً لهم، وكان يلبسه أيضاً مواليهم وأتباعهم (الطبري جـ ٣ ص ٥١٦). أما عند العرب القدماء، فكان اللون الأسود هو لون الأخذ بالثأر (الأغانى جـ ٨ ص ٧٥ س ٢٠).

(١) الكتابة الصحيحة لهذه الكلمة هي Χορασαν أو Χουρασαν، ذلك أن تيوفانيس يجري على ما جرى عليه السريان من استعمال ου على أنه حرف قصير، أما كتابة الكلمة هكذا Χωρασαν فهي خطأ، وكلا الـ α حرف ممدود.

ما بالكـم تُلقِحون الحـرب بينكمُ	كأن أهـل الحجى عن فعلكم غُيُبُ
وتتركـون عـدواً قـد أظلّكـم	ممن تأشّبَ، لا ديـن ولا حسـب
ليسوا إلى عـرب منـا، فنعرفهم	ولا صميم المـوالى، إن هُمُ نُسِبوا
قومـاً يدينون ديناً ما سمعت به	عن الرسول، ولا جاءت به الكتب
فمن يكن سائلى عـن أصل دينهمُ	فـإن دينَهـم أن تُقتـل العـرب

وفي رواية عند الطبري (ج ٢ ص ١٩٣٧ و١٩٧٤ وج ٣ ص ٢٥) أن الإمام إبراهيم بن محمد نفسه أوصى أبا مسلم وصية صريحة: بأنه إن استطاع ألاّ يدع في خراسان من يتكلم العربية فليفعل، وأن يقتل كل غلام بلغ خمسة أشبار يتّهمه[١]. ويحكى تيوفانيس (في أخبار سنة ٦٢٤٠ من تاريخ الخليقة) أن العبيد الذين أثارهم أبو مسلم في خراسان قتلوا سادتهم في ليلة وأخذوا أسلحتهم وخيلهم وأموالهم وتجهزوا بها للحرب. أما فيما يرويه الطبري من أخبار تاريخية لدخول أبي مسلم مدينة مرو فلا يجد الإنسان شيئاً من ذلك، وكل ما يقال هو أن أبا مسلم قتل أربعة وعشرين من ثقات أصحاب نصر وصناديدهم[٢] بعد أن هرب نصر. أما جند أبي مسلم فقد أمرهم أبو مسلم بالتزام أدق نظام، وحرّم عليهم أن يقتلوا أحداً من تلقاء أنفسهم. وإذن فمن الجائز أن تكون الروايات هنا كما في أحوال أخرى قد لطّفت من ذكر الحوادث، مراعاةً لجانب بني العباس وإرضاءً لهم، ومن الجائز أن يكون الموالى قد أطلقوا لغضبهم العنان في عنف أشد مما يبدو من الروايات التي ذكرها الطبري. ولكن لا يجوز أن يبالغ الإنسان رغم ذلك في تأكيد القول بعداوة الموالى للعرب على أساس الشعور القومى عند الموالى، وذلك أن حركة الثورة لم تأت من جانب أمة الأعاجم، بل من جانب فرقة ضيقة النطاق إلى حد ما، ولم يكن العرب يُمْنَعون من

---

(١) [قارن أيضاً الدينورى ٣٥٨ ــ المترجم].

(٢) [راجع الطبري ج ٢ ص ١٩٨٩، ١٩٩٥ ــ المترجم].

الدخول فيها، وكانت الثورة تستند إلى مبادئ دينية ذات طابع سياسي واجتماعي، وأصلها في الإسلام. ولم تكن حركة الثورة من حيث مبادئها موجهة ضد الأجانب، بل كانت موجهة ضد الزنادقة. ولذلك سميت أسلحة الموالى بأنها كافركوبات[١]. وكان أخص أخصاء أبي مسلم، وهم أبو نصر وأبو داود وغيرهم، ولم يكن القتال موجهاً إلى العرب من حيث هم عرب؛ بل إلى العرب الحاكمين وبالاستناد إلى الإسلام، لأنهم كانوا لا يحكمون بالعدل ولا يستندون في حكومتهم إلى الحق والشرع، ولأنهم كانوا يؤيدون حكومة بني أمية الخارجة على الدين، ولا يعترفون بمبدأ المساواة في الحقوق بين المسلمين من العرب وغير العرب في الدولة التيوقراطية. أما الأحزاب العربية التي كانت معارضة لبني أمية كأهل العراق وقبائل اليمن في خراسان فكان الأعاجم يعتبرونهم حلفاء لهم أولاً وقبل كل شيء. على أن محاربة العروبة في الدولة الإسلامية باسم الإسلام قد انتهت في الواقع بأن علا شأن الأعاجم وبأن صار العرب منذ انتهت سيادتهم بانتهاء سيادة بني أمية أمةً مضطهدة. وقد تنبأ بذلك نصر بن سيار. وكان ذلك أيضاً مما تقضى به طبيعة الأشياء، لكنه لم يكن المقصد الأصلي. وقد غلبت قوميةُ الغالبين على الإسلام نفسه، بعد أن كبرت وترعرعت بين أحضانه. ولكن الإسلام، لا فكرة القومية، هو الذي كان القوة الدافعة في نهوض أهل خراسان، كما أن الإسلام كان من قبل هو القوة الدافعة في نهوض العرب أنفسهم، وهنا في خراسان كان الإسلام مفهوماً فهماً جديداً حليفاً لأمة جديدة[٢].

---

(١) الأغانى جـ ٤ ص ٩٣ والدينورى ص ٣٦٠، أما الطبرى فهو لا يذكر الكافركوبات إلا عند الكلام عن خشبية المختار جـ ٢ ص ٦٩٤.

(٢) [هذا رأي المؤلف. ولكن عداوة الموالى للعرب على أساس الشعور شيء طبيعي، ولا شك أنه قد كان له تأثير، أما الإسلام الجديد الذي يتكلم عنه فهو الإسلام الأول تماماً، وهو دين المساواة بين معتنقيه. ولكن لم يكن من طبيعة الأشياء ولا مما تقتضيه سياسة الدولة وتمكينها أن يكون العرب دولة ثم يسلموها للأعاجم في أول الأمر ـ المترجم].

٤ ــ وجّه أبو مسلم أبا داود خالد بن إبراهيم البكرى، أحد أنصاره المخلصين، إلى طخارستان. وكان أبو داود في هذه البلاد من قبل يقوم بالدعوة (الطبرى ج ٢ ص ١٩٦٠ س ١٤ فما بعده). وبعد أن أفلح أبو داود في إخراج زياد بن عبد الرحمن القشيرى، عامل بنى أمية، من مدينة بلخ، كتب إليه أبو مسلم يأمره بالقدوم إليه، ووجّه مكانه يحيى بن نعيم البكرى. ولكن يحيى كاتب زياداً في أن «تصير أيديهم واحدة». وكان زياد لا يزال ثابتاً محتفظاً بسلطانه في مدينة ترمذ الحصينة، غير بعيد من بلخ. وعند ذلك اتحدت كلمة جميع العرب في تلك الناحية، مضريّهم ويمانيّهم وربيعيّهم، على قتال المسوِّدة، شيعة بنى العباس، وانضم إليهم الأعاجم هناك، وجعلوا الولاية عليهم لمقاتل بن حيّان النبطى، كراهة أن يكون القائد من الطوائف الثلاث. وإن اتحاد كلمة العرب والأعاجم على قتال شيعة بني العباس يمكن أن يتخذ سنداً لتصورات خاطئة، ومما يستحق الانتباه إلى بعض أعلام هؤلاء المتحالفين كانت سوداء ــ فلا شك أنها كانت أعلام الحارث بن سريج. فوجّه أبو مسلم صاحبه أبا داود إلى الميدان من جديد، وبعد معركة على نهر السرجنان خرج المتحالفون من بلخ مرة أخرى وتراجعوا إلى مدينة ترمذ. ثم كتب أبو مسلم إلى أبي داود يأمره للمرة الثانية بالقدوم عليه، ووجّه النضر بن صبيح المرى إلى بلخ، وقدم أبو داود على أبي مسلم، واجتمع رأيهما على أن يفرقا بين علي وعثمان ابنى جديع الكرماني، فبعث أبو مسلم عثمان عاملاً على بلخ، ولكنه لم يستطع الثبات هناك لأن المضرية أقبلوا من ترمذ بقيادة مسلم بن عبد الرحمن الباهلى ابن أخى قتيبة بن مسلم المشهور، فأخرجوه من بلخ، فكان لا بد أن يعود أبو داود إلى هناك للمرة الثالثة، لأنه لم يكن عنه غنىً. هذه هي الرواية التي يذكرها الطبرى

(جـ ٢ ص ١٩٩٧ فما بعدها)، وهي رواية لا يمكن أن تقوم رواية مقامها أحسن منها[١].

وصارت في يد أبي مسلم في أرض خراسان الحقيقية الولايات الشرقية الثلاث: وهي مرو ومرو الروذ وهراة، أما في القسم الغربي من خراسان، وهو ولاية نيسابور، فلم يكن في يده سوى مدينتى نسا وابيورد. وكان نصر بن سيار، عامل خراسان، يقيم في مدينة نيسابور. أما في سرخس فكان هناك شيبان بن سلمة الحرورى[٢]، وكان قد تنحى هو أيضاً عن مرو بعد هروب نصر بن سيّار منها، ذلك أن شيبان لم يكن يستطيع البقاء هناك، لأنه كان يرى رأى الخوارج، وكان من قبل حليفاً لعلي بن جديع الكرمانى على قتال نصر، لأن نصراً كان من عمال مروان بن محمد. فلما صالح عليٌّ أبا مسلم اضطر شيبان إلى الخروج من مرو، علماً منه أنه لا طاقة له بحرب أبي مسلم وعليّ بن جديع مجتمعيْن. فأرسل أبو مسلم إلى شيبان يدعوه إلى البيعة، فأجاب شيبان قائلا: أنا أدعوك إلى بيعتي. فأرسل إليه أبو مسلم أن يختار بين الدخول في البيعة وبين الرحيل، فسار شيبان إلى سرخس واجتمع إليه جمع كثير من قبائل بكر، ولما لم يستجب إلى دعوة وجهها إليه أبو مسلم مرة أخرى بعث أبو مسلم جيشاً إليه فهزمه وقتله، وفر جند شيبان، وكان معظمهم من بكر، إلى نيسابور، ولحقوا بنصر بن سيار. ثم بدأ أبو مسلم في قتال نصر، فنشأت الحرب الكبيرة التي أدت إلى انهيار دولة الأمويين أمام «الشياطين السود»، ولم يتولّ أبو مسلم نفسُه القيادة في هذه الحرب، بل ولى قحطبة بن شبيب، وكان عربياً من طى[٢]. وكان قحطبة في

---

(١) فيما يتعلق بثورات على أبي مسلم، قامت بعد ذلك في بلاد السغد، راجع الطبرى. جـ ٣ ص ٧٤ و٧٩ فما بعدها، وكان للعباسيين يد في ذلك، ولم يمكن إخضاع ما وراء النهر لسلطان الإسلام إخضاعاً تاماً إلا على يد أبي مسلم والعباسيين.

(٢) [فيما يتعلق بشيبان ومقتله راجع الطبري جـ ٢ ص ١٩٩٥ ـ ١٩٩٧ ـ المترجم].

(٣) قارن الحماسة ص ٣٠٣ فما بعدها.

أثناء الثورة غائباً في مكة وكان قد ذهب إليها للقاء الإمام إبراهيم بن محمد في أيام الحج، ولم يعد إلا بعد أن استولى أبو مسلم على مدينة مرو. ولما انصرف قحطبة من عند إبراهيم بن محمد عقد له إبراهيم لواء وجعله على مقدمة أبي مسلم، وجعل له القيادة والعزل والاستعمال، وكتب إلى الجنود بالسمع والطاعة له(١). وأقر أبو مسلم ذلك، وأسند إليه القيادة. فخرج قحطبة في الجيش(٢)، ومعه أو تحت إمرته أبو عون عبد الملك بن يزيد الأزدى وخازم بن خزيمة التميمى وخالد بن برمك البلخى وغيرهم من القواد(٣)، فوجّه نصر بن سيار ابنه تميما للقاء جيش أبي مسلم. وبعد أن قاتل تميم وقُتل في طوس، خرج نصر من نيسابور في آخر شوال سنة ١٣٠هـ، الموافق آخر يونيه سنة ٧٤٨ م (الطبرى جـ ٢ ص ٢٠١٦). وبعد ذلك بقليل من الزمان تحول أبو مسلم من مرو إلى نيسابور فنزلها(٤)، وأخذ معه حليفه عليّ بن جديع الكرماني وقتله في الطريق. وفي نفس الوقت قتَل أبو داود البكرى عثمان بن جديع الكرمانى في طخارستان (الطبرى جـ ٢ ص ١٩٩٩ فما بعدها). وهكذا أدى الحلف بين ربيعة وقحطان وبين شيعة العباسيين مهمته، وهو الحلف الذي أمكن بفضله الاستيلاء على مرو، وأمكن القضاء على منافسة مقلقة بفضل قتل زعيم ربيعة وقحطان، لأنه يظهر أنه كان لا يزال له في مرو مكانة قوية توازى مكانة أبي مسلم.

وكان نصر بن سيار قد خرج من نيسابور إلى قومس على حدود جرجان، وكان معه العرب الذين هربوا من خراسان، من قبائل تميم وبكر وقيس، وكتب مروان بن محمد إلى يزيد بن هبيرة أمير العراق بأن يوجه نُباتَةَ بن حنظلة الكلابى

---

(١) [راجع في هذا الطبري جـ ٢ ص ٢٠٠٠ ـ المترجم].

(٢) [راجع الطبري أيضاً جـ ٢ ص ٢٠٠٠ ـ ٢٠٠٣ ـ المترجم].

(٣) نجد عند تيوفانيس (في أخبار سنة ٦٢٤٠) أنه يضع قحطبة في مكانة ليست أقل من مكانة أبي مسلم.

(٤) الطبرى جـ ٣ ص ٣، لكن قارن جـ ٣ ص ٥٩.

إلى جرجان[١]. ولكن نباتة لم يتعاون مع نصر، بل زاده ضعفاً، لأن من كان في جيش نصر من قيس انحازوا إلى نباتة، فقصد قحطبة إلى نباتة أولاً، فدخل جرجان في ذى القعدة سنة ١٣٠هـ، ثم قاتل نباتة في يوم الجمعة مستهل ذى القعدة (الخميس أول أغسطس سنة ٧٤٨ م)، وكانت معركة انهزم فيها نباتة وقُتِل. ويظهر أن نصراً كان في أثناء ذلك قد أفلح في مقاومة الحسن بن قحطبة الذي كان قد توجه لقتاله، وذلك أنه لما اقترب الجيش من نصر انحاز إليه أبو كامل ــ وكان أحد قواد الشيعة ــ وصار مع نصر وأعلمه مكان الحسن. ولكن بعد أن قُتل نباتة لم يمكث نصر في قومس طويلاً، فهرب مخترقاً المفازة حتى بلغ همذان، ولكنه لم يجد في أي مكان تأييداً من عمال بني أمية[٢]. وفي أحد الشهور الأولى من سنة ١٣١هـ التقى قحطبة مع ابنه الحسن في قومس، وخرج من هناك متوجهاً إلى الغرب، وأرسل ابنه أمامه، وسلّمت له الرى وهمذان. ولكن جند الشام الذين كانوا في همذان فروا منها بقيادة مالك بن أدهم، عامل همذان، وكذلك جند خراسان الذين كانوا مع نصر بن سيار، اجتمعوا جميعاً في نهاوند[٣] وقاتلوا الحسن بن قحطبة قتالاً شديداً لما جاء وحاصرهم هناك، ثم أقبل عامر بن ضُبَارة المُرِّى، ومعه جيش كبير العدد حسن العدة من أهل الشام، ليفك الحصار عن نهاوند، فدخل أرض كرمان بجيشه، وذلك بعد أن كان قد هزم عبد الله بن معاوية واضطره إلى الفرار، ولكن بينا هو في طريقه إلى نهاوند هاجمه قحطبة بنفسه فهزمه وقتله[٤]. ووقعت هذه المعركة الدامية عند جابلق من

---

(١) [راجع الطبرى ج ٢ ص ٢٠٠٢ ــ ٢٠٠٦، ٢٠١٦، ٢٠١٧ ــ المترجم].

(٢) مات نصر في ساوه قرب همذان في ربيع الأول سنة ١٣١هـ (٩ نوفمبر سنة ٧٤٨ م) وهو ابن خمس وثمانين سنة [راجع في ذلك وفي وفاة نصر الطبرى ج ٣ ص ١ ــ ٢ ــ المترجم].

(٣) [راجع الطبري ج ٣ ص ٣ ــ ٩ المترجم].

(٤) يجب بدلا من كلمة Ιβιδαρα عند تيوفانيس (في أخبار سنة ٦٢٤٠) أن نقرأ كلمة Ιβινδαβαρα بحسب ما جاء عند أنسطاسيوس، لأن المقصود هو ابن ضبارة لا نباتة، كما يظن رابسكه (Abulfeda, I, and. 238) خطأ.

أعمال أصبهان في يوم السبت لسبع بقين من رجب سنة ١٣١هـ (الثلاثاء ١٨ مارس سنة ٧٤٩ م). وبعد ذلك التقى قحطبة وابنه أمام نهاوند، وبعد أن حاصراها ثلاثة أشهر (الطبرى ج ٣ ص ٧ س ١٨) طلب أهل الشام الأمان لأنفسهم، وأهل خراسان لا يعلمون، فنالوا الأمان دون زملائهم من أهل خراسان، فنجوا، وقُتل أهل خراسان.

وعند ذلك أصبح الطريق إلى العراق مفتوحاً أمام قحطبة[١]، فوجّه ابنه الحسن أمامه، ثم خرج من نهاوند ولحق به، مارّاً بقرماسين، حتى بلغ حلوان وخانقين. وكان ابن هبيرة، أمير العراق من قبل مروان بن محمد، قد خرج بجيش كبير عبر الفرات للقاء قحطبة ووصل إلى جلولاء وعسكر بها، فتجنبه قحطبة بمهارة، وعبر دجلة وتقدم إلى الكوفة من غير أن يمر بمعسكر ابن هبيرة، ووقف حيناً عند الأنبار على الفرات. فأسرع ابن هبيرة في اللحاق به وعسكر إلى الجنوب على الشاطئ الأيسر لنهر الفرات، عند الموضع المسمى فم الفرات في الفلّوجة العليا حيث يتفرع النهر إلى الكوفة، وأرسل حوثرة بن سهيل الباهلى في مقدمة أمامه إلى الكوفة، ولكن قحطبة عبر الفرات عند دِمِمًّا وسار مع الضفة اليمنى حتى بلغ الحائرة، في مواجهة المكان الذي كان ابن هبيرة قد عسكر فيه. وفي ليلة الأربعاء ٨ المحرم سنة ١٣٢هـ (الأربعاء ٢٧ أغسطس سنة ٧٤٩ م) عبر قحطبة الفرات عند مخاضة، ومعه فرقة صغيرة، وهاجم معسكر ابن هبيرة[٢]. فانهزم جيش ابن هبيرة وأصحابه مأخوذين، فانسحبوا إلى فم النيل أولاً، ولكن ابن هبيرة لم يمكث هناك، بل سار مع جدول النيل حتى لجأ إلى مدينة واسط الحصينة التي كانت مقر الحكومة. ولما علم حوثرة بذلك، وكان قد تقدم حتى بلغ قصر

---

(١) [راجع الطبرى ج ٣ ص ١٠ ــ ١٨ ــ المترجم].

(٢) وكل هذا جاء مشبهاً للخطط الحربية التي عمل بها مسلمة بن عبد الملك، وهو يحارب يزيد بن المهلب سنة ١٠١ أو ١٠٢هـ.

ابن هبيرة[١]، لم يجرؤ على دخول الكوفة، بل هو لحق بابن هبيرة في واسط، وانتصر قحطبة انتصاراً تاماً، ولكنه دفع حياته ثمناً لهذا النصر. وذلك أنه في أثناء اضطراب الليل قُتِلَ على صورة خفية[٢]، ولا شك أن قحطبة قد قام، من الناحية العسكرية، بالعمل الأكبر في نصر العباسيين. ولقد عقد النصر للواء الأسود، ووطد في الأذهان أن هذا اللواء لا يُغلب. وتولى القيادة بعده ابنه الحسن، وكان قد بقى على الضفة اليمنى، فاستطاع أن يدخل الكوفة من غير قتال، وذلك أن محمد بن خالد القسرى ــ وهو ابن خالد بن عبد الله القسرى الذي قتله بنو أمية، وجعلوه من الشهداء ــ كان قد تجاسر، ومعه اليمانية، على القيام بالثورة تأييداً لبنى العباس واستولى على القصر[٣]. وبعد أن كان حوثرة قد خرج لم يتعرض له أحد. وكتب محمد بن خالد إلى قحطبة، ولم يكن يعلم بهلكه، يخبره أنه قد ظفر بالكوفة، فوقع الكتاب في يد الحسن بن قحطبة، فجاء ودخل الكوفة في يوم الثلاثاء ١٤ محرم سنة ١٣٢هـ[٤] (٢ سبتمبر سنة ٧٤٩ م). أما في البصرة فقد حاول سفيان بن معاوية بن يزيد بن المهلب، ومعه اليمانية وحلفاؤهم من ربيعة، أن يقوم بثورة لإسقاط حكومة الأمويين[٥]، ولكنها أخفقت، وذلك أن أحياء قيس ومضر ومن كان معهم من أهل الشام ومن بنى أمية ومواليهم ناهضوه تحت قيادة سلم بن قتيبة الباهلى، عامل البصرة، فأخمدوا حركة اليمانية وربيعة. فأخذ هؤلاء في كل مكان ينضمون إلى ثورة أهل

---

(١) [اسم مكان بنى فيه ابن هبيرة قصراً، فسما فيما بعد قصر ابن هبيرة ــ المترجم].

(٢) [راجع الطبرى جـ ٢ ص ١٤ ــ ١٨ ــ المترجم].

(٣) [راجع الطبرى جـ ٣ ص ١٨ فما بعدها ــ المترجم].

(٤) [عند الطبرى (جـ ٣ ص ٢ س ١) أن الحسن بن قحطبة صبح محمد بن خالد في الكوفة يوم الاثنين ــ المترجم].

(٥) راجع في ذلك الطبرى [جـ ٣ ص ٢١ ــ ٢٣ المترجم].

خراسان، على حين ظلت مضر تحارب وحدها من أجل سيادة العروبة[١].

وعند ذلك ظهرت الحكومة السرّيّة لبنى العباس أمام الناس في الكوفة[٢]، وخرج أبو سلمة «وزير آل محمد» من مخبئه وتسلم مقاليد الحكومة. فأقام في حمام أَعْيَن، حيث كان يعسكر جند خراسان. وكان قد آن الأوان لبنى العباس، لكي يخرجوا من الركن الذي كانوا منزوين فيه ويتقدموا إلى الرياسة. ولكن كان قد وقع في يد مروان بن محمد كتابٌ من إبراهيم بن محمد بن العباس إلى أبي مسلم يوصيه فيه بقتل كل من يتكلم بالعربية في خراسان، فأمر الخليفة مروان بن محمد بالقبض على إبراهيم بن العباس وبحمله من الحميمة إليه. ويروى أن إبراهيم بن العباس حين أُخذ للمضى به إلى مروان بن محمد نعى نفسه إلى أهل بيته حين شيّعوه، وأمرهم بالمسير إلى الكوفة مع أخيه أبي العباس عبد الله بن محمد وأمرهم بالسمع والطاعة له، وأنه أوصى إلى أخيه أبى العباس وجعله الخليفة بعده. وإذن فلا بد أن يكون القبض على إبراهيم بن محمد قد وقع قبل دخول أهل خراسان في الكوفة بوقت قصير. وذلك لأنه لم يكد يمضى شهر بعد هذا الحادث حتى وصل العباسيون إلى الكوفة في صفر سنة ١٣٢هـ. وكانوا أربعة عشر رجلاً، من أجيال مختلفة، منهم أولاً أبناء علي بن عبد الله بن عباس: داود وعيسى وصالح وإسماعيل وعبد الله وعبد الصمد؛ وموسى بن داود؛ ثم أبناء محمد بن علي بن عبد الله بن عباس: أبو العباس وأبو جعفر ويحيى؛ وأحفاد لمحمد بن على: عبد الوهاب بن إبراهيم بن محمد وأخوه محمد وعيسى بن موسى

---

(١) أخذت هنا برواية الراوية القديم أبي مخنف، وهذه آخر رواية على لسانه عند الطبرى (جـ ٣ ص ١٠ و١٤ و١٥ و٢٠) وعلى هذا فإن أبا مخنف قد شهد الكارثة، ولكن لا بد أنه قد كان إذ ذاك قد بلغ من الكبر عتياً. والمدائنى وهو أكبر الرواة الذين يذكرهم الطبرى يخالف أبا مخنف في نقط غير ذات شأن، وهو يذكر تفاصيل أدق. قارن المسعودى جـ ٦ ص ٧٣ واليعقوبى جـ ٢ ص ٤١٢ والحماسة ص ٤٠٣ فما بعدها.

(٢) [راجعفي هذا وفيما يلى الطبرى جـ ٢ ص ٢٤ ـــ ٣٧ ـــ المترجم].

ابن محمد، وأخيراً يحيى بن جعفر بن تمام بن عباس من أحد فروع بنى العباس[(١)].

على أن هؤلاء العباسيين لم يُستَقبلوا في الكوفة بذراعين مفتوحين. وذلك أن أبا سلمة «وزير آل محمد»، بعد موت إبراهيم بن محمد، لم يعتبر حقهم في الخلافة حقاً بديهياً، وخصوصاً أن أبا سلمة كانت تربطه ببنى العباس البيعة التي أعطاها للإمام إبراهيم بن محمد نفسه. وقد ضاق أبو سلمة بالعباسيين، وحاول أن يكتم أمر مجيئهم إلى الكوفة، فأخفاه نحواً من أربعين يوماً عن جميع القواد والشيعة, ومنع الناس من الاتصال بالعباسيين، وكان يأمرهم بالاختفاء، وكان إذا سُئل عن ظهور الإمام يدعى أن وقع ظهوره لم يجيء بعد، وأن واسطاً لم تُفْتَح بعد، بل هو لم يبعث لأبى العباس بمائة دينار سأله إياها ليعطيها للجمال كراءَ الجمال التي حملتهم إلى الكوفة. وكان أبو سلمة يفكر، بعد موت الإمام إبراهيم بن محمد، في تحويل الأمر إلى آل أبي طالب. ولكن أبا الجهم، أحد

---

(١) داود بن علي وابنه موسى لم يكونا مع الذين جاءوا من الحميمة، بل هم لم ينضموا إلى العباسيين الذين خرجوا من هناك إلا وهم في طريقهم عند دومة الجندل. وقد حاول داود أن يثنيهم عن عزمهم في الذهاب إلى الكوفة.

[وخصوصاً أن شيخ بنى مروان، مروان بن محمد، كان بحرّان مطلاً على أهل العراق ومعه أهل الشام وأن شيخ العرب، يزيد بن عمر بن هبيرة، كان في العراق في حلبة العرب. ولكن بنى العباس لم يستمعوا إليه وساروا وشعارهم كلمة قالها رئيسهم وهي: من أحب الحياة ذُل، وبيت للأعشى وهو:

فمـــا مَيْتَةٌ إن مِتّها غيــرَ عاجــز بعـــارٍ إذا ما غـــالت النفسَ غولُهـــا

فعند ذلك التفت داود إلى ابنه موسى وقال له: صدق والله ابن عمك، فارجع بنا معه نعش أعزاء أو نمت كرماً ــ الطبرى جـ ٢ ص ٣٣ ــ ٣٤ ــ المترجم]. على أن الأسرة العباسية لم تكن دائماً مجمعة على الإمام إبراهيم بن محمد، وقد انضم عيسى وعبد الله ابنا علي بن عبد الله بن عباس، وأيضاً أبو جعفر، أخو الإمام إبراهيم، إلى عبد الله بن معاوية بن عبد الله بن جعفر لما خرج على بني أمية (الطبرى جـ ٢ ص ١٩٧٧). ويظهر أن سليمان بن على أيضاً، لا داود بن على وحده ــ وسليمان لا يذكر بين العباسيين الأربعة عشر ــ لم يكن في الحميمة، بل كان يقيم في العراق ــ قارن أيضاً اليعقوبى جـ ٢ ص ٤١٩.

خاصة أبي مسلم الخراسانى، استطاع أن يتصل بالإمام إبراهيم دون علم أبى سلمة، وركب معه اثنا عشر من قواد أهل خراسان، وخرج من معسكر حمام أعين فتوجه إلى الكوفة ودخل على العباسيين وسلّم هو ومن معه على أبي العباس بالخلافة. فاضطر أبو سلمة، بعد أن علم ذلك، إلى أن يذهب إلى هناك ويسلم هو أيضاً على أبي العباس بالخلافة[١]. وكان أبو جهم، بعد أن عاد، قد خلف بعض أصحابه هناك ليروا ما سيفعله أبو سلمة وليضربوا عنقه إن لم يُبَايعْ الإمام، فلما فعل قال أبو حميد أحد القواد: على رغم أنفك يا... فقال له أبو العباس: مَهْ. وفي يوم الجمعة ١٢ ربيع الثاني سنة ١٣٢هـ (الجمعة ٢٨ نوفمبر سنة ٧٤٩ م) تمّتْ البيعة العامة لأبي العباس وللأسرة الجديدة في المسجد الجامع بالكوفة. وصعد أبو العباس المنبر وخطب، وكان موعوكاً، فاشتدّ به الوعك فجلس على المنبر. وعند ذلك صعد عمه داود بن علي، وكان دونه على مراقى المنبر، فخطب أيضاً، والخطبتان قد وصلتا إلينا، لكنهما غير صحيحتين، وإن كان ما تضمّنتاه يناسب الموقف، فقد جاء فيهما بيان فضل بيت الرسول وحقوقهم، وذكر لآيات من القرآن في ذلك، كما أشارت خطبة الإمام إلى الدعوة الباطلة التي يدعيها البعض في أن غير العباسيين أحقُّ منهم بالرياسة والخلافة[٢]، والمقصود هنا هم العلويون. وقد تضمنت الخطبتان تأكيد المودة والمصلحة المشتركة بين العباسيين وبين أهل الكوفة[٣]، فخاطبهم الخليفة قائلاً: «يا أهل الكوفة! أنتم محلُّ

---

(١) هكذا يروى المدائنى (الطبرى ج ٣ ص ٢٨ فما بعدها), وثم رواية أخرى تختلف عن ذلك (الطبرى ج ٢ ص ٣٤ فما بعدها)، قارن المسعودى ج ٦ ص ٩٢ فما بعدها واليعقوبى ج ٢ ص ٤١٣.

(٢) جاء في خطبة الإمام: وزعمت السبئية الضلال أن غيرنا أحق بالرياسة والسياسة منا. الخ... (الطبرى ج ٣ ص ٢٩ س ١٧). [والمؤلف على حق فيما يراه من أن السبئية كلمة تشنيع تطلق على بعض شيعة عليّ الأولين ــ المترجم].

(٣) قارن ما جاء على لسان خالد بن عبد الله القسرى (الطبرى ج ٢ ص ١٨١٦ س ٧) من تهديده هشام بن عبد الملك بالدعوة إلى «عراقى الهوى شامى الدار حجازى الأصل»، بقصد محمد بن علي بن عبد الله بن عباس.

محبتنا ومنزل مودتنا، أنتم الذين لم تتغيروا عن ذلك ولم يَثْنِكم عن ذلك تحاملُ أهل الجور عليكم، حتى أدركتم زمانَنا وأتاكم الله بدولتنا، فأنتم أسعد الناس بنا وأكرمهم علينا». وخاطبهم داود بن علي قائلاً: «يا أهل الكوفة! إنا والله ما زلنا مظلومين مقهورين على حقنا، حتى أتاح الله لنا شيعتنا أهل خراسان، فأحيا بهم حقنا، وأفلج بهم حجتنا، وأظهر بهم دولتنا، وأراكم الله ما كنتم به تنتظرون، وإليه تتشوفون، فأظهر فيكم الخليفة من هاشم وبيّض بهم وجوهكم، وأدالكم على أهل الشام، ونقل إليكم السلطان وعز الإسلام، ومنّ عليكم بإمام منحه العدالة، وأعطاه حسن الإيالة. فخذوا ما آتاكم الله بشكر والزموا طاعتنا، ولا تُخْدَعوا عن أنفسكم، فإن الأمر أمركم، **وإن لكل أهل بيت مِصْراً، وإنكم مِصْرُنا**». وهكذا نجد بنى العباس يقولون إن شيعتهم من أهل خراسان، وهم إذا قضوا على سلطان بني أمية حرروا أهل العراق أيضاً من نير أهل الشام. وهكذا أيضاً انتهى الصراع الذي دام بين أهل العراق وبين أهل الشام قرابة قرن، دون أن يصل إلى نتيجة، بنصر أهل العراق. وعاد مقر الخلافة إلى الكوفة التي كانت مقر علي بن أبي طالب من قبل. والعبارة البارزة في خطبة داود بن علي هي قوله لأهل الكوفة: «**إن لكل أهل بيت مصراً، وإنكم مِصْرُنا**». وكان لا بد من ذلك بطبيعة الحال لإرضاء شعور أهل الكوفة، ولكن محور الثقل في الدولة الإسلامية قد انتقل بالفعل من دمشق إلى الكوفة والعراق، وكان ذلك حادثاً له شأن حاسم[١].

على أن أبا العباس لم يكن عظيم الثقة بأهل الكوفة[٢]، فلم يجعل مقامه في مدينتهم، بل أقام في حمام أعين، بين أهل خراسان. وبعد حين من الزمان

---

(١) راجع تيوفانيس (في أخبار سنة ٦٢٤١).

(٢) [راجع في هذا أو فيما يلي الطبري جـ ٢ ص ٣٧، ٥٨ فما بعدها ـ المترجم].

انتقل إلى الحيرة، ثم انتقل منها إلى الهاشمية، وذلك، فيما يذكر، لكي يبعد بنفسه عن أبي سلمة. وكان أبو سلمة يقيم في حمام أعين، وظل ما بين الإمام وبين أبي سلمة متباعداً، فكان أبو سلمة يميل إلى العلويين، وكان يجاهر بذلك حتى ثبتت الريبة به وثبت أنه لم يكن في ذلك وحده، وخصوصاً أن أزمَّة قيادة حزب الشيعة كانت في يده حتى ذلك الحين. ولم يجرؤ الخليفة على أن ينفرد بمؤاخذته، وذلك أن الخليفة لم تكن له قوة وكان في الواقع من صنع القوم الذين كان في الظاهر يستخدمهم في الوصول إلى غاياته ــ كان من صنع أهل خراسان، صناع الملوك، وكان هؤلاء الخراسانيون، إلى جانب ذلك يعلمون حق العلم ضعف السند الشرعي لخلافته، فكان الخليفة مفتقراً كل الافتقار إلى حسن نوايا قوم آخرين كان لهم من النفوذ والقوة أكثر مما كان له، فأرسل أخاه أبا جعفر عبد الله بن محمد إلى خراسان ليعلم له رأى مسلم، صاحب النفوذ الأكبر على جيش خراسان، وليعرف هل كان مسلك أبي سلمة إزاءه عن رأى أبي مسلم أم لا. وكان من حسن الحظ أن أبا مسلم لم تكن له يد فيما صنع أبو سلمة، ولا شك أنه قد أقرّ عين العباسيين، لما بعث لأبي سلمة من قتله. وفي الوقت نفسه قتل أبو مسلم منافسه القديم سليمان بن كثير رئيس النقباء، وذلك أن أبا مسلم بلغه عن سليمان كلام يدل على ميله مع أبي سلمة إلى العلويين، فاغتنم أبو مسلم ذلك وقتله، شفاءً لما كان في قلبه من بغض له. وكان أبو جهم، وهو من خاصة أبي مسلم، عند الخليفة أبي العباس ليراقب ما يصنع، وكان غالباً على أبي العباس(١).

وبينما كانت هذه الأمور تجرى في المشرق، كان المغرب أيضاً مسرحاً لحوادث تهز النفوس(٢). فبعد سقوطتها نهاوند في ذى القعدة سنة ١٣١هـ، وجه

---

(١) اليعقوبي جـ ٢ ص ٤٣٣ والطبري جـ ٢ ص ٦٧ و٨٨.

(٢) الطبري جـ ٣ ص ٩ فما بعدها وص ٣٨ فما بعدها نقلا عن المدائنى في الغالب.

قحطبة أبا عون عبد الملك بن يزيد الأزدى إلى شهرزور، وبعد معركة كان له فيها النصر في ذى الحجة سنة ١٣١هـ (١٠ أغسطس سنة ٧٤٩ م) أخرج أبو عون جند الشام من شهرزور، ونزل أرض الموصل إلى شمال نهر الدجلة وثبت أقدامه هناك، وبعد الاستيلاء على الكوفة جاءته إمدادات من هناك، لكنه اضطر إلى أن ينزل عن القيادة إلى عبد الله بن علي بن العباس. وسار الخليفة مروان بن محمد بن حرّان ومعه جنود الجزيرة والشام من العرب وتقدم عبر الفرات لقتال أهل خراسان. ووقعت المعركة على ضفة نهر الزاب الكبير، وبدأت في ٢ جمادى الآخرة سنة ١٣٢هـ. وانتهت في يوم السبت ١١ جمادى (الأحد ٢٥ يناير) بهزيمة مروان هزيمة قبيحة. ويقول تيوفانيس إن جيش مروان كان يتألف من ثلاثمائة ألف رجل، وإنه قد فرّ من جيشه آلاف أمام ألف واحد وعشرة آلاف أمام ألفين من جيش أعدائه. ونجد في روايات أخرى ذكر الفارق الكبير بين عدد كل من الجيشين المتقاتلين. ومن السهل أن نفهم المقصود من ذلك، وهو إثبات القاعدة الكبرى، وهي أن النصر من عند الله، فهو الذي يلقى الرعب في قلوب الفئة الكبيرة من الكافرين أمام الفئة القليلة من المؤمنين. أما بحسب رواية للمدائنى (الطبرى جـ ٣ ص ٤٧) فلم يكن جيش مروان يزيد عن اثنى عشر ألف رجل، وكانت كفة مروان في أول الأمر هي الراجحة، ولكن الهزيمة القبيحة جاءت من أن قيساً لم تشأ أن تقاتل دون قضاعة[(١)]. على أنه مما لا شك فيه أن الثقة في النصر وصدق العزم على القتال كانا في جانب أهل خراسان، وكان العرب قد فقدوا الثقة، ولم يريدوا أن يضحوا بأنفسهم. وقد أخرج مروان الأموال ووعدهم أن يعطيها لهم، إن

---

(١) [لما هجم أهل خراسان قال مروان لقضاعة: انزلوا! فقالوا: قل لبنى سليم فلينزلوا. فأرسل إلى السكاسك أن احملوا، فقالوا: قل لبنى عامر فليحملوا... وهكذا (الطبرى جـ ٢ ص ٤٠ ــ ٤١) ــ المترجم].

صبروا وقاتلوا، ولكنهم مالوا على الأموال فأخذوها، حتى إذا قيل: «الهزيمة»، انهزموا. وغرق كثير من الهاربين في نهر الزاب، لأن الجسر كان قد قطع.

وعبر مروان نهر الدجلة راجعاً إلى حرّان، فبقى هناك نيفاً وعشرين يوماً، ومما يحسب له من الفضل والنبل أنه عند ذلك خلّى سبيل المعتقلين السياسيين الذين وجدهم في الحبس أمامه، أما الذين كانوا قد حالوا الهروب قبل وصوله فقد قتلهم أولياؤه من أهل حران. وذهب مروان من حران إلى قنسرين ومنها إلى حمص ثم إلى دمشق ثم إلى حصن أبي فطرس عند Jope (يافا؟)، ونزل هناك في جوار رجل من أمراء جذام بنى روح ابن زنباغ، وذلك لأن أرض فلسطين كانت قد خرجت من يد حكومة بنى أمية. ومن أبي فطرس هرب مروان على مدينة الفرما من ساحل مصر، لما اقترب مطاردوه مهددين له. وتبعه عبد الله بن علي، في جند خراسان، وانضم إليه في أثناء الطريق أخوه عبد الصمد وأخوه صالح، فسار إلى الموصل ومنها إلى حران فمنبج فقنسرين فبعلبك فعين الجرّ، حتى بلغ المزة قرب دمشق، وهنالك نزل، فاستولى على مدن الشام من غير قتال. وطبيعي أن هذه المدن لم تكن متعلقة بمروان (المسعودي جـ ٦ ص ٨٤ فما بعدها)، ولكن عبد الله اضطر أن يحاصر دمشق، وكان مروان قد استخلف فيها الوليد بن معاوية بن مروان بن الحكم، وكانت له القيادة. غير أن أهل دمشق لم يقفوا إلى جانبه بقوى متّحدة، ثم تعصب الناس فيها، فقتل بعضهم بعضاً وأخيراً قاتلوا مروان وفتحوا أبواب المدينة لعبد الله بن علي في يوم الأربعاء العاشر من رمضان[١] سنة ١٣٢هـ. وبعد أربعة عشر يوماً سار عبد الله إلى فلسطين، ومنها ارتحل إلى الأردن. ثم أتى نهر أبي فطرس، وبعد ذلك وجه أخاه صالح بن علي في طلب مروان في مصر، ومعه أبو عون. فخرج صالح في ذى القعدة سنة ١٣٢هـ (٧٥٠ م) قاصداً مصر، وفر مروان أمامه من مكان إلى مكان حتى انتهى إلى بوصير عند

---

(١) [يقول المؤلف في ١٤ رمضان. وقد تابعنا الطبري جـ ٣ ص ٤٨ ــ المترجم].

الروضة في جهة الأشمونين من بلاد الصعيد، وهناك عُرِف مكان مروان، وتفرق عنه أصحابه بعد قتال شديد (تيوفانيس) وقُتل[(١)]. وقد هاجمه عربيٌّ من أهل خراسان من بلحارث اليمنيين في جماعة من أصحابه، وكان هذا الخراساني وهو يهاجم مروان يقول لأصحابه بالفارسية: دهيد يا جوانگان، أي اضربوا أيها الفتيان! وقتل مروان، وكان ذلك في آخر سنة ١٣٢هـ ــ أول أغسطس سنة ٧٥٠م[(٢)] ــ وأرسل برأسه وشارات الخلافة أيضاً، بحسب رواية المسعودى، إلى أبي العباس. وفي بيت شعر يذكره ابن الأثير (ج ٢ ص ٣٢٧) أن لسان مروان قد أكله هرٌّ. وبقى أبو عون في مصر، وكان هو في الواقع القائد الحقيقي للحملة.

أما مدينة واسط، وهي الحصن الذي كان الحجاج قد بناه في أرض القصب من وادى دجلة، فإنها لم تكن قد غُلِبَت بعد. وكان ابن هبيرة، ومعه أهل الشام، قد لاذ بها، بعد أن هزمه قحطب عند بابل. وقد اجتمع إليه أيضاً بعض عرب خراسان، خصوصاً من بكر، تحت قيادة يحيى بن نعيم[(٣)]، فأتبعه الحسن بن قحطبة وحاصره هناك. وبعد حين أمر الخليفة أبو العباس أخاه أبا جعفر أن يتوجه إلى واسط مع الحسن وأن يتولى القيادة، ولكن الحسن كان في الواقع هو المدبر للعسكر. ولم يكن الحسن في الحقيقة تابعاً للخليفة، بل لأبي مسلم، وقد

(١) [أخبر أسرى من جند مروان وقعوا في يد الخراسانيين بمكان مروان على أن يؤمنهم الخراسانيون، وبلغه الخراسانيون في آخر الليل، «فهرب الجند وخرج إليهم مروان في نفر يسير فأحاطوا به فقتلوه». راجع الطبري ج ٣ ص ٤٩، وتجد تفاصيل ما يقوله المؤلف من أمر قاتل مروان في ص ٤٩ ــ ٥١ ــ المترجم].

(٢) قارن الأغانى ج ٤ ص ٩٢ والمسعودى ج ٦ ص ٧٦ فما بعدها، والتنبيه ص ٣٥٨، وابن الأثير ج ٥ ص ٣٢٦ فما بعدها، واليعقوبي ج ٢ ص ٤١٤، وياقوت ج ٤ ص ٦٧٠، ويوم الاثنين (٢٧ الحجة)، الذي يذكر هنا لا يتفق مع يوم الأسبوع، لا الأحد ولا الاثنين.

(٣) لا يصح الخلط بينه وبين يحيى بن حضين.

أرسل أبو مسلم أبا نصر مالك بن الهيثم الخزاعى، ومعه جند من أهل خراسان، لشدّ أزر الحسن. ولم يكن الاتحاد سائداً بين أهل المدينة المحصورين، وتشاجرت اليمن ونزار (أي مضر وربيعة)، ولكن المدينة رغم ذلك قاومت الحصار أحد عشر شهراً. ولم يدخل ابن هبيرة في مفاوضات إلا بعد أن علم بمقتل مروان، أي في أحد الشهور الأولى من سنة ١٣٣هـ (خريف ٧٥٠ م)، ودامت المفاوضات أربعين يوماً، إلى أن وضع العلماء الأمان الذي كتب على نحو يرضى الطرفين(١). وقد أقره أبو العباس، ولكن بنى العباس لم يفوا بما جاء في كتاب الأمان الذي كُتِب لابن هبيرة، فقتلوا القواد الذين كانوا أسرى في أيديهم، وكانوا يحملون الخواتيم دلالة على مناصبهم، وقتلوا النزارين دون اليمانيين، وأخيراً لقى ابن هبيرة نفس المصير، بعد أن جُرّد من حرسه وأُخذ ما كان في يده من أموال(٢).

ويروى الطبرى أيضاً هذا الحادث الذي تتجلى فيه القسوة والغدر الشائن. على أن الطبرى يؤثر السكوت عن رواية الاحتفالات الدامية التي جعلها

---

(١) [لما طال الحصار على ابن هبيرة تجنّى عليه أصحابه، فقال اليمانية: لا نعين مروان وآثاره فينا. وقالت النزارية: لا نقاتل حتى يقاتل معنا اليمانية. وكان إنما يقاتل معه الصعاليك والفتيان. وهمَّ ابن هبيرة بأن يدعو إلى أحد العلويين، فكتب إليه، لكنه أبطأ في الجواب. ثم كاتب أبو العباس أصحاب ابن هبيرة اليمانية وأطمعهم، وخرج إلى أبي العباس بعضُهم، ووعدوا ابن هبيرة أن يصلحوا له ناحية أبي العباس، لكنهم لم يفعلوا. «وجرت السفراء بين أبي جعفر وبين ابن هبيرة، حتى جعلوا له أماناً، وكتب به كتاباً مكث يشاور فيه العلماء أربعين يوماً حتى رضيه ابن هبيرة، ثم أنفذه إلى أبي جعفر، فأنفذه أبو جعفر إلى أبي العباس، فأمره بإمضائه». وكان رأى جعفر الوفاء لابن هبيرة، ولكن أبا العباس اضطر أن يأخذ رأى أبي مسلم، لأنه كان لا يقطع أمراً دونه، فقال له أبو مسلم: «إن الطريق السهل إذا ألقيت فيه الحجارة فسد. لا والله! لا يصلح طريق فيه ابن هبيرة». الطبري (جـ ٣ ص ٦٧). وتجد قصة الغدر بابن هبيرة وقتله في ص ٦٧ ـ ٧٠ ـ المترجم].

(٢) تجد مراثي لابن هبيرة عند الطبرى جـ ٣ ص ٧٠ وفي الحماسة ص ٣٧٢ فما بعدها والأغانى جـ ١٦ ص ٨٣ فما بعدها.

بنو العباس من مظاهر الاحتفال بانتصارهم[١]. ولقد كان الأمويون عاملوا بنى العباس بكرم وعفو لم يكن لهما داعٍ[٢]، فشكر لهم بنو العباس ذلك بأن استأصلوا شأفتهم واستصفوا أموالهم ولم يراعوا في ذلك أي اعتبار إنسانى، بل صبوا جام الغضب الإلهي والانتقام الشرعي على رءوس بنى أمية. ولما كان ليس لديهم من موجبات الأخذ بالثأر إلا قليل، فإنهم استعاروا شيئاً من أسباب الثأر التي كانت عند العلويين وظهروا بمظهر الثائرين لهم[٣]، فآتاهم ذلك في الوقت نفسه وسيلة لتنحية العلويين، وذلك لأن الذي يمهد الطريق إلى الرياسة، سبل الذي يزيد الحق فيها[٤]، ليس هو أن يكون عند الإنسان ما يوجب الأخذ بالثأر، بل هو الأخذ بالثأر بالفعل. أما الباعث الحقيقي للعباسيين فقد كان سياسياً بطبيعة الحال، لأنهم كانوا يريدون أن يقضوا على شر الأسرة الأموية بعد أن أسقطوها قضاءً تاماً. وكل ما فعله العباسيون يعيد إلى الأذهان ما صنعه «الأنبياء» من إفناء بيت عمرى[٥].

وكان المسرح الأكبر للفظائع التي ارتكبها العباسيون مع بنى أمية هو بلاد الشام، وكان عبد الله بن على هو الذي تولى القيادة في الشام. أما وزر هذه

---

(١) تجد أخبار ذلك عند اليعقوبي والمسعودي وابن الأثير وفي كتاب الأغانى. ومن الأهمية بمكان أيضاً قصيدة من ذلك العصر لرجل من العبلات أو المولى لهم، وقد بقيت منها أجزاء كبيرة عند ياقوت جـ ٤ ص ٢٣٩ و٣٣٦ و٨٣١، وفي كتاب الأغانى جـ ٤ ص ٩١ وجـ ١٠ ص ١٠٥، والعبلات أحد فروع بيت بنى أمية.

(٢) [لم يقتل بنو أمية من العلويين والعباسيين إلا من ثار على دولتهم، وقد أحسن عمر بن عبد العزيز إلى آل البيت كما كان سليمان بن هشام يقضى حوائج العباسيين ويبر بهم ــ الأغانى في جـ ٤ ص ٩٣ ــ ٩٦ ــ المترجم].

(٣) [راجع مثلا اليعقوبى جـ ٢ ص ٤٢٥ ــ ٤٢٦ والمروج للمسعودى جـ ٢ ص ٢٠٧ ط القاهرة ١٣٤٦هـ ــ المترجم].

(٤) [مما يقصده المؤلف استناد بنى أمية في محاولتهم الوصول إلى الخلافة، إلى أنهم أصحاب الثأر لمقتل عثمان ــ المترجم].

(٥) [في تاريخ بنى إسرائيل ــ المترجم].

الفظائع فلا يقع على كاهل أهل خراسان، ويدل على ذلك ما جاء في كتاب الأغانى (جـ ٤ ص ٩٤ و٩٦). وذلك أن أهل خراسان كانوا جنداً يلتزمون روح النظام الدقيق، ولم يكونوا يفعلون شيئاً إلا إذا أُمروا به؛ بل وقعت الأعمال الفظيعة بأمرٍ من العباسيين (اليعقوبى جـ ٢ ص ٤٢٧). ومما له مغزاه أنه لم يفلت من العقاب موتى الأمويين أنفسهم، فنُبِشت قبور الخلفاء وغيرهم من بنى أمية في دمشق ودابق والرصافة وفي قنسرين وغيرها من الأماكن، وأُحرقت جثثهم بالنار، إن كان قد بقى في قبورهم شيءٌ منها. ومما يستلفت النظر أن عمر بن عبد العزيز ومعاوية بن أبي سفيان لم يُمَسَّا بسوء، وقد صبّ بنو العباس جام غضبهم على هشام بن عبد الملك، وكان هشام قد فعل ما دعا بنى العباس إلى ذلك[1]، ولم يكن قد مضى على موته وقت طويل، فنبش عبدُ الله بن علي قبرَه وأخرج جُثَّتَه ولم يكن قد بلى منها إلا أرنبة أنفه، وضربها بالسوط وصلبها، ثم حرقت بعد ذلك وأُذرى رمادها في الريح (المسعودى جـ ٥ ص ٤٧١ فما بعدها). وقد فعل عبد الله بن علي بمن كان على قيد الحياة من بنى أمية أفظع فعلة في أبي فطرس، وكان قد أقام هناك حيناً بعد أن كان قد أخرج مروان. فقد استدرج، فيما يذكر، أكثر من ثمانين من بنى أمية، فأمرهم أن يحضروا لأخذ الجوائز والعطايا، ثم دعاهم إلى طعام، كأنه قد اتخذ Jehu (ياهو) مثلاً له يحتذيه، ثم ألقى بعض موالى العباسيين وبنى هاشم أبياتاً من الشعر، يحرضون بها عبد الله على الفتك ببنى أمية والثأر لمقتل العلويين والإمام إبراهيم بن محمد، فلما سمع عبد الله بدا كأنما التهب قلبه بنار الثأر، فأمر بالأمويين فشُدِخوا بالعمد وبُسِطت الأنطاع على جثث القتلى ونصبت عليها مائدة الطعام، فأكل، وهو

---

(١) [جـاء في كتاب اليعقوبي جـ ٢ ص ٤٢٧ ـ ٤٢٨ أن هشـام بن عبد الملك كان قد ضرب علي بن عبد الله بن العباس ستين سوطاً، فلما جاء ابنه عبد الله بن على ثار لأبيه، فنبش قبر هشام وضربه مائة وعشرين سوطاً، وهو يتناثر، ثم جمعه وأحرقه ـ المترجم].

يستمع إلى أنين الضحايا[١] حتى ماتوا جميعاً. وهذا المنظر، بما فيه من استدراج الضحايا بدعوتهم إلى وليمة ومن إنشاد قصيدة تدعو إلى انفجار غضب يبدو غير مصطنع، يتكرر في مناسبة أخرى تُضاف إلى أبي العباس أو داود بن علي بدلا منه[٢] ـ وهذا مما يدعو إلى الشك في صحتها. أما وقائع المذابح والتمثيل نفسها فهي لا شك فيها. وقد بقيت في نفوس عرب الشام ولم تنمح ذكراها، كما لم تنمح من ذاكرة الإسرائيليين القدماء تلك المذبحة التي قُضِي فيها على بيت عمرى. وقد وضع يوم أبي فطرس طابعه في جبهة بنى العباس، كما وضع يوم عزريل طابعه في جبهة بيت Jehu. ويذكر المسعودى (جـ ٦ ص ٧٦) أن ذلك الحادث المروع كان في ١٥ ذى القعدة سنة ١٣٢هـ (٢٥ يونيو سنة ٧٥٠ م). أما تيوفانيس فهو يخطئ في جعله بعد ذلك بعامين[٣]. ولكن إشارته القصيرة التي لم يتنبه إليها أحد حتى الآن لها أهميتها، لأنه يتضح منها أن الموضع المسمى بأبى فطرس هو المكان القديم الذي كان يسمى باسم أنتيپاتريس (Antipatris).

أما في المدينة ومكة فقد كان داود بن علي هو جلّاد بني أمية[٤]، وكان

---

(١) الكامل ص ٧٠٧، ابن الأثير جـ ٥ ص ٣٢٩ فما بعدها، وثم رواية أخرى عند اليعقوبي جـ ٢ ص ٤٢٥ فما بعدها، وفي الأغانى جـ ٤ ص ١٦٠ فما بعدها.

(٢) الأغانى جـ ٤ ص ٩٤، وقتل الأعداء، وهم مدعوون إلى طعام، ظاهرة تروى كثيراً.

(٣) يقول تيوفانيس: «في سنة ٦٢٤٣، قتل الحاكمون الجدد معظم (المسيحيين باعتبارهم) أقرباء الأسرة السابقة، وذلك بأن قضوا عليهم في أنتيپاتريس في فلسطين بحيلة دبروها». والذي يدل على أن الموضع المسمى عند العرب بأبي فطرس هو نفس المكان القديم الذي كان يسمى أنتيپاتريس هو اسم فطرس (Futrus=Patris) والحارث نفسه. والموضع القديم الذي كان يسمى أنتيپاتريس أو كفرسبا Kapharsaba (راجع Josephus Ant. 16, 142, 13,890) كان يقع في وادي العوجا عند الموضع الذي يجب أن نلتمس فيه حصن أبي فطرس بحسب وصف العرب. أما الشيء الذي لا يفهمه الإنسان هو وصف الأمويين بأنهم نصارى فلا بد أن يكون هناك خطأ أو إدخال كلمة أضيفت إلى النص فيما بعد.

(٤) تجد مناظر مذابحهم في كُدا عند صاحب الأغانى جـ ٤ ص ٩١ فما بعدها وعند ياقوت جـ ٤ ص ٢٤٤.

سليمان بن على جلادهم في البصرة، أما في الحيرة فقد أمر أبو العباس نفسه بقتل من حُمِل إليه من بني أمية أو من جاء إليه يلتمس الأمان. وكان من هؤلاء سليمان بن هشام، الذي كان ألد أعداء مروان بن محمد، فكان لذلك يعتقد أنه سينال الأمان التام. بل إنه بعد أن كفّ العباسيون آخر الأمر عن تعقب بنى أمية كان من بقى من هؤلاء لا يأمنون على أنفسهم لو ظهروا، فظلّوا متستّرين، وقضوا حياتهم في الشدة والضر، وكانوا دائماً يخشون أن يُؤخذوا فيُقتلوا إن عرفهم الناس. ولم ينْجُ منهم إلا حفيدٌ لهشام بن عبد الملك، هرب إلى إسبانيا ووصل هناك إلى الرياسة.

ولكن أهل الشام الذين كان ملكهم حتى ذلك الحين ملكا سلبياً أحنقهم آخر الأمر قتل أسرتهم السابقة واستئصال شأفتها على هذا النحو الفظيع، ولم يكن حنق قيس على ذلك بأقل من حنق كلب. فثارت قيس في قنسرين خاصة، وكان على رأسهم أشرف رجل فيهم، وهو أبو الورد مَجْزَأَة بن كوثر، أحد أحفاد زفر بن الحارث. وقد انضمت إلى قيس قبائل كلب في تدمر، كما انضم إليهم عرب حمص، فبايعوا لأبي محمد السفياني الذي كان مروان بن محمد قد خلّى سبيله في آخر لحظة. وقد بايعه أبو الورد على أنه الوارث الشرعي للخلافة، ولكن هؤلاء الثائرين هُزموا وشتّت شملهم على يد عبد الله بن علي عند مرج أخرم قرب قنسرين، وذلك في آخر سنة ١٣٣[١]هـ، أي في آخر يوليه سنة ٧٥١ م، وقتِل أبو الورد ومعه خمسمائة رجل من أهل بيته وقومه. وهرب أبو محمد السفياني في أنصاره من كلب، فتوجّه إلى تدمر أولاً، ثم هام في أرض الحجاز هارباً،

---

(١) بحسب الطبري ج ٣ ص ٥٥ كان ذلك في آخر يوم من ذى الحجة سنة ١٣٣هـ، لكن ذلك اليوم لم يكن يوم ثلاثاء كما مذكور، بل كان يوم خميس. أما تيوفانيس (في أخبار سنة ٦٢٤٢) فهو لم يكن يذكر أن ذلك في قنسرين بل حمص ـــ ومن الجائز أن يكون قد وقع هناك قتال أيضاً.

حتى قبض عليه آخر الأمر، وقتل في أيام أبي جعفر المنصور ثاني خلفاء بنى العباس. ومما يستلفت النظر أن أهل الشام انصرفوا عن بنى مروان الذين كانت فيهم الخلافة إلى السفيانيين الـــذين كانوا قد أزيلوا عنها، وذلك أن المكـــانة التي وصل إليها أبو محمد السفيانى بعد مقتل الوليد بن يزيد على الفور، لم تكن ترجع إلى صفاته الشخصية، بل كانت ترجع إلى أنه لم يكن من أبناء مروان بن الحكم وعبد الملك، بل من أبناء معاوية ويزيد ابنه. وهو لم يشتهر باسمه الخاص به بل بنسبته إلى بيت أبي سفيان، فكان يسمى السفياني، بإطلاق هذه التسمية. ولم يخف شأنه بموته، بل هو زاد، فكان السفياني يعتبر في أول الأمر، عند أهل الشام، المهدى المنتظر، وكان أهل الشام يعلقون آمالهم السياسة على عودته إلى الظهور من جديد. وفي آخر الأمر، لما آلت الرياسة إلى أعداء أهل الشام، صار يقال إن السفياني هو الرجل الذي سيظهر قبل ظهور المسيح الدجال، وعلى هذا فإن شبح بيت الأمويين قد بقى بعد سقوطهم أحد مظاهر اقتراب نهاية الدنيا(١).

٥ ـــ وسمى العباسيون حكومتهم باسم الدولة، أعنى العهد الجديد(٢). والواقع أن الانقلاب الذي كان قد تم في ذلك العصر كان هائلاً.

وبسقوط بنى أمية اندحر أهـــل الشام أيضاً إلى الوراء، وقد كانوا قبل ذلك قد أسلموا مروان بن محمد الذي كان بغيضاً إليهم، إلى مصيره المقدر له. وهم

---

(١) راجع كتاب Snouck Hurgronje, *Mahdi*, p. 11 ومجلة DMZ، سنة ١٩٠١ ص ٦٩٠ فما بعدها.

(٢) الطبري جـ ٣ ص ٨٥ س ١٦ وص ٩٦ س ١٩ ص ١٤٥ س ٩، وأبناء الدولة هم أهل خراسان الذين كانوا في خدمة بنى العباس، وكتاب الدولة ـــ الطبري جـ ٣ ص ٤٩٧ س ١ ـــ اسم لكتاب كانت فيه نبوءات عن مستقبل بني العباس. أما فيما بعد فإن كلمة الدولة أصبحت تدل بوجه عام على الأسرة المالكة، أو على المملكة. ويوجد شبيه لذلك في تغير معنى كلمتى نوبة وعقبة (Hudh. 47, 38)، ولكن المعنى الأصلى للكلمة ظل باقياً إلى جانب ذلك، فكان يقال مثلا: صار المال دولة، أي انتقل من يد إلى يد أخرى.

لم يهبّوا لمقاتلة بنى العباس قبل فوات الوقت المناسب، وهم بعد ذلك لم يستطيعوا أن يغيروا الموقف، فانتصر السواد وفقد البياض ملكه. ولكن أهل الشام ظلّوا في الحقيقة على محبتهم لأسرتهم السابقة[١]، وقد عبروا عن ذلك بالفعل أيضاً، ولكن جهودهم ذهبت سدىً؛ لأنه كان يعوزهم التنظيم، ولم يبصروا الحقيقة إلا فيما بعد، وهي أن القضية كانت قضيتهم وأنهم هم الذين خسروا، فانتقل مقر الحكومة من دمشق إلى الكوفة، ثم انتقل بعد ذلك إلى بغداد، وفقدت الشام سيادتها، وتحررت العراق من نير السيادة الأجنبية بعد أن ظلت تحاول أن تطرحه عن عاتقها مائة عـــام فذهبت جهودها سدىً. وبدى الآن أنها قـــد استعادت السيادة التي كانت لها في أيام علي بن أبي طالب. وقد صرح بنو العباس في وصف نزعتهم السياسية بأنها عراقية مضادّة للسياسة الشامية.

ولكن انتهت في الوقت نفسه سيادةُ العرب بالمعنى الحقيقي، تلك السيادة التي كان يمثلها بنو أمية وأهل الشام، وخرب وطن العرب القديم، وأوحش إيحاشاً تاماً، حتى صار الحج غير آمن، ولم تصبح القبائل العربية هي العناصر التي تتكون منها الدولة التيوقراطية. وفقدت القبائل مكان الصدارة فقداً تاماً، وتحرر الموالى، وزال الفارق بين المسلمين من العرب ومن غير العرب. وبعد أن نُحّيت العروبة عن مكانها الذي كان يستند في الأصل إلى قانون الحرب، هذا القانون الذي لم يكن فيه محل لغير العرب، تراجعت العروبة إلى الميدان المدنى المسالم، وصارت حضارة عالمية يشترك فيها كل المسلمين ــ وكان أساس تلك الحضارة هو الدين. ولكن دين العرب لم ينهدم بانهيار الأمة العربية، بل هو ازداد قوة، وظلت اللغة العربية لغة الإسلام وابتلعت لغات أهم الأمم النصرانية في

---

(١) ومن الطريف تلك الأخبار التي ذكرها الطبري (جـ ٣ س ٢١٦٤ فما بعدها)، وكانت الذكريات تتصل بمعاوية خاصة، وقد رأينا أن قبره ظل يزار إلى ما بعد وفاته بقرون.

آسيا القريبة وإفريقية، وإلى جانب ذلك رسخت قدمها بين الكتاب والعلماء من أهل إيران، أما شعرهم فقد ظل باللغة الإيرانية وبلغ بها مكانة رفيعة.

بل قد رجح شان الموالى على شأن العرب، لا بوجه عام بطبيعة الحال بل من بعض الوجوه. وكان أهل خراسان قد أعانوا العباسيين على النصر، فقاسموهم الغنيمة، وصاروا من وجه ما، هم الورثة لسلطان أهل الشام، وإن كان موقفهم من رئاسة الدولة موقفاً غير موقف أولئك. فكانوا يسمون الشيعة والأنصار، أو أبناء الدولة[١]، وكانت في يدهم القوة الظاهرة، وكانوا منظمين تنظيما حربياً، وكانت في أيديهم مناصب القيادة، واستطاع قوادهم أن يظهروا بمظهر السادة الكبراء. وكان يتألف منهم الجيش المرابط حول الخليفة، وكان الخليفة يقيم بين حرسه هذان هذا ولم يكن ابتناء بغداد في الحقيقة لكي تكون حاضرة عالمية، بل لتكون معسكراً لجند خراسان. وقد أراد الخليفة أن يقيم في هذا المعسكر بعيداً عن الكوفة. ولكن أهل خراسان كانوا، وهم في معسكرهم، على صلة بوطنهم، ثم صار رُجْحان شأنهم، من حيث هم حزب وجيش في خدمة بنى العباس، رُجحاناً لأمتهم وبلادهم، أي أن الكفة الراجحة صارت لبلاد العجم الشرقية، وانتصرت العجمة (الإيرانية Iranismus) على العروبة تحت ستار الإسلام، لا باعتباره ديناً للعرب، بل ديناً للأمم.

وقد تغيرت بتغير الأسرة الحاكمة طريقةُ الحكومة الداخلية أيضاً. أما إن النفوذ الفارسي كان هو الراجح في ذلك فهو غير مؤكد، فأما الذي لا شك فيه فهو أن نظام الحكم الداخلى لم يصبح عربياً على الإطلاق، وكان العرب بحكم أنهم الأمة الفاتحة قد أصبحوا طبقة أرستقراطية حاكمة، وكانت شبكة القبائل بما كان بينها من أنساب تمتد في الظاهر على البلاد التي تكونت منها دولةُ العرب، وظل

---

(١) قارن إنجيل متى، الأصحاح السابع عشر، الفقرة الخامسة والعشرين.

هذا النظام القديم موجوداً في خطوطه الكبرى أيام الأمويين، وإن كان قد تبين بعد قليل أنه نظام لا يمكن الاحتفاظ به في أيام بنى العباس فقد زال هذا النظام بزوال ما كان يستند إليه من فوارق بين الطبقات، ولم يكن بنو العباس، كما كان الأمويون قبلهم، يقفون على رأس طبقة أرستقراطية واسعة النطاق وينتسبون إليها؛ وذلك أن أهل خراسان الذين كان بنو العباس يستندون إليهم لم يكونوا بمثابة عصبية لبنى العباس أساسها وحدة الدم والاشتراك في النسب، بل كانوا مجرد أداة لهم. وكان جميع المسلمين أمام بنى العباس سواء، ليس بينهم تفاوت طبيعي في الحقوق السياسية، وكان للعباسيين وحدهم الحق المقدس في الرئاسة باعتبار أنهم ورثة النبي [عليه السلام]، ولم يكن أمامهم عقبات في سبيل تنظيم الحكومة طبقاً للاعتبارات الفنية، التي يبدو أنها تلائم طبيعة الأشياء وتلائم مصلحتهم الخاصة، فأصلحوا من نظام الإدارة إصلاحاً كبيراً وأصلحوا خاصة نظام الخراج والقضاء. وقد أبدوا عناية كبيرة في الاستماع إلى شكوى من يلجأ إليهم باعتبارهم السلطة العليا وفي إزالة أسباب هذه الشكوى. ولكن بنى العباس أخمدوا في الناس روح الاهتمام بمسائل السياسية، بعد أن كان هذا من قبل جزءاً من الدين، وأفلحوا في إضعاف هذا الاهتمام أكثر بكثير مما أفلح الأمويون؛ فأصبح المسلمون جميعاً، العرب منهم وغير العرب، مجرد رعايا، ولم يكونوا يستطيعون أن يأخذوا بنصيبهم في تدبير الأمور العامة للدولة، فاندحروا إلى ميدان الصناعات أو الاشتغال بالعلوم والفنون، ولم يكونوا يستطيعون أكثر من التآمر سراً. وانكمشت الدولة حتى أصبحت مقصورة على بلاط الخليفة، وكان يحيط بالخليفة في أول الأمر عدد كبير متنوع من الخدام من الأمتين العربية والفارسية، ثم أصبح محوطاً بطائفة كبيرة جداً أيضاً من أبناء الأسرة من الهاشميين. ولكن كان ينتمي لبلاط الخلافة إلى جانب ذلك الجيشُ أيضاً، وكانت نواة الجيش متجمعة دائماً في مقر الخليفة، فكانت بغداد من هذا الوجه لا تختلف عن مدينة الرسول

فحسب، بل عن دمشق أيضاً. وكان في بلاط الخليفة بعد هذا عددٌ كبير من الموظفين المدنيين ليسوا من قواد الجيش، ومعظمهم كانوا صنائع للخليفة وأصحاب حظوة عنده، وكانت غالبيتهم من الموالى، وكان لهم في أول الأمر تأثير من طراز تأثير أهل البطانة والمشورة الخاصة، ثم وصلوا بعد ذلك إلى أعلى المناصب الرسمية، وكان الخليفة يرفعهم بعد أن لم يكونوا شيئاً مذكوراً، ثم يخفضهم فلا يجعل لهم شأناً. وكانت الكوارث والدسائس التي تؤدي إلى ذلك شيئاً جارياً في بلاط الخليفة، وكان الخليفة لا يقرّب إليه رجالاً من ذوى النباهة، لهم شأنهم ونباهتهم التي لا ترجع إلى مجرد المنصب، إلاَّ على كره منه، ولم يكن العباسيون يهتمون بالأرومة والنسب حتى فيما يتعلق بنسائهم، فلم يكن كرم المحتد هو السبيل إلى الرفعة، بل كان الخليفة هو الذي يرفع من يشاء، فكان يمنح المكانة والجاه والكرامة بأنواع الكسى والحلل المميزة (الطراز)، فكان الخياطون والذين يوشّون الحلل يجدون ما يشغلهم. وقد حل محل الأرستقراطية السابقة موظفون في بلاط الخليفة بعضهم فوق بعض، وكان بعضهم يتميز عن البعض ويشرف على عمله، وكان على رأسهم وزير يدير الديوان، وقد صار هذا الوزير في عصر متأخر هو الممثل المرئى للخليفة غير المرئى، بحيث صار الخليفة لا يظهر على المسرح إلا أشبه بممثل بين حين وآخر، وصار يوضع على عرش الخلافة بعد عاصفة من النزاع والتوتر الشديد. ثم أخذ يظهر شيئاً فشيئاً نظامٌ يجعل أمراء الأمصار ينيبون عنهم من يدبر أمور الولايات التي تسند إليهم، أما هم فكانوا يقيمون في بلاط الخليفة، خصوصاً إذا كان لهم ما يميزهم من انتساب إلى بيت الخلافة. وكان صغار الموظفين في الديوان من اليهود والنصارى؛ وكان من السهل أن يجلبوا على أنفسهم بعض جمهور المسلمين وحسدهم، وربما كان السيّاف هو أبرز شخص بين الموظفين في بلاط الخليفة بعد الوزير، ولم يكن

العرب يعرفون هذا السيَّاف، ولا كان للأمويين سيَاف. أما بنو العباس فلم يكن لهم عنه غنىً، وكان النطع[١] الذي يوضع إلى جانب كرسي الخلافة ويقوم مقام خشبة الصلب من شارات الخلافة، وكان القتل الذي ينفذ على الفور، وكذلك تعمُّد التعذيب القاسي، مما يزيد في الرهبة من جلال الخلافة. وإذا كان العباسيون قد فعلوا ذلك فهم إنما كانوا يحذون حذو الفرس، وذلك أن شاه الفرس كان له الحق في أن يقتل رعاياه أو يبقيهم على قيد الحياة. وكذلك قلد العباسيون الفرس في اتخاذهم للمنجِّم الذي كان للبلاط، فكان يُسأل فيما يراد الشروع فيه من الأعمال الهامة، بل كان يصحب الجيش في الحملات الحربية. وأخيراً يجب التنبيه إلى أن استعمال عمال البريد كان من مميزات حكومة بني العباس، وكان أصحاب البريد في الأمصار بمثابة حواس مرسلة من دار الخلافة إلى جميع النواحي، وكانوا يُختارون من بين أهل الثقة، وكانوا أيضاً عيوناً تراقب أمراء الأمصار دون أن يشعروا. فكان البريد في خدمة الجاسوسية، وكان نقل الأخبار في تلك الدولة المترامية الأطراف منظماً أحسن تنظيم، حتى نجد الطبري في أواخر كتابه لا يكتفى بذكر تاريخ الحوادث، بل هو يهتم بأن يذكر تاريخ بلوغ أخبارها إلى دار الخلافة.

وأهم ما يميز بين العهد الجديد وبين العهد القديم هو العلاقة بين الدولة وبين الدين، فكان العباسيون يستندون في حقهم في الخلافة إلى أنهم جعلوا كلمة الإسلام هي العليا بعد أن عطل الأمويون أحكامه في زعمهم، وكانوا يقولون إنهم يريدون إحياء السنة النبوية التي قد درست، فدعوا علماء الشريعة من المدينة، وكانت مَقَرّاً لهم حتى ذلك الحين، إلى بغداد وكانوا دائماً يسألونهم رأيهم، وذلك بأن كانوا يحرصون على وضع المشكلات السياسية في ثوب فقهى

---

(١) الأنطاع هي فرش تتخذ من الجلد، كان يوضع عليها من يراد قتله.

ويعملون على أن يكون الحكم فيها طبقاً للقرآن والسنة. أما الحقيقة فهي أنهم كانوا يستغلون الإسلام في أغراضهم الخاصة، وكانوا يربون علماء الشريعة في قصورهم، وكانوا يحصلون منهم على الإفتاء بصحة أشد الإجراءات بعداً عن الحق. وهكذا تخلص العباسيون من متاعب المعارضة من جانب أهل الديانة بأن ساعدوهم على النصر وجعلوهم مرجعاً لهم. ولما كانت معارضة أهل الديانة قد وصلت بإسقاطها حكومة الأمويين إلى غايتها فهي تستطيع الآن أن تطمئن، وذلك أن السياسة قد أصبحت في أيد أمينة، وليس على المسلمين بعد هذا أن يشتغلوا بها. ولما كان قد تحقق قيام الدولة التيوقراطية فيجب أن يزول مبدأ الثورة على السلطة القائمة. وقد أفلح العباسيون في أن يوجهوا الرأي العام هذه الوجهة، وقد ساعدهم على ذلك حاجة أهل ذلك العصر إلى الراحة بعد ثورات وحروب لم تنقطع، وذلك أن العرب كانوا قد استفرغوا في القتال كل طاقة كانت لهم واستنزفوا دماء أنفسهم.

ويجب أن يتوقع الإنسان من العباسيين أن يحابوا الشيعة، بعد أن كانوا حلفاء لهم في أصل الأمر، ولكن العباسيين غيروا سياستهم. وبعد أن كانوا يعتبرون العلويين وأنفسهم حزباً واحداً صاروا يعادون العلويين تفادياً لأطماعهم. وكذلك نبذ العباسيون خاصة أنصارهم، وهم الشيعة الغلاة (الراوندية) الذين كانوا منتشرين في فارس بنوع خاص. وعلى هذا فإن العباسيين فيما يتعلق بالدين قد انصرفوا عن الفرس إلى العرب، وتنركوا لأصل نشأتهم في طرف من الدولة بعد أن استقروا في وسطها وأصبحت في أيديهم السيادة على أرض الدولة كلها، وانقادوا لمذهب الجماعة التي ليس لها آراء خاصة، بل تأخذ الدين بالقبول على أنه مأثور منقول، وتكتفي بالمأثور المنقول الذي ينظم الحياة العامة لجميع الناس على نحو واحد من طريق أداء العبادات وتطبيق أحكام الشريعة.

على أن العباسيين من هذه الوجهة ساروا في الطريق الذي سار فيه الأمويون، رغم ما يبدو خلافاً لذلك، غير أنهم كانوا أشد من الأمويين تمسكاً بما عليه الجماعة وأشدَّ ضرباً على أيدي الفِرَق التي تنحرف عن مذهب الجماعة وتفسد الوحدة الدينية والسياسية. ولما كان العباسيون ورثة الرسول [عليه السلام] فإنهم استفادوا أكثر مما استفاد الأمويون من الفكرة القائلة بأن واجبهم لا يقتصر على النهوض بأعباء الرياسة الدنيوية بل هو يشمل الرياسة الروحية، أعنى الإمامة. وعلى حين أن أكبر ما اعتمد عليه الأمويون هو القومية العربية، فإن بنى العباس أقاموا سيادتهم على الدين وعلى حرس اتخذوه لهم. ويستطيع الإنسان أن يصف خلافتهم بأنها سيادة الدولة على الدين (Gäsareopapie). وقد استعملوا من يطارد الزنادقة؛ وأنشأوا نظاماً في امتحان عقائد الناس، وذلك بقصد تعقب الزنادقة في أول الأمر، ويظهر أن هؤلاء كانوا من نابغة الشيعة الغلاة في فارس.

وكذلك آل أمر أهل خراسان إلى أن صاروا فيما بعد قذىً في أعين العباسيين، فتخلص المنصور من وصاية أبي مسلم بعد أن أصبح غير محتاج إليه. ولم يكن للمنصور من الصفات الكبيرة ما يدانى به ما كان لأبي مسلم، ولكن المنصور عرف كيف يكيد لأبي مسلم حتى قتله. على أنه في أول الأمر لم يكن لبنى العباس من الناحية الحربية غنىً عن أهل خراسان، بل لم يمكن القضاء على أهل خراسان أو تنحيتهم جانباً، حتى فيما بعد. وقد حاول العباسيون بعد موت الرشيد محاولة من هذا النوع، ولكنها لم تؤد إلا إلى تثبيت أقدام الخراسانيين وزيادة قوتهم. وكذلك لم يفلح بنو العباس في أن يتحرروا من سلطان أهل خراسان باتخاذهم عدداً كبيراً من الجند المرتزقة من البربر والصقالبة وأهل السغد والترك وتسليحهم وتنظيمهم للاستعانة بهم على الخراسانين. وكل ما أفلحوا فيه لا يعدو أنهم أوقعوا أنفسهم تحت رحمة هؤلاء المماليك واستبدادهم، خصوصاً

الترك من بينهم، وانتهى الأمر بأن فقد العباسيون كل حول وقوة وانحلّت دولتهم.

وقد احتفظ الأعاجم بمركزهم الذي جعلهم أصحاب السلطان في الدولة نحواً من قرنين. ولكنهم لم يستطيعوا، على مرور الزمان، أن يحتفظوا بسلطانهم في وطنهم، ولم يستطيعوا أن يصدوا تقدم الترك في أرض ما وراء النهر وفي طخارستان وخراسان، هذا التقدم الذي كان العرب قد ردوه ووقفوا سداً منيعاً في سبيله حقبة من الدهر. وهكذا صار الترك آخر الأمر ورثة الدولة الإسلامية، بعد أن كانوا قد عششوا فيها مماليك من قبل. ويستطيع الإنسان بالإجمال أن يعتبر المغول منهم، هؤلاء المغول الذين لم يتوطنوا على كل حال في بلاد الإسلام توطناً حقيقياً، بل اجتاحوها كالعاصفة المدمرة دون أن يتركوا وراءهم سوى آثار الخراب.

(انتهى الكتاب بحمد الله)

فهرس الأشخاص

(خ)

(د)

(ش)

(ص)

(ي)

فهرس الأماكن والمواضع

(ش)

فهرس الموضوعات والمواد

(ب)

(ت)

(ث)

(ك)

(ن)

(هـ)

(و)

(ي)